تاريخ
أهل الذمة في العراق

(١٢ - ٢٤٧ هـ)

تأليف
الدكتور توفيق سلطان اليوزبكي
كلية الآداب - جامعة الموصل



للطباعة والنشر
١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م

تاريخ أهل الذمة في العراق
(١٢ - ٢٤٧هـ)



تاريخ أهل الذمة في العراق

(١٢ - ٢٤٧ هـ)

تأليف
الدكتور توفيق سلطان اليوزبكي
كلية الآداب - جامعة الموصل



للطباعة والنشر
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

ص. ب. ١٠٥٠ ـ هاتف ١٢١ ٧٧٧ ٤
الرياض ـ المملكة العربية السعودية

الطبعة الأولى
١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م

شكر وتقدير

يسرني أن أتوجه . بالشكر والتقدير لأستاذي الجليل الدكتور عبد المنعم ماجد المشرف على أطروحة الدكتوراه . لما قدمه لي من توجيه وإرشاد عند إعدادي لها فكان لجهده الأثر المهم في الأخذ بهذا المجهود العلمي المتواضع إلى طريق الصواب والنجاح .

وأتوجه بالشكر لجميع الذين قدموا لي يد المساعدة في مراحل إعداد الأطروحة .

وأتقدم بالتقدير والعرفان لزوجتي وأولادي قتيبة وقبية وانتصار وعتبة وعقبة الذين تحملوا عبء بعدي وغربتي عنهم لأكثر من عامين فبفضلهم جميعاً استطعت أن أخرج هذا البحث العلمي إلى حيز الوجود ولن أنسى جهودهم ما حييت .

وأرجو أن أكون قد وفقت في إعداد هذه الأطروحة ، وأملي أن تكون سدت ما نحس به من ثغرات في تاريخ العراق في العصر الوسيط خدمة لرسالة العلم ،

والله ولي التوفيق .

توفيق سلطان اليوزبكي

نيسان (أبريل) ١٩٧٢

كلية الآداب ــ جامعة عين شمس

(القاهرة)



المحتويات

الباب الرابع
دور أهل الذمة
في الحياة السياسية والدينية في العراق

الباب الخامس
الحياة الاجتماعية والعقلية والاقتصادية
لأهل الذمة

مقدمة البحث
وتحليل المصادر

عاش أهل الذمة في العراق قبل الفتح الإسلامي، وكانوا حينذاك جزءاً من الأمبراطورية الساسانية، لذا لم نجد لهم تواريخ خاصة، وإنما كان تاريخهم جزءاً من التاريخ الفارسي، ورغم هذا فقد كانت لهم اتصالات ثقافية وحضارية بأمم وشعوب مجاورة ذات حضارات عريقة فقد أتاح لهم الفتح الإسلامي التفاعل الحضاري بين الحضارة العربية الإسلامية وبين ما كانوا يحملونه من حضارات الأمم المجاورة، والذي كان له أثره أيضاً على مجريات الأحداث في العراق، وخاصة في العصر العباسي حيث أسهموا في النواحي السياسية والعسكرية، وفي المناقشات الدينية، والحياة الثقافية، والاقتصادية والاجتماعية، وفي شتى المجالات مما لا يمكن الاستغناء عن دراستهم إذا ما أريد إعطاء صورة حقيقية ومتكاملة عن الدور التاريخي الذي قام به أهل الذمة في العراق.

وان ما جاء من ذكرهم في بعض الكتب ما هو إلا نتف قليلة أوردها المؤرخون على سبيل العرض لا التخصص، أو أنهم ذكروهم لعلاقاتهم بتاريخ البلاد الإسلامية، واشتراك المسلمين بها، أو نتيجة انعكاس الجانب السلبي من حياتهم في مواقفهم من المسلمين، وفي حركاتهم السياسية والدينية التي كان لها خطرها على الإسلام والدولة العربية. لذا فقد أولينا المصادر القديمة ذات العلاقة الأهمية البالغة في الاعتماد عليها، واستقصاء أخبارهم منها لنستطيع أن نكوّن من هذه النصوص المتفرقة مادة البحث.

ويبدو أن عدم الاهتمام من جانب المؤرخين لتأريخ أهل الذمة يعود إلى ميل المسلمين إلى عدم الالتفات إلى معتقدات الذمّيين لأن عقائدهم تتعارض مع ما جاء به الإسلام كالمجوسية والصابئية، أو بسبب انعزال أهل الذمة وعدم قبولهم اطلاع المسلمين وغيرهم على عقائدهم وتقاليدهم وكتبهم الدينية، مما تعذر على المؤرخين القدامى الإلمام بعقائدهم وشعائرهم وتقاليدهم الدينية، وهذه الظاهرة تبدو واضحة جلية بالنسبة للصابئة إذ أن دينهم يحرم اطلاع الغير عليه، كما أن كتبهم المقدسة مدونة بلغة يصعب على المؤرخين العرب المسلمين معرفتها كالفهلوية عند المجوس والمندائية عند الصابئة، والسريانية عند النصارى، والعبرية عند اليهود.

ويرى البعض من أهل الذمة ولا سيما الصابئة عدم اطلاع المسلمين على عقائدهم مما يساعد على حفظ استقلالهم وكيانهم عن المسلمين.

وقد اهتم بعض المؤرخين العرب بدراسة عقائد أهل الذمة، وأحوالهم الاجتماعية في العصر العباسي عندما برزت أخطار عقائدهم وأفكارهم الدينية على الإسلام، مما اضطروا إلى دراستها، وتدوينها لتوضيح خطرها على الدين والمجتمع، وعندما أخذت هذه الطوائف الدينية من الذميين تهاجم الإسلام مستخدمة في ذلك الفلسفة والمنطق اليوناني فاضطر المسلمون من فقهاء ومحدثين ومؤرخين وأدباء إلى دراسة عقائدهم الدينية، ودراسة الفلسفة اليونانية للرد على خصومهم الذميين، وعلى أهل البدع والنحل المارقة عن الإسلام، وكان أبرزهم الشهرستاني (ت ٥٤٨ هـ/١١٥٣م) في كتابه (الملل والنحل) وابن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦ هـ/١٠٦٣م) في (الفصل في الملل والأهواء والنحل) والبغدادي (ت ٤٢٩ هـ/١٠٣٧م) في (الفرق بين الفرق) والرازي (ت ٦٠٦ هـ/١٢٠٩م) صاحب كتاب (اعتقادات فرق المسلمين والمشركين) والغزالي (ت ٥٠٥ هـ/١١١١م) في كتابه (فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة) وابن القيم الجوزية (ت ٧٥١ هـ/١٣٥٠م) صاحب كتاب (أحكام أهل الذمة في الإسلام) وكذلك الرسائل التي كتبت في الرد على طوائف أهل الذمة.

وما ورد في الكتب المخطوطة من روايات ونصوص تاريخية بحثت في جوانب معينة من حياة أهل الذمة، فقد ورد في الرسالة المخطوطة المودوعة في دار الكتب المصرية «المكتبة التيمورية» برقم **٢٢٥٢** تاريخ، ونسخة منها مصورة بمعهد المخطوطات في الجامعة العربية لابن زير القاضي باسم (الشروط العمرية على أهل الذمة) وهي رسالة صغيرة تناولت صورة العهد الذي سمي بعهد عمر بن الخطاب لأهل الذمة كما أشار مؤلف مجهول في رسالته بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية والموسومة (مرسوم بعض الملوك الصلاحية في إلزام أهل الذمة بالشروط العمرية) وقد جاء فيها العهد أيضاً بالإضافة إلى عهد المتوكل لأهل الذمة وما فرضه عليهم من الزي وغيره. وما كتبه ابن النقاش في كتابه (المذمة في استعمال أهل الذمة) والموجود بدار الكتب المصرية برقم **١٦٩٣** فقه شافعي، والمصّور بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية برقم **٤٦٥**/تاريخ، والذي يؤكد على الولاة والعمال بوجوب عدم استخدام أهل الذمة في أمور المسلمين. وأشار مصطفى الحنفي في كتابه (جلاء الظلمة عن حقوق أهل الذمة) والمحفوظ بدار الكتب المصرية «المكتبة التيمورية برقم **٣٢٤**/عقائد، إلى إجراءات الخلفاء في أهل الذمة، وفي تحديد حقوقهم، وحرياتهم التي منحها المسلمون لهم، وكتب أيوب صبري (رسالة في الرد على النصارى) والمحفوظة أيضاً بدار الكتب المصرية «المكتبة التيمورية» برقم **١٠٥**/عقائد، فجاءت هذه المخطوطات بنصوص وروايات ذات أهمية كبيرة، فقد انفرد بعضها بروايات لم تذكر في غيرها، ومنها ما كانت مكملة ومؤكدة للروايات في المخطوطات الأخرى، وقد ألقت هذه المخطوطات وسواها ــ الوارد ذكرها في فهرست البحث ــ الضوء على أحوال أهل الذمة، وإجراءات المسلمين، ومواقف الإسلام منهم. وجاء في الرسالة المخطوطة[1] ــ المجالس السبعة ــ المتبادلة بين الوزير المغربي العباسي وبين المطران إيليا النصيبي، والتي تتضمن دعوة الوزير العباسي للمطران إيليا إلى الإسلام، بأسلوب يوضح سياسة التسامح الإسلامي مع أهل الذمة، إلا أن جواب المطران إيليا يدل على حقده على الإسلام، وهي

---

(١) الرسالة المخطوطة: **المجالس السبعة** من مقتنيات سعيد الديورجي، الموصل.

بطبيعة الحال تمثل وجهة النظر المسيحية في الإسلام آنذاك، وقد حاول المطران في رسالته أن يؤكد ربوبية المسيح، وأن يبرىء النصارى. من تهمة الإشراك مدافعاً عن مبدأ التثليث، وإظهار الدين المسيحي بمظهر الدين التوحيدي.

وقد ورد في كتب الفقه والحديث، وفي كتب الأصول والأحكام مسائل واجتهادات فقهية بشأن معاملة أهل الذمة، في مختلف مجالات الحياة التشريعية، كالمعاملات (البيع والشراء والإيجار وغيرهم) وفي الحياة الاجتماعية كالزواج والطلاق، وفي اقتناء العبيد والجواري، وفي حقوق أهل الذمة وواجباتهم في ظل الدولة الإسلامية.

وقد عالجت كتب الأحكام المسائل المتعلقة بأهل الذمة، وهي أمور دقيقة وخطيرة، فقد استقت كتب الأحكام هذه مصادرها من كتب الفقه، وأكثروا في تفصيلات حقوق الذميين، وواجباتهم، فقد ألف بعضهم مجلدات عديدة في أهل الذمة منهم أبو بكر الخّلال في كتابه (أحكام أهل الملل)[1] وقد امتاز كتاب ابن القيم الجوزية (ت ٥٧١ هـ/ ١٣٥٠م) (أحكام أهل الذمة في الإسلام) عن كل ما سبقه بالدقة والعمق والشمول فكان أول كتاب جامع في بابه، فقد تناول المسائل الفقهية في معاملة أهل الذمة في الشؤون المالية، وفي أحكام الزواج، والمهور، والمواريث، وأحكام البيوع، والكنائس، والأزياء، والعمل في وظائف الدولة الإسلامية، وذكر العهد الذي نسب إلى الخليفة عمر بن الخطاب، وأشار إلى الصابئة، وطوائف اليهود، وأورد الأحاديث التي تدعو إلى الرفق بهم وحسن معاملتهم، ومع هذا فقد تشدد ابن القيّم في (أحكامه) معهم. ويبدو أن عصره الذي ساد فيه التعصب الديني والمذهبي اللذين أذكت نارهما الحروب الصليبية التي استمرت قرنين (٤٩٠ ـ ٦٩٠ هـ) وما خلّفته من تدمير للبلاد، وقتل للأنفس من المسلمين، دفعة إلى المغالاة في منع الذميين من استعمالهم في ولايات الدولة ومرافقها[2] ويقول المحقق صبحي الصالح: ويبدو أن سبب

(١) صرح ابن القيّم الجوزية بهذا الكتاب أكثر من مرة واعتمد على نصوصه (أحكام أهل الذمةص ٦٦١، ص ٦٩٢).

(٢) ابن القيم الجوزية: أحكام أهل الذمة ص ٢٠٨ ـ ٢٣٦.

التطرف لدى ابن القيّم أنه نهج نهج أستاذه ابن تيمية في تصلبه في أحكامه، في حين نجد الخليفة عمر بن الخطاب يستخدم الرحمة بهم، فقد قال عمر بعد أول حادثة صلب في الإسلام يوم أمر بصلب ذميّ، فحش بامرأة مسلمة في الشام، فقال: «يا أيها الناس اتقوا الله في ذمة محمد، ولا تظلموهم، فمن فعل فلا ذمة له»[1].

وكتب باحث معاصر بما يشبه ذلك في كتاب سماه (أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام) لمؤلفه عبد الكريم زيدان، ويقول صبحي الصالح محقق كتاب أحكام أهل الذمة في الإسلام لابن الجوزية، ومما يؤخذ على مؤلفه قوله في مقدمته: (إن أحداً من الفقهاء لم يؤلف كتاباً جامعاً في هذا الباب)[2]. ويبدو أنه أغفل الرجوع إليه رغم أهميته.

وقد تناول صاحب (أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام) علاقة أهل الذمة في الدولة الإسلامية من حيث الحقوق والواجبات، وقد خصص الباب الثاني لدراسة العقوبات على الجرائم بالنسبة لأهل الذمة والمسلمين، وبحث في الأحوال الشخصية والمعاملات، والالتزامات المالية والقضائية، وهو بحق يعتبر المرجع الثاني بعد كتاب (أحكام أهل الذمة في الإسلام) لابن القيّم الجوزية، وهما خير دستور يعوّل عليهما في دراسة أحكام الإسلام في أهل الذمة لما استوعباه من أحكام الرسول والخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين، ومن آراء الفقهاء والعلماء والمحدّثين.

ويعتبر كتاب (الأحكام السلطانية) للماوردي (ت ٤٥٠ هـ/١٠٥٨م) و(الأحكام السلطانية) لأبي يعلى (ت ٤٥٨ هـ/١٠٦٦م) من المصادر التي تناولت النظم المالية والإدارية، والأحكام الإسلامية على أهل الذمة. وقد أشار كل من أبي يوسف القاضي (ت ١٨٢ هـ/٧٩٨م) في كتابه (الخراج) ويحي بن آدم

(١) نفس المصدر السابق ص ٧٩٢.
(٢) زيدان: أحكام الذميين والمستأمنين في دار الاسلام ص ٥.

(ت ٢٠٣ هـ/٨١٨م) في كتابه (الخراج) أيضاً إلى النظم المالية في الإسلام ، وإلى الضرائب التي فرضها المسلمين على أهل الذمة.

وعلى الرغم من أن أغلب المسلمين لم يعنوا بذكر أخبار أهل الذمة إلا أن هناك ما يدل على اهتمام بعضهم بدراسة أحوال الذميين، فقد أشار الطبري (ت ٣١٠ هـ/٩٢٢م) في كتابه (تاريخ الرسل والملوك) إلى الديانات السابقة للإسلام من يهودية ونصرانية ومجوسية، وغيرها، وأشار إلى طوائفها وفرقها الدينية، وقد تبعه ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ/١٢٣٢م) في كتابه (الكامل في التاريخ) في منهاجه، واعتمد عليه في أخباره ورواياته، إلا أنه أخذ من هذه الروايات والأخبار أوثقها في نظره، وأشار إلى أحوال أهل الذمة، وموقف الحكام المسلمين منهم، كما ذكر العهود والمواثيق التي عقدها الخلفاء والقواد مع أهل الذمة في العراق وغيره. فكان ما كتبه الطبري، وابن الأثير في التاريخ موسوعات تاريخية قيّمة وكاملة.

وعالج البيروني (ت ٤٤٠ هـ/١٠٤٨م) في كتابه (الآثار الباقية عن القرون الخالية) أحوال البلاد، وأشار إلى السكان، وعاداتهم، ودياناتهم، وذكر تقاويم أهل الذمة، وأعيادهم، وطوائفهم، وفرقهم، بروح علمية مجردة من الأحقاد الدينية، وبأسلوب خال من التحيّز. وكان ابن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦ هـ/١٠٦٣م) ملمًا بالأنجيل، واللاهوت المسيحي فانتقد العقائد الدينية عند أهل الذمة، ولا سيما النصارى بما هو موجود عند المسلمين، وكتب ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ/١٤٠٥م) في مقدمته وتاريخه عن التنظيمات الكنسية، وتكلم حول الإنجيل، وراعى الدقة التامة في معالجة النظم والمعتقدات الدينية لأهل الذمة، وقد نقل كثيراً عن الكامل لابن الأثير. وأشار القلقشندي (ت ٨٢١ هـ/١٤١٨م) في كتابه (صبح الأعشى) إلى أعياد الذميين، وعاداتهم الاجتماعية السائدة، كما أشار إلى عهود التولية للجثالقة النصارى. ولم يكن المقريزي (ت ٨٤٥ هـ/١٤٤١م) في كتابه (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) أقل كلاماً منه في ذكر الأعياد عند اليهود والنصارى، ويورد السعودي (ت ٣٤٦ هـ/٩٥٧م) في كتابيه (مروج الذهب) و(التنبيه والاشراف) أخباراً

كثيرة عن أهل الذمة، فأشار في التنبيه عن قصة الترجمة السبعينية للتوراة، وذكر المجامع الكنسية وفرق مذاهب أهل الذمة، ويبدو أن له اطلاعاً واسعاً على كتب اليهود والنصارى، وظهر ذلك واضحاً في كلامه عن الأنبياء، فلما تحدث عن نوح مثلاً قال: (ووجدت في التوراة أن نوحاً عاش بعد الطوفان ثلاث مئة وخمسين سنة)[1] وهي عبارة مترجمة حرفياً عن الإصحاح التاسع من سفر التكوين، وتحدث عن التوراة بقوله:)وأنزل الله على موسى عشر صحف فاستتم مئة صحيفة، ثم أنزل الله عليه التوراة بالعبرانية، وفيها الأمر والنهي، والتحريم، والتحليل، والسنن، والأحكام، وذلك في خمسة أسفار)[2].

وحوى كتاب الفهرست لابن النديم (ت ٣٨٥ هـ/ ٩٩٠ م) معلومات وافية عن اليهودية والنصرانية، حصل عليها من مراجعته لبعض المصنفات، التي وجدها في خزائن الكتب اليهودية والنصرانية، ومن بعض علماء اليهود والنصارى الذين تحدث إليهم وأخذ منهم، فتحدث في الفصل الأول (الفن الأول من المقالة الأولى)، عن لغات الأمم من العرب والعجم، وتكلم عن القلم السرياني، والعبراني، والرومي، وكتب في (الفن الثاني من المقالة الأولى)، عن الصابئين، وتناولَ الكتب الدينية كصحف ابراهيم، والتوراة، والانجيل)[3]. وقد وصف القزويني (ت ٦٨٢ هـ/ ١٢٨٣ م)، في كتابه (آثار البلاد وأخبار العباد)، بلاد العرب، والفرس، والروم، وتكلم عنهم، وأشار إلى عقائدهم ودياناتهم ومما يؤاخذ عليه أنه نقل أخباراً، وحكايات كثيرة، عن الرواة الذين كانوا يوردون الخرافات، والأساطير دون تمحيص وتدقيق، فكان يقبلها على علاتها، ومع هذا فالقزويني من علماء التاريخ والجغرافيا الأقدمين. ويعتبر كتاب (الأخبار الطوال) للدنيوري (ت ٢٨٢ هـ/ ٨٩٥ م)، من المصادر التاريخية المهمة في دراسة تاريخ أهل الذمة، فقد تناول الحياة السياسية والدينية

---

(١) المسعودي: مروج الذهب ج ٢، ص ٣١.

(٢) نفس المصدر السابق ج ٢، ص ٣٩.

(٣) جواد علي: علم ابن النديم باليهودية والنصرانية. ص ٨٤، مجلة المجمع العراقي م ٨ لسنة ١٩٦١ م.

والاجتماعية عند الفرس، وتابع تدوينه للحوادث التاريخية، عن الدولة العربية الإسلامية حتى نهاية خلافة المعتصم العباسي.

وقد زودنا الدنيوري بأخبار هامة، عن الحركات المجوسية الدينية منها، والسياسية في العصر العباسي الأول، والدنيوري فارسي الأصل استطاع أن يعالج تاريخ بلاده، وبعد إسلامه كان يفخر بعظمة الإسلام، وأمجاد العروبة، وأصبح إماماً من أئمة العلم، والأدب والتاريخ واللغة. وأما الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ/ ٨٦٨ م) فقد تناول في إحدى رسائله الثلاث الرد على النصارى، كما تناول في كتبه (البيان والتبيين) و (الحيوان) و (التاج)، نظم ورسوم الدولة العباسية، وذكر في كتبه عهود الخلفاء، والأمراء وحفلاتهم الرسمية والشعبية، كما صوَّر سياساتهم، ومدى التأثير الفارسي في الحضارة الإسلامية، وأشار إلى العادات الفارسية، والرسوم السياسية، وردَّ في كتبه على الشعوبية، والزنادقة، وبينّ أساليبهم، وأخطارهم على الإسلام، وهو بهذا يعد بحق مفخرة من مفاخر الكتّاب المسلمين، بما تضمنه من صدق الأخبار، وتصوير الحقائق، بالإضافة إلى أسلوب التعبير والتفكير، حيث كان يجانس بين آداب الفرس وأحوالهم، وسياسات ملوكهم، وبين ما يماثل هذه الأحوال، والسياسات عند العرب المسلمين، وذلك على سبيل المقارنة، والاستطراد اللذين هما من أخص سجاياه.

وأغلب من كتب من النصارى، كانوا من الرهبان والقساوسة الذين عاشوا في الامبراطورية العربية، منهم البطريرك سعيد بن بطريق (ت ٣٢٨ هـ/ ٩٣٩ م)، صاحب كتاب (التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق)، وقد تناول فيه أخبار العرب والروم والفرس، واهتم بذكر تاريخ الكنيسة في المشرق. وكذلك غريغوريوس أبي الفرج المعروف بابن العبري (ت ٦٨٥ هـ/ ١٢٨٦ م)، وكان له اطلاع واسع بالعربية والسريانية واليونانية، وقد ألّف كتابه المشهور (تاريخ مختصر الدول)، الذي يعتبر من المصادر العلمية الثمينة في تاريخ اليهود، ومن عاصرهم من الكلدانيين، والفرس، واليونان، وقد تناول المؤرخ دول ملوك العرب المسلمين حتى سقوط بغداد على يد المغول،

وأن ما رواه من الأخبار والوقائع، والسّير، والتراجم يدل على خبرة ومعرفة، وذلك من مقارنتها بالحوادث، والوقائع التي أشار إليها الطبري، وابن الأثير، وأبي الفداء، والمسعودي، وابن خلدون، وابن الطقطقي وغيرهم.

وقد ذكر اليعقوبي (ت ٢٨٤ هـ/ ٨٩٧ م) في (تاريخه) مقتبسات من الانجيل، وأخباراً عن النصارى. ويعد كتاب (الفصل في الملل والأهواء والنحل) لابن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦ هـ/ ١٠٦٣ م)، الذي بحث فيه عقائد أهل الذمة وطوائفهم، كاليهودية، والمسيحية، والمجوسية، والفرق الدينية الاسلامية، من المصادر التي أوردت معلومات ثمينة، وقد اتخذ في عرضها أسلوب التحليل العلمي الدقيق، إلا أن استعماله الألفاظ الغليظة، وأسلوب الشتم أبعده عن الروح العلمية المعروفة في التدوين التاريخي.

وأما كتاب (الفرق بين الفرق) لأبي منصور بن محمد البغدادي (ت ٤٥٩ هـ/ ١٠٣٧ م)، فقد جمع فيه كل فرق أهل الذمة، والفرق الإسلامية، وبينّ آراء ومعتقدات كل منها، ويعتبر كتاب (الملل والنحل) للشهرستاني (ت ٥٤٨ هـ/ ١١٥٣ م)، من المصادر المهمة لدراسة عقائد أهل الذمة، وكتبهم المقدسة، وأعيادهم، ومراسيمهم الدينية، وقد امتاز بجودة الفهم، والاستقصاء في البحث، والبعد عن التحيّز، والإنصاف في إصدار الأحكام، وكتابه بمثابة دائرة معارف مختصرة لدراسة الأديان والفرق والمذاهب.

وتناول فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦ هـ/ ١٢٠٩ م) في كتابه (اعتقادات فرق المسلمين والمشركين) الفرق الإسلامية، وفرق ديانات أهل الذمة ورتبها حسب تواريخ ظهورها، وذكر عقائدها الدينية.

وتعد كتب ابن أبي أصيبعه (ت ٦٦٨ هـ/ ١٢٧٠ م) (عيون الأنباء في طبقات الأطباء)، وابن جلجل (طبقات الأطباء والحكماء)، وابن القفطي (ت ٦٤٦ هـ/ ١٢٤٨ م) (تاريخ الحكماء)، من المصادر المهمة والمعول عليها في دراسة الحياة العلمية والعقلية لأهل الذمة، فقد أشاروا فيها إلى الأطباء،

والعلماء والفلاسفة، ورجال الأدب من الذميين، ودورهم في ازدهار حركة الترجمة والنقل من لغاتهم إلى العربية. ويعتبر كتاب (الديارات) للشابشتي (ت ٣٨٨ هـ/ ٩٩٨ م)، من أحسن المصادر التي يمكن الاعتماد عليها في ذكر أسماء الأديرة، ومواقعها، وأوصافها والأعياد التي تقام فيها، وإلى من نزلها من الخلفاء، وما كان يحدث فيها من مواسم، وما يقام فيها من احتفالات، وما كان يتخذ منها أماكن للعبادة، ومواطن لأصحاب اللذائذ، والخمور، والنزهة.

وهناك مصادر عديدة ذات أهمية ثانوية، لأنها اعتمدت إلى حد كبير على المصادر الآنفة الذكر بالنسبة لبحثنا، والتي رجعت إليها، وهي مثبتة في قائمة المراجع، ومن أهمها (الفخري في الآداب السلطانية) لابن الطقطقي (ت ٧٠٩ هـ/ ١٣٠٩ م)، و(تاريخ الخلفاء) للسيوطي (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م)، و(الوزراء والكتّاب) للجهشياري (ت ٣٣١هـ / ٩٤٢م)، و(الوزراء) أو (تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء) للصابيء (ت٤٤٨هـ / ١٠٥٦م) وغيرهم كثيرون.

وأما كتب الجغرافيا والرحلات، فقد أمدت البحث بمعلومات قيّمة عن الجوانب الحضارية لأهل الذمة، لأن هؤلاء الرحّالة كتبوا كل ما شاهدوه في رحلاتهم، وأسفارهم، فكانت صورة صادقة لما ذكروه، فابن يامين التطيلي (ت ٥٦٩ هـ/ ١١٧٣ م) مثلا، يقدم في كتابه (رحلة بنيامين) احصاءات عن عدد اليهود في العراق، وعن مناطق سكناهم فيه، وفي البلاد الإسلامية الأخرى، ويذكر أعمالهم، ومهنهم، وأحوالهم الاجتماعية.

وأما ابن جبير (ت ٦١٤ هـ/ ١٢١٧ م) فيعطي في كتابه (رحلة ابن جبير) صورة حية عن الأسواق، والنشاط التجاري، ويتكلم العمري (ت ٧٤٩ هـ/ ١٣٤٨ م) في كتابه (مسالك الأبصار)، عن النصارى والمناطق التي يتركزون فيها، وعن نشاطهم الاقتصادي، وأحوالهم الاجتماعية، ويذكر ابن حوقل (ت ٣٦٧ هـ/ ٩٧٧ م) في كتابه (صورة الأرض)، أخباراً وروايات قيّمة عن مشاهداته للبلاد وأحوال السكان، وقد امتازت كتب الجغرافيا الأخرى

(كـالمسالـك والممـالـك) لابن خـرداذبـه (ت ٣٠٠ هـ/ ٩١٢ م)، و (أحسن التقـاسيم) للمقدسي (ت ٣٧٥ هـ/ ٩٨٥ م)، و(آثـار البلاد وأخبـار العباد) للقـزويني (ت ٦٨٢ هـ/ ١٢٨٣ م)، و (معجم البلدان) ليـاقـوت الحمـوي (ت ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٨ م)، وغيرهـم بما قدمته من معلومات تاريخية وجغرافية عن الأقاليم والمناطق التي شاهدوهـا وسمعوا عنهـا، مستعرضـين فيها أحـوالها الاقتصادية والاجتماعية والدينية، وموضحين هذه النواحي عند أهل الذمة.

وتعتبر الكتب الحديثة من المراجع المهمة في دراسة تاريخ أهل الذمة، فقد كتب الكثير من المؤرخين العرب، والمستشرقين عدة بحوث ومقالات تخص أهل الذمة، تناولوا فيها أحكام الإسلام فيهم على ضوء ما جاء في وصايا الرسول، والخلفاء، واجتهادات الفقهاء، المستندة إلى أحكام القرآن الكريم، ومعتمدين عـلى روايات المؤرخـين القدامى، فكـانت لآرائهم، وتحليلاتهم للنصـوص التاريخية، وعرضهم لأحـداث ومناقشتها، أهمية كبرى في تفسير تاريخ أهل الذمة، وقد أخذت بنظر الاعتبار ما كتبه النصارى، واليهود، والصابئة بالإضافة إلى ما كتبه المؤرخين المسلمين ليكون بحثي أبعد عن الهوى والتحيّز.

ومن كتب النصارى والمستشرقين التي رجعت إليها (كتـاب: اللؤلؤ المنثور) للأب أفرام برصوم الأول الذي تناول العقيدة المسيحية، وأثر النصارى في الحياة الاجتماعية والثقافية، وقد أشار إلى التنظيمات الكنسية، معتمداً على ما توفّر لديه من مراجع سَريانية ولاتينية، أتاحت له تقديم تفاصيل دقيقة عن النصارى. كما رجعت إلى ما كتبه شابو (اللغات الآرامية وآدابها)، وشيخو عن (النصرانية وآدابها،وشعرائها)، وما ألّفه المطران أدى شير عن العقائد المسيحية، وتاريخهم وطقوسهم، وآثارهم الثقافية الأدبية، وحيـاتهم الاجتماعيـة، وقد خصص رفائيل بابو اسحق دراسة خاصة لأحوال نصارى بغداد والعراق، وتكلم عن حياتهم، ومعتقداتهم الدينية، ومواقف المسلمين منهم، وأشار إلى شعائرهم، وحياتهم الاجتماعية والثقافية، ودور المدارس في ازدهار الثقافة، وأثرهم في حركة الترجمة والنقل من اليونانية والسريانية إلى العربية في العراق.

وقد أوضح لومون الفرنسي في كتابه (مختصر تواريخ الكنيسة) عقائدهم، وفرقهم، وجهودهم في الحياة العلمية في العالم الإسلامي.

وناقش بولص الراهب في مقالته (الفرق النصرانية) عقائد الفرق المسيحية، فيما يخص طبيعة المسيح بالمقارنة مع عقيدته الملكانية، وقد اتهم هذه الفرق (اليعقوبية والنسطورية) بالكفر، والابتعاد عن المفهوم المنطقي والعقلي في تحديد طبيعة المسيح، وحاول إثبات صحة عقيدته القائمة على أساس أن للمسيح طبيعتين بشرية وإلهية موضّحاً أن المسيح ولد من بشر حي، وهي مريم، ونشأ ونمى كأي فرد من البشر، وأما صفته الإلهية فقد استند فيها إلى الأعمال التي اتصف بها المسيح كإحياء الموتى، وإبراء الأعمى والأصم والأبكم، وما هي إلا معجزات يهبها الله لأنبيائه فقط.

وقد استعرض يوسف رزق الله غنيمة في كتابه (نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق)، أحوال اليهود في العهد الفارسي، وفي ظل الحكم الإسلامي، وتناول عقائدهم، وفرقهم، وحياتهم الاجتماعية.

وكتب غيرهم كثير من المستشرقين أثناء بحثهم في الحضارة العربية الإسلامية، عن مواقف المسلمين من أهل الذمة، وقد أنصف البعض منهم في تصوير المواقف السامية، التي وقفها الحكام المسلمون تجاه أهل الذمة وفي تسامح الإسلام معهم، وقد ردّ هؤلاء المستشرقون على أولئك الذين اتهموا الإسلام، والحكام المسلمين باتباع سياسة الاضطهاد والإكراه والاحتقار لأهل الذمة، ومن أبرز هؤلاء المؤرخين المنصفين المستشرق الفرنسي الشهير غوستاف لويون في كتابيه (حضارة العرب)، (اليهود في تاريخ الحضارات الأولى). وآدم متز في كتابه (الحضارة الإسلامية)، وولهاوزن في كتابه (الدولة العربية وسقوطها)، وفان فلوتن في كتابه (السيادة العربية)، وديورانت في (قصة الحضارة)، وجولدتسهير في كتابه (العقيدة والشريعة في الإسلام)، وما كتبه أرنولد في كتابه (الدعوة إلى الإسلام)، ودوزي في كتابه (نظرات في تاريخ الإسلام)، وبارتولد في (تاريخ الحضارة العربية)، وخودابخش في كتابه

(الحضارة إسلامية)، فقد أشار هؤلاء جميعاً في كتبهم إشارات عابرة في أثناء التكلم على النظم العربية الإسلامية إلى أثر أهل الذمة في الحضارة العربية الإسلامية ومواقف المسلمين الطيبة منهم، كذلك ما كتبه المستشرق ترتون في كتابه (أهل الذمة في الإسلام)، فقد كان بحثه هذا دراسة عامة لأحكام المسلمين في أهل الذمة في البلاد الإسلامية، وأكثر ما كان قاصراً على مصر والأندلس والشام، مستعرضاً حالتهم منذ عهد الراشدين والأمويين في الشام، والأندلس والعباسيين ومواقف المسلمين منهم وقد أثنى على أحكام الإسلام والحكام المسلمين فيهم.

وممن كتب من المؤرخين المحدثين من العرب المسلمين، علي حسني الخربوطلي في كتابه الموسوم (الإسلام وأهل الذمة) فقد أشار إلى مواقف الحكام المسلمين منهم، وإلى آراء الفقهاء فيهم معتمداً على المراجع القديمة الموثوقة، ومستنداً على آراء بعض المستشرقين، فكان بحثه عاماً وشاملاً لأحوالهم في البلاد الإسلامية، ولا سيما أحكام الإسلام فيهم وموضحاً مدى تسامح المسلمين معهم، كما أشار إليهم أيضاً في كتابه (أحوال المجتمع العراقي في ظل الحكم الأموي) بصورة عابرة، ومن ضمن المجتمع الإسلامي. وإن ما جاء في كتاب (تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى)، للمؤرخ عبد المنعم ماجد خير من يوضّح لنا الطريق في دراسة العلوم والمعارف، التي نبغ فيها أهل الذمة مستنداً إلى المصادر الموثوقة وموضحاً آرائه الدقيقة في أثرهم العلمي في الحضارة العربية والإسلامية. وكذلك في كتابه (التاريخ السياسي للدولة العربية)، فقد أشار إلى أهل الذمة في خلال دراسته وعرضه للأحوال السياسية، خلال العصر الأموي.

ومن الأبحاث العربية الحديثة التي حظيت بدراسة الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في العراق، ما كتبه صالح أحمد العلي في كتابه (التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة، في القرن الأول الهجري)، فقد أشار إلى أحوال أهل الذمة ضمن دراسته لأحوال العرب المسلمين في العراق، كما أشار ثابت الراوي في كتابه (العراق في العصر الأموي من الناحية السياسية والإدارية

والاجتماعية)، إلى أحوال أهل الذمة في هذه النواحي بصورة جانبية. وأشارت مليحه، رحمه الله، في كتابها (الحالة الاجتماعية في العراق في القرنين الثاني والثالث)، إشارات قصيرة إلى أحوال أهل الذمة في العراق. وأوضح الدوري في كتبه (تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري)، و (العصر العباسي الأول) و (الجذور التاريخية للشعوبية)، و (مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي)، أحوال المجتمع العراقي خلال العصور العباسية ومشيراً إلى آثار أهل الذمة في النواحي السياسية والدينية والثقافية والاقتصادية، ومحللاً الظواهر الاجتماعية والسياسية والدينية في المجتمع العراقي، ومفسراً لطبيعة حركاتها السياسية، ومقاصدها وأساليبها، ومبيناً خطرها على العرب والإسلام. وأشار غيرهم إلى أحوال أهل الذمة إشارات عابرة نجدها في المصادر المثبتة في فهرست الرسالة.

وأما ما كتبه المؤرخون عن طائفة الصابئة قليل جداً، وقد تعرض بعضهم لدراسة عقائدهم، وشعائرهم الدينية، ومراسيمهم الأخرى ويبدو أن سبب ذلك يعود إلى انعزالية الصابئة عن المجتمع العراقي آنذاك، مما لم يمكّن المؤرخين من الاطلاع على عقائدهم، وكتبهم المقدسة وشعائرهم الدينية، كما أن لغة الصابئة المندائية المدونة بها الكتب الصابئية المقدسة، لم تتح أيضاً الفرصة للمؤرخين، ولا حتى لأبناء دينهم في الاطلاع على أسرار الدين الصابئي، من خلال ما هو موجود في كتبهم المقدسة لأن ذلك حسب رأي كهانهم يتعارض مع الأسرار الدينية الصابئية، وقد أشار مترجماً كتاب (الصابئة المندائيون)، نعيم بدوي وغضبان رومي، وهما من أبناء طائفة الصابئة في العراق إلى أنهما جمعا معلومات عن دينهما، مما درساه وشاهداه ومارساه، وما أخذاه عن شيوخهما ورجال دينهما، وما وقع بأيديهما عن كتبهم المخطوطة التي يسيرون على تعاليمها، في تأليف كتاب لم ينشر حتى الوقت الحاضر لأسباب نجهلها وتبدو أنها دينية.

وأول كتاب حديث صدر في العراق يحمل معلومات وافية، عن الصابئة هو (الصابئون في حاضرهم وماضيهم)، لعبد الرزاق الحسني. وقد نشره عام ١٩٥٥م فقد قال المؤلف في مقدمته أنه اتصل برجال الدين الصابئة، وأخذ

عنهم الكثير من المعلومات المدونة في كتابه، ويبدو أنه لم يستطع الحصول على الأسرار الدينية لدى الصابئة الذين لا يبيح رجال دينهم، أن يطلع غيرهم عليها، وقد بدأت الليدي دراوور المستشرقة الانكليزية بالاتصال بالصابئين منذ عام **١٩٢٣** م لدراسة عقائدهم الدينية، وبدأت تتعلم اللغة المندائية فاستطاعت في عام **١٩٣١** م دراسة المخطوطات غير المترجمة من كتبهم المقدسة، كما استطاعت من خلال مكوثها في العراق مدة ستة عشر سنة الحصول على معلومات كافية، عن عقائد الصابئة، فكانت تشاهد مراسيم الصابئة الدينية، وتحضر ممارسة شعائرهم، فأصبحت المرجع الأجنبي الرئيسي في معرفة دين الصابئين ولغتهم، ونتج عن ذلك أن قامت بالتعاون مع رودلف ماتسخ[١] بتأليف قاموس في اللغة الصابئية باسم (قاموس اللغة المندائية)، طبع عام **١٩٦٣** م في أكسفورد[٢].

وتقول الليدي دراوور[٣]، إن أغلب ما كتب عنهم لا يستند إلى وثائق دينية رسمية، لذلك لم يكتب النجاح لكل الذين بحثوا في الصابئة من مستشرقين وعرب، لأن ما كتبوه يخلو كثيراً من أسرار الديانة الصابئة ولا يعرفها إلا رجال دينهم). وإن ما كتبه المؤرخون الأوروبيون في أهل الذمة يتناول بالدرجة الأولى دراسة أحكام الإسلام فيهم، وإجراءات الحكام المسلمين إزاءهم مستندين إلى آراء الفقهاء المستمدة من أحكام القرآن والرسول والخلفاء، فما كتبه المؤرخ الفرنسي (Antoine Fattal) في كتابه: (Le Statut Legal - Des Non Musulmans) يكاد ينطبق لحد كبير على ما جاء به ابن القيم الجوزية في كتابه (أحكام الإسلام في أهل الذمة)، مستعرضاً آراء الفقهاء وإجراءات الخلفاء ومبيناً آراءه واجتهاداته حول أحكامهم في أهل الذمة، وإن ما كتبه (Cahen) في مقالته

---

(١) الدكتور رودلف ماتسخ: رئيس قسم اللغات السامية في جامعة برلين الغربية وله اطلاع واسع في اللغات السامية من عربية وسريانية ومندائية وألف كتاب: **(دليل اللغة المندائية الكلاسيكية والمعاصرة** *Hand Book of Classical and Modern Monodoic,* Berlin, 1965.

(٢) مقدمة المترجمان: **(الصائبة المندائيون)** ص ١.

(٣) دراوور: **الصابئة المندائيون** ص ٢٠.

في دائرة المعارف الإسلامية مادة (Dhimua)يتناول فيها أحوال أهل الذمة بصورة عامة في ظل الحكم الإسلامي، ودافع فيها عن الضرائب التي فرضها المسلمون على أهل الذمة فقال: إنما كانت مطابقة لعادات المجتمعات الدينية في العصور الوسطى.

وإن ما جاء في دائرة المعارف البريطانية يتناول دراسة عقائد أهل الذمة، وطوائفهم المختلفة، ومراتبهم الدينية، وطقوسهم، بالإضافة إلى أحكام الإسلام والمسلمين فيهم، وقد أشار براون في كتابه: (History of Persia Literature) إلى أثر الآداب الفارسية والتقاليد والعادات في المجتمع الإسلامي في العراق، وتأثير النظم الإدارية والسياسية الفارسية في النظم العباسية.

وأشار أوليري (Oleary) في كتابه: (How greek science passed to the Arabe) إلى دور أهل الذمة ولا سيما النصارى في نقل علوم اليونان وفلسفتهم إلى العربية، عن طريق الترجمة والنقل، وأوضح (Watt) في كتابه: (Islam and gration of Society, London, 1966) التأثير الاجتماعي لبعض أهل الذمة، ولا سيما في العادات والتقاليد كما أشار إلى تأثير الطوائف الأخرى من أهل الذمة في عادات وتقاليد المجتمع العراقي.

وإن ما جاء في دائرة المعارف اليهودية يتناول تحليل عقائد اليهود، وشرحاً لاتجاهات فرقهم، واختلاف اليهود في أصالة التوراة، واتهامات الفرق اليهودية لبعضها البعض بتحريف التوراة، كما تناولت تاريخ اليهود وآدابهم وعاداتهم وعقائدهم الدينية منذ العصور القديمة، حتى العصور الحديثة.

وإن ما كتبه (De Lafont) في كتابه: (Le Mozdeism: L'Avesta, Paris, 1897) يعدّ من المراجع المهمة في دراسة العقائد المجوسية وما يحتويه كتابهم المقدّس (الأفستا).

وما كتبه (Vergilius Ferm) في (Encyclopedia of Relegion) حيث أشار إلى كتاب الزرادتشيه المقدّس (الأفستا) موضحاً ما تناولته من العقائد والمعارف وما أصابه من التدمير على يد الاسكندر وما بقي منه.

وقد رجعت أيضاً إلى بعض المقالات والبحوث في المجلات، فيما يخص موضوع البحث عن أهل الذمة في العراق، فقد كانت لهذه الكتب جميعاً أهميتها في استكمال جوانب البحث، وإلقاء الضوء على الجوانب العقائدية، والفكرية، والثقافية، والسياسية، كما تناولت فعالياتهم الاجتماعية والاقتصادية في ظل الحكم الاسلامي في العراق.

ومن الصعوبات التي واجهتها في بحثي عدم ترفر المراجع التي تهتم بدراسة النواحي السياسية والاجتماعية لأهل الذمة، وتبدو هذه الأمور ناتجة عن عدم اهتمام المؤرخين القدامى بدراسة الأحوال الاجتماعية، وتأثيراتهم السياسية والاقتصادية في المجتمع العراقي، حيث كانت فعالياتهم السياسية والاقتصادية وأحوالهم الاجتماعية متداخلة، ومشابهة إلى حد ما لما هو موجود في المجتمع آنذاك، وذلك بفعل الترابط والاختلاط والتمازج بين عناصر السكان المختلفة، وبسبب سيادة العنصر العربي والدين والإسلامي، فقد طغت التقاليد الاجتماعية العربية والإسلامية على المجتمع العراقي خاصة في فترة الحكم الأموي وفي صدر العصر العباسي الأول، مما أصبح من العسير علينا فرز هذه التقاليد والعادات الاجتماعية، وفصلها عن بعضها البعض، كما أن أهل الذمة أنفسهم كانت حياتهم الاجتماعية تختلف، كل عن الأخرى لأنها مرتبطة بدياناتهم، وقد اندمج بعضها في عادات وتقاليد المجتمع العربي الإسلامي وظهرت عادات هي مزيج من عادات العرب المسلمين وأهل الذمة.

وإن ما حصلنا عليه من المصادر ما هي إلا نصوص ومواد مبعثرة في مختلف الكتب على شكل نتف صغيرة أو عبارات غامضة اضطررنا إلى تفسيرها على ضوء الوضع الاجتماعي العام، وعلى مجرى الأحداث التاريخية خلال العصور الإسلامية، كما أن المؤرخين الحديثين أهملوا أيضاً إلى حد كبير الناحية الاجتماعية لأهل الذمة، وإنما قاموا بدراسة عامة على ضوء المجتمع الإسلامي اللهم إلا بعض الإشارات العابرة، واللفتات المتعددة والقصيرة، إلى بعض النواحي الاجتماعية لأهل الذمة، مما توكوا لنا بعض ما يمكن الاستفادة منه لدراسة الأحوال الاجتماعية لأهل الذمة في العراق.

وقد استهدفت في بحثي هذا دراسة أهل الذمة في العراق من مختلف نواحي حياتهم الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية، من الفتح العربي الإسلامي للعراق حتى أواخر عصر المتوكل، وتوضيح العلاقة بينهم وبين المسلمين خلال هذه الفترة ١٢ ـ ٢٤٧ هـ هو ما نجم عنها من أحداث خطيرة ولا سيما في المجالات السياسية والدينية، وآثارهم في الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للمجتمع العربي الإسلامي.

تتضمن رسالة البحث خمسة أبواب، تناولت في الفصل الأول من الباب الأول دراسة أوضاعهم قبل التحرير الإسلامي للعراق في ظل الحكم الفارسي، لنقف على طبيعة حياتهم في ذلك العصر، ومقارنتها بما أصبحوا عليه في ظل الحكم الإسلامي. وخصصت الفصل الثاني للتعرف بأهل الذمة، وعرضت آراء المؤرخين واللغويين والفقهاء والمفسرين في تسميتهم، وبينت من هم الذميون؛ وما هي شروط عقد الذمة، وانتقاضها، والتسميات المتعددة التي تسمّوا بها.

أما الباب الثاني: فقد جعلته للكلام عن موقف الذميين من الفتح العربي الإسلامي للعراق، وتناولت في الفصل الثاني أحكام الإسلام الشرعية فيهم لأنها جزء مهم من بحثي، ولذا فقد تناولتها بصورة موجزة لأن ما ألفه ابن القيم الجوزية في كتابه (أحكام أهل الذمة في الإسلام)، وما كتبه عبد الكريم زيدان في كتابه (أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام) ما يكفي لتوضيح أسس الشرع الإسلامي في معاملة أهل الذمة، ولذا فقد تناولتها بما تتفق وخطة البحث مراعياً في ذلك أحكام الرسول والخلفاء الراشدين في الأمور المتفق عليها، وتجنبت ما اختلف منها لأن بحثي لم ينصرف لدراسة العقائد كلياً ومقارنتها، وعند ذلك نخرج من دراسة التاريخ إلى دراسة العقائد والفقه، واستعرضت في الفصل الثالث مواقف الحكام المسلمين من أهل الذمة منذ عهد الرسول ووصاياه، ووصايا خلفائه فيهم، وأشرت إلى العهود التي أبرمها الخلفاء والقواد والأمراء مع أهل الذمة للوقوف بصورة صحيحة على إجراءاتهم تجاه أهل الذمة، وقد استندت في تثبيت هذه المواقف إلى آراء المستشرقين والمؤرخين

النصارى واليهود لتعكس وجهة النظر غير الإسلامية في المسلمين، ولتكون هذه الآراء رداً حاسمًا على أولئك المتحاملين على الإسلام والحكام المسلمين.

وحاولت في الباب الثالث دراسة العقائد الدينية لطوائف أهل الذمة بصورة مجردة، فقد بيّنت في الفصل الأول عقائد طوائف أهل الذمة، وآراء فرقهم الدينية، وعقائد كل فرقة منهم لإبراز حقائق الصراع الفكري والديني بين أصحاب الطوائف من الذميين.

وذكرت في الفصل الثاني كتبهم المقدسة، ومصادر الفكر الديني عندهم، وما احتوته هذه الكتب من الائتلاف الاختلاف في عقائدهم الأساسية ومواقف كل فرقة منهم من الأخرى، وأشرت إلى آرائهم وقراراتهم ومجامعهم الكنسية، وفي الفصل الثالث أشرت إلى مواقف الإسلام ولا سيما (القرآن) والرسول والخلفاء من بيوت العبادة لأهل الذمة، واستعرضت التطور التاريخي لنشوء حركة الرهبنة والأديرة، وأشرت إلى مواقف المسلمين منها.

وفي الفصل الرابع من هذا الباب تكلمت عن الأعياد والمراسيم الدينية لطوائف أهل الذمة، ومواقف المسلمين منها موضحاً مدى الحرية التي تمتع بها الذميون في إظهارها وممارستها خلال العصور الإسلامية، مبيناً أن ما نسب إلى الخليفة عمر بن الخطاب في عهده لأهل الذمة لا صحة له أو أنه يدعو إلى الشك والريبة في نسبته إليه، ولا سيما فيما يتعلق ببناء الكنائس والمعابد، وإظهار الأعياد والصلوات، وممارسة عقائدهم الدينية لأن هذا العهد يتنافى ووصاياه فيهم وسياسته تجاههم، كما يتنافى مع ما جاء في القرآن، وما أوصى به الرسول والخلفاء الراشدون.

ويتضمن الباب الرابع دور أهل الذمة في الحياة السياسية والدينية في العراق فقد أشرت في الفصل الأول منه إلى المواقف الإيجابية، والسلبية لأهل الذمة من المسلمين، وتتجلى المواقف السلبية في حركاتهم السياسية التي كان لها أثرها الخطير على الدولة وعلى الإسلام، وقد قامت هذه الحركات على شكل ثورات مسلحة ذات أهداف سياسية تظاهرت بالإسلام، وهي تحمل بصوره

خفية عداءها للدين وللدولة الإسلامية، فعملت على تشجيع الحركات الثورية والانفصالية، وبث روح النقمة بين الناس تحقيقاً لمقاصدها السياسية، وظهر ذلك جلياً في الحركات السياسية المجوسية التي قام بها المسلمية، والسنباذية، والمقنعية، والراوندية، والبابكية، والمازيار والأفشين، واستطاعت هذه الحركات أن تخدع البسطاء من الناس لتظاهرها بالمساواة.

وحاولت في الفصل الثاني الوقوف على الأهداف الدينية التي انطوت عليها حركات أهل الذمة، ولا سيما المجوس في محاولة لبعث دينهم المجوسي وذلك لعدم قبولهم، واستيعابهم للإسلام، فاستخدموا أسلوب الهجوم على الإسلام وسلطته، وقد وجد أصحاب هذه الاتجاهات (المانوية، والمزدكية والزرادشتية) أن الإسلام هو العقبة الكأداء أمامهم، ولذا راحوا يعملون على هدمه بهدم القيم الإسلامية، والعادات الاجتماعية الحميدة في المجتمع فشجعوا التحلل الخلقي، والابتعاد عن الإسلام بنشر وتشجيع التهتك والخلاعة والمجون وشرب الخمور باسم الظرف والحرية الفكرية، وأطلق على هؤلاء الدعاة في التاريخ الإسلامي اسم (الزنادقة والشعوبيون) لأنهم حاولوا تشويه حضارة الأمة العربية، وماضيها، وثقافتها، ولغتها وجميع مقوماتها، كما عملوا على هدم الإسلام بإفساد عقائده وتشويهها ونشر عقائدهم المجوسية متسترين بالإسلام وهم يبغون هدمه من الداخل. وقد كانت لهذه الحركات أخطارها الفكرية والثقافية على الإسلام والعرب. لأنها وجدت أن الأسلوب العسكري المسلح والعصيان غير مجد نفعاً في ضرب الإسلام والعروبة، فاستخدموا الأسلوب الفكري، والثقافي في نشر العقائد المجوسية تحت ستار التطور الفكري والثقافي.

أما الباب الخامس والأخير فقد خصصته لدراسة الحياة الاجتماعية والعقلية والاقتصادية لأهل الذمة، تناولت في الفصل الأول الحياة الاجتماعية موضحاً فيه التركيب الاجتماعي لكل طائفة من الذميين، ومشيراً إلى عاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية السائدة، ومدى تأثرها وتأثيرها في المجتمع العراقي وفي الفصل الثاني تكلمت عن الحياة العقلية عند أهل الذمة، وما أنتجته قرائحهم في ميدان

العلم والأدب والفن موضحاً دورهم في هذه النواحي، وأثرهم على المجتمع وعلى ازدهار الحضارة العربية الإسلامية.

وتناولت في الفصل الثالث نشاطاتهم الاقتصادية، ودورهم في ازدهار التجارة، ونشاط الصيرفة، وتوسع الصناعة، وتطور الحرف والمهن، وتنظيماتهم الحرفية والمهنية لأن العرب لم يميلوا إلى المهن والحرف لانشغالهم بالرياسة والإمارة والقيادة، فتركوا لأهل الذمة العمل في الزراعة والتجارة والصناعة والصيرفة والمهن والقيام بنشاطاتهم الاقتصادية المختلفة.

فدراسة تاريخ أهل الذمة في العراق تلقي الضوء على التقلبات السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي سايرت العصور الإسلامية وكان لها الأثر العميق في المجتمع الإسلامي.

□ □ □

الباب الأول

تمهيد للبحث

الفصل الأول:

أحوال اليهود والنصارى والصابئة والمجوس قبل الفتح الإسلامي للعراق.

الفصل الثاني:

التعريف بأهل الذمة:

الفصل الأول
أحوال اليهود والنصارى والصابئة والمجوس قبل الفتح الإسلامي للعراق

إن أقدم سكان العراق هم العرب الذين يعود تاريخهم إلى الألف الرابع قبل الميلاد ومنهم الأكديون والأموريون والأشوريون والآراميون (الكنعانيون)[1]، ويؤلف هؤلاء مجموعة عربية تنحدر من أصل واحد، وموطن واحد، وكانت حركاتهم على امتداد الأرض العربية في كل من الجزيرة العربية ووادي الرافدين وبلاد الشام ووادي النيل.

وكانت أعظم سلالة عربية حكمت العراق هي السلالة الأومورية (سلالة بابل الأولى) فأقامت الدولة البابلية ومن ملوكها البارزين حمورابي الذي كون امبراطورية عربية امتدت على جميع أنحاء العراق.

وأسس الأشوريون أعظم امبراطورية شملت معظم أنحاء الشرق الأدنى القديم من وادي النيل غرباً حتى بلاد عيلام والخليج العربي شرقاً.

ومن الأقوام العربية القديمة (الآراميون) الذين أسسوا امبراطورية عظيمة عرفت بـ (الدولة الكلدانية) التي امتدت من أعالي بين النهرين ومنطقة شرق دجلة حتى الخليج العربي واستمرت حتى كان الغزو الفارسي الاخميني للعراق عام ٥٣٩ق.م وسيطرتهم عليه ساعد على ازدياد عدد الفرس المجوس في

(١) انظر: طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ج ١ ص١١٧ وما بعدها.

العراق، وكذلك في عهد سيطرة الفرثيين والساسانيين واستخدمت اللغة الفارسية القديمة (الفهلوية)[1] إلى جانب اللغة الآرامية باعتبارها لغة السلطة الحاكمة. وبعد أن اتخذوا من المدائن[2] عاصمة لهم.

ومع ذلك فقد ظلت الحضارة العراقية القديمة بمقوماتها العربية القديمة (السامية) مؤثرة في الحياة العامة والخاصة على الرغم من التأثيرات الحضارية الأجنبية (الفارسية واليونانية).

واستمرت الهجرات العربية منذ ذلك التاريخ إلى العراق ومشارف الشام، وذلك بسبب الجدب وكثرة عددهم، والحروب العديدة التي مزقتهم فخرجوا إلى الشام والبحرين[3]. وأقامت بعض هذه القبائل في البحرين، وتحالفوا على التنوخ (المقام) وتعاقدوا على التناصر فصاروا يداً واحدة، وضمهم اسم تنوخ ثم تطلعت أنفسهم إلى بلاد العراق، وغلبوا الأعاجم فيما يلي بلاد العرب، ونزلت تنوخ من الأنبار إلى الحيرة[4]. وكانوا من قبائل طي، وتميم، وغسان، وكلب وغيرهم[5]. وبذلك أصبح أهل الحيرة لا ينتسبون إلى قبيلة واحدة، بل كانوا من قبائل عدة جمعت بينهم وحدة المصير، وقد اعتنقت أغلب القبائل العربية في الحيرة المسيحية، وكان أول من اعتنقها من ملوكهم عمر بن عدي مؤسس الدولة[6].

وكان من أبرز ملوكهم، وأفضلهم رأياً، وأبعدهم مغاراً، وأشدهم نكاية

---

(١) المسعودي: التنبيه والاشراف ص ٧٨.

(٢) المدائن: جمع مدينة وقد سماها الفرس بـ(طيسفون) وهي على دجلة من شرقها تحت بغداد وعلى مرحلة منها وبها ديوان كسرى وكانت قاعدة ملوك الساسانيين (القلقشندي: صبح الأعشى ج ٤، ص ٣٢٩).

(٣) البحرين: بلاد على ساحل الخليج العربي وقيل هي قصبة هجر، وقيل هجر قصبة البحرين (ياقوت معجم البلدان ج ٢ ص ٧٢).

(٤) ابن الأثير الكامل: ج ١، ص ١٩٦؛ الطبري: **تاريخ الرسل والملوك** ج ٢، ص ٤٢.

(٥) قدامة بن جعفر الخراج وصناعة الكتابة: ص ١٠٢.

(٦) ابن خلدون: تاريخ ج ٢، ص ١٧٢.

هو جذيمة الأبرش، وهو أول من استجمع له الملك بأرض العراق، وضم إليه العرب وغزا بالجيوش، وكان به برص فكنت العرب عنه فقيل: الوضاح، والأبرش إعظاماً له، وكانت منازله ما بين الحيرة والأنبار، وهيت، وعين التمر، فارتفع أمرهم حتى حالفهم الفرس، وأخذت تفد إليه الوفود، وتجبى إليه الأموال، وخاض الحروب مع العمالقة بأرض الجزيرة، وبلاد الشام بزعامة ملكهم عمر بن الظرب بن حسان بن أذينة العمليقي فقتله، وعاد جذيمة سالماً، فانتقمت الزباء زوجته من جذيمة بخديعة دبرتها له في قصرها فمات، وملك بعده عمر بن عدي[1].

وسكن في العراق اليهود أيضاً وهم من بقايا الغزو البابلي لليهود الذي قام به نبوخذنصر عندما هاجم اورشليم، وسبى أهلها فأسكنهم أسرى في بابل، والقسم الآخر منهم جاء من الحجاز[2] فانتشروا في العراق وفارس وزاولوا الزراعة والتجارة[3].

أما الدين الشائع بين عرب العراق قبل الفتح الإسلامي هو (الشرك) من عبادة الكواكب والسيارات السبع كما ألفها الكلدان من أهل العراق. ولما ظهرت النصرانية وجدت لها دعاة في بلاد ما بين النهرين، والجزيرة، وإن بعض القبائل العربية من جملتها أفراد من بكر وتغلب ولخم وجذام وربيعة وأياد، الذين يذكر المؤرخون تنصرهم منهم البكري[4]. وقد أشار شاعرهم لقيط بن يعمر الأيادي إلى بيعهم في قصيدته العينية التي كتبها ليحذرهم من غزو كسرى، وهي من أقدم الآثار العربية[5] فقال:

---

(١) ابن الأثير الكامل: ج ١، ص ١٩٧ ــ ص ٢٠١.
(٢) اليعقوبي: تاريخ ج ١، ص ٣١٣.
(٣) أنظر: ديورانت: قصة الحضارة، ج ١٤ ص ٨.
(٤) البكري: معجم ما استعجم، ص ٤٨.
(٥) خير الدين الزركلي: **الاعلام** ج ٦، ص ١٠٩؛ بروكلمان: **تاريخ الأدب العربي** ج ١، ص ١١٢.

نامت فؤادي بذات الجزع خرعبة　　مرت تريد بذات العـذبة البيعـا.

وقد انتشرت المسيحية بين أفراد من القبائل العربية في العراق، وذلك بفضل المبشرين من الرهبان الذين كانوا يعيشون بين أحياء عرب العراق، ويتجولون في البراري، ويقتاتون من النباتات، واستطاعوا بحياتهم النسكية أن يردوا البعض من العرب والعجم إلى الدين النصراني[1]. وقد لاقت المسيحية أثناء انتشارها مقاومة عنيفة من المجوس بدافع التعصب الديني حيث دفع الموابذة[2] والهرابذة[3]، والدهاقين[4] المجوس ملوكهم على اضطهاد النصرانية، فقد حدث أول اضطهاد لهم في عهد الملك البارثي كسرى سنة ٨٩ م، ونكل بالنصارى وأباد منهم خلقاً كثيراً[5]. وبعد سقوط المملكة البارثية[6] على أيدي الساسانيين بزعامة ملكهم أردشير بن بابك ٢٢٦ ــ ٢٤١ م، فوسع مملكته وشملت بلاد ايران، وأواسط آسيا إلى حدود الهند والصين، كما بسطت سلطانها على العراق، واتخذت مدينة طيسفون (المدائن) في العراق عاصمة لهم[7]. وقد تعرض النصارى في العراق، وفارس إلى اضطهاد شديد منذ اتخاذ الأمبراطور الروماني قسطنطين النصرانية ديناً له، وذلك سنة ٣١٢ م، فأخذ الأكاسرة يضطهدون النصارى ظانين أنهم متحزبون لنصارى الغرب ميالون إلى قياصرتهم[8]. وبقيت

---

(١) انظر: شيخو النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية، ج ١ ص ٧٦.

(٢) الموابذة: جمع موبذ وهو قاضي المجوس فارسي معرب (الجاحظ ــ البيان والتبيين ج ٣، ص ١٣).

(٣) الهرابذة: جمع هربذ وهم قومة بيوت النار ويديرون المراسيم الدينية فيها وهي فارسية معربة (الجاحظ البيان ج ٣، ص ١٣).

(٤) الدهاقين: جمع دهقان: زعيم فلاحي العجم ورئيس الاقليم وهـو لفظ فارسي معـرب (الدينوري الأخبار الطوال ص ٤٧).

(٥) أنظر رفائيل: تاريخ نصارى العراق ص ٤.

(٦) إن غزوات الاسكندر المقدوني للشرق ولا سيما الشام والعراق وفارس استطاع أن يقضي في فارس على الدولة الأخمينية سنة ٣٣١ ق.م، وتمزقت هذه الدولة إلى دويلات يحكم كل منها ملك أشهرها الدولة البارثية، ولكن الفرس الساسانيين استـطاعوا تـوحيد الـدولة سنـة ٢٢٤ ق.م. بقيادة أردشير بن بابك (اليعقوبي تاريخ، ج ١، ص ١٧٩).

(٧) ابن العبري: مختصر تاريخ العرب ص ٢٥.

(٨) انظر: أدي شير: تاريخ كلدو وآثور ج ٢ ص ٢٨ ص ٦٠.

العلاقة بين العرب النصارى، والفرس قبل الإسلام تأخذ تارة شكل العداء، وتارة الصداقة، ولكن هذه العلاقة كانت في جميع الحالات قائمة على استضعاف الفرس للعرب، والإفساد في أرضهم، والإيقاع بين قبائلهم، واضطهادهم[1] .

ولما منيت الجيوش الفارسية بالهزائم على يد الأمبراطور البيزنطي هرقل ثارت ثائرة الملك خسرو الثاني واشتد حنقه على العرب النصارى من جراء الهزائم فأمر باضطهاد المسيحيين المقيمين داخل مملكته فتحملوا على اختلاف مذاهبهم كثيراً من ألوان العنف والشدة[2] وقد تعرض العرب في زمن سابور ذي الاكتاف (٣١٠ ــ ٣٧٩) إلى الاضطهاد وأوقع بهم في البحرين وهجر، وبها تميم، وبكر بن وائل، وعبد القيس، فقتل منهم حتى سالت دماؤهم على الأرض، وأباد عبد القيس، وقصد اليمامة، وأكثر في أهلها القتل، كما غزا بكر وتغلب، فيما بين الشام والعراق، فقتل وسبى، وكان ينزع أكتاف رؤساء العرب ويقتلهم[3] فسموه العرب (ذي الأكتاف) ثم أغار سابور على الحيرة، فقاتلوه أهلها، فكان شعارهم (شعار المسيحيين) يومئذ آل عباد الله فسموا العباد[4] .

وقد سفك سابور ذو الأكتاف من دماء العرب النصارى مدة ملكه الذي دام سبعين سنة فضحى بـ «١٦٠» ألف من العرب المسيحيين الذين كانوا في دولته[5] وأجلى العرب من النواحي التي صاروا إليها[6] وقد شن سابور حروباً عديدة طويلة الأمد بينه وبين الأمبراطورية البيزنطية في عهد قسطنطين، وقد

---

(١) انظر: يحيى الخشاب: التقاء الحضارتين الفارسية والعربية ص ٨٠.
Oleary. *Arabia Before Muhammed*. p. 131.

(٢) أرنولد: الدعوة إلى الاسلام ص ١٨٠.

(٣) ابن الأثير: الكامل ج ١ ص ٢٢٩.

(٤) المصدر السابق، ج ١ ص ٢٢٩، الأصفهاني: الأغاني ج ١١ ص ١٦٢.

(٥) شيخو: النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية ج ١ ص ٧٦.

(٦) الطبري: تاريخ ج ٢ ص ٥٥.

لقي العرب في العراق والشام من ويلات هذه الحروب لأن مدنهم واقعة على الطريق التي تصل بين العراق والشام.

وكان يزدجر الأول قد أحسن الظن بالعرب، وكوّن صداقة متينة وتعاونٍ مثمر لحد أنه جعل مع النعمان بن امرىء القيس بن عمرو بن عديّ كتيبتين الأولى الدوسر، وهي لتنوخ. والثانية الشهباء وهي لفارس، ثم إنه عهد بتربية ابنه بهرام وحضانته إلى المنذر بن النعمان (٥٠٥ ــ ٥٥٤) وأكرمه، وملكه على العرب، وأمر له بصلة كبيرة بقدر استحقاقه لمنزلته العالية وأمره أن يسير ببهرام إلى بلاد العرب[١] لتربيته والعناية به، وقد، لقيت الشعوب الفارسية من يزدجرد الملقب بالاثيم (وهو ابن بهرام بن سابور ذي الأكتاف) الويل والثبور، وكان سيىء الخلق ولا يغفر الصغيرة من الزلات، فابتلت الرعية بجوره[٢] وقد ذكر كتاب الفرس فظاظة يزدجرد وسوء سيرته وكثرة قتله واخرابه البلاد[٣].

ولما مات يزدجرد الأول اتفق جماعة من العظماء، وأهل البيوتات ألا يملكوا أحداً من ذريته، إلا أن المنذر أرسل ابنه النعمان ومعه عشرة الآف رجل من فرسان العرب، واستطاع أن يجلس بهرام جور على عرش الأمبراطورية الساسانية[٤] ولم يكن اضطهاد الفرس للعرب، بل كان الروم أيضاً يضطهدونهم فلما زحف امبراطور الروم قرياقوس على العراق أخذ يصب جام غضبه على العرب ولقوا أعنف أنواع الاضطهاد، فلما فتح المدائن عنوة سنة ١١٥ م أهلك من العرب النصارى فيها جمعاً غفيراً، ثم سار على نهجه أغلب القياصرة الذين توغلوا في بلاد العراق[٥] لاختلافهم معهم في المذهب.

أما ملوك الفرس فقد انتصروا للنسطورية، وكان للسياسة دخل كبير في

---

(١) الطبري: تاريخ ج ٢ ص ٦٧، ٩٩.
(٢) ابن الأثير: الكامل ج ١ ص ٢٣٢؛ الطبري: تاريخ ج ٢ ص ٦٣.
(٣) ابن الأثير: الكامل ج ١ ص ٢٣٥.
(٤) يحيى الخشاب: التقاء الحضارتين الفارسية والعربية ص ٨١.
(٥) جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٢ ص ٧٣.

انتشارها لمعارضتها للأرثوذكسية الرومية في هذه الديار، إذ وجد النساطرة مقاومة من الروم لمخالفتهم لهم في المذهب، وبسبب بغض الفرس للروم[١].

وازدهرت النسطورية في العراق وفارس وأصبحت سلوقية (Seleucia) على نهر دجلة قبالة العاصمة الفارسية (طيسفون) أو (المدائن) مركزاً ثقافياً للنسطورية ينافس نصيبين، وصار هذا المركز من أهم معاقل النسطورية والتبشير في العراق وفي سائر أنحاء الأمبراطورية الفارسية[٢] وأصبح أغلب نصارى العراق يعتنقون المذهب النسطوري، أو ما يعبر عنه بالكاثوليكية[٣]. وهو مخالف مذهب بيزنطية[٤].

وقد، لقى أتباع الكنيسة البيزنطية اضطهاداً من قبل الأكاسرة الفرس[٥]. ومع هذا فإن الظروف التي عاش فيها النصارى كانت أقسى عليهم من غيرهم تحت الحكم الساساني، وأقل حفظاً لمصالحهم من اليهود أو من شعوب الولايات الفارسية[٦]. ويرى المستشرق بارتولد[٧]: (إن من عوامل ضعف الأمبراطورية الساسانية اضطهادها للوثنيين والنصارى، فصار هؤلاء جميعاً حلفاء للعرب عند الفتح).

لم يكن اضطهاد الفرس قاصراً على النصارى، فقد انتقل إلى اليهود أيضاً، وذلك منذ أيام أردشير مؤسس الدولة الساسانية حيث سمح للمجوس بتعذيبهم، والتنكيل بهم لأنهم ساعدوا الفرثيين في حروبهم مع أردشير، ولكن سرعان ما استطاع اليهود إرضاء الأكاسرة فتحسنت حالتهم عن ذي قبل[٨]. ومع ذلك فقد وحد أردشير سياسته مع المجوس، وأمر أن لا يسمح لأي دين غير دينهم[٩].

---

(١) أدي شير: ج ٢ ص ١٣٠؛ مجلة الشرق ص ٣٩٠ لسنة ١٩١٠.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) الكاثوليكية: أو (الكثلكة) نسبة إلى بطريرك نسطوري اسمه (Katholikas)

(٤) انظر: ماجد التاريخ السياسي للدولة العربية، ج ١ ص ٩١.

(٥) انظر: داود مختصر المختصر في تواريخ الكنيسة، ص ١٩٩.

(٦) انظر: متن الحضارة الإسلامية، ص ٤٦.

(٧) انظر: بارتولد الحضارة الإسلامية، ص ٥٠.

(٨) انظر: غنيمة نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، ص ٧٥ ــ ٧٦.

(٩) انظر: الريس الخراج والنظم المالية، ص ٧٢.

وعاد الاضطهاد في عهد يزدجرد الثاني، وقباذ الأول، إلا أن انشغال الأكاسرة في أواخر الدولة الساسانية في لم شملهـا، شغلهم عن اضطهـاد غيرهم[1]. ويقول المستشرق ديورانت[2] (بالإضافة إلى اضطهاد الفرس لليهود في أرض ما بين النهرين، وبلاد فارس فقد كانت وظائف الدولة محرمة عليهم). وكثيراً ما منعهم الفرس عن أداء الصلاة لمعرفتهم بأن معظم صلواتهم دعاء على الأمم بالبوار، وعلى العالم بالخراب، فلما رأت اليهود الجد من الفرس في منعهم من الصلاة اخترعوا أدعية زعموا أنها فصول في صلاتهم، وسموها الخزانة، وصاغوا لها ألحاناً عديدة، وصاروا يجتمعون في أوقات صلواتهم على تلحينها وتلاوتها، وإن أنكرت عليهم الفرس ذلك زعموا أنهم يغنون أحياناً، وينوحون أحياناً على أنفسهم فيتركونهم[3].

استمر اضطهاد الفرس لليهود حيناً بعد آخر حتى أواخر أيام الدولة الساسانية، حيث لم يتمكن الملوك المتأخرون من مراقبة اليهود لانشغالهم بأمور مملكتهم المتداعية الأسس، فكان اليهود يتحينون الفرص، ويبعثون الدعاة إلى بني جلدتهم فينتخبون رأس الجالوت[4] سراً، ويظهر أنهم أعادوا علاقاتهم الحسنة مع ملوك الفرس.

أما الصابئة[5] الذين كانوا يسكنون في إقليم خوزستان من ايران، وفي جنوب العراق بين البطائح (ملتقى دجلة والفرات) وفي عربستان[6]. وكانوا

---

(١) انظر: غنيمة نزهة المشتاق، ص ٧٩.

(٢) انظر: ديورانت قصة الحضارة، ج ١٤ ص ٧ ـ ٨.

(٣) انظر: السموأل بذل المجهود في إفحام اليهود، ص ٤٦ و٤٧.

(٤) رأس الجالوت: رئيس الطائفة اليهودية في العراق.

(٥) الصائبة: وهم ولد صابىء بن لامك، وهو أخو نوح عليه السلام (ابن خلدون العبر، م ٢ ق ١ ص ١٠). ويقول المسعودي نسبوا إلى صابىء ابن متوشلخ بن إدريس وكان على الحنيفية وقيل: بل إلى صابىء بن مارسي وكان في عصر ابراهيم الخليل (المسعودي التنبيه، ص ٩١).

(٦) الضابي: رسوم دار الخلافة، ص ٧؛ دراوور: الصابئة المندائيون، ص ٨.

يقطنون تلك الأصقاع حين فتحت الجيوش الإسلامية بلاد العراق وفارس وكانوا بها أعداداً كبيرة[1].

ويبدو أنه لم يكن للصابئة أثر ولا خطر على دولة الأكاسرة الفرس لقلة عددهم بالنسبة إلى العرب، واليهود، والنصارى، ولانطوائهم على أنفسهم، ولعدم خطورة عقيدتهم على المجوسية، لذا لم نجد في كتب التاريخ إشارات إلى اضطهادهم.

أما أقدم طوائف الديانة المجوسية الزرادشتية، ثم المانوية والمزدكية، وقد آمن ملوك الفرس بديانة زرادشت كما انتشرت ديانته بين سكان العراق، وقد كان ملوك الفرس يشجعون الزرادشتية لكثرة عددهم، وليساعدوهم على حفظ عروشهم[2]. واتخذوه الدين الرسمي للدولة.

أما المانوية فقد كانت الطائفة الثانية من طوائف المجوسية، ومن أقوى فرق المجوسية المزدكية، وكان كثير من مجوس العراق يعتنقون مبادئها[3]. وقد لاقت كل من المانوية والمزدكية بعض الاضطهادات خلال العصر الساساني بسبب اختلافهم مع الزرادشتية في الاعتقاد، ولكون الأكاسرة الفرس قد دانوا بالزرادشتية، واتخذوها ديناً رسمياً للدولة، فاضطهدوا الأديان الأخرى[4].

أما من حيث النظام المالي الذي كان يتبعه الفرس مع النصارى، واليهود، والمجوس، فقد كان على الفرد في العصر الساساني أن يؤدي ضريبة الأرض وضريبة الرأس، وضريبة التجارة، وكانت جبايتها، وجمعها، بيد الأمراء والرؤساء المحليين، والدهاقين، مستعملين الطريقة التي يرونها، ويحتفظون لأنفسهم بما يشاؤون، وقد كانت هذه الضرائب قد فرضها الروم أيضاً في بلاد الشام[5].

---

(١) ابن النديم: الفهرست، ص ٤٩١.
(٢) انظر: دوزي نظرات في تاريخ الإسلام، ص ٤٠٨.
(٣) الخربوطلي: تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي، ص ٢٦٣.
(٤) انظر: الدوري مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، ص ٦٣.
(٥) انظر: (Goitein, *Jews and Arabs, p. 98*)

وقد اتبعت أساليب التعذيب في سبيل الحصول عليها من أصحابها، إما بإقامتهم في الشمس، أو صب الزيت على رؤوسهم[1]. وقد كانت ضريبة الجزية التي فرضها الفرس على الشعوب التي خضعت لحكمهم، كانت سبعة إضعاف الجزية التي وضعها المسلمون على أهل العراق[2].

ولغرض تثبيت مقادير الجزية[3]، والخراج في العصر الساساني أجرى ملوك الفرس مسحاً للسكان وللأرض، فأمر كسرى أنوشروان بمسح السهول والجبال ليصح الخراج عليها، وإحصاء النخل، والزيتون، والجماجم. فقال كسرى: إن قد رأينا أن نضع على ما أحصي من جريات هذه المساحة من النخل والزيتون، والجماجم، ونأمر بإنجامها في السنة في ثلاثة أنجم[4].

أما الجزية فقد جعلها أنوشروان على أربع طبقات، وأسقطها عن أهل البيوتات، والمرازبة[5]، والأساورة[6]، والهرابذة[7]، والموابذة[8]، والدهاقين[9]، والكتاب[10]، وأشد ما كان يلاقيه النصارى، واليهود، وبعض

---

(١) الطبري: **تاريخ الرسل والملوك**، ج ٣ ص ٣٠٦.

(٢) انظر: صبحي الصالح: **النظم الإسلامية**، ص ٣٦٤.

(٣) الجزية: وكانت جزية الرؤوس معروفة قبل الفتح الإسلامي في البلاد المفتوحة سواء أكانت ساسانية أم رومية وورد في المصادر وفي الإيصالات أنها كانت تعطي نظير دفع جزية الرؤوس كلمة جالية (**والجمع جوالي**) وقد أصبحت هذه الكلمة مرادفة لكلمة جزية. (**دائرة المعارف الإسلامية مادة جزية**، ج ٦ ص ٤٥٤ وما بعدها).

(٤) الجهشياري: **الوزراء والكتاب**، ص ٣؛ (**الأنجم الأوقات**)؛ الدنيوري: **الأخبار الطوال**، ص ٤٧.

(٥) المرازبة: **رؤساء الفرس**.

(٦) الأساورة: قواد الفرس ومجيدوا الرمي بالسهام.

(٧) الهرابذة: جمع هزبذ وهم قومة بيوت النار ويديرون المراسيم الدينية فيها فارسي معرب (**الجاحظ البيان والتبيين**، ج ٣ ص ١٣).

(٨) الموابذة: جمع موبذ: وهو قاضي المجوس فارس معرب (الجاحظ: **البيان والتبيين**، ج ٣ ص ١٣).

(٩) الدهاقين: جمع دهقان: زعيم فلاحي العجم ورئيس الاقليم وهو لفظ فارسي معرب (الدنيوري: **الأخبار الطوال**، ص ٤٧).

(١٠) الدنيوري: **الأخبار الطوال**، ص ٤٧.

طوائف المجوس هو الاضطهاد الديني الذي كان أبرز طابع للعصر الذي سبق التحرير العربي الإسلامي للعراق، وفارس، في ظل الدولة الساسانية، بالإضافة إلى الظلم الاقتصادي، وقد أحست هذه الطوائف الدينية في العراق وفارس بشعور الكراهية المريرة بسبب الاضطهاد الديني، ويشير فيليب حتي[١] إلى ذلك بقوله (ونذكر أن الجزية التي فرضها الفاتحون العرب على أبناء البلدان المنسلخة من فارس، وبيزنطة كان أقل مما كان يفرض عليهم في ظل الحكومات السابقة، ولقد انفتح أمام الأمم المغلوبة باب الحرية، فصاروا يمارسون عقائد أديانهم دون إزعاج). ويعلق المستشرق براون (Brown)[٢] على حالة دولة الفرس قبل الفتح الإسلامي (أنها كانت في المظهر تبدو رائعة فخورة إلا أنها كانت في صميمها متعفنة حياتها مملوءة بالدسائس تغلي في داخلها بالسخط، وتمزقها المنازعات الأهلية).

ولما تقدم العرب لفتح العراق وفارس رحب بهم النصارى، واليهود، وبعض طوائف المجوس لتخليصهم من ظلم حكامهم السابقين (الساسانيون)، لأن الإسلام سمح لهم التمتع بالحرية الدينية، وأعفاهم من الخدمة العسكرية مقابل دفع الجزية، وكان هذا التسامح عاملاً مهمًا في تأييد أهل البلاد المفتوحة للعرب المسلمين، وفي إقبالهم على الدخول في الدين الإسلامي بحماسة ورغبة[٣].

ولم يكتف ملوك الساسانيين بما كانوا يفرضونه على رعاياهم من النصارى، واليهود من الجزية والخراج وغيرهما[٤]. وإنما فرضوا عليهم أن لا يتسموا بشريف الأسماء التي يسمون بها الفرس، وأهل البيوتات الرفيعة، وعدم تقليدهم في بناء القباب، والشرف، وفي طرز البناء[٥].

---

(١) انظر: فيليب حتي: تاريخ العرب، ج ١ ص ١٩٤.

(٢) انظر: (Brown: Aliterary History of Persia Vol I.P. 181-182)

(٣) انظر: الخربوطلي: تاريخ العراق ص ٢٦٣.

(٤) انظر: (Sheldd: *Islam and The Oriental Churches*, p.97).

(٥) الجاحظ: الحيوان، ج ١ ص ٣٦.

وأخيراً فإن البلاد الخاضعة لسلطان الساسانيين، والروم، قبيل الفتح الإسلامي كانت منهوكة القوى بالحروب والمجاعات، والأوبئة، وأدت قلة العناية بمشاريع الري إلى كثرة البثوق، وطغيان المياه، وإتلاف المزروعات، فساءت الأحوال الاقتصادية، كما أن فداحة الضرائب التي كانت تفرضها السلطات الفارسية، وتعددها قد أثقلت كاهل سكان العراق. وأدت الحروب الطويلة بين الفرس، والروم إلى ضعف الجانبين، وتدمير البلاد كما أن تولى الحكم في فارس ملوك صغار، وتملك النساء، وتدخل رجال الحاشية، والأمراء في أمور البلاد، والمؤامرات التي كانت تحيكها، وتشعب المجتمع الفارسي، ففيهم العرب، والفرس واليهود، والنصارى، والمجوس، وأقواماً أخرى، ومذاهب شتى، بهذه الأوضاع الفاسدة جعل سكان العراق، وحتى الفرس يرحبون بالفاتحين العرب، ففرح المظلومين بمقدمهم، ومنهم من عاونهم بالفعل، وقد وجد النصارى واليهود والمجوس في الفاتحين أعظم منقذ لهم مما هم فيه من الشدائد، وهان عليهم أن ينزلوا عن دينهم، ولغتهم، ويدينوا بالإسلام[1].

■ ■ ■

(١) انظر: محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية، ص ٢٠٨ و٢٠٩؛ فان فلوتن: السيادة العربية، ص ١٩.

الفصل الثاني:

التعريف بأهل الذمة

لقد اعتبر الرسول، ومن جاء بعده من الخلفاء الراشدين، والأمويين، والعباسيين أن اليهود، والنصارى، هم أهل ذمة ممن اعترف الإسلام بهم وعقد الذمة معهم، وقد أدخل كل من الصابئة والمجوس في عداد أهل الذمة، وأما معنى الذمة فهي:

الذمة في اللغة العهد والأمان والضمان، وأهل الذمة هم المعاهدون من النصارى، واليهود وغيرهم ممن يقيم في دار الإسلام[(١)]. وهي معناها أيضاً العهد الخاضع لأحكام المسلمين القائم بأداء الجزية المرتبة عليه من قبل الإمام سواء كان يهودياً، أو نصرانياً، أو مجوسياً، أو وثنياً غير عربي[(٢)].

والذمة: في الفقه الإسلامي العهد الذي يعطى للقوم الذين لم يدخلوا في الإسلام عند فتح المسلمين لبلادهم، ولا يسترقون، ويؤمنون على حياتهم، وحريتهم، وأموالهم، وعباداتهم[(٣)]. فجاء في حديث الرسول (يسعى بذمتهم أدناهم) وقد فسر الفقهاء (ذمتهم) بمعنى (الأمان)[(٤)]. ويعرف المستشرق

---

(١) الفيروز أبادي: القاموس المحيط، ج ٤ ص ١١٥؛ معلوف المنجد، ص ٢٣٧؛ السرخسي الحنفي: شرح السير الكبير، ج ١ ص ١٦٨.

(٢) الغزي جلاء الظلمة عن حقوق أهل الذمة: (مخطوط) ورقة ١٨.

(٣) انظر: دائرة المعارف الإسلامية (مادة ذمة) ج ٩ ص ٣٩٠ و٣٩١.

(٤) إدريس الحنبلي: كشاف القناع ج ١ ص ٧٠٤.

(Cahan)[1] الذمة بأنه مصطلح لتمييز نوع من العقد يمنحه المسلمون لضيافة، وحماية أعضاء الديانات الأخرى المعترف بها شرط أنها (أي الديانات) تعترف بسيادة المسلمين عليها).

وقيل: في تفسير عقد الذمة بأنه إقرار من الكفار على كفرهم بشرط بذل الجزية، والتزام أحكام الذمة[2]. وقيل: انما قبل منهم عقد الذمة ليقفوا على محاسن الإسلام فعسى أن يؤمنوا[3]. وقيل أيضاً: والحكمة في عقد الذمة معهم احتمال دخولهم في الإسلام عن طريق مخالطتهم للمسلمين، واطلاعهم على شرائع الإسلام، وليس المقصود من عقد الذمة تحصيل المال[4].

ويقول المؤرخ زيدان[5] في كتابه أحكام الذميين: وعلى هذا يمكن القول (بأن عقد الذمة عقد بمقتضاه يصير غير المسلم في ذمة المسلمين، أي في عهدهم، وأمانهم على وجه التأييد، وله الإقامة في دار الإسلام على وجه الدوام). ويقول المستشرق ريسلر[6] (وتطلق لفظة الذمة على غير المسلمين الذين كانوا يقطنون أراضي العالم الإسلامي، وينتمون إلى الأديان المنزلة).

ويسمون أيضاً (المستأمنون) وهم الذين طلبوا الأمان[7] والمستأمن (بكسر الميم) هو الطالب للأمان. ويصح (بفتح الميم) بمعنى صار آمناً[8]، وقد ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم ﴿وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه﴾[9].

---

(١) انظر: (Cahen: *Ency. of Islam Dhimma p. 227*).

(٢) إدريس الحنبلي: **كشاف القناع**، ج ١ ص ٧٠٤.

(٣) السرخسي الحنفي: **شرح السير الكبير**، ج ٣ ص ٢٥٤.

(٤) السرخسي المبسوط: ج ١٠ ص ٧٧.

(٥) انظر: عبد الكريم زيدان: **أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام**، ص ٢٢.

(٦) انظر: جاك ريسلر: **الحضارة العربية**، ص ٧٧.

(٧) معلوف المنجد: ص ١٦.

(٨) ابن عابدين رد المحتار ج ٣ ص ٣٤١.

(٩) سورة التوبة: آية ٦.

فالذميون يعتبرون من أفراد الأمة الإسلامية في دار الإسلام[1]. يرتبطون بالدولة الإسلامية، أما المستأمنون فهم الأجانب عن دار الإسلام. وليسوا من أهلها[2]. ولكنهم حصلوا على الأمان من المسلمين ليعيشوا معهم، وليتعاملوا عن طريق التجارة أو غيره.

وأهل الذمة: هم المستوطنون في بلاد الإسلام من غير المسلمين، وسموا بهذا الإسم لأنهم دفعوا الجزية، فأمنوا على أرواحهم، وأعراضهم، وأموالهم، وأديانهم، وأصبحوا في ذمة المسلمين[3].

وهم يسمون أيضاً بـ (أهل الكتاب) وهم الذين لهم كتب منزلة مثل اليهود[4]، والنصارى[5]، وممن له شبهة كتاب مثل: الصابئة، والمجوس، وممن لهم حدود وأحكام دون كتاب مثل: الفلاسفة الأولى: والدهرية، وعبدة الكواكب والأوثان، والبراهمة[6]. وبعد الفتح الإسلامي خضعوا للمسلمين، وأصبحوا في ذمة الإسلام، فأطلق عليهم أهل الذمة.

وقيل: سمّي اليهود، والنصارى بأهل الكتاب تمييزاً لهم عن عبدة الأوثان، وذلك لأن لهم كتباً منزلة هي التوراة، والزبور، والإنجيل، وان اعترافهم بها يجعل لهم مكاناً ممتازاً بالنسبة لعبدة الأوثان وغيرهم[7].

---

(١) دار الإسلام: هي الدار التي تجري عليها أحكام الإسلام ويأمن من فيها بأمان المسلمين سواء أكانوا مسلمين أو ذميين (عبد الوهاب خلاف: **نظام الدولة الإسلامية**، ص ٦٩).

(٢) انظر: زيدان: **أحكام الذميين**، ص ٦٧.

(٣) انظر: الخربوطلي: **الإسلام وأهل الذمة**، ص ٦٥.

(٤) اليهود: نسبتهم إلى يهودا بن يعقوب (الشعاريني: **غذاء الألباب لشرح منظومة الآداب**، ج ٢ ص ١٢).

(٥) النصارى: وقد سموا بهذا الإسم نسبة إلى قرية بالشام يقال لها ناصرة (نفس المصدر السابق).

(٦) الشهرستاني: **الملل والنحل**، ج ١ ص ٣٧.

(٧) دائرة المعارف الإسلامية مادة (أهل الكتاب) ج ٣ ص ١٠٧.

وقد ورد ذكر (أهل الكتاب) في القرآن في آيات كثيرة[1] منها قوله تعالى: ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا تعبدوا إلا الله، ولا نشرك به شيئاً﴾[2].

وأهل الكتاب عند الحنفية أصحاب الكتب السماوية المنزلة كالتوراة، والإنجيل، وصحف إبراهيم، وشيت، وزبور داود[3]. وعند الشافعية والحنبلية: هم النصارى، واليهود، دون غيرهم مستندين إلى قوله تعالى: ﴿ان تقولوا إنما انزل الكتاب على طائفتين من قبلنا﴾[4] ويقول الشهرستاني[5] (ت ٥٤٨ هـ/ ١٥٥٣ م) ويخاطب القرآن اليهود، والنصارى يا أهل الكتاب، إلى جانب هؤلاء من لهم شبهة الكتاب مثل المجوس، والمانوية ، فإن الصحف التي أنزلت على ابراهيم قد رفعت إلى السماء لأحداث أحدثها المجوس، ولهذا يجوز عقد العهد والذمام معهم، ولكن لا يجوز مناكحتهم ولا أكل ذبائحهم فإن الكتاب قد رفع عنهم. وتسمية أهل الكتاب التي وردت في القرآن تشمل اليهود والنصارى، ثم توسعت هذه التسمية لتشمل الصابئة والمجوس كما وردت في القرآن آيات تطلق عليهم (أهل الذكر)، وهم أصحاب الأسفار القديمة، والمزامير[6].

---

(١) سورة البقرة: آية ١٠٥ و١٠٩؛ سورة آل عمران: آية ٦٤ و٦٥ و٦٩ و٧٠ و٧١ و٧٢ و٧٥ و٩٨ و٩٩ و١١٠ و١١٣ و١١٩؛ سورة النساء: آية ١٢٣ و١٥٣ و١٥٩ و١٧١؛ سورة البينة: آية ١ و٦؛ سورة المائدة: آية ٤ و١٥ و٤٧ و٦٥ و٦٨ و٧٧؛ سورة العنكبوت: آية ٤٦؛ سورة الحديد: آية ٢٩؛ سورة الحشر: آية ٢ و١١.

(٢) سورة آل عمران: آية ٦٤.

(٣) الحصكفي: **الدر المختار** ج ٣ ص ٣٧٠؛ الزيلعي: **تبين الحقائق شرح كنز الدقائق** ج ٢ ص ١١٠؛ علماء الهند: **الفتاوي الهندية** ج ١ ص ٢٨١؛ (المنزل على ابراهيم عشرة صحائف وعلى شيت: ١٥٠ صحيفة (ابن الأثير **الكامل** ج ١ ص ٢٩ وص ٧٠). أما الزبور فقد أنزل علي داود ويتضمن قصائد وأناشيد من تسبيح الله وحمده والثناء عليه والتضرع له (عبد الوهاب النجار: **قصص الأنبياء** ص ٣٠٧).

(٤) سورة الأنعام: آية ١٥٦.

(٥) الشهرستاني: **الملل والنحل** ج ١ ص ٢٠٨.

(٦) انظر: (The Ency. of Islam Vol. 1. p. 264-266)

ويجوز مالك والأوزاعي، والزيدية عقد الذمة لغير المسلمين سواء أكانوا من وثنى العرب أو غيرهم مستندين إلى الآية الكريمة ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ وقد نزلت هذه الآية قبل نزول آية الجزية، ولما نزلت آية الجزية أخذها الرسول من المجوس، وهم ليسوا من أهل الذمة، وهذا دليل على جواز أخذها من المجوس، وان كان الرسول لم يأخذ الجزية من عبدة الأوثان من العرب لأنهم أسلموا جميعاً بسبب الآية ﴿فاقتلوا المشركين﴾ التي نزلت قبل نزول آية الجزية. ويقول زيدان: ولأن كفر المجوس أشد من كفر عبدة الأوثان لأنهم يقرون بتوحيد الله بخلاف المجوس الذين لا يقرون بالتوحيد[1].

وقد استندت المذاهب الفقهية في قبول الجزية من المجوس إلى قول الرسول فيهم: (سنوا بهم سنة أهل الكتاب غير ناكحي نسائهم، ولا آكلي ذبائحهم)[2].

وترد في كتب الفقه، والتاريخ على الطوائف الدينية من غير المسلمين إسم (المعاهدون) وهم الذين كتبوا العهود مع المسلمين على ترك القتال، والموادعة، والأمان[3]. على أنفسهم، وأموالهم، ونسائهم، وعقائدهم لأنهم أصحاب عهد يلتزم المسلمون بالمحافظة عليه، فإن كانوا هؤلاء في دار الإسلام اعتبروا من أهل الذمة، وتطبق عليهم أحكام الذمة، أما إذا كان المعاهدون الذين سالموا وهادنوا المسلمون بالتوقف عن القتال، فإن دخلوا في دار الإسلام لم يتعرض لهم أحد بسوء لأنه آمن بتلك المعاهدة، وان كتب الفقه ترمي من استعمال اصطلاح المعاهدون على أهل دار الحرب الذين يعقدون المعاهدات مع المسلمين على ترك القتال.

---

(١) انظر: زيدان أحكام الذميين ص ٢٨.

(٢) رواه الشافعي في: المنن في جمع وترتيب مسند الشافعي السنن ج ١٠ ص ١٢٦؛ ومالك في الموطأ ج ٢ ص ١٣٩؛ سحنون المدونة الكبرى ج ٣ ص ٤٦.

(٣) الكاساني: بدائع الصنائع ج ٧ ص ١٠٦ و١٠٨.

وهم يسمون أحياناً (الجوالي)[1] وهم أهل الذمة الذين أجلاهم عمر بن الخطاب من جزيرة العرب، ثم نقلت هذه اللفظة إلى الجزية التي أخذت منهم، واستعملت في كل جزية تؤخذ، وإن لم يكن صاحبها جلا عن وطنه[2] . وجاء في كتاب الجامع المختصر[3] (الجوالي) (وهم أهل الذمة في بلاد الإسلام، ويؤدون إلى الخليفة الجزية بمقتضى الشريعة).

ومهما يكن من تعدد التسميات فإن التسمية الشائعة عند الفقهاء، والمؤرخين إسم (أهل الذمة)، وهم اليهود، والنصارى، والمجوس، والصابئة[4] والسامرية[5] (هم من اليهود أتباع السامري الذي ورد ذكره في القرآن في سورة الأعراف ﴿وأضلهم السامري﴾ وقيل اسمه موسى بن ظفر)[6] فقد اعترف الإسلام باليهود، والنصارى كرعايا المسلمين ضمن الدولة الإسلامية، وأن وجودهم لا يتناقض أبداً والأسس الدينية الإسلامية[7] .

وقد اختلف الفقهاء في الحقوق الدينية لغير أهل الكتاب، وأعظم الخلاف

---

(١) الجوالي: جمع (جالية) أصلها الجماعة التي تفارق وطنها وتنزل على وطن آخر كما أنها تستعمل أحياناً محل لفظة (جزية). (**رسائل الصابىء** ص ١٤٠ و٤١٢؛ الدوري: **تاريخ العراق الاقتصادي** ص ١٩٦).

(٢) أبو يوسف الخراج: ص٣ حاشية (١)؛ **سيدة كاشف** الوليد بن عبد الملك ص ٩٧.

(٣) ابن الساعي: **الجامع المختصر** ص ٢٥٩.

(٤) أبو يوسف الخراج: ص٢٣؛ الماوردي: **الأحكام السلطانية** ص ١٢٨؛ ترتون: **أهل الذمة في الإسلام** ص ٩.

(٥) السامرية: من فرق اليهود ينقسمون إلى عدة طوائف كالربانيين والقرائيين ممن ينكرون على السامرين أن يكونوا يهوداً لاختلاف التوراة التي بيدهم عما في يد الطوائف اليهودية الأخرى. وقد تسموا بهذا الإسم نسبة إلى السامري، وهم قبيلة من قبائل بني اسرائيل وقد زعمت هذه الطائفة بأن نابلس هي القدس وهم يصلون إلى الجبل الذي قبلة نابلس (الشعارين: **غذاء الألباب** ج ٢ ص ١٢).

(٦) القلقشندي: **صبح الأعشى** ج ١٣ ص ٢٦٨.

(٧) أنظر:

Watt: *Islam and The Integration of Society,* p. 150.

بينهم كان في أمر المجوس هل هم من أهل الكتاب؟، وهل يحل المسلم مناكحتهم، وأكل ذبائحهم؟

واعتقاد الفقهاء بأن الكتب المنزلة على اليهود والنصارى قد بشرت بنبوة محمد ورسالته، وانهم طمسوا هذه البشائر بتأويلات خاطئة[1]. فيصح معه الاعتراف بأنهم أهل كتب منزلة رغم التحريف.

واختلفوا في أمر المجوس فقال الإمام مالك[2]: (في المجوس ما قد بلغك عن عبد الرحمن بن عوف أنه قال: قال رسول الله (سنوا بهم سنة أهل الكتاب) فالأمم كلها في هذا بمنزلة المجوس عندي).

وان ما جاء في وصايا الرسول لقواد جيشه يشمل جميع غير المسلمين بعقد الذمة معهم أو قتالهم بقوله: (وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى خصال ثلاث، فأيتهن أجابوك إليها فاقبل منهم وكف عنهم، أدعهم إلى الإسلام، فإن هم أبوا فاسئلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم، وان هم أبوا فاستعن عليهم بالله وقاتلهم)[3].

ولما كان المجوس في العراق، وفارس بأعداد كبيرة، ولا يمكن معه قتلهم جميعاً أو سبيهم فلم يكن من الناحية الواقعية تطبيقه، فوجدت الدولة الإسلامية نفسها مضطرة للتسامح مع الأقوام الذين هم من غير أهل الكتاب[4]. واعتبرتهم بمصاف أصحاب الكتب المنزلة.

---

(١) انظر: دائرة المعارف الإسلامية ج ٣ ص ١٠٨؛
Watt: *Islam and The Integration of Society* p. 260.

(٢) سحنون: المدونة الكبرى ج ٣ ص ٤٦.

(٣) صحيح مسلم: ج ٧ ص ٣١٠؛ ابن الديبع: تيسير الوصول ج ١ ص ٢٣٢، ٢٣٣؛ مسند ابن ماجه ص ٢ ج ١٩٩؛ سنن أبي داود ج ٣ ص ٤١٦؛ سنن الترمذي ج ٧ ص ١١٩؛ مسند ابن حنبل ج ١٤ ص ٤٦.

(٤) انظر: دائرة المعارف الإسلامية ج ٩ ص ٣٩٠ و٣٩١.

لقد أثار اعتبار المجوس أهل كتاب جدل ونقاش بين فقهاء المسلمين. فروى أبو يوسف[1]: (ت ١٨٢هـ/ ٧٩٨م) (ان فروة بن نوفل الأشجعي قال: إن هذا لأمر عظيم يؤخذ من المجوس الجزية، وليسوا بأهل كتاب فقام إليه المستور بن الأخنف فقال: طعنت على رسول الله فتب، وإلا قتلتك والله، وقال: قد أخذ رسول الله من مجوس أهل هجر الجزية. قال: فارتفعنا إلى علي بن أبي طالب فقال: سأحدثكما بحديث ترضيانه جميعاً عن المجوس: ان المجوس كانوا أمة لهم كتاب يقرأونه. . . فأخذ رسول الله الخراج لأجل كتابهم، وحرم مناكحتهم، وذبائحهم لشركهم). وروى أبو يوسف أيضاً: عن علي بن أبي طالب أن رسول الله، وأبا بكر، وعمر أخذوا الجزية من المجوس، وقال علي: (أنا أعلم الناس بهم كانوا أهل كتاب يقرأونه، وعلم يدرسونه، فنزع من صدورهم)[2].

ويؤكد البلاذري[3] (ت ٢٧٩ هـ/ ٨٩٢ م): قوله في أن المجوس هم من أهل الكتاب فيروى: أن عمر بن الخطاب جلس إلى بعض صحابة الرسول فقال: ما أدري كيف أصنع بالمجوس؟ فروى عبد الرحمن بن عوف فقال: أشهد على رسول الله أنه قال ﴿سنوا بهم سنة أهل الكتاب﴾، وقد بعث عمر بن الخطاب إلى واليه علي مناذر كتاباً (أنظر مجوس من قبلك فخذ منهم الجزية، فإن عبد الرحمن بن عوف أخبرني أن رسول الله أخذ الجزية من مجوس هجر)[4].

وروى الزهري عن النبي (أمر الله بأخذ الجزية من أهل الكتاب، وأمر النبي بأخذها من المجوس، وعمل بذلك الخلفاء)[5]. وقيل إن رسول الله: أخذ الجزية من مجوس البحرين، وأخذها عمر من فارس، وأخذها عثمان من

(١) أبو يوسف الخراج: ص ١٢٩.
(٢) أبو يوسف الخراج: ص ٧٤.
(٣) البلاذري: فتوح البلدان ص ٢٧٦؛ أبو عبيدة: الأموال ص ٧٢٤.
(٤) شرح المالكي: لصحيح الترمذي ج ٣ ص ٨٤.
(٥) نفس المصدر السابق، ج ٣ ص ٨٦.

البربر)[1]. أما الشهرستاني[2] (ت ٥٤٨ هـ/ ١١٥٣ م): فيذكر أن المجوس لهم شبهة كتاب، فإن الصحف التي نزلت على إبراهيم قد رفعت إلى السماء لأحداث أحدثها المجوس، ولهذا يجوز عقد العهد والذمام معهم. ولكن لا يجوز مناكحتهم، ولا أكل ذبائحهم، فإن الكتاب قد رفع عنهم).

وذكر أبو عبيدة[3] (ت ٢٢٤ هـ/ ٨٣٨ م) (كتب رسول الله إلى مجوس هجر يدعوهم إلى الإسلام فمن أسلم قبل منه، ومن لا ضربت عليه الجزية على أن لا تؤكل له ذبيحة، ولا تنكح له امرأة، كما صالح الرسول أهل البحرين، ومعظمهم من المجوس، وأمر عليهم العلاء بن الحضرمي، وبعث أبا عبيدة بن الجراح ليجمع الجزية منهم).

ويقول الماوردي[4] (ت ٤٥٠ هـ/ ١٠٥٨ م): ان أهل الكتاب هم اليهود، والنصارى، وكتابهم التوراة، والإنجيل، ويجري المجوس مجراهم في أخذ الجزية، وان حرم أكل ذبائحهم، ونكاح نسائهم، وتؤخذ من الصابئة، والسامرة إذا وافقوا اليهود، والنصارى في أصل معتقدهم).

ويرى بعض الفقهاء: ان المجوس ليسوا من أهل الكتاب، فلا يجوز أخذ الجزية منهم. فروى أبو عبيدة[5] (ت ٢٢٤ هـ/ ٨٣٨ م) في الأموال: ان أبا موسى الأشعري قال: (لولا أني رأيت أصحابي يأخذون من المجوس الجزية ما أخذتها، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن بن علي يسأله: ما بال من مضى من الأئمة قبلنا أقروا المجوس على نكاح الأمهات، والبنات؟ فكتب إليه الحسن: أما بعد فإنما أنت متبع، ولست بمبتدع، وكتب عمر بن الحرث إلى

(١) نفس المصدر السابق ج ٣ ص ٨٥.
(٢) الشهرستاني: **الملل والنحل** ج ١ ص ٢٠٨.
(٣) أبو عبيدة: **الأموال** ص ٢١.
(٤) الماوردي: **الأحكام السلطانية** ص ١٢٧.
(٥) أبو عبيدة: **الأموال** ص ٣٦.

ربيعة بن عبد الرحمن يسأله عن المجوس، وكيف يثبت عليهم الجزية؟ فكتب ربيعة: قد كان لك في أمر من قد مضى ما يغنيك عن المسألة عن مثل هذا)[1].

وأشار أبو يوسف[2] (ت ١٨٢ هـ/ ٧٩٨ م) إلى ذلك فقال: (أخذ عديّ بن أرطأة عامل الخليفة عمر بن عبد العزيز في العراق الجزية من المجوس).

ويعلق الخربوطلي[3] على إجراءات المسلمين في المجوس فيقول: (إن الدولة الإسلامية كانت في سياستها تخطط لأعوام كثيرة عديدة، وهي وان تركت المجوس بعد الفتوحات الإسلامية على دينهم، فقد كانت تعلم أن الجيل الثاني، أو الثالث من المجوس سيقبل على اعتناق الإسلام، وقد حدث هذا فعلاً، فقد تناقص عدد المجوس على مر السنين تناقصاً ملحوظاً، واعتنقت الغالبية منهم العقيدة الإسلامية). وخاصة منذ زمن الحجاج حيث ازداد عدد من دخل في الإسلام بحيث أدى إلى تناقص مقدار الأموال الواردة إلى بيت المال، مما اضطر الحجاج إلى فرض الجزية على من أسلم من أهل الذمة.

ويقول المستشرق ترتون[4]: (الواقع أن المجوس كان عددهم كبير، وكانوا يعاملون معاملة الشعوب المعاهدة، وان العهود التي أعطيت لهم أباحت لهم مطلق الحرية في ممارسة شعائرهم الدينية، ولم يكن ذلك مجرد حبر على ورق).

والخلاصة: ان ما جاء في الحديث المحفوظ عن النبي، بأخذ الجزية من المجوس، واعتبارهم أهل كتاب بقوله (سنوا بهم سنة أهل الكتاب)[5] وما رواه علي بن أبي طالب فيهم: (أنهم كانوا أمة لهم كتاب يقرأونه) وكتابهم «الافستاء»

---

(١) نفس المصدر السابق ص ٣٦.
(٢) أبو يوسف الخراج: ص ١٣١.
(٣) انظر: الخربوطلي الإسلام، وأهل الذمة ص ٧٨.
(٤) انظر: ترتون أهل الذمة في الإسلام ص ١٠٢؛ سحنون المدونة الكبرى ج ٣ ص ٤٦.
(٥) سحنون المدونة الكبرى ج ٣ ص ٤٦.

وهم يعتقدون بنبوة زرادشت. ولما أشار القرآن إلى أهل الكتـاب لم يحدد فصائلهم مما يجوز اعتبارهم من فصائل أهل الكتاب، وتجري عليهم جميع الأحكام استناداً إلى ما جاء في القرآن ﴿ان الذين آمنـوا، والذين هـادوا، والصابئين، والنصارى، والمجوس، والذين أشركوا ان الله يفصل بينهم يوم القيامة، ان الله على كل شيء شهيد﴾[١] . فقد ذهب الظاهرية أتباع مالك إلى جواز زواج المسلم بالمجوسية بحجة أنها من أهل الكتاب[٢] . ولأنه روى أن حذيفة بن اليمان تزوج مجوسية، ولأن المجوس يقرون بالجزية، فأشبهوا اليهود والنصارى[٣] . وربما جاء هذا الإجراء من المرونة السياسية التي كان يتمتع بها الخلفاء الراشدون في نظرتهم إلى المجوس، حيث كانوا يمثلون أعداداً هائلة تمتد أراضيهم بين حدود العراق الشرقية وحدود الصين، فلا يمكنهم بمثل هذه الحالة إجبارهم جميعاً على الإسلام، أو قتلهم جميعاً، وإنما تركوهم للزمن، ولحسن المعاملة الكفيلة بتحويلهم إلى الإسلام.

ويقول الخربوطلي[٤] فيهم (المجوس) يمكن اعتبار ورودهم في القرآن مع أهل الكتاب (اليهود والنصارى) عامل من عوامل اعتبارهم من أهل الكتاب، على اعتبار أن القرآن نظر إليهم نظرة المساواة في أكثر من آية واحدة، مما يحملنا على الاعتقاد أنهم جزء من أهل الكتاب. وورد في القرآن حول أكل ذبائحهم، وحلال نساءهم للمسلم بقوله تعالى ﴿اليوم أحل لكم الطيبات، وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم، وطعامكم حل لهم، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾[٥] .

وقد فصل الفقهاء في كيفية جواز أكلها فقالوا: لا بأس بذبيحة أهل

---

(١) سورة الحج: آية ١٧.
(٢) ابن حزم المحلي، ج ٩ ص ٤٤٥.
(٣) انظر: زيدان **أحكام الذميين** ص ٣٤٥.
(٤) انظر: الخربوطلي: **المجوس والمجوسية** ص ١٦٧.
(٥) سورة المائدة: آية ٤.

الكتاب إذا أهلوا الله وسموا عليه، فقال تعالى ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه﴾ سواء ذبحه مسلم أم كتابي[1]. كما أباح علي بن أبي طالب أكل ذبائحهم لدخولهم (المجوس) في عموم قوله تعالى ﴿وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ ولأنهم أهل كتاب يقرون على دينهم ببذل المال، فتحل ذبائحهم ونساؤهم[2].

فكيف لا يجوز الفقهاء ذبائح المجوس، ونكاح نسائهم، ويحلون وطأ سباياهم، فقد أجاز الرسول استرقاق سباياهم، ويجوز لساداتهم وطأهن بعد انقضاء عدتهن، كما في حديث أبي سعيد الخدري أنه قال: «لا توطأ حامل حتى تضع، ولا حائض حتى تتبرأ بحيضة. فيجوز وطأهن بعد الاستبراء ولم يشترط الإسلام»[3].

كما يجوز مناكحة اليهود والنصارى، والذين هم أيضاً في عداد المشركين استناداً إلى ما ورد في القرآن ﴿وقالت النصارى المسيح ابن الله، وقالت اليهود العزيز ابن الله﴾[4]. وقال تعالى فيهم أيضاً: ﴿اتخذوا أحبارهم، ورهبانهم أرباباً من دون الله، والمسيح بن مريم، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون﴾[5]. واستناداً إلى هذه الآيات الكريمة أصبح اليهود والنصارى في عداد المجوس من حيث الإشراك، وفي هذه الحالة تطبق أحكام الإسلام عليهم جميعاً بصورة عادلة. وان الاعتراف بالمجوس كأهل ذمة ليس مبنياً على ما جاء به الفقهاء حيث اعتبروهم في حساب الجزية، وإنما اعترف الرسول، ومن جاء بعده من الخلفاء بأنهم أهل كتاب، بدليل أقروهم على مجوسيتهم، وعلى ممارسة شعائرهم الدينية، والإبقاء على بيوت النار، كما أن العهود التي كتبت لهم في خلافة أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، كانت

---

(١) ابن القيم الجوزية: **أحكام أهل الذمة** ص ٢٤٤، ص ٢٤٦.
(٢) نفس المصدر السابق، ص ٨٧.
(٣) نفس المصدر السابق، ص ١٦، (تعليق المحقق).
(٤) سورة التوبة: آية ٣٠.
(٥) سورة التوبة: آية ٣١.

مستوحاة من هذه السياسة، وكيف لا يصح أكل ذبائحهم والعهود تنص عليهم بوجوب ضيافة ابن السبيل من المسلمين ثلاثة أيام، ويطعمونهم من وسط ما يأكلون[1].

ويبدو أن الفقهاء قد تطرف بعضهم، وبالغ في تفسير معاملة المجوس، وحملوا النصوص الفقهية، والتاريخية أكثر من طاقتها، فإن، جميع بلاد فارس عند الفتح الإسلامي، كانوا من المجوس، وان وجود النص (ضيافتهم للمسلمين) في جميع عهودهم لدليل واقعي على جواز أكل طعامهم، وهذا يتناقض مع ما أشار إليه الفقهاء. كما أن إجراءات الرسول، والخلفاء، في معاملة المشركين العرب داخل الجزيرة العربية كانت مبنية على عزلهم، وعدم التسامح معهم لإجبارهم على الدخول في الإسلام، مستندين إلى حديث الرسول «لا يجتمع دينان في بلاد العرب» ورغم هذا فقد تسامح الرسول كثيراً مع مشركي العرب في الجزيرة العربية، وواجه مشكلة اجتماعية خطيرة هي مشكلة من أسلم من المشركين وعبدة الأوثان وبقاء زوجاتهم على الإشراك أو إسلام بعض الزوجات، وبقاء أزواجهن على دينهن، وأبرز مثل على ذلك حديثاً عن عائشة قالت: كان في أساري بدر أبو العاص بن الربيع... وكانت أمه هالة بنت خويلد أخت خديجة زوج الرسول فسألته أن يزوجه زينب ففعل قبل أن يوحى إليه، فلما أوحي إليه آمنت به زينب، وكان رسول الله (مغلوباً) بمكة، ولم يقدر أن (يفرق بينهما) فبقيت مع زوجها بعد هجرة الرسول إلى المدينة. فلما خرجت قريش إلى بدر خرج معهم أبو العاص فأسر، فلما بعثت قريش الأساري بعثت زينب بنت الرسول في فداء زوجها أبي العاص بن الربيع بقلادة لها كانت عند خديجة أدخلتها معها على أبي العاص، فلما رآها رسول الله رق لها رقة شديدة ثم قال: (إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها الذي لها فقالوا نعم)[2]. فأسلم وردت له زوجه وأطلقت له حريته.

---

(١) البلاذري: **فتوح البلدان** ص ٣٩٠؛ ابن القيم: **أحكام** ص ٧٧٩.

(٢) ابن الأثير: **الكامل** ج ٢ ص ٩٤؛ ابن الديبع: **تيسير الوصول إلى جامع الأصول من حديث الرسول** ج ٣ ص ٢٠٠.

أما الصابئة فقد اختلف الفقهاء، والمفسرون المسلمون في أصلهم، وأصل عقيدتهم، وان أغلب الفقهاء اعتبروهم من أهل الكتاب، وإن لم يشهد لهم القرآن بكتاب[1]. لأن اسمهم ورد في القرآن مع اسم اليهـود والنصارى والمجوس، وقيل عن الحسن البصري: أنه كان يقول في الصابئة هم بمنزلة المجوس. ويقول الأوزاعي: كل دين بعد الإسلام سوى اليهودية، والنصرانية والمجوس، وأكثر فقهاء العراق يجعل الصابئة منزلة المجوس. وقال مالك: الصابئة كالمجوس لأن القرآن لا يصدقهم بكتاب[2].

ولما كان الفقهاء يعترفون بالصابئة بأنهم بمنزلة المجوس، وورد اسمهم في القرآن مع المجوس، فلما صح عند بعض الفقهاء اعتبار المجوس بمنزلة أهل الكتاب فعلى القياس يصح اعتبار الصابئة من ضمن أهل الكتاب أيضاً.

وقد ورد ذكر الصابئة في القرآن في ثلاث آيات مما يحملنا على الاعتقاد أنهم أصحاب دين خاص يشمل طائفة معينة كاليهودية، والنصرانية، والمجوسية التي أشار إليهم القرآن، فأصبحوا هم بمنزلة هذه الطوائف الدينية، وفي هذه الحالة تحل مناكحتهم، وأكل ذبائحهم كاليهود والنصارى، وان ما أشار إليه القرآن هو الصحيح حيث قصد الصابئة المغتسلة (المندائيون) الذين كانوا وما زالـوا يعيشون في جنـوب العراق ومنـذ آلاف السنين، ولم يقصـد القرآن (الحرانيون) الذين تسموا بالصابئة، والذين برزوا في التاريـخ منذ العصـر العباسي الأول.

وقد أورد ابن القيم[3] (ت ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م) في معرض حديثه عن أحكام نكاح أهل الذمة، واعترف الإسلام بعقود النكاح المعقودة قبل الإسلام بدليل أن الرسول لم يأمر أحداً (وحتى أبي العاص زوج ابنته زينب) بتجديد

---

(١) أبو عبيدة: **الأموال** ص ٧٢٥.

(٢) أبو عبيدة: **الأموال** ص ٧٢٦.

(٣) ابن القيم: **أحكام أهل الذمة** ص ٣٠٩.

عقده على امرأته بعد إسلامه، فلو كانت أنكحة الكفار باطلة لأمرهم بتجديدها).

وقد أورد ابن القفطي[1] (ت ٦٤٦ هـ/ ١٢٤٨ م) رواية مفادها أن أبا حنيفة وصاحبيه أبا يوسف، ومحمد اختلفوا في نكاح الصابئية، وأكل ذبائحهم فحرمها أبو حنيفة، وأحلها صاحباه فقال: أصحابهم: انه ليس بخلاف على الحقيقة، وإنما هو خلاف في الفتوى، لأن أبا حنيفة عنى الصابئين الحرانيين، وهم معروفون بعبادة الكواكب، فأجراهم مجرى عبدة الأوثان في تحريم المناكحة، والذبائح، وصاحباه سئلا عن الصابئين الذين يسكنون البطيحة في العراق، وهم فرقة من النصارى يؤمنون بالمسيح، فأجابا بجواز ذبائحهم، ومناكحتهم، ولو سئل أبو حنيفة عن هؤلاء لأفتى بفتوى صاحبيه، ولو سئل صاحباه عن الفرقة التي عنا لافتيا بمثل قوله.

ولما كان بحثنا يتناول صابئة العراق (المندائيون) فإن أحكام أبا يوسف ومحمد تنطبق عليهم، فيجوز في هذه الحالة أكل ذبائحهم ونكاح نسائهم.

والحقيقة ان صابئة العراق هم يعتقدون بالله، ويؤمنون بالآخرة، ويدعون أنهم يتبعون تعاليم آدم، وان نبيهم يحيى جاء لينقي دين آدم مما علق به من أساطير، وخرافات، وان كتابهم المقدس يسمونه (الكنزابرا) أي صحف آدم، وصلاتهم تقتصر على الوقوف، والركوع، والجلوس على الأرض دون السجود، ويؤدونها في اليوم ثلاث مرات قبل طلوع الشمس، وعند زوالها، وقبيل غروبها، ويتوجهون في صلاتهم إلى النجم القطبي[2]. فلذلك عوملوا كبقية أهل الكتاب.

وقد خالط اليهود، والنصارى، والصابئة، والمجوس، المسلمين في جميع نواحي الحياة بل لقد كان أثر ديانة، وتقاليد بعضهم ولا سيما المجوس، واضحة

---

(١) ابن القفطي: تاريخ الحكماء ص ٣١١.
(٢) انظر: الحسني الصابئة في حاضرهم وماضيهم، ص٤٣ وما بعدها.

حتى في أفكار، وتعاليم بعض الفرق الإسلامية، وفي إسهام المسلمين معهم بالاحتفال بأعياد النصارى، والمجوس، لا سيما النوروز والمهرجان. والتأثر بعاداتهم وتقاليدهم.

ولو رجعنا إلى عهد الفتوحات الإسلامية لرأينا أن الأسرى من نساء المجوس، والصابئة وطأها المسلمون وأولدوهن، وليس لدينا ما يؤكد أن الخلفاء العباسيون اجبروهن على الإسلام قبل وطئهن.

□ □ □

الباب الثاني

موقف أهل الذمة من الفتح الإسلامي وأحكام الإسلام والخلفاء فيهم



الفصل الأول

موقف أهل الذمة من الفتح العربي الإسلامي

كانت العلاقة بين العرب في العراق، وحكامهم الفرس قبل الفتح الإسلامي تأخذ شكل النزاع، والحروب تارة، والأمن والاستقرار تارة أخرى، ولكنها كانت في جميع الحالات قائمة على استضعافهم للعرب، وقيامهم بسلسلة من الهجمات الفارسية على القبائل العربية في العراق، وخاصة بني شيبان، فكانوا طلائع الفتح الاسلامي في العراق، وكان المثنى بن حارثة الشيباني[1] أول قائد عربي تجرأ على مهاجمة الأمبراطورية الفارسية في عقر دارها[2]. ويوضح الهاشمي[3] غرض المثنى من مقاتلة الفرس، وذلك بكسر شوكتهم، وإبعادهم عن العراق وتخليص عرب العراق من النفوذ الفارسي، والعامل الآخر الذي له أهميته هو إسناد قبيلة بكر إلى حليف قوي، وهم المسلمون يساعدونهم على

---

(١) المثنى بن حارثة الشيباني: من شيبان بن ثعلبة وهم أبطال معركة ذي قار التي انتصف العرب من العجم لأول مرة في التاريخ (الأصفهاني: **الأغاني** ج ٢٠ ص٣١٨) واستمر المثنى في حالة مناوشة مع الفرس فبلغ أبا بكر الصديق عنه خبره فدعاه الخليفة وأمره على رجاله يهاجم بهم الفرس في العراق، وكتب له عهداً بذلك (البلاذري: **فتوح البلدان** ص٢٤٢) واستمر المثنى بمهاجمة أهل السواد ثم سأل الخليفة أبي بكر المدد فأمده بخالد بن الوليد، فقاتل المثنى تحت لواء خالد تارة وتارة قائداً مستقلاً، واشتبك في المعارك التي دارت في العراق حتى معركة الجسر ومات بعدها متأثراً بجروح الجسر وذلك في خلافة عمر بن الخطاب.

(٢) محمود شيت: **خطاب قادة فتح العراق والجزيرة** ص ٢٥، طبع دار القلم القاهرة.

(٣) انظر: طه الهاشمي: **خالد بن الوليد في العراق** م ٣ ج ٢ ص ٢٣٧، **مجلة المجمع العلمي العراقي**.

خصومهم بني تغلب حلفاء الفرس. فاستمرت القبائل العربية في حالة حرب متقطعة مع الفرس، حيث كانت قبيلة بكر بزعامة المثنى تناوش جيش الفرس ريثما يتم وصول الجيوش الإسلامية، فسار خالد إلى العراق بجحافله الجرارة يحملون لواء الإسلام لنشره فيه، واستطاع خالد بن الوليد، وجيشه أن يحرز نصراً، وفتحاً عظيمًا لإيمانهم بالجهاد وتضحياتهم في سبيل العقيدة، ففتحوا العراق أولاً، ثم فارس، وقضوا على الأمبراطورية الفارسية، وقد وقف النصارى العرب ورؤساؤهم من الفتح الإسلامي موقف المؤيد، والمناصر للعرب المسلمين أثناء فتح العراق، وأمدوا جيوشهم بالمدد المختلفة، وتعود هذه الصلات الطيبة بين العرب النصارى والمسلمون إلى عهد الرسول، فقد أرسل يشوعيب الجاثليق (زعيم طائفة النصارى) هدايا إلى النبي محمد، وفي جملتها ألف ستارة فضية مع جبرائيل أسقف ميسان، وكاتب الرسول، وسأله الإحسان إلى النصارى[١]. وبره الرسول بعدة من الإبل، وثياب عدنية[٢].

وبعث الجاثليق الجدالي رسالة إلى أحد الأساقفة في بلاد فارس يقول له فيها: (إن العرب الذين وهبهم الله الملك يحترمون الديانة المسيحية، ويودون القسس والرهبان، ويكرمون أولياء الله، ويحسنون إلى الكنائس والأديار[٣]. وعندما أرسل الخليفة أبو بكر الصديق (١٠ ــ ١٢ هـ/٦٣٢ ــ ٦٣٤م) خالد بن الوليد لتحرير العراق، فزحف إلى الحيرة، وفتحها صلحاً[٤]. فرحب به النصارى، وأنزلوا جنده في كنائسهم وأديرتهم[٥]. وفي عهد عمر بن الخطاب (١٣ ــ ٢٣هـ/ ٦٣٤ ــ ٦٤٣م) أسند القيادة العامة للجيوش الإسلامية إلى سعد بن أبي وقاص، فعسكر في القادسية وفتحها سنة (١٦هـ/٦٣٧م). وواصل

---

(١) مؤلف مجهول: **التاريخ السعودي** ج ٢ ص ٦١٨ و٦١٩.
(٢) انظر: ماري سليمان: **أخبار فطاركة كرسي المشرق** ص ٦٢.
(٣) المصدر السابق ص ٦١ و٦٢؛ نصري: **ذخيرة الأذهان** ج ١ ص ٢٤٩ و٢٥٠؛ شير: **تاريخ كلدو واثور** ج ٢ ص ٢٥١ ــ ٢٥٥؛ **الصائغ** ج ٢ ص ٢٠ و٢١.
(٤) ابن العبري: **تاريخ مختصر الدول** ص ١٦٩.
(٥) الطبري: **تاريخ** ج ٤ ص ١٢؛ ابن الأثير: **الكامل** ج ٢ ص ١٤٧ ــ ١٥٠.

زحفه في تحرير العراق، وقد عقد المسلمون صلحاً مع نصارى الحيرة على أن يكونوا لهم عيوناً على الفرس، وحين صالحهم خالد دفعوا له مبلغاً كبيراً من المال، وقدموا له هدايا، فبعث بها إلى الخليفة أبي بكر، فأمر الخليفة بأن تحسب لهم هديتهم من الجزية. وفي واقعة البويب عاون النصارى المسلمين، وكان قاتل القائد الفارسي نصرانياً من العرب[1].

ولما تقدمت الجيوش الإسلامية لإتمام تحرير العراق، وما أن وصلت تكريت حتى فتح رئيس الأساقفة (أماروثا) أبواب القلعة للجيوش الإسلامية[2]. ولما صارت هذه الجيوش إلى الموصل حمل (مارامه الأرزوني) الميرة والمؤن إلى جنود المسلمين يوم نزولهم الموصل، وساعد رئيسهم عبد الله بن المعتم على الفتح[3].

وتكريماً لهذه المواقف العربية الطيبة التي وقفها النصارى ورؤساؤهم من الفتح العربي الإسلامي أن كتب الخلفاء والولاة، والقواد، العهود والمواثيق للنصارى يتعهدون فيها حماية أرواحهم، وأموالهم، وكنائسهم، ودياراتهم، فقد كتب الخليفة عمر بن الخطاب إلى الجاثليق يشوعياب الجدالي عهداً وذماماً لطائفته[4]. كما كتب علي بن أبي طالب إلى الجاثليق مارامة الأرزوني كتاب أمان، وبالوصاية له على النصارى، ورعاية ذمتهم، وكان يظهره لكل من تولى رئاسة الجيوش فيمتثلونه[5].

وقال الجاثليق يشوعياب الحديابي الذي كان يرأس طائفته في أيام

---

(١) انظر: الخشاب التقاء الحضارتين ص ٩٢.

(٢) انظر: نصري: ذخيرة الأذهان ج ١ ص ٣٣١.

(٣) انظر: سليمان: أخبار فطاركة المشرق ص ٦٢؛ نصري: ذخيرة الأذهان ج ١ ص ٢٤٩ ــ ٢٥٣.

(٤) انظر: ماري: كرسي المشرق ص ٦٢.

(٥) نصري: ذخيرة ج ١ ص ٢٥٩ و٢٦٠؛ داود: مختصر المختصر في تواريخ الكنيسة ص ٢٢٦.

عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب: (أن العرب الذين أعطاهم الله حكم العالم اليوم ليسوا أعداء النصرانية فهم يحترمون ديننا، ويكرمون القديسين والكهنة، ويساعدون الديرة والكنائس)[1] .

وقد أشار القرآن إلى مودة النصارى، وتواضعهم للمسلمين بقوله تعالى: ﴿ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا، الذين قالوا أنّا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون﴾[2] .

وكتب المستشرق الفرنسي دونال في كتابه تاريخ الرها: (إن عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب أحسنوا إلى النصارى، وقربوهم منهم، وولوا بعضهم على البلاد التي كان معظم سكانها نصارى، واكتفوا بطلب الجزية منهم)[3]. وقد كان الولاة، وقواد الجيوش يستعملون النصارى أدلاء ويولونهم المدن، والقرى، كما كان الأطباء، والمتولون على الخزائن، والكتاب غالباً من النصارى[4] .

رحَّب أهل العراق بالفتح الإسلامي لأنهم وجدوا فيه المنقذ الذي يخلصهم من ظلم دولة الأكاسرة الساسانية[5]. كما وجدوا فيه تخليصاً من الخدمة العسكرية وأملاً في تمتعهم بالحرية الدينية، هذا بجانب المميزات الأخلاقية التي تمتع بها العرب الفاتحون[6] .

ومع أن أغلبية النصارى العرب ساندوا الفاتحين، فإن موقف البعض منهم أول الأمر كان الموقف الموالي للفرس، ولم يكن ذلك حباً بهم، وإنما خوفاً من

---

(١) انظر: ترتون: أهل الذمة في الإسلام، ص ١٤٩؛
Bishop of Marga The Book of Governors, Vol. II; p. 156.

(٢) سورة المائدة: آية ٨٢.

(٣) انظر: مجلة النجم ج ١ ص ٥٧، ٤٤٢ للبطريكية الكلدانية في الموصل.

(٤) انظر: داود: مختصر المختصر في تواريخ الكنيسة ص ٢٢٧.

(٥) انظر: لوبون: حضارة العرب ص ١٦٩.

(٦) انظر: الخربوطلي الإسلام وأهل الذمة ص ١٠٢.

قسوة السلطان الفارسي، واحتماءً بهذا السلطان من غارات الجيوش العربية التي اعتبروها أول الأمر مجرد غارات نهب وسلب، إلا أن موقفهم تغير بعد أن خضعوا للعرب، ورأوا عظم الفارق بينهم وبين حكامهم الفرس، فرحبوا بهم، واطمأنوا لحكمهم[1]. ففرض عليهم المسلمون الجزية على رؤوسهم، والخراج على أراضيهم، ولم يجبروا أحداً منهم على ترك دينه[2].

فالإسلام هو الدين الوحيد الذي لم يفرض بالقوة، بل أقبل الناس على اعتناقه بإرادتهم، واختيارهم[3]. ويؤيد ذلك المستشرق لوبون بقوله: (والحق أن الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب، ولا ديناً سمحاً مثل دينهم)[4]. فبقي القسم الأكبر من النصارى في العراق على دينهم منهم بنو تغلب الذين كانوا شديدي التمسك بعقيدتهم فرفضوا دفع الجزية، فصالحهم الخليفة عمر بن الخطاب على أن يدفعوا ضعف صدقة المسلم[5].

ويبدو أن الدوافع التي دفعت النصارى العرب لمساندة الجيوش الإسلامية أثناء الفتح هي الروابط القومية والعنصرية التي تربطهم بالعرب المسلمين من جهة، ولقساوة الحروب التي جرت بين العرب والفرس قبل الفتح الإسلامي، ولا سيما منذ أيام سابور ذي الأكتاف، وأنوشروان، وكسرى أبرويز. فيقول الخشّاب: (إن الثأر هو الذي سير الفتح، ودفع النصارى العرب لنصرة، ومؤازرة الجيوش الإسلامية)[6].

ولما انتشرت مبادىء الإسلام بين أفراد المجتمع الفارسي تلك المبادىء التي تؤمن بالمساواة، ولا تعترف بنظام الطبقات، فأعجبت الغالبية الفقيرة من

---

(١) ابن الأثير: **الكامل** ج ٢ ص ٣١٤.
(٢) الطبري: **تاريخ** ج ٤ ص ٧.
(٣) انظر: آرنولد: **الدعوة إلى الإسلام** ص ١٨٢.
(٤) انظر: لوبون: **حضارة العرب** ص ٧٢.
(٥) البلاذري: **فتوح البلدان** ص ١٨٦.
(٦) انظر: الخشاب: **التقاء الحضارتين الفارسية والعربية** ص ٩٣.

الفلاحين الفرس الذين كانوا رقيقاً للأرض، وعبيداً للدهاقين مما كان لها أثر كبير في إحجام الفلاحين عن نصرة ملوكهم في الحرب الدائرة بين العرب والفرس، كما أن أصحاب الديانات المجوسية المضطهدة كالمانوية، والمزدكية، الذين لم يروا ضيراً في أن يستبدلوا الإسلام بالزرادشتية تخلصاً من اضطهادهم، وتقرباً إلى الفاتحين المسلمين (١).

وأكرم المسلمون النصارى أكثر من سائر الأديان الأخرى، وعاملهم العمال أحسن معاملة، وقد اكتنفتهم الحماية، وظللهم التسامح، وبقيت مدارسهم مفتوحة كما كانت، ولم يكن الخلفاء، والأمراء يتدخلون في شؤونهم (٢).

أما اليهود فكانت مواقفهم تختلف عن مواقف النصارى، وذلك قبل الفتح الإسلامي، ومنذ هجرة الرسول إلى المدينة، فقد حاول الرسول أن ينظم العلاقة بينه وبينهم فوضع الصحيفة (٣) والتي هي بمثابة معاهدة حددت العلاقة بين المسلمين، وأهل المدينة من يهود وغيرهم، ويمكن اعتبارها أيضاً الدستور المدني لحكومة الرسول في المدينة، وقد تعهد فيها الرسول بالمحافظة على اليهود، وأموالهم ومصالحهم، وترك حرية ممارسة شعائرهم الدينية، ولكنهم أخذوا يكيدون للرسول والمسلمين، ويؤازرون أعدائهم، فقد صور القرآن مواقفهم من المسلمين بقوله تعالى: ﴿ولتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود، والذين أشركوا﴾ (٤) فقد حاول اليهود مقاومة الإسلام، وحركة انتشاره لأنهم أدركوا أنه سيقضي على نفوذهم بعد أن كانت الزعامة لهم في المدينة، ولكن الرسول استطاع أن يوقفهم عند حدهم بفرض سيطرته على المدينة باعتباره الحاكم الأعلى فيها، ومع ذلك فقد تسامح معهم لأن الإسلام اعترف باليهودية ديناً سماوياً،

---

(١) نفس المصدر السابق ص ٩٧ ـ ١٠٠.

(٢) انظر: أحمد أمين: فجر الإسلام ص ١٣٢.

(٣) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٤١ ـ ٣٤٤.

(٤) سورة المائدة: آية ٨٢.

ولذا فاتبع معهم الرسول سياسة التعايش السلمي ما داموا في طاعة الرسول من الناحية السياسية، وبقي اليهود يضمرون العداء للرسول، وللمسلمين، ويحاولون الإساءة إلى الإسلام كلما سنحت الفرصة المناسبة، واستطاع فيما بعد تشتيتهم، فلم يكن لهم خطر، فهجرهم إلى خارج المدينة كلما حاولت قبيلة منهم نقض عهد الرسول.

ولما فتح المسلمون العراق فقد عاملهم الفاتحين كمعاملة النصارى، باعتبارهم أهل ذمة، ولكنهم مع هذا التسامح، فقد لجأوا إلى الكيد للمسلمين، فاتخذ بعضهم من الإسلام ستاراً يكيدون من ورائه لهذا الدين الحديث، فأدخلوا فيه بعض الأساطير، والخرافات، التي لا تمت للإسلام بصلة، ولولا ما قام به علماء المسلمين، ولا سيما الفقهاء، والمحدثين من مقاومة ذلك الخطر الداهم لضاع الإسلام، ولعصفت به أعاصير تلك الضلالات، والبدع منذ القرن الأول الهجري[١].

ولما كان يهود العراق متفرقين في مدنه وقراه، ولم يكن عددهم كبيراً، وليست لهم تنظيمات سياسية ذات أثر، لذا فلم يكن لهم دور سياسي وعسكري أثناء حروب التحرير العربي الإسلامي، ويشير المستشرق ترتون[٢] إليهم فيقول: (إنهم فئة ضئيلة ليست بذات خطر، ففي فارس كان اليهود أقل بكثير من النصارى، ويبدو أن عددهم في العراق كان قليل، ولم يكن لهم شأن كبير).

أما المجوس من سكان العراق وفارس، وخاصة الفلاحون، والصّناع، وأصحاب الحرف، والطبقة العامة منهم، فقد رحبوا بالمحررين المسلمين عندما علموا أن الإسلام يدعو إلى الحرية والمساواة، ويرفض نظام الطبقات، ويعطي للفلاح حرية العمل في الأرض مقابل الخراج، بالإضافة إلى أن الإسلام يدعوهم إلى نبذ عبادة النار، وإلى عبادة إله واحد، كما أن حسن المعاملة ، كل ذلك كانت عوامل مشجعة على الإقبال على الإسلام والدفاع عنه.

---

(١) فان فلوتن: **السيادة العربية** ص ٨٨ الحاشية.

(٢) ترتون: **أهل الذمة في الإسلام** ص ٩٧.

لقد أدرك زعماء المسلمين أن ليس بوسعهم تحويلهم إلى مسلمين بالإجبار والإكراه (لا إكراه في الدين) كما لا يمكنهم، وبحسب تعاليم الإسلام أن يقتلوهم جميعاً لأنهم أعداد هائلة، فقد ترتب عليهم أن يسنوا بهم سنة أهل الكتاب في المعاملة وتركوا لهم حرية الخيار بين الإسلام أو البقاء على دينهم على أن يؤدوا الجزية عن رؤوسهم، والخراج عن أراضيهم. ويؤيد المستشرق دوزي[1] هذا الرأي بقوله: (إن تسامح ومعاملة المسلمين الطيبة لأهل الذمة أدى إلى إقبالهم على الإسلام، وأنهم رأوا فيه اليسر والبساطة مما لم يألفوه في دياناتهم السابقة).

ويؤكد المستشرق أرنولد، سياسة التسامح التي اتبعها المسلمون معهم بقوله[2]: (أن القوة والعنف لم تكن السبب في اتساع نطاق تحويل الناس إلى مسلمين، بدليل المعاملة الطيبة التي عامل بها العرب من ظل من الفرس على تمسكه بدينه المجوسي).

وهكذا فقد ترك الحكام المسلمون من بقي من أهل العراق على دينهم يمارسون حرياتهم الدينية وشعائرهم على أن يؤدوا الجزية عن رؤوسهم والخراج عن غلة أراضيهم مقابل حماية المسلمين لهم وعدم إشراكهم في الحرب، وأصبحوا في ذمة المسلمين ينعمون بالحرية والرفاهية.

□ □ □

(١) دوزي: نظرات في تاريخ الإسلام ص ٤١١.
(٢) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص ٢٣٨.

الفصل الثاني:

أحكام الإسلام في أهل الذمة

بعد قيام الفتوحات الإسلامية، ولا سيما بعد فتح العراق، وفارس، أصبح على المسلمين، وضع نظام يحدد الحقوق، والواجبات بينهم وبين الذميين من أهل البلاد المفتوحة، بما تتلاءم والإسلام، وإجراءات الرسول، والخلفاء الراشدين بعقد سلسلة من عهود الصلح، والأمان مع الذميين أطلق عليها في التاريخ الإسلامي «أحكام عقد الذمة».

وتعقد الذمة لكل شخص راغب من أصحاب الديانات التي أشار إليها القرآن، وقد شرع عقد الذمة لأول مرة بعد فتح مكة، ويؤيد ذلك آية الجزية التي تتضمن عقد الذمة، وهي قوله تعالى ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾[(١)].

ويتولى عقد الذمة الإمام، أو نائبه مع غير المسلمين فلا يصح غيرهما لأنه عقد مؤيد[(٢)]. ويشترط عقد الذمة عند الشافعية، والحنابلة شرطين هما: التزام دفع الجزية، والتزام أحكام الإسلام[(٣)]. وقال النبي فيهم: «إذا لقيت عدوك

---

(١) سورة التوبة: آية ٢٩.

(٢) انظر: زيدان: **أحكام** ص٢٣؛ القلقشندي: **صبح الأعشي** ج١٣ ص ٣٦٠.

(٣) ابن إدريس الحنبلي: **كشاف القناع** ج١ ص ٧٠٤؛ الشربيني: **مغني المحتاج** ج ٤ ص ٢٤٢ و٢٤٣.

من المشركين، فادعهم إلى ثلاث خصال، فأيتهن أجابوك إليها، فاقبل منهم وكف عنهم، ادعهم إلى الإسلام، فإن هم أبوا فاسألهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم، وان هم أبوا، فاستعن بالله وقاتلهم»[1].

وقد اتخذت هذه المبادىء أساساً في عقد الذمة مع غير المسلمين، فكان القواد يخيرون أهل البلاد عند فتحها بين الإسلام، والجزية، والحرب.

وتعقد الذمة إذا طلب من يريد الذمة عدا الجاسوس، فقد أجاب النبي نصارى نجران إلى عقد الذمة معهم حين طلبوها منه[2]. أو إذا كان الغرض من عقدها مخالطة الذمى للمسلم، واطلاعه على مبادىء الإسلام الذي قد يحمله إلى اعتناقه[3]. وحدد النبي حقوق من تعقد له الذمة فقال: «فإذا قبلوا عقد الذمة، فاعلمهم أن لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين»[4]. وقال عليّ توكيداً لقول الرسول: «إنما قبلوا عقد الذمة لتكون أموالهم كأموالنا ودماؤ هم كدمائنا»[5]. وبهذا يكون الذمى كالمسلم في الحقوق والواجبات.

ونستطيع أن نلخص الأسباب التي بها تنتقض عهود أهل الذمة وهي: إذا أسلم الذمى، أو التحق بدار أهل الحرب، أو امتنع عن بذل الجزية، أو شهر السلاح بوجه المسلمين، أو ضرب مسلمًا، أو اعتدى عليه في ماله أو نفسه، أو زنا بمسلمة أو أصابها باسم نكاح، أو طعن في الدين، وذكر الله وكتابه، ورسوله، أو إذا قطع الطريق على المسلمين، أو غيرهم في دار الإسلام، أو فتن مسلمًا عن دينه، أو تجسس على المسلمين، وكشف عوراتهم، ونقائصهم

---

(١) رواه صحيح مسلم ج ٧ ص ٣١٠؛ سنن أبي داود ج ٣ ص ٤١٦؛ سنن الترمذي ج ٧ ص ١١٩.

(٢) انظر: زيدان: **أحكام الذميين** ص ٣٠.

(٣) نفس المصدر السابق ص ٣١.

(٤) الكاساني: **بدائع الصنائع** ج ٧ ص ١٠٠.

(٥) السرخسي الحنفي: **شرح السير الكبير** ج ٣ ص ٢٥٠.

للأعداء[1]، أو قدم الطعام والشراب المحرم على المسلمين[2].

وقد اختلف الفقهاء فيما ينقض العهد، فيرى ابن القيم[3] (ت ٧٥١ هـ/ ١٣٥٠ م): (إذا خالف الذمى عقداً من العقود التي عاهد عليها انتقض عهده).

ويبدو أن أحكام ابن القيم الجوزية كانت شديدة وقاسية على أهل الذمة، في حين نجد الرحمة والرأفة التي تجلت في أحكام الخليفة عمر بن الخطاب بعد أول حادثة صلب في الإسلام يوم أمر بصلب ذمى زنا بامرأة مسلمة من الشام فقال: (يا أيها الناس اتقوا الله في ذمة محمد، ولا تظلموهم فمن فعل فلا ذمة له)[4].

والواقع أن الشروط التي وضعت عند عقد الذمة أضيف إليها شروط أخرى وضعها الفقهاء كشروط لاحقة، وهذا هو السر في اختلاف الفقهاء، فيما ينقضوا عهد الذمة. كما أن اختلاف الحكم على شروط نقض العهد جعل الفقهاء في اختلاف كبير، فنص الإمام أحمد بن حنبل على أن قذف الذمى للمسلم لا يكون نقضاً للعهد[5]. وقاس الذمى في هذا الإجراء والحكم على المسلم، فإذا كان المسلم لا يقتل بالقذف، فكذلك الذمى[6].

ولا ينقض عهد الذمى أيضاً إذا أظهر منكراً، وإنما يكتفي حينئذ بتعزيره[7]. ونص الإمام الشافعي[8] (ت ٢٠٤ هـ/ ٨١٩ م) في الأم: «على أن

---

(١) ابن القيم: **أهل** ص٧٩٣ ـ ٨٠١؛ زيدان: **أحكام** ص٤٢ و٤٣؛ أبو عبيدة: **الأموال** ص ٢٥٩؛ الغزي الحنفي: جلاء الذمة (مخطوط) ورقة ٨٠ و.

(٢) انظر: Fattal, Le Statut Legal Des Non Musulmans p. 77.

(٣) ابن القيم: أحكام أهل الذمة ص٧٩٣.

(٤) ابن القيم: **أحكام أهل الذمة** ص٧٩٢.

(٥) نفس المصدر السابق ص٨٠٠.

(٦) نفس المصدر السابق ص٨٠٣.

(٧) نفس المصدر السابق ص٨٠٥.

(٨) الشافعي: **الأم** ج ٤ ص١٠٩.

العهد لا ينتقض بقطع الطريق، ولا بقتل المسلم، ولا بالزنا بالمسلمة، ولا بالتجسس. بل يحد فيها فيه الحد».

ويرى المالكية: «ان ما يأتيه الذميون مما فيه ضرر على المسلمين يوجب التأديب لا القتل، وأنه لا يكون هذا نقضاً للعهد[1].

وذهب أبو حنيفة وأصحابه: إلى أن العهد لا ينتقض بالسب، ولكن هذا السبّ إذا تكرر، فعلى الإمام أن يعاقب فاعله تعزيراً»[2]. وإن من أظهر لكافر أماناً لم يجز قتله بعد ذلك لأجل الكفر استناداً إلى قول النبي: «من آمن رجلاً على دمه، وماله ثم قتله، فأنا بريء منه، وإن كان المقتول كافراً»[3].

ويؤكد الماوردي[4] (ت ٤٥٠ هـ/ ١٠٥٨ م) قول النبي فيهم فيقول: «إذا نقض أهل الذمة عهدهم لم يستبح بذلك قتلهم، ولا غنم أموالهم، ولا سبى ذراريهم ما لم يقاتلوا، ووجب إخراجهم من بلاد المسلمين آمنين، حتى يلحقوا مأمنهم من أدنى بلاد الشرك، فإن لم يخرجوا طوعاً أخرجوا كرهاً».

□ الأحكام المالية:

الجزية[5]:

فرض ملوك الفرس الجزية على عامة أهل العراق، وأعفوا منها الأمراء، والمرازبة، والأساورة، والموابذة، والهرابذة[6]، ومن في خدمتهم، وقد فرض عمر بن الخطاب الجزية على غير المسلمين من سكان العراق ماعدا نصارى تغلب، وأهل نجران[7].

---

(١) ابن القيم: أحكام أهل الذمة ص ٨٠٩.
(٢) المصدر السابق ص ٨١٠.
(٣) ابن القيم: أحكام أهل الذمة ص ٨٥٧ و٨٥٨.
(٤) الماوردي: الأحكام السلطانية ص ١٤٦.
(٥) الجزية: انظر صحيفة (٣٩) هامش (٤).
(٦) انظر: عن هذه المصطلحات قبلاً.
(٧) أبو يوسف الخراج، ص ٦٩.

فالجزية ما يؤخذ من أهل الذمة[1]. وقيل؟ هي الخراج المضروب على رؤوس أهل الذمة[2].

والاصطلاح الشائع في تعريف الجزية: هي الأموال المفروضة على رؤوس أهل الذمة، وتؤخذ ممن دخل الذمة من أهل الكتاب، والمجوس لقاء الحماية لهم ليكونوا بالكف آمنين، وبالحماية محروسين، كما في قول النبي «احفظوني في ذمتي»[3].

وقد أوجبت الجزية على أهل الذمة استناداً إلى ما جاء في القرآن، والسنة، والإجماع فقال تعالى ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله، ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾[4].

وقد أجمع الفقهاء على أخذها من أهل الكتاب، ومن المجوس، لأخذها الرسول من مجوس هجر كما أخذها عمر بن الخطاب من مجوس العراق[5]. وقيل ان عمر بن الخطاب تردد أول الأمر ثم قال: ما أدري كيف أصنع بالمجوس؟ فقال عبد الرحمن بن عوف: أشهد لسمعت رسول الله يقول: (سنوا بهم سنة أهل الكتاب)[6].

وقد اختلف الفقهاء ممن تؤخذ الجزية بعد اتفاقهم على أخذها من أهل الكتاب، والمجوس فقال أبو حنيفة: تؤخذ من أهل الكتاب، والمجوس، وعبدة الأوثان من العجم، ولا تؤخذ من عبدة الأوثان من العرب، ومن الحنفية من

---

(١) المصباح المنير، ج ١ ص ١٣٨.

(٢) أبو يوسف الخراج، ص ٦٩.

(٣) الماوردي: **الأحكام السلطانية** ص ١٤٣.

(٤) سورة التوبة: آية ٢٩.

(٥) الطبري: **اختلاف الفقهاء** ص ١٩٩؛ الشربيني: **مغنى المحتاج** ج ١ ص ٢٤٢؛ أبو عبيدة: **الأموال** ص ٣٣.

(٦) ابن القيم: **أحكام أهل الذمة** ص ٢؛ الصولي: **أدب الكتاب** ص ٢١٤.

يقول: ان الجزية تؤخذ من كل كافر[1]. وأما كيفية أخذها فقد اختلفوا أيضاً في تفسير قوله تعالى ﴿حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾[2]. والمعنى حتى يعطوا الجزية عن رقابهم.

واختلف في اشتقاقها فقال الماوردي[3] (ت ٤٥٠ هـ/ ١٠٥٨ م) وأبو يعلي (ت ٤٥٨ هـ/ ١٠٦٦ م) أسمها مشتق من الجزاء؛ إما جزاء على كفرهم لأخذها منهم صغاراً، أو جزاء على أماننا لهم لأخذها منهم رفقاً. وقال ابن قدامة المقدسي[4] (ت ٦٢٠ هـ/ ١٢٢٣ م): هي مشتقة من جزاة بمعنى قضاه لقوله «لا تجز نفس عن نفس شيئاً» فتكون الجزية مثل الفدية.

ويبدو أن الرأي الأول هو الصحيح حيث ثبت من أحكام الرسول، والخلفاء الراشدين، ومن جاء بعدهم أنهم كانوا يأخذون الجزية (أماناً) من أهل الذمة، لقاء تعهد المسلمين بالمحافظة على أرواحهم، وأموالهم، وعباداتهم ولقاء إعفائهم من الخدمة في الجيش.

وتجبى الجزية على الذكور العقلاء، والبالغين، ولا تجب على الصبيان، والنساء والمجانين، والزمن، والعميان، والشيوخ، والرهبان[5]. وأما وقت جبايتها ففي المحرم ابتداء السنة الهجرية، أو في آخرها بدلاً عن نصرة المسلمين لأهل الذمة في دار الإسلام، ولما كانت نصرة أهل الذمة للمسلمين يشك فيها لاتفاقهم في الاعتقاد مع أعداء المسلمين (أهل دار الحرب) فأوجب الشرع الإسلامي عليهم الجزية لتؤخذ منهم وتصرف على المقاتلة من المسلمين فتكون خلفاً عن النصرة[6]. ويؤيد هذا الرأي السرخسي[7] (ت ٤٩٠ هـ/ ١٠٩٦ م)

---

(١) ابن القيم: **أحكام أهل الذمة** ص ٣.

(٢) سورة التوبة: آية ٢٩.

(٣) الماوردي: **الأحكام** ص ١٤٢؛ أبو يعلي: **الأحكام** ص ١٣٧.

(٤) ابن قدامة السرخسي: **المغني** ج ١٠ ص ٥٦٧؛ الماوردي: **الأحكام** ص ١٣٦.

(٥) أبو عبيده: **الأموال** ص ٥١؛ أبو يوسف: **الخراج** ص ١٢٢؛ الشافعي: **الأم** ج ٤ ص ٩٨؛ الكاساني ج ٧ ص ١١١؛ علماء الهند: **الفتاوي الهندية** ج ٢ ص ٢٤٥؛ القرطبي: **تفسير** ج ٤ ص ٩٨.

(٦) انظر: زيدان: **أحكام الذميين** ص ١٤٣.

(٧) السرخسي: **المبسوط** ج ١٠ ص ٧٨.

بقوله: (إن الجزية من حق المسلمين خلفاً عن النصرة). كما أنها تستخدم لسد نفقات، وأرزاق الجند من المنطقة المفتوحة[1] وما عهود الصلح التي أبرمها القادة المسلمون إلا دليل على أن الجزية فرضت لحماية المسلمين لأهل الذمة، فهذا عهد خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا أحد زعماء الحيرة (بسم الله الرحمن الرحيم: هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا، وقومه أني عاهدتكم على الجزية، والمنعة...)[2].

وجاء في كتاب سويد بن مقرن المزني[3] قائد جيش عمر بن الخطاب في بلاد فارس إلى ملك جرجان... لكم الذمة، وعلينا المنعة[4]. وقال ابن رشد المالكي: (إنما تؤخذ الجزية منهم سنة بسنة جزاء تأمينهم، وإقرارهم على دينهم، يتصرفون في جوار المسلمين وذمتهم آمنين[5].

والواقع أن الجزية لا تعتبر عقوبة في حق الذمى ابقائه على دينه، وإنما مساهمة منه مادياً بالدفاع عن بلاده التي يسكنها، وهي دار الإسلام. فلو كانت الجزية عقوبة لوجبت على جميع أهل الذمة دون استثناء، ولفرضت بالدرجة الأولى على رجال دينهم باعتبارهم أصحاب الدين المخالف للإسلام.

ولما كانت الجزية تسقط حال اشتراك الذمى مع المسلم في مهمة الدفاع عن بلاد الإسلام، أو عجز المسلمين عن حمايتهم، مما يؤكد أنها كانت تدفع بدل الخدمة العسكرية، وإننا لا نؤيد ما ذهب إليه بعض الفقهاء من أن الجزية تؤخذ من أهل الذمة بالاذلال لهم، والشدة معهم عند أخذها، لأن هذا الرأي يتنافى مع سنة الرسول ووصاياه بلزوم الرحمة، والرفق بهم، كما يتعارض مع

---

(١) انظر: فان فلوتن: **السيادة العربية** ص ٥٠.

(٢) الطبري: **تاريخ** ج ٤ ص ١٦.

(٣) ساهم في عهد أبي بكر في قتال للمرتدين في ذي القصة وفي فتح العراق وطبرستان وانتهى خبره، (الطبري: **تاريخ** ج ٥ ص ٢٦٥٩ طبع بيروت).

(٤) الطبري: **تاريخ** ج ٥ ص ٢٥٤.

(٥) ابن القيم: **أحكام أهل الذمة** ص ١٧.

ما فعله الخلفاء من بعده، والتي تتجلى في وصاياهم لقوادهم وفي عهودهم مع أهل الذمة والتي سنوضحها عند الكلام عن (موقف الحكام المسلمين من أهل الذمة). وتسقط الجزية عن الذمي في حالة إسلامه أو موته أو عجزه وفقره، أو عجز الدولة عن حمايته، أو التحاقه بأهل دار الحرب.

أما مقدار الجزية فقد اختلف أئمة الإسلام في تقديرها، فقد وضع الرسول الجزية على النصارى واليهود، والمجوس، وجعلها على الرجل ديناراً واحداً، وليس في ذلك النساء، ولا الصبيان[1]. ثم جعلها عمر بن الخطاب على أهل السواد في العراق ديناراً (إثني عشر درهماً) على الطبقة السفلى، وعلى الوسطى دينارين (أربعة وعشرون درهماً). وعلى العليا أربعة دنانير (ثمانية وأربعون درهماً)، وأسقط ذلك عن النساء والصبيان[2]. والعجزة والزمنة والرهبان وفعل ذلك على قدر الطاقة واليسار.

ويبدو من هذا الإجراء أنه أراد أن يجعل من هذا التقسيم نظاماً ثابتاً يسير عليه المسلمون فيما بعد. فيقول الماوردي[3] (ت ٤٥٠ هـ/ ١٠٥٨ م) وجعلها عمر بن الخطاب نظاماً ثابتاً يسير عليه الولاة في سائر الأمصار، ليمنع اجتهادهم، فكتب بذلك عمر بن الخطاب إلى عماله في الأمصار (ولا يوضع عليهم أكثر من ذلك، ومن عجز منهم خفف عنه)[4]. ولا يتعين في الجزية ذهب، ولا فضة بل يجوز أخذها مما يتيسر من أموالهم، من ثياب، وسلاح، ومواشي، وحبوب، وغير ذلك[5].

وروي عن علي بن أبي طالب: إنه كان يأخذ الجزية من صاحب البربُرا، ومن صاحب المال مالاً، ومن صاحب الحبال حبالاً، ولا يأخذ فيها خمراً ولا

---

(١) الصولي: أدب الكتاب ص٢١٤.
(٢) ابن القيم: أحكام ص٢٨؛ الصولي: أدب الكتاب ص ٥.
(٣) الماوردي: الأحكام السلطانية ص١٣٨.
(٤) ابن آدم: الخراج ج ١ ص ٩.
(٥) ابن القيم: أحكام ص٢٩؛ الصولي: أدب الكتاب ص ٢١٥.

خنازير، ولا يباع في الجزية بقرهم، ولا حميرهم، ولا مواشيهم[1]. بل كانت تباع الخمور والخنازير ثم يحصل ثمنها[2]. وقد أوصى الرسول بحسن معاملة أهل الذمة فقال (احفظوني في ذمتي)[3]. وسار عمر بن الخطاب على نهجه في معاملتهم فقال: «ولا يحل تكليفهم مالا يقدرون عليه، ولا تعذيبهم على أدائها، ولا حبسهم، ولا ضربهم»[4].

وقيل: سأل عمر بن الخطاب سعيد بن عامر بن خديم[5] مالك تبطىء بالخراج فقال: أمرتنا ألا نزيد عليهم على أربعة دنانير فلسنا نزيدهم على ذلك، ولكن نؤخرهم إلى غلاتهم. قال له عمر: «ما عزلتك ما حييت»[6].

وكان علي بن أبي طالب: يأخذ من أهل الذمة الأمتعة بقيمتها من الدراهم التي عليهم من الجزية، ولا يحملهم على بيعها ثم يأخذ ذلك من الثمن أراده الرفق بهم، والتخفيف عنهم[7].

وأمر عمر بن عبد العزيز إسقاط الجزية عمن أسلم من أهل الذمة فقال: «إنما أمر أن تؤخذ الجزية ممن رغب عن الإسلام، واختار الكفر عتيا، وخسراناً مبيناً، فضع الجزية على من أطاق حملها، وخل بينهم وبين عمارة الأرض، فإن في ذلك صلاحاً لمعاشر المسلمين، وقوة على عدوهم، وقال بلغني أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مر بشيخ من أهل الذمة يسأل على أبواب الناس فقال له عمر: «ما أنصفناك إن كنا أخذنا منك الجزية في شبيبتك ثم ضيعناك في كبرك قال: ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه»[8].

---

(1) الصولي: أدب الكتاب ص ٢١٥.

(2) أبو يوسف: الخراج ص ٧٢.

(3) الماوردي: الأحكام السلطانية ص ١٤٣.

(4) ابن القيم: أحكام ص ٣٤؛ أبو يوسف: الخراج ص ١٢٥.

(5) صحابي قرشي شهد غزوة خيبر وصار والياً على حمص في خلافة عمر بن الخطاب، وتوفي في خلافته سنة ٢٠ هـ.

(6) ابن القيم: أحكام الذميين ص ٣٦.

(7) أبو عبيدة: الأموال ص ٤٤.

(8) أبو يوسف الخراج: ص ١٢٦؛ أبو عبيدة: الأموال ص ٤٥.

ويرى المستشرق (Cahen)[1]: ان ضريبة الجزية التي عبرت عن إخضاع غير المسلمين ضمن نطاق مالي محدد، كانت مطابقة لعادات المجتمعات الدينية في القرون الوسطى، مستنداً إلى أن هذه الضريبة كان قد فرضها الفرس والروم. ومن هذا يتضح مدى سماحة وعطف الرسول والخلفاء والقواد على أهل الذمة.

الخراج[2]:

هو ما يخرج من غلة الأرض، ومعناه المال المضروب على الأرض، والجمع إخراج وأخرجة[3]. وفي اصطلاح الفقهاء الخراج ما وضع على رقاب الأرضين من حقوق تؤدي عنها[4]. وقد ورد على لسان الفقهاء استعمال الخراج بمعنى الجزية، فمما قاله أبو حنيفة: «ولا يترك ذمي في دار الإسلام بغير خراج رأسه»[5]. ولكن المعنى الشائع في استعمال كلمة الخراج عند الفقهاء، والمؤرخين هو ما يفرض على الأرض من ضريبة مالية، وأراضيها تسمى بالأراضي الخراجية، وأول من فرضها الرسول على أهل هجر على كل محتلم ذكر كان أو أنثى[6].

---

(١) انظر: (Cahen, Ency of Islam (Dhimma) p. 227).

(٢) الخراج: كلمة عربية استعارها العرب من مصطلحات الروم الإدارية، ولعلها مأخوذة من الكلمة اليونانية (Kornia Xopvvia) (خورينا) وكان معناها بصفة عامة الضريبة التي فرضت على غير المسلمين في دار الإسلام (وهي تماثل الجزية سواء بسواء) وظلت كلمة خراج تدل على هذا المعنى العام نفسه في كتب الفقه المتأخرة. ولعل كلمة خراج قد اعتبرت عربية الأصل بمعنى (خراج الأرض)، وقد جرت العادة قبل ذلك بأن يدفعوا ضريبة من هذا القبيل في تلك الربوع أيام خضوعها لحكم الروم والفرس، واحتفظ العرب بكثير من تفاصيل النظام القديم في جبايتها (دائرة المعارف الإسلامية مادة الخراج) ج ٨ ص ٢٨٠ وما بعدها).

(٣) المنجد ص ١٦٩؛ وفي المصباح المنير: الخراج والخرج ما يحصل من غلة الأرض ج ١ ص ٢٢٧.

(٤) الماوردي: **الأحكام** ص ٣١؛ أبو يعلي: **الأحكام** ص ١٤٦.

(٥) أبو يوسف: **الخراج** ص ١٣٢.

(٦) نفس المصدر السابق ص ١٢٩.

وفعل عمر بن الخطاب عند فتحه العراق ما فعله الرسول. وكانت أغلب أراضي السواد في العراق قد فتحت عنوة، عدا عدة قرى فتحت صلحاً، فقد تركها عمر بيد أصحابها مقابل مقدار معين من المال[1]. وتسمى أراضي الصلح، وجعل بدل الجزية، والخراج فكانت ضريبة واحدة، كما فعل مع نصارى تغلب لأنهم عرب عندما ضاعف الصدقة، فهو خراج في الحقيقة[2]. وأما الأراضي التي فتحت عنوة، فقد أبقاها عمر بيد أصحابها مقابل مقدار معين من الخراج عليها، وأبقى الجزية عليهم[3].

أما الأراضي العشرية التي يمتلكها الذمي، فعند أبي حنيفة تصبح خراجية، وعند أبي يوسف تبقى عشرية، وعليه أن يدفع مضاعفاً، كما هو الحال بالنسبة لنصارى تغلب[4].

أما في جباية الخراج فقد اتخذت طريقة ما يفرض على مساحة الأرض، كما فعل عمر بن الخطاب في أراضي السواد[5] في العراق بعد فتحها فقد تركها بأيدي أهلها، وفرض على كل جريب أرض صالحة للزراعة قفيزاً مما يزرع فيها ودرهماً، فروى عن أبي يوسف (ت ١٨٢ هـ/ ٧٩٨ م) أنه قال: «إذا كانت النخيل والأشجار ملتفة جعلت عليها الخراج بقدر ما تطيق، ولا أزيد على ما يوظف على جريب الكرم عشرة دراهم»[6].

---

(١) الكاساني: **بدائع الصنائع** ج ٢ ص ٥٨.

(٢) نفس المصدر السابق والصحيفة.

(٣) أبو يوسف: **الخراج** ص ٤٤.

(٤) الكاساني: **بدائع الصنائع** ج ٢ ص ٥٤ و٥٥.

(٥) أرض السواد: وهو يشمل النصف الجنوبي من دجلة والفرات الممتد حتى الخليج العربي (ماجد **التاريخ السياسي للدولة العربية** ج ١ ص ١٦٨). والذي يتاخم أرض العرب حيث توجد بادية السماوه (ياقوت معجم البلدان ج ٥ ص ١٣٠). ويقول ابن منضور: والسواد ما حوالي الكوفة والبصرة من القرى والرساتيق، وقيل إنما سمي بالسواد لكثرة النخل والشجر ولخضرته واسوداده، ولأن الخضرة تقارب السواد، ولأن العرب تسمي الأسود أخضر والأخضر أسود (ابن منظور: لسان العرب ج ٤ ص ٢٠٩؛ تاج العروس ج ٢ ص ٣٧٥).

(٦) الكاساني: ج ٢ ص ٦٢ (الجريب: ١٣٦٦ م) و(القفيز وزنه ٢,٧٥١ كغم) الريس: **الخراج في الدولة الإسلامية** ص ٢٧٧ ــ ٢٧٩.

كما اتبعوا طريقة المقاسمة، وهو أخذ نسبة معينة من الناتج نحو الخمس أو السدس، وما أشبه ذلك[1]. ويؤخذ الخراج مرة واحدة في السنة إذا كان حسب المساحة، وأما خراج المقاسمة فيتكرر أخذه بتكرر الخراج من الأرض[2]. وبذلك يكون قرار عمر بن الخطاب بإبقاء الأرض بأيدي أصحابها من أهل الذمة أن تحول حكم أرض السواد من الغنيمة إلى الصلح، دون أن يكون ما بين أهل الأرض والمسلمين عهداً أو شروط صلح اتفقوا عليها[3].

وقد راع المسلمون في فرض الخراج بحسب طاقة الأرض، وخصوبتها، ونوعية الإنتاج، وأثمانه، وطريقة السقي، وموضع الأرض من المدن، والأسواق[4]. وعدم تكليف صاحبها فوق مقدوره، ويتجلى هذا في قول عمر بن الخطاب: لحذيفة بن اليمان، وعثمان بن حنيف لما مسحا سواد العراق، ووضعا عليه الخراج قال عمر لهما: «لعلكما حملتما الأرض ما لا تطيق قالا: لا بل حملناها ما تطيق، ولو زدنا لا طاقت»[5].

وقد اتبع علي بن أبي طالب السياسة التي رسمها عمر بن الخطاب، والتزم بها معظم خلفاء بني أمية، وولاتهم في العراق، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عامله على الكوفة. . . قائلاً له: «. . . وأمرتك ألا تطرق عليهم أرضهم. وألا تحمل خراباً على عامر، ولا عامراً على خراب، ولا تأخذ من الخراب إلا ما يطيق، ولا من العامر إلا وظيفة الخراج في رفق، وتسكين لأهل الأرض، وأمرتك ألا تأخذ في الخراج: أجور الضرابين، ولا إذابة الفضة، ولا هدية النيروز والمهرجان، ولا ثمن الصحف، ولا أجور البيوت، ولا دراهم النكاح[6]، ولا خراج على من أسلم من أهل الأرض»[7].

---

(١) الكاساني: ج ٢ ص ٦٣؛ علماء الهند: **الفتاوي الهندية** ج ٢ ص ٢٣٧.

(٢) ابن عابدين: **رد المحتار على الدر المختار** ج ٣ ص ٣٦٥.

(٣) انظر: **الراوي العراق في العصر الأموي** ص ٦٠.

(٤) الماوردي: ص ١٤٣ و١٤٤، أبو يعلي: ص ١٥١.

(٥) الكاساني: ج ٢ ص ٦٢ و٦٣؛ يحي بن آدم: **الخراج** ج ١ ص ٩.

(٦) دراهم النكاح: يراد بها ضريبة الزواج.

(٧) أبو عبيدة: **الأموال** ص ٦٥؛ ابن القيم: **أحكام** ص ٣٨ و٣٩.

وكان الخراج حتى خلافة المتوكل (٢٣٢ ــ ٢٤٧ هـ)(٨٤٦–٨٦١ م)يؤخذ في أيام النيروز الذي كان معمولاً به أيام الفرس، واقتدى بهم ملوك الإسلام، فأمر المتوكل بتأخير الخراج حتى يتم نضوج الحاصل[١]. وذلك رفقاً بالرعية.

عشور التجارة:

العشر: هو مقدار الضريبة المفروضة على أموال أهل الذمة المعدة للتجارة، والمنقولة من دار الحرب إلى دار الإسلام، وبالعكس، ويزيد هذا المقدار وينقص بناء على قاعدة المعاملة بالمثل «خذوا منهم ما يأخذون منا»[٢].

والأموال الخاضعة لضرائب التجارة جميع عروض التجارة من حبوب، وحيوانات، وثياب، وأمتعة، وأطعمة، وكذلك الذهب والفضة نقوداً كانت أو معدناً وغيرهم[٣].

وقد حدد عمر بن الخطاب الضرائب المفروضة على التجارة بقوله: «خذوا من المسلم ربع العشر، ومن الذمي نصف العشر، ومن الحربي العشر[٤]. ويشترط في المال الخاضع لضريبة العشر: أن يبلغ النصاب، وأن يكون معداً للتجارة، واختلف في تحديد نصاب المال، وهو يتراوح بين ١٠ ــ ٢٠ ديناراً ولا تجب ضريبة العشر على الذمى، والمسلم إذا انتقل بتجارته من بلد إلى بلد آخر بدار الإسلام[٥]. وتستوفى ضريبة العشر من الذمي، والمسلم، والحربي مرة واحدة في السنة مهما تكررت مرات التجارة[٦]. فإذا ازداد المال أخذ من الزيادة وحدها لأنها لم تعشر»[٧].

---

(١) البيروني: **الآثار الباقية** ص ٣١.

(٢) السرخسي الحنفي: شرح السير الكبير ج ٤ ص ٢٨٣.

(٣) أبو يوسف: **الخراج** ص ١٣٣ و١٣٤.

(٤) أبو عبيده: **الأموال** ص ٥٣٣ و٥٣٤؛ أبو يوسف: ص ١٣٥؛ ابن القيم ص ١٦٦.

(٥) أبو يوسف: **الخراج** ص ١٣٣.

(٦) أبو عبيدة: **الأموال** ص ٥٣٣ و٥٣٨.

(٧) ابن القيم: **أحكام أهل الذمة** ص ١٦١.

ويعفى الذمي من ضريبة العشر إن كان عليه دين بقدر ما معه، أو ينقص عن النصاب، فيمنع أخذ العشر منه، ولا يقبل منه إلا ببينة من المسلمين[1]. ويعفى أيضاً من ضريبة التجارة كل من دخل بميرة، والناس إليها بحاجة ليكثرها على المسلمين[2].

أما حجة الفقهاء في فرض الخمس على الذمي، وهو ضعف ما يدفعه المسلم استناداً إلى إجراءات عمر بن الخطاب مع نصارى تغلب بأخذه ضعف الصدقة التي على المسلم[3]. ويعفى العبد من ضريبة التجارة على البضاعة إن كانت ملكاً له[4].

أما العشور على تجارة الخمور، والخنازير فاختلف الفقهاء في جبايتها، فمنهم من فرضها على الخمور دون الخنازير، ومنهم من فرضها على الإثنين معاً[5]. ومنهم من قال: لا يعشر الخمر ولا الخنازير[6]. ومنهم من قال: «يعشرهما لاستوائهما في المالية»[7].

أما الضريبة على تجارة العبيد فكانت تبلغ عشرة دراهم على كل فرد، وعلى الخيل ثمانية دراهم[8].

أحكام العقوبات والجرائم على أهل الذمة:

تنطبق أحكام الإسلام في الجرائم على جميع ما في دار الإسلام، بغض

---

(١) نفس المصدر السابق ص ١٦٥.
(٢) نفس المصدر أيضاً ص ١٦٧.
(٣) السرخسي: شرح السير الكبير ج ١ ص ٢٨٣.
(٤) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ج ٢ ص ٢٦٢.
(٥) أبو يوسف: الخراج ص ١٣١؛ علماء الهند: الفتاوي الهندسية ج ١ ص ١٨٣.
(٦) السرخسي الحنفي: شرح السير الكبير ج ٤ ص ٢٨٧.
(٧) المرغياني: الهداية ج ١ ص ٥٣٥.
(٨) الشافعي: الأم ج ٤ ص ١٢٥.

النظر عن دين وجنسية مرتكبها إلا في بعض جزئياتها اختلافاً قليلاً بين الفقهاء بالنسبة إلى الذميين[1]. فقد استثنى جميع الفقهاء عقوبة شرب الخمر، وأكل لحم الخنزير لأنهم (أهل الذمة) لا يؤمنون بحرمتها[2].

وأما الأحكام العامة التي تنطبق على المسلم، والذمي إذا كانت جرائمهم تمس أمن الدولة الإسلامية: كشهر السلاح، أو التجسس، أو قطع الطريق حيث يعاقب الذمي، والمسلم على السواء[3]. وعند بعض أصحاب المذاهب ينتقض عقد الذمة بهذه الجرائم، فلا يجوز قتله إلا إذا أسلم[4]. أما عملية التجسس، فقد حرمت في الشريعة الإسلامية فقال تعالى ﴿ولا تجسسوا، ولا يغتب بعضكم بعضا﴾[5]. فبالنسبة للذمي ينتقض عهده بالتجسس، ويكون كالحربي[6]، وقيل: لا ينتقض عهد، فهي جريمة لا يزول بها إيمان المسلم، فلا يزول بها آمان الذمي [7]. وعند الأوزاعي أن يعلم الذمي بسحب الأمان منه، ويؤمر بمغادرة دار الإسلام[8].

ويبدو أن الرأي الأخير هو الأصح، ولكن ليس دائمًا لأن الضرر الذي قد يحدثه الذمي من عملية التجسس قد تؤدي بحياة عدد كبير من المسلمين، وفي مثل هذه الحالة يجب قتله ليكون رادعاً لغيره من الذميين على جريمته.

وعدا هذه الجرائم فقد وضع فقهاء المسلمين الأحكام على الجرائم الكبيرة كالقتل، والزنا، والسرقة. هذه الأحكام مستوحاة من الشريعة الإسلامية وسنة

---

(١) انظر: زيدان: **أحكام الذميين** ص ٢١٨.
(٢) الكاساني: **بدائع الصنائع** ج ٧ ص ٣٩؛ إدريس الحنبلي: **كشاف القناع** ج ٤ ص ٥٥.
(٣) الكاساني: **بدائع الصنائع** ج ٧ ص ٩١.
(٤) ابن حزم: **المحلي** ج ١١ ص ٣١.
(٥) سورة الحجرات: آية ١٢.
(٦) الطبري: **اختلاف الفقهاء** ص ٥٨ و٥٩.
(٧) السرخسي: **شرح السير الكبير** ج ٤ ص ٢٢٠ و٢٢٦.
(٨) الطبري: **اختلاف الفقهاء** ص ٥٩.

الرسول، والخلفاء الراشدين، وما أجمع عليه الفقهاء، آخذين بنظر الاعتبار، واقع الأمة الإسلامية آنذاك. وتكاد هذه الأحكام تنطبق في أغلب نصوصها على المسلم والذمي، كما أن أحكام المسلمين في الشريعة الإسلامية تنطبق في كثير من الأمور مع ما موجود في شرائع أهل الذمة من الأحكام.

ومن هذه الأحكام في جرائم القتل هي:

عقوبة القصاص:

وهي عقوبة القتل، وفي الشرع الإسلامي يقتل القاتل عمداً استناداً لقوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتل الحر بالحر، والعبد بالعبد، والأنثى بالأنثى . . .﴾[1]. أما إذا وقع القتل خطأً أو شبه العمد، فعند جمهور الفقهاء تؤخذ الدية[2]. ويقتل الذمي بالمسلم لنقضه العهد، ومخالفته مقتضى عقد الذمة[3]. وللفقهاء اجتهادات أخرى في كيفية القتل، وأسبابه، ومسبباته.

ويعفى الذمي من القصاص إذا قتل مرتداً لأن المرتد مباح الدم، فأشبه بالحربي، ولأن من لا يضمنه المسلم لا يضمنه الذمي[4]. وبحسب المذهب الشيعي، فالقاتل الذمي لذمي لا يؤخذ بالقصاص إذا دخل الإسلام، وعليه فقط أن يدفع الدية[5].

وقد اختلف الفقهاء في عقوبة قتل المسلم للذمي عمداً، فقيل: إن الخليفة عثمان بن عفان حكم على مسلم لقتله ذمياً بدفع الدية، وليس بالموت، وكانت بقدر دية المسلم مستنداً في ذلك إلى النظرية التي وضعت منذ عهد

---

(١) سورة البقرة: آية ١٧٨.
(٢) الكاساني: **بدائع الصنائي** ج ٧ ص ٢٥٥.
(٣) ابن حزم: **المحلى** ج ١٠ ص ٣٥٣.
(٤) ابن قدامى المقدسي: **المغني** ج ٧ ص ٦٥٧؛ الكاساني: **بدائع** ج ٧ ص ٢٣٦.
(٥) انظر:
Fattal: *Le Statut Legal Des Non Musulmans En Pays D'islam* p. 114.

الرسول (الذمي لا يساوي المسلم أمام الشريعة). إنما تعني هـذه النظريـة الحربي، ولا تعني الذمي[1]. واستناداً إلى حديث الرسول «من أمن رجلاً على دمه وماله ثم قتله فأنا بريء منه، وإن كان المقتول كافراً»[2].

ويرى أبو حنيفة وأصحابه، ان المسلم الذي يقتل الذمي يحكم عليه بالموت مستندين إلى قوله تعالى ﴿ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب﴾[3].

أما ما أجمع عليه جمهور الفقهاء عدا الحنفية بعدم جواز قتل المسلم بكافر سواء كان ذمياً، أو مستأمناً[4].

وعند المالكية، والشيعة في حالات خاصة إذ اختلفوا في صفة القتل، أو حدا الفساد[5].

من هذا يحملنا على القول أن مذهب أبي حنيفة كان من أكثر المذاهب الإسلامية واقعية لأنه يراعي واقع الأمة، ويحمل في طياته روح التسامح، والنزعة الإنسانية وقد بني رأيه على مجرد التزام الذمي بأحكام الإسلام، فيجب أن يعامل كالمسلم ما داموا في دار الإسلام.

أما الدية: فقد اختلفت باختلاف آراء الفقهاء: فذهب بعضهم إلى أنها تساوي دية المسلم، فدية الحر المسلم مئة جمل أو ما تساوي ألف دينار، أو **١٢** ألف درهم حسب تقدير عمر بن الخطاب، وتكون دية المرأة نصف دية المسلم الرجل، وبالنسبة للمذهب الحنفي فيستند إلى تشريعات أبي بكر وعمر: وهي «إذا كان القتيل حراً مسلماً فديته من الإبل مائة، ومن الذهب ألف دينار، ومن

---

(١) انظر: Fattal, Le Statue Legal Des Non Musculmans, p. 115

(٢) ابن القيم: **أحكام أهل الذمة** ص٨٠٣.

(٣) سورة البقرة: آية ١٧٩ م.

(٤) ابن قدامه المقدسي: **المغني** ج ٧ ص٦٥٧؛ الشافعي: **الأم** ج ٧ ص ٢٩١؛ كاشف الغطاء: **سفينة النجاة** ج ٢ ص ٨٤.

(٥) الخرشي: **شرح الخرشي** ج ٨ ص ٣؛ كاشف الغطاء: **سفينة النجاة** ج ٢ ص ٨٤.

الفضة عشرة آلاف درهم، ومن الحلل مائتا حلة (ثوبان وإزار ورداء) ومن البقر مائتا بقرة، ومن الغنم الفاشاة، ودية الأنثى نصف دية الذكر، ودية الجنين عشر دية أمه»[1]. وكذلك قال علي بن أبي طالب: «إنما قبلوا عقد الذمة لتكون أموالهم كأموالنا، ودماؤهم كدمائنا»[2]. ومعنى هذا أنه جعل دية الذمي تساوي دية المسلم، وكذلك فعل عثمان بن عفان: حيث أمر بدفع ألف دينار دية بسبب قتل مسلم ذمياً[3].

وقد اختلف الفقهاء بعد عهد الراشدين في تحديد دية الذمي: فجعلوا دية الكتابي (اليهودي والنصراني) نصف دية المسلم، ودية المجوسي ثمانمائة درهم، ودية المرأة نصف دية الرجل من دينها، وقد ضاعف ابن حنبل الدية على المسلم إذا قتل ذمياً عمداً[4].

وقيل: أن دية الكتابي ثلث دية المسلم، ودية نسائهم نصف ديات رجالهم، وقيل أيضاً: دية أهل الذمة جميعاً ثمانمائة درهم، ودية المرأة منهم نصف دية الرجل، وهذا قول الشيعة[5]. أما الحنفية فيقولون: أن دية أهل الذمة جميعاً كدية المسلم، ودية المرأة نصف دية الرجل[6].

---

(١) الكاساني: **بدائع الصنائع** ج ٧ ص ٢٥٤؛ الخرشي: **شرح** ج ٨ ص ٣٢؛ الحصكفي: **الدر المختار** ج ٥ ص ٥١٦ و٥١٧.

(٢) السرخسي الحنفي: **شرح السير الكبير** ج ٣ ص ٢٥٠.

(٣) انظر: Fattal, *Le Statut Legal Des Non Musculmans* p. 116).

(٤) ابن قدامة المقدسي: **المغني** ج ٧ ص ٣٩٣؛ إدريس الحنبلي: **كشاف القناع** ج ٤ ص ١١ و١٢.

(٥) كاشف الغطاء: **سفينة النجاة** ج ٢ ص ١١٢.

(٦) الكاساني: **بدائع الصنائع** ج ٧ ص ٢٥٤؛ الحصكفي: **الدر المختار** ج ٥ ص ٥٠٥؛ **صحيح الترمذي** ج ١ ص ١٦٥.

وهذا جدول يبين مقدار الدية لأهل الذمة باختلاف آراء الفقهاء:

الفقيه	دية المسلم	دية أهل الذمة	دية المجوسي
أبو حنيفة	١٢ ألف درهم	١٢ ألف درهم	١٢ ألف درهم
ابن حنبل	١٢ ألف درهم	٢٤ ألف القتل العمد	١٦٠٠ ألف قتل عمد
ابن حنبل	١٢ ألف درهم	١٢ ألف القتل الخطأ	٨٠٠ ألف قتل خطأ
مالك	١٢ ألف درهم	٦ آلاف درهم	٨٠٠ درهم
الشافعي	١٢ ألف درهم	٤ آلاف درهم	٨٠٠ درهم
الشيعة	١٢ ألف درهم	٨٠٠ درهم	٨٠٠ درهم

ويرى (Fattal)[١] أن أول تغيير لنسبة الحد حدث منذ عهد معاوية بن أبي سفيان، فلما قتل طبيبه ابن آثال النصراني، قتله حبيب بن مهاجر، فقد أجبر القاتل بدفع دية المقتول (١٢ ألف درهم وهي تساوي دية المسلم). ولكنه أخذ نصفها له لأنه هو الذي ادعى بدمه، وقد أصبحت هذه الطريقة عادة اتبعها من جاء بعده من خلفاء بني أمية حتى عهد عمر بن عبد العزيز، الذي ألغى ذلك، وجعل دية الكتابي نصف دية المسلم يستلمها ذوو المقتول.

أما حكم دية الجنين، فيقول الشافعي: (ولو أن ذمية حملت فجنى عليها جان، فألقت جنيناً ميتاً كانت فيه دية جنين يهودي أو نصراني وهو عشر دية أمه، أما إذا كانت الذمية زوجة مسلم فالدية هي دية جنين حرة مسلمة[٢] أما جرائم الاعتداء على مادون النفس فعقوبتها القصاص، وقد ثبت ذلك بالإجماع)[٣] استناداً إلى قوله تعالى: ﴿وكتبنا عليكم فيها النفس بالنفس،

(١) انظر: Fattal: Le Statue Legal Des Non Mussulmans p. 116.

(٢) الشافعي: **الأم** ج ٦ ص ٩٦.

(٣) ابن قدامة: **المغني** ج ٧ ص ٧٠٢؛ القرطبي: **تفسير** ج ٦ ص ١٩١.

والعين بالعين، والأنف بالأنف، والأذن بالأذن، والسن بالسن، والجروح قصاص﴾[1] .

أما جرائم الزنا، فقد حرّم الله فعلها فقال تعالى: ﴿ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلاً﴾[2] . وعقوبة الزنا مختلف فيها بحسب طبيعة الزاني، والزانية، وفعل الزنا، فقد أشار القرآن إلى عقوبة الجلد للزاني، والزانية فقال تعالى: ﴿الزاني والزانية فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة﴾[3] وقد شرع الإسلام عقوبة الرجم، وبإجماع الفقهاء على الزاني والزانية المحصنين[4] . ومعناه رجم الزاني والزانية بالحجارة حتى الموت[5] . أو بعقوبة التغريب، وهي نفي الزاني عن البلد الذي زنا فيه إلى بلد غيره[6] .

أما اللواط: فيدخل في مفهوم الزنا عند المالكية، والشافعية، والحنابلة، وأبي يوسف، وعند أبي حنيفة والشيعة لا يدخل في مفهوم الزنا، ولا يجب فيه الحد، وإنما فيه التعزيز[7] . وتطبق جميع أحكام الإسلام في العقوبات والجرائم على الذمي إلا حد الخمر لأنه لا يعتقد حرمة شربه عندهم.

وقد اختلف الفقهاء في فرض عقوبة الزنا على الذمي، وان اتفقوا بإقامة حد الزنا، وحجتهم في ذلك أن النبي رجم اليهوديين الذين زنيا، ما يؤيد وجوب فرض حد الزنا على الذمي كالمسلم، ولأن الذمي صار بعقد الذمة كالمسلم في العقوبات، والمعاملات (لهم ما لنا وعليهم ما علينا). وترى الشيعة عقوبة القتل على الذمي إذا زنا بمسلمة مطاوعة أو مكرهة، ولا تسقط العقوبة

---

(١) سورة المائدة: آية ٤٥.
(٢) سورة الاسراء: آية ٣١.
(٣) سورة التوبة: آية ٢.
(٤) ابن قدامة المقدسي: **المغني** ج ٨ ص ١٦١.
(٥) الماوردي: **الأحكام السلطانية** ص ٢١٥.
(٦) ابن قدامة المقدسي: **المغني** ج ٨ ص ١٦٩.
(٧) الكاساني: ج ٧ ص ٣٤؛ الشربيني: **مغني المحتاج** ج ٤ ص ١٤٤؛ إدريس: **كشاف القناع** ج ٤ ص ٥٦ و٥٧.

بإسلامه، أما إذا زنا بذمية فللإمام إقامة الحد عليه بموجب شرع الإسلام، أو دفعه إلى أهل دينه ليقيموا عليه العقوبة حسب معتقدهم[1]. معتمدين على السوابق، فقيل في زمن علي بن أبي طالب: أن مسلمًا ارتكب الزنا مع ذمية فقرر وضع الحد عليه، وأرسلت الذمية إلى أهل دينها لعقابها حسب شريعتهم[2].

كما اختلف الفقهاء في عقوبة الذمي المرتكب الزنا من ذمية، فيرى الشافعي: إذا كان الذمي محصناً يرجم بالحجارة حتى الموت، ويرى أبو حنيفة ضربه مئة جلدة، ويرى مالك: أن لا يعاقب حسب الشرع الإسلامي، وإنما يرسل إلى أبناء ملته لعقابه حسب شرائعهم[3]. أما إذا قذف ذمي مسلمًا أو مسلمة، وتوافرت شروط الجريمة وجب على الذمي حد القذف[4]. وإذا قذف الذمي بغير الزنا بلفظ من ألفاظ السباب مسلمًا أو ذمياً وجب عليه التعزيز[5].

أما جرائم الاعتداء على الأموال: فيعاقب الذمي بنفس العقوبة الواقعة على المسلم، فإذا ارتكب ذمي جريمة السرقة من مسلم أو ذمي، وثبتت عليه الجرمية، وجب إقامة الحد عليه لأن الذمي بعقد الذمة التزم أحكام الإسلام، فيقام عليه الحد كالمسلم ولا خلاف في هذا بين الفقهاء، فيقطع الذمي بسرقة مال المسلم أو الذمي، ويقطع المسلم بسرقة مالهما[6].

ويرى (Fattal)[7]: (أن الدخول في الإسلام هو الطريقة الوحيدة بالنسبة

---

(١) كاشف الغطاء: **سفينة النجاة** ج ٢ ص ٦٤.

(٢) أنظر: Fattal: Le Statut Legal Des Non Musulmans p. 120

(٣) الكاساني: ج ٧ ص ٤٠؛ الماوردي: **الأحكام** ص ٢٢١؛ كاشف الغطاء: ج ٢ ص ٧١.

(٤) السرخسي المبسوط: ج ٩ ص ١١٩؛ ابن قدامه: **المغني** ج ٨ ص ٢٢٦؛ الماوردي: ص ٢٢١؛ أبو يعلي: **الأحكام** ص ٢٦٤.

(٥) ابن قدامة: **المغني** ج ٨ ص ٢٦٨؛ الشربيني: **مغني المحتاج** ج ٤ ص ١٧٥؛ الخرشي: **شرح الخرشي** ج ٨ ص ١٠٢.

(٦) ابن قدامة: **المغني** ج ٨ ص ٢٦٨؛ الشربيني: ج ٤ ص ١٧٥، الخرشي ج ٨ ص ١٠٢.

(٧) انظر: Fattal, Le Statut Legal Des Non Musulmans, p. 119

للذمي للتخلص من العقوبات). والحقيقة أن إسلام الذمي لا يمكنه أن يتخلص من العقوبات لأن أغلبها يسري على المسلم والذمي ولكن بعضها تنقذه من عقوبة الموت إلى الحد.

أحكام الأحوال الشخصية لأهل الذمة:

يتفق أغلب الفقهاء على جواز زواج المسلم من نساء أهل الكتاب، وإن كان بعض الخلفاء، والفقهاء يكرهون الزواج بهن، فكان عمر بن الخطاب لا يحبذ الزواج بالكتابيات، فقيل: بعث إلى حذيفة بن اليمان بعد ما ولاه المدائن، أنه بلغني أنك تزوجت امرأة من أهل المدائن من أهل الكتاب فطلقها، فكتب إليه، لا أفعل حتى تخبرني، أحلال أم حرام؟ فكتب إليه لا بل حلال، ولكن في نساء الأعاجم خلابة، فإن أقبلتم عليهن غلبنكم على نسائكم[١]. كما كره مالك زواج المسلم بالكتابية، لأنها تتغذى بالخمر ولحم الخنزير، وتغذي ولدها بهما، وهو يقبلها، ويضاجعها، وليس له منعها من ذلك، ولا من الذهاب إلى الكنيسة[٢]. أما الذين يجوزون الزواج بالكتابيات فهم يستندون في ذلك إلى قوله تعالى: ﴿اليوم أحل لكم الطيبات، وطعام الذين أوتوا الكتاب، حل لكم، وطعامكم حل لهم، والمحصنات من المؤمنات، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم، إذا أتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين، ولا متخذي أخدان. . .﴾[٣].

وأما حجة القائلين بكراهية نكاح الكتابيات فقوله تعالى: ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنّ﴾[٤]. وأن لفظ (المشركات) هنا إنما يتناول عبدة الأوثان

---

(١) الطبري: تاريخ ج ٣ ص ٥٨٨، (Fattal p. 129).

(٢) ابن حزم: المحلى ج ٩ ص ٤٤٥؛ ابن قدامة المقدسي: المغني ج ٦ ص ٥٨٩؛ الشافعي: أحكام القرآن ص ١٨٣، (Fattal p. 129).

(٣) سورة المائدة: آية ٤.

(٤) سورة البقرة: آية ٢٢١.

عند الإطلاق، ولا يدخل فيهم أهل الكتاب[1]، بدليل قوله تعالى: ﴿ما يود الـذين كفروا من أهـل الكتاب، ولا المشـركين أن ينـزل عليكم من خير من ربكم﴾[2]. ففرّق القرآن بين أهل الكتاب، وبين المشركين منهم في اللفظ، وظاهـرة يقتضي أن المعطوف غير المعطوف عليه[3].

ويقول (Fattal)[4]: (بعض الفقهاء يفضلون زواج المسلم بكاتبية لأن هذا الزواج يفتح الطريق بالنسبة للزوجة الكتابية لكي تدخل في الإسلام بتأثير زوجها).

أما الزواج بالمجوسية فلم يحل عند جمهور الفقهاء لأنهم ليسوا من أهل الكتاب، وذهب الظاهرية[5]: إلى جواز زواج المسلم بالمجوسية بحجة أنها من أهل الكتاب لقول النبي: «سنوا بهم سنة أهل الكتاب» ولأنه روى أن حذيفة بن اليمان تزوج مجوسية، ولأن المجوس يقرون بالجزية، فأشبهوا اليهود، والنصارى في الحقوق. وعند الشيعة[6] بين النكاح الدائم فلا يحل، وبين المتعة فتحل.

أما نكاح الصابئيات فمختلف فيه على قولين: الأول، جـواز نكاح الصابئية حيث اعتبروها من أهل الكتاب، وممن أباح نكاحهم أبو حنيفة لأنهم عنده من جملة أهل الكتاب، وإن كانوا يخالفون أهل الكتاب في بعض ديانتهم، فإن هذا لا يمنع نكاح نسائهم، وأما أبو يوسف ومحمد أصحاب أبو حنيفة فقالا: بحرمة نكاح نسائهم لأن الصابئة عندهما ليسوا من أهل الكتاب، فمنهم يعبدون الكواكب، والنجوم. وأما الحنـابلة والشافعيـة فلم يقولـوا، بالحـل والحرام، وإنما قالوا فيهم: إن كانوا يوافقون النصارى، واليهود في أصل دينهم

---

(١) انظر: زيدان: **أحكام الذميين** ص ٣٤٣.
(٢) سورة البقرة: آية ١٠٥.
(٣) انظر: زيدان: **أحكام الذميين** ص ٣٤٣.
(٤) انظر: Fattal, Le Statut Legal Des Non Musulmans p. 129.
(٥) ابن حزم: **المحلى** ج ٩ ص ٤٤٥.
(٦) انظر: زيدان: **أحكام** ص ٣٤٥.

كانوا منهم، فتحل نساؤهم للمسلم، وإن كانوا يخالفون في أصول دينهم لم يكونوا منهم، فلا تحل نساؤهم للمسلم[1].

ويبدو على حد رأي زيدان[2]: أن المجوس ليسوا من أهل الكتاب بقوله تعالى: ﴿إن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا﴾[3]. فإذن من أين جاءت الصابئة؟ وهي الطائفة الثالثة التي ورد ذكرها في القرآن كطائفة دينية مستقلة كاليهودية والنصرانية والمجوسية، حتى ولو كانت عقائدها لها شبه بالمسيحية مع إدراكنا أن الديانات جميعاً تتشابه في الشعائر الدينية، ولكنها تختلف في تحديد معنى التوحيد، ففي هذه الحالة إما اعتبار المجوس والصابئة من أهل الكتاب، استناداً إلى ما ورد ذكرهم في القرآن، كديانات مساوية لليهودية والنصرانية، وما قاله الرسول في المجوس: «سنوا بهم سنة أهل الكتاب» أو اعتبارهم ليسوا من أهل الكتاب، بموجب الآية الكريمة السابقة، ويبدو أيضاً أن الرسول قصد بالمجوس إحدى فرقهم، ولا سيما المزدكية كما قصد بالصابئة إحدى فرقهم أيضاً، فالمجوسية تدّعي بوجود نبي، وهو زرادشت ولها كتاب ديني هو (الآفستا)، والصابئة تدعي أن نبيها يحي، وكتابهم الديني (الكنزابرا)، وهو صحف آدم، فعلى هذا الأساس يجوز اعتبارهم من أهل الكتاب كاليهود والنصارى المنحرفين.

وأما زواج المسلمة بالذمي فلا يجوز مطلقاً عند جميع الفقهاء مستندين إلى قوله تعالى: ﴿ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا﴾[4]. ولأن زواج المسلمة بغير المسلم خوف وقوعها في الكفر لأن الزوج قد يدعوها إلى دينه، والنساء في العادة يتبعن الرجال، ويقلدنهم في الدين[5].

---

(١) المغني ج ٦ ص ٥٩١؛ الكاساني ج ٢ ص ٢٧١؛ الفتاوي الهندية ج ١ ص ٢٨١.

(٢) زيدان: **أحكام الذميين** ص ٣٤٥، (Fattal. p. 133).

(٣) سورة الأنعام: آية ١٥٦.

(٤) سورة البقرة: آية ٢٢١.

(٥) الشافعي: **الأم** ج ٥ ص ٥؛ الكاساني: ج ٢ ص ٢٧١ و٢٧٢؛ كاشف ج ٢ ص ٤٠١.

وقد أجاز القرآن نكاح الأمة الكتابية (أي العبدة من اليهود والنصارى) فقال تعالى: ﴿وانكحوا الأيامى منكم، والصالحين من عبادكم وإمائكم﴾[1] .

وهناك أحكام عامة متعددة أقرها الفقهاء لأهل الذمة في دار الإسلام فلهم حق التمتع بحقوقهم الخاصة، فلهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، وقد صرح الفقهاء (بأن الذمي في المعاملات كالمسلم)[2]. فله الحق في الزواج، وإنشاء الأسرة، والتمتع بجميع حقوق الأسرة من طلاق، ونفقة، وأرث، والتمتع بالحقوق المالية، والتصرف بها، والعمل مع المسلمين أو الذميين، وقد نص الفقهاء على أن (حكم أموالهم حكم أموال المسلمين في حرمتها)[3] . وفيه يتعهد المسلمون بحماية ممتلكات الذمي ضد أي شخص سواء أكان مسلمًا أو غير مسلم[4] .

أما فيما يخص حكم الشهادة، فمختلف في قبول شهادة الذمي، فبعضهم يقبل شهادته، ويطلب ابن حنبل من الذمي أن يقسم بأنه ليس مخادعاً، ولم يخف شيئاً، ولم يبدل في الشهادة أو الوصية[5] . ويذكر مالك، الأساليب الواجبة على الذمي مراعاتها عند قسم اليمين، فيرى، أن يكون استحلافه في محل عبادته سواء أكانت كنيسة، أم كنيساً، أم بيت نار، فمثلاً على المسيحي أن يقسم في الكنيسة ويقول: (أقسم بالله الذي أنزل الإنجيل على عيسى)، وكذلك يفعل اليهودي بالنسبة للتوراة[6] .

وتسري أحكام اقتناء العبيد على الذمي، فيسمح للذمي بشراء أي جنس

---

(١) سورة النور: آية ٣٢.
(٢) السرخسي الحنفي: **شرح السير الكبير** ج ١ ص ٢٠٧.
(٣) ابن قدامة المقدسي: **المغني** ج ٨ ص ٤٤٢ ـ ٤٤٥.
(٤) انظر: Fattal, Le Statut Legal Des Non Musulmans p. 77
(٥) الشعراني: **الميزان** ج ٢ ص ١٧٧.
(٦) سحنون: **المدونة** ج ٤ ص ١٠٤؛ ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء** ج ٢ ص ٢١٨.

من العبيد يقع عليه اختياره، فإن أسلم العبد يحمل الذمي على بيع عبده المسلم لرجل مسلم، ولذلك فإن إسلام العبد الذمي يرغم مولاه الذمي على بيعه لمسلم[1]، وتسري هذه الأحكام على أهل الذمة عدا النصارى فلا تقر النصرانية بتملك العبيد.

وعلى الرغم من أن عمر بن الخطاب قد أشار إلى عدم جواز الذمي ببيع الخمور لمسلم، أو عرضها في الأسواق، إلا أنه سمح لأهل الذمة بشربها وتجارتها[2].

وهناك أحكام أخرى عامة تتعلق بالأحوال الاجتماعية لأهل الذمة، وعلاقة المسلمين بهم، فقد أجاز الرسول عيادة أهل الذمة، فقد عاد النبي يهودي، ودعاه إلى الإسلام، وقيل جاء قيس بن شماس إلى النبي فقال: (إن أمه توفيت وهي نصرانية)، وهو يحب أن يحضرها فقال له النبي: «إركب دابتك، وسر أمامها، فإذا ركبت، وكنت أمامها فلست معها».

وقال أبي وائل: (ماتت أمي، وهي على النصرانية)، فأتيت عمر فسألته فقال: «إركب في جنازتها، وسر أمامها، وقد أمر النبي علي بن أبي طالب أن يواري أبا طالب»[3].

وقد حضت الشريعة الإسلامية بسكنى أهل الذمة بين المسلمين ليطلعوا على محاسن الإسلام، ولأن الرسول وكثير من الصحابة كان يجاورهم جماعة من أهل الذمة[4]. وقد كره الفقهاء إيجار الدور، وبيعها لأهل الذمة، لأنه يكفر فيها، وينصب الصلبان فيها، وغير ذلك[5]. ولكنهم أجازوا استئجارهم،

---

(١) الشافعي: **الأم** ج ٤ ص ١٨٨.
(٢) ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء** ج ٢ ص ٢٢٥.
(٣) الغزي: **جلاء الظلمة** (مخطوط) ورقة ٣١ ظ؛ ابن القيم: ص ٢٠٠ ـ ٢٠٣.
(٤) الغزي: **جلاء الظلمة عن حقوق أهل الذمة** (مخطوط) ورقة ٢٢ ظ.
(٥) ابن القيم: **أحكام أهل الذمة** ص ٢٨٤.

وإيجارهم، فقد استأجر الرسول دليلاً يدله على طريق الهجرة، وكان مشركاً، ودفع إليه راحلته هو والصدّيق، كما أجر علي بن أبي طالب نفسه، من يهودي يستقي له كل دلو بتمرة لأن في هذا العمل لا يتضمن تعظيم دينهم وشعائرهم[1].

وأجاز الفقهاء التصدق على مساكين أهل الذمة، فقد ذكر سعيد بن المسيب، أن الرسول تصدّق بصدقة على أهل بيت من اليهود[2]. وروى عن ابن ميسرة قال: كانوا يجمعون إليه صدقة الفطر فيعطيها أو يعطي منها للرهبان[3]. وجواز ذلك استناداً إلى قوله تعالى: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم، وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾[4].

وأجاز الفقهاء للمسلم الإنفاق على أقاربه من أهل الذمة مستندين في ذلك إلى قوله تعالى: ﴿واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام﴾[5]. وفي الحديث «لا يدخل الجنة قاطع رحم»، وقد حرّم الله قطيعة الرحم وإن كان كافراً[6]. ولا يأذن الفقهاء للكتابية إذا تزوجت مسلماً أن ترتاد الكنائس، والبيع، أو الخروج في الأعياد، وليس لزوجها المسلم من منعها من صيامها الذي تعتقد وجوبه، وصلاتها، وليس له حمل اليهودية على كسر السبت، وليس له حملها على أكل اللحوم المحرمة عليهم[7].

وأما حكم السبي من النساء، والأطفال، فلا يجوز أن يقتلوا إن كانوا من

---

(1) نفس المصدر السابق ص ٢٧٧.
(2) أبو عبيدة: **الأموال** ص ٦١١؛ (باب إعطاء أهل الذمة من الصدقة).
(3) أبو عبيدة: ص ٦١١؛ أبو يعلي: **الأحكام** ص ١١٧.
(4) سورة الممتحنة: آية ٨.
(5) سورة النساء: آية ١.
(6) ابن القيم: **أحكام أهل الذمة** ص ٤١٧.
(7) نفس المصدر السابق ص ٤٣٨ ــ ٤٤١.

أهل الكتاب، فقد نهى الرسول عن قتلهم، ويكونوا سبياً مسترقاً، يقسمون مع الغنائم[1].

أما في الأحكام الأخرى، فيقضي الشافعي نفي الذمي من دار الإسلام إذا انتقل من ديانة معاهد عليها إلى أخرى، وذلك لأنه لا يجوز أخذ الجزية على غير الدين الذي أخذت منه أولاً[2]. ولأنه لا يجوز أي تغيير في الدين، إلا إذا كان دخولاً في الإسلام، فلا يجوز للمسيحي أن يتهود، ولا لليهودي أن يتنصر، ولم يكن النصراني يرث اليهودي، ولا العكس، كما لم يكن اليهودي أو النصراني يرث المسلم، ولا المسلم يرثهما[3]. وذلك استناداً إلى الأثر الثابت عن النبي أنه قال: «لا يتوارث أهل ملتين»[4] وقد التزم به الخلفاء، فقد أصدر عمر بن الخطاب إلى الأشعث عندما طلب أن يرث أملاك عمته التي تزوجت يهودياً ثم ماتت بلا ولد، فرفض عمر بن الخطاب طلبه في إرثها[5] فعلى هذا القياس يحرم ابن الذمي من أملاك أبيه إذا أسلم الابن، كما تسقط ولاية الذمي على ابنته المسلمة في الزواج[6] وفي حكم القضاء، فقد أجاز الفقهاء لأهل الذمة القضاء عند القضاة المسلمين، ووفق الشريعة الإسلامية، فكان القضاة يجعلون للنصارى يوماً في منازلهم، وأول من أدخلهم المسجد محمد بن مسروق للنظر في خصوماتهم[7].

وأجاز الإسلام شهادة الذمي، وإخباره لأن الأديان السماوية تحرم

---

(١) الماوردي: **الأحكام السلطانية** ص ١٣٤.

(٢) الشافعي: **الأم** ج ٤ ص ١٠٥.

(٣) انظر: آدم متز: **الحضارة الإسلامية** ص ٤٥ حاشية (١) نقلاً عن كتاب الخراج لقدامه بن جعفر (مخطوط) بالمكتبة الأهلية باريس.

(٤) رسائل الصابي. مخطوط برقم ٧٦٦. مكتبة ليدن ص ١١ ١٢ ب نقلاً عن حاشية (٢) من كتاب متز. **الحضارة الإسلامية** ص ٤٦.

(٥) ابن رسته: **الأعلاق النفسية** ص ٢٠٥.

(٦) سحنون: **المدونة الكبرى** ج ٤ ص ٢٥٩.

(٧) الكندي: **الولاة والقضاة** ص ٣٩٠.

الكذب، ولأن القرآن أثبت الأمانة لأهل الكتاب إذ قال تعالى: ﴿ومن أهل الكتاب من أن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من أن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا مادمت عليه قائمًا﴾[1]. فهذه الأحكام قد حددت العلاقة بين أهل الذمة، وبين المسلمين، وهي أحكام يتجلى فيها سماحة الإسلام، ونظرته إليهم كما أن الرسول والخلفاء ومن جاء بعدهم، والفقهاء، التزموا بما جاء في القرآن، وفي سنة الرسول، وهذه السنن والأحكام بحق كانت في غاية الرحمة والشفقة، والتسامح مع أهل الذمة.

الأحكام في حقوق أهل الذمة:

الحقوق السياسية:

لقد أباح الخلفاء الراشدون، ومن جاء بعدهم من خلفاء بني أمية، وبني العباس حرية الرأي، والاجتماع لغير المسلمين، وأنه ليس في الشريعة الإسلامية ما يمنع ذلك، فقد سمح لأهل الذمة الاجتماع في كنائسهم، ومعابدهم، والقيام بشعائرهم الدينية، وتبادل الآراء فيما يختص اختيار وانتخاب رؤسائهم الدينيين، وما يترتب على ذلك من مناقشة أوضاعهم، وحل مشاكلهم فيما بينهم بجو من الحرية التامة، على أن لا يسيئوا استعمالها، بإثارة الفتنة، أو التحريض على العصيان، أو الرّدة، أو الدعوة إلى التشكيك في العقائد الإسلامية[2].

هذه الحقوق قد أقرها الإسلام لأنه سمح للمسلمين بمناقشة آرائهم الدينية، وعقائدهم بالحسنى فقال تعالى: ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن﴾[3]. وقد اعترف النبي بحقوقهم، وجعلهم على قدم المساواة مع المسلمين في الحقوق والواجبات، فقال النبي: «... فاعلمهم أن لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين»[4] وتوسع الخلفاء في منح أهل الذمة من

---

(1) سورة آل عمران: آية ٧٥.

(٢) زيدان احكام الذميين ص ٩٨.

(٣) سورة العنكبوت: آية ٤٦.

(٤) الكاساني: بدائع الصنائع ج ٧ ص ١٠٠.

الحقوق فجعلوا حرمة أموالهم، وحياتهم، كحرمة أموال المسلمين وحياتهم، فقال علي بن أبي طالب: «إنما قبلوا عقد الذمة لتكون أموالهم كأموالنا، ودماؤهم كدمائنا»[١] وأباح الحكام المسلمون لهم الحق في تعليم أولادهم، وفق ديانتهم، وفي حق إنشاء المدارس الخاصة بهم، أو تعليمهم في الكنائس، والمعابد التي تعود لهم، وبهذا يكون الذمي كالمسلم في حق التمتع بالتعليم.

الحقوق الدينية:

أعطى الإسلام لأهل الذمة حق ممارسة شعائرهم الدينية مستوخين هذه السياسة من هدى القرآن، فقال تعالى: ﴿لا إكراه في الدين﴾[٢] فسمح لهم بإقامة شعائرهم، وطقوس عباداتهم الدينية، ويتجلى هذا التسامح الديني في العهود والمواثيق التي أعطاها الرسول، والخلفاء والأمراء والقواد المسلمون، لأهل الذمة، ومما جاء في عهد الرسول لأهل نجران «ولنجران، وحاشيتها جوار الله وذمة محمد على أموالهم، وملتهم، وبيعهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير»[٣].

ويعلّل فتال (Fattal) إجراءات الرسول، وتسامحُه معهم (لأن النبي أظهر حرية تامة بالنسبة لأهل الذمة لأنه أراد أن يكسبهم إلى الإسلام عن طريق الإقناع)[٤]. وأن ما جاء في عهد خالد بن الوليد لأهل عانات « . . . ولهم أن يضربوا نواقيسهم في أي ساعة شاءوا من ليل أو نهار، إلا في أوقات الصلوات، وأن يخرجوا الصلبان في أيام عيدهم»[٥].

ويؤكد (Fattal)[٦] أن المسلمين احترموا الشروط التي وضعها عمر

---

(١) السرخسي الحنفي: شرح السير الكبير ج ٣ ص ٢٥٠.
(٢) سورة البقرة: آية ٢٥٦.
(٣) أبو يوسف: الخراج ص ٧٢.
(٤) انظر: Fattal. Le Statut Legal Des Non Musulmans p. 159.
(٥) أبو يوسف: الخراج ص ١٤٦.
(٦) انظر: (Fattal, p. 175).

وعثمان وعلي، إذ لم يهدم أياً من محلات العبادة التي التزمت بها المعاهدات، فالمعاهدات التي عقدت منذ عهد الخليفة أبي بكر، ومن بعده من الخلفاء مع أهل الذمة كانت بصورة عامة تضمن الأمان للكنائس، وحرية الطقوس الدينية، وكذلك المعاهدات التي عقدت مع مجوس فارس، كانت تؤكد على حرية العبادة الدينية للذميين[1].

ويبدو أن هذه الحرية المطلقة أبيحت لأهل الذمة في ممارسة طقوسهم الدينية في المدن والقرى، التي تكون غالبيتها منهم، وقد اختلف الفقهاء في كيفية ممارسة أهل الذمة شعائرهم، وطقوسهم الدينية، فذهب أبو حنيفة إلى جواز إظهارها في القرى، والمواضع التي ليست من أمصار المسلمين[2]. وقالت الحنابلة بمنع إظهار الصلبان، وضرب النواقيس في أوقات الصلاة[3]. والشافعية كالحنابلة في جواز إظهارها إذا انفردوا في قرية أو موضع[4].

ويرى زيدان[5] جواز إقامة شعائرهم الدينية داخل كنائسهم، ويمنعون من إظهارها في خارجها، لأن أمصار المسلمين مواضع إعلام للدين، وإظهار شعائر الإسلام، فلا يصح إظهار شعائر تخالف لما في هذه الأمصار من معنى الاستخفاف بالمسلمين، وأن المنع ليس منصباً في ذاته على الشعائر الدينية، وإنما إظهاره في أمصار المسلمين يحدث شيئاً من الفتنة والاضطراب. ولهذا لا يمنع الفقهاء من إظهار شعائرهم في القرى، والأماكن التي ليست من أمصار المسلمين، وقد سمح المسلمون لأهل الذمة ببناء المعابد والكنائس، وبيوت النار التزاماً بتلك العهود التي أعطاها المسلمون لهم، وقد التزم بتنفيذ أحكامها الخلفاء فيما بعد، فقد كتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله، (ألا يهدموا بيعة،

---

(١) انظر: (Fattal, p. 161).

(٢) الكاساني: **بدائع الصنائع** ج ٧ ص١١٣.

(٣) إدريس الحنبلي: **كشاف القناع** ج ١ ص ٧٢١.

(٤) الشربيني: **مغني المحتاج** ج ٤ ص ٢٥٧.

(٥) انظر: زيدان: **أحكام الذميين** ص ٩٩ ــ ١٠٠.

ولا كنيسة، ولا بيت نار)[1] لأن الإجماع قد حصل عليهم فإنهم موجودون في بلاد المسلمين، ولقد أجيز للذمي بأن يوصي للوقف على الكنائس، من ماله لأهل ملته من النصارى واليهود[2]. وهذا دليل ثابت على أنهم كانوا يبنون الكنائس، ويصلحونها، ولكن الفقهاء اختلفوا فيها حسب طريقة فتح البلاد، فقد أجاز فقهاء الحنفية، إحداث الكنائس في القرى التي ليست من أمصار المسلمين[3]. وزاد عليها الشافعي (ت ٢٠٤ هـ/ ٨١٩م) بإطلاقها في القرى[4]. أما الكنائس القديمة في الأمصار المفتوحة عنوة، لا يتعرض لها، ولا يهدم منها، وإن هدمت فعلى رأي الحنفية تتخذ مساكن لأن المصر الذي فيه الكنيسة فتح عنوة، فلا يحق للذميين اتخاذها معابد لهم[5]، والشافعية يقّرون عليها للمصلحة العامة[6].

وعند الحنابلة قولان: الأول، هدمها لأن البلاد فتحت عنوة، إذا أذن الإمام بذلك، لأن الإمام لما أقّر أهل الذمة على عقائدهم، فمن لوازم هذا الإقرار السماح لهم بإنشاء المعابد[7].

وقد فسّر ابن القّيم (ت ٧٥١ هـ/ ١٣٥٠م)[8]، حرية الاعتقاد تفسيراً ينطبق مع أحكام الشريعة الإسلامية التي تخطت الزمان، والمكان، في مراعاة حقوق الإنسان، وقد بدأ انطلاقه في أحكام المعابد والكنائس من الآية الكريمة: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع، وبيع، ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً﴾[9] فاعترف بأنه يحرّم على المسلمين التعّرض للذميين بالظلم

---

(١) ابن قدامة المقدسي: المغني ج ٨ ص ٥٢٧؛ ابن القيم: أحكام ص ٦٩٠.
(٢) المسعودي: مروج الذهب ج ٥ ص ٣٨١.
(٣) الكاساني: بدائع الصنائع ج ٧ ص ٤١٤.
(٤) الرملي: نهاية المحتاج ج ٧ ص ٢٢٩.
(٥) الكاساني: بدائع الصنائع ج ٧ ص ١١٤.
(٦) الرملي: نهاية المحتاج ج ٧ ص ٢٢٩.
(٧) انظر: زيدان: أحكام الذميين ص ٩٨.
(٨) ابن القيم: أحكام أهل الذمة ص ٦٩٨.
(٩) سورة الحج: آية ٤٠.

والأذى عند أداء شعائرهم الدينية، ولم تكن حجة الفقهاء في بناء البيع والكنائس إلا حديث ابن عباس: (أيما مصر مصرّته العرب فليس لأحد من أهل الذمة أن يبنوا فيه بيعة، ولا يضربوا فيه ناقوساً، ولا يشرب فيه خمراً، ولا يتخذ فيه خنزيراً)[1] وهذا القول يتعارض مع عهود الرسول لأهل نجران، وعهود الخلفاء، والقواد لأهل الذمة في الأمصار المفتوحة، لأن إقرار الذمي على دينه تؤيدها، وتقرّها النصوص، والعقود، والعهود بضمانهم حرية معتقدة، وتمكينه من أداء شعائره الدينية، فلم يكن لعقد الذمة معنى لو لم يكفل الذمي حرية المعتقد، وعدم التعرض لما يدين به ويعتقد، والواقع أن الخلفاء في العصور الإسلامية، ولا سيما في العصر الأموي والعباسي، لم يأخذوا بآراء الفقهاء، فقد سمحوا لأهل الذمة بممارسة شعائرهم الدينية بحرية تامة في القرى والمدن، وبناء الكنائس والمعابد ما داموا في طاعة الخليفة، ولذا فقد كان الخلفاء في واد، والفقهاء في واد آخر.

حقوقهم في أموال الدولة الإسلامية:

بلغ من اهتمام الرسول، والخلفاء بمصالح أهل الذمة، ورعاية حقوقهم، والإشراف على أحوالهم ما دفعهم إلى تمكينهم، ومساعدتهم في أحوالهم المعاشية، فأباحوا لهم التمتع بموارد الدولة المالية، ومرافقها العامة، ومشاركتهم للمسلمين فيها، فقال الرسول: «الناس شركاء في الماء والكلأ والنار»[2] ولذا فقد ضمن لهم من موارد بيت المال في حالة الحاجة والعجز، لأنهم من رعايا الدولة الإسلامية، وقد أوجب الرسول على الخلفاء ضرورة الإشراف على أحوال الرعية، وأن الإمام مسؤول عنها، فقال: «فكلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام راع، ومسؤول عن رعيته»[3] وقد أوصى القرآن بحسن معاملتهم فقال تعالى: ﴿إن الله يحب المحسنين﴾[4] وقد سار الخلفاء على هدى

---

(١) أبو عبيدة: **الأموال** ص ٩٧.

(٢) أبو عبيدة: **الأموال** ص ٢٩٥.

(٣) الزيلعي: **تيسير الوصول** ج ٢ ص ٣٦؛ أخرجه كتب الحديث الخمسة إلا النسائي.

(٤) سورة آل عمران: آية ١٣٤.

القرآن، وسنة الرسول، فقد ضمّن خالد بن الوليد هذه الوصايا في عهده مع أهل الذمة، فجاء في صلح أهل الحيرة قوله: «وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل، أو أصابته آفة من الآفات، أو كان غنياً فافتقر، وصار أهل دينه يتصدّقون عليه، طرحت جزيته، وعيل من بيت مال المسلمين، ما أقام بدار الهجرة، ودار الإسلام» [1]، وعندما قدم عمر بن الخطاب إلى بلاد الشام مرّ بقوم مجذومين من النصارى، فأمر أن يعطوا من الصدقات، وأن يجري عليهم القوت[2].

وروى أبو يوسف (ت ١٨٢ هـ/٧٩٨ م)[3]، (أن عمر بن الخطاب مر بباب قوم، وعليه سائل يهودي يقول: شيخ كبير ضرير البصر، فقال له عمر: ما ألجأك إلى هذا؟ قال: الحاجة، والجزية. فأخذ عمر بيده، وذهب به إلى منزله، وأعطاه شيئاً، ثم أرسل إلى خازن بيت المال، وقال له: أنظر هذا، وأمثاله، فوالله ما أنصفناه، إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم، وقرأ قوله تعالى: ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين﴾، وقال: الفقراء هم المسلمون، وهذا من المساكين من أهل الكتاب، وضع عنه الجزية، وعن ضربائه). وكتب عمر بن عبد العزيز إلى واليه على البصرة عدي بن أرطأة (أما بعد... وانظر من قبلك، من أهل الذمة، من كبرت سنه، وضعفت قوته، وولّت عنه المكاسب، فأجر عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه...)[4].

وقد اختلف الفقهاء في إعطاء الأموال من بيت مال المسلمين لذوي الحاجة من أهل الذمة، فقيل يجوز إعطاؤها بعد كفاية المسلمين، وروى أبو عبيدة: (لا يتصدق على اليهودي ولا النصراني إلا أن لا نجد مسلمًا)[5]، وأن لا تكون هذه الأموال من الزكاة، فقيل عن ابراهيم النخعي: (أما من

(١) أبو يوسف: الخراج ص ١٤٤.
(٢) البلاذري: فتوح البلدان ص ١٧٧.
(٣) أبو يوسف: الخراج ص ١٤٤.
(٤) أبو عبيدة: الأموال ص ٤٥ ــ ٤٦.
(٥) نفس المصدر السابق، ص ٨٠٢.

الزكاة فلا تصدّق عليهم ولكن أعطهم من غيرها)[1] لأن في ذلك مخالفة لسنة الرسول، حيث قال: «تؤخذ من أغنيائهم فترد في فقرائهم»، وقال عمر بن شرحبيل: (أنهم كانوا يعطون الرهبان من صدقة الفطر)[2] ويبدو من استشهاد الخليفة عمر بن الخطاب بقوله تعالى: ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين﴾ فمعناها يجوز إعطاء أهل الذمة من موارد الصدقات، ومهما يكن فإن الغرض هو مساهمة الذمي في أموال الدولة الإسلامية في حالة فقره وعجزه.

حقوقهم في العمل والوظائف في الدولة الإسلامية:

أطلق الإسلام لأهل الذمة حرية العمل في الحياة الاقتصادية والمساهمة بالأعمال المختلفة التي يرغبونها من تجارة وصناعة وحرف، كالمسلمين إلا الربا، فهو محظور عليهم كالمسلمين استناداً إلى عهد الرسول لمجوس هجر «أما أن تذروا الربا، أو تأذنوا بحرب من الله ورسوله»[3] كما منع أهل الذمة من بيع الخمور ولحم الخنزير في أمصار المسلمين، أو إدخالها على وجه الشهرة، والظهور إلا أن يبيعوها في قراهم، وأمصارهم فيما بينهم، ولو كان فيه مسلمون[4].

وقد أجاز الفقهاء مشاركة المسلم الذمي والعمل معه على أن يلي المسلم البيع والشراء، وذلك لأنهم يأكلون الربا ويستحلون الأموال، فقد قام الرسول بأعمال البيع والشراء، والرهن مع أهل الذمة، فقد ثبت عن النبي أنه اشترى من يهودي سلعة، وأنه أخذ من يهودي ثلاثين وسقاً من شعيره ورهنه درعه، وأنه زارعهم، وساقاهم، وأكل من طعامهم[5].

وقد استخدم حكام المسلمين أهل الذمة في وظائف الدولة المختلفة مع العلم أن وظائف الدولة ليست حقاً للفرد على الدولة، وإنما هو تكليف تكلفه به

---

(١) المصدر السابق، ص٨٠٣.
(٢) نفس المصدر أيضاً، ص٨٠٣، ٨٠٥.
(٣) الكاساني: بدائع الصنائع ج ٥ ص١٩٣.
(٤) السرخسي: ج ٢ ص ٢٥١؛ الكاساني: ج ٧ ص ١١٣.
(٥) ابن القيم: أحكام أهل الذمة ص ٢٦٩.

الدولة إذا كان أهلاً لها، وواجب يقوم به الفرد إذا عهد إليه بها[1]. فقيل: أن الشاعر النصراني أبو زبير الطائي حارب مع المسلمين في وقعة الجسر[2]. وفي المعاهدة التي أبرمها سراحة سنة ٢٢ هجرية مع أهل أرمينيا أنه اشترط على أهلها أن يشتركوا إلى جانب المسلمين في الفتوح بدلاً من دفعهم الجزية[3]. وحارب جراجمة الشام في صفوف المسلمين بلا جزية[4].

لقد أجاز الفقهاء لأهل الذمة تولي وظائف الدولة، ومنهم الماوردي وأبو يعلي والحسن البصري فقالوا: (يجوز للخليفة أن يولي وزارة التنفيذ لأهل الذمة)[5]. وقد اختلف الأئمة في ذلك، فابن القيّم منع الذميين من استعمالهم في شيء من ولايات الدولة ومرافقها[6].

أما مصطفى الحنفي فقد جوّز استكتابهم إذا رأى الإمام في ذلك المصلحة، ولا يمنع من استخدامهم إلا في حالتين:

الأولى: إذا كانت الوظيفة تتضمن تنفيذ أحكام شرعية، وإقامة حدود دينية، فلا يجوز استخدام الذمي لأنه لا يعتقد صحة شريعتنا، فكيف يتولى تنفيذ أحكامها، وإقامة حدودها.

والثانية: إذا كانت الوظيفة فيها تعاظم على المسلمين، أو احتمال تصدي الذمي لإيذاء المسلم أو يتعمد إذلاله، أو يؤثر برعايته قرابته، وأهل دينه، أو يغش الدولة، أو يفشي أسرارها[7].

---

(١) انظر: زيدان: **أحكام الذميين** ص ٧٧.

(٢) البلاذري: **فتوح البلدان** ص ٢٥٢؛ ابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ٢١٥.

(٣) ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء** ج ٢ ص ٢١٥.

(٤) البلاذري: **فتوح البلدان** ص ١٢٩.

(٥) الماوردي: ص ٢٨؛ أبو يعلي: ص ١٥؛ أبو سالم: **العقد الفريد للملك السعيد** ص ١٤٤.

(٦) ابن القيم: **أحكام أهل الذمة في الإسلام** ص ٢٠٨ ــ ٢٣٦.

(٧) الغزي الحنفي: **جلاء الظلمة عن حقوق أهل الذمة** (مخطوط) ورقة ٢٦ و.ظ.

ويبدو أن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ/١٠٥٨م)[١] وأبو يعلي (ت ٤٥٨ هـ/١٠٦٦م)، وضعوا آراءهم المستمدة من مبادىء الشريعة، وواقع الأمة الإسلامية آنذاك، فأجازوا استخدام أهل الذمة في مختلف مرافق الدولة، التي لا يشرط فيهم الإسلام. وأما ابن القيّم الجوزية[٢] (ت ٧٥١ هـ/ ١٣٥٠م)، فهو أيضاً وضع آراءه استناداً إلى أحكام السلف، وإلى واقع الأمة، فقد امتاز عصره بحدة النزاع المذهبي، وتحدي بعض الذميين للمسلمين، وتعرّض البلاد الإسلامية لهجمات الدول المسيحية مما دفعه إلى المغالاة في منع الذميين من استعمالهم في شيء من ولايات الدولة، ومرافقها. ولكن هذه النظرة لم تكن معمولاً بها دائمًا، لأنها تتعلق بالأوضاع السياسية للدولة الإسلامية، وفي علاقاتها الخارجية مع الدول المجاورة.

وفيما عدا هذه الوظائف القليلة التي حجبت عن أهل الذمة، فإنه يجوز إشراك الذميين في تحمل أعباء الدولة، وفي السيرة النبوية أدلة على ذلك، فاستخدام أسرى بدر في تعليم أبناء المسلمين القراءة والكتابة[٣]. وسماح الرسول لأهل الذمة بالغزو معه في حروبه فقد (أسهم قوم من اليهود قاتلوا معه) وقال الأوزاعي: (من لحق بالمسلمين أسهم له قبل أن يسهم للخيل «الفرسان»)[٤] ومعنى ذلك إسهامهم قبل إسهام الفرسان من المسلمين، واستخدم الرسول عندما توجّه لفتح مكة عيناً من خزاعة يخبره عن قريش[٥]. وكان هذا العين كافراً[٦].

ومع خطورة هذه المهمة فقد أسندها الرسول إليه ووثق، واطمأن بخبره، مما يدل على جواز استخدام أهل الذمة في وظائف الدولة المهمة، وقد ظل هذا

---

(١) أنظر: اليوزيكي: **الوزارة، نشأتها وتطورها في الدولة العباسية** ص ٢٨١.
(٢) ابن القيم: **أحكام أهل الذمة** ص ٢٠٨ ــ ٢٣٦.
(٣) انظر: زيدان: **أحكام الذميين** ص ٨٠.
(٤) شرح المالكي: **صحيح الترمذي** ج ٧ ص ٤٨ ــ ٤٩.
(٥) ابن القيم: **زاد المعاد** ج ٤ ص ٢٠٢.
(٦) نفس المصدر السابق والصحيفة.

التسامح طوال العصور الإسلامية، فبالإضافة إلى جواز تقليد الذمي وزارة التنفيذ[1]، كما ذكرنا آنفاً، فقد نص الفقهاء على جواز إسناد وظائف أخرى في الدولة إليهم، كجباية الجزية والخراج[2]. وقد تجاوز الخلفاء على أقوال الفقهاء، وتشريعاتهم فيما يخص استخدام أهل الذمة في وظائف الدولة، وراعوا حاجات الدولة ومصالحها، فقد أشرك الخلفاء في مختلف عصورهم أهل الذمة في أعمال الدولة ووظائفها، فالأمويون أكثروا من استخدام النصارى حتى كان لمعاوية بن أبي سفيان كاتب نصراني اسمه سرجون، وفي زمن العباسيين، عينّ الخليفة المنصور يهودياً اسمه موسى كان أحد اثنين في جباية الخراج، وعينّ الخليفة المأمون أحد وجهاء (بورة) من مدن مصر اسمه بكّام رئيساً لبلدته، وإقليمها، كما تولى الوزارة في زمن العباسيين بعض النصارى أكثر من مرة منهم: نصر بن هارون سنة ٣١٩ هـ وعيسى بن نسطور النصراني سنة ٣٨٠ هـ[3]. وقد عبّر المستشرق آدم متز[4] عن إعجابه من كثرة استخدام الذميين في وظائف الدولة الإسلامية، فقال: (من الأمور التي نعجب بها كثرة عدد العمال والمتصرفين غير المسلمين في الدولة الإسلامية).

□ □ □

(١) الماوردي: **الأحكام** ص ٢٨؛ أبو يعلي: **الأحكام** ص ١٥.

(٢) الماوردي: ص ١٢٦؛ أبو يعلي ص ١٢٤؛ الغزي: **جلاء الظلمة** مخطوط، ورقة ٢٦ و. ظ.

(٣) أنظر ترتون: **أهل الذمة في الإسلام** ص ١٦٩.

(٤) انظر: الرافعي: **الإسلام انطلاق لا جمود.** ص ١٦ الحاشية.

الفصل الثالث

موقف الحكام المسلمين من أهل الذمة

لقد شهدت العصور الإسلامية التسامح، والأمن، والرخاء الذي نعم به أهل الذمة، وذلك بما وضع الإسلام من قواعد وتشريعات لتنظيم العلاقة بينهم وبين المسلمين، وما وضع الرسول من السنن التي اعتبرت أسساً سار عليها من جاء بعده من الخلفاء، وقد أوصى القرآن، بالإحسان إلى أهل الذمة، وبرهم، فقال تعالى: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم، وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾[1].

كما وضع القرآن نظاماً لتحديد العلاقة بينهم وبين المسلمين لكي لا تحدث الفرقة، والنزاع، فقال تعالى: ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم، وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا، وأنزل إليكم، وإلهنا، وإلهكم واحد، ونحن له مسلمون﴾[2] وقد عمل القرآن على زيادة الألفة والمودة بين المسلمين، وأهل الكتاب فأباح الاختلاط، والزواج بين المسلمين، وأهل الكتاب فقال تعالى: ﴿اليوم أحل لكم الطيبات، وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم، وطعامكم حل لهم، والمحصنات من المؤمنات، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾[3].

---

(١) سورة الممتحنة: آية ٨.

(٢) سورة العنكبوت: آية ٤٦.

(٣) سورة المائدة: آية ٤.

وقد حدّث القرآن المسلمين عن أهمية العهد، والوفاء به، وصيانة أهل الذمة، من الإيذاء، الظلم، فقال تعالى: ﴿يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق﴾[1] . وقوله تعالى: ﴿وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤ ولاً﴾[2] . وقال سبحانه وتعالى: ﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم، ولا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها﴾[3] .

وأكد الإسلام على ضرورة العفو عن بعض سيئات أهل الذمة، فقال تعالى: ﴿فاعف عنهم، واصفح إن الله يحب المحسنين﴾[4] . كما نص الإسلام على عدم التعرض لعقائد أهل الذمة، بقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إن اهتديتم إليَّ مرجعكم جميعاً﴾[5] ، وقد نهى القرآن عن إكراههم على الإسلام بقوله تعالى: ﴿لا إكراه في الدين﴾[6] .

وقد أشار القرآن إلى مودة النصارى، وتواضعهم للمسلمين، فقال تعالى: ﴿ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبان وأنهم لا يستكبرون﴾[7] ، وقد عامل الرسول أهل الذمة بغاية التسامح مستنيراً بما جاء في القرآن، فقد كتب لأهل نجران في عقد الصلح معهم: «ولنجران، وحاشيتها جوار الله، وذمة محمد النبي رسول الله على أموالهم، وأرضهم، وملتهم، وغايبهم، وشاهدهم، وعشيرتهم، وبيعهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، لا يغير أسقفاً من اسقفيته، ولا راهب من رهبانيته، ولا كاهن من كهانته، وليس عليهم دية، ولا دم جاهلية، ولا يحشرون، ولا يعشرون، ولا يطأ أرضهم جيش، ومن سأل منهم جزيتهم

---

(١) سورة الرعد: آية ٢٠.
(٢) سورة الاسراء: آية ٣٤.
(٣) سورة النحل: آية ٩١.
(٤) سورة آل عمران: آية ١٣٤.
(٥) سورة المائدة: آية ١٠٥.
(٦) سورة البقرة: آية ٢٥٦.
(٧) سورة المائدة: آية ٨٢.

فسهمهم النصف غير ظالمين، ولا مظلومين، ولا يؤخذ رجل منهم بظلم آخر، وعلى ما في هذا الكتاب جوار الله، وذمة محمد النبي رسول الله حتى يأتي الله بأمره ما نصحوا وأصلحوا . . »[1].

وقد روي عن الرسول من مصادر موثوقة لا يتطرق إليها الشك أقوالاً كثيرة في الحض على التسامح مع أهل الذمة، والمحافظة عليهم ورعايتهم، وعدم تكليفهم فوق طاقتهم، وإتباع الحق، والعدل معهم ما داموا في عهد مع المسلمين، فقال: «من ظلم معاهداً أو انتقصة أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة[2]. وقال أيضاً فيهم: «من آمن رجلاً على دمه، وماله، ثم قتله، فأنا بريء منه، وإن كان المقتول كافراً»[3] وقد حدد الرسول حقوقهم بعد قبولهم عقد الذمة، فقال: «فإذا قبلوا عقد الذمة، فاعلمهم إن لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين»[4]، ومعنى ذلك أنه ساواهم بالمسلمين في الحقوق، والواجبات.

وقد أوصى الرسول الخلفاء بحماية الرعية، والإشراف على أحوالها، وإن الإمام مسؤول عنها فقال: «كلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام راع، ومسؤول عن رعيته»[5]، فقد أجاز لهم الغزو مع المسلمين، فروى الزهري: «إن قوماً من اليهود قاتلوا مع الرسول فأسهمهم»[6]، كما كان الرسول يحضر ولائمهم، ويعود مرضاهم، ويشيع جنازاتهم، ويزورهم، ويكرمهم[7]، وروى نافع عن ابن عمر أنه قال: «كان آخر ما تكلم به النبي ﷺ أنه قال: «احفظوني في ذمتي»[8].

---

(١) الألوسي: **بلوغ الارب** ج ٢ ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤؛ ابن الأثير: **الكامل** ج ٢، ص ٢٠٠؛ انظر: حميد الله: **مجموعة الوثائق السياسية** ص ١١٤؛ البلاذري: **فتوح البلدان** ص ٧٧ ـ ٧٨.

(٢) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**: ج ٢ ص ١٢٧؛ الغزي الحنفي: **جلاء الظلمة** ورقة ٣٨ و. ظ.

(٣) ابن القيم: **أحكام أهل الذمة** ص ٨٠٣.

(٤) الكاساني: **بدائع الصنائع** ج ٧ ص ١٠٠.

(٥) الزيلعي: **تيسير الوصل** ج ٢ ص ٣٦.

(٦) شرح المالكي: **صحيح الترمذي** ج ٧ ص ٤٨.

(٧) شلبي: **المجتمع الإسلامي** ص ١٥٠.

(٨) الماوردي: **الأحكام** ص ١٣٧.

ونسبت من قبل النصارى في عهد متأخر جداً يحتمل أن يكون القرن الثالث الهجري عندما بدأت مضايقات بعض خلفاء بني العباس المتأخرين، وقد نسبها النصارى للرسول لفرض تحقيق مكاسب سياسية، ودينية بحتة.

ويقول جرجي زيدان[١]: إن الرسول إذا أعطى عهداً للنصارى، وللرهبان فهو غير هذا العهد، أو لعله، كان مختصراً، وضاع أصله فكتبوه من عندهم، فضلاً عما في عباراته، وألفاظه مما لم يكن معروفاً في صدر الإسلام.

ويقول المستشرق (Cahen)[٢] «إن هذه الوثيقة التي صدرت من قبل النبي محمد يحدد فيها موقفه بالنسبة للمسيحيين، وضعت من قبل الرهبان النـاطرة في القرن الثالث الهجري، وان ادعاء الرهبان بها إنما هو ادعاء مزيف» وقد عرضنا قسماً منها لغرض اطلاع القارىء على ما زوّر باسم الرسول.

وقد روي عن الرسول من مصادر موثوقة لا يتطرق إليها الشك أقوالاً كثيرة في الحض على التسامح مع أهل الذمة، والمحافظة عليهم ورعايتهم، وعدم تكليفهم فوق طاقتهم، واتباع الحق، والعدل معهم ما داموا في عهد مع المسلمين فقال: «من ظلم معاهداً أو انتقضه أو كلّفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة»[٣]، وقال أيضاً «الله الله في أهل الذمة...»[٤].

وروي عن الرسول أنه قال للمسلمين في المدينة بعدما تعرض رجلاً من المسلمين لأهل خيبر من اليهود فقال: «أيحسب أحدكم متكئاً على أريكته قد يظن أن الله لم يحرّم شيئاً إلا ما في هذا القرآن إلا أتى، والله لقد، وعظت، وأمرت، ونهيت عن أشياء إنها لمثل القرآن أو أكثر، وأنه لا يحل لكم ضرب

---

(١) أنظر: جرجي زيدان: **التمدن الإسلامي** ج ٤ ص ١٠٧.

(٢) أنظر: Cahen Ency. of Islam (Dhimma) p. 228 .

(٣) ابن سعد: **الطبقات الكبرى** ج ٢ ص ١٢٧؛ الغزي الحنفي: **جلاء الظلمه** ورقة ٣٨ و.ظ.

(٤) انظر: جرجي. **التمدن الإسلامي** ج ٤ ص ١٠٣.

أهل الكتاب إلا بإذن، ولا ضرب نسائهم، ولا أكل ثمارهم، إذا أعطوا الذي عليهم»[1].

وقال الرسول أيضاً: «من قتل نفساً معاهدة لها ذمة الله، وذمة رسوله فقد أخفر ذمة الله، ولا يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد في مسيرة أربعين خريفاً»[2] وقال أيضاً فيهم: «من آمن رجلاً على دمه، وماله، ثم قتله، فأنا بريء منه، وإن كان المقتول كافراً»[3] وقد حدد الرسول حقوقهم بعد قبولهم عقد الذمة، فقال: «فإذا قبلوا عقد الذمة، فاعلمهم أن لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين»[4] ومعنى ذلك أنه ساواهم بالمسلمين في الحقوق، والواجبات، وقد أوصى الرسول الخلفاء بحماية الرعية، والاشراف على أحوالها، وإن الإمام مسؤول عنها فقال: «كلهم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام راع، ومسؤول عن رعيته»[5]، وقد حاول الرسول حث أهل الذمة على الاختلاط بالمسلمين، فقد أجاز لهم الغزو مع المسلمين، فروى الزهيري: «إن قوماً من اليهود قاتلوا مع الرسول فأسهمهم»[6]، كما كان الرسول يحضر ولائمهم، ويعود مرضاهم، ويشيع جنازاتهم، ويزورهم، ويكرّمهم، كما كان يقترض منهم، ويرهن عندهم أمتعته حتى أنه توفي، ودرعه مرهونة عند يهودي»[7]، وروى نافع عن ابن عمر أنه قال: «كان آخر ما تكلم به النبي ﷺ أنه قال: «احفظوني في ذمتي»[8].

ويقول عبد المسيح الكندي[9] في رسالته «إن من الأسباب التي دفعت

---

(١) الغزي الحنفي: **جلاء الظلمة** (مخطوط) ورقة ٣٨ و.ظ.

(٢) نفس المصدر السابق. ورقة ٣٩ و.ظ.

(٣) ابن القيّم: **أحكام أهل الذمه** ص ٨٠٣.

(٤) الكاسائي: **بدائع الصنائع** ج ٧ ص ١٠٠.

(٥) الزيلعي: **تيسير الوصول** ج ٢ ص ٣٦.

(٦) شرح المالكي: **صحيح الترمذي** ج ٧ ص ٤٨.

(٧) شلبي: **المجتمع الاسلامي** ص ١٥٠.

(٨) الماوردي: **الأحكام** ص ١٣٧.

(٩) رسالة عبد المسيح الكندي: ص ٦.

الرسول إلى إعطاء النصارى العهود، والمواثيق، وجعل لهم ذمة في عنقه، وأعناق أصحابه: ان الرهبان كانوا يبشرونه قبل نزول الوحي عليه (قصة بحيرة الراهب) وإن النصارى مالت إليه، فكانت تخبره بمكائد اليهود، ومشركي قريش، ويشهد القرآن لهم: ﴿ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى﴾.

وقد سار الخلفاء الراشدون على هدى القرآن، وسيرة الرسول في معاملة أهل الذمة، ما داموا يلتزمون بعهود المسلمين، فهذا كتاب عهد من أبي بكر الصديق لأهل نجران أيضاً يؤكد فيه التزامه بعهد الرسول لهم، ويؤكد النصوص الواردة في عهد الرسول لهم [(١)].

وقال أبو بكر الصديق، يوصي قواده، وجيشه أثناء الفتوحات بأهل الذمة: «لا تقتلن أحداً من أهل ذمة الله فيطلبك الله بذمته، فيكبك الله على وجهك في النار» [(٢)] فقد كانت الفتوحات الإسلامية غايتها نشر الإسلام، وحماية أرواح، وممتلكات السكان، ورعاية مقدساتهم، وعدم المساس بكنائسهم، ورهبانهم وصوامعهم، وأصبحت هذه المثل العليا قدوة لسكان البلاد المفتوحة، فقد قال أبو بكر فيهم: «أوصيكم بعشر فاحفظوها عني ألا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا أي ولا تقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة، ولا بقرة، ولا بعيراً إلا لآكله، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم، وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا «أكلتم منه شيئاً بعد شيء، فاذكروا اسم الله عليه» [(٣)]، وقد امتثل القواد لتوجيهات الخليفة أبي بكر، وحملوا هذه المبادىء

---

(١) انظر: حميد الله: **مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي**: ص ١٢٩.

(٢) ابن سعد: **الطبقات الكبرى** ج ٢ ص ١٢٧.

(٣) انظر: **دائرة المعارف البريطانية** ج ١١ ص ١٨٤؛ الطبري: ج ٣ ص ٢١٣؛ ابن سعد: **الطبقات الكبرى** ج ٢ ص ١٢٧ ــ ١٢٨؛ وديورانت: **قصة الحضارة** ج ٢ م ٤ ص ٧٣؛ ابن بطريق: **التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق** ص ١٠.

السامية إلى البلاد المفتوحة، فلما توجه خالد بن الوليد إلى العراق، وفتح الحيرة عقد مع أهلها سنة ١٢هـ الصلح، ونصت الشروط على أن يكونوا عيوناً للمسلمين على أهل فارس، وأن لا يهدم لهم بيعة، ولا قصراً[١] وأن عهود خالد معهم تمثل صورة من صور التسامح الإسلامي مع أهل الذمة، فقد جاء فيه: «وجعلت أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه طرحة جزيته، وعيل من بيت مال المسلمين»[٢].

لذا فقد استبشر أهل الذمة خيراً بالتحرير الإسلامي، وعاشوا جنباً إلى جنب مع المسلمين في أمان، واطمئنان، ورغد عيش[٣]، فسمح لهم المسلمون بالإسهام في الحياة الاقتصادية، والاجتماعية، فقد أشركهم سعد بن أبي وقاص في تخطيط الكوفة، وسمح لهم السكنى فيها بأمان[٤]. وكانت جميع عهود الأمان مع أهل الذمة في مدن العراق وقراه التي فتحها تضمن لهم حرياتهم التامة، فقد جاء في عهده لأهل عانات «... على أن لا يهدم لهم بيعة ولا كنيسة، وعلى أن يضربوا نواقيسهم في أي ساعة شاءوا ليلاً أو نهاراً إلا في أوقات الصلوات، وعلى أن يخرجوا الصلبان في أيام عيدهم»[٥] هذه السياسة إنما كانت تقوم على أساس التعايش السلمي، والتعاون بين جماعات المواطنين، والمعاهدين الذين ارتبطوا بالدولة العربية بعهود، ومواثيق، وما ترتب عليها من تثبيت الحقوق، والواجبات كالتسامح الديني، وإقرار حرية العقيدة، وحرمة بيوت العبادة، وحماية رجال الدين، وتنظيم أمر الدفاع عن البلاد، مقابل الجزية عمن بقي على دينه، والخراج عمن بقيت في حوزته ملكية الأرض[٦].

---

(١) البلاذري: **فتوح البلدان** ص٢٩٧؛ حميد الله: **مجموعة الوثائق** ص٢٩٠.

(٢) أبو يوسف: **الخراج** ص١٤٤؛ حميد الله: **مجموعة الوثائق** ص٢٩٢.

(٣) أنظر: الخربوطلي: **تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي** ص٢٦٦.

(٤) الطبري: ج ٥ ص١٨٩.

(٥) أنظر: حميد الله: **مجموعة الوثائق** ص٢٩٣ ـ ٢٩٨.

(٦) انظر: حسن أحمد: **الإسلام والحضارة العربية** ص١٩٢.

ولما حرر عمر بن الخطاب السواد في العراق رفض تقسيم أراضيه بين المسلمين، فأقر أهل السواد في أرضهم، وضرب على رؤوسهم الجزية، وعلى أرضهم الخراج،· يعملون فيها وينتفعون بها[1] وقد كتب إلى قائده عتبة بن غزوان يوصيه بالتزام عهوده مع أهل الذمة قائلاً: «أن أغرب الناس عن الظلم، واتقوا واحذروا أن يدال عليكم لعذر يكون منكم، أو بغي، فإنكم إنما أدركتم بالله ما أدركتم على عهد عاهدكم عليه، وقد تقدم إليكم فما أخذ عليكم، فأوفوا بعهد الله، وقوموا على أمره، يكن لكم عوناً وناصراً»[2]. وقد روي الطبري (ت ٣١٠هـ / ٩٢١ م): «إن عمر بن الخطاب قال: لولاة الأمور في البصرة لعل المسلمين يفضون أهل الذمة، بأذى فقالوا: ما نعلم إلا وفاء...»[3].

وكتب عمر بن الخطاب إلى قائده سعد بن أبي وقاص حين حرر العراق، أما بعد: «فقد بلغني كتابك تذكر فيه أن الناس سألوك أن تقسم بينهم مغانمهم، وما أفاء الله عليهم فإذا أتاك كتابي هذا، فانظر ما أجلب الناس عليك به إلى العسكر من كراع، وقال فاقسمه بين من حضر من المسلمين، واترك الأرضين، والأنهار لعمالها (لأهل البلاد) ليكون ذلك في أعطيات المسلمين، فإنك إن قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بعدهم شيء (من الذميين) فهذا أمري، وعهدي إليك ولا عشور على مسلم، ولا على صاحب ذمة إذا أدى المسلم زكاة ماله، وأدى صاحب الذمة جزيته التي صالح عليها...»[4].

وكان عمر يوصي المسلمين بحسن معاملة أهل الذمة، ولا يكلفونهم فوق طاقتهم، فقال: «إني سمعت رسول الله يقول: «لا تعذبوا الناس فأما الذين يعذبون الناس في الدنيا يعذبهم الله يوم القيامة»[5].

---

(١) الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد** ج ١ ص ٧.

(٢) الطبري: **تاريخ** ج ٤ ص ٧٨.

(٣) الطبري: ج ٤ ص ٢١٨.

(٤) ابن آدم: **الخراج** ص ٤٩ ــ ١٢١؛ الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد** ج ١ ص ٩.

(٥) أبو يوسف: **الخراج** ص ١٢٥.

ولما شعر عمر بن الخطاب بدنو الأجل، قال، وهو على فراش الموت: «وأوصيكم بأهل الذمة خيراً، أن تقاتلوا من ورائهم، ولا تكلفونهم فوق طاقتهم إذا أدوا ما عليهم للمؤمنين طوعاً. . . وأوصيكم ألا ترخصوا أنفسكم، ولا لغيركم في ظلم أهل الذمة. . .، ولا تغلقوا أبوابكم دونهم، فيأكل قويهم ضعيفهم، هذه وصيتي إياكم، وأشهد الله عليكم»[1].

وقد بالغ أهل الذمة لعمر بن الخطاب واحترامهم له لكونه طبق العدل معهم، وكان رؤوفاً رحيمًا بهم.

وأما في عهدي عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب فقد تمتع أهل الذمة بالحرية، والتسامح، كما كانوا يتمتعون به في عهد عمر ما داموا يؤدون الجزية، والخراج، ويلتزمون بعهودهم مع المسلمين[2].

فكان أول كتاب كتبه عثمان بن عفان إلى عماله عقب توليه الخلافة «أما بعد فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة، ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة. . .»[3] وقد أكد عثمان على ضرورة التسامح مع أهل الذمة، فقد كان الوليد بن عقبة أحد ولاة عثمان بالعراق يدخل النصارى المساجد، ويجري عليهم كل شهر، وضمن لهم أرزاقهم شهرياً[4]، ولما ورد على عثمان عاملاه على العراق، قال لهما: «لعلكما حملتما الأرض ما لا تطيق» فقال عثمان بن حنيف: «حملت الأرض أمراً هي له مطيقة، ولو شئت لأضعفت»[5].

وكتب عثمان بن عفان إلى عمال الخراج: «أما بعد فإن الله خلق الخلق

---

(١) الجاحظ: البيان والتبيين ج ٢ ص ٤٦ ـ ٤٨.
(٢) أنظر: الخربوطلي: الإسلام وأهل الذمة ص ١٢٨.
(٣) الطبري: ج ٥ ص ٤٤ (حوادث سنة ٢٤ هـ).
(٤) البلاذري: أنساب الأشراف ج ٥ ص ٣١.
(٥) الطبري: ج ٥ ص ٤٤.

بالحق، فلا يقبل إلا بالحق، خذوا الحق، وأعطوا الحق به. . . ولا تكونوا أول من سلبها، والوفاء، الوفاء لا تظلموا اليتيم، ولا المعاهد، فإن الله خصم لمن ظلمهم»[١].

وبَسَط علي بن أبي طالب العدل، والتسامح لأهل الذمة، ويتجلى هذا في وصاياه إلى عماله وقواده، فمن وصيته إلى قائد جيشه معقل بن يونس عند خروجه إلى الأهواز لقتال الخوارج والمرتدين من أهل الذمة فقال له: «يا معقل اتق الله ما استطعت، فإنها وصية الله للمؤمنين، لا تبغ على أهل القبلة، ولا تظلم أهل الذمة، ولا تتكبر فإن الله لا يحب المتكبرين»[٢] وأما وصيته إلى عامله في أهل الذمة، فقال: «أنظر إذا قدمت عليهم، فلا تبيعن لهم كسوة شتاء، ولا صيفاً، ولا رزقاً يأكلونه، ولا دابة يعملون عليها، ولا تضربن أحداً منهم سوطاً واحداً في درهم، ولا تقمه على رجله في طلب درهم، ولا تبع لأحد منهم عرضاً من الخراج، فإنا إنما أمرنا أن نأخذ منهم العفـو»[٣]، وروى اليعقوبي: «أن الخليفة علي بن أبي طالب أعطى النصارى من العطاء، وساواهم بالعرب والموالي[٤]. وأمر الخليفة علي عاملاً له بحفر نهر لأهل الذمة يروون منه أرضهم، وشكا يهودي مرة علي بن أبي طالب إلى شريح قاضي البصرة فأنصفه شريح من الخليفة مما أدى إلى إسلام اليهودي وقتاله في صفوف علي»[٥].

إن تسامح الخلفاء الراشدين مع أهل الذمة في ممارسة شعائرهم الدينية وترك لهم تمتعهم بحقوقهم الدينية، والقضائية بالرجوع فيها إلى رؤسائهم الروحانيين، وسمحوا لهم ببناء الأديرة، والبيع والكنائس، فقد كان لهم في الموصل بيع،

---

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) الطبري: ج ٥ ص ١٢٢.

(٣) أبو يوسف: الخراج ص ١٥ ــ ١٦، المطبعة السلفية ١٣٥٢ هـ.

(٤) اليعقوبي: تاريخ ج ٢ ص ٥٩.

(٥) الأصفهاني: الأغاني ج ١٦ ص ٣٦؛ الجاحظ: التاج في أخلاف الملوك ص ١٦١.

وكنائس وأديرة كثيرة ترك لهم المسلمون دورهم، ومعابدهم، وعاشوا جميعا بسلام[١]. كما سمح لهم باختيار رؤسائهم الروحانيين، فكان للنصارى رئيس ديني يسمى (الجاثليق) يتولى أمور النصارى وكان لليهود رئيس ديني يسمى (رأس الجالوت) يدير شؤون اليهود، وقام البستاني أول رأس جالوت لليهود بخدمات جليلة للمسلمين مما كان موضع تقدير الخليفة عمر بن الخطاب، ورضائه فأوصى بحسن معاملة اليهود[٢]. هذه السياسة كان لها أثر كبير في حمل الكثير من أهل الذمة في العراق في عهد الراشدين على الدخول في الإسلام لما لمسوا فيه من العدالة، والحرية، وكان أسرع الناس لقبول الإسلام، الطبقة العامة من أصحاب الحرف والصناع الذين اعتنقوه بحماسة[٣].

وقبل أن نتكلم عما نسب إلى عمر بن الخطاب بـ (عهد عمر) ومناقشة ما جاء في نصوصه ومحاولة إثبات عدم صحة ما نسب إليه، وقبل أن نتطرق إلى دراسة أحوال أهل الذمة في العصر الأموي، والعباسي نعود إلى الاستشهاد بآراء النصارى من أهل الذمة، وآراء المستشرقين النصارى، وهي بلا شك رد مفعم لدعاة الباطل، والتفرقة الذين صوروا الإسلام، والحكام المسلمين بالسيف المسلط على رقاب أهل الذمة. فيروي لنا صاحب التاريخ المسعودي[٤]: «أن الجاثليق يشوعياب أرسل إلى النبي (ص) هدايا مع جبرائيل أسقف ميسان (محافظة العمارة حالياً) وسأله الإحسان إلى النصارى، وكان جواب الرسول: «إن بره بعده من الإبل، وثياب عدنيه»[٥].

وقال توما المرجي: «إن الجاثليق الجدالي بعث برسالة إلى أحد أساقفة الفرس يقول فيها: «إن العرب الذين وهبهم الله الملك يحترمون الديانة

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان ص ٣٤٠.
(٢) يوسف غنيمة: نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق ص ١٠١.
(٣) أنظر: أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص ٢.
(٤) مؤلف مجهول: التاريخ المسعودي ج ٢ ص ٦١٨ ـ ٦١٩.
(٥) انظر: ماري سليمان: أخبار فطاركة كرسي المشرق ص ٦٢.

المسيحية، ويودون القسس، والرهبان، ويكرمون أولياء الله، ويحسنون إلى الكنائس، والأديار»[١].

ولما وصلت الجيوش الإسلامية في أثناء تحرير العراق إلى تكريت فتح رئيس الأساقفة أماروثا أبواب قلعة تكريت، واستقبل الجيوش الإسلامية[٢] ولما صارت هذه الجيوش إلى الموصل حمل ماراما الارزوني الميرة والمؤن إلى جيش المسلمين، وساعد رئيسهم عبدالله بن المعتم على الفتح[٣]، وقال الجاثليق يشوعيان الحديابي الذي كان يرأس طائفته في أيام عثمان وعلي: «ان العرب الذين أعطاهم الله حكم العالم اليوم ليسوا أعداء النصرانية فهم يحترمون ديننا، ويكرمون القديسين، والكهنة، ويساعدون الديرة، والكنائس»[٤].

وأشار الكتّاب النصارى إلى العهود التي منحها الخلفاء لهم تكريماً لمواقفهم من المسلمين «فقد حظي الجاثليق يشوعياب الجدالي بين يدي الخليفة عمر بن الخطاب، وكتب له عمر، ولطائفته عهداً وذماماً»[٥]، وكتب علي بن أبي طالب إلى الجاثليق مارامة الارزوني كتاب توصية كان يظهره لكل من يتولى رؤساء الجيوش، وأمرائهم فيتمثلونه[٦].

هذا ما كتبه رؤساء النصارى في معاملة المسلمين لهم، وما أشاروا إليه من العهود والمواثيق التي أعطاها الخلفاء لرؤسائهم.

---

(١) أنظر: ماري: **كرسي المشرق** ص ٦١ ـ ٦٢؛ بطرس نصري: **ذخيرة الأذهان** ج ١ ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠.

(٢) نصري: **ذخيرة الأذهان** ج ١ ص ٣٣١.

(٣) أنظر: ماري: **كرسي المشرق** ص ٦٢؛ نصري: **ذخيرة الأذهان** ج ١ ص ٢٤٩ ـ ٢٥٣.

(٤) أنظر: ترتون: ترجمة حسن حبشي: **أهل الذمة** ص ١٤٩.

Thomas Bishop of Marga, The Book of Governors Vol. II. p. 156.

(٥) ماري: **أخبار فطاركه كرسي المشرق** ص ٦٢؛ نصري: **ذخيرة** ج ١ ص ٢٤٩ ـ ٢٥٣؛ تاريخ كلده وآثور ج ٢ ص ٢٥١ ـ ٢٥٥.

(٦) مري: **كرسي المشرق** ص ٦٢؛ ذخيرة الأذهان ج ١ ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠.

وأما ماكتبه النصارى من المستشرقين فيعطي الدليل القاطع على تسامح الإسلام، وعلى حسن معاملة الحكام المسلمين لأهل الذمة، فقد كتب المستشرق الفرنسي دونال في كتابه تاريخ الرها (أن عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب أحسنوا إلى النصارى وقربوهم منهم، وولوا بعضهم على البلاد التي كان معظم سكانها نصارى، واكتفوا بطلب الجزية منهم)[١]، ويقول المستشرق لومون الفرنسي (ومن يتتبع سير التاريخ يرى أن المسلمين في صدر الإسلام كانوا يحترمون النصارى، ويدافعون عن حقوقهم، فازدهرت الديانة النصرانية في أيامهم)[٢] ويؤيد المستشرق لوبون ذلك فيقول: (والحق أن الأمم لم تعرف فاتحين راحمين مسالمين مثل العرب، ولا ديناً سمحاً مثل دينهم)[٣].

ويقول المستشرق أرنولد عن الإسلام: (انه هو الدين الوحيد الذي لم يفرض بالقوة بل أقبل الناس على اعتناقه بإرادتهم، واختيارهم)[٤] ويوضح المستشرق دوزي مواقف الحكام المسلمين من أهل الذمة فيقول: (ان تسامح ومعاملة المسلمين لأهل الذمة أدى إلى إقبالهم على الإسلام، وأنهم رأوا فيه اليسر والبساطة مما لم يألفوه في دياناتهم السابقة)[٥].

ويشير المستشرق أرنولد إلى سياسة التسامح مع جميع أهل الذمة ومنهم المجوس، فيقول:[٦] (أن القوة والعنف لم يكن السبب في اتساع نطاق تحويل الناس إلى مسلمين بدليل المعاملة الطيبة التي عامل بها العرب من ظل من الفرس على تمسكه بدين المجوس).

---

(١) انظر: **مجلة النجم** ج ١ ص ٥٧ للبطريكية الكلدانية في الموصل.

(٢) انظر: اللومون الفرنسي: تعريب المطران يوسف داود (مختصر تواريخ الكنيسة ص ٣٨٥ ــ ٣٨٦.

(٣) أنظر: لوبون: **حضارة العرب** ص ٧٢.

(٤) انظر: أرنولد: **الدعوة إلى الإسلام** ص ١٨٢.

(٥) انظر: دوزي: **نظرات في تاريخ الإسلام** ص ٤١١ ــ ٤١٢.

(٦) انظر: أرنولد: **الدعوة إلى الاسلام** ص ٢٣٨.

وقد أشار لوبون إلى: [1] (أن القرآن قد وضح مسامحة النبي محمد لليهود، والنصارى، وأنها كانت عظيمة للغاية، ولم يقل بمثلها مؤسسو الأديان التي ظهرت قبله كاليهودية، والنصرانية، وقد سار خلفاؤه على سنته في التسامح، وقد اعترف بذلك التسامح بعض علماء أوروبا المرتابون الذين أمعنوا النظر في تاريخ العرب، والعبارات التالية تثبت رأينا في هذه المسألة، فقال المستشرق روبرتسون في كتابه (تاريخ شارلكن): (أن المسلمين وحدهم هم الذين جمعوا بين الغيرة لدينهم، وروح التسامح نحو اتباع الأديان الأخرى، وأنهم مع امتشاقهم الحسام نشراً لدينهم تركوا من لم يرغبوا فيه أحراراً في التمسك بتعاليمهم الدينية.

وقال الراهب ميشود في كتابه (تاريخ الحروب الصليبية) (ان القرآن الذي أمر بالجهاد تسامح نحو اتباع الأديان الأخرى، وقد أعفى البطاركة، والرهبان، وخدمهم من الضرائب، وحرم محمد قتل الرهبان لعكوفهم على العبادات، ولم يمس عمر بن الخطاب النصارى بسوء حين فتح القدس في حين ذبح الصليبيون المسلمين، وحرقوا اليهود بلا رحمة).

وقال المستشرق ميشود أيضاً في كتابه (رحلة دينية في الشرق): (ومن المؤسف أن تقتبس الشعوب النصرانية من المسلمين التسامح الذي هو آية الإحسان بين الأمم، واحترام عقائد الآخرين، وعدم فرض أي معتقد عليهم بالقوة)[2].

ويردف المستشرق لوبون قائلاً: ولم يبد عدم التسامح بين المسلمين إلا بعد أن اضمحل سلطان العرب في القرن الثالث عشر الميلادي، وصارت سلطتهم قبضة شعوب ثقيلة شرسة، غير مهذبة من ترك، وبربر وغيرهم، كما أشار إلى ذلك بحق مسيو رينان بقوله: (وليست المذاهب مصدر عدم التسامح في الغالب

---

(١) أنظر: لوبون: **حضارة العرب** حاشية (1) ص ١٢٨.

(٢) انظر: لوبون: **حضارة العرب** ص ١٢٧ ــ ١٢٨.

بل الأشخاص، وكان العرف العربي من التهذيب، والسماحة ما لا يحيد معه عن هذا التسامح الذي أقام الدليل عليه في كل مكان، منذ بدء فتوحه).

ويقول المستشرق لوبون أيضاً: ان التسامح الديني كان مطلقاً في دور ازدهار حضارة العرب وسنشير هنا إلى ما ترجمه المستشرق دوزي من قصة أحد علماء الكلام العرب الذي كان يحضر ببغداد دروساً كثيرة في الفلسفة يشترك فيها أناس من اليهود، والزنادقة، والمجوس، والمسلمين، والنصارى، وغيرهم، فيستمع إلى كل واحد منهم باحترام عظيم، ولا يطلب منه إلا أن يستند إلى الأدلة الصادرة عن العقل لا إلى المأخوذة، من أي كتاب ديني كان، فتسامح مثل هذا هو ما لم تصل إليه أوروبا بعدما قامت به في أكثر من ألف سنة من الحروب الطاحنة، وما عانته من الأحقاد المتأصلة، وما منيت به من المذابح الدامية)[١].

أما بالنسبة للضرائب التي فرضها المسلمون على أهل الذمة، فقال المستشرق: «فان فلوتن»: (ان الضرائب ليست فادحة بالنسبة لما كانت تقوم به الحكومات العربية من بناء الطرق، وحفر الترع، وتوطيد الأمن، وما إلى ذلك من ضروب الإصلاح، والحقيقة أن الجزية لم تكن عقاباً لأهل الذمة، فهي نظير إعفائهم من الجندية، ومقابل حماية المسلمين لهم، وقد فرض الإسلام على المسلم الزكاة حتى يتكافأ الذمي، والمسلم في الواجبات، وكان نظام الجزية عادلاً بحسب مقدرة الفرد المالية، ففرّق بين الغني والفقير والمتوسط الحال، كما أعفى النساء، والصبيان، وذوي العاهات، والرهبان، وكان لأهل الذمة نصيب من العطاء)[٢].

ويروي الخربوطلي رأي المستشرق جولدتسهير في الإسلام:[٣] (ان مبادىء الحرية الدينية التي منحت لأهل الذمة في مباشرة أعمالهم الدينية، وروح التسامح في الإسلام... كان لها أصلاً في القرآن (لا إكراه في الدين).

---

(١) انظر: لوبون: **حضارة العرب** ص ٧٠.

(٢) انظر: فان فلوتن: **السيادة العربية** ص ٢٠.

(٣) انظر: الخربوطلي: **الإسلام وأهل الذمة** ص ١٠٦.

وأكد المستشرق باتولد:[1] ان النصارى كانوا أحسن حالاً تحت حكم المسلمين إذ أن المسلمين اتبعوا في معاملاتهم الدينية، والاقتصادية لأهل الذمة، مبدأ الرعاية، والتساهل).

وقال المستشرق لوبون[2] في تسامح المسلمين مع أهل الذمة في العبادة: (فقد احترم المسلمون عقائد أهل الذمة، وعاداتهم، وعرفهم، مقابل جزية زهيدة تقل عما كانوا يدفعونه إلى سادتهم السابقين من الفرس، والروم من الضرائب).

ويقول المستشرق ديموبين:[3] (ولم يطبق العرب على أهل الذمة ما كانوا يوضعونه على المسلمين من عقوبات كشرب الخمر).

ويقول المستشرق أرنولد:[4] (من تسامح المسلمين برسالة بعث بها لأحد رجال الكنيسة، وهو البطريق النسطوري يشوع باف الثالث، وقد تضمنت الرسالة الدليل القاطع على طابع الهدوء، والمسالمة التي اتبعها العرب في نشر الإسلام).

ويشير المستشرق ماسينيون إلى رأيه في الإسلام، فيقول: (يمتاز الإسلام بأنه يمثل فكرة مساواة صحيحة بمساهمة كل فرد من أفراد الشعب بالعشر في وارد الجماعة، وللإسلام ماض بديع من تعاون الشعوب، وتفاهمها، وليس من مجتمع آخر له مثل ما للإسلام ماض كله التوفيق في جمع كلمة مثل هذه الشعوب الكثيرة المتباينة على بساط المساواة في الحقوق والواجبات)[5].

ويقول المستشرق (Cahen):[6] (من النظرة العقائدية فإن الذميين كانوا

---

(١) انظر: بارتولد: **الحضارة الإسلامية** ص ١٩ ــ ٢٠.
(٢) انظر: لوبون: **حضارة العرب** ص ١٦٩.
(٣) انظر: ديموبين: **النظم الإسلامية** ص ١٦٦.
(٤) انظر: أرنولد: **الدعوة إلى الإسلام** ص ٧٥.
(٥) انظر: الخربوطلي: **الإسلام وأهل الذمة** ص ٩٩.
(٦) انظر: Cahen Ency. of Islam (Dhimma) p. 229.

يمنعون من دخول الوظائف الحكومية، والواقع كان مخالفاً لذلك إذ ساعد الذميين المسلمين في إدارة المناطق التي فتحها (المسلمين).

وقال المطران إيليا:[1] (ان الذي نعتقده في المسلمين هو أنه يلزمنا طاعتهم ومحبتهم أكثر من غيرهم)، وذلك لأنهم يرون صيانتنا، وإعزازنا، والإحسان إلينا ديانة، وفرضاً لأن كتابهم (القرآن) يأمرهم بذلك، ويعتقدون أن من ظلمنا، وآذانا، وتعدي علينا منهم كان صاحبهم (النبي محمد) خصمه يوم القيامة، وشرعهم يحمدنا، ويجيزنا من بين سائر أهل الملك).

إن سياسة التسامح مع أهل الذمة كان لها الأثر الإيجابي الفعّال حيث أقبل أهل الذمة، نتيجة حبهم للعرب المسلمين إلى التقرب إليهم، ووجدوا أن أولى هذه الوسائل هو تعلم لغتهم، والتقلد بنظمهم العربية، وتقاليدهم، فأصبحت اللغة العربية بمرور الزمن لغة جميع النصارى في حوض دجلة والفرات)[2].

وقلما نجد من المؤرخين، والمستشرقين النصارى من لم يثن على الإسلام، والمسلمين مواقفهم من أهل الذمة، وأنهم لم يجبروهم قط على الدخول في الإسلام. فيؤكد المستشرق أرنولد[3] قوله: (لم نسمع عن أية محاولة مدبرة لإرغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الإسلام، أو عن أي اضطهاد منظم قصد منه استئصال الدين المسيحي، ولو اختار الخلفاء تنفيذ إحدى الخطتين لاكتسحوا المسيحية بسهولة، وغيرها من الأديان).

وينفي المستشرق أرنولد[4] أن يكون الاضطهاد هو الدافع لأهل الذمة

((١) ابن شيت المطران إيليا: **المجالس السبعة** «مخطوط» ورثة ٣٣٥ و.ظ.

((٢) انظر: Shedd, Islam and Oriental Churches p. 97.

(٣) أنظر: أرنوك: **الدعوة إلى الإسلام ٩٨ ــ ٩٩** وما بعدها.

((٤) انظر: نفس المصدر السابق ص ٨٨ وما بعدها.

على اعتناق الإسلام، فيقول: (ان إقبال أهل الذمة على اعتناق الإسلام يعود لعاملين: أولهما تدهور الكنيسة، وثانيهما إعجاب أهل الذمة بالعقيدة الإسلامية.

ويقول المستشرق ديورانت:[1] (أصبح المسيحيون الخارجون على كنيسة الدولة البيزنطية، والذين كانوا يلقون صوراً من الاضطهاد على يد بطاركة القسطنطينية، وأورشليم، والاسكندرية، وأنطاكية أصبح هؤلاء الآن أحراراً آمنين تحت حكم المسلمين، ولقد ذهب المسلمون في حماية المسيحيين إلى أبعد من هذا، إذ وضعوا حرساً خاصاً يمنع الطوائف المسيحية المختلفة من أن يقتل بعضها بعضاً في الكنائس، وبلغت العلاقة بين المسلمين، والمسيحيين درجة من المودة تتيح للمسيحيين الذين يضعون الصلبان على صدورهم، أن يئموا المساجد، ويتحدثوا فيها مع أصدقائهم المسلمين).

ويقول المستشرق (Shedd):[2] (أن العرب عاملوا النصارى، واليهود معاملة تمتاز بالتسامح) وقد كان المسلمون قد جنحوا إلى ترك كل جماعة غير إسلامية تحكم نفسها بإشراف رئيسها، وهذا الرئيس هو حلقة الاتصال بين الجماعة، وبين الحكومة الإسلامية)[3].

وقال صاحب التاريخ المسعودي: (فطالبوا أهل الذمة بالجزية فأدوها، وأحسنوا إليهم، وتقررت الأمور بفضل الله تعالى، وطابت قلوب النصارى في مملكتهم ثبتها الله، ونصرها)[4].

وهكذا رفه أهل الذمة في ظلال تسامح المسلمين، ونعموا بالحرية، وخاصة النصارى في العراق حيث بقوا في عهد الرسول، والخلفاء الراشدين ينعمون بحرية تامة، وعاملهم الولاة المسلمون معاملة حسنة، وقد اكتنفتهم

---

(١) انظر: ديورانت: قصة الحضارة ج ١٣ ص ٦ ـ ٧.
(٢) أنظر: (Shedd, Islam and Oriental Churches. p. 100).
(٣) دائرة المعارف الإسلامية (مادة ذمه) ج ٩ ص ٣٩١.
(٤) مؤلف مجهول: تاريخ المسعودي ج ٢ ص ٥٨٢.

الحماية، وظللهم التسامح)[1] وما أشار إليه المؤرخون، والمستشرقون لحق، ومصداق لقول الله تعالى: ﴿وشهد شاهد من أهلها﴾ على أن الإسلام، والحكام المسلمين أولوا العناية، والرعاية لأهل الذمة، تطبيقاً لمثل الإسلام، والقيم العربية.

والآن نعود إلى مناقشة ما نسب إلى الخليفة عمر من وثيقة تاريخية تناقلها الفقهاء، والمؤرخون من المسلمين، والمستشرقون، واختلفوا في نسبتها للخليفة عمر بن الخطاب، فمنهم من اعتبرها، وثيقة أصدرها الخليفة عمر، لتحديد العلاقة بين المسلمين وأهل الذمة، وبصورة خاصة النصارى، ومنهم من أنكر على الخليفة عمر بن الخطاب أن يصدر مثل هذه الوثيقة لا سيما، وأنه كان من أشد الخلفاء الراشدين رحمة بأهل الذمة، ورعايتهم ولنا من أقواله، ووصاياه، وقد أشرنا إليهما آنفاً لخير دليل على عدم صحته ما نسب إليه، وان أغلب الفقهاء، والمؤرخين الذين أشاروا إليها عاشوا في العصور الإسلامية المتأخرة منهم أبو بكر محمد بن محمد بن الوليد الفهري الطرطوشي المالكي المتوفى سنة ٥٢٠ هجرية في كتابه (سراج الملوك)[2]، كما رواها ابن عساكر في تاريخ دمشق[3].

وقد نقلها الفقهاء، والعلماء، والمؤرخون المتأخرون منهم الشيخ عبد الله محمد بن الشيخ مفلح المقدسي الحنبلي في كتابه الآداب الشرعية والمصالح المرضية:[4] وكتاب العزيزي[5] المحلى لعزيز الدين بن محمد بن يحيى بن المخلطة المولود سنة ٨٢٤ هجرية، وكتاب كناش[6] للشيخ محمد بن عمر الخونكي المصري، وكتاب الشروط العمرية[7] على أهل الذمة للقاضي أبو محمد

---

(١) نصري: ذخيرة الأذهان ج ١ ص ٢٦٥، ٣٤٦.
(٢) الطرطوشي: سراج الملوك ص٢٨٣ وما بعدها.
(٣) ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ١ ص ١٧٨.
(٤) مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٢٢٢/أفلاق تيمور.
(٥) مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٦٨٢/أدب تيمور.
(٦) مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٥٤٤/أدب تيمور.
(٧) مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٢٢٥٢ تاريخ، بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية برقم ٢٩٢. تاريخ.

عبد الله بن أحمد بن زير، وكتاب مرسوم بعض الملوك الصلاحية في إلزام أهل الذمة بالشروط العمرية لمؤلف مجهول[1]، وتوجد صورة أخرى من العهد، يقال إن النصارى انتهوا إليها، بعد محادثة جرت بين عمر بن الخطاب، وأبي عبيدة بن الجراح من جانب، وبين البطريك قسطنطين من جانب آخر[2]. سنذكره بعد ذكر نص العهد الأول. وقد آثرنا إدراج هذا العهد ليتسنى لنا مناقشته، وسنشير إلى العهد الذي أورده الطرطوشي[3] (ت ٥٢٠ هـ/ ١١٢٥ م) باعتباره أقدم من أشار إليه:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة (ـ) إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا، ولذرارينا، وأموالنا، وأهل ملتنا، وشرطنا لكم على أنفسنا، ألا نحدث في مدائننا، ولا فيما حولها ديراً، ولا كنيسة، ولا قلية، ولا صومعة راهب، ولا نجدد ما خرب منها، ولا ما كان مختطاً منها في خطط المسلمين في ليل ولا نهار، وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل، وأن ننزل من مر بنا من المسلمين ثلاث ليال نطعمهم ولا نؤوي في كنائسنا، ولا في منازلنا جاسوساً، ولا نكتم غشاً للمسلمين، ولا نعلم أولادنا القرآن، ولا نظهر شرعنا، ولا ندعوا إليه أحداً، وألا نمنع أحداً من ذوي قرابتنا الدخول في الإسلام إن أراد، وأن نوقر المسلمين، ونقوم لهم من مجالسنا إذا أرادوا الجلوس، ولا نتشبه بهم في شيء من لباسهم من قلنسوه، ولا عمامة، ولا نعلين، ولا فرق شعر، ولا نتكلم بكلامهم، ولا نكتني بكناهم، ولا نركب السروج، ولا نتقلد السيوف، ولا نتخذ شيئاً من السلاح، ولا نحمله معنا، ولا ننقش على خواتمنا بالعربية، ولا نبيع الخمور، وأن تجز مقادم رؤوسنا، ونلزم زيّنا حيثما كنا، وأن

---

(١) مصور بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية برقم ٤٦٨. تاريخ.
(٢) أنظر: غازي الواسطي: الرد على الذمين. مجلة الدراسات الشرقية الأميركية، ص ٣٩١ هجرية، ٩٢١ ميلادية.
(٣) الطرطوشي: سراج الملوك ص ٢٨٣ ــ ٢٨٦.

نشد الزنانير[١] على أوساطنا، ولا نظهر صلباننا، وكتبنا في شيء من طرق المسلمين، ولا أسواقهم، ولا نضرب نواقيسنا في كنائسنا إلا ضرباً خفيفاً، ولا نرفع أصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شيء من حضرة المسلمين، ولا تخرج شعانيننا ولا باعوثنا، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا، ولا نظهر النيران في شيء من طرق المسلمين، ولا أسواقهم ولا نجاورهم بموتانا، ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين، ولا نتطلع إلى منازلهم)، ولما جاءوا بالكتاب زاد فيه (ولا نضرب أحداً من المسلمين) شرطنا ذلك على أنفسنا، وأهل ملتنا، وقبلنا عليه الأمان فإن نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم، وضمنا على أنفسنا فلا ذمة لنا، وقد حل منا ما يحل في أهل المعاندة، والشقاق)[٢]. واشترط عليهم أيضاً: أن لا يشتروا شيئاً من سبايا المسلمين، ومن ضرب مسلماً عمداً فقد خلع عهده، ويلحق بالعهد أحكام تتعلق بالكنائس نسبت إلى عمر أيضاً فقد أمر: بهدم كل كنيسة لم تكن قبل الإسلام، ومنع من أن تحدث كنيسة بعد الإسلام، وأمر أن لا تظهر عليه خارجة من كنيسة، ولا يظهر صليب خارج من كنيسة إلا كسر على رأس صاحبه[٣].

وهذه صورة أخرى لعهد عمر يدعي النصارى أنه وضع بعد المحادثة التي جرت بين عمر بن الخطاب، وأبي عبيدة بن الجراح من جانب، والبطريك قسطنطين من جانب آخر. إذ اشترط عمر[٤] (على الموسر دفع ثمانية وأربعين

---

(١) الزنار: والزنار وهو ما يشد على وسط المجوسي والنصراني في التهذيب ما يلبسه الدمي يشده على وسطه. (ابن منظور: **لسان العرب** ج ٥ ص ٤١٩، محمد مرتضى الحسيني: **تاج العروس** ج ٣ ص ٢٤٣.

(٢) الطرطوشي: سراج الملوك، ص ٢٨٣ ـ ٢٨٦، عبد الله بن زير القاضي. الشروط العمرية على أهل الذمة (مخطوط) ورقة ١ ـ ٤ و. ظ، محمد الخونكي كناش (مخطوط) ورقة ١٣٦ و. ظ، مؤلف مجهول: **مرسوم بعض ملوك الصلاحية في إلزام هي الذمة بالشروط العمرية** (مخطوط)، عزيز الدين بن المخلطه العزيزي المحلي (مخطوط) ١٦١ ـ ١٦٢ و. ظ.

(٣) ابن عساكر: **تاريخ دمشق** ج ١ ص ١٧٨.

(٤) انظر: غازي الواسطي: **الرد على الذميين** مجلة الدراسات الشرقية الاميركية ص ٣٩١ سنة ١٩٢١ م.

درهماً، وعلى الوسط أربعة وعشرين درهماً، وعلى المدقع اثني عشر درهماً، وعلى ألا يحدثوا كنيسة، ولا يرفعوا صليباً بين ظهراني المسلمين، وعلى أن يقروا ضيوفهم ثلاثة أيام، وثلاث ليال، وعلى أن يحملوا راجلهم من رستاق إلى رستاق، وعلى أن يناصحوهم، وألا يغشوهم، وعلى أن لا يستمالوا مع عدو لهم، وإلا استحللنا سفك دمائهم، وسبي أبنائهم، ونسائهم بذلك عهد الله عقدة وذمة المسلمين)[1].

لقد نسب الفقهاء هذا العهد إلى عمر بن الخطاب، الذي بعث به النصارى إليه عندما فتح المسلمون بلاد الشام، وقد اتخذ الفقهاء من هذا العهد المنسوب إلى عمر القانون الثابت، المعول عليه كلياً، في تحديد العلاقة بين أهل الذمة والمسلمين، والذي يجب تطبيقه بحذافيره على أهل الذمة في البلاد المفتوحة، وزادوا على هذا بأن اجتهدوا في نصوصه، وبنوده يحللونها، ويؤولونها، ويوصون الخلفاء الذين جاءوا بعد الخلفاء الراشدين بوجوب تطبيقها، والالتزام بها لأنها نسبت إلى عمر بن الخطاب.

والواقع أن هذا العهد لا يحتمل أن يكون صحيحاً، لأنه، كما يقول المستشرق ترتون:[2] لم تجر العادة أن يشترط المغلوبون الشروط التي يرتضونها ليوادعهم الغالب، أضف إلى هذا أنه من الغريب أن يحرم المسيحيون على أنفسهم تناول القرآن هم، وأولادهم، ومع ذلك يقتبسون منه في خطابهم للخليفة في قولهم: «. . . أن يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) ثم ان العهد ينسب إلى عمر تارة، وإلى قائده تارة أخرى، وقد لا يكون هذا غريباً إذ يصدر من القائد، ويصادق عليه الخليفة، كما أن العهد لم ينص به على اسم البلد، وهذا مما يحملنا على الاعتقاد بوضع هذا العهد، لأن المعاهدات التي عقدها الخلفاء، والقادة المسلمون مع أهل البلاد المفتوحة، ذكروا اسم البلد، وأحياناً

---

(١) أنظر: ترتون: أهل الذمة في الإسلام. قدم هذا النص من الأب قنوائي. دير الآباء الدومنيكان. بالعباسية. بالقاهرة، ترجمة حسن حبشي.

(٢) انظر: ترتون: أهل الذمة في الإسلام ترجمة حسن حبشي ص ٤.

الممثل لهذا البلد من أهل الذمة، وهذه نماذج من العهود لأهل البلاد المفتوحة. فمثلاً[1] (هذا كتاب من النبي محمد إلى أبي الحارث بن علقمة أسقف نجران) ويردف ترتون [2] قائلاً: إننا لا نجد قط عهداً مع آية مدينة من مدن الشام يشبه عهد عمر بن الخطاب بحال من الأحوال، ويمكن الاستشهاد بالعهد الذي قطعه عمر مع أهل حمص[3] جاء فيه (ان أهل حمص صالحوه على أن يؤمنهم على أنفسهم، وأموالهم، وسور مدينتهم، وكنائسهم، وأرحائهم، واستثنى عليهم ربع كنيسة يوحنا للمسجد، واشترط الخراج على من أقام منهم). وما جاء في عهد خالد بن الوليد لأهل الحيرة (هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد عدياً وعمر ابني عديّ وعمرو بن عبد المسيح، وأياس بن قبيصة، وحيرى بن أكال... عاهدهم على تسعين ومائة ألف درهم تقبل منهم في كل سنة جزاء عن أيديهم في الدنيا رهبانهم، وقسيسيهم من كان منهم على غير ذي بد حبيساً عن الدنيا تاركاً لها، وعلى المنعة فإن لم يمنعهم فلا شيء عليهم...)[4] ويشك المستشرق ترتون:[5] في نسبة العهد إلى عمر لأنه يؤكد أن الصلات التي كانت بين المسلمين، والنصارى قبل الفتح أقوى من الصلات التي أصبحت بين الفريقين في مستهل أيام الفتح، ويقول أيضاً: إننا لا نستطيع الادعاء بأن عمر أراد وضع تشريع للمستقبل، إذ لم يكن ذلك من أسلوب عمر بن الخطاب، لإدراكه بتغيير الأحداث في المستقبل. ولو وضع عمر مثل هذا العهد كتشريع لصرح، والتزم به الخلفاء الذين جاءوا بعده، ولرواة المؤرخون الأولون الذين رووا أصغر الحوادث، فكيف لا يروون مثل هذا العهد الخطير.

ويذكر المستشرق ترتون:[6] إدعاء البعضِ أن موقع بلاد الشام على حدود

---

(١) انظر: محمد حميد الله: **مجموعة الوثائق السياسية** ص ١١٥.

(٢) أنظر: ترتون ص ٥.

(٣) البلاذري: **فتوح البلدان** ص ١٣١.

(٤) انظر: حميد الله: **مجموعة الوثائق السياسية** ص ٢٩٠.

(٥) انظر: ترتون: أهل الذمة ترجمة حسن حبشي ص ٦.

(٦) انظر: ترتون: **أهل الذمة في الإسلام** ص ٦.

الدولة الإسلامية، جعلها أكثر من غيرها تعرضا للحروب مع البيزنطيين، وأن هذا الوضع أدى إلى فرض قيود معينة على سكانها، ولو صح هذا الادعاء، فلماذا لم يتقيد النصارى به في عهده، وعهود من تلاه من الخلفاء في كافة أنحاء الامبراطورية الإسلامية.

ويقول جرجي زيدان: [1] إننا في حيرة من صحة نسبة العهد إلى عمر، فالعهد، وارد في كتب المسلمين بنصه، فلا يحتمل أن يضعه الطرطوشي (ت ٥٢٠ هـ/ ١١٢٥ م) لما له من المنزلة في الزهد، والتقوى ما ينزه عن الكذب كما أن أكثر مواد هذا العهد، واردة في كتب الفقه في أحكام أهل الذمة منها كتبت قبل زمن الطرطوشي، ومنها بعده، كما جاء ذكر هذا العهد في كتب السياسة، والنظم، فقد جاء في كتاب الأحكام السلطانية للماوردي المتوفى سنة ٤٥٠ هـ/١٠٥٨ م[2]. وقد سبق الطرطوشي (ت ٥٢٠ هـ/١١٢٥ م) بخمس وسبعين سنة في (باب الجزية والخراج) حيث قال: ويشترط عليهم (أهل الذمة) في عقد الجزية شرطان: مستحق، ومستحب:

أما المستحق فستة شروط:

أولاً: أن لا يذكروا كتاب الله تعالى بطعن فيه، ولا تحريف له.
وثانياً: أن لا يذكروا رسول الله بتكذيب له، ولا ازدراء.
وثالثاً: أن لا يذكروا دين الإسلام بذم له، ولا قدح فيه.
ورابعاً: أن لا يصيبوا مسلمه بزنا، ولا باسم نكاح.
وخامساً: أن لا يفتنوا مسلماً عن دينه، ولا يتعرضوا لماله، ولا دمه.
وسادساً: أن لا يعينوا أهل الحرب.

وأما الشروط المستحبة فستة أيضاً:

---

(١) انظر: جرجي زيدان: **التمدن الإسلامي** ج ٤ ص١٠٨.
(٢) الماوردي: **الأحكام السلطانية** ص١٣٨.

أولاً: تغيير هيئاتهم بلبس الغيار، وشد الزنار.
ثانياً: أن لا يعلوا على المسلمين في الأبنية.
وثالثاً: أن لا يسمعوهم أصوات نواقيسهم.
ورابعاً: أن لا يجاهروهم بشرب خمر ولا بإظهار صلبانهم.
وخامساً: أن يخفوا دفن موتاهم.
وسادساً: أن يمنعوا من ركوب الخيل عتاقاً وهجاناً...).

ويشير ابن زير القاضي: إلى ذكر العهد، بقوله: (وأخرج توقيع الخليفة بإلزام أهل الذمة الغيار، ولبس ما شرطه عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب). كما أن بعض الخلفاء من بني أمية، وبني العباس حاول الرجوع إليه في معاملة النصارى، ومنهم عمر بن عبد العزيز الذي أراد رد النصارى إلى ما نسب إلى عمر من العهد، وكذلك فعل المتوكل الخليفة العباسي.

ويبدو أن شروط المتوكل التي بين أيدينا، وقد رواها ابن زير القاضي[1] وغيره كانت تختلف في الأسلوب، والمحتوى عن العهد الذي نسب إلى عمر بن الخطاب، فقد جاء فيه (أمر المتوكل النصارى، وجميع أهل الذمة أن يغيروا لباسهم فيلبسون الطيالسة العسلية، وألا يفارق أحد منهم الزنانير)، وأن يكون مركب سروجهم من خشب... ومن لبس منهم قلنسوه جعل في قلنسوته زراً كبيراً يخالف لونه لون القلنسوة، ومن لبس منهم العمائم كانت عمامته عسلية، أو ما أشبه ذلك، وأمر أن يجعل لعبيدهم رقاعاً في ثيابهم... وتكون الرقاع مدورة... وملونة لوناً يخالف لون الثوب... وأمر أن يعمل على أبردسيهم تماثيل شياطين من خشب تسمر على أبوابهم فتعرف بها منازل الذمة من منازل المسلمين، ولا تخرج امرأة إلا في أزار عسلي، وأمر بأخذ عشور منازلهم، فإن كان ما لا يوجد من منزل أحدهم واسعاً بنى مسجداً، وإن كان ضيقاً جعل قفاه، وأمر أن لا يستعان بهم في شيء من أعمال السلطان، وأمر أن لا يطلق لهم أن

---

(١) ابن زير القاضي: **الشروط العمريه على أهل الذمة** (مخطوط) ٥ ــ ٦ و.ظ.

يظهروا في شيء من عبادتهم علناً. . . وأمر أن يؤخذوا بتسوية قبورهم مع الأرض حتى لا تشبه قبور المسلمين. . . وأمر بهدم كل بيعة لهم محدثة، وكتب إلى العمال في آفاق الأرض يؤمّرهم فيهم) وهذا التناقض في صيغة العهدين يحملنا أيضاً على الشك في صحة نسبة هذا العهد إلى عمر بن الخطاب لأسباب عديدة منها أنه: تناول النصارى فقط مع ما نعرفه عن عمر بن الخطاب، وعدله فيجب والحالة هذه أن يشمل كافة طوائف أهل الذمة، من يهود، وصابئة، وسامرة، ومجوس، إضافة إلى النصارى، ولماذا وضع العهد على نصارى الشام فقط؟ ولم يشمل النصارى في البلاد الإسلامية، أو على الأقل بأمر الخليفة ولاته بتطبيق هذا العهد في ولاياتهم.

واننا لو رجعنا إلى ما أشرنا إليه من معاهدات الرسول، والخلفاء الراشدين وإلى وصاياهم، وأفعالهم مع أهل الذمة لرفضنا نسبة هذا العهد إلى عمر، وقد أشرنا إليها في فصل (موقف الحكام المسلمين من أهل الذمة) فقد جاء في وصيته لخليفته من بعده: وأوصيك بأهل الذمة خيراً. . . أن تقاتل من ورائهم ولا تكلفهم فوق طاقتهم. . . وأوصيك ألا ترخص لنفسك، ولا لغيرك في ظلم أهل الذمة. . . ولا تغلق بابك دونهم. . .[1]

وينتقد محقق[2] كتاب أحكام أهل الذمة لابن القيم الجوزية النصوص الواردة في عهد عمر بن الخطاب فيقول: ولا يصدق ورود عبارة (شد الزنار على الأوساط) فالزنانير جمع تكسير للفظ «الزنار» الذي هو لفظ يوناني موضوع للمنطق أو الحزام، ولم تكن هذه الصيغة شائعة الاستعمال في عهد عمر، فكيف يستعمل هذا اللفظ الأعجمي رغم قيام المنطق أو الحزام مقامه؟ أما المؤرخون الذين أسهبوا في مواد هذا العهد، وتفصيلاته ــ ولا سيما في موضوع الغيار، وإلزام الذميين الزنار ــ كانوا من المتأخرين، فما عرض قط لأزياء

---

(١) الجاحظ: البيان والتبيين ج ٢ ص ٤٦ ــ ٤٨.
(٢) انظر: صبحي الصالح: تعليق المحقق في كتاب أهل الذمة في الإسلام لابن القيم ص ٨٦ وما بعدها.

الذميين، ابن جرير الطبري، ولا البلاذري من أئمة التاريخ المتقدمين، مما يحملنا على الإقناع بكثرة الإدراج على تلك الأصول التي وضعها عمر.

كما ينقد جرجي زيدان[1] نصوص هذا العهد، فيقول: «يتضح من نصوص هذا العهد عنصر الضغط، والصفار للنصارى خلافاً لما جاء في سائر عهود الأمان أو كتب الصلح في صدر الإسلام، وخلافاً لما هو معروف عن عدل عمر بن الخطاب، ورفقه بأهل الذمة، فكان إذا أساء مسلم إلى مسيحي اقتص له منه، ولو كان المسلم من كبار الصحابة، كما اقتص لذلك القبطي من عمرو بن العاص، وابنه، وقال لعمرو بن العاص: «يا عمرو مذ كم تعبدتم الناس، وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً» وهذا تناقض واضح بين مناقب عمر بن الخطاب، ونصوص هذا العهد، ومما يتبادر إلى الذهن أنه موضوع بعد عهد عمر بن الخطاب بزمن أما صاحب المقالة[2] في دائرة المعارف الإسلامية، فيقول: «أما الشروط الشديدة الخاصة التي كانت تشتد وطأتها بازدياد روح التعصب، فقد ظهرت أول صورة لها في وثيقة تعرف بـ(عهد عمر) الذي قيل أنه عقده مع نصارى بيت المقدس على أنه من المؤكد أن هذه الوثيقة وضعت في عهد متأخر عن أيام عمر».

ويقول الخربوطلي[3]: «ولنا من الأدلة التاريخية ما تبين بأن هذا العهد مدسوس على عمر، وأنه وضع في وقت متأخر» ويؤيد هذا القول ما رواه المؤرخون من النصارى العرب، والمستشرقين، فيقول: ابن أبي أصيبعة[4]: «يجب أن نلاحظ أنه لم تكن ثمة ضرورة، وقت الفتح لإلزام أهل الذمة بلبس نوع معين من الثياب يخالف ما يلبسه المسلمون إذ كان لكل من الفريقين وقتذاك

(١) انظر: جرجي زيدان: **التمدن الإسلامي** ج ٤ ص ١٠٨ ـ ١٠٩.

(٢) انظر: دائرة المعارف الإسلامية ج ٣ ص ١٠٧، ط م.

De Goijs Menoire sur La Canguete de La Sgrie. p. 140

(٣) انظر: الخربوطلي: **تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي** ص ٢٧٠.

(٤) ابن أبي أصيبعه: **عيون الأنباء** ج ٢ ص ١٢٧.

ثيابه الخاصة، وكان أهل الذمة يفعلون ذلك من تلقاء أنفسهم دون إجبار أو إلزام» وينسب أبو يوسف[1] (ت ١٨٢ هـ/ ٧٩٧ م): إلى عمر أنه اشترط على أهل الذمة ليس الزنار، والنهي عن التشبه بالمسلمين في ثيابهم، وسروجهم التي يستعملونها، على حين أن ابن عبد الحكم[2] الذي توفي سنة ٢٥٧ هـ/ ٨٧٠ م، يقرر أن الخليفة عمر أمر النصارى بلبس المنطقة.

هذا الاختلاف في ألفاظ نصوص العهد يحملنا على القول بتلاعب الفقهاء، والمؤرخين بالألفاظ، والشك في صحة نسبة العهد إلى عمر بن الخطاب. ويعتقد بعض المؤرخين[3] أن نصوص هذا العهد وضعت في وقت متأخر عن عهد عمر بن الخطاب، فيقول جرجي زيدان[4]: «إنه (العهد) وضع في أوائل القرن الثالث الهجري، لأننا لا نجد إشارة إليه قبل ذلك التاريخ، كما لا نجده في البلاذري، أو الطبري، أو ابن الأثير، ونستطيع الجزم أن كل ما في الأصول من الإشارات إلى عهد عمر أو معاملة عمر موضوع، ولا أساس له، فقد نعم النصارى، واليهود بكل ما كان ينعم به المسلمون ما عدا الجزية».

ويؤيد هذا الرأي المستشرق بارتولد[5]، فيقول «وأخذت حالة النصارى تسوء منذ منتصف القرن الثالث الهجري، وربما كان للاضطهادات التي وقعت على المسلمين واليهود في بلاد النصارى، في القرون الوسطى أثر في هذا، ومهما يكن من شيء فإن النصارى الذين عاشوا في حكم المسلمين لم يصبهم قط ما أصاب المسلمين في اسبانيا من الظلم والعدوان، ولم يكن يطلب إلى أهل الذمة تنفيذ الشروط حرفياً كارتدائهم ثوباً مميزاً لهم طبقاً لما ورد فيها نسب إلى

---

(١) أبو يوسف: **الخراج** ص ٧٢.

(٢) ابن عبد الحكم: **فتوح مصر** ص ١٥١.

(٣) انظر دائرة المعارف الإسلامية ج ٣ ص ١٠٧، ابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ١٢٧، الخربوطلي: **تاريخ العراق** ص ٢٧٠.

(٤) انظر: جرجي زيدان: **التمدن الإسلامي** ج ٢ ص ١١١.

(٥) انظر: بارتولد: **تاريخ الحضارة الإسلامية** ص ٥٥.

عمر، فكان العمال النصارى يلبسون ثياباً كثياب عظماء المسلمين، ويجعلون لأنفسهم مقاماً عالياً أمام العامة».

ويعقب سعيد بن بطريق (ت ٣٢٨ هـ/ ٩٣٩ م)[١]: على زي النصارى في العهود الإسلامية، فيقول: «ولم يزل النصارى يلبسون السواد، ويركبون الخيل حتى أيام المتوكل»، ويبدو لي أن هذا العهد وضع أولاً في بلد إسلامي كانت نسبة النصارى فيه كبيرة بالنسبة لبقية طوائف أهل الذمة، وأنه على الأرجح بلاد الشام كما نسب إلى العهد، حيث كانت طوائف أهل الذمة من اليهود، والمجوس، والصابئة قليلة بالنسبة لعدد النصارى فيها، ويحتمل أنه وضع زمن عمر بن عبد العزيز، ونسب خطأ بطريقة النقل أو الإسناد إلى عمر بن الخطاب لزيادة قيمة العهد ليتقيد به الخلفاء، والذي يدعونا أيضاً للشك في نسبة العهد لعمر بن الخطاب، هو عدم تقيد من جاء بعده من الخلفاء الراشدين به كعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب، ولم يؤكدوا عليه. كما أن العلاقة السيئة بين الأمويين والبيزنطيين، وارتباط نصارى الشام بالكنيسة والحكومة البيزنطية، فقد ذكر أن الوليد بن عبد الملك سمع صوت ناقوس، فقال «ما هذا؟» قيل (بيعة) فأمر بهدمها، فرفع النصارى أمرهم إلى قيصر القسطنطينية، فكتب إلى الوليد: أن هذه البيعة قد أقرها من كان قبلك، فإن يكونوا أصابوا فقد أخطأت، وإن تكن أصبت، فقد أخطأوا»[٢] فهذا دليل ثابت على اتصال النصارى بالحكومة البيزنطية والكنيسة، وكان بعضهم يتولى نقل أخبار المسلمين إلى الروم، والتجسس على حساب العرب، أو كانوا يقومون بإيواء الجواسيس الروم، واطلاعهم على تحركاتهم، فإن كان هذا الجاسوس يشبه المسلمين في الزي، واللباس، والركوب تعذر على المسلمين معرفته بسهولة، لذا جاء هذا العهد مؤكداً على اللباس، والركوب، والزي، كما يؤكد على عدم إيواء الجواسيس من الأعداء، وان لا يكتموا غشاً للمسلمين. . . وان خلفاء المسلمين

---

(١) سعيد بن بطريق: **التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق** ص ٥٩.

(٢) انظر: مجلة النجم ج ١ ص ٤٤٢ للبطريكية الكلدانية في الموصل.

لم يفعلوا ذلك للضغط على النصارى تعصباً أو كرهاً للنصرانية، وإنما حماية لهم، وللدولة ثم أطلق الفقهاء وغيرهم من الخلفاء على هذا العهد على سائر أهل الذمة، فيما بعد ولكن بدرجات متفاوتة.

وأما في العهد الأموي، فقد اتبع خلفاء بني أمية منتهى التسامح مع أهل الذمة، وقربوهم إليهم، فازدهرت الدولة في أيام معاوية وعم السلام، وتمتع الناس بحرية مطلقة، فإن المسلمين قاموا بحق النصارى، والرهبان، فكانوا يطالبونهم بالجزية، ويطلقون لهم الحرية في أمور دينهم. وقد أسند معاوية الإدارة المالية في الدولة لأسرة مسيحية توارث أبناؤها الوظيفة لمدة قرن من الزمان، بعد الفتح العربي، ومن أفرادها القديس والمؤرخ يوحنا الدمشقي المعاصر لمعاوية، ولولده يزيد، كما أسند معاوية إلى طبيبه أبي آثال جباية خراج حمص، وهي وظيفة مالية لم يسبق لنصراني قبله أن وصل إليها[1] وفي ولاية الوليد بابن عتبة على الكوفة ولي إدارة سجن فيها رجلاً مسيحياً[2]، وكان سرجون كاتباً مسيحياً لمعاوية، وقيل لما نقلت الدواوين إلى العربية قال سرجون لأبناء جلدته: «أطلبوا المعيشة من غير هذه الصناعة فقد قطعها الله عنكم»[3]. ومن هذا يظهر أن أغلب كتّاب الدواوين، والموظفين كانوا من أهل الذمة، ومع هذا فقد بقي أهل الذمة، ولا سيما النصارى منهم يشغلون مناصب مالية كبيرة في الدولة، وظلوا يعاملون أحسن معاملة[4] وقد أباح خلفاء بني أمية لأهل الذمة ممارسة الاحتفالات بأعيادهم، والاحتفاظ بمعابدهم[5].

وقد أعاد معاوية هدايا النوروز، والمهرجان فكان يحمل إليه في كل سنة عشرة ملايين درهم[6]، وكان لهذه السياسة أثرها، في إقبال أهل الذمة على

---

(١) أنظر: فيليب حتي: **تاريخ العرب** ج ٢ ص ٢٥٩، طبعة ١٩٥٣.
(٢) الأصفهاني: **الأغاني** ج ٤ ص ١٨٣.
(٣) البلاذري: **فتوح البلدان** ص ١٩٣ ص ٣٠؛ ترتون: **أهل الذمة** ص ١٦٩.
(٤) انظر: صبحي الصالح: **النظم الإسلامية** ص ٣٦٥، حتى الدولتان الأموية والعباسية ص ٥٩.
(٥) انظر: ريسلر: ترجمة غنيم **الحضارة الإسلاميه** ص ٧٨.
(٦) اليعقوبي: **تاريخ** ج ٢ ص ١٩٤.

الدخول في الإسلام تخلصاً من تلك الضرائب، وقد أدى ذلك إلى نقصان واردات الدولة مما دفع الحجاج أمير العراق في عهد عبد الملك بن مروان (ت ٦٥ ـ ٨٦ هـ/ ٦٨٥ ـ ٧٠٥ م) على فرض الجزية على من أسلم من أهل الذمة، وكان لهذه السياسة أيضاً أثرها السيىء على الدولة الأموية لأنها خلقت روح النقمة، والثورة على الدولة من جهة، وأوقفت تيار الداخلين في الإسلام[١] من جهة أخرى.

أما أهل الذمة فلم يكن ما يدعوهم إلى الثورة ما داموا متساوين مع إخوانهم الذين أسلموا في دفع الضرائب، كما أن قتلهم، وتفرقهم وحاجتهم إلى زعيم ديني، أو سياسي يقودهم جعلتهم بعيدين عن إثارة الثورات أو الاشتراك فيها[٢] ولكن عندما ظهر الزعماء الدينيون، والسياسيون قاموا بثوراتهم المتوالية في العصر الأموي، والعصر العباسي، وسنتطرق إليها عند الحديث عن الحركات السياسية، والدينية لأهل الذمة.

وعامل المختار الثقفي أهل الذمة بالعراق معاملة حسنة، وفي ولاية الحجاج الثقفي على العراق، كان عامله بخراسان يبني لأهل الذمة البيع، وقد سمح له الحجاج بذلك[٣]، وكان الأخطل الشاعر النصراني يدخل المساجد في دمشق في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان، فيقف له المسلمون إجلالاً[٤] وكان يدخل عليه بغير إذن، وهو سكران وفي صدره الصليب، ولا يعترضه الخليفة ولا غيره[٥].

واتصف عهد عمر بن عبد العزيز بالعدل، والإحسان لأهل الذمة، فيقول المستشرق دوزي[٦] «والحقيقة أن أهل الذمة تمتعوا بالكثير من عدل عمر،

---

(١) انظر: الراوي: **العراق في العصر الأموي** ص ١١٣.

(٢) نفس المصدر ونفس الصحيفه.

(٣) ابن النديم: **الفهرست** ص ٣١٥.

(٤) الأصفهاني: **الأغاني** ج ١٦ ص ٣٦.

(٥) **الأغاني** ج ٧ ص ٧٤ ص ١٦٩، ١٧٨؛ ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء** ج ٢ ص ١٦٠.

(٦) انظر: دوزي: **نظرات في تاريخ الإسلام** ص ٤٠٢ ـ ٤٠٣.

ورحمته فقد أمر عماله بألا يهدموا كنيسة، أو بيعة، أو بيت نار صولح أهل الذمة عليه، فهو طبق العدل بالحفاظ على مقدسات أهل الذمة، وفي الوقت نفسه راع مصالح الإسلام بأن منع أهل الذمة من بناء البيع، والكنائس تطبيقاً للعهود السابقة بينهم وبين المسلمين، في الوقت الذي لم يعمل أي خليفة على تطبيقها قبلاً. كما منع الخليفة عمر بن عبد العزيز عماله من اتخاذ النصارى يتصرفون في مصالح المسلمين مستنداً إلى قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب﴾ وقال أيضاً: «فادعى ذلك الكاتب إلى الإسلام فإن أسلم فهو منا ونحن منه، وإن أبى لا تستعين به، ولا تتخذ أحداً على غير دين الإسلام في شيء، من مصالح المسلمين»[1].

ويقول المستشرق بارتولد: «لم يطلب إلى أهل الذمة تنفيذ الشروط حرفياً كارتدائهم ثوباً مميزاً لهم طبقاً لما ورد فيما نسب بعهد عمر، فكان العمال النصارى يلبسون أثواباً كأثواب عظماء المسلمين، ويجعلون لأنفسهم مقاماً عالياً أمام العامة»[2].

ويعقب سعيد بن بطريق (ت ٣٢٨ هـ/ ٩٣٩ م)[3] على زي النصارى في العهود الإسلامية، فيقول: «ولم تترك النصارى يلبسون السواد، ويركبون الخيل حتى أيام المتوكل»، ويقول ابن النديم (ت ٣٨٥ هـ/ ٩٩٥ م): «ظل وثنيو حران حتى سنة ١١٦ هـ يلبسون القباء ويرسلون شعورهم»[4].

والواقع أن المسلمين لم يكونوا يلبسون زياً خاصاً موحداً، وإنما كانت لهم أزياء مختلفة باختلاف وظيفة المسلم، ومكانته الاجتماعية، فكان الفقهاء

---

(١) أبو إمامة النقاش. المذمة في استعمال أهل الذمة (مخطوط) ورقة ٣ و. ظ. ؛ غذاء الألباب ج ٢ ص ١٣؛ ابن القيم: أحكام ص ٢١٤.

(٢) أنظر: بارتوك: تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٥٥.

(٣) سعيد بن بطريق: التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ص ٥٩.

(٤) ابن النديم: الفهرست ص ٣٢٠.

يتطيلسون، ولهم لبسة ينفردون بها، والتجار يتطيلسون، ويجعلون الطيلسان فوق العمامة [1].

وكان نصارى العراق يلبسون الثياب كغيرهم من السكان، وقد وردت في المعاجم العربية، والشعر مفردات في وصفهم النصارى، أو شرحوها بقولهم انها من ثياب النصارى، وكانت كل طبقة من النصارى تلبس زياً، ونوعاً خاصاً من الملابس، فالبطاركة كانوا يلبسون (الربط) وهي الملاءة المنسوجة قطعة واحدة: فقال الشاعر في وصف ثور وحشي:

يعلو الظواهر فرداً لا أليف له مشى البطرك عليه ربط كتان

ومن ألبسة النصارى أيضاً (الموف) وهو ضرب من الخفاف يلبس فوق الخف كان ينتعل به السادة من النصارى، وأما الزهاد، والرهبان فكانوا يلبسون المسوح (المسح)، وهو من الشعر[2].

ويذكر الخربوطلي[3]: «عجب المقدسي عندما زار مدينة شيراز فلم يــر فيها على مجوسي رداء يميزه عن غيره، كما وجد الأسواق تزين في أعياد المجوس، ويبدو أن المسلمين لم يكونوا قد فرضوا على أهل الذمة لبس زي معيّن لأنهم (أهل الذمة) كانوا يلبسون زيهم الخاص بهم قبل الفتح الإسلامي. فكان لليهود زي، وللنصارى زي، وللصابئة زي، وللمجوس زي، وما زالت الأزياء لكل طائفة دينية موجودة في العراق حتى الوقت الحاضر.

ويبدو أن الخليفة عمر بن عبد العزيز فرض عليهم الرجوع إلى أزيائهم لأن البعض منهم أخذ يقلد المسلمين في زيهم، وهذا لا يعتبر ضغطاً، ولا اضطهاداً مطلقاً، كما أنه يراد به إبراز أهل الذمة، ولا سيما النصارى لتسهيل

---

(١) المقدسي: **أحسن التقاسيم** ص ٣٢٨.
(٢) شيخو: **النصرانية وآدابها** ص ٢١٨ ــ ٢١٩.
(٣) انظر: الخربوطلي: **المجوس والمجوسية** ص ١٨٣.

مراقبة الجواسيس، وأعداء الإسلام من البيزنطيين الذين كانوا يدخلون بلاد الإسلام، وكان النصارى في الثغور يأووهم.

وتقول سيدة كاشف: «إن الخليفة عمر بن عبد العزيز لم يقصد بسياسته اضطهاد أهل الذمة، وإنما كان راغباً في أن تتولى الإدارة الحكومية عناصر إسلامية بحتة، كما توخى أيضاً انتشار الإسلام بين أهل الذمة، فوضع على الذميين قيوداً نسبت إلى الخليفة عمر بن الخطاب، وذلك بأن منع تقليدهم، وظائف الدولة، وفرض عليهم زياً خاصاً بهم، ولكنه لم يتشدد في تنفيذها»[1].

ويقول الدوري: «إن عمر بن عبد العزيز حاول تنظيم الضرائب بإعادة تحديد مفاهيمها، فأكد أن الإسلام يعفى من الجزية، وأكد أن الأرض الخراجية ملك للأمة، وان الخراج هو إيجار للأرض، يدفعه كل من يزرعها سواء أكان ذمياً أو مسلمًا عربياً أو مولى، ورفع عمر بن عبد العزيز الجزية عن الرهبان، وألغى الضريبة على أملاك الكنيسة، والأساقفة، وأكد العدل في المعاملة»[2].

وأعاد عمر بن عبد العزيز أراضي كثيرة إلى أصحابها من أهل الذمة بعد أن ضمت إلى أملاك الأمويين، وأعيد الكثير من الكنائس والديارات[3] فاعتبره الرهبان المسيحيون صديقاً لهم[4].

ومن الأعمال الجليلة التي قام بها عمر بن عبد العزيز تجاه أهل الذمة، أنه ألغى الجزية على من أسلم منهم، فسارع الكثير من أهل الذمة على اعتناق الإسلام[5] وكتب إلى عامله على الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن: «كتبت إليّ تسألني عن أناس من أهل الذمة يسلمون من اليهود، والنصارى، والمجوس،

---

(١) انظر: سيده كاشف الوليد بن عبد الملك ص ٢١٥.
(٢) انظر: الدوري: مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ص ٣٣.
(٣) سعيد بن بطريق: ج ٢ ص ٤٤.
(٤) انظر: عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسي ج ٢ ص ٢٦٠.
(٥) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ١٤٨.

وعليهم جزية عظيمة، وتستأذنني في أخذ الجزية منهم، إن الله جل ثناؤه بعث محمداً داعياً إلى الإسلام، ولم يبعثه جابياً، فمن أسلم من أهل تلك الملل فعليه في ماله الصدقة، ولا جزية عليه»[1] .

ويقول المستشرق ديورانت[2] في أهل الذمة: «لقد كان أهل الذمة يستمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح لا نجد لها نظيراً في البلاد المسيحية في هذه الأيام، فقد كانوا أحراراً في ممارسة شعائرهم الدينية، واحتفظوا بكنائسهم، ومعابدهم، ولم يفرض عليهم أثر من ارتداء زي ذي لون خاص، وكان ذلك فقط في زمن عمر بن عبد العزيز».

ويقول المستشرق جولدتسهير[3] : «ان روح التسامح في الإسلام قديماً تلك الروح التي اعترف بها المسيحيون المعاصرون أيضاً كان لها أصلها في القرآن ﴿لا إكراه في الدين﴾[4] ، وكثيراً ما كان الخلفاء يوصون بالتسامح الديني إزاء أهل الأديان، ومع هذا فإن بعض التحديد، والتقييد قد تم، فقد جاء مثلاً بتحريم إنشاء الكنائس، أو إصلاح ما تهدم منها، وقد حصل على ما يظهر أول مرة في عهد عمر بن عبد العزيز الذي اتخذ هذه التدابير، وتابعه على سنته المتوكل العباسي، وقد اتخذ هؤلاء الحكام بهذه السياسة ضد معابد أهل الكتاب، والتي كان قد أذن فيها منذ إخضاعهم، وفي هذا نفسه دليل على أن إقامة هذه المعابد قبل ذلك، لم يقف في طريقها مانع من الموانع. ويتلخص من هذه الإجراءات أن الخليفة عمر بن عبد العزيز كان يرمي إلى تشجيع انتشار الإسلام ويؤيد ذلك المستشرق ديورانت[5] : بقوله: «ان سياسة عمر بن عبد العزيز كانت ترمي إلى تشجيع المسيحيين، واليهود، والزرادشتيين على

---

(١) أبو يوسف: الخراج ص ١٣١.
(٢) أنظر: ديورانت: قصة الحضارة ج ١٣ ص ١٣٠.
(٣) انظر: جولدتسهير: العقيدة والشريعة في الإسلام ص ٤٦ ــ ٤٧.
(٤) سورة البقرة: آية ٢٥٦.
(٥) انظر: ديورانت: قصة الحضارة ج ١٣ ص ٨٤.

اعتناق الإسلام». ويؤيد هذا ما رواه الطبري (ت ٣١٠ هـ/ ٩٢٢ م)[١]: حين شكا إليه أحد عماله فقر بيت المال أجابه، بقوله: «والله لوددت أن الناس كلهم أسلموا حتى نكون، أنا وأنت حراثين نأكل من كسب أيدينا».

ومن أبرز القضايا التي عالجها الخليفة عمر بن عبد العزيز مشكلة الضرائب، فألغي هدايا النوروز والمهرجان، ونظم أوقات جباية الخراج، بحيث يدفعها الذمي بعد جنى الحاصل ليكون قادراً على دفع الخراج، فذكر أبو يوسف (ت ١٨٢ هـ/ ٧٩٧ م)[٢]: أنه: «قيل لعمر بن عبد العزيز ما بال الأسعار غالية في زمانك، وكانت في زمن من كان قبلك رخيصة؟ قال: ان الذين كانوا قبلي، كانوا يكلفون أهل الذمة فوق طاقتهم، فلم يكونوا يجدون بدا من أن يبيعوا، ويكدسوا في أيديهم، وأنا لا أكلف أحداً إلا طاقته فباع الرجل كيف شاء» وبذلك استطاع أن يرفع من مستوى معيشة جماهير كبيرة من سكان البلاد الإسلامية، وهم الفلاحون، فكتب عمر بن عبد العزيز إلى عامله على الكوفة، أن يعطي أهل الذمة ما بقي من خراج الكوفة فيسددوا دينهم، ويساعد من أراد الزواج منهم، وختم رسالته بقوله: «قوي أهل الذمة، فإننا لا نريدهم لسنة، ولا لسنتين»[٣] وكتب إليه يحذره من استيفاء الضرائب الإضافية التي كان يحصل عليها من سبقه من أهل الذمة، فقال له: «إن أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدة وجور. . .» لا تأخذ في الخراج إلا وزن سبعة ليس لها آيين، ولا آجور النيوج، ولا أجور البيوت، ولا أجور الضرابين، ولا هدية النوروز والمهرجان ولا دراهم النكاح، ولا خراج على من أسلم من أهل الأرض»[٤].

وغايته التخفيف عن كاهل أهل الذمة، ورفع مستواهم الاقتصادي، فقد أمر واليه على العراق (أن يدع لأهل الخراج، من أهل الفرات ما يستختمون به

---

(١) الطبري: ج ٨ ص ١٤٨.
(٢) أبو يوسف: الخراج ص ١٣٢.
(٣) ابن عبد الحكم: سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٦٧.
(٤) الطبري: ج ٦ ص ٥٦٩.

الذهب، ويلبسون الطيالسة، ويركبون البراذين)[1] وقد نصح الولاة، وحذّرهم من الإساءة، والاعتداء على أهل الذمة، أو اضطهادهم، وأوصى بحسن معاملتهم، فكتب إلى واليه على خراسان «لا تضربن مؤمناً، ولا معاهداً سوطاً إلا في حق»[2]، كما كتب إلى عامله على البصرة عدي بن أرطأة يوصيه بالإنفاق من بيت مال المسلمين على من عجز عن العمل، وأصابته فاقة من أهل الذمة، فقال: «أما بعد. . . وانظر من قبلك من أهل الذمة قد كبرت سنه، وضعفت قوته، وولت عنه المكاسب، فأجر عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه»[3].

وروى ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ/ ١٣٧٢ م)[4]: «قصة مفادها أن عمر بن عبد العزيز انتصف لذمي في أرض له اغتصبها العباس بن الوليد. . .» وسأل الذمي عمر بن عبد العزيز كتاب الله، وقد اعترف العباس بأن الوليد أقطعها له، فقال عمر: «إن كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد، وقال للعباس قم واردد عليه ضيعته»، ويعطي المستشرق فلهاوزن جانباً من سياسة وأخلاقية عمر بن عبد العزيز السامية، فيقول: «حقيقة أن عمر كان مسلمًا متحمساً حسن الإسلام، وكان مع النصارى على حدود العدل إطلاقاً، وقد حماهم، وحفظ لهم كنائسهم، غير أنه لم يسمح لهم بأن يحدثوا كنائس جديدة»[5].

وبعد وفاة الخليفة عمر بن عبد العزيز، لم يؤخذ بسياسته، فقد رجع يزيد بن عبد الملك (١٠١ ــ ١٠٥ هـ) إلى سياسة الحجاج في العراق، وأمر عامله على العراق عمر بن هبيرة، بإعادة ما كان يؤخذ من هدايا النوروز والمهرجان[6].

---

(١) ابن قتيبة: **عيون الأخبار** ج ١ ص ٥٣.

(٢) الطبري: ج ٦ ص ٥٦.

(٣) أبو عبيدة: **الأموال** ص ٤٥ ــ ٤٦.

(٤) ابن كثير: **البداية والنهاية** ج ٩ ص ٢١٣.

(٥) انظر: ولهاوزن: **الدولة العربية وسقوطها** ص ٢٤٢.

(٦) اليعقوبي: **تاريخ** ج ٣ ص ٥٥.

وفي عهد الخليفة سليمان بن عبد الملك نعم أهل الذمة بالتسامح، والاعتماد عليهم في أمور الدولة، فقد اتخذ له كاتباً نصرانياً يقال له (البطريق ابن النقا) وقد استعمله سليمان ناظراً على مبانيه في الرملة من أعمال فلسطين، ومراقبة القنوات، والآبار، والمسجد القائم بها[1].

وفي عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥ ــ ١٥٥ هـ) عهد بولاية العراق إلى خالد القسري (١٠٥ ــ ١٢٠ هـ)، فقد عامل خالد أهل الذمة في العراق معاملة طيبة، واستخدمهم في وظائف الدولة، وقد حقد عليه المسلمون لأنه قرّبهم، وفضّلهم على المسلمين، وامتد حقدهم إلى الخوارج الذين اشتهروا بتسامحهم مع أهل الذمة.

وقيل أن سبب تسامحه مع النصارى لكون أمه كانت نصرانية، وظلت على النصرانية، فأقام لها كنيسة في الكوفة، وسمح للنصارى أن يبنوا كنائس جديدة، كما تسامح مع اليهود أيضاً، واتخذ في أعماله عدداً من كتاب الخراج، والإدارة من المجوس[2].

وتقول سيدة كاشف[3]: «إن حكومة العرب في العصر الأموي تركت معظم وظائف الدولة في أيدي الذميين». وبلغ من ازدياد التسامح أن الخلفاء الأمويون أعطوا امتيازات لرؤساء أهل الذمة في جباية الضرائب من أبناء ملتهم، ويقول المستشرق ولهاوزن في ذلك: «أن الوليد الثاني جعل الجماعات الدينية من أهل الذمة تقوم بجباية الخراج، فرأس الربانيين بجمع الضريبة من اليهود، والمطران من النصارى، والمرزبان من المجوس»[4].

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان ص١٤٣.

(٢) انظر: ولهاوزن: الدولة العربية سقوطها ص٢٦٥.

(٣) انظر: سيده كاشف، الوليد بن عبد الملك ص٩٦.

(٤) انظر: ولهاوزن: الدولة العربية ص٣٧٨.

ويعلّق الخربوطلي على أحوال أهل الذمة في العصور الإسلامية: بقوله: «إن أساليب التسامح، والمعاملة الحسنة كانت تختلف باختلاف الخلفاء، والعصور، والأوضاع السياسية المتعلقة بين المسلمين، وأهل الذمة من جهة وبين المسلمين، والدول المجاورة، ولا سيما الامبراطورية البيزنطية من جهة أخرى»[1].

ويقول المستشرق ديمومبين: «إن أهل الذمة احتلوا مكانة بارزة في حياة الدولة الأموية، وكثر عددهم في الدواوين، والمصالح، وكذلك كان لليهود نصيب في الوظائف»[2] وان نظام الضرائب كان عادلاً، وأقل مما كان يدفعه أهل الذمة للفرس، وللبيزنطيين، فيقول المستشرق فون كريمر: «انه لم يلاحظ في نظام الضرائب شيئاً مجحفاً»[3]، وأشار المستشرق فان فلوتن إلى عظم الخدمات التي كانت تقدمها الدولة إلى رعاياها، ومن ضمنهم أهل الذمة إذا ما قورنت بالنسبة للضرائب القليلة التي تجبى منهم، فيقول: «إن الضرائب ليست فادحة بالنسبة لما كانت تقوم به الحكومة العربية من بناء الطرق، وحفر الترع، وتوفير الأمن، وما إلى ذلك من ضروب الإصلاح»[4].

ويقول ابن أبي أصيبعة (ت ٦٦٨ هـ/ ١٢٧٠ م): «من الأدلة الطيبة على ما كانت تسترشد به الحكومة الإسلامية في معاملتها للذميين أن البطريك كان يحضر المراسيم لكل خليفة جديد أو وال، ويظهر أن حضور البطريك كان متطلباً»[5].

وأخيراً: فإن الكثير من أهل الذمة كانوا يجهلون عهد عمر، أو أنهم لم يكونوا يلتزمونه[6].

---

(١) انظر: الخربوطلي: **تاريخ العراق** ص ٢٧٣.
(٢) انظر: ديمومبين: **للنظم الإسلامية** ص ١٦٧.
(٣) انظر: فون كريمر: **الحضارة الإسلامية** ص ٨٣.
(٤) انظر: فان فلوتن: **السيادة العربية** ص ٢٠.
(٥) ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء** ج ٢ ص ١٦١.
(٦) نفس المصدر السابق ج ٢ ص ١٢٥.

أما في العصر العباسي فقد سار خلفاء بني العباس على سياسة الراشدين، والأمويين في معاملتهم لأهل الذمة، واعتمدوا عليهم، وعلى الموالي، في تنظيم الحكومة، وإدارتها، وترتيب دواوينها، لما كانت لهم من خبرة بالكتابة، والخراج، والدواوين، وفي بعض فنون العلم، فأغدقوا عليهم الأموال، والهبات، فعاشوا برفاه، وتقاطروا على بغداد يخدمون الدولة العباسية، بأقلامهم، وعقولهم، بعد أن لمسوا من العباسيين، ما كان من تسامح ديني، وحرية في العقيدة. فولوهم أمر الدواوين، والخزائن، وقد تولى بعضهم المناصب المالية في الدولة، ففي القرن الثالث الهجري، ولي في بعض الأحيان ديوان الجيش نصراني[1]. وساعدتهم سيطرتهم على الدواوين على ممارسة حرياتهم الدينية بصورة واسعة جداً، وعلى إقبالهم على بناء البيع والكنائس، والأديرة، وعلى إظهار أعيادهم الدينية بحرية تامة أمام المسلمين، ويذكر الشابشتي (ت ٣٨٨ هـ/ ٩٩٨م) في الديارات: عدد الأديرة التي بنيت خلال العصور العباسية، وكيف أن هذه الديارات كانت ملجأ ليس للرهبان، والمتدينين من النصارى فحسب، وإنما أصبحت منتزهات يقصدها المسلمون في أعياد النصارى للمتعة، والأنس وشرب الخمور، وقول الشعر، وحتى أن بعض الخلفاء العباسيين كان يقصدها في بعض المناسبات، فقد نزل الرشيد يوماً بدير مار زكي الواقع على ضفة البليخ، فاستطابه الخليفة، وبر أهله من الرهبان[2].

أما اليهود فعلى الرغم من قلة عددهم، فقد تمتعوا هم أيضاً بالحرية الدينية، والتسامح المطلق في ممارسة شعائرهم، وكانوا كالنصارى يرجعون إلى رئيسهم الروحاني (رأس الجالوت) الذي كان يقوم بإدارة شؤون طائفته، وفقاً للعادات الدينية عند اليهود[3].

وكان من أبرز من تولى رئاسة الجالوت في العصر العباسي (دانيال بن

---

(١) الصابىء: تاريخ الوزراء ص ٩٥.
(٢) افرام برصوم: اللؤلؤ المنثور: ص ٥١٠.
(٣) انظر ديموبين: النظم الاسلامية ص ١٦٦.

حمدان)، وكان يشغل وظيفة قاضي اليهود أيضاً، وكان الجميع يحترمونه، ويقفون له إجلالاً إذا كانوا بحضرته، ومن لم يقف له ضرب مائة سوط، وكان يذهب للقاء الخليفة مساء كل خميس، وإذ ذاك يسير في احتفال كبير، أمامه الفرسان من اليهود والمسلمين، ويصيح هؤلاء أفسحوا الطريق لسيدنا ابن داود، وكان دخله من الضرائب المفروضة على اليهود مائتي ألف دينار[1] فيأخذ نصفها، ويرسل النصف الثاني إلى بيت مال المسلمين، بينما كان المسلمون، والمسيحيون يؤدون الضرائب لبيت المال مباشرة[2] وقد كان لليهود في بغداد جالية كبيرة ظلت قائمة حتى سقوط بغداد (٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م).

وقد وجد بنيامين التطيلي (ت ٥٦٩ هـ/ ١١٧٣ م) الذي زار بغداد أن بها عشرة مدارس ربانية، وثلاثة وعشرين كنيسة ومعبداً، لليهود، وكان المعبد الرئيسي مبنياً بالرخام المختلف الألوان، ومزداناً بزينة غالية من الذهب والفضة[3].

ونتيجة هذا التسامح تمتع اليهود بالحرية الدينية، في ممارسة شعائرهم، وفي التمتع بالحرية الاقتصادية، فمارسوا المهن المختلفة من صيرفة، ونجارة، وحرف.

أما الصابئة فلم يكونوا أقل تسامحاً عن غيرهم من أهل الذمة في ممارسة شعائرهم الدينية بحرية تامة، فيقول ابن النديم (ت ٣٨٣ هـ/ ٩٩٣ م): «وظل وثنيو حران «الصابئة» يلبسون القباء ويرسلون شعورهم»[4] كما شغلوا مناصب مهمة في الدولة، ولا سيما الإشراف على الدواوين، والكتابة للخلفاء، ومنهم أبو اسحق الصابيء وغيره. كما برزوا في العلوم، ولا سيما علم النجوم، وامتهنوا الحرف، والمهن المختلفة.

---

(١) المسعودي: التنبيه والإشراف ص ١١٣.
(٢) انظر: الخربوطلي: الإسلام وأهل الذمة ص ٢١٥.
(٣) انظر الخربوطلي: الإسلام وأهل الذمه ص ٢١٤.
(٤) ابن النديم: الفهرست ص ٣٢٠.

وأما المجوس، فلم يكونوا أقل تسامحاً في ممارسة شعائرهم الدينية من النصارى، واليهود، والصابئة، فقد تعجب المقدسي عندما زار مدينة شيراز، فلم ير فيها على المجوس رداء يميزهم عن غيرهم، كما وجد الأسواق تزين في أعياد المجوس[١]، وكان للمجوس كاليهود، والنصارى، رئيس يمثلهم في قصر الخلافة[٢] يلقب بـ (الملك)[٣]، وقد عاملهم الخلفاء العباسيون بالعطف، والتسامح لتأمين جانبهم من مساندة الحركات الناهضة للدولة العباسية[٤].

ففي خلافة أبي العباس السفاح (المتوفى ١٣٦ هـ/ ٧٥٤ م)، ازداد تعلق رؤساء النصارى بالمسلمين، كما أن المسلمين غالوا في ملاطفتهم، فقد شاركوهم في إقامة الجثالقة، وساعدوهم في انتخاب المطارنة، وفوضوا لهم سلطات واسعة على طائفتهم، ومنحوهم العطايا السنية، ووهبوهم الثقة البالغة، ولما حاول ابان عامل أبي العباس أن يتدخل في تنصيب سبورين جاثليقا على النصارى، ودون رغبتهم، وعلم بذلك أبي العباس غضب على واليه ابان، وأعطى النصارى الحرية التامة في الانتخاب وفق أحكام البيعة[٥]، وفي خلافة المنصور عين يهودياً اسمه موسى، كان أحد اثنين في جباية الخراج[٦]. وقد أذن الخليفة المنصور لطبيبه جرجيس بن بختيشوع بالدخول على حرمه وحظاياه[٧].

وكان لأهل الذمة نفوذ كبير، ومكانة مرموقة لدى الخلفاء، بما نالوه من حظوة ونفوذ، لدرجة أنهم اضطهدوا المسلمين، وظلموهم، فاجتمع جماعة من المسلمين إلى شبيب بن شيبة، وسألوه مخاطبة المنصور، أن يدفع عنهم المظالم،

---

(١) انظر: الخربوطلي: **المجوس والمجوسية** ص ١٨٣.
(٢) انظر: أرنولد: **الدعوة إلى الإسلام** ص ٣٤٠.
(٣) ابن النديم: **الفهرست** ص ٤٩٣.
(٤) انظر: مليحة ــ رحمه الله ــ **الحالة الاجتماعية في العراق** ص ٤٥.
(٥) انظر: رفائيل: **أحوال نصارى بغداد** ص ٤٥.
(٦) انظر: ترتون: ترجمة حسن حبشي: **أهل الذمه** ص ١٩.
(٧) القفطي: **أخبار العلماء** ص ١١٠.

ولا يمكن النصارى من ظلمهم، وعسفهم في ضياعهم[1]، وكان الخليفة المهدي (ت ١٦٩ هـ/ ٧٨٥ م) يكرّم النصارى، ويحسن إليهم، فقويت شوكة أهل الذمة في عهده، ويروي ابن القيم وابن النقاش: أن المسلمين اجتمعوا إلى الهادي، وإلى من كان يحضر مجلسه، ويستمع نصائحه، متظلمين من ظلم أهل الذمة، فقال الهادي للمهدي: يا أمير المؤمنين إنك تحملت أمانة هذه الأمة، وقد عرضت على السموات، والأرض والجبال فأبين أن يحملنها، ثم سلمت الأمانة التي خصك الله بها إلى أهل الذمة دون المسلمين، فكتب المهدي إلى عماله لا تترك أحداً من الذمة يكتب لأحد من العمال، واعلم أن أحداً من المسلمين: استكتب أحداً منهم قطعت يده[2]. ويبدو أن هذه الإجراءات كانت محدودة، ومؤقتة حدثت في حالة غضب الخليفة، ولم تلبث الأمور أن عادت إلى حالتها الأولى، فقد بقي المهدي يعتمد على أهل الذمة، وخاصة النصارى، ويقربهم إليه حتى أن جواريه كانت منهم، فقيل، كانت له جارية نصرانية تعلق في صدرها صليباً من ذهب أثناء دخولها على المهدي[3]، وهذا دليل على أن الخلفاء العباسيين قد تركوا حتى لجواريهم، وعبيدهم، في بيوتهم، وقصورهم حرية ممارسة تقاليدهم الدينية، فيلبسون أزياءهم، وصلبانهم، ويتكلمون أحياناً بلغاتهم.

وازدهر في عهد المهدي بناء الكنائس والأديرة، فيروي المستشرق لسترنج[4]، أن النصارى في حكم الخلفاء كانوا يتمتعون بتسامح تام، يملكون أديرة عديدة، فكان في محلة الروم دير كبير شيد في عهد المهدي، وفي الكرخ على الجانب الغربي من دجلة دير العذارى، ودير درناو، ودير القباب، وفي شمالي المدينة دير شموني، وفي غربيها ديران أحدهما دير حدبان الواقع على ضفة

---

(١) ابن القيم الجوزيه: **أحكام أهل الذمه** ص ٢١٤.

(٢) ابن القيم ص ٢١٥؛ ابن النقاش: **المذمة في استعمال أهل الذمه** (مخطوط) ورقة ٤ و. ظ.

(٣) الطبري: **تاريخ** ج ١٠ ص ٢٠.

(٤) انظر: لشريج: **بغداد في عهد الحكومة العباسية** ص ١٠٨، ص ١٨٠ ــ ١٨٤.

نهر كرخايا، وكان يعرف بدير سرجيوس، وثانيها دير الثعالب، وفي شرقيها، ما عدا دير الروم، خمسة أديرة منها ديران خارج باب الشماسية، وهما دير مالس، وفي شمال هذا الموضع دير سابور، وعلى مسافة أربعة فراسخ من بغداد دير مار جرجس، وثمة المحلات الجزبية التي تحت قصور الخلفاء الدير القديم أو دير الزندورد... وبعد الغزو المغولي لم يبق أثر لأي دير فقد زال، وأما الخليفة الهادي (ت ١٦٩ هـ/ فقد كان يكرم الأساقفة، ويجالسهم، فكان يستدعي الأسقف تيموثاوس في أكثر الأيام، ويحاوره في الدين، وله معه مباحثات طويلة، وكذلك كان يفعل معه الرشيد)[١]، وسمح للنصارى بإحداث الكنائس، والاحتفال بالأعياد، والخدمة في وظائف الدولة[٢]، فقد عزل الهادي الربيع يونس عما كان يتولاه من الوزارة، وديوان الرسائل، وولى مكانه ابراهيم ابن ذكوان الحراني وكان صابئياً، وقيل: ان الهادي أقر الربيع على الزمام، فلم يزل عليه إلى أن توفي الربيع، وولى مكانه ابراهيم بن ذكوان الحراني[٣].

وفي خلافة هارون الرشيد (ت ١٩٣ هـ/ ٨٠٩ م) كان النصارى يخرجون في موكب كبير، وبين أيديهم الصليب يتقدمهم رؤساء دينهم[٤]، وكان الخلفاء، والأمراء، والشعراء يحضرون الاحتفالات الدينية[٥] وقد أعطى الرشيد سلطات واسعة لرؤساء أهل الذمة على ملتهم، فكان عند تنصيب رئيس لإحدى طوائف أهل الذمة يقترن انتخابه بموافقة الخليفة على تعيينه بمنصب الرئاسة، وبعد انتخاب الجاثليق يسيروا إلى دار الخليفة، وهناك يحظى بالإذن الشريف، أو بكتاب العهد الحاوي على حقوقه وسلطاته[٦]. ثم يأمر الخليفة له بالهدايا من الثياب الثمينة، وبعد ذلك ينحدر إلى مقره تصحبه قلة من الجنود، وجماعة من عظماء الدولة، والمطارنة والأساقفة[٧].

---

(١) انظر: جرجي زيدان: التمدن الإسلامي ج ٢ ص ١٣٨.
(٢) المقريزي: السلوك ص ١١٥.
(٣) الطبري: ج ٨ ص ٢٢٨.
(٤) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص ٢٣٩.
(٥) انظر: رفائيل: أحوال نصارى بغداد ص ٥٧.
(٦) ماري: أخبار قطاركه كرسي المشرق ص ١٢٩.
(٧) نفس المصدر السابق ص ١٥٢، ١٥٤ ــ ١٥٥.

وقد قرّب الرشيد إليه نخبة من أطباء النصارى، ووكل إليهم الإشراف على المستشفيات، ودور العلاج، ووضع المدارس تحت مراقبة يوحنا بن ماسويه، وكانت إدارة المدارس في البلاد مفوضة إلى النسطوريين تارة، وإلى اليهود أخرى[1]، وبالإضافة إلى ذلك فقد ولى الرشيد يوحنا بن ماسويه الإشراف على ترجمة الكتب الطبية القديمة[2]، وبلغ من حظوة ومكانة الطبيب جبرائيل بن بختيشوع أن الرشيد قال لأصحابه فيه (كل من كانت له حاجة فليخاطب فيها جبرائيل، لأني أفعل كل ما سألنيه، ويطلبه مني)[3].

وقد حدث في بعض الأحيان من بعض الخلفاء في العصر العباسي أن اشتد في معاملة أهل الذمة، وخاصة النصارى، وهذا يعود إلى علاقة الدولة الإسلامية بالبيزنطيين، فقد روى الطبري (٣١٠ هـ/ ٩٢٢ م)[4] في حوادث سنة ١٩١ هـ: أن الروم أغاروا على ثغر مرعش، وأصابوا من المسلمين، فأمر الرشيد بهدم الكنائس بالثغور، وكتب إلى السندي بن شاهنك يأمره بأخذ أهل الذمة بمخالفة هيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم. ويرى أحمد أمين[5] أن هذا الإجراء وأمثاله كان أثراً من آثار سوء العلاقة السياسية بين الدولة الإسلامية، والمملكة البيزنطية، ولا أثر للتعاليم الدينية.

ويقول ابن القيّم الجوزية (ت ٧٥١ هـ/ ١٣٥٠ م): [6]: أن هذا الإجراء كان سببه ما رآه الرشيد من معونة نصارى الثغور للروم البيزنطيين، وكإجراء سياسي يتطلبه الموقف آنذاك (فقد أمر بهدم الكنائس بالثغور)[7]، ويرى ابن

---

(١) انظر: محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية ص٤٣.
(٢) كامل الحنفي: جلاء الظلمة عن حقوق أهل الذمه (مخطوط) ورقة ٢٧ و.ظ.
(٣) القفطي: أخبار العلماء ص٩٥.
(٤) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٣٢٤.
(٥) انظر: أحمد أمين: ضحى الإسلام ج ١ ص٣٦٢.
(٦) ابن القيم الجوزية: أحكام أهل الذمة ص٤٨.
(٧) الطبري: تاريخ ج ٣ ص ٧١٢.

الأثير (ت ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٢ م)[١]: أن إجراءات الرشيد كانت قاصرة على الثغور فقط حيث أن الروم هاجموا بمساعدة النصارى في الثغور الإسلامية كمرعش وطرطوس، والمصيصة، وأنطاكية فأصابوا من المسلمين، وهدموا مساجدها، وكان رد الفعل أن أمر الرشيد بهدم الكنائس التي بالثغور، وأخذ أهل الذمة بمخالفة هيئة المسلمين في لباسهم، وأمر الرشيد بإعادة بناء المساجد التي دمرها الروم، ويفهم من هذا النص أن أمر هدم الكنائس كان خاصاً بالثغور فقط، وهي ما تعرف بسياسة المقابلة بالمثل، في حين نجد أن الرشيد قد أعطى منتهى الحريات لأهل الذمة في ممارسة شعائرهم الدينية، وأوصى ولاته بحسن معاملتهم، ويتجلى هذا في وصيته لحرثمة بن أعين: (أنظر في حقوق المسلمين والمعاهدين، وأخذهم بحق كل ذي حق حتى يردوه إليهم. . .)[٢].

يتبين لدينا أن الخلفاء يتباينون من فترة لأخرى في معاملة أهل الذمة، وأن بعض المضايقات التي يفرضها الخلفاء لم تكن ثابتة، ولا دائمة، وإنما يعود ذلك إلى الظروف الاجتماعية في الداخل، وإلى السياسة الخارجية مع الدولة البيزنطية، كما تعتمد أيضاً على مواقف أهل الذمة، وخاصة النصارى عند حدوث الحروب، والأخطار، والأزمات التي تهدد الدولة الإسلامية.

فيذكر (Fattal)[٣]: أن الرشيد سمح ببناء الكنائس، والأديرة، وكانت زوجته زبيدة، وأم الأمين قد ساعدت سرجوس أسقف البصرة ليبني كنائس فيها، وقد حصلت من زوجها هذا السماح للنساطرة ليعيدوا بناء صوامعهم الماثلة للانهدام، وأنها كانت تعطي للنساطرة، والكاثوليك، وأصحاب التلمود، الهدايا من الصلبان الذهب والفضة، وكذلك الراهبات في أعياد الغفران.

وفي عهد الأمين نال أهل الذمة الحرية الواسعة في ممارسة عقائدهم الدينية، وشعائرهم، فيقول، (Fattal)[٤]: يعتبر عصر الأمين عصر ازدهار

---

(١) ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ٢٠٦.
(٢) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٣٢٨.
(٣) انظر: (...al, Le Statut.Des Nom Musulmans. p. 188).
(٤) انظر: (Fattal, p. 189).

بالنسبة لبناء الكنائس، والصوامع المسيحية، وكذلك الحال بالنسبة للصابئة، فيقول المستشرق متز[1] فيهم: وأما الصابئة فكان آخر عهد ازدهر أمرهم فيه أواخر القرن الثاني الهجري، في عصر الأمين حيث عاد شأن الوثنية بحران إلى الظهور، وقيدت الثيران في جميع الشوارع مزينة بغالي الثياب، والورود، والرياحين، وبالأجراس على قرونها وسار خلفها الرجال بالمزامير.

ويعتبر عصر المأمون (١٩٨ ــ ٢١٨ هـ) عصر إصلاح بالنسبة للكنائس، والمعابد إذ أنه سمح بإنشاء كنائس جديدة، وإصلاح الكنائس القديمة[2]، وكان المأمون لا يؤثر مذهباً، أو ديناً خاصاً، بل أباح استخدام الجميع في مناصب الحكومة، ويقول المؤرخ أولستر في ذلك (أن المأمون أنشأ مجلساً استشارياً للدولة يتألف من ممثلي جميع الطوائف، وأصبح هذا الديوان يضم المسلمين، واليهود، والمسيحيين، والصابئيين، والزرادشتيين، على حد سواء، وكانت حرية الاعتقاد، والعبادة مضمونة للجميع وأوضحت سياسته مضرب الأمثال في التساهل، وكان البطارقة، والأساقفة، والكهان، يستمتعون بامتيازات، وحصانات كاملة، كالتي يتمتع بها أمثالهم في الدول المسيحية التي تدين بدينهم[3].

ويقول كرد علي[4]: (ان المأمون لما أراد تدوين العلوم في بغداد استدعى ثلثمائة عالم من أهل كل دين وجنس، وحظر عليهم في اجتماعهم مسلمهم، وغير مسلمهم أن يستشهدوا بآي القرآن، والانجيل، والتوراة، وأن يتعرضوا للأديان في مباحثهم. وبرز في عصر المأمون شخصيات من أهل الذمة، وخاصة من النصارى، منهم يوحنا بن ماسويه السرياني ويوحنا البطريق الذين برزوا في الترجمة فكان ابن البطريق أميناً على ترجمة الكتب الحكمية، وأشهر أطباء المأمون

---

(١) انظر: آدم متز: الحضارة الإسلامية ص ٥٢.
(٢) انظر: (Fattal, Le Statut Legal Des Nom Misulmane. p. 189).
(٣) انظر: سيد أمير علي: مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي ص ٢٣٦.
(٤) انظر: محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية ص ٤٣.

جبرائيل الكحال، فكان له في كل شهر ألف درهم، وكان أول من يدخل على المأمون في كل يوم[1]، فأكرم المأمون العلماء والأدباء والأطباء والفلاسفة، وترجم في عصره كثير من كتب الفلسفة، وعقد مجالس المناظرة[2] فأقبل إليه النقلة المسيحيون، ولم يدعو كتاباً في الحكمة إلا عرّبوه من، اليونانية إلى العربية، وهكذا امتزجت فلسفة اليونان بفلسفة الإسلام[3]، وقد أدت هذه السياسية إلى نشاط الحركة العلمية والفكرية بصورة خاصة في عهده، وظهرت روح المناقشات بين المسلمين، وطوائف أهل الذمة، وبين أيدينا من كتب عبد الله بن اسماعيل الهاشمي، وهو ابن عم الخليفة إلى عبد المسيح بن اسحاق الكندي، وكانت له منزلة كبيرة في بلاط المأمون يدعوه فيها إلى الإسلام، وقد تحدث المستشرق أرنولد[4] عن هذه الرسالة، فقال: وفي هذه الرسالة يرجو ابن عم الخليفة صديقه المسيحي أن يدخل في الإسلام بلهجة تنم عن الود في لغة تصور بوضوح مسلك المسلمين تجاه النصارى، ولكن أرنولد لم يعلّق على فحوى جواب عبد المسيح لهذه الرسالة، والتي تنم عن حقده للإسلام، وكراهيته للرسول، وإنكاره للقرآن، بالإضافة إلى أسلوَبه الخالي من آداب المخاطبة، الذي لا يتلاءم مع أبسط آداب المناقشة.

أما حالة اليهود في العصر العباسي، فكانت توصف بالتسامح، وكان أكثرهم تساهلاً المأمون، وتعتبر الفترة الكائنة بين عهد الرشيد، والمأمون من العصور الزاهرة في تاريخ يهود العراق، إلا أن أمرهم ضعف في أواخر عصر المأمون بسبب النزاع الطائفي المستمر بين الفرق اليهودية، العنانية، والربانية، واشتد هذا الخصام في عصر المأمون فحكم فيهم، وأصدر أمره بقرار، أن كل

---

(١) كامل الحنفي: جلاء الظلمة عن حقوق أهل الذمة (مخطوط) ورقة ٢٧ و.ظ.

(٢) انظر: أحمد أمين: ضحى الإسلام ج ١ ص ٥٧؛ رفاعي: عصر المأمون ج ١ ص ٣٥٣ ـ ٣٥٩.

(٣) أنظر: أحمد أمين: فجر الإسلام ص ١٣٢ ـ ١٦٢؛ أحمد أمين: ظهور الإسلام ج ١ ص ٨٨ ـ ٨٩.

(٤) انظر: أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص ١٠٤.

عشرة نفر إذا اتفقوا يقومون لهم رأس عليهم، فقام النصارى من جانبهم، واعترضوا على هذا الأمر الذي لا يوافق مصلحتهم[1]، ويقول ابن القفطي (ت ٦٤٦ هـ/ ١٢٤٨ م) في اليهود: وأدى هذا الخصام ضرراً عظيمًا إلى الجماعة اليهودية، واشتد في القرن التاسع والعاشر[2].

أما المجوس، فكانوا يتمتعون بمنتهى التسامح في عهد المأمون، ويقول المستشرق أرنولد فيهم: (أن أتباع ديانة زرادشت قد تمتعوا بوجه عام بالحرية الدينية، إلى نهاية العصر العباسي، وعومل المجوس كأهل ذمة، فكان لهم كاليهود والنصارى رئيس ديني يمثلهم في قصر الخلافة[3].

وفي عصر الخليفة المعتصم ساد التسامح الديني بين طوائف أهل الذمة، ولم يتعرضوا فيه لأي اضطهاد، أو مضايقات، كما أنه قضى شطراً كبيراً من حياته في قتال الخارجين على الإسلام، وعلى الدولة، ومع ذلك، فقد قرب الأطباء، والعلماء، وكان من أشد المقربين إليه طبيبه سلمويه، فلما مرض عاده المعتصم في داره وبكى عنده، ولما مات سلمويه قال المعتصم: سألحق به لأنه كان يمسك حياتي، ويدبر جسمي، وامتنع عن الأكل في ذلك اليوم، وأمر بإحضار جنازته إلى قصر الخلافة، وأن يصلى عليها بالشمع، والبخور على رأي النصارى[4].

والحقيقة أن الفترة الواقعة بين خلافة السفاح، حتى نهاية عصر المعتصم تعتبر من العهود الزاهرة في تاريخ أهل الذمة في العراق، لما لقيه فيه أهل الذمة من التسامح في ممارسة شعائرهم الدينية، وفي بناء الكنائس والأديرة، وفي مساواتهم مع المسلمين في الوظائف، فكانت طوائف الموظفين الرسميين تضم مئات المسيحيين، وقد بلغ عدد الذين رقوا منهم إلى مناصب الدولة العليا من

---

(١) انظر: نصري: ذخيرة الأذهان ج ١ ص ٣٣٣.
(٢) القفطي: أخبار الحكماء ص ١٦٩.
(٣) انظر: أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص ٣٤٠.
(٤) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص ١٤٠.

الكثرة لدرجة أثارت شكوك المسلمين[1]، فكان ابراهيم أخو سلمويه بن بنان طبيب المعتصم خازن بيوت الأموال في البلاد، ولم يكن عنده مثل سلمويه، وأخيه ابراهيم في المنزلة[2]، وصار ابراهيم بن هرون النصراني قهرماناً[3] لمحمد بن عبد الله بن طاهر[4]، ويقول فيهم الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ/ ٨٦٨ م)[5]: أنهم نافسوا المسلمين في لباسهم، وركوبهم، وألقابهم، وتسموا، بالحسن، والحسين، والعباس، والفضل، وعلي، واكتنوا بذلك أجمع... فرغب إليهم المسلمون وترك كثير منهم عقد الزنانير، وامتنع كثير من كبرائهم من إعطاء الجزية، وأنفوا مع اقتدارهم على دفعها، وسبوا من سبهم، وضربوا من ضربهم ومالأهم، يفعلون ذلك وأكثر منه، وقضاتنا وعامتهم يرون أن دم الجاثليق والمطران والأسقف، وفاء بدم جعفر وعلي والعباس وحمزة...وكان منهم كتاب السلاطين، وفراشوا الملوك والأطباء.

ويقول الجاحظ أيضاً: أن النصارى اتخذوا البراذين الشهرية، والخيل العتاق، واتخذوا الجوقات، وضربوا بالصوالجة، وتمدقوا المديني ولبسوا الملحم[6] والمطيقة واتخذوا الشاكرية[7] وكانت الجامعات، والمعاهد الإسلامية مفتوحة للدراسة فيها لأهل الذمة، وقد تتلمذوا على أيدي علماء، وفقهاء مسلمين، فدرس حنين بن اسحق على يد الخليل الفراهيدي، وسيبويه حتى أصبح حجة في العربية[8]، وتتلمذ يحيى بن عدي على يد الفارابي، ودرس ثابت بن قرة على يد محمد بن موسى[9].

---

(١) انظر: ديورانت: **قصة الحضارة** ج ١٣ ص ١٣٢.

(٢) ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء** ج ١ ص ١٦٥.

(٣) القهرمان: وكيل أو أمين الدخل والخرج.

(٤) الشابشتي: **الديارات** ص ٧٩.

(٥) الجاحظ: **ثلاث رسائل** ص ١٨؛ محمد كرد علي: **الإسلام والحضارة العربية** ص ٤٢.

(٦) الملحم: نوع من الثياب مداه حرير ولحمته غير حرير.

(٧) الشاكرية: جمع شاكري: معرب (جاكر) ومعناها بالفرنسية (الأجير المستخدم) (الجاحظ: **الحيوان** ج ٢ ص ١٣٠).

(٨) الأصفهاني: **الأغاني** ج ٨ ص ١٣٦.

(٩) ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء** ج ١ ص ١٨٥.

وسكن أهل الذمة مع المسلمين في أحيائهم، وكانت الديرة والكنائس في كل نواحي بغداد حتى كادت لا تخلو منها ناحية[1]، وشارك المسلمون أعياد النصارى، فأصبح عيد الصليب لديهم يوم بطالة، وعطلة عامة، واتخذوا من الشعانين عيداً يحتفلون به معاً[2].

ويصف المستشرق ترتون[3] حالة أهل الذمة في ظل الإسلام، فيقول: (فقد كان النصارى في بعض الأحايين يؤثرون العيش في ظل الحكم الإسلامي على العيش في ظل إخوانهم المسيحيين، ومع هذا التسامح العظيم الذي شهده تاريخ أهل الذمة في العراق في عصر الراشدين، والأمويين، والعباسيين، فقد تعرضوا لأزمات ومضايقات، في عهد الخليفة المتوكل، فقد كان أشد الخلفاء وطأة على أهل الذمة في العراق، فأمر المتوكل سنة **٢٣٥** هـ بأخذ النصارى، وأهل الذمة بلبس الطيالسة العسلية، وبشد الزنار، وركوب السروج الخشب، نهى أن يستعان بهم في أعمال الدولة، وأمر بهدم الكنائس المحدثة بعد الإسلام، ومنعهم من إظهار الصلبان في الشعانين، وأمر أن يجعل على أبوابهم صور الشياطين من الخشب، وأن يرقعوا لباس رجالهم برقعتين تخالفان لون الثوب، ولون كل واحدة تخالف الأخرى، ومن خرج من نسائهم تلبس إزاراً عسلياً، ومنعوا من لبس المناطق، ونهى أن يتعلم أولادهم في كتاتيب المسلمين، ولا يعلمهم مسلم، وأمر بتسوية قبورهم مع الأرض[4] وكتب بذلك إلى عماله في الآفاق، وحذرهم بإنزال العقوبة بمن خالف ذلك. وقد شمل هذا الإجراء اليهود أيضاً ، حيث لبسوا الغيار، والعمائم الصفر، وأما النساء فلبسوا الأزر

---

(١) انظر: متز **الحضارة الإسلامية** ٥٧.

(٢) انظر: ترتون: ترجمة حسن حبشي: **أهل الذمة** ص ١٢١.

(٣) نفس المصدر السابق ص ١٦٥.

(٤) الطبري: **تاريخ** ج ٩ ص ١٧١ ــ ١٧٤؛ ابن الأثير: **الكامل** ج ٧ ص ٥٢؛ ابن خلدون: **تاريخ** ج ٣ ص ٢٧٥؛ ابن زبر القاضي: **الشروط العمرية على أهل الذمة** (مخطوط) ورقة ٥ ــ ٦ و.ظ.؛ ابن النقاش: **المذمة في استعمال أهل الذمة** (مخطوط) ورقة ٤ و.ظ.
ابن كثير: **البداية والنهاية** ج ١٠ ص ٣١٧؛ ديورانت: **قصة الحضارة** ج ١٣ ص ٢٠٢.

العسلية، وأن تخالف المرأة منهم بين لون خفيها فيكون الواحد أسود، والآخر أبيض، وأن في أعناقهن أطواقاً من حديد إذا دخلن الحمام فأسلم بعضهم هرباً من هذا الأسلوب[1]، ويعزو سعيد بن بطريق هذا الإجراء إلى سخط المتوكل على بختيشوع المتطبب، فكتب إلى جميع البلدان بأخذ النصارى في ذلك[2].

ويعلّق ابن القيم الجوزية (ت ٧٥ هـ/ ١٣٥٠ م)[3] على إجراءات المتوكل تجاه أهل الذمة، فيقول: ومن ناحية أخرى نرى أن الكنائس كانت منذ زمن عرضة للهدم وتبعاً لهوى الوالي، ولا مشاحة أن يكون الخطر عليهم أعظم وأشد في أوقات الاضطرابات السياسية، والغالب ــ وليس دوماً ــ أن الأمور تتوقف على طبيعة الحاكم، خليفة كان أم والياً، على أن الشيء الوحيد الذي لا يرقى إليه الشك هو أن القرن الأول الهجري لم يعرف قط شيئاً عن عهد عمر بن الخطاب، ومنذ القرن الثاني تبلورت الفكرة القائلة، بأن جميع أماكن العبادة التي بنيت زمن الإسلام لا تمس بأذى، ثم ما لبثت هذه الفكرة أن أصبحت عامة فيما بعد.

ويمكن اعتبار إجراء المتوكل هو الإجراء الفريد من نوعه في التاريخ الإسلامي لأن من سبقه من الخلفاء لم يجرؤ على هدم الكنائس، والبيع وحتى المستحدثة في الإسلام، فإن إجراء عمر بن عبد العزيز كان يقضي منع إنشاء الكنائس والأديرة، وعدم إصلاح ما تهدم منها.

ولعل هذه الاجراءات كانت بدافع سلوك أهل الذمة وخاصة النصارى، وذلك لعلاقتهم بالدولة البيزنطية من ناحية، ومعاملة البيزنطيين المسلمين الأسرى في بلادها من ناحية أخرى، حيث دفعه إلى اتخاذ مثل هذه الإجراءات الشديدة على النصارى، فيروي ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ/ ١٣٧٢ م)[4] حادثتين:

---

(١) ابن الأثير: **الكامل** ج ١٠ ص ٦٨؛ غنيمة: **نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق** ص ١٢١.

(٢) سعيد بن بطريق: **التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق** ص ٦٣.

(٣) ابن القيم الجوزرية: **أحكام أهل الذمة** ص ٥٢.

(٤) ابن كثير: **البداية والنهاية**، ج ١٠ ص ٣٢٤؛ ابن الأثير: **الكامل** ج ٧ ص ٧٦ ــ ٧٧.

كان لهما أثرهما على ما يبدو في ذلك فقد عرضت أم الملك البيزنطي النصرانية على الأسرى المسلمين التنصر، وكانوا نحواً من عشرين ألفاً، فمن أجابها إلى النصرانية سلم، وإلا قتلته، فقتلت اثني عشر ألفاً، وتنصر منهم، وبقي منهم في سنة ٢٤١ هـ سبعمائة وخمسة وثمانين رجلاً، ومائة وخمساً وعشرين امرأة، عندما جرى الفداء بين الروم والمسلمين.

أما الحادثة الثانية: التي يبدو أنها كانت إحدى عوامل استياء المتوكل من النصارى هي وثوب أهل حمص على عاملهم، وساعدهم النصارى عليه، فكتب إلى الخليفة المتوكل يعلمه بذلك، فكتب إليه يأمره بمناهضتهم، كما كتب إلى والي دمشق أن يمده بجيش من عنده ليساعده على أهل حمص، وكتب إليه أن يضرب ثلاثة منهم معروفين بالشر، بالسياط حتى يموتوا ثم يصلبهم على أبواب البلد، وأن يضرب عشرين آخرين منهم كل واحد ثلثمائة، وأن يرسلهم إلى سامراء مقيدين بالحديد، وأن يخرج كل نصراني بها، ويهدم كنيستها العظمى، ويضيفها إلى المسجد الجامع[1]، ويبدو أن المتوكل كان متعصباً للدين كثيراً، كما أنه كان شديداً على مخالفيه في المذهب، فهو لم يسلك سياسة الشدة مع أهل الذمة فقط، بل شمل بسياسته بعض فرق المسلمين، ولا سيما الشيعة، والمعتزلة، فأمر سنة ٢٣٦ هـ بهدم قبر الحسين بن علي، وهدم ما حوله من المنازل والدور، وأن يحرث ويبذر ويسقي موضع القبر، وأن يمنع الناس من إتيانه، وأمر صاحب الشرطة أن ينادي في الناس من وجده عند قبره جيء به إلى المطبق، فهرب الناس، امتنعوا من المصير إليه، وكان كثير النقمة على علي بن أبي طالب حتى أنه كان يجالس من اشتهر ببغضه للعلويين[2].

ولعل أسباب البغض تعود إلى أن من حوله كانوا يخوّفونه من العلويين، ويشيرون عليه بإبعادهم، والإعراض عنهم، والإساءة إليهم، ولم يزلوا به حتى

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٠ ص ٣٢٣.

(٢) الطبري: ج ٩ ص ١٨٥؛ ابن الأثير: الكامل ج ٧ ص ٥٥؛ أبو الفدا: **المختصر في أخبار البشر** ج ٢ ص ٤٠؛ جرجي زيدان: **التمدن الإسلامي** ج ٣ ص ١٨٣.

ظهر منه ما كان، فغطت هذه السيئة جميع حسناته. ورغم سياسة الشدة التي اتبعها المتوكل في معاملة أهل الذمة، إلا أنه لم يستغن عن أهل الذمة، وخاصة النصارى، في أعمال الدولة، ودواوينها، فكان مالك بن الوليد النصراني صاحب ديوان النصر، قد أسند المتوكل ديوان الخاصة وبيت المال إلى نصرانيين هما: أبي الغنائي، وأخوه، وكان بنان ــ وهو نصراني أيضاً ــ كاتباً لصاحب الديوان[١]، وكان من أطبائه حنين بن اسحق النصراني، فكان مكرماً لديه قد غمره بالإحسان وأقطعه الإقطاعات[٢].

وقد امتلك أهل الذمة الأموال الطائلة نتيجة مزاولتهم المهن كالهندسة، والصيدلة، والطب، واشتغلوا بالتجارة، والزراعة، والحرف الأخرى، فبنوا القصور الشاهقة، بالأثاث النفيس، وقيل ان الطبيب بختيشوع بن جبريل كان يضاهي المتوكل في اللباس، وحسن الحال، والجواري والعبيد، ولما دعاه إلى قصره أحضر كل ما في بغداد من الخيش، ورطبه بالماء ليصير كل مكان يمر به الخليفة رطباً، وكان من عادته أن يجلس في عربة من الأبنوس، ويخرج من قصره، وبين يديه ألف من الرجال، ويقال إنه كان يصرف كل ليلة خمسمائة دينار على الشموع والزيت والبخور[٣].

ويعلّق المستشرق (Cahen)[٤]: على إجراءات بعض الخلفاء في العصور الإسلامية بشأن أهل الذمة فيقول: يجب أن ندرك بأن تطبيق مثل هذه التعليمات كانت قصيرة الأمد، ولا تطبق إلا في المراكز الإسلامية وفي العواصم، وتطبيقه لم يكن بصورة تامة وحرفية، وما عدا هذه الفترات فإن وضع الذميين كان يقارب وضع المسلمين. ويوضح المستشرق: (Goitein)[٥] حالة اليهود خلال العصور

---

(١) أنظر: ترتون: **أهل الذمة** ص ٢٠، عريب صلة تاريخ الطبري ص ٢٥.

(٢) كامل الحنفي: **جلاء الظلمة عن حقوق أهل الذمة** (مخطوط) ورقة ٢٧ و. ظ.

(٣) انظر: ترتون: ترجمه حسن حبشي **أهل الذمة** ص ١٧٠ ــ ١٧١.

(٤) انظر: (Cahen, Ency. of Islam (Dhimma) p. 228).

(٥) انظر: (Goitein, Jews and Arabs. p. 6-7).

الإسلامية، فيقول: لم يكن هناك شعور بالتأثيرات العميقة في العلاقة بين العرب واليهود في العصور الإسلامية، وأصبح اليهود في العصور الوسطى الخاضعين ضمن البلاد الإسلامية أحسن حالاً من اليهود الذين عاشوا في الفترة نفسها في أقطار أوروبا المسيحية، والعقائد اليهودية ضمن الحكم الإسلامي كانت أحسن بكثير مما هو عليه اليهود في الامبراطورية البيزنطية، فكانوا في العهود الإسلامية متمتعين بالحرية الاجتماعية، والاقتصادية، مثل العرب، فامتهنوا الزراعة والتجارة، والأعمال المختلفة في الوقت الذي كانت أوروبا فيه خاضعة تحت النظام الزراعي الاقطاعي.

وأخيراً: فإن المجتمع الإسلامي كان قد استساغ مخالطة أهل الذمة، ومصادقتهم بفعل المعاملات بينهم، وبفضل التسامح الذي يحمله المسلمون تجاههم، فقال الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ/ ٨٦٨ م)[١]: أنشدنا أبو صالح مسعود بن قنديل الفزاري في ناس خالطهم من اليهود:

وجدنا من اليهود رجال صدق ... على ما كان من دين مريب

وقال أحمد أبو الطحان الأسدي في ندامة النصارى:

وإني وإن كانوا نصارى أحبهم ... ويرتاح قلبي نحوهم ويتوق

ويؤيد ذلك ما رواه المستشرق متز[٢]، فيقول: (...وقضت الضرورة أن يعيش اليهود، والنصارى بجانب المسلمين، فأعان ذلك على خلق جو من التسامح لا تعرفه أوروبا في القرون الوسطى، وقد أباح الإسلام الزواج بأهل الذمة، وخاصة النصارى واليهود) وقد كان له أثره في الترابط بين أبناء المجتمع الواحد، فساعد بذلك على نشر السلام، والطمأنينة والمحبة بينهم.

□ □ □

(١) الجاحظ: **الحيوان** ج ٥ ص ٥٢.
(٢) انظر: متز: **نهضة الإسلام** نقلاً عن **ضحى الإسلام** ج ١ ص ٣٢٢، حاشية (١).



الباب الثالث
العقائد الدينية لأهل الذمة

الفصل الأول:

عقائد الطوائف الدينية لأهل الذمة.

الفصل الثاني:

كتبهم المقدسة ومصادر الفكر الديني.

الفصل الثالث:

بيوت العبادة، (الكنائس، المعابد، الهياكل، بيوت النار، الأديرة والرهبنة).

الفصل الرابع:

الأعياد والمراسيم الدينية لأهل الذمة.



الفصل الأول

عقائـــد
الطوائف الدينية لأهل الذمة

تعتبر اليهودية[1] من أولى الطوائف الدينية لأهل الذمة لإنها أقدم الأديان السماوية ــ وهم من الأقوام السامية التي هاجرت من جزيرة العرب، فسكن فريق منهم في بلاد بابل (بعـد السبي البابـلي) حيث كانت هنـاك الأقوام السومرية[2] والأكديـة[3]، والكلدانية[4]، ثم انتشـروا في آسيا وفلسـطين، والمجموعة التي هاجرت من العراق في حوالي ١٨٠٠ ق. م استقرت أخيراً في فلسطين كانت بزعامة ابراهيم الخليل بن تارح الذي ينتهي نسبه إلى نوح، فأطلق الكنعانيون[5] الذين كانوا يسكنون في فلسطين عليهم بـ(العبرانيين)[6]

---

(١) اليهودية: جاءت من (هاد) وهاد الرجل، أي رجع وتاب، وقد لزمهم هذا الإسم لقولهم لموسى (إنا هدنا إليك) أي رجعنا وتضرعنا (الشهرستاني، الملل والنحل ص ٢١٠).

(٢) السومريون: سكان العراق القدماء لا يعرف أصلهم من الناحية التاريخية ويعتقـد بعض المؤرخين أنهم جاءوا من شرق العراق وسكنوا فيه أو من شماله الشرقي (طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ج ١ ص ٨٩).

(٣) (٤) الأكديون والكلدانيون: هم من الأقوام السامية التي هاجرت من جزيرة العرب، وأقدم هذه الهجرات هي هجرة الأقوام الآكدية من الجزيرة إلى جنوب العراق واتخذوا (أكدا) عاصمة لهم قرب بابل ومن أشهر ملوكهم سرجون الآكدي (طه باقر: **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**، ج ١ ص ١١٧).

(٥) الكنعانيون: من الأقوام السامية التي هاجرت من الجزيرة العربية إلى العراق أولاً ثم إلى بلاد الشام، واستقروا فيه وأسسوا الدولة الكنعانية (طه باقر: **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**، ج ١ ص ١١١).

(٦) العبرانيون: جاءت من كلمة (عبرى) التي ترجع إلى الفعل الثلاثي (عبر) بمعنى عبر النهر=

لعبورهم نهر الفرات إذ لم يكونوا قد عبروا نهر الأردن بعد، أو لأنهم بدو متجولون يعبرون من وادٍ إلى وادٍ آخر، وسكن فرع من آل ابراهيم، وتوزعوا في الساحات الشرقية والجنوبية في فلسطين(١)، وقد رجع فريق منهم إلى العراق أيام الكلدانيين، في عهد ملكهم نبوخذ نصر، عندما هاجم أورشليم عام ٦٠٤ ق. م وفتحها وسبى اليهود، ونفاهم إلى بابل، وسمي هذا الحدث التاريخي بـ(الغزو البابلي لليهود) فتفرق اليهود في بابل وآشور، وقد ضربت الأمثال بتفرقهم(٢)، وبعد موت نبوخذ نصر سنة ٥٦١ ق. م، ضعفت مملكته فغزاها الفرس عام ٥٣٩ ق. م بقيادة كورش الأخميني (الفارسي) وأخضع العراق إلى السيطرة الفارسية بقيام الدولة الأخمينية(٣)، وأذن لمن يرغب من اليهود العودة إلى أورشليم (القدس)(٤). وعاش فريق كبير من اليهود في العراق، ووصل منهم إلى بلاد فارس.

ولما غزا الاسكندر المقدوني الشرق، خضعت له بلاد فلسطين، وسوريا، والعراق، وفارس، وأصبحت هذه البلاد تابعة للرومان، وفي عهد نيرون، ثار اليهود، وقضوا على الحامية الرومانية، فانتقم الرومان منهم حيث حاصر تيتوس (Totus) القدس، واستعان بعرب الأنباط عاصمتهم البتراء (بطرا) فدخل القدس، وأحرق الهيكل، وقتل اليهود فتشتتوا في مصر وسوريا واوروبا، وهاجر فريق منهم إلى العراق، وكان ذلك في حدود سنة ٧٠م(٥).

كان بنو اسرائيل يعبدون الوهيم، ومعناه الالوهية، وأن أسماء آلهة اليهود في

= أو الوادي، أو قطع مرحلة من الطريق، وهي تدل في مجملها على التجول، والتنقل ما يؤيد أنهم كانوا بدواً رحل (شلبي: **مقارنة الأديان ــ اليهودية** ــ ص ٢١٠) ويروي الطبري أن تسميتهم بالعبرانيين جاءت من اسم أحد أحفاد نوح عابر بن شالخ بن أرفخشند بن سام بن نوح (القلقشندي: **صبح الأعشي** ج ١ ص ٣٦٨).

(١) انظر: (Gaitein, Jew and Arabs. p. 32)

(٢) أنظر غنيمة: **نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق**، ص ٥٢.

(٣) سعيد بن بطريق: **التاريخ المجموع** ج ١ ص ٧٤.

(٤) انظر: الحسني: **العراق قديماً وحديثاً** ط ٢، ص ٤٣.

(٥) ابن العبري: **تاريخ مختصر الدول** ص ٢١.

العراق تدل على أصلها الأكدي في الغالب، فالإله بعل الذي جعله بنو اسرائيل منافساً ليهوه، كما ظلت عبارة الشمس، والقمر، والنجوم قائمة لدى بني اسرائيل ففي زمن حزقيال النبي، وفي هيكل أورشليم، كان اليهود يسجدون أمام الشمس مولين وجوههم شطر المشرق، وقد أحدث يوشيا (يوشع) النبي الإصلاح العظيم، فقد أمر الكهنة كما جاء في سفر الملوك إلى أن يخرجوا من هيكل الرب جميع الأدوات المصنوعة لبعل ولعشتاروت، ولجميع جنود السماء فأحرقها، و(أحرق مواكب الشمس) وأضحى يهوه، إله بني اسرائيل القومي، وبذلك انتقل اليهود من تعدد الآلهة إلى التوحيد[١].

وقد آمن اليهود بالتشبيه، فقد شبهوا الله بصفات لا يقرها العقل، ولا يقبلها المنطق، فقالواعنه: أنه ينام: (انتبه لم تنام يا رب، استيقظ من رقدتك) ونسبوا إليه الكذب، والندم على خلق البشر، ويقولون: ﴿يد الله مغلولة﴾[٢] كما جعلوا لله ولداً كالنصارى فقالوا: ﴿العزيز ابن الله﴾[٣]، ويصفون الله بصفات البشر كما يصفه التلمود: (فهو يحب، ويبغض، ويضحك، ويبكي، ويحس، ويستحي، ويلبس التمائم، ويجلس على عرش يحيط به طائفة من الملائكة يقومون بخدمته، ويدرس التوراة ثلاث مرات في كل يوم)[٤].

وقد اجتمعت كلمة اليهود على القول: (أن الله فرغ من خلق السموات والأرض واستوى على العرش يوم السبت مستلقياً على قفاه، واضعاً إحدى رجليه على الأخرى)[٥].

يعتقد اليهود أن الشريعة الإلهية لا تكون إلا واحدة، وهي ابتدأت بموسى، وتمت به فلم تكن قبله شريعة، ولم يجيزوا النسخ أصلاً فقالوا: (فلا يكون

---

(١) انظر: لوبون: **اليهود في تاريخ الحضارات الأول** ص ٥٩ ــ ٧٠.
(٢) سورة ٦٤: المائدة: آية ٥.
(٣) سورة ٣٠ م التوبة: آية ٩.
(٤) انظر: ديورانت: **قصة الحضارة** ج ١٤ ص ١٨ ــ ١٩.
(٥) الشهرستاني: **الملل والنحل** ج ١ ص ٢١٩.

لمن بعده شريعة أصلاً، لأن النسخ في الأوامر بداء، ولا يجوز البداء على الله، ومسائلهم تدور حول النسخ، والتشبيه، والقول بالقدر والجبر، وتجويز الرجعة واستحالتها[1]، وقد أجازوا الرجعة مستندين إلى أمرين: الأول، حديث العزير إذ أنه أماته الله مائة عام ثم بعثه، والثاني حديث هارون إذ مات، ونسبوا قتله إلى موسى لحسده له لأن اليهود كانوا أميل إلى هارون منه إلى موسى فاختلفوا في موته فمنهم من قال: أنه سيرجع[2]، لذلك دان اليهود بالعودة إلى الدنيا في آخر الزمان، وأن غيرهم من الأمم لا يعودون[3] كما أنهم أنكروا البعث والحساب، وأن الثواب والعقاب يتم في الدنيا[4]، فلا نجد في التوراة كتاب اليهود الأول شيئاً عن البعث، وربما حذف اليهود منه ذلك عمداً[5]، إلا أن تأثر اليهود بالمجوس بسبب توطد العلاقة بينهم، وبين الفرس منذ أيام كورش الفارسي، حيث أقبلوا على دراسة المجوسية، وخاصة الزرادشتية، فاقتبسوا منها الاعتقاد في حياة أخرى بعد الموت، وأن هناك جنة ونار، فنقلوا ذلك الاعتقاد إلى دينهم[6].

ويظهر أن فكرة الحياة بعد الموت (البعث) لم تكن معروفة أيام العهد القديم، وأصبحت شائعة بين طوائف اليهود على عهد عيسى المسيح[7]، أما فكرة الملائكة، والشياطين عند اليهود فإنها مستمدة أيضاً من الديانة الزرادشتية، ونظرية روح الشر التي نقلت من اليهودية إلى المسيحية، متأثرة كذلك بفكرة أهريمن عند زرادشت[8].

ويعتقد اليهود أن كل كلمة من كتابهم المقدس من كلمات الله هي ترنيمة

---

(١) المصدر السابق، ج ١ ص ٢١١.
(٢) نفس المصدر السابق، ج ١ ص ٢١٢.
(٣) انظر العقاد: أبو الأنبياء ص ٢١١.
(٤) انظر: شلبي: مقارنة الأديان ــ اليهودية ــ ص ١٣٥ ص ١٧٨.
(٥) أنظر: محمد شاهين حمزة: مع الفكر الإسلامي في بعض قضاياه، ص ١٣.
(٦) انظر: شلبي: مقارنة الأديان ــ اليهودية ــ ص ١٧٩، الخشاب التقاء الحضارتين ص ٧١.
(٧) انظر العقاد: أبو الأنبياء ص ٥٩.
(٨) انظر: الخشاب: التقاء الحضارتين ص ٧٢.

موحى بها من عند الله، وإنما وجدت قبل أن يخلق العالم (في صدر الله أو عقله)[١] فكانت الأحكام الواجبة عليهم الإيمان بالله وحده، وبموسى رسوله، وبالتوراة وما فيها، والعشر آيات (الوصايا العشر)[٢] ولم يعترف أغلب اليهود بنبوة ابراهيم، واسماعيل، ومن جاء بعدهم من آل ابراهيم[٣]، فالأنبياء الذين ظهروا في بني اسرائيل كثيرون في الفترة الواقعة بين ظهور ابراهيم الخليل وموسى، إلا أن انتشار الفساد، والمنكر والكذب، وضعف إيمانهم بأغلب أنبيائهم، جعل حياة هؤلاء الأنبياء والمصلحين شاقة جداً، وقد ثاروا في وجه بعضهم، ورفضوا طاعتهم، واعتدوا على بعضهم بالقتل، واتهموهم بالاتهامات الباطلة، ونسبوا لبعضهم الزنا والفسق[٤].

ومن الأمثلة على ذلك لما هرب لوط من سخط الرب على قومه فقد اتهموه بجريمة الزنى بابنتيه، فهذا النص وارد حرفياً في سفر التكوين[٥] ((وصعد لوط من صوغر) وسكن الجبل وابنتاه معه، لأنه خاف أن يسكن في صوغر فسكن المغار، هو وابنتاه، وقالت الكبرى للصغرى، أبونا قد شاخ، وليس في الأرض رجل يدخل علينا كعادة كل الأرض هلم نسقي أبانا خمراً، ونضطجع معه فنحيٍّ من أبينا نسلاً، فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة، ودخلت الكبرى، واضطجعت مع أبيها، ولم يعلم باضطجاعها، ولا بقيامها، وقالت الكبرى للصغيرة فادخلي، واضطجعي معه، فنحيٍّ من أبينا نسلاً، فسقناه خمراً، وقامت الصغيرة واضطجعت معه، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها فحملت ابنتا لوط من أبيها، فولدت الكبرى ولداً، ودعت اسمه مؤاب، وهو أبو المؤابيين، والصغيرة أيضاً ولدت ولداً ودعت اسمه بن عمن، وهو أبو بني عمرن[٦].

---

(١) سفر الأمثال؛ الاصحاح الثامن؛ آية ٢٢، ويعتقد كذلك المسلمون والنصارى بأزلية القرآن والإنجيل.

(٢) المقدسي: **البدء والتاريخ** ج ٤ ص٣٦.

(٣) الشهرستاني: **الملل والنحل** ج ١ ص٢١٣.

(٤) السموأل: **بذل المجهود** ص١٢.

(٥) سفر التكوين الاصحاح التاسع؛ آية ٢٠ ــ ٢٥، الاصحاح التاسع عشر، آية ٣٠ ــ ٣٦.

(٦) انظر: الغزالي: **نظرات في القرآن** ص٢٠٥.

ولم يتركوا نبياً من أنبيائهم الكثيرون إلا وألصقوا به تهمة أو عيباً فاحشاً[1] فحق قول الله فيهم: ﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة، وباءوا بغضب من الله، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله، ويقتلون النبيين بغير حق، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾[2]، وقال تعالى فيهم أيضاً: ﴿أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوي أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم، وفريقاً تقتلون﴾[3] وأصر فريق منهم على الكفر، والإشراك فعبدوا غير الله فقال تعالى: ﴿واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم، ولا يهديهم سبيلاً، اتخذوه وكانوا ظالمين﴾[4]، وقال تعالى فيهم أيضاً: ﴿لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داوود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون﴾[5].

واليهود لا ينكرون فقط بعض أنبيائهم بل كفروا حتى بما جاء به موسى، قال تعالى: ﴿أو لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل﴾[6] وشكوا في نبوته وقالوا له: (يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة)[7] وأنكروا النبوة في غيرهم لأنهم يزعمون أن النبوة في بني اسرائيل فقط، ولذلك فهم يكّذبون عيسى ومحمد، وينكرون رسالتهم مدعين أن موسى قال لهم في التوراة: (لا تقبلوا من نبي أتاكم بغير هذه الشريعة). وهذا القول المنسوب إلى موسى كذب وموضوع، وليس في التوراة شيء منه، وإنما فيها من أتاكم يدعي نبوة، وهو كاذب فلا تصدقوه، فإن قلتم من أين نعلم كذبه من صدقه قال: (فانظروا فإذا قال عن الله شيئاً، ولم يكن كما قال فهو كاذب) هذا نص ما في التوراة[8].

---

(١) السموأل: بذل المجهود ص ١٣٠.
(٢) سورة البقرة: آية ٦١.
(٣) سورة البقرة: آية ٨٧.
(٤) سورة الأعراف: آية ١٤٨.
(٥) سورة المائدة: آية ٧٨ ــ ٧٩.
(٦) سورة القصص: آية ٤٨.
(٧) سورة البقرة: آية ٥٥.
(٨) ابن حزم: الفصل في الملل ص ١٠٨.

وهم يطمحون بالدنيا، ويخافون الموت، ولا يمتنون لرحمة الله، ولا يأبهون إلى أقوال حوارييهم(١).

ويعتقد اليهود أن الله سريع الغضب على من عصاه ينتقم منه حتى من ذريته بشدة، وعدم تسامح، فلأجل هذا يخشاه اليهود، ويتملقونه بشتى الترضيات الصوفية، أي أنهم ينصرفون إلى عبادته بإيمان مجرد(٢).

ويعتقد اليهود أيضاً بالتجلي، وينكرون الوحي، فالنصوص الواردة في التوراة(٣)، يستدل منها أن الله تجلى على ابراهيم وإسحق ويعقوب ــ اسرائيل ــ وموسى.

وجاء في سفر الخروج(٤) ﴿ويكلم الرب موسى وجهاً إلى وجه كما يكلم المرء صاحبه﴾، وقد أشار القرآن إلى ذلك: ﴿وكلم الله موسى تكليمًا﴾(٥)، ويؤيد ما رواه القرآن الكريم، فقال تعالى: ﴿وما تلك بيمينك يا موسى قال: هي عصاي﴾(٦). وقوله تعالى أيضاً: ﴿فلما أتاها نودي يا موسى اني أناربك﴾(٧).

يظهر مما تقدم أن ابراهيم، وموسى كلما الرب، وتلقيا منه أوامره، وشرائعه مباشرة، وليس بالوحي(٨). ويبدو أن موسى، وأنبياء بني اسرائيل لم يتلقوا الشرائع جميعاً من الله، وإنما تلقوا منه الأوامر للمشاكل التي جابهها موسى خاصة مع قومه. ولا يمكن إتمام نزول التوراة على موسى دون الوحي، ولذا فقد أنكر اليهود الوحي كما أن الفلسفة التي تعتمد عليها التوراة تؤمن بأن

---

(١) انظر: (The Ency of Islam, Vol. I. p. 265-268).
(٢) انظر: الخربوطلي: **الإسلام وأهل الذمة** ص ٢٠٨.
(٣) سفر التكوين: **الإصحاح ١٧**: آية ١ ــ ٦.
(٤) سفر الخروج؛ الإصحاح ٣٣؛ آية ١١ وما بعدها.
(٥) سورة ١٦٤ م النساء: آية ٤.
(٦) سورة ١٧ ك طه: آية ٢٠.
(٧) سورة ١١ ك طه: آية ٢٠.
(٨) أنظر أويغور: **جذور الصهيونية**، ص ٧٦.

ليس ثمة وحي وإلهام في الطبيعة لأن اليهود يؤمنون بالحقيقة المادية[1]، فقد قال فيهم الغزالي[2]: (من دراستنا لعقائد اليهود تبين لدينا أن التحريف اجتاح أصول دينهم وأوهى صلتهم بالسماء إن لم يكن قطعها، وأن ما بقي لديهم من زاد روحي أعجز من أن يغرس في النفوس تحليل الحلال، وتحريم الحرام).

وقد دافع القرآن عن الأنبياء ورد سيل التهم والافتراءات التي نسبها إليهم اليهود، والنصارى في كتبهم، وبرأ ساحتهم من تهم السكر والزنى، والظلم التي نسبت إلى عدد منهم[3]. فقال تعالى مخاطباً إياهم: ﴿يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون، يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون﴾[4].

ويسمون اليهود السماء جنة عدن، وكانوا يصورونها حديقة تحوي جميع المسرات الجسمية والروحية، فخمرها عصرت من كروم احتفظ بها من الستة أيام التي خلق فيها العالم... والله نفسه يجتمع بالناجين من العذاب في وليمة أعظم ما يسر أصحابها أن يروا وجهه[5]. وقد ورد في العهد القديم اسم جهنم في الأصل العبري باسم (شيول)[6] أو (شاول) وقسموها كما قسموا السماوات إلى سبع طبقات، تتدرج في درجات العذاب، وحتى الآثمون الذين يداومون على الإثم لا يعذبون فيها إلى الأبد[7]. وينص التوراة على أن الربا حرام إلا أن اليهود يحرمونه بينهم، ويجيزونه مع غيرهم، ففي العهد القديم (إذا أقرضت مالاً لأحد من أبناء شعبي... فلا تقف منه موقف الدائن ولا تطلب منه ربحاً لمالك[8].

---

(١) نفس المصدر السابق، ص ٨١.
(٢) انظر الغزالي: **نظرات في القرآن** ص ١٩٦.
(٣) نفس المصدر السابق ص ٢١٥.
(٤) سورة آل عمران: آية ٧٠ ــ ٧١.
(٥) انظر: ديورانت: **قصة الحضارة** ج ١٤ ص ٢٢.
(٦) شيول: في اعتقادهم مكاناً مظلمًا تحت الأرض يذهب إليه جميع الأموات.
(٧) انظر: العقاد: (بو الأنبياء ص ٦١؛ ديورانت: ج ١٤ ص ٢١.
(٨) سفر الخروج: الاصحاح ٢٥: آية ٢٢.

وأما أحكام الوضوء والصلاة: فهم يغتسلون قبل الصلاة ويبدأون بالرجل اليسرى، وليس فيه مسح للرأس، والنوم قاعداً لا ينتقض الوضوء عندهم، والصلاة فرض على اليهود في اليوم والليلة ثلاث صلوات، إحداهن عند الصباح، والثانية بعد الزوال إلى غروب الشمس، والثالثة وقت العتمة، ويسجدون في آخر كل صلاة سجدة طويلة، ويزيدون يوم السبت وأيام الأعياد خمس صلوات سوى ما كانوا يصلونها[1].

وأما أحكام القصاص فيذكر الشهرستاني[2] (ت ٥٤٨ هـ/١١٥٣م) أن موسى قال: (النفس بالنفس، والعين بالعين، والأنف بالأنف، والأذن بالأذن، والسن بالسن، والجروح قصاص). وهي نفس الشريعة التي وضعها حمورابي في حدود القصاص.

وأما الحدود فعندهم على خمسة أوجه، الحرق، القتل، الرجم، التعزير، والتغريم، فأما الحرق فعلى من زنى بأم امرأته، أو بربيبته، أو بامرأة ابنه، والقتل على من قتل، والرجم على المحصن إذا زنى أو لاط، وعلى المرأة إذا مكنت البهيمة من نفسها، والتعزير على من قذف، والتغريم على من سرق، والبينة على المدعي واليمين على من أنكر[3].

وأما أحكام النكاح والطلاق، فلا يصح النكاح إلا بولي، وخطبة، وثلاثة شهود، ومهر مائتي درهم للبكر، ومائة للثيب[4].

وأما أحكام الطلاق فلا يجوز إلا أن يقفوا منهم على زنا أو سحر أو رفض دين، وحينئذ يحضر الكاهن والشهود وكتاب الطلاق ويقول الزوج لزوجته: (أنت طالق مني مائة مرة) ولا يقع الطلاق على الحامل. ويحق للرجل

(١) المقدسي: البدء والتاريخ ج ٤ ص ٣٦ ــ ٣٧.
(٢) الشهرستاني: الملل والنحل ص٢١٣.
(٣) المقدسي: البدء والتاريخ ج ٤ ص ٤٠ ــ ٤١).
(٤) المصدر السابق ج ٤ ص ٣٩.

الرجوع إلى مطلقته ما لم تتزوج، فإذا تزوجت حرمت عليه أبداً[1]. ولا يجوز لليهود التمتع بالإماء إلا أن يعتقوهن وينكحوهن[2].

وأما أحكام الزكاة، فتجب على أموالهم العشر، ولا يجب العشر في شيء من أموالهم دون مائة عدديًا أو وزنيًا، لأن ما لا يخرج منه عشر لا يجب في العشر[3].

ويبدو أن اليهود حرفوا كثيراً بتعاليم التوراة، وخرجوا عليها لأنهم نظروا إلى الدين، والدنيا نظرة مادية، حتى أنهم أجازوا بيع أولادهم إذا كانوا صغاراً[4]، مما يحملنا على القول أن اليهودية عقيدة دنيوية مادية خالية من النزعة الروحية، ولا تمت إلى تعاليم موسى بصلة إلا الاسم فقط، فالأنانية وحب الثراء، والسحر، والاهتمام بالمادة، والتشكك بيوم البعث، تتنافى مع الوصايا العشر التي جاء بها موسى[5]، وقد افترق اليهود على خمس فرق هي:

ـ السامرية[6]:

وهم يقولون أن مدينة نابلس هي المدينة المقدسة، ولا يعرفون حرمة لبيت المقدس، ولا يعظمونه، فقالوا أن الله تعالى أمر داود النبي أن يبني بيت

---

(١) المصدر السابق ج ٤ ص ٤٠.

(٢) نفس المصدر السابق ج ٤ ص ٣٩.

(٣) المقدسي: **البدء والتاريخ** ج ٤ ص ٣٩.

(٤) نفس المصدر السابق والصحيفة.

(٥) الخربوطلي: **الإسلام وأهل الذمة** ص ٢٠٨.

(٦) السامرية: جاءت من السامرة التي في العبرية (شامريم) التي تطلقها السامرة على نفسها ومعناها الحراس أي (حراس الشريعة).

The Universal Jewish Ency Vol. I. p. 335.

ويقول القلقشندي: السامرة أتباع السامري الذي أخبر الله تعالى عنه في القرآن في سورة الأعراف (وأضلهم السامري) (القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٣ ص ٢٦٨).

المقدس بجبل نابلس، وهو الطور الذي كلم الله عليه موسى[1]، وللسامرية توراة غير التوراة التي بأيدي سائر اليهود، فهم يزعمون أن التوراة التي في أيديهم هي توراة موسى وأن توراة اليهود محرفة[2] ولا يعترفون إلا بالتوراة (أسفار موسى الخمسة) المكتوبة بخطهم، وقد ترجموها بلغة عامية[3]، ويبطلون كل نبوة كانت في بني اسرائيل بعد موسى، وبعد يوشع، فيكذبون بنبوة شمعون، داود، وسليمان، واشعيا، واليسع، والياس، وزكريا، وغيرهم، ولا يعترفون بيوم البعث[4].

وافترقت السامرية إلى دوستانية، وكوسانية، فالدوستانية معناها الفرقة المتفرقة الكاذبة، والكوسانية معناه الجماعة الصادقة (الصدوقين) وهم يقرون بالآخرة والثواب والعقاب، والجنة والنار. والدوستانية تزعم أن الثواب والعقاب في الدنيا، وبين الفريقين اختلاف في الأحكام والشرائع[5].

أما لغة السامرة فهي غير لغة اليهود، وزعموا أن التوراة كانت بلسانهم وهي قريبة من العبرانية فنقلت إلى السريانية[6]. وأما لهجتهم فقد اشتقت من الآرامية وكتبوا بها إلى جانب العبرية[7].

---

(١) الشهرستاني: ج ١ ص ٢١٩؛ القلقشندي ج ١٣ ص ٢٦٩؛ ابن القيم: **أحكام الذميين** ص ٩١؛ جواد علي علم ابن النديم باليهودية والنصرانية ج ٨ ص ١٠٩، مجلة المجمع العراقي.

(٢) المسعودي: **مروج** ج ١ ص ٤٩؛ ابن حزم: **الفصل في الملل** ج ١ ص ٩٨ ــ ٩٩؛ القلقشندي ج ١٣ ص ٢٦٩؛ الرازي: **اعتقادات** ص ٨٣؛ المقدسي ج ٤ ص ٣٤؛ جواد علي علم: **ابن النديم** ج ٨ ص ١٠٩؛ مجلة المجمع العراقي.

(٣) أنظر: جواد علي علم: **ابن النديم** ج ٨ ص ١٠٩.

(٤) ابن حزم: **الفصل في الملل** ج ١ ص ٩٩؛ الشهرستاني ج ١ ص ٢١٨؛ القلقشندي: ج ١٣ ص ٢٦٩.

(٥) الشهرستاني: **الملل والنحل** ص ٢١٩؛ ابن القيم: **أحكام أهل الذمة** ص ٩١.

(٦) الشهرستاني: ص ٢١٩.

(٧) انظر: جواد علي علم ابن النديم، باليهودية والنصرانية ج ٨ ص ١٠٩، مجلة المجمع العراقي.

والسامرة كاليهود ينتظرون مسيحاً يسمونه (حاشاحيب) أو (حاطاحيب) أي المرجع، ويعتقدون بالأرواح، والملائكة وبخلود النفس[1].

ـ العنانية:

وتنسب هذه الفرقة من اليهود إلى (عنان بن داود)[2] رأس الجالوت، ورئيس القرائين. كان من مشاهير أحبار اليهود بمعرفة التلمود، تنافس مع أخيه الأصغر (حنانيا) على رئاسة يهود العراق، وذلك حوالي سنة ٧٦٢م، فحقد عليه أخوه، فوشى به عند الخليفة أبي جعفر المنصور، فقبض عليه وسجنه حتى أفرج عنه بعد أن ادعى أنه رئيس المذهب، وأنه يختلف في مذهبه عن بقية اليهود، ويذكر أن الإمام أبا حنيفة التقى به أيام كان في السجن فكلمه، وسأله عن مذهبه، ولما عرف رأيه في اليهودية أشار عليه ببيان مذهبه للخليفة، فلما وقف الخليفة عليه أخرجه، وأقره على رئاسة طائفته[3].

يقول عنان: بالتوحيد، ونفى التشبيه عن الله[4]، وقد اعتمد على ما اقتبسه من الصدوقيين وغيرهم، فأخذ من الصدوقيين رأيهم في حرمة إشعال النار في أيام السبت، وفي الترجمة الحرفية للتوراة، وأخذ من العيسوية أتباع أبي عيسى الأصفهاني رأيها في صحة نزول الوحي على عيسى ومحمد، ونبوتهما بالنسبة للنصارى والمسلمين[5].

ويقول الرازي[6]: والعنانية لا يذكرون عيسى بسوء بل يقولون: (أنه

---

(١) أنظر: شابو، اللغات الأرامية وآدابها ص ٢٥؛ القدس ١٩٣٠م.

(٢) ألف عنان كتاب التفسير لأسفار موسى ومصنفات من العربية والعبرية، توفي سنة ٧٦٥م (غنيمة: **نزهة المشتاق** ص ١٠٤).

(٣) انظر: (The Universal Jewish Ency, Vol. I. p. 293).

(٤) المقدسي: **البدء والتاريخ** ج ٤ ص ٣٤.

(٥) ابن حزم: **الفصل** ص ٩٩، (The Universal Jewish p. 293).

(٦) الرازي: **اعتقادات فرق المسلمين والمشركين** ص ٨٢ ــ ٨٣؛ الشهرستاني: ص ٢١٥.

كان من أولياء الله، وإن لم يكن نبياً، وكان قد جاء لتقرير شرع موسى، والإنجيل ليس بكتاب له، بل الإنجيل كتاب جمعه بعض تلاميذه.

وقد تأثر عنان بالإمام الفقيه أبي حنيفة في مسائل الأخذ بالقياس في استنباط الأحكام[1]، ويقول فرج عنه[2]: (أن عنان أعرض عن الشرع الموسوي، ومال إلى الشرع الإسلامي، فلما توالى الزمن، وازداد بهم تقرباً اقتبسوا منهم كثيراً من العقائد إلى أن لم يبق لهم من التوراة إلا ظلها، فمن ذلك تشددهم في المحارم أكثر من التوراة، فحرموا مثلهم بنات الأخت، وبنات الأخ) وقيل: إن القرائيين يجيزوا الزواج ببنت الأخ، وبنت الأخت، ويمنعها الربانيون، وحجة الأولين، أن بنت الأخت وبنت الأخ لم تذكر حرمتها في التوراة[3].

وتخالف العنانية سائر اليهود في السبت، والأعياد، وينهون عن أكل الطيور والظباء، والسمك والجراد، ويذبحون الحيوان على القفا[4].

ويقول السموأل[5]: (لم يبالغ القرّاءون (العنانيون) في الكذب إلى حد أن يدعوا النبوة، ولا نسبوا أشياء من تفاسيرهم إلى غيرهم، ولا إلى الله بل إلى أحبارهم)، ولذلك فهم لم يتعدوا شرائع التوراة، وما جاء في كتب الأنبياء، ويتبرأون من قول الأحبار، ويكذبونهم[6]، وينكرون التلمود[7].

أما شعائرهم الدينية فإن القرائين (العنانيون) يركعون في صلاتهم، ويسجدون، ويشترطون الطهارة من الجنابة، وقد ورد ذلك في التوراة قوله:

---

(١) انظر: (The Universal Jewish Ency, Vol. I. p. 293).
(٢) انظر: مراد فرج: **اليهودية** ص ١٠٠.
(٣) عبد الوهاب النجار: **قصص الأنبياء** ص ٤٤٠؛ الحسني: **الصابئون** ص ٥٣.
(٤) الشهرستاني: **الملل** ج ١ ص ٢١٥.
(٥) السموأل: **بذل المجهود في إفحام اليهود** ص ٥٩.
(٦) ابن حزم: **الفصل في الملل** ج ١ ص ٩٩.
(٧) انظر: فرج: **اليهودية** ص ١٠٥.

﴿هلم نسجد ونركع ونجثوا أمام الرب خالقنا﴾[1] وقوله: ﴿خروا إلى وجوههم﴾[2] وهم يتفقون والربانيون في صلواتهم، ويرى القراءون أن الأمور كلها تنسب إلى القضاء والقدر، وهم ينفون الإرادة عن العبد قبل الفعل وبعده، فإذا أراد أحدهم طلاق زوجته حرموا عليه جواز تطليقها لأنها مقدرة له من السماء[3].

ويعتقد القراءون بالتناسخ كالمجوس، فهم يقولون: (إن الأرواح البشرية إن كانت سعيدة مطيعة لله تعالى موصوفة بالمعارف الحقة، وبالأخلاق الطاهرة، فإنها بعد موتها تنتقل إلى أبدان الملوك، وربما أنها تنتقل إلى مخالطة عالم الملائكة، وأما إن كانت شقية جاهلة عاصية، تنتقل إلى أبدان الحيوانات، وكلما كانت تلك الأرواح أكثر شقاء واستحقاقاً للعذاب، انتقلت إلى بدن حيوان أخس وأكثر شقاء وتعباً. ويؤمن الربانيون بالتناسخ أيضاً[4].

وقد أباح القراءون القضاء للمرأة بالطلاق على زوجها إذا أبى طلاقها، وربما يحكم القاضي للمرأة بالطلاق، ومن وجهة نظر الربانيين، أن المرأة لا تزال في عصمة زوجها، فتزوجها من غيره تأتي منه بالذرية الحرام[5].

٣ ــ العيسوية:

نسبوا إلى أبي عيسى إسحاق بن يعقوب الأصفهاني، وقيل اسمه عوفيد الوهيم أي (عابد الله)[6]، وتسمى هذه الفرقة أيضاً بـ(المهدوية) فقد ادعى أبو عيسى الأصفهاني ــ من يهود فارس ــ المهدوية، وأعلن نفسه المسيح الخامس والأخير أرسله الله إلى بني اسرائيل ليخلصهم من السبي، وليعيدهم إلى

(١) سورة مزمور: آية ٩٥ ــ ٩٦.
(٢) توراة سفر ٣: آية ٩.
(٣) انظر: فرج: **اليهودية** ص ١٠٤.
(٤) انظر: فرج: **اليهودية** ص ١٣٦.
(٥) المصدر السابق ص ١٤٧ ــ ١٤٨.
(٦) الشهرستاني: **الملل** ج ١ ص ٢١٥.

فلسطين، وادعى أنه أمي، وأن ما جاء به هو وحي من عند الله، واعتبر نفسه المسيح المنتظر، والمخلص لليهود من المنصور، فجمع جيشاً قوامه عشرة آلاف رجل، وثار بهم، ولكنه لم يتمكن من الصمود فانهزم في معركة الري وسقط في المعركة[1]، وزعم أبو عيسى أن المسيح أفضل ولد آدم، وأنه أعلى منزلة من الأنبياء الماضين، وكان يوجب تصديق المسيح، ويعظم دعوة الداعي، ويزعم أيضاً أن الداعي هو المسيح، واعتقد بصحة الديانتين الإسلامية والمسيحية، وعدّهما في حكم اليهودية، وعدّ الإنجيل والقرآن كتابين سماويين ولكنه اعتبر اليهودية هي الديانة الصحيحة اللازمة لليهود، وعلى اليهود أن يتمسكوا بها لأنها ديانة خاصة بهم نزلت فيهم، أما النصرانية، والإسلامية فلسائر الناس[2].

وحرم في كتابه الذبائح كلها، ونهى عن أكل كل ذي روح، طيراً أو بهيمة، وأوجب عشر صلوات على أتباعه، وأمرهم بإقامتها، وذكر أوقاتها، وخالف اليهود بذلك في أحكام التوراة[3].

وقد اعتقد أتباعة أنه حي لم يمت، وأنه اختفى في كهف، وسيظهر ليتم أمر الله، ورسالته إليه بإنقاذ اليهود، وإعادتهم من المنفى، وقد بقيت منهم بقية في أصبهان، ودمشق، والعراق إلى القرن العاشر للميلاد، ثم انقرضت[4].

٤ ــ الربانيون:

وهم كتاب الناموس ومعلموه[5]، ويسميهم ابن حـزم[6] (الأشعنية) القائلون بأقوال الأحبار ومذاهبهم، وهم أكثر عدداً من بقية الفرق اليهودية،

---

(١) الشهرستاني: ج ١ ص ٢١٦، (The Universal Jewish Ency p. 607).

(٢) ابن حزم: **الفصل** ج ١ ص ٩٩؛ الرازي: **اعتقادات** ص ٨٣، (The Universal Jewish Ency p. 604).

(٣) الشهرستاني: **الملل والنحل** ج ١ ص ٢١٦.

(٤) انظر: (The Universal Jewish Ency Vol. 5. p. 604).

(٥) ابن العبري: **تاريخ مختصر الدول** ص ٦٨.

(٦) ابن حزم: **الفصل في الملل** ج ١ ص ٩٩.

وهم شيعة (الحاخاحيم) أو الفقهاء، الذين يزعمون أن الله كان يخاطبهم في كل مسألة بالصوت الذي يسموه (بث قول)، وهذه الطائفة أشد اليهود عداوة لغيرهم من الأمم، لأن أولئك الفقهاء والمفترين على الله قد أوهموهم أن المأكولات، والمشروبات قد شرفهم الله بها دون الأمم، فصار أحدهم ينظر إلى غير اليهودي كما ينظر إلى سائر الحيوانات التي لا عقل لها[1].

وينفرد الربانيون عن غيرهم من طوائف اليهود بشروح موضوعة لفرائض التوراة، وضعها أحبارهم، وتفريعات على التوراة ينقلونها عن موسى[2].

ويستقبل الربانيون صخرة بيت المقدس في صلاتهم ويوجهون لها موتاهم[3]، ويختلف الربانيون، والقراءون في أمرين، أحدهما: القول بالظاهر والجنوح إلى التأويل، فالقراءون يقفون مع ظواهر نصوص التوراة فيحملون ما وضع فيها منسوباً إلى الله من ذكر الصور، والتكلم، والاستواء على العرش، والنزول على طور سيناء. والربانيون: يذهبون إلى تأويل ما وضع في التوراة من ذلك كله، كما تفعل الأشعرية من المسلمين. والأمر الثاني: القول بالقضاء والقدر، فالربانيون يقولون: «بأن لا قدر سابق»، والقراءون يقولون: «بسابق القدر»[4].

ويبدو أن هذا التناقض في عقائد الفرق اليهودية يعود إلى عدم إيمان اليهود بما جاء به موسى، وإلى عدم ثبات عقائدهم الدينية من ناحية، ونظرتهم للدين كوسيلة لتحقيق غاية مادية من ناحية أخرى.

أما النصرانية[5]: وهي الطائفة الثانية من طوائف أهل الذمة، فقد نشأت

---

(١) السموأل: بذل المجهود ص ٥٩.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ج ١٣ ص ٢٥٧.

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق، ج ١٣ ص ٢٥٧ ــ ٢٥٨.

(٥) النصرانية: وقد واختلف في اشتقاقها فقيل: جاءت من قول المسيح للحواريين (من أنصار إلى الله) وقول الحواريين (نحن أنصار الله) وقيل من نزوله هو وأمه بعد عودته من مصر بالناصره (وهي قرية من قرى فلسطين) فهم أمة عيسى وكتابهم الانجيل (القلقشندي: ج ١٣ ص ٢٧١).

في فلسطين حيث بدأ المسيح[1] يبث دعوته بين اليهود، فاستطاع أن يجلب له عدداً من الحواريين، والأتباع، فلما أدرك اليهود أن النبي الجديد يدعو إلى ما يخالف اتجاهاتهم الدينية قاوموه بعنف، وتآمروا عليه بأن سعوا به إلى عامل القيصر على الشام فقتله وصلبه[2]. وبعد زوال المسيح من ميدان العمل الديني ترك نشر المسيحية إلى تلامذته (حواريه) الذين أخذوا يبثون دعوته بحماس، فذهب توماس إلى أرض بابل والمشرق، وإلى أفريقية فيلبس، وإلى أفسوس (وهي قرية أصحاب الكهف) يوحنا، وإلى بيت المقدس يوحنا، وإلى أرض السودان والحبشة متي العشار، وإلى أرض العرب، والحجاز برنلو مارس، وإلى أرض برقة والبربر شمعون القثائي، وقد ذهب بولس، وبطرس إلى رومة لنشر الدعوة هناك[3] ولقيا بعض النجاح هناك خاصة بين الطبقات الفقيرة، ولم تلاق المسيحية اضطهاداً في البداية لأنها كانت بصورة خفية، وهادئة، وأتباعها قليلون لم يلفتوا النظر، ولما توسعت الدعوة وازداد عدد المؤمنين بها، تعرضوا للاضطهادات المتعددة، ويرجع سببها إلى علاقتها باليهودية لأن الكثير من المبادىء التي جاء بها المسيح تشابه ما جاء به موسى، كما أن الوثنيين ممن لم يطلعوا على تفاصيل الخلاف بين اليهودية والنصرانية اعتبروهما ديناً واحداً، ثم أن المسيحية تعترف بملكوت السماوات والأرض، وهي تناقض تعدد الآلهة عند الوثنيين، تلك العقيدة المنتشرة في الشرق، وفي الأمبراطورية الرومانية، كما أن المسيحية لا تعترف بعبادة الأمبراطور، ولا تقر بألوهيته مما جعلها معارضة للدين الرسمي للدولة، وبذلك تعرضت لاضطهادات الدولة الرومانية.

---

(١) المسيح: كلمة عبرية الأصل بمعنى الرجل المختار وقد أطلقها اليهود على الرجل الذي زعموا أنه يأتي آخر الدهر كي يقوم فيهم بدور القائد ويخلصهم مما هم فيه فهو المخلص وهو الذي يقيم مملكة تسع الأرض كلها وقد ورد في القرآن اسم المسيح فقال تعالي: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم﴾ (سورة المائدة: آية ٥) وورد أيضاً باسم عيسى فقال تعالى: ﴿وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله﴾ (مقالة محمد علي ربيع، مجلة العربية ص١٤٧ العدد ١٢٤ ص ١٩٦٩).

(٢) ابن خلدون: العبر ف٢ م٢ ص٢٩٣.

(٣) بان خلدون: العبر ق٢ م٢ ص٢٩٤.

انتشرت المسيحية في الشرق، وخاصة في العراق وفارس، وكان لها أتباع كثيرون في الدولة البارثية التي أبدت تسامحاً تجاههم، وقد أثار هذا التسامح شكوك الرومان، فاعتبروهم عملاء للبارثيين يهددون الأمبراطورية الرومانية، ودينها الوثني، فحرموهم من الوظائف، ومنعوهم من إقامة شعائرهم الدينية، بل تعرضوا أحياناً إلى القتل والسجن والتعذيب، ولكن هذا الاضطهاد لم يمنعهم من نشر تعاليمهم الدينية.

وقد انتشرت النصرانية في العراق في غضون المائة الأولى للميلاد، وأطلقوا على أنفسهم (السريان) تمييزاً لهم من الوثنيين[1]، وقد جاءت النصرانية إلى العراق وفارس من بلاد الشام بدليل أن كلمة (سوريبا) الآرامية التي تعني (النصرانية)[2].

إن معلوماتنا عن نصارى العراق قليلة جداً، إذ لم يلتفت المؤرخون إلى تدوينها، والاهتمام بها إلا في القرون الوسطى، إلا أن بعضهم يذكر أن مار أدي[3] أحد تلامذة المسيح الاثنين والسبعين، وتلميذه مار ماري بشرا في نصيبين والجزيرة والموصل وأرض بابل والسواد، وبلاد العرب، وأرض المشرق في المائة الأولى للميلاد[4].

ويذكر المسعودي[5]: «(ت ٣٤٦هـ / ٩٥٧م) والعباد[6] تذكر أن أول

---

(١) انظر: رفائيل: **تاريخ نصارى العراق** ص ٢ ــ ٣.
(٢) انظر: مجلة المشرق العدد (٣) ص ٨١٧ ــ ٨١٩.
(٣) مار: كلمة آرامية تعني السيد، وتطلق على القديسين والبطارقة والأساقفة.
(٤) أخبار بطاركة كرسي المشرق ص ١ ــ ٥.
(٥) المسعودي: **التنبيه والاشراف** ص ١٤٣، ١٤٨؛ مروج الذهب ج ٢ ص ٣٢٨.
(٦) العباد: نصارى من عدة قبائل، نزلوا الحيرة قبل الإسلام وسبب تسميتهم يعود إلى أن سابور ذا الأكتاف أغار عليهم وقاتلهم فكان شعارهم الاعباد لله فسموا العباد) الأصفهاني؛ الأغاني ج ١١ ص ١٥٦، ابن العبري: **تاريخ مختصر الدول** ص ٣٥٠؛ البكري: **معجم ما استعجم** ص ١٨؛ المسعودي: **التنبيه** ص ١٤٣.

البطاركة[1] السريان الذين نزلوا كرسي المشرق على قديم الأيام بعد صعود المسيح إلى السماء بنحو ثلاثين سنة بعد توما، أحد الاثني عشر أدي السليح[2] وهو أدي بن ماري، الذي نصر أهل المدائن[3]، وديرقني وكسكر وغيرهم من السواد، وبني بيعتين إحداهما بالمدائن عاصمة فارس، والأخرى بدير قني وقبره بها».

أما عقيدة النصارى في الله، وفي المسيح، فيقولون: «أن عيسى بن مريم من أب قديم، وكان اتصاله بمريم تجسد كلمة منه مازجت جسد المسيح، وتدرعت به فكان مجموع الكلمة والجسد إبناً، وهو ناسوتي كلي أزلي قديم، وولدت مريم إلهاً أزلياً، والقتل والصلب، وقع على الجسد، والكلمة، ويعبرون عنها بالناسوت واللاهوت، وأقاموا على هذه العقيدة»[4].

ويقول الشهرستاني[5]: (ت ٥٤٨هـ، ١١٥٣م) لما رفع المسيح إلى السماء اختلف الحواريون، وغيرهم فيه، ويعود هذا الخلاف إلى أمرين:

أحدهما: كيفية نزوله، واتصاله بأمه، وتجسد الكلمة.

والثاني: كيفية صعوده، واتصاله بالملائكة، وتوحد الكلمة.

أما الأول: القائل بتجسيد الكلمة، فاختلفوا فيه، فمنهم من قال: «أشرف على الجسد إشراف النور على الجسم»، ومنهم من قال: «انطبع فيه انطباع النقش في الشمع»، ومنهم من قال: «ظهر به ظهور الروحاني

---

(١) البطاركة: البطارقة: مفردها البطريرك، كلمة يونانية الأصل، معناها رئيس الآباء.

(٢) السليح: كلمة آرامية مأخوذة من شليحا، وتعني الرسول.

(٣) المدائن: كانت مسكن الملوك الأكاسرة الساسانيين وغيرهم، وكان كل واحد منهم إذا ملك بنى لنفسه مدينة إلى جانب التي قبلها وسماها باسمه فأولها المدينة العتيقة ثم مدينة الاسكندر، ثم طيسفون، ثم رومية، وقد سمتها العرب بالمدائن لأنها سبع مدن قريبة من بعض) ياقوت معجم البلدان ج (٤) ص ٤٤٥ ـ ٤٤٦).

(٤) ابن خلدون: **العبر** ق ٢ م ٢ ص ٢٩٩؛ ابن حزم: **الفصل في الملل** ج ٢ ص ٦.

(٥) الشهرستاني: **الملل والنحل** ج ١ ص ٢٢٠.

بالجسماني»، ومنهم قال: «تدرع اللاهوت بالناسوت»، ومنهم قال أيضاً: «مازجت الكلمة جسد المسيح ممازجة اللبن بالماء»، وقالوا: «في الصعود أنه قتل، وصلب قتله اليهود حسداً وبغياً، وإنكاراً لنبوته»، وإن القتل شمل الجزء الناسوتي، وليس الجزء اللاهوتي، كما اختلفوا في نزول المسيح فمنهم يقول: «ينزل قبل يوم القيامة كما قال أهل الإسلام»، ومنهم من يقول: «لا نزول له إلا يوم الحساب. ويزعم بعض النصارى أن الذي تراءى لمريم فنفخ فيها هو الله تعالى، وبعضهم يزعم أن عيسى هو الله نزل من السماء، ودخل في جوف مريم، ثم اتحد بجسد عيسى فلما قتل صعد إلى السماء، وقد أنكر بعضهم أن يولد مولود من غير ذكر وأنثى[1]. فأنكر الله قولهم. بقوله تعالى: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾[2].

وتقوم العقيدة المسيحية على التثليث، وهي ألوهية الله، وألوهية المسيح، وألوهية روح القدس، ويبدو أن تأثر المسيحية بالفلسفات، والاتجاهات السابقة لها، وبالثقافات المجاورة كان لها أثر في هذه الأفكار الدينية[3]، ولذا فإننا نجد أن القديس بولس راح يقرب إلى عقول تلاميذه الفكرة القائلة إلى أن شأن عيسى كشأن أوزيريس: «كان رباً مات ليبعث حياً، وليمنح الناس الخلود[4]، وهكذا وضع بولس بذرة فكرة ألوهية المسيح، وصادفت هذه البذرة والفكرة أرضاً خصبة في عقول الناس وعقول معتنقيها.

وقد فسر النصارى قولهم: «إن الله ثلثة أقانيم، أب، وابن، وروح القدس» على ما يروي لنا المطران ابن شيت[5] قولهم: «لما كانت الكلمة مولودة

---

(١) المقدسي: البدء والتاريخ ج ٣ ص ١٢٢.
(٢) سورة ٥٩ م آل عمران: آية ٣.
(٣) أنظر: شلبي: مقارنة الأديان؛ اليهودية ص ١٠٥.
(٤) انظر: (Ashort History of The World p. 178-179).
نقلاً عن حاشية (١) ص ١٠٤ شلبي: مقارنة الأديان ــ اليهودية.
(٥) المطران إيليا المعروف بابن شيت: كتاب المجالس السبعة (مخطوط) ورقة ٧، ٤٣، ٢٢؛ الكندي: رسالة عبد المسيح ص ٣٢ ــ ٣٥.

من الذات كانبعاث الحياة من النفس، والحرارة من الشمس، سميت الذات أباً، والكلمة إبناً، والحياة روح القدس، وينكر أن يكون لله إبناً»، ويقصد بذلك ابن المباضعة والتناسل فيقول: «أنا لا نعبد إلا إلهاً واحداً لا إله غيره ولا شريك له في الأزلية، ولا مثيل في الذاتية، ولا نظير في الربوبية، . . . وإنه غير جسم، وغير مرئي، وغير مؤلف، وغير محسوس، وغير متحيز. . . لا يشغل حيزاً. . . ولا يحويه مكان، ولا يحصره زمان، قديم بلا ابتداء باقي بلا انتهاء. . . متفرد بالقدرة والكمال. . .».

ورغم هذه الحجج، والتفسيرات التي يشير إليها بعض النصارى، إلا أن أغلبهم يعتقدون بألوهية المسيح، وقد تطرف بعضهم فقالوا: «إنه هو الله، وقد وضح القرآن مقاصدهم، وعقائدهم فقال تعالى: ﴿لقد كفر الذين قالوا: إن الله ثالث ثلثة، وما من إله إلا إله واحد. . . أفلا يتوبون إلى الله، ويستغفرونه إن الله غفور رحيم﴾[1].

وقد أوضح القرآن حقيقة المسيح فقال تعالى: ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم، ولا تقولوا على الله إلا الحق، إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه فآمنوا بالله ورسله، ولا تقولوا ثلثة انتهوا خيراً إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً. لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً﴾[2]

فصريح هذه الآيات ظاهر باللوم على من يقول: «بالتثلثية، ويدّعون لله ولداً، فمنهم من يدّعي ذلك، ومنهم من يعتبر الأبوة والبنوة المجازية كالتي وردت في التوراة، والانجيل، والقرآن.

ويقول وات (Watt)[3]: «إن مفهوم المسيحية بالنسبة إلى التجسيد،

(١) سورة المائدة: آية ٧٧ ـ ٧٨.
(٢) سورة النساء: آية ١٧٠ ـ ١٧١.
(٣) انظر: (Watt, Islam Integration of Society. p. 260).

والثالوث تعتبر أنها تحريف لرسالة إبراهيم الخليل بالنسبة لمفهوم الغفران، وعدم قبول المسلمين لهذه الأفكار لعدم وجود أي دليل أو أثر في القرآن، وإنه غير وارد عند المسلمين».

وإن مـا ورد من استعمال ألفاظ الأبوة عن المسيح فقال: «متى في أنجيله، ينادي يسوع بصوت عظيم، وقال يا أبتاه في يديك أستودع روحي» ويقصدبها هنا بالمسيح الأبوة والبنوة المجازية، وكقوله أيضاً في الاصحاح الخامس من انجيل متى: «طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله» وقوله أيضاً: «. . . وصلوا لأجل الذين يسبونكم لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات»، وقال المسيح مخاطباً اليهود في الاصحاح الثاني من انجيل يوحنا: «أنتم تعلمون أن أعمال أبيكم»، فقالوا له: «إننا لم نولد من زنى لنا أب واحد وهو الله»[١].

وقد وردت في الأناجيل عبارات تقر بتوحيد الله، وأن المسيح بشر ورسول فمما جاء في انجيل متى: «هذا يسوع النبي الذي من ناصرة الجليل»[٢] ويروي متى عن عيسى قوله: «إن أباكم واحد الذي في السموات»[٣] ويروي مرقص قول عيسى: «الرب إلهنا إله واحد وليس آخر سواه»[٤] وروى لوقا في انجيله: «قد خرج فينا نبي عظيم»[٥]، وروى يوحنا: «إن هذا هو بالحقيقة النبي الآتي إلى العـالم»[٦]، وروى يـوحـنـا أيضـاً: «إني أصعـد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم»[٧]. فهذه أدلة ناطقة من فم المسيح، وأفواه حواريه تثبت وحدانية الله، وأن عيسى رسوله. فقد جاء في دائرة المعارف البريطانية مانصه «ولم يدع عيسى

---

(١) أيوب صبري: **رسالة في الرد على النصارى** (مخطوط) ورقة ٦ و. ظ.
(٢) انجيل متى، اصحاح ٢١، آية ١١.
(٣) انجيل متى، اصحاح ٢٣، آية ٨.
(٤) انجيل مرقص، اصحاح ١٢، آية ٣٠ ــ ٣١.
(٥) انجيل لوقا، اصحاح ٧، آية ١٦.
(٦) انجيل يوحنا، الاصحاح ٦، آية ١٤، الاصحاح ٧، آية ٤٠.
(٧) انجيل يوحنا، الاصحاح ٢٠، آية ١٨.

قط أنه من عنصر فوق الطبيعة، ولا أن له طبيعة أسمى من طبيعة البشر، وكان قانعاً بنسبة العادي إبناً لمريم منسوباً من جهة الأب إلى يوسف النجار»[1].

فلو رجعنا إلى انجيل متى، وانجيل لوقا لوجدناهما ينسبان للمسيح نسبة بشرية، ووجدنا مرقص ويوحنا ينسبان للمسيح نسبة إلهية، ووجدنا أن المسيح يقول: عن ذاته في مواضع عدة «إنه ابن البشر»[2].

وأما عقائد النصارى في الوحي، فيعتقدون أن الوحي هو الشيء الجديد الذي يوحي به، وهذا الشيء الجديد هو الإيمان بالمعنى وليس باللفظ، وهذا يفسر تعدد الأناجيل، لأن الانجيل موحى بمعناه وليس بلفظه، وكذلك يعتقدون بالإلهام بالنسبة للأنبياء وحتى الأفراد[3].

وتؤمن المسيحية بالحياة الأخرى، فعندهم ملكوت الرب والحياة الأبدية للنعيم، وعندها كذلك جهنم والظلمة والعذاب والنار، ثم إنهم يؤمنون بيوم الدين (يوم يأتي ابن الإنسان مع ملائكة الله)[4]. وقد وردت آيات في الأناجيل تذكر البعث بعد الموت، فقد جاء في الاصحاح السادس عشر من انجيل متى، قال يسوع لتلاميذه: «الحق أقول لكم أنه يعسر أن يدخل غني إلى ملكوت السموات»، وأقول لكم أيضاً: « إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله»[5]. وورد في انجيل لوقا «وينادي بالقيامة للأبرار فقط»[6]، ويرد في انجيل متى: «إن القيامة تكون للأبرار والمنافقين»، فيقول:

---

(١) انظر: (The Eney of Britanica Vol, 5 p. 636).

(٢) انظر بولص الراهب، مقاله في الفرق النصرانية، ص٦.

(٣) هذا الرأي طرحه رئيس دير ماربهنام في الموصل عند سؤالنا عن كيفية نزول الانجيل على السيد المسيح. وكذلك نيافة الأسقف اغريغوريوس أسقف الدراسات العليا والبحث العلمي في (دير الانبا رويس بالعباسية القاهرة في ٢٧/٩/١٩٧١).

(٤) انظر: سيد قطب: **مشاهد القيامة في القرآن** ص ٣٤٠.

(٥) انجيل متى، الاصحاح ١٩، آية ٢٣.

(٦) انجيل لوقا، الاصحاح ٥، آية ٩.

«بل للمنافقين أيضاً لأن هؤلاء يلقون بأجسادهم في جهنم»[1]، ويبدو أنهم يؤمنون بعذاب الجسم وليس بعذاب الروح، ويرد أيضاً في انجيل متى: «فيخرج الذين عملوا الصالحات إلى قيامة الحياة، والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة»[2].

ويقول (Watt)[3]: «قل بين المسيحيين من يعترف بأن ما ذهبت إليه المسيحية في البعث والحياة الآخر إنما يرجع إلى المزدكية، ومع هذا فمن العسير عليهم رفض هذه القضية»، ويؤيد ماساني (Massani) ما ذهب إليه (Mills) حين يقول ما خلاصته: «لقد شاءت القدرة الإلهية أن نأخذ بعضاً من أهم أركان ديننا الكاثوليكي عن دين زرادشت، وذلك بنقل هذه الأركان إلى دين اليهود ومنه إلى ديننا... فقد أمده بآراء مثل البعث والخلود، وأهم فكرة أخذها الإنجيل عن الزرادشتية هي أن الفضيلة تتضمن في ذاتها ثواباً، وأن الرذيلة هي بذاتها عقاباً لمرتكبها».

وأما قسمهم، فهم يحلفون بالله والمسيح والقربان[4]، والمعمودية، ويكرمون الصليب، ويلثمونه، ويعلقونه في أعناقهم، ويمسحون أيديهم به تبركاً[5].

ومن شعائر النصرانية: التعميد: وهي من الفرائض المقدسة التي وضعها المسيح فقد جاء في انجيل متى: «تقدم يسوع وكلمهم قائلاً... فاذهبوا، وتلمذوا جميع الأمم، وعمدوهم باسم الرب، والابن، وروح القدس»[6]،

---

(1) انجيل متى، الاصحاح ٥، آية ٢٩ ـ ٣٠.

(2) انجيل متى، الاصحاح ٥، آية ٢٨.

(3) الخشاب: **التقاء الحضارتين** ص ٧١ نقلاً عن حاشية (١).

(4) انظر: النصرانية وآدابها ج ١ ص ٢٠٩ ـ ٢١٠.

(5) الأصفهاني: **الأغاني** ج ٢ ص ٢٤، ٣١؛ ج ٨ ص ٨١ ـ ٨٢؛ ج ١٧ ص ١٢٩، النصرانية وآدابها ج ٢ ص ٤٦٧؛ شعراء النصرانية ج ٢ ص ٤٥٢ ـ ٤٥٣.

(6) انظر: محمد أبو زهرة: **محاضرات في النصرانية** ص ١٢٠.

ويسمون هذا العمل المعمودية[1]. والتعميد يعمل به عند تنصير أولادهم، فيغمسونهم في الماء، ويقرأون عليهم شيئاً من كتابهم، ويزعمون أنه ينزل عليه روح القدس[2] ويعتقدون أن في ذلك تطهير النفس من أدران الخطيئة.

ويقول شلبي[3]: «إن التعميد كان موجوداً قبل المسيحية عند اليهود، وكان يحي يعمد الناس في نهر الأردن، ولذلك سمي (يوحنا المعمدان)، كما قام يحي نفسه بتعميد المسيح»، واختلف في أوقات التعميد، فقيل: «يعمد المولود عند الولادة، أو في أي وقت من حياته، أو على فراش الموت لإزالة السيئات، وتطهير الإنسان من الذنوب»، ولكن الشائع حديثاً أن المولود يعمد بعد اليوم السابع من ولادته، على ما يرويه النصارى، ويقول الأب لويس الياس عن سر المعمودية: «إنها تمحو الخطيئة الاصلية في النفس وتلدها ثانية»[4].

ومن الشعائر الدينية الأخرى الواجب العمل بها (العشاء الرباني) وهو العشاء الأخير للمسيح مع تلاميذه، فقد جاء في رسالة بولس ما نصه: «أن الرب يسوع في الليلة التي أسلم فيها أخذ خبزاً فكسره وقال: «خذوا، وكلوا هذا هو جسدي المكسور لأجلكم اصنعوا هذا لذكري»، كذلك ذكر الكأس أيضاً بعدما تعشوا قائلاً: «هذه الكأس، هي العهد الجديد بدمي اصنعوا هذا كلما شربتم لذكري فإنكم أكلتم هذا الخبز، وشربتم هذا الكأس تخبرون بموت الرب إلى أن يجيء»[5]، فالخبز يشير إلى جسد المسيح أو لحمه، والخمر يشير إلى دمه.

ومن شعائر النصارى تقديس الصليب وحمله، وقد ورد ذكره قبل صلب المسيح، فقد قال المسيح: «إن أراد أحد أن يأتي ورائي فلينكر نفسه، ويحمل صليبه ويتبعني»[6] ومعناه الاستعداد للتضحية، والفداء في سبيل الدين. ثم رمز

---

(١) المقدسي: البدء والتاريخ ج ٤ ص ٤٦.
(٢) المقدسي: البدء والتاريخ ج ٤ ص ٤٦.
(٣) انظر: شلبي: مقارنة الأديان: اليهودية ص ١٢٦.
(٤) انظر المرجع السابق ص ١٢٧.
(٥) انظر: محمد أبو زهرة: محاضرات في النصرانية ص ١٢٠؛ شلبي: مقارنة الأديان ص ١٢٨.
(٦) شلبي: مقارنة الأديان: اليهودية ص ١٢٩.

فيما بعد إلى تضحية المسيح بصلبه على الصليب، وأصبح ذكرى تذكر المسيحيين بالتضحية العظمى التي قام بها المسيح من أجل البشرية.

ويصلي النصارى سبع صلوات، ويسمونها صلوات الأوقات، وهي صلاة الليل، والغداة، والسحر، والظهر، والعصر، والغروب، (بين العصر والعشاء) وصلاة الشفع (صلاة العشاء) وصلاة النوم (قبل النوم)[1] والسجود في صلاتهم غير محدود، وقد يسجدون في الركعة الواحدة خمسين سجدة، وينكرون على المسلمين، وعلى اليهود الوضوء، ويقولون الأصل طهارة القلب[2].

وقبلتهم المشرق، وحجهم إلى بيت المقدس، وزكاتهم العشر من جميع أموالهم، وصيامهم خمسون يوماً، ويسمونه (الصوم الكبير) ويكون اليوم الثاني والأربعون منه عيد الشعانين، ويعتقدون أنه هو اليوم الذي نزل فيه عيسى بن مريم من الجبل، ودخل بيت المقدس[3]، وصوم العذراء، وهو ثلاثة أيام أولها يوم السبت الكائن بعد كانون الثاني[4].

وأما أحكامهم في الحلال والحرام فيحرمون لحم الجمل، ولبنه، والصوم يوم الفصح الأكبر، والجماع في الصوم، والتزوج بأكثر من زوجة واحدة، أو بامرأتين في قرن واحد، ويحرمون الطلاق إذ لا فراق إلا بالموت[5].

وحدودهم الرجم للمحصن والمحصنة، والقتل العمد، والواجب على قاتل الخطأ أن يهرب، ويلعن اللواطي، والشاهد الزور، والمقامر، والزاني والسكير[6] وتبدو أحكامهم تشابه أحكام التوراة.

---

(١) أبي الوردي: **تاريخ** ج ١ ص ٧٩؛ المقدسي ج ٤ ص ٤٦؛ القلقشندي ج ١٣ ص ٢٨٤؛ رسالة عبد المسيح الكندي ص ٧.

(٢) ابن الوردي: **تاريخ** ج ١ ص ٧٩؛ القلقشندي ج ١٣ ص ٢٨٤.

(٣) المقدسي: **البدء والتاريخ** ج ٤ ص ٤٧؛ برصوم اللؤلؤ المنثور ص ٩٤.

(٤) القلقشندي: **صبح الأعشى** ج ١٣ ص ٢٨٥.

(٥) نفس المصدر السابق، المقدسي: **البدء والتاريخ** ج ٤ ص ٤٨.

(٦) المقدسي: **البدء والتاريخ** ج ٤ ص ٤٨.

ولا يختن النصارى رغم أن المسيح قد اختتن[1]. كما لا يغتسل النصارى من الجنابة مدعين أنها لا رائحة نتنة منه، بل يتولد منها إنسان يكون منه النبي المرسل، والملك، والحكيم، والعبد الصالح[2].

وقد حرمت الشريعة المسيحية الربا، فقد ورد في الإنجيل: «إذا اقترضتم لمن تنتظرون منهم المكافأة، فأي فضل يعرف لكم، ولكن.. افعلوا الخيرات، واقرضوا غير منتظرين عائدتها... وإذا يكون ثوابكم جزيلاً»[3]، وقد أجمع رجال الكنيسة، ورؤسائها، ومجامعها على أن التعليم الصادر من المسيح يعد تحريماً قاطعاً للتعامل بالربا[4] ولكنهم أخذوا بمرور الزمن يغضون النظر عنه ويتساهلون فيه، ويتعاملون به مع غيرهم من أصحاب الأديان.

لقد كان الخلاف بين رجال الكنيسة في القرون الأولى حول طبيعة المسيح، أثره في إثارة المناقشات، التي أدت إلى ظهور الفرق المسيحية، وكانت انطاكية أولى المدن المسيحية التي قام زعماء الدين فيها بأول حركة من تلك الحركات الفكرية في الدين المسيحي، ولعل أهم قضية ثار حولها الخلاف والنقاش بين رجال الكنيسة، هي طبيعة المسيح، وعلاقته بالإله، وزعموا أن عيسى بن مريم من أب قديم، وكان اتصاله بمريم تجسد كلمة منه مازجت جسد المسيح، وتدرعة به فكان مجموع الكلمة والجسد إبناً، وهو ناسوتي كلي أزلي قديم، وولدت مريم إلهاً أزلياً[5]. فانقسموا في تحديد طبيعة المسيح وأبوته إلى فرق أهمها:

١ ــ الاريوسية:

فقد ادعى الأسقف آريوس أنه رغم المكانة السامية التي يحتلها المسيح فهو بشر مخلوق محدث محدود بالزمان والمكان له طبيعة إنسانية ممتازة[6].

---

(١) رسالة عبد المسيح الكندي: ص ٩٩ ــ ١٠٠؛ المقدسي: ج ٤ ص ٤٦.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) انجيل لوقا، الاصحاح ٦، آية ٣٤، ٣٥.

(٤) انظر: الغزالي: **نظرات في القرآن** ص ٢٠٦.

(٥) ابن خلدون: **العبر** ق ٢ م ٢ ص ٢٩٩.

(٦) ابن حزم: **الفصل** ج ١ ص ٤٨؛ القلقشندي: ج ١٢، ص ٢٧٥.

ويقول الشهرستاني[1]: (ت ٥٤٨هـ / ١١٥٣ م) وزعم آريوس أن الله واحد سماه أباً، وأن المسيح كلمة الله، وابنه عن طريق الاصطفاء، وهو مخلوق قبل خلق العوالم، وهو خالق الأشياء. وقد أخذ آريوس ينشر آراءه، واستطاع أن يجلب إليه بعض الأتباع ممن دان برأيه مما أثار بقية رجال الدين ضده، فحرضوا قسطنطين عليه، فدعا إلى عقد مجمع كنسي في نيقية سنة ٣٢٥ م، دارت فيه مناقشات طويلة تقرر في نهايتها أن المسيح هو ابن الله، ومن جوهره، وعنصره، وأما من يعتقد بغير ذلك كافر، واتفقوا على إصدار قرار نورده نصا «نؤمن بالله الأب مالك كل شيء، وصانع ما يرى، وما لا يرى، وبالرب الواحد يسوع المسيح بكر الخلائق كلها، وليس بمصنوع إله حق من إله حق من جوهر أبيه الذي بيده أتقنت العوالم، وخلق كل شيء الذي من أجلنا معشر الناس، ومن أجل خلاصنا نزل من السماء، وتجسد من روح القدس، وصار إنساناً، وولد من مريم البتول، وآلم وصلب أيام فيلاطوس بلاطش، ودفن، وقام في اليوم الثالث كما هو مكتوب، وصعد إلى السماء، وجلس عن يمين الأب وهو مستعد للمجيء تارة أخرى للقضاء بين الأموات، والأحياء، ونؤمن بروح القدس الواحد روح الحق الذي هو مشتق من أبيه روح محبة، وبمعمودية واحدة لغفران الخطايا، وبجماعة واحدة قدسية سليحية جاثليقية، وبقيامة أبداننا، وبالحياة الدائمة إلى أبد الآبدين»[2].

ولا ريب أن هذا القرار كان صدمة لأتباع الاريوسية، ولكنه لم يقض عليهم، بل دفعهم إلى المثابرة لبث دعوتهم فانتشرت في مصر، وسوريا، وآسيا الصغرى حتى أنها (الاريوسية) لقيت رعاية وتسامح من بعض الأباطرة الذين تلوا قسطنطين، فتوسعت عقيدتهم، وانتشرت في أوروبا رغم الاضطهاد.

٢ ـ النسطورية:

وكان من أكبر المؤيدين للأريوسية راهب انطاكي يقال له (نسطوريوس)

---

(١) الشهرستاني: **الملل والنحل** ج ١ ص ٢٢٧.

(٢) ابن حزم: **الفصل في الملل** ج ١ ص ٥٤ ـ ٥٥؛ ابن خلدون: **العبر** ق ٢ م ٢ ص ٣٠٠ ـ ٣٠١؛ القلقشندي: ج ١٣ ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦.

الذي كان بطريكاً للقسطنطينية عام ٤٢٨ م، وقد تبع تأييد نسطوريوس لهذه الفكرة أن أخذ يدعو لعقيدته التي ترى أن المسيح لـه طبيعتان مستقلتـان منفصلتان إحداها: لاهوتية، والأخرى ناسوتية، وإن الطبيعة اللاهوتية تقيم في جسد المسيح، ويرى أيضاً: «أن السيدة مريم هي أم المسيح الإنسان، وليس أم الإله، وأصبحت مجرد سيدة ولدت إنساناً فيه روح الله، بعد أن كانت عندهم من القديسين»[١].

ويبدو أن عقيدة نسطور هذه كانت محاولة للعودة بالمسيحية إلى التوحيد. فقال نسطور شارحاً مذهبه: «إن مريم لم تلد إلهاً لأن ما يولد من الجسد ليس إلا جسداً، ولأن المخلوق لا يلد الخالق، فمريم ولدت إنساناً، ولكن كان إله وآية، وعلى هذا فمريم لا تسمى والدة الإله، بل والدة المسيح الإنسان، وقد جاء اللاهوت لعيسى بعد ولادته أي اتحد عيسى بعد الولادة بالاقنوم الثاني اتحاداً مجازياً في المشيئة لا في الذات»[٢] وعلى هذا الأساس بنى نسطور عقيدته، وقال: «أن للمسيح طبيعتين، بشرية، وإلهية»، فيقول بولص[٣] الراهب «أن النسطورية يعتقدون في المسيح أنه أقنوم واحد إلهي، وطبيعة واحدة إلهية، وفعل واحد إلهي، ومشيئة واحدة إلهية» ومن النسطورية من يقول: «إن الإله واحد، وإن المسيح ابتدأ من مريم، وأنه عبد صالح مخلوق خلقه الله تعالى وسماه إبناً على التبني لا على الولادة والاتحاد»[٤] وهم يقولون: «في قتل وصلب المسيح أنه وقع على المسيح من جهة ناسوته لا من جهة لاهوته»[٥].

أما الكنائس الشرقية فقد اتخذت موقفاً معارضاً لنسطورس وقالت بطبيعة المسيح الواحدة، وهي الطبيعة الإلهية. وقد لقيت آراء نسطورس مقـاومة

---

(١) انظر: داود: **مختصر المختصر في تواريخ الكنيسة** ص ١٥٥؛ القلقشندي: ج ١٣ ص ٢٨٠.
(٢) ابن حزم: **الفصل في الملل** ج ١ ص ٤٩؛ ابن خلدون: **العبر** ق ٢ م ٢ ص ٣٠٤.
(٣) انظر: **بولص الراهب مقالة في لنصرانية** ص ٥.
(٤) القلقشندي: **صبح الأعشى** ج ٣ ص ٢٨١.
(٥) الشهرستاني: **الملل والنحل** ج ١ ص ٢٢٥.

شديدة، باعتباره ينتقص من قدر المسيح، والسيدة مريم، ولتفادي استمرار النزاع وتطوره، قرر الأمبراطور عقد مجمع يضم مائتين من الأساقفة في أفسوس سنة **٤٣١** م. تقرر فيه أن عقيدة نسطور باطلة وكفر، فتبرأوا منه ولعنوه، وعزل من منصبه، ونفي إلى صعيد مصر، وظهرت مقالته في نصارى المشرق في العراق وفارس والجزيرة والموصل إلى الفرات[١].

وقد حاول نصارى العراق، وخاصة أهل الحيرة التقرب من ملوك آل ساسان، ومما زاد من هذا التقرب تدينهم بالمذهب النسطوري، فأعلنت الدولة الساسانية حمايتها للنسطورية، وعضدتها في بلاد العراق وفارس، وذلك بغضاً لملوك الروم الذين كانوا يتقلبون حيناً مع العقيدة اليعقوبية، وحيناً مع الكنيسة الكاثوليكية، ومع هذا فلم يكن كل ملوك الفرس ممن حموا النصارى في العراق، فقد تعرضوا لاضطهاداتهم، فكان بهرام عدواً للنصارى فامتحنهم وصادرهم، وقتل كثيرين منهم[٢].

٤ ــ اليعقوبية:

إن أصل اليعقوبية يرجع إلى صاحبهم يعقوب البردعاني راهب القسطنطينية فقال: (انقلبت الكلمة لحمًا ودماً فصار الإله هو المسيح)[٣].

ويقول ابن حزم[٤]: (ت ٤٥٦ هـ/١٠٦٣م)، (أن اليعقوبية قالت أن المسيح هو الله، وأن الله مات، وصلب، وقتل، وأن العالم بقي ثلاثة أيام بلا مدبر، والفلك بلا مدبر، ثم قام، ورجع كما كان، وأنه كان في بطن مريم محمولاً به). وقد أشار الله إلى كفرهم بقوله تعالى: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم﴾[٥]، وقال تعالى مخاطباً المسيح: ﴿وإذا قال الله

---

(١) ابن خلدون: **العبر** ص ٣٠٥؛ ابن الأثير: **الكامل** ج ١ ص ١٩٠؛ **مختصر المختصر في تواريخ الكنيسة** ص ١٥٩؛ المسعودي: **التنبيه والاشراف** ص ١٤٨.

(٢) انظر: شيخو: **النصرانية وآدابها** ص ٨٧.

(٣) أبي الوردي: **تاريخ** ج ١ ص ١٧٩.

(٤) ابن حزم: **الفصل في الملل** ص ٤٩؛ القلقشندي: ج ١٣ ص ٢٧٨.

(٥) سورة ١٧ م المائدة: آية ٥.

يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾[1].

ويقول آخرون: أن (اليعقوبية هم أتباع يعقوب البرداعي، وهم الذين يقولون أن المسيح ذو طبيعة واحدة قد امتزج فيه عنصر الإله بعنصر الإنسان، وتكون من الاتحاد طبيعة واحدة جامعة بين اللاهوت، والناسوت، ولذلك سمي مذهبه (المنوفست) ذو الطبيعة الواحدة). وأن هذا الاتحاد، هو كاتحاد الماء والخمر فيصيران شيئاً واحداً[2].

ومن اليعقوبية من يقول: (أن الكلمة لم تأخذ من مريم شيئاً لكنها مرت بها كمرور الماء بالميزاب، وأما ما ظهر من شخص المسيح في الأعين هو كالخيال، والصورة في المرآة، وأن القتل والصلب إنما وقع على الخيال)[3].

ويقول أبو زهرة[4]: (أن يعقوب لم يكن مبتدع ومنشىء هذا المذهب إلا أنه كان من أنشط دعاته فقد سبق يعقوب في هذا ما أعلنه سيريل بطريرك الاسكندرية في منتصف القرن الخامس الميلادي، والذي بسببه انعقد مجمع خلقدونية عام ٤٥١م، وقرر أن للمسيح طبيعتين لا طبيعة واحدة، ولا يمكن أن يختلطا أو ينقسما، وأن المنوفستيين مخطئون بالاعتقاد بالطبيعة الواحدة، وسبب ذلك القرار، انفصال الكنيسة المصرية عن الكنيسة المارونية، أما يعقوب فقد وجد في القرن السادس الميلادي حيث أعاد هذه الشيعة ورتبها.

ويبدو أن الاختلاف بين الفرق المسيحية كان قائماً على عدم تحديد صفة وكيفية الاتحاد بين الطبيعتين اللاهوتية والناسوتية، فالنسطورية تقول: (كاتحاد الماء في الزيت) واليعاقبة: (كاتحاد الماء بالخمر)، والملكانية: (الكاثوليك)

---

(١) سورة ١١٦ م: المائدة آية ٥.

(٢) ابن حزم: **الفصل في الملل** ج ١ ص ٥٣؛ بولص الراهب: **الفرق النصرانية** ص ٥؛ الرازي: **اعتقادات** ص ٥٤؛ مختصر المختصر في تواريخ الكنيسة ص ١٨٥.

(٣) الشهرستاني: ج ١ ص ٢٢٧؛ القلقشندي: ج ١٣ ص ٢٧٩.

(٤) انظر: أبو زهرة: **محاضرات في النصرانية** ص ١٥٦؛ ابن خلدون: **العبر** ق ٢ م ٢ ص ٣٠٥ ــ ٣٠٦.

(كاتحاد النار في الصفيحة المحماة)[1] أي أنه اتحاد ظاهري خارجي لا جوهري.

وخلاصة عقائد هذه الفرق، فالكاثوليكية (الملكانية) تقول في طبيعة المسيح: (إنه قنوم واحد وطبيعتان وفعلان فهو يأخذ من السيدة مريم أقنوماً بل طبيعة بشرية، وصار قنومه قنوماً لها، لتكون الطبيعتان الإلهية والبشرية قد اتحدتا في قنوم واحد)، والنسطورية تعتقد أن المسيح قتومان، إلهي وبشري وطبيعتان، إلهية وبشرية وفعل واحد إلهي ومشيئة واحدة إلهية، يوجب في هذه الحالة ابنين اثنين، شخصين ومسيحيين، وتقول اليعقوبية: (طبيعة واحدة إلهية، وفعل واحد إلهي، ومشيئة واحدة إلهية) فإنهم يوجبون بهذا الرأي أن إلههم مات ودفن وبقي في المقبرة ثلاثة أيام، ودخل على الطبيعة الإلهية الألم). فالنسطورية جزءوا المسيح، وقسموه، واليعاقبة مزجوه امتزاجاً فاسداً بقولهم: طبيعة واحدة من طبيعتين، فجعلوه لا إلهاً ولا إنساناً مثل اتحاد الخل والعسل اللذين إذا امتزجا استحال كل منهما عن طبيعته، فيكون الخل غير طبيعة خل، والعسل غير طبيعة عسل، ولا تقوم كل واحدة من الطبيعتين بذاتها بل فقدتا وصارتا طبيعة ثالثة تختلف عن الطبيعتين الأصليتين التي نشأت منهما الطبيعة الثالثة[2].

وأن ما قاله المسيح ليؤكد أنه بشر فقال لتلامذته: (إني صاعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم) وهذا القول يوضح به أن (الله) أبوه وأبوهم، وقوله: (إلهي وإلهكم) يدل أيضاً على طبيعة المسيح البشرية المخلوقة مثل طبيعة البشر، وقد أوضح ذلك وهو على الصليب بقوله: (إلهي إلهي لماذا أهملتني)[3].

والعقيدة المسيحية تقوم على: (أن المسيح هو الابن الذي نزل من السماء وتجسد وولد، وقتل، ودفن ثم نهض، وصعد إلى السماء)، فهل أن المسيح قبل أن ينزل من السماء أمخلوقاً كان أو غير مخلوق، فإن قالوا كان مخلوقاً فقد تركوا

---

(١) ابن حزم: **الفصل في الملل**، ج ١ ص ٥٣.

(٢) أنظر: بولص الرابع: **مقالة في الفرق النصرانية** ص ٧ ــ ٩.

(٣) ابن حزم: **الفصل** ج ١ ص ٥٦؛ بولص الراهب: **الفرق النصرانية** ص ٩.

قولهم لا سيما إن قالوا: ليس هو غير الابن بل يصير الأب، وروح القدس مخلوقين، وإن قالوا: كان قبل أن ينزل غير مخلوق قيل لهم فقد صار مخلوقاً إنساناً، وهذا تناقض واضح(1) في عقيدتهم بالمسيح.

وتقول النسطورية، والكاثوليك (الملكانية) أن الموت، والصلب، وقع في المسيح على الناسوت، فمعنى ذلك إنما مات نصفه، وصلب نصفه فقط لأن اسم المسيح واقع على اللاهوت والناسوت(2).

لقد لجأت الفرق المسيحية إلى الفلسفة االيونانية لتستعين بها على الجدل فيما بينها، ولتؤيد تعاليمها وعقائدها أمام الوثنيين، والمسيحيين معاً، فكان كثير من رجال الدين فلاسفة كالأب أوغسطينوس (٣٥٤ ــ ٤٣٠م) وكانت الاسكندرية هي المركز الجغرافي لمزج الدين بالفلسفة وأصبحت مجمع المذاهب الفلسفية والطوائف الدينية(3).

أما في العراق فقد انتشرت العقيدة النسطورية (السريانية فيما بعد) التي تقول: (إن للمسيح طبيعة واحدة. بين العرب من نجران وتغلب، ومعد، وكلب، ولخم وغيرهم، وكان البطاركة ينصبون لكل قبيلة أو أكثر أسقفاً، ودعي بعضهم بأساقفة المضارب لكونهم يرافقون القبائل العربية في تنقلها)(4).

وقد لعبت الانقسامات الطائفية بين النصارى دورها في ضعف المسيحية في العراق، فظهرت النسطورية، ودان بها أعداد من النصارى، ثم قامت بأثرهم اليعقوبية، وانتشرت انتشاراً عظيماً في بلاد الجزيرة وغيرها من أنحاء العراق، فانقسم العراق من حيث توزيع الطوائف المسيحية إلى قسمين: الأول، يمثل القبائل الواقعة شرقي الموصل حتى الخليج العربي، وتدين بالمذهب

---

(1) ابن حزم: **الفصل في الملل والأهواء والنحل** ج ١ ص ٥٦.
(2) ابن حزم: **الفصل في الملل** ص ٦٢.
(3) انظر: أحمد أمين: **فجر الإسلام**، ص ١٥٥ ــ ١٥٦.
(4) انظر: فيليب دي طرازي: **عصر السريان الذهبي** ص ١٦.

النسطوري، في حين كان القسم الآخر، ومقامهم على الأخص في غـرب الموصل، وفي ديار ربيعة إلى جهات الرها، وتخوم حلب وحمص وحماة تتبع المذهب اليعقوبي، وقد احتدمت الخصومات الطائفية بين الفرق المسيحية مما أدى إلى ضعفها وتقهقرها[1].

وأما الصابئة[2]: فقد اختلف في أصل عقائدهم: فقيل، إنهم قوم بين اليهود والمجوس وليس لهم دين، وقال آخرون: الصابئة قوم يعبدون الملائكة، ويصلون إلى القبلة ويقرأون الزبور، وقيل: الصابئون أهل دين من الأديان كانوا بجزيرة الموصل يقولون: لا إله إلا الله، وليس لهم عمل، ولا كتاب، ولا نبي إلا قول: لا إله إلا الله، وقال أبو سعيد الاصطخري: ليسوا من النصارى، ولا يجوز إقرارهم على دينهم لأنهم يقولون: إن الفلك حي ناطق، وأن الكواكب السبعة آلهة، فهم في حكم عبدة الأوثان[3].

وقيل: ان دينهم يشبه دين النصارى، إلا أن قبلتهم نحو مهب الجنوب،

---

(١) انظر: شيخو: **النصرانية وآدابها** ص ٨٦؛ روفائيل: **تاريخ نصارى العراق** ص ١٦.

(٢) الصابئة: لغة، صبأ الرجل إذا مال وزاغ فبحكم ميل هؤلاء عن سنن الحق، وزيغهم عن نهج الأنبياء قيل لهم صابئة (الشهرستاني ج ٢ ص ٥) وأطلقت على كل خارج من دين كان عليه إلى آخر غيره تسميه العرب صابئاً. يقال: صبأ فلان يصبأ صبأ، ويقال صبأت النجوم إذا طلعت، وصبأ علينا فلان إذا طلع (ابن القيم الجوزية، أحكام ص ٩٣)، وكان يقال للرجل إذا أسلم في زمن النبي محمد قد صبأ عنواً انه خرج من دينه إلى دين آخر كما تصبأ النجوم أي تخرج من مطالعها (ابن منظور، لسان العرب ج ١ ص ١٠٢ ــ ١٠٣) وكان بنو جذيمة يقولون: لما أسلموا صبأنا صبأنا) (ابن كثير، البداية والنهاية ج ٢ ص ٢٩٦) وفي المصباح المنير (وصبأ من دين إلى دين يصبأ مهموز بفتحتين خرج فهو صابىء ثم جعل هذا اللقب علمًا على طائفة من الكفار يقال: انها تعبد الكواكب في الباطن، وتنسب إلى النصرانية في الظاهر، وهم الصابئة ويقال ان اسم الصابئة مأخوذ من السابحة وسموا به لكثرة الاغتسال في شعائرهم وملازمتهم شواطىء الأنهار من أجل ذلك (العقاد، أبو الأنبياء ص ١١٢) وتؤيد الليدي دراوور تسمية الصابئة من فعل صبأ بقولها لما كان الشعار الديني الرئيسي للصابئة هو الارتماس بالماءالجاري، وان طهارتهم اليومية تمارس عن طريق الاغتسال في الماء، والتي تسمى بلغتهم (مصبته) أي التعميد ترجح لدينا أن التسمية (صابئي) مأخوذة من فعل (صبأ) الأرامي ومعناه يرتمس ويتعمد (دراوور الصابئة المندائيون ص ٨).

(٣) ابن القيم الجوزية، أحكام أهل الذمة ص ٩٢ ــ ٩٣.

ويزعمون أنهم على دين نوح[1] ومنهم من يدعي أنهم على دين صابىء بن شيت بن آدم[2] ويقول زويمر[3]: (ان الديانة المسيحية اتصلت ببقية الكلدانيين فنشأ منهم مسيحيو مار يوحنا في البصرة وهم الصابئون).

ويقول البيروني[4]: (ت ٤٤٠ هـ/١٠٤٨م) ولم يكونوا من دينهم بمكان معتمد، فسمعوا أقاويل المجوس، وصبوا إلى بعضها، فامتزجت مذاهبهم من المجوسية، واليهودية، ويوجد أكثر هذه الطبقة بسواد العراق... وهذا الاسم أشهر بهم من غيرهم، وإن كانوا تسموا به في الدولة العباسية سنة **٢٢٨** هـ، ليعدوا في جملة من يؤخذ منه الجزية، ويرعى له الذمة، وكانوا قبلها يسمون الحنفاء والوثنية الحرانية ويقول جواد علي[5] فيهم: إن منهم عبدة الكواكب، ولهم هياكل هي بالنسبة لهم كالبيع بالنسبة لليهود، والكنائس بالنسبة للنصارى، وفريق اعتبرهم من أصحاب ديانة بابل وآشور، وهي من أقدم الديانات الوثنية لأن أساسها عبادة النجوم، وفيها من الشعائر ما يتصل بديانة بابل[6].

ويقول الزمخشري في تفسيره الكشاف: انهم قوم عدلوا عن دين النصارى واليهود وعبدوا الملائكة[7]، وتقول المستشرقة الليدي دراوور[8]: أن اسم الصابئة غير معروف عند الصابئة أنفسهم من الناحية الدينية فهم يعرفون أنفسهم باسم «مندائي»[9]. ويبدو أن هذه التسمية جاءت من الأقوام التي

---

(١) ابن منظور: **لسان العرب** ج ١ ص ١٠٢ ـ ١٠٣.

(٢) انظر الحسني: **الصابئون في حاضرهم وماضيهم**، ص ٢١.

(٣) انظر: القس صموئيل زويمر: **مجلة المقتطف** ج ٢٣ ص ٨٧.

(٤) البيروني: **الآثار الباقية من القرون الخالية** ص ٣١٨.

(٥) أنظر: جواد علي: **تاريخ العرب قبل الإسلام** ج ١ ص ٣٦٨.

(٦) انظر: الحسني: **الصابئون في حاضرهم وماضيهم** ص ٧.

(٧) انظر: الحسني: **الصابئون في حاضرهم وماضيهم**، ص ٧.

(٨) انظر: دراور: **الصابئة المندائيون** ص ٨ ـ ٩.

(٩) مندائي: ومندائي كلمة آرامية تعني العارف من الفعل (مدما) أي عرف أوعلم (الدكتور مراد كامل ـ تاريخ الأدب السرياني).

وجدت حولهم من آرميين وغيرهم، وأطلقوا عليهم اسم (الصابئة) أي المغتسلة بالآرامية، ويؤيد صحة هذه التسمية ابن النديم[١] (ت ٣٨٥ هـ/٩٩٥م) فيقول: أنهم كانوا يسمون المغتسلة أو صابئة البطائح، وكانوا بنواحي دست ميسان[٢] يعرفون بالمغتسلة وبتلك النواحي، والبطائح بقاياهم إلى وقتنا هذا، وقد جاء في تفسير سيد قطب[٣] لسورة البقرة حول الصابئة قوله: (والصابئون الأرجح أنهم طائفة من مشركي العرب قبل البعثة الذين ساورهم الشك فيما كان عليه قومهم من عبادة الأصنام، فبحثوا لأنفسهم عن عقيدة يرتضونها، فاهتدوا إلى التوحيد، وقالوا: إنهم يتعبدون على الحنيفية الأولى ملة ابراهيم، واعتزلوا عبادة قومهم دون أن تكون لهم دعوة فيهم، فقال عنهم المشركون أنهم (صبأوا) أي مالوا عن دين آبائهم، ومن ثم سموا الصابئة).

والصابئة أمة قديمة قبل اليهود والنصارى وهم على نوعين: صابئة حنفاء، وصابئة مشركون، وكانت حران[٤] دار مملكة هؤلاء قبل المسيح، والمشركون منهم يعظمون الكواكب السبعة، والبروج الإثني عشر، ويصورونها في هياكلهم فلهم هيكل كبير للشمس، وهيكل للقمر، وللزهرة، وللمشتري، وكذلك للمريخ، وعطارد، وزحل، ولهذه الكواكب عندهم عبادات، ويتخذون لها أصناماً تخصها، ويقربون لها القرابين، ولها صلوات خمس في اليوم والليلة[٥].

والمؤمنون من الصابئة يصومون شهر رمضان، ويستقبلون في صلواتهم الكعبة ويعظمون مكة، ويرون الحج إليها، ويحرمون الميتة والدم، ولحم

---

(١) ابن النديم: **الفهرست** ص ٤٧٧.

(٢) دست ميسان: اقليم يقع بين واسط والأهواز وهو حالياً يمثله محافظة ميسان (العمارة).

(٣) سيد قطب: **في ظلال القرآن** ج ١ ص ٩٥.

(٤) حران: مدينة مشهورة وهي قصبة ديار مضر بينها وبين الرها يوم وبين الرقة يومان، وهي على طريق الموصل والشام والروم (معجم البلدان ياقوت مادة حران) فتحها صفوان بن المعطل وحبيب بن مسلمة (ابن الأثير، الكامل ج ٢ ص ٣٧٤) وفي سنة ٨٣٠م خير المأمون فيها الحرانيين بين الاسلام أو أي دين آخر من الأديان المباحة وبين القتل عن آخرهم فزعموا أنهم من الصابئة (دائرة المعارف الإسلامية (مادة حران) ج ٣، ص ٣٥٤ وما بعدها).

(٥) انظر: الألوسي: **بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب** ج ٢ ص ٢٢٤.

الخنزير، ويحرمون من الأقرباء في النكاح ما يحرم المسلمون، وعلى هذا المذهب كان جماعة من أعيان الدولة ببغداد منهم هلال الصابىء صاحب ديوان الإنشاء، وأصل دين هؤلاء فيما قالوا: أنهم يأخذون محاسن كل ديانة ومذهب، ويخرجون من قبيح ما هم عليه قولاً وعملاً، ولهذا سموا صابئة، أي خارجين، فقد خرجوا من تقييدهم بأي دين كان[1].

وأما عقائد الصابئة فمختلفة باختلاف مناطق سكناهم، ولذا فهي غير معروفة لدى أغلب المؤرخين، ولانعزالهم عن الديانات الأخرى مما أدى إلى تعدد الآراء حول عقائدهم، فيقول الرازي[2] (ت ٦٠٦ هـ/١٢٠٩م) عنهم: أنهم يعتقدون أن مدبر العالم وخالقه هي الكواكب السبعة، ولما بعث الله ابراهيم كان الناس على دين الصابئية، فاستدل ابراهيم عليهم في حدوث الكواكب كما أشار القرآن إليه في قوله: ﴿فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما آفلت قال: لا أحب الآفلين﴾[3].

ولما كانت الكواكب تقرب فصوروها صوراً فصنعوا أصناماً، واشتغلوا بعبادتها، ويقول ابن الأثير[4] (ت ٦٣٠ هـ/١٢٣٢م) أن أصل ديانتهم عبادة الروحانيين، وهم الملائكة لتقربهم إلى الله تعالى زلفى، فإنهم اعترفوا بصانع العالم، وإنه حكيم قادر مقدس إلا أنهم قالوا... إنما نتقرب إليه بالوسائط القريبة لديه، وحيث لم يعاينوا الروحانيين تقربوا إليهم بالهياكل، وهي الكواكب السبعة السيّارة لأنها مدبرة لهذا العالم عندهم، ومما لا شك فيه أنهم كانوا أهل أوثان يعبدونها، وقيل إن الله بعث إليهم نوح النبي، ولكنهم أجمعوا على ما يكرهه الله من ركوب الفواحش، والكفر وشرب الخمر، والاشتغال بالملاهي عن طاعة الله.

---

(١) نفس المصدر السابق.
(٢) الرازي: اعتقادات مرق المشركين ص ٩٠.
(٣) سورة ق: الآية ٧٨، الأنعام: آية ٦.
(٤) ابن الأثير: الكامل ج ١ ص ٣٨.

ويؤيد الشهرستاني[1] (ت ٥٤٨ هـ/١١٥٣م) ما رواه ابن الأثير في إيمان الصابئة بالله، ولكنهم يعتقدون بوجود وسيط بينه وبينهم، فقد روى عنهم أنهم قالوا: إنّا نحتاج إلى معرفة الله، ومعرفة طاعته، وأوامره، وأحكامه إلى (متوسط) الذي يجب أن يكون روحانياً لا جسمانياً، وذلك لذكاء الروحانيات وطهارتها وقربها من رب الأرباب.

ويروي الحسني[2]: أن صابئة العراق يعتقدون أن الله خلق روحانياً اسمه (هي قدمايا) وخلق معه عوالم كثيرة مملوءة بالنفوس المقدسة، ثم خلق روحانياً آخر يدعى (هي تنبائي) وخلق معه عوالم أخرى لا يحصى عددها، ثم خلق مخلوقاً ثالثاً يدعى (هي ثليثائي) وخلق معه مثل ما خلق مع سابقيه، ثم خلق عوالم سبعة تدعى (آلمي دهشوخا) أي عوالم الظلام، وهي تستمد نورها من الشمس، وأرضنا من جملتها، وهم يرون أن الأرض خلقت على شكل مربع، وأنها ثابتة غير متحركة، ومقامة على هواءين أحدهما خارجي والآخر داخلي، وتحتها ماء انبسطت عليه، أما السماء فيقولون: انها مكونة من سبع طبقات، وأن الشمس تقع في الطبقة الرابعة، والقمر في السابعة، وان الأرض والسماء مركبتان من مادتين هما: النار والماء، ويقولون أيضاً: ان الموت انتقال لا اندثار، وأن الروح لا تطهر إلا إذا خرجت من بدن طاهر، لهذا يغسلون الميت في ساعة احتضاره، ولا يبكون عليه لأن البكاء والعويل، محرمان عليه زاعمين أن كل دمعة تذرفها العين على الفقيد تكون نهراً كبيراً في طريقه يكاد يعجز عن عبوره.
ويقول المسعودي[3] (ت ٣٤٦ هـ/٩٥٧م) عن عقائدهم: ان أصل عبادتهم النجوم والكواكب، ثم تطورت إلى عبادة الأصنام، فبنوا لكل صنم بيتاً أو هيكلاً منفرداً، وسموا تلك الهياكل بأسماء الكواكب.

وقد اختلف الفقهاء المسلمون في أمر الصابئة لخفاء حقيقتهم وعدم وضوح

---

(١) الشهرستاني: الملل والنحل ج ١ ص ٢٣٠ ـ ٢٣١.
(٢) انظر: الحسني: العراق قديماً وحديثاً، ص ٤٨، ٤٩.
(٣) المسعودي: مروج الذهب ج ٢ ص ١٣٥.

ديانتهم، فقال كل فقيه فيهم بناء على ما ظهر له من أمرهم أو بناء على ما ظنه فيهم[1].

لا تعتقد الصابئة بالوحي، وإنما اعتقادهم أن نفوس طاهرة صفت وتهذبت من أدناس هذا العالم فاتحدت بهم مواد علوية، فأخبروا عن الكائنات قبل كونها وعن سرائر العالم[2] وهذا الاعتقاد ناتج عن عدم ظهور نبي بينهم، وعدم نزول كتاب عليهم. وتبدو هذه الآراء والاعتقادات أنها كانت منتشرة عند الصابئة الحرانيين، وقد أخذوها من الشعوب الساكنة معهم وحولهم، وليس لدى صابئة العراق مثل هذه العقائد وسنشير إلى عقائد كل منها عند كلامنا عن عقائد فرق الصابئة وطوائفها.

ويبدو أيضاً أن ما أشار إليه القرآن بذكر الصابئة حيث قصد الصابئة المغتسلة التي كانت تعيش في جنوب العراق منذ آلاف السنين، ولم يقصد الحرانيين الذين سموا أيضاً بالصابئة، والذين برزوا في التاريخ منذ العصر العباسي، وكانوا يعبدون الكواكب والنجوم، وهذا مما أدى إلى الخلط بين ديانة الصابئة الحقيقية والصابئة المندائيين أو صابئة البطائح (المغتسلة) من أهل العراق وبين صابئة حران[3] ولأن الذي يفهم من القرآن الكريم أن الصابئين جماعة كانت على دين خاص، وأنها طائفة مثل اليهود والنصارى[4] ويؤيد ذلك الحسني[5] بقوله: (ان الصابئة في العراق ليسوا وثنيين، وان دينهم يؤمن بالوحدانية وباليوم الآخر، فاعتقادهم بأن الخالق جلّ شأنه واحد أزلي أبدي لا أولّ لوجوده، ولا نهاية له، منزه عن عالم المادة والطبيعة، لا تناله الحواس، ولا يفضي إليه مخلوق، وأنه لم يلد، ولم يولد وهو علة وجود الأشياء، ومكونها، ولا يختلف اعتقادهم في الخالق عن اعتقاد المؤمنين به).

---

(١) انظر: عبد الكريم زيدان: أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام ص ١٤.
(٢) المسعودي: التنبيه والإشراف ص ١٩ ـ ٢٠.
(٣) انظر: دراوور: الصابئة المندائيون ص ١٢.
(٤) انظر: جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٥ ص ٣٦٨، ٣٦٩.
(٥) أنظر: الحسني: بحث في مجلة العربي العدد ١١٢ لسنة ١٩٦٨م.

أما فرق الصابئة فهناك فرقتان: صابئة حران، وصابئة العراق. (فصابئة حران)[1]: هم قوم معروفون بعبادة الكواكب يجرون مجرى عبدة الأوثان[2] وقيل: كان لصابئة حران مصلى يعظمونه وينسبونه إلى ابراهيم الخليل[3] ويقول ابن النديم[4] (ت ٣٨٥ هـ/٩٩٥م) ان تسمية أهل حران بالصابئة ترجع إلى أيام المأمون، فقيل: ان المأمون، وهو في طريقه لغزو بلاد الروم سنة ٢١٥ هـ عرج على ديار مضر فقابله الناس يدعون له، وفيهم جماعة من الحرانيين، وكان زيهم إذ ذاك لبس الأقبية، وشعورهم طويلة، فأنكر المأمون زيهم، وقال لهم: من أنتم من الذمة؟ فقالوا: نحن الحرانية، فقال: أنصارى أنتم؟ قالوا: لا، قال: فيهود أنتم؟ قالوا: لا، قال: فمجوس أنتم؟ قالوا: لا، فقال لهم: أفلكم كتاب أم نبي؟ فترددوا في القول، فقال لهم: فأنتم إذن الزنادقة عبدة الأوثان، فأنتم حلال دماؤكم لا ذمة لكم،فاختاروا الآن أحد أمرين: إما أن تنتحلوا دين الإسلام، أو ديناً من الأديان التي ذكرها الله في كتابه، وإلا قتلناكم عن آخركم، وأمهلهم حتى عودته من الروم، فاقترح عليهم شيخ من أهل حران أن يقولوا للمأمون: انهم صابئة فهذا اسم دين ذكره الله في القرآن، وبهذا تكون تسميتهم بالصابئة طارئة، وليست علماً عليهم قبلاً.

لقد كانت ديانة الحرانيين مزيجاً من الديانة البابلية، واليونانية القديمة، وكانوا يسمون بالحرانيين حتى عهد المأمون، وقد تأثروا بالحضارة اليونانية لدرجة أنهم سموا آلهتهم بأسماء يونانية، وقد حاولت النصرانية نشر المسيحية بينهم، ولكنهم لم ينجحوا فأطلق عليهم رجال الكنيسة المسيحية اسم الوثنيين، وعلى مدينتهم حران بمدينة الوثنيين (هيلبوبوليس ـ Hellanpolis)[5].

---

(١) صابئة حران: قيل نسبة إلى هاران بن قرح أخي ابراهيم الخليل وأنه كان من بين رؤسائهم أو نحلهم في الدين وأشدهم تمسكاً به (البيروني ص ٢٠٤).

(٢) ابن القفطي: أخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٣١١، الصابيء: دار الخلافة ص ٦.

(٣) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٢٠٤.

(٤) ابن النديم: الفهرست ص ٣٢٠.

(٥) دائرة المعارف الإسلامية في مادتي (حران) و(صابئة).

ويروى أن الصابئة الحرانيين كانوا في الأصل من سكان فلسطين هاجروا إلى مدينة حران بعد الميلاد، ومجاورتهم للحرانيين، وتأثرهم بأزيائهم، وتقاليدهم، وعباداتهم، ويوجد في كتاب (حران كوثيا)[1] أدلة تاريخية ممزوج فيها الأساطير، والخرافات، والنبوءة حول كيفية هروب الناصوراين[2] من اضطهاد اليهود لهم في فلسطين، وكيف بحثوا عن مأوى لهم في جبال ميديا، ومدينة حران، وكيف أن مضطهديهم قد عوقبوا بتخريب أورشليم مما يجعل نزوحهم وهروبهم عام ٧٠م[3]. وقد وجدوا في حران إخواناً لهم في الدين، ثم هاجروا مرة ثانية إلى القسم الأدنى من بلاد ما بين النهرين حيث أقاموا لهم مراكز في محل يدعى الطيب (طيب ماثه)[4] وتؤكد الروايات الشفوية التي يتناقلها صابئة العراق ما ورد في الوثيقة التاريخية من أن الصابئة هاجروا إلى العراق من حران، وكانوا قبل ذلك في فلسطين[5] وتؤيد المستشرقة دراوور[6] هذا الرأي فتقول: يبدو أن حران كانت موطن الصابئة المندائية، وقد اختلط هؤلاء بأقوام أخرى موجودة، فتأثروا بهم، وأثروا فيهم، ويحتمل أن الأقوام التي كانت تسكن قبل هجرتهم أضافوا إلى عقائدهم ما عند الصابئة المندائية المهاجرون ويبدو أن صابئة حران هم السكان الأصليون، وأنهم كانوا يلقبون بالحرانيين، وهم عبدة الكواكب والنجوم، وأما الصابئة المندائية أو صابئة العراق فهم بالأصل من سكان فلسطين، وعلى دين ابراهيم الخليل ثم هاجروا إلى حران بفعل اضطهاد

---

(١) كتاب صابئي باللغة المندائية ترجم إلى اللغة الإنكليزية ونسخة منه موجودة بمكتبة المتحف العراقي ببغداد.

(٢) النصوراني: كلمة تعني الكهان الصابئين الذين يملكون الحقيقة الدينية ومعتقداتهم هي معتقدات الصابئة المندائيين.

(٣) بعد خراب أورشليم هاجر بعض كهنة الصابئين (الناصوراني) تحت حماية الملك البارثي إلى بابل والأحواز، وقد يكونوا قد وجدوا عقائد وشعائر تشبه عقيدتهم في تلك النواحي (دراور الصابئة المندائيون ص ١٥).

(٤) الطيب: مدينة أثرية في جنوب العراق تقع جنوب شرق العمارة (محافظة ميسان).

(٥) انظر: مراد كامل، ومحمد حمدي البكري: **تاريخ الأدب السرياني من نشأته إلى الفتح الإسلامي** (مجلة المقتطف ج ١ ص ١١٥ لسنة ١٩٤٩ م).

(٦) أنظر: دراوور: الصابئة المندائيون ص ١٥.

اليهود لهم، وتأثروا هناك بعقائد الحرانيين، فلما هاجروا ثانية إلى العراق نقلوا معهم عقائدهم القديمة والجديدة، وأصبحت عقائد ثابتة لصابئة العراق.

أما عقائد الصابئة الحرانية فقد أشار إليها الشهرستاني[1] (ت ٥٤٨ هـ/١١٥٣م) بقوله: (الحرانية قالوا: ان الصانع المعبود واحد، وكثير، أما واحد ففي الذات، والأول والأصل، والأزل، وأما كثير، فلأنه يتكاثر بالأشخاص في رأي العين، وهي المدبرات السبعة، والأشخاص الأرضية الخيرة، فإنه يظهر بها، ويتشخص بأشخاصها، ولا تبطل وحدته في ذاته، وقال الحرانية أيضاً: ان الصانع المعبود أبدع الفلك، وجميع ما فيه من الأجرام، والكواكب، وجعلها مدبرات هذا العالم، وهم الآباء، والعناصر أمهات، والمركبات مواليد، والآباء أحياء ناطقون يؤدون الآثار إلى العناصر، فتقبلها العناصر في أرحامها، فيحصل من ذلك المواليد، وتعتقد الحرانية: بالتناسخ، والحلول، وهو تكرار الأدوار إلى ما لا نهاية له، يحدث في كل دور مثل ما حدث في الأول، فالسرور والفرح، والدعة هي مرتبة أعمال البر، والحزن والضنك، والكلفة هي مرتبة أعمال الفجور، وأما الحلول: فهو حلول الشيء إما بذاته، وإما أن يكون بحلول جزء من ذاته. . .

وينسبون أعمال الخير وكل ما هو حسن إلى الله أما ما كان من نحوس وشرور، فلا تنسب إليه بل هي اتفاقيات وضروريات، وهم ينسبون عقائدهم إلى عاذيمون وهومس، وأعيانا، وأواذي، أربعة أنبياء، ومنهم من ينتسب إلى سولون جد أفلاطون لأمه ويزعم أنه كان نبياً[2]، وهذا الاعتقاد يحملنا على القول انهم تأثروا إلى حد كبير بالديانة الرومانية والفلاسفة الرومان.

وكان الصابئة الحرانية على مذاهب شتى، فيقول الحسني[3]: من الصعب أن نتوصل إلى تحديد الأزمنة التاريخية التي تفرعت، وتجزأت فيها المذاهب، وقد

---

(١) الشهرستاني: **الملل والنحل** ج ٢ ص ٥٤ ـــ ٥٦.
(٢) المرجع السابق ص ٥٧.
(٣) أنظر: الحسني: **الصابئون في حاضرهم وماضيهم** ص ٢٣.

بحث العلماء، والمؤرخون في ديانة الصابئة وفرقهم، وأشاروا إلى معتقد كل فرقة منهم، وطقوسهم الدينية إلا أنهم كانوا معتمدين على غيرهم من الناقلين.

ويقول الحسني أيضاً: ولعل أحسن من بحث في فرق الصابئة هو الإمام أبو الحسن علي بن محمد المكنى بأبي علي بن سالم التغلبي الفقيه الملقب بسيف الدين الآمدي المتوفى سنة ٦٣١ هـ فقد ذكر في مخطوطة (أبكار الأفكار) أن أشهر مذاهب الصابئة الحرنائية أربع: وهو يتفق مع الشهرستاني[1] (ت ٥٤٨ هـ/١١٥٣م) في ذلك، وهذه الفرق هي:

١ ـ مذهب أصحاب الروحانيات[2]:

ويعتقد هؤلاء أن للعالم صانعاً، ويعجز عليهم معرفة الوصول إلى جلاله، ويتقربون إليه بالمتوسطات، وهي أمور روحانية مقدسة عن المواد الجرمانية ـ نسبة إلى الجرم ـ والقوى الجسمانية، والحركات المكانية، والتغييرات الزمانية في جوار رب العالمين، وقد فطروا على التقديس والتسبيح، وقالوا: هم آلهتنا، وأربابنا، ووسائلنا إلى حاجاتنا، وبهم نتقرب إلى الله، وهي المدبرة للكواكب الفلكية، وزعموا أن الكواكب الفلكية هي هياكل هذه الروحانيات، وأن نسبة الروحانيات إليها في التقدير لها، والتدوير نسبة الأنفس الإنسانية إلى أبدانها، وأن لكل روحاني هيكلاً يخصه، ولكل هيكل فلكاً يكون فيه.

ويتمسك هؤلاء بتطهير النفوس عن دنس الشهوات الطبيعية، وتهذيب أخلاقهم عن علائق القوى الشهوانية، والنفسية، والابتهال بالدعوات، وإقامة الصلوات، وبذل المذكورات والصيام عن المطعومات والمشروبات، وتقريب القرابين والذبائح وتبخير البخور.

---

(١) الشهرستاني: الملل والنحل ج ٢ ص ٦ ـ ٥٢؛ الحسني: الصابئون ص ٢٤ ـ ٢٨.

(٢) الروحانيون: عبدة الملائكة لتقربهم إلى الله تعالى زلفى (ابن الأثير الكامل في التاريخ ج ١ ص ٣٨).

ورأيهم في الأنبياء أنهم أمثالهم في الصورة والمادة والمأكل والمشرب، وهم بشر مثلهم لا تجب طاعتهم[1].

٢ ـ مذاهب أصحاب الهياكل:

يرى هؤلاء أن لا بد للإنسان من متوسط، ولا بد للمتوسط من أن يرى حتى نتقرب إليه، ويستفاد منه، فنزعوا إلى الهياكل التي هي السيارات السبع، فدعوا إلى عبادتها، وعرفوا بيوتها ومنازلها ومطالعها ومغاربها، واتصالاتها على أشكال الموافقة والمخالفة مرتبة عن طبائعها ونسبتها إلى الأماكن، والأزمان والليالي والساعات، ثم تقربوا إلى الهياكل بما يناسبه من الأماكن والأزمان واللباس الخاص به، والهياكل عندهم أحياء ناطقة بحياة الروحانيات التي هي أرواحها، وفيهم من جعل هيكل الشمس رب الهياكل والأرباب، وهي المدبرة لعالم الكون، والله هو رب الأرباب وإله الآلهة، وجعلوا لكل هيكل يوم، فعينوا لزحل يوم السبت، وتختموا بخاتمه المعمول على صورته وهيئته، ودعوا بدعواته الخاصة به، وسألوا حاجتهم منه، وكذلك فعلوا مع سائر الكواكب الأخرى، وكانوا يتقربون إلى الهياكل تقرباً إلى الروحانيات، ويتقربون إلى الروحانيات تقرباً إلى الله تعالى لاعتقادهم أن الهياكل هي أبدان الروحانيات ونسبتها إلى الروحانيات نسبة أجسادنا إلى أرواحنا[2].

٣ ـ مذهب أصحاب الأشخاص:

وهؤلاء زعموا أنه إذا كان لا بد من متوسط، وشفيع يشفع إليه، وإن كانت الكواكب مرئية لكننا لم نراها إلا في وقت طلوعها، ولم نخاطبها بالألسن، فلا بد من وجود أشخاص قائمة منصوبة أمامنا نعكف عليها، ونتوسل إليها فنتقرب بها إلى الروحانيات، وبالروحانيات نتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى فنعبدهم ﴿ليقربوننا إلى الله زلفى﴾[3] فاتخذوا أصناماً أشخاصاً على مثال الهياكل

---

(١) الشهرستاني: الملل والنحل ج ٢ ص ٧.
(٢) الشهرستاني: ج ٢ ص ٤٩ ـ ٥٠؛ الحسني: الصابئون ص ٢٤ ـ ٢٥.
(٣) سورة الزمر: آية ٣.

السبعة، وراعوا في ذلك جوهر الهيكل، وصّوروه بصورته على الهيئة التي تصور أفعاله عنه، وقد أشار إليهم القرآن فقالوا: ﴿هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾[1]، وقد ناظر ابراهيم أباه حيث كان يعمل لهم الأشخاص والأصنام بما رواه الله في القرآن: ﴿أتتخذ أصناماً آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين﴾[2]، وأقبل ابراهيم الخليل على إبطال مذهب أصحاب الهياكل، والأشخاص ﴿فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي﴾[3]، ثم ﴿رأى القمر بازغاً قال هذا ربي، فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين﴾[4] ثم ﴿فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر، فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون﴾[5].

٤ ــ مذهب الحيلولة:

وهؤلاء زعموا أن الإله المعبود واحد في ذاته، وأنه أبدع أجرام الأفلاك، وجعل الكواكب مدبرات لما في العالم السفلي، فالكواكب آباء أحياء ناطقة، والعناصر أمهات، وما تؤديه الآباء من الآثار إلى الأمهات تقبلها بأرحامها، فتحصل من ذلك المواليد وهي المركبات، والإله تعالى يظهر في الكواكب السبعة، يتشخص بأشخاصها من غير تعدد في ذاته، وقد يظهر أيضاً في الأشخاص الأرضية الخيرة الفاضلة، وهي ما كان من المواليد[6].

ولا يزال الصابئة يقدسون مظاهر الطبيعة، وخاصة الكواكب، وما يحدث عنها في الأفلاك من الشمس والبرق والرعد، وما يترتب على حدوثها من آثار على الإنسان.

---

(١) سورة ١٨ ك، يونس: آية ١٠.
(٢) سورة الأنعام: آية ٧٥.
(٣) سورة الأنعام: آية ٦٧، ٧٧.
(٤) سورة الأنعام: آية ٧٧.
(٥) سورة الأنعام: آية ٧٨.
(٦) أنظر: الحسني: **الصابئون** ص ٢٦.

وقد وصف الصابئة الحرانيون الله فقالوا: «إن الله علة العالم لا يلحقه وصف شيء من المعلومات لكن أصل التمييز الإقرار بربوبيته، ووعد من أطاع نعيمًا لا يزول، وأوعد من عصا العذاب بقدر استحقاقه، والثواب والعقاب يلحقان بالأنفس وليس يؤخر ذلك عندهم إلى وقت معلوم»[1].

أما صلواتهم فكانت ثلاث: أولها عند طلوع الشمس ثماني ركعات، والثانية قبل زوال الشمس خمس ركعات، والثالثة عند غروب الشمس خمس ركعات، وفي كل ركعة في صلواتهم ثلاث سجدات، ويتوضأون قبل الصلاة على طهر واغتسال من الجنابة[2]. ويتوجه الحرانيون في صلاتهم إلى القطب الجنوبي[3] ويصلون كل يوم للكوكب الذي هو ربهم فيصلون للزحل يوم السبت، وللشمس يوم الأحد، وللقمر يوم الإثنين، وللمريخ يوم الثلاثاء، ولعطارد يوم الأربعاء، وللمشتري يوم الخميس، وللزهرة يوم الجمعة[4].

ويصومون ثلاثين يوماً، ولكنها تكون غير متتالية، ومتقطعة لثلاثة مراحل في كل مرحلة عشرة أيام[5]، في حين يذكر ابن النديم[6] (ت **٣٨٥ هـ/ ٩٩٥ م**): ان الصيام المفروض عليهم ثلاثون يوماً أولها لثمان مضين من آذار، وتسعة أخر أولها لتسع بقين من كانون الأول، وسبعة أيام أخر أولها لثمان مضين من شباط، فكانوا يمتنعون عن أكل اللحوم **٣٦** يوماً مقسمة بين أيام السنة على نحو امتناع النصارى. ويظهر أن هذا التناقض في عقائدهم الدينية ناتج عن تفرقهم وجهل علمائهم[7]، وتأثرهم بالمظاهر الطبيعية كشأن غيرهم من الأمم.

---

(١) المقدسي: **البدء والتاريخ** ج ٤ ص ٢٢.
(٢) البيروني: **الآثار الباقية** ص ٢٠٦؛ المقدسي ج ٤ ص ٢٣؛ ابن العبري: **مختصر تاريخ الدول** ص ١٥٣.
(٣) البيروني: **الآثار الباقية** ص ٢٠٦.
(٤) المقدسي: **البدء والتاريخ** ج ٤ ص ٢٣.
(٥) ابن العبري: **مختصر تاريخ الدول** ص ١٥٣.
(٦) ابن النديم: **الفهرست** ص ٤٤٣.
(٧) الحسني: **الصابئون** ص ٨١.

ومن شعائرهم الدينية، ومحرماتهم: الاغتسال من الجنابة، ومس الميت، والطامثة، ولا يأكلون ما لم يـذبح، وينهـون عن لحم الخنزير، والسمك، والباقلاء، والثوم[1] ولا يختتنون[2]. وأمروا بالنكاح بولي وشهود، ونهوا عن الجمع بين امرأتين، وعن الطلاق إلا بحكم حاكم شرعي[3].

وأما أحكامهم في المواريث فعجيبة جداً، فلو أن رجلاً مات وخلف امرأة وابنين وابنة، فإن المرأة إن شاءت أخذت مهرها، ويجب على ورثة زوجها إمساكها والانفاق عليها ما عاشت، وإن لم يكن لها منه ولد فإن المال والمرأة كان موقوفاً إلى أن تتزوج المرأة، فإن تزوجت رفعت عنها النفقة، وان مات رجل وخلف أباً وأخاً دفع المال إلى الأب على أن يتزوج امرأة، ويولدها ولداً باسم المتوفى ليكون المال له، وكذلك الأخ لا يرث إلا على هذه الشريعة، أما إذا كان للمتوفى أختان دفع المال إلى الكبرى على أن تتزوج رجلاً، وتلد غلاماً تسميه باسم المتوفى، ويدفع المال إليه، فإن كانت الكبيرة متزوجة دفع المال إلى الصغيرة، وان كانتا متزوجتين دفع المال إلى من يضمن إيلاد ولد باسم المتوفى، ويدفع المال إليها، ويكون المال له[4].

أما الفرقة الثانية من الصابئة: فهم (المندائيون) صابئة العراق، وهي مدار بحثنا، وكانوا في الأصل يسكنون حران مع أقوام وثنية تسموا بالصابئيين كما أشرنا آنفاً تخلصاً من اضطهاد الكنيسة المسيحية، ولاكتساب التسامح الديني باعتبارهم كتابيين، وليسوا وثنيين[5].

ويقول الحسني[6]: أما الصابئة فلا مناسبة أصلاً بين صابئة العراق،

---

(١) المقدسي: البدء والتاريخ ج ٤ ص ٢٩.
(٢) البيروني: الآثار الباقية ص ٢٠٦.
(٣) الحسني: الصابئون ص ٢٧.
(٤) المقدسي: البدء والتاريخ ج ٤ ص ٢٩ ــ ٣٠.
(٥) انظر: دراوور: الصابئة المندائيون ص ١٦.
(٦) انظر: الحسني: العراق قديماً وحديثاً ص ٤٨.

وصابئة حران على الرغم من اشتراك الطائفتين بالاسم، وان هذا الاسم اتخذه أصحاب الأديان غير الذمية التي ذكرت في القرآن ليتحاموا به عن التعقيبات الدينية فصابئة دجلة هم طائفة من اليهود تبرأوا من اليهودية، وتبعوا يوحنا المعمدان، ثم لما رأوا أن أتباع عيسى غلبوا على أتباع المعمدان هاجروا من الأردن إلى نهر آخر يجري من الشمال إلى الجنوب وهو دجلة، ويظهر أن هذا الرأي يتناقض مع ما رواه المؤرخون من أنهم هاجروا من فلسطين إلى حران، ومنها إلى العراق، كما أن تشابه صابئة العراق بصابئة حران في بعض عقائدهم مما يحملنا على الاعتقاد أنهم كانوا يعيشون معاً، وأنهم كانوا يعتقدون بعقائد متشابهة، وان عقائدهم اختلفت عن موطنهم الأصلي حران بفعل تأثرهم بالأديان المجاورة في الوطن الجديد (العراق).

ويقول الصابىء[1] (ت ٤٤٨ هـ/ ١٠٥٦ م) عن صابئة العراق: أنهم فرقة موحدة نشأت في فلسطين قبل ظهور النصرانية، وهم من أتباع (يوحنا المعمدان)، ويسميه المسلمون (يحيى بن زكريا) وقد أطلق عليهم العرب اسم (المغتسلة) لأنهم يسكنون على ضفاف الأنهار لتسهيل التعميد في الماء الجاري، فاستقروا في إقليم خوزستان من إيران، وفي بعض أنحاء العراق، ولا سيما جنوبه، وحول البطائح لذلك تسموا بصابئة البطائح أو (البطائحية). ويعتقد صابئة العراق (المندائية) أنهم: يتبعون تعاليم آدم، ولديهم كتاب (الكنزا) أي (صحف آدم) غير أن تقادم العهد على الرسول الأول للدين، ونشوء بعض المذاهب الزائفة، والأديان الوثنية كل هذه أدخلت تعاليم غريبة في الدين فجاء يحيى ليخلص الدين من هذه المذاهب الدخيلة، ولم يكن رسولاً بل نبياً خاصاً بهم[2].

ويعتبرهم البيروني[3] (ت ٤٤٠ هـ/ ١٠٤٨ م): من بقايا اليهودية التي

---

(١) الصابىء: رسوم دار الخلافة ص٧.

(٢) أنظر: عبد الجبار عبد الله الصابىء في هامش كتاب: العراق في القرن السابع عشر ص١٠٣ بغداد ١٩٤٤ م.

(٣) البيروني: الآثار الباقية ص٢٠٦.

ظلت في بابل حين غادرتها القبائل اليهودية الأخرى إلى أورشليم أيام كورش الفارسي، واتخذت هذه البقايا لها أسلوباً مزيجاً من المجوسية واليهودية، وقد وجد أكثرهم بواسط وسواد العراق... مخالفين للحرانية لا يوافقونهم إلا في أشياء قليلة حتى أنهم يتوجهون في الصلاة إلى جهة القطب الشمالي، والحرانية إلى القطب الجنوبي. ويقول عنهم العقاد[1]: والمحقق في أمرهم أنهم يرجعون إلى أصل قديم لأن استقلالهم باللغة الدينية، والكتابة الأبجدية لم ينشأ في عصر حديث، ولهذا فالدارسون للأديان يؤكدون أن هؤلاء الصابئة كانوا يقيمون في الأقاليم الجنوبية من العراق حيث أقام الخليل كما في رواية العهد القديم، ومع استقلال الصابئة باللغة الدينية والكتابة الأبجدية يشتركون مع أصحاب الأديان في شعائر كثيرة كما أنهم يخالفون الجميع، أما تعليل المشابهة فليس بالصعب فإن مقام الصابئة عند الخليج العربي يجعلهم في طريق كل دين وملة ترد أبناؤهم على ذلك الاقليم، وقد تردد عليهم في قديم الزمان هنود، وفرس، وعرب، وطورانيون، وسريان، واتصل بهم أبناء البحار، وأبناء الصحراء، فليس بالعجيب أن تعلق بعقيدتهم مسحة من كل دين وملة على طول الزمن، وتتابع العهود، فمن مشابهتهم للبراهمة يتحرجون ويتطهرون من ملامسة غيرهم في حالة من حالات العبادة، ومن مشابهتهم للمجوسية أنهم يتوجهون للقطب الشمالي، وإلى الكواكب عامة، ولكنهم لا يعبدونها بل هي من مظاهر الروحانيات، ويشبهون المسيحية لأنهم يدينون بالعماد، ويجلون يوحنا المعمدان، ومن مشابهتهم للمسلمين أنهم يقيمون الصلاة مرات في اليوم، ويقولون: انها فرضت عليهم سبعاً وأسقطها يوحنا عنهم، ولكن لا يسجدون في صلاتهم بل يكتفون بالقيام والركوع ويتوضأون قبلها، وهو يشبه الوضوء عند المسلمين، ولكنه لا يمسح على الرجلين، وإنما على الركبتين.

وتجري الصلاة بأن تبدأ بالآذان تتلى بلغتهم بدون رفع صوت على مرتفع، وقد أشار ابن النديم[2] (ت ٣٨٥ هـ/ ٩٩٥م) وابن العبري

---

(١) أنظر: العقاد: أبو الأنبياء ص ١٠٩ ــ ١١١.

(٢) ابن النديم: الفهرست ص ٤٤٢ ــ ٤٤٣؛ ابن العبري: ص ٢٦٦؛ البيروني: ص ٢٠٦.

(ت ٦٨٥ هـ/ ١٢٨٦ م) إلى صلواتهم بقولها «والمفترض عليهم ثلاث صلوات أولها قبل طلوع الشمس بنصف ساعة لتنقضي مع الطلوع ثماني ركعات في كل ركعة ثلاث سجدات، والثانية انقضاؤها مع نصف النهار والزوال خمس ركعات في كل ركعة ثلاث سجدات والثالثة مثل الثانية تنقضي مع الغروب.

ويقول البيروني[١] (ت ٤٤٠ هـ/ ١٠٤٨ م) عن عقائد الصابئة المندائية بقوله «إن كل ما نعرفه عنهم أنهم يعتقدون بالوحدانية، ويصفون الله منزهاً عن أي باطل مستعملين في وصفهم له النفي لا الايجاب بقولهم: هو غير محدود، وغير مرئي، لا يخطأ، ليس ظالماً، ويسمونه بالأسماء الحسنى مجازاً فقط لأن الوصف الحقيقي له غير مسموح به من قبلهم.

ويقول العقاد[٢] لقد ثبت للباحثين أن الصابئة تؤمن بالله واليوم الآخر، وتؤمن بالحساب والعقاب، وان الأبرار يذهبون بعد الموت إلى عالم النور (آلمي دنهدرو) وان المذنبين يذهبون إلى عالم الظلام (آلمي دهشوخا) ويلبثون فيه زمناً على حسب ذنوبهم ثم ينتقلون منه إلى عالم النور. إلا أنهم كالحرانيين ينكرون الأنبياء ويقولون: ان الله لا يخاطب أحداً من البشر، وإنما خلق الله الروحانيات، أي (الملائكة) ثم تلبست هذه الروحانيات بالكواكب النورانية[٣].

وينسب الصابئة كتابهم الديني (كنزه ربه) إلى آدم، ويعتقدون أن سام هو جدهم الأعلى، ونبيهم بعد آدم نوح، كما أنهم يعظمون يحيى لأنه أنقذهم من ضلال اليهودية، ويعظمون الأحد كما يفعل النصارى[٤]. وتعتقد الصابئة المندائية بقوى تلي الاله بالمنزلة وعددها (٣٦٠) شخصاً خلقوا ليفعلوا أفعال الإله، إلا أنهم ليسوا آلهة، ولا هم في عداد القديسين، ولا من الملائكة، ولم

---

(١) البيروني: **الآثار الباقية** ص ١٦٧ وما بعدها.
(٢) أنظر: العقاد: **أبو الأنبياء** ص ١١٢.
(٣) المرجع السابق ص ١١١.
(٤) انظر: مقدمة الترجمات: **الصابئة المندائيون** ص ٢٠.

يكونوا بشراً، لأن بعضهم يمارس أعمال الخلق مثل (ماري أدربوثا) و(جيل زيوا) وهم يعلمون كل شيء، ويعرفون الغيب، ولكل منهم مملكة في عالم الأنوار (آلمي دنهور). أما أصل وجودهم فإنهم ليسوا بمخلوقين، ولكن الله ناداهم بأسمائهم فخلقوا، وتزوجوا بنساء من صنفهم، وأصبح لهم أولاد وبنات، ونسلهم لم يكن ثمرة زواجهم لأن الواحد منهم كان يلفظ كلمة فتحمل امرأته فوراً وتضع واحداً منهم، وان هؤلاء (٣٦٠) شخصاً يعبدون الإله، ويوحدونه[١].

وهم يعتقدون بالأرواح الخبيثة، ويسمونها (مولوخون) ويقولون: انها مختلفة الأديان، وهي بمنزلة الجن عند أصحاب الأديان الأخرى، وتعتقد الصابئة المندائية أن لكل كائن وجودين: علني وسري، وللكون أيضاً وجودان كون سري يسمونه (مشوتي كشطة) وكون علني يسمونه (أره تيبل) أي الأرض التي تبلى، والعالم السري أوسع من العالم العلني[٢].

وهم لا يصومون لأن الصيام في نظرهم من باب تحريم ما أحله الله، ولكنهم يمتنعون عن أكل اللحوم مدة من الزمن، ويباح عندهم الطلاق كما يباح تعدد الزوجات، إلا أنهم لا يجوزون العقد على الثيب[٣].

ومن الشعائر الدينية الرئيسة عند الصابئة هو الاغتسال بالماء الذي يعتبر رمزاً للحياة بل هو الحياة نفسها، ويسمونه التعميد (مصبته)، واحتفالات الاغتسال عندهم على ثلاثة أنواع:

الأول: الوضوء ويسمى (الرشامة) ولا تحتاج هذه العملية إلى مساعدة كاهن، وكل طفل يلقن هذه التعليمات، ويجب أن يجري الوضوء يومياً، وعلى

---

(١) الحسني: **الصابئون** ص ٤١ رواية الكنزبرا الشيخ دخيل الشيخ عيدان الصابىء.
(٢) أنظر: الحسني: **الصابئون** ص ٤٤.
(٣) انظر: الحسني: **العراق قديماً وحديثاً** ص ٤٩.

أن يكون مجريها غير حاسر الرأس، وان تقام قبل شروق الشمس، وبعد التبرز والتبول، وقبل جميع المراسيم الدينية.

والنوع الثاني من الطهارة: هو ثلاث ارتماسات في النهر، وتجري دون حاجة إلى كاهن، وهي ما يجب أن تجريها المرأة بعد الحيض، وبعد الولادة، وبعد لمس جثة الميت، وبعد الجنابة في المضاجعة والاحتلام.

والطهارة الثالثة: هي التعميد: ويقوم بإجرائه الكاهن في يوم أحد إثر نجاسات كبرى: الزواج، الولادة، التماس مع جثة الميت، والطامث. . .، وبعد خطايا معينة، كقول الكذب، والنميمة، أما الخطايا الرئيسة كالسرقة، والقتل، والزنى فتتطلب أكثر من عماد واحد[1].

وأما الطائفة الأخيرة من طوائف أهل الذمة فهي المجوسية[2]:

وقد عرفهم الشهرستاني[3] (ت ٥٤٨ هـ/ ١١٥٣ م) بقوله «المجوس وأصحاب الاثنين المانوية وسائر فرقهم المجوسية يقال لهم الدين الأكبر والملة العظمى».

وقال هيرودتس: ان دين الفرس كان عبادة العناصر أو (المظاهر الطبيعية)، وأنهم كانوا يرتقون أعلى الجبال ويقدمون الذبائح للشمس، والقمر، والأرض، والنار، والماء، والهواء، وقد أخطأ هيرودتس بقوله: «إنه لم يكن لهم

---

(١) أنظر: داروور: الصابئة المندائيون ص ١٦٨ ــ ١٦٩.

(٢) المجوسية: مشتقة من كلمة ماجي الفارسية التي تعني الحكيم وكانت تطلق على رجال الدين الزرادشتين وقد ورد ذكرهم في القرآن حيث قصد جميع الطوائف المجوس (الزرادشتيه، المانوية، والمزدكية) فقال تعالى: ﴿إنما اليهود والنصارى والصابئين والمجوس أولئك يحكم بينهم يوم القيامة﴾، والمؤمن بهذه الديانة يسمى (مجوسي) مثل يهودي والجمع مجوس، أو أنها تنسب إلى شخص اسمه منيج كوش ظهر قبل زرادشت الذي اشتهر بها، ومن اسم منيج كوش أخذت لفظة المجوسية (ابن منظور، لسان العرب ج ٨ ص ٩٨ ــ ٩٩) ,An Ency of Islam) .p. 101 (Art Madjus)

(٣) الشهرستاني: الملل والنحل ج ١ ص ٤٨.

هياكل، ولا مذابح، وأما كهنتهم، ومعلموهم فكانوا المجوس»[1] وقد جذبت هذه العناصر أنظارهم مما جعلتهم يعبدونها على أنها كائنات حية، ولها تأثيرات عظيمة عليهم، وسموها بأسماء حسب تأثيرها في نفوسهم، فسموا الشمس (عين الله) والضوء (ابن الله) كما أن الظلمة، والجدب، ونحوها كائنات إلهية شريرة ملعونة[2]، وعبدوا الشمس، وأسبغوا عليها صفات الالوهية، واعتبروها أعظم الموجودات، وان لها كثير من الأعوان، والشركاء، وهم: الصديق وهو الضوء، وستة من الملائكة المقربين الذين يحملون العرش، وآلاف من الموجودات الروحية التي تتمثل في مظاهر الطبيعة، فوقف الفرس أمام آلهة الخير يستمدون منهم المعونة، ويتوجهون إليها بالصلاة، ويقدمون لها القرابين[3].

وتزعم المجوس أن (سومين)[4] الذي ينتظرون خروجه، ويقولون: ان الملك يصير إليه، ويخرج على بقرة ذات قرون، ومعه سبعون رجلاً عليهم جلود الفهود ويقول هراً[5] وبراً[6] حتى يأخذ جميع الدنيا[7].

وتعتقد المجوسية أن في الدنيا عنصرين أصليين: وهما عنصر الخير، وعنصر الشر، وكانوا يسمون الأول رب الحياة، والنور، والآخر رب الموت والظلام، وان أهورامزدا[8] خلق الأرض، والسماوات، والبشر، وجميع الأشياء التي تؤدي إلى خيرهم، وراحتهم، وأنه هو مثبت الملوك على عروشهم، ومانحهم النصر على أعدائهم، وان أهريمن هو الشر الذي لا يخلق وإنما يهدم

(١) انظر: سليم البستاني: **أديان الفرس**، مجلة الجنان ج ٢ ص ٥٤ لسنة ١٨٨٢ م.
(٢) أنظر: أحمد أمين: **فجر الإسلام** ص ٩٩.
(٣) أنظر: الخربوطلي: **المجوسية والمجوس** ص ١٤٧؛ الليثي: **الزندقة والشعوبية** ص ٩٥.
(٤) سومين: يبدو أنه يقابل المهدي المنتظر عند بعض فرق المسلمين.
(٥) هرا: السنون (القط).
(٦) برا: الفأرة.
(٧) الجاحظ: **الحيوان** ج ٦ ص ١٦٢.
(٨) أهورا مزدا: هذا الإسم مكون من (اهورا) أي الخالق و(مزدا) أي المعرفة والخير.
أنظر: De Lafont, Le Mazdeisme; L'avesta p. 139; L'avesta p. 152.

ويرمز له بالظلام[1]. لا ينفك عن الاغـرار، وإهاجـة العصيان، ومصـدر الانقلاب، وان كلًا منهما (أهورا مزدا وأهريمن) قد خلق جوقاً من الأرواح الخاضعة لأوامره، والمنفذة لإرادته[2].

وكانت المجوس تعتقد أن هناك صراعاً دائمًا بين آلهة الخير وآلهة الشر، وان أعمال الإنسان من صلاة ونحوها تعين إله الخير في منازلة إله الشر، فاتخذوا النار رمزاً لإله الخير يوقدونها في معابدهم حتى تقوى على آلهة الشر وتنتصر عليها[3]، ولهذا فاختصت المجوسية بالتثنية، وقد أثبتوا أصلين اثنين، يقتسمان الخير والشر، والنفع والضرر، والصلاح والفساد، يسمون أحدهما النور[4] والآخـر الظلمـة، وعلى هـذا الأساس يـرى الشهرستـاني[5] (ت ٥٤٨ هـ/ ١١٥٣ م) ان العقيدة المجوسية تستند على قاعدتين:

إحداهما: بيان سبب امتزاج النور بالظلمة، والثانية: بيان سبب خلاص النور من الظلمة. فيقول: وجعلوا الامتزاج مبدأ، والخلاص معاداً. ويقول المجوس أن النور أزلي، والظلمة محدثة، واختلف في سبب حدوث الظلمة: أمن النور حدثت، والنور لا يحدث شراً جزئياً فكيف يحدث أصل الشر؟ أم من شيء آخر؟ ولا شيء يشرك النور في الإحداث والقدم، وبهذا يظهر خبط المجوس واضطراب عقيدتهم.

هذه بعض مظاهر عقائد المجوسية، وقد تفرقت إلى عدة فرق أشهرها: الزرادشتية، والمانوية، والمزدكية، وهناك فرق مجوسية ضعيفة وقليلة الأهمية بالنسبة للفـرق الثلاث الأولى وهم: الـديصانيـة، والمرقـونية، والصيـامية، والتناسخية، وغيرهم[6]. وسنتناول دراسة هذه الفرق الثلاثة المهمة وهي:

---

(١) ابن منظور: **لسان العرب** ج ٨ ص ٩٩.

(٢) انظر: سليم البستاني: **أديان الفرس** مجلة الجنان ج ٢ ص ٥٤ ــ ٥٥.

(٣) انظر: الخربوطلي: **المجوسية والمجوس** ص ١٤٧؛ الليثي: **الزندقة والشعوبية** ص ٩٥.

(٤) ابن منظور: **لسان العرب** ج ٨ ص ٩٩ (L'avesta p. 152).

(٥) الشهرستاني: **الملل** ج ١ ص ٢٣٢ ــ ٢٣٣.

(٦) الشهرستاني: **الملل** ج ١ ص ٢٣٥ ــ ٢٣٦؛ الغزالي: **فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة** ص ٢٩؛ الرازي: **اعتقادات فرق المسلمين والمشركين** ص ٨٨.

١ ـ الزرادشتية:

إن أول من دعا إلى الزرادشتية هو زرادشت[١] الذي توجد عنه في الكتب اليونانية، والآثار الفارسية، والعربية معلومات، وإشارات مختصرة وناقصة، فيها كثير من التناقض، والاختلاف، كما دخلت حياته كثير من الأساطير التي تزيد من صعوبة دراسته، فهو ينتمي إلى قبيلة ماجي في ميديا، وقد عاش في منتصف القرن السادس الميلادي، وتوفي في سنة **٥٨٣** ق.م. وقد أخذ يبشر بدينه في مختلف البلاد الفارسية دون أن يلقى نجاحاً يذكر حتى استطاع أن يقنع جشتاسب أبو الملك الأخاميني دارا الذي كان حاكمًا على باكتيريا، وقد كان لانضمام جشتاسب، ووزيره جماسب أهمية كبرى، إذ صاروا له سنداً سياسياً مكنه من نشر الدعوة بحمايتهم، وقد أصبح للزرادشتية نفوذ كبير في الدولة الساسانية، وأصبحت تتمتع بصلاحيات تشريعية تمس الحياة الروحية والأخلاقية للشعب، وكانت تتطلب من الدولة أن تعينها على اضطهاد الهراطقة والكفار، ولا ريب أن اعتراف الدولة بالدين الزرادشتي، وحمايتها له كان له أثر كبير في نشر هذه الديانة كما أن الحكومة أخذت تعتمد على الموابذة في تثبيت أقدامها بالتحشيد الروحي للجماهير الشعبية حيثما كانوا، الأمر الذي مكنها من البقاء مدة أكثر من ثلاثة قرون قوية، وجعلها تصمد تجاه الأخطار التي تهددها من الشرق والغرب، ولكن في الوقت نفسه كان على الحكومة واجب السهر على تنفيذ تعاليم الدين، ومقاومة حركة الهرطقة والكفر، وتطلب منها أيضاً الاهتمام ببناء بيوت النيران، ورعاية رجال الدين واحترامهم.

ادعى زرادشت أن النبوة نزلت على جمشيد ملك الفرس فلم يستطع

---

(١) زرادشت: معناه النجم الذهبي (ابن حزم، الفصل في الملل ج١ ص١١٥؛ الرازي: اعتقادات ص٨٦ وقيل: إن زرادشت منحدر من أصلاب اللاجئين الفرس المقيمين في الهند (An Ency of Religion (art Avesta) p. 49) ويقول عنه الرازي: أنه شخصية واقعية دعا أول الأمر عشيرته ثم هاجر إلى خراسان فآمن به جشتاسب وابنه اسفنديار، وكانت له ثلاث زوجات (الرازي اعتقادات ص٨٦) وزعم الزرادشتية أن الله جعل روح زرادشت في شجرة وأنشأها في أعلى عليين، وأحف بها سبعين من الملائكة المكرمين، وغرسها في أحد جبال =

حملها، فحملها هو فكان الله يكلمه وينزل عليه الوحي، ومن تعاليمه أن يوم القيامة قريب[1]، ويروي الشهرستاني (ت ٥٤٨ هـ/ ١١٥٣ م) قول زرادشت في النور والظلمة، وأنهما أصلان متضادان، وهما مبدأ موجودات العالم، وان الله خالق النور، والظلمة، ومبدعهما، وهو واحد لا شريك له، ولا ضد، ولا ند[2] وان الخير والشر، والصلاح والفساد إنما حصلا من امتزاجهما، وان الله تعالى هو الذي مزجهما لحكمة رآها في التركيب، وأنهما لو لم يمتزجا لما كان وجود للعالم، وأنه لا يزال الامتزاج حتى يغلب النور الظلمة ثم يخلص الخير في عالمه، وينحط الشر إلى عالمه وحينئذ تكون القيامة[3].

وبدأ زرادشت في نشر تعاليمه في بلخ بعد اعتناق الملك الفارسي جشتاسب دينه، وانتشرت بعد ذلك منها إلى جميع أرجاء فارس[4]. أما الأسس التي قامت عليها تعاليم زرادشت أن العالم تسيره وتسيطر عليه قوتان قوة الخير، ومصدرها إله الخير (أهورا مزدا)[5] فهو الذي نشأ منه العالم، وهو مصدر الحكمة والنظام، وهو الذي يقرر مسالك النجوم، ويسند الأرض، ويحرك القمر، ويسيّر الريح والغيوم، وخلق الضياء، والنور واليقظة، والصبح، والليل. وصفاته الطبيعية الفكر الحسن، والحق، والحلم، والصلاح، والخلود. أما القوة الثانية فهي قوة الشر، ومصدرها (اهريمن)[6]. فهو الذي خلق

= أذربيجان (الشهرستاني، الملل ج ١ ص ٢٣٧)، وقد نسب الزرادشتية إلى زرادشت معجزات كثيرة منها: دخول قوائم فرس جشتاسب في بطنه، وأنه مر على أعمى بالدينور فقال: خذوا حشيشة وصفها لهم، واعصروا ماءها في عينه فإنه يبصر، ففعلوا فأبصر الأعمى) (الشهرستاني، الملل ج ١ ص ٢٩٨) ويظهر من المعجزة الثانية أن له خبرة بخاصية الحشائش وفوائدها وليس فيها شيء من المعجزات.

(١) ابراهيم علي سالم: **النفاق والمنافقون** ص ٣٣٤.

(٢) الشهرستاني: ج ١ ص ٢٣٧؛ القلقشندي: **صبح الأعشي** ج ١٣ ص ٢٩٣.

(٣) القلقشندي: **صبح الأعشى** ج ١٣ ص ٢٩٣.

(٤) الدنيوري: **الأخبار الطوال** ص ٢٥؛ ابن خلدون: **العبر** ف ٢ م ٢ ص ٣٢٣.

(٥) أنظر: الخربوطلي: **المجوسية والمجوس** ص ١٤٨؛ ماجد: **التاريخ السياسي** ج ١ ص ١٩٢.

(٦) انظر: الخربوطلي: **المجوسية والمجوس** ص ١٤٨.

الظلمة، والموت، والشرور، والآثام، والقذارة في العالم، وبين إله الخير وإله الشر صراع مرير دائم، وكفاح مستمر، وعداء مستحكم، يتبادلان فيه النصر، ولكن في النهاية يكون الفوز والنصر لأهورا مزدا[١] وذلك لأن الكون مقسم بينهما، ولكل منهما جيش في السماء، وفي الأرض، فأهورا مزدا في السماء يرأس ستة وزراء يتبعونه، وهم: الأمشينتا أو باميشاسنيتاس (الخالـدون) ويتكون هؤلاء الأرواح أو الوزراء من بهمن (التفكير الطيب) وأردبهشت (الفضيلة) وشهردار (العالم المقصـود) وسنيدرمـز (السخاء) وخـرداذ (الصحة) ومـرداذ (الخلود)، ويحفظ في هؤلاء الوزراء الكائنات[٢]، ففي بهمن تكون الكائنات الناصفة، وفي أردبهشت النار، وفي شهردار المعادن، وفي سنيدرمز الأرض، وفي قرداذ، ومرداذ المياه، والنبات، وهذه القوى بعضها سماوي، وبعضها أرضي، فرئيس القوى السماوية هو أهورا مزدا، ورئيس القوى الأرضية هو زرادشت. وهذان هما رؤساء الشمس، والقمر، والنجوم، والأرض، والهواء والنار والماء والنصر، والسلم، والقوة. فالنار ابنة أهورامزدا، والشمس عمته يسحبها فيل ويتلوها القمر (ماه) والشعري، ولذا فقد عظموا الشمس والنيران، فأقاموا بيوت النار[٣] في المعابد وعلى رؤوس الجبال باعتبارها مصدر النـور الذي هو أساس الخير الذي يحرق الشر[٤].

أما أهريمن فله قوى شريرة تنصره من الشياطين ويتمثلون في الأفكار الشريرة، وله أيضاً ستة أرواح أو وزراء تقابل أرواح أهورامـزدا في القوة والشوكة[٥]، وتسكن هذه القوى الشريرة في الشمال في جبال البرز.

وفي نظر المجوس الزرادشتيين: ان اهريمن وجد بعد وجود أهورا مزدا،

---

(١) الرازي: **اعتقادات فرق المشركين** ص ٨٦؛ (L'avesta p. 48).

(٢) انظر: البستاني: **دائرة المعارف** م ٤ ص ٥٧٧.

(٣) الشهرستاني: **الملل** تحقيق (Cureton) ص ١٩٧، طبعة (London).

(٤) انظر: عبد المنعم ماجد: ج ١ ص ١٩٢.

(٥) انظر: البستاني: **دائرة المعارف** م ٤ ص ٥٧٨.

بدليل ما أشار إليه الشهرستاني[1] (ت ٥٤٨ هـ/ ١١٥٣ م) بقوله: «زعموا أن الدنيا كانت سليمة من الشرور، والآفات، والفتن، وكان أهلها في خير ونعيم خالص، فلما وجد أهريمن حدثت الشرور والآفات والفتن»، وما يزال الصراع قائماً ومستديماً وقوياً بين هذه الأرواح المتكافئة في القوة والبطش إلى انقضاء الزمن، وانقراض العالم، ويتم النصر فيه لأهورا مزدا[2].

ولعل فكرة الخير والشر لها شبه في عقيدة المسلمين متمثلة في فكرة الخير ممثلة في الله، وفكرة الشر ممثلة في إبليس[3].

لقد عبد المجوس الزرادشتيين الشمس (مهر)[4] وكان يزدجرد الثاني يقسم بها، ويعتبرها الإله الأعلى الذي ينير الدنيا بأشعته، والذي يدفىء بحرارته المخلوقات جميعاً[5].

ويعتقد زرادشت أن العالم يدوم إثني عشر ألف سنة تنقسم إلى أربعة عصور كل عصر منها ثلاثة آلاف سنة، ففي العصر الأول يكون الإلاهان راقدان بهدوء بجانب بعضهما، وعالم النور في الأعلى، والظلمة في الأسفل يفصل بينهما الهواء[6]، ثم يخلق أهورامزدا من طبيعته فيخرج أهريمن من مكمنه، وتنشب بينهما حرب تدوم ثلاثة عصور تخلق في أولها المادة من سماء وأرض وماء ونبات وحيوان وكيومرث (الجد الأول للإنسان) أي (آدم)، ويخلق أهريمن الشياطين، وأرواح الشر، ويهاجم بها أهورامزدا، ومخلوقاتهم ويلوثهم بالشجرة الملعونة وتستمر المعركة في كافة أنحاء الكون، وفي قرارة النفس البشرية.

---

(١) الشهرستاني: الملل ج ١ ص ٤٩.
(٢) انظر: الخربوطلي: المجوسية والمجوس ص ١٥٠.
(٣) انظر: عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسي للدولة العربية ج ١ ص ١٩٣.
(٤) سميت الشمس (مهر) بسبب سخائها الشامل وكرمها العادل ولأنه ليس فيها مكراً أو جهل (كريستنس ص ١٣٢).
(٥) انظر: كريستنس: ايران في عهد الساسانيين ص ١٣٢.
(٦) انظر: كيستنس: ايران في عهد الساسانيين ص ١٣٦.

وتعتقد الزرادشتية بحرية الإرادة للإنسان فيما يفعله، ولكن خالقه يحاسبه على ما تعمل يداه، لذا ينبغي أن يسير بالطريق الصالح، والعمل الخير ليحفظ روحه وجسمه نقياً من الآثام وإلا أصبحت عرضة لتقرير إله الشر، كما يعتقدون بالأنبياء والرسل، حيث أن أهورا مزدا يرسل الأنبياء ليذكر الناس ويرشدهم نحو الطريق السليم، ومن هؤلاء الأنبياء كيومرث (آدم) وزرادشت آخر نبي، ويعتقد زرادشت بخلود الروح، ويقول: إن الروح تقاسي بعد وفاة الإنسان مدة ثلاثة أيام ثم تصعد من جسمه، وتمر على الصراط، وهناك تجري محاكمتها أمام ثلاثة قضاة، فيزنون أعمال الإنسان، فمن ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية، ومن خفت موازينه ذهب إلى الهاوية حيث الجحيم، وأما من تعادلت موازينه فيبقى في مكان يتوسط الجنة والنار، وتمر روحه بحياة هادئة أبدية. وفي هذه الأماكن الثلاث تنتظر الأرواح حتى يوم القيامة حيث يرد أهورامزدا إلى الأرواح أجسادها على أن تحاكم ثانية في الآخرة[١].

وبجانب هذه التعاليم الدينية تعاليم أخرى فلسفية، وأبحاثاً فيما وراء المادة، ولكنها غير متكاملة تكامل فلسفة اليونان، وتذكر هذه التعاليم: ان للنفس الإنسانية قوى مختلفة هي: (الضمير أو الوجدان) و(القوة الحيوية) و(القوة العقلية) و(القوة الروحية) و(القوة الواقية)[٢].

ويعتقد زرادشت أن حركات الإنسان مقسمة إلى ثلاثة أقسام (منشى) و(كونس)و(كنش) يعني بذلك الاعتقاد والقول والعمل. وإذا قصر الإنسان فيها خرج عن الدين والطاعة، ويدين الفرس بالبعث، ويؤمنون بالحياة الأخرى، ويعتقدون أن روح الميت الصالح إذا فارقت الجسد استقبلها الديان في صورة فتاة حسناء تحف بها الأزهار ذات الرائحة الطيبة، ويعتقدون أن الصراط فوق جهنم، وإن الأشرار يقعون في نار جهنم[٣] وان مثل هذه الفكرة موجود عند العامة من المسلمين.

---

(١) أنظر: كريستنس: ايران ص ١٣٧؛ الليثي: الزندقة والشعوبية ص ٩٨.

(٢) انظر: ابراهيم علي سالم: النفاق والمنافقون ص ٣٣٤.

(٣) انظر: الخربوطلي: المجوسية والمجوس ص ١٥١.

ويلاحظ أيضاً أن أقوال المعتزلة في الجبر والاختيار، وقول الصوفية في أقسام النفس كله مطابق لتعليمات زرادشت[1]، وقد تنبأ زرادشت بظهور المسيح، وأمر أتباعه بحمل القرابين إليه عند ولادته، وان من علامات ظهوره بزوغ كوكب يضيء بالنهار، ويرى في وسطه صورة صبية عذراء. . . فامضوا إليه حيث يهديكم، واسجدوا لذلك المولود، وقربوا قرابينكم فهو الكلمة المقيمة في السماء[2].

وقد اختلف الباحثون في زرادشت هل هو موحد أم ثنوي؟ فيرى بعضهم، ومنهم الشهرستاني والقلقشندي أنه موحد، ويرى غيرهم أن زرادشت كان من الناحية اللاهوتية موحداً، ومن الناحية الفلسفية ثنوياً لأنه يرى أن للعالم إله واحد، وأن الخير والشرفية يتطاحنان[3]، في حين كان الرأي الغالب أنه ثنوي حيث ورد في كتابات الأوروبيين، وفي دائرة المعارف البريطانية (مادة زرادشت)[4] أي أنه من ناحية العقيدة الدينية كان يرى أن للعالم إلهاً واحداً، ولكن إذا تعرض لشرح فلسفة العالم، وما فيه من خير وشر فهو ثنوي لأنه يرى أن في العالم قوتين[5].

وتعتقد المجوسية بالزمزمة، وهي من الشعائر الدينية لدى الزرادشتية، وتستعمل الزمزمة عند تناول الطعام، أو حين الاغتسال، وهو إحداث صوت لا يستعمل فيه اللسان ولا الشفة، وإنما يديرونه في حلوقهم فيفهم بعضهم عن بعض[6].

---

(١) انظر: سالم: **النفاق والمنافقون** ص ٣٣٥؛ كريستنس ص ١٣٧.
(٢) ابن العبري: **تاريخ مختصر الدول** ص ٤٩.
(٣) انظر: سالم: **النفاق والمنافقون** ص ٣٣٥؛ الخربوطلي: **المجوسية** ص ١٥٢.
(٤) انظر: (The Ency Bretanica (Zarathustra).
(٥) انظر: أحمد أمين: **فجر الإسلام** ص ١٢٧.
(٦) الجاحظ: **البيان والتبيين**: ج ٣ ص ١٣؛ المقدسي: **البدء والتاريخ** ج ٤ ص ٢٧.

ويرى زرادشت أن أشرف عمل للانسان الزراعة وتربية الماشية، فحبب إلى الناس أن يزرعوا، ويعتنوا بمواشيهم، كما أنه حرّم على أتباعه الصوم لأنه يضعفهم عن العمل، ويرى أن الهواء والنار والماء والتراب عناصر طاهرة لا تتنجس، فقدّس النار، واتخذها رمزاً، وحرّم تنجيس الماء الجاري، كما حرّم دفن الموتى في الأرض[1].

ومن أحكامهم وشعائرهم الدينية: استحلال نكاح الأخوات، والبنات، والأمهات، ويحتجون على من خالفهم بفعل آدم، ويأكلون الحيوانات ما يأكله المسلمون، ويعظمون النيران، والنيروز والمهرجان، ويزعمون أن أرواح موتاهم ترجع إلى منازلهم في أيام الأعياد، فينظفون البيوت، ويضعون الأطعمة المختلفة وإذا احتضر أحدهم قربوا منه كلباً، ويزعمون أن الشيطان يحضره عند مفارقة الروح فيتلبس بجسده كظل شجرة إذا وقع على الحائط، فإذا التفت إليه الكلب فزع منه ففارقه، ولا يجوز عندهم أن يقربوا الميت من الماء والنار، ومن مسّه وجب عليه الغسل لأنه نجس بانتقال روحه، والزكاة واجبة عليهم من جميع أموالهم أن يخرجوا الثلث منها للفقراء، والمضطهـدين من أهل ملتهم وفي غيرهم، وفي إصلاح القناطر، وكنس الأنهار، وعمارة الأرض، وينكحون من النساء ما شاءوا، وكيف شاءوا، ولا يقع الطلاق إلا بأحد ثلاثة أشياء: الزنى، السحر، وترك الدين، والسكر والزنى والسرقة عليهم حرام، وعقوبة الزاني أن يضرب ثلثمائة خشبة (سوط) أو يؤخذ منه ثلاثمائة أستار فضة، ومن سرق وشهد عليه ثلاثة عدول، وأقر خرم أنفه، وأذنه، ويسمون ذلك (درونيس) ويغرم بمثل قيمة ما سرقه، وإن كرر ذلك كرر عليه العمل، ومن قطع الطريق أخذ منه قيمة ما أخذ أربع مرات وقتل، ومن خرج على السلطان فعقوبته أول مرة قطع اليدين من المعصم، وفي الثانية قطعها من الذراع، وفي الثالثة من الكتف، وفي الرابعة ضرب عنقه، فإن كان خروجه على السلطان في قول مواجهة فقئت عيناه، فإن كان سعى سعياً قطعت رجلاه[2]، حيث اعتبرت

---

(١) أنظر: أحمد أمين: فجر الإسلام ص١٠٣؛ الخربوطلي: المجوسية ص١٥١؛ الليثي: الزندقة ص ٩٨.

(٢) المقدسي: البدء والتاريخ ج ٤ ص ٢٧ ــ ٢٩.

الزرادشتية خروج الفرد على السلطان خروجه عن الدين وتعرضه لخطر الموت.

٢ ـ المانوية[١]:

وهي الفرقة الثانية من طائفة المجوسية وتنسب إلى ماني بن فاتك، ويقول المستشرق كريستنسن[٢]: أن أمة كانت من العائلة الاشكانية وقد هاجر والده فاتك من بلده همدان إلى بابل، حيث أقام في قرية ولاية ميسان، وهناك كان يحضر مجالس المغتسلة (الصابئة) وفيها ولد ماني سنة **٢١٥** أو **٢١٦ م**).

كانت المانوية من الأديان الكبرى التي انتشرت في العهد الساساني، وظلت رغم اضطهاد الساسانيين لها إلى أوائل العصور الحديثة، ولم تقتصر على الشرق الأوسط، بل امتدت إلى أواسط آسيا في الشرق في الهند والصين[٣] وإلى الدولة البيزنطية وجنوب ايطاليا وفرنسا وشمال أفريقيا، وقد دعا القديس أوغسطين (**٣٥٤ ـ ٤٣٠**) إلى هذا المذهب وعمل على نشره زهاء ثمان سنوات[٤].

ادعى ماني النبوة، وزعم أن الوحي ينزل عليه في صورة ملاك اسمه (القرين) فكان أول ما نزل عليه: قال له عليك السلام ماني مني، ومن الرب

---

(١) المانوية: تنسب إلى (ماني) وهو من أسرة ارستقراطية في همدان، وقد ولد في أوائل القرن الثالث الميلادي سنة **٢١٥** أو **٢١٦** م وكان أبوه من المغتسلة (الصابئة) وقد ظهرت عليه دلائل النبوغ منذ الصغر حيث أخذه أبوه فاتك إلى طيسفون ليدرس فيها فأخذ يمحص الأديان ويناقشها، ثم أخذ يبث الدعوة لديانته بعد أن خرج من دراسته لهذه الأديان بدين جديد في أوائل حكم سابور الأول سنة **٢٤١** م فطاف البلاد للدعوة إلى دينه فزار تركستان وغربي الصين والهند ثم عاد في أواخر عهد سابور سنة ٢٧٠ م إلى طيسفون محاولاً بث دعوته فيها ولكن رجال الدين الزرادشتيين قاوموه وحرضوا على سجنه ثم أيده هرمز ولكن بهرام قاومه وقتله (كريستنسن، ايران في عهد الساسانيين ص ١٧٠ ـ ١٧١).

(٢) كريستنسن ص ١٧١.

(٣) ابن النديم: **الفهرست** ص ٣٢٨.

(٤) انظر: فان فلوتن: **السيادة العربية** ص ٨٢؛ أحمد أمين: **فجر الإسلام** ص ١٢٩.

الذي أرسلني إليك، واختارك لرسالته، وقد أمرك أن تدعو بحقك، وتبشر ببشرى الحق من قبله، وتحمل في ذلك كل جهدك[1].

وزعم ماني أنه (الفار قليط) الذي بشر به عيسى بن مريم، وأنه خاتم النبيين[2]، وقد أشار إلى ذلك في كتابه (الشابورقان) الذي ألفه لسابور بن أردشير (٢٤١ ــ ٢٧٢): أن الحكمة والأعمال هي التي لم يزل رسل الله تأتي بها في زمن دون زمن، فكان مجيئهم في بعض القرون على يدي الرسول الذي هو (البد) إلى بلاد الهند، وفي بعضها على يدي زرادشت إلى أرض فارس، وفي بعضها على يدي عيسى إلى أرض المغرب، ثم نزل هذا الوحي وجاءت هذه النبوة في هذا القرن الأخير على يدي أنا رسول إله الحق إلى أرض بابل[3].

تقوم العقائد المانوية على نفس الأسس التي قامت عليها الزرادشتية ألا وهو التناقض الظاهري في طبيعة العالم الحاضر سواء في تركيبه أو في سلوك البشر، وأخلاقهم مما حمله على الاعتقاد بوجود عالمين يختلفان عن بعضهما منذ البداية ألا وهما عالم النور، وعالم الظلمة كل منهما يكون مملكة، والضوء هو روح الخير، ومنه تنبعث عشرة فضائل هي الحلم، العلم، العقل، والغيب، والفطنة، والحب، والايمان، والوفاء، والمروءة والحكمة، أما الشر فهو ليس بإله ولكن له دولة، وهو يتجلى في الضباب، والحريق والسموم، والسم والظلمة[4].

وقال ماني: وفي تلك الظلمة كان الشيطان، ولم يكن أزلياً، ولكن جواهره كانت في عناصره أزلية، فاجتمعت تلك الجواهر من عناصره فتكونت شيطاناً رأسه كرأس أسد، وبدنه كبدن تنين، وجناحه كجناح طائر، وذنبه كذنب حوت، وأرجله كأرجل الدواب وتسمى ابليس القديم[5]فهاجم الضياء، فخلق

---

(١) ابن النديم: **الفهرست** ص ٣٢٨؛ سعيد بن بطريق: ج ١ ص ١٣٨.
(٢) البيروني: **الآثار الباقية** ص ٢٠٧؛ الدنيوري: **الأخبار الطوال** ص ٤٧.
(٣) البيروني: **الآثار الباقية** ص ٢٠٧.
(٤) ابن النديم: **الفهرست** ص ٣٢٩؛ كريستنسن ص ١٧٣.
(٥) ابن النديم: الفهرست ص ٣٢٩.

إله الخير الانسان الأول، وأرسله مسلحاً بالعناصر الخمسة النقية، فأولد النسيم والروح والماء والنار والنور لمحاربة الشيطان، ولكن هذا كان أقوى، فدحر الانسان الأول وكاد يسحقه لولا أن تدخل إله الخير، فدمر الشيطان، وحرر الانسان الأول، وقال ماني: ثم خلق الشمس، والقمر لاستصفاء ما في العالم من النور، فالشمس تستصفي النور الذي اختلط بشياطين الحر، والقمر يستصفي النور الذي اختلط بشياطين البرد[1].

وقال ماني: لقد تكونت الدنيا من الأرواح الطيبة، ولكن آدم أحاطه ابليس بالخطيئة، والشهوة الجنسية، وأسقطه فيهما فولد أولاد فيهم مزيج من الخير والشر، وأخذت الشياطين تحاول أن تزيد من قيوده بما تقدمه من شهوات وخطايا، وأديان كاذبة إلا أن إله الخير لا يترك الانسان وحيداً، بل يحاول أن ينقذه، فهو يرسل له كل يوم أشعة النور لتطهره وتنقيه، كما يرسل له بين آونة وأخرى، أنبياء يرشدونه إلى الصلاح وإلى طريق الرشاد.

ويقول المستشرق فان فلوتن[2] عن ماني: أنه حاول التوفيق بين المسيحية والوثنية في الشرق، وقد أخذ عقائدها، وطقوسها عن التوراة، وعن الديانة الفارسية القديمة ثم البوذية.

ويقول ابن العبري [3] (ت ٦٨٥ هـ/ ١٢٨٦ م) أن ماني كان قسيساً بالأهواز، وكان يعلم ويفسر الكتب، ويجادل اليهود والمجوس والوثنيين ثم مرق من الدين وسمى نفسه مسيحاً، واتخذ اثني عشر تلميذاً، وأرسلهم إلى بلاد الشرق بأسرها حتى الهند والصين، في حين يقول المستشرق لومون[4] عنه (ماني) أنه كان في الأصل مجوسياً، وتربى في ديانة زرادشت ثم دخل دين النصارى،

---

(١) نفس المصدر السابق ص ٣٣٠.
(٢) انظر: فان فلوتن: السيادة العربية ص ٨٢.
(٣) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص ٧٦.
(٤) انظر: لومون: مختصر تواريخ الكنيسة ص ١٢٨.

ولكنه لم يتمسك بعقيدته، بل ظل بغوايات كثيرة حتى أن الكنيسة طردته من حظيرتها.

ويقول ابن الأثير[1] (ت ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٢ م) أن آرائه كانت مزيجاً من المانوية والمسيحية. ويقول الدنيوري[2] (ت ٢٨٢ هـ/ ٨٩٥ م) أنه دعا الناس إلى مذهب جديد بين المسيحية والمجوسية، وقد فسرها المستشرق براون[3] (Browun) بأنها زرادشتيه منصرة أكثر منها نصرانية مزردشة. ولذا فقد تأثرت المانوية ببعض الأفكار المسيحية منها فكرة (الأب العظيم) الذي يصدر عنه كل خير، وكذلك فكرة الانسان الأول (الرجل القديم) و (أم الحياة) التثليث المانوي تقابل عند النصارى الأب والابن وروح القدس[4]، كما أن تأثر ماني بالمسيحية دفعه إلى الاعتراف بنبوة المسيح، ويرى: أن عذاب المسيح ما هو إلا رمز أسر روح النور في العالم السفلي، وأن المسيح هو الذي يعبر عن فكرة الخلاص، ولم يقر ماني بنبوة موسى، ولم يعترف بالعهد القديم (التوراة)، وهو يعترف بنبوة شيت، ونوح، وابراهيم، وزرادشت، والمسيح، وبولس بعد المسيح. ثم يقول: يأتي خاتم النبيين إلى أرض العرب[5].

ويعتقد ماني بالتناسخ[6] فيقول: ان الأرواح التي تفارق الأجسام نوعان:

---

(١) ابن الأثير: **الكامل** ج ١ ص ٢٢٦.

(٢) الدنيوري: **الأخبار الطوال** ص ٤٧؛ القلقشندي: ج ١٣ ص ٢٩٦؛ ابن النديم: **الفهرست** ص ٣٢٨؛ البغدادي: **الفرق بين الفرق** ص ١٦٢؛ الشهرستاني: ج ١ ص ٢٤٤.

(٣) انظر: (Browun History of Persia).

(٤) أنظر: كريستنسن: **ايران في عهد الساسانيين** ص ١٨١.

(٥) الشهرستاني: **الملل والنحل** ج ١ ص ٢٤٨.

(٦) قال قوم من الثنوية والفلاسفة: إن الأرواح تنسخ من أربعة أجناس، نسوخ ومسوخ وفسوخ ورسوخ، فأما النسوخ ففي أجساد الآدميين تنقل الروح من بدن إنسان إلى إنسان آخر. والمسوخ ما ينقل من أرواح الآدميين في البهائم والسباع والطير، والنسوخ ما يمسخ في دواب الأرض والماء، والرسوخ ما يمسخ في أنواع الشجر والنبات (كتاب الزينة في الكلمات الاسلامية العربية) مخطوط للشيخ أبي حاتم ص ٨٠، أحمد بن حمدان الرازي: تحقيق الدكتور عبد الله سلوم السامرائي.

أرواح الصديقين، وأرواح أهل الضلالة، فأرواح الصديقين إذا فارقت أجسادهم أسرت في عمود الصبح إلى النور الذي فوق الفلك فبقيت في ذلك العالم على السرور الدائم، وأما أرواح أهل الضلال إذا فارقت الأجساد، وأرادت اللحوق بالنور الأعلى ردت منعكسة إلى السفلى، فتتناسخ في أجسام الحيوانات إلى أن تصفو من شوائب الظلمة، ثم تلتحق بالنور العالي[1].

وقال ماني: كزرادشت أن العالم نشأ من أصلين، النور والظلمة، فمنشأ النور الخير، ومنشأ الظلام الشر، وما يصدر عن الانسان من خير فمصدره إله الخير، وما يصدر عنه من شر فمصدره إله الشر، وهو يختلف مع زرادشت في نهاية العالم، حيث يعتقد زرادشت أن الخير سيعم أخيراً، أما ماني فكان متشائمًا، حيث يرى: أن الامتزاج لا مفر منه إلا بالموت، كما يختلف عنه في ناحية أخرى أكثر أهمية في حياة المجتمع، وهو أن زرادشت كان يفرض على أتباعه أن يتزوج، وينسل، ويعتني بالزراعة وتربية الماشية، ويقوي بدنه، ولا يصوم، وهو بهذا ينصر إله الخير على إله الشر، أما ماني فإنه نزع منزعاً أشبه ما يكون بحياة الرهبنة، ففرض على أتباعه تحريم النكاح حتى يعجل في إفناء البشرية، ودعا إلى الزهد، وشرع الصيام سبعة أيام في كل شهر، وفرض صلوات كثيرة على أتباعه يستقبل فيها الرجل الشمس، ويسجد لها اثنتي عشرة سجدة، ونهى عن ذبح الحيوان لما فيه من إيلام، وأقر بنبوة زرادشت وعيسى وقال: ان ماني النبي الذي بشر به عيسى[2] وفرض ماني على أصحابه العشر في الأموال كلها، والصلوات الأربع في اليوم والليلة، والدعاء إلى الحق، وترك الكذب، والقتل، والسرقة، والزنى، والبخل، والسحر، وعبادة الأوثان[3].

ويقول البيروني[4] (ت ٤٤٠ هـ/ ١٠٤٨ م) في شرائع وأحكام ماني، وشرع

---

(١) البغدادي: **الفرق بين الفرق** ص ١٦٢؛ ابن العبري: **تاريخ مختصر الدول** ص ٧٧.

(٢) انظر: الخربوطلي: **المجوسية** ص ١٥٣ ـ ١٥٤؛ الليثي: **الزندقة** ص ١٠٢؛ أحمد أمين: **فجر الإسلام** ص ١٣٠.

(٣) الشهرستاني: **الملل** ج ١ ص ٢٤٨؛ ابن النديم: **الفهرست** ص ٣٣٣.

(٤) البيروني: **الآثار الباقية** ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨.

نواميس يفترضها الصديقون، وهم أبرار المانوية، وزهادهم، على أنفسهم من إيثار المسكنة وقمع الحرص، والشهوة، ورفض الدنيا، والزهد فيها، ومواصلة الصيام، والتصدق بما أمكن، وتحريم اقتناء شيء، فلا قوت إلا يوم واحد، ولباس سنة، وفرض رسوماً على (السماعين) أعني أتباعهم، والمستجيبين لهم بالتصدق بعشر الملك، وصوم سبع العمر، والاقتصار على امرأة واحدة، ومؤاساة الصديقين، وإزاحة عللهم.

ويعظم عامة المانوية يوم الأحد، ويوم الاثنين بعظمة خواصهم[1]، كما يعتقد ماني: أن كل انسان يحاسب في يوم الآخرة على عمله فإن كان خيراً يجزى به، وإن كان شراً فيجزى به أيضاً، وأهل الخير إلى جنات النعيم، وأهل الشر إلى جهنم[2].

ويبدو أن ماني حاول أن يجعل من دينه عالمياً، وليس ديناً قومياً، وبذلك أراد نشره خارج بلاد فارس فيقول اليعقوبي[3] (ت ٢٨٤ هـ/ ٨٩٧ م) أنه ذهب إلى الهند وبشر فيها بمذهبه وقد عاد إلى فارس فوجد مقاومة شديدة من سابور الأول فهرب، وعاد في عهد بهرام الأول (٢٧٣ ــ ٢٧٦ م) وقبض عليه بهرام، واتهمه بالخروج على الدين المجوسي، وقتله ثم صلبه وسلخ جلده، وحشاه تبناً، وعلقه على باب من أبواب مدينة جنديسابور يدعى باب ماني[4].

وقال البيروني (ت ٤٤٠ هـ/ ١٠٤٨ م) في الآثار: أن بهرام قال: ان هذا (ماني) خرج علينا داعياً إلى تخريب العالم، فالواجب أن نبدأ بتخريب نفسه قبل أن يتهيأ له شيء من مراده، وقتل بهرام أيضاً من أتباعه اثني عشر ألفاً، ومع

---

(١) ابن النديم: **الفهرست** ص ٣٣٤.

(٢) المصدر السابق ص ٣٣٥.

(٣) اليعقوبي: **تاريخ** ج ١ ص ١٨١.

(٤) الطبري: ج ٢ ص ٥٣؛ ابن الأثير: ج ١ ص ٢٢٧؛ المقدسي: **البدء** ج ٣ ص ١٥٨؛ ابن العبري: ص ٧٧؛ ابن خلدون: **العبر** ص ٢٤٦.

دلك انتشرت المانوية بعد موت ماني بين الفرس، وفي خارج بلادهم، وقد تأثر بتعاليم ماني كثيراً من بطارقة بيزنطة[1]. وقد جزع النصارى من دين ماني الذي بدا لهم أنه يفسد الأساس الحق لدينهم[2].

وقد اضطر أتباع ماني إلى الهرب بسبب الاضطهاد الذي لقيه دينهم بعد مقتل ماني، فعبروا نهر بلخ، ودخلوا مملكة الترك بما وراء النهر، فلما اندثر أمر الفرس، وقوى أمر العرب عادوا إلى هذه البلاد في أيام خلفاء بني أمية، وأصبح مركزهم في خراسان، ودفعوا الجزية، وعوملوا معاملة أهل الذمة[3].

وقد اتخذ المانوية لهم عيداً سموه (بيما) ذكرى لمقتل نبيهم الشهيد، وفي هذا العيد ينصب منبر ويرمز إلى المحضور الروحي لنبيهم الغائب[4].

وقد تولى رئاسة الديانة المانوية بناء على وصية ماني أحد تلاميذه المسمى سيس أو (سيسين) وقد أقام هذا في بلاد بابل التي أصبحت منذ ذلك الوقت مقاماً للهيئة العليا لأتباع المانوية، وقد حلّ اينايوس محل سيس في رياسة المانوية بعد صلب هذا الأخير[5].

وقد شغلت تعاليم المانوية جزءاً غير قليل من علم الكلام عند المسلمين في العصر العباسي يذكرون آراءهم، ويعنون بالرد عليها لما أثارت المانوية من مسائل كثيرة، كالبحث في المعاد هل هو بالأجسام أم بالأرواح، ويظهر أنهم في أول الأمر خافوا من قوة وسلطان الخلافة العباسية فتستروا بالإسلام، أو النصرانية ليتسنى لهم الاستمرار في الدعوة إلى مذهبهم، ويكونوا في مأمن من الاضطهاد.

---

(١) انظر: سعيد بن بطريق: ج ١ ص ١٣٨.
(٢) انظر: كريستنسن، ص ١٨٩.
(٣) ابن النديم: **الفهرست** ص ٣٣٧.
(٤) انظر: كريستنسن: ص ١٨٧.
(٥) المصدر السابق ص ١٨٩.

(٣) المزدكية[1]:

وهي الفرقة الثالثة المهمة من فرق المجوسية فقد ناقش مزدك ــ كما فعل ماني من قبل ــ العلاقة بين النور والظلمة، وهو يختلف عن مذهب ماني لأنه يقول: ان الظلمة لا تعمل كما يعمل النور. بالقصد، والاختيار، ولكنها تفعل على الخبط، والإنفاق[2] فوضع للنور مكانة أعلى مما وضعته المانوية فقال: ان النور انتصر على الظلام، فلم تبق فيه إلا ذرات عالقة آخذة بالتطهير، واعتبر للنور ثلاثة عناصر هي: الماء، والنار، والتراب، أما ماني: فقد كان يرى أنها خمسة عناصر هي: الأثير والهواء، والضوء، والماء، والنار، ويرى مزدك: أن إله النور الذي يجلس على عرشه في العالم على هيئة قعود كسرى في العالم الأسفل، وبين يديه أربعة قوى هي: التمييز، والفهم، والحفظ، والسرور. كما بين يدي كسرى أربعة أشخاص هم: الموبذان موبذ، والهربذان هربذ، والاصبهبذ[3]، والسرامشكر (صاحب الموسيقى) وهذه القوى الأربعة تدبر أمر العالم بسبعة وزراء هم:

سالار (الزعيم) بيشكار (الرئيس) بارور (حامل العبء) براون (الوكيل) كاردان (الخبير) دستور (المستشار أو الوزير)، كاوذك (الغلام ــ الخادم) وتدور هذه القوى السبعة في اثني عشر كائناً روحياً هم: خواتنده (الداعي أو المتكلم)

---

(١) المزدكية: تنسب إلى مزدك وقد اختلف في مكان مولده فقد ولد حوالي سنة ٤٨٧ م في عهد الملك قباذ الأول (٤٨٨ ــ ٥٣١) فيقول البيروني: ولد في مدينة نسا وكان موبذان موبذ (قاضي القضاة) أيام قباذ بن فيروز (البيروني، الآثار ٢٠٩)، ويقول الدنيوري: أنه من أهل اصطخر (الأخبار الطوال ص ٦٥) وقيل من أهل نيسابور (الخربوطلي، المجوسية ص ١٥٥)، الليثي: الزندقة ص ١٠٣)، ويقول الطبري: ان مزدك ولد في مدينة مذرية، ولعله يقصد مدينة ماذاريا الواقعة على الشاطىء الشرقي لدجلة حيث توجد اليوم مدينة الكوت وكانت هذه المدينة عامرة حتى القرن الحادي عشر الميلادي فقد كان يسكنها أشراف الفرس (لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية ص ٤٤).

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ج ١٣ ص ٢٩٧؛ كريستنسن ص ٣٢٦.

(٣) الأصبهبذ: حكام المقاطعات ويبقى الأصبهنذ حاكمًا على المقاطعة فإذا مات أقاموا مكانه ولده وهو عند الفرس لقب حافظ الجيوش وأمير الأمراء في المقاطعة التي يتولى عليها (معجم البلدان، ياقوت في مادة طبرستان).

دهنده (المعطى) ستاتنده (الأخذ) برنده (الحامل) خورنـده (الأكل) دونـده (الجاري) خيزنده (القائم) كشنده (القاتل) زتنده (الضارب) كنسنده (العامل) آينده (الآتي) شونده (الذاهب) بابنده (الباقي) وكل إنسان اجتمعت له هذه القوى الأربع والسبع والاثنا عشر صار ربانياً في العالم السفلي وارتفع عنه التكليف[1].

وقد عبر مزدك عن رأيه بقوله: ان الناس ولدوا سواء فليعيشوا سواء، وأهم ما تجب فيه المساواة في المال، والنساء، والمرعى، فقال الشهرستاني[2] (ت ٥٤٨ هـ/ ١١٥٣ م) عنه (مزدك) أنه كان ينهي الناس عن المخالفة والمباغضة والقتال، ولما كان أكثر ذلك إنما يقع بسبب النساء والأموال، فأحل النساء، وأباح الأموال، وجعل الناس شركة فيها كاشتراكهم في الماء والنار والكلاء .

وقد فسر مزدك رأيه بالعبارة التي أوردها الطبري[3] (ت ٣١٠ هـ/ ٩٢٢ م) فقال : إن الله إنما جعل الأرزاق في الأرض ليقسمها العباد بينهم بالتساوي، ولكن الناس تظالموا فيها، وزعموا أنهم يأخذون للفقراء من الأغنياء ويردون من المكثرين على المقلين، وأنه من كان عنده فضل من الأموال والنساء والأمتعة، فليس هو بأولى به من غيره.

ويبدو أن تعاليم مزدك الاشتراكية كانت تشبه إلى حد كبير الشيوعية البدائية التي عاشها الإنسان في عصور سحيقة في القدم، ولكن هذه المبادىء استعملت بطريقة الفوضى، وعدم التنظيم، وكان خطرها كبير من الناحية الاجتماعية لأن دعوته الاقتصادية لقيت قبولاً من الشعب، وكانت كفيلة بازدهار مبادئه، ولكن مبادئه الإباحية في النساء هدمت المجتمع الفارسي آنـذاك، فافترص السفلة ذلك، واغتنموه، وكاتفوا مزدك وأصحابه، وشايعوهم فابتلى الناس بهم، وقوى أمرهم حتى كانوا يدخلون على الرجل في داره فيغلبونه على

---

(١) الشهرستاني: الملل ج ١ ص ٢٥٠؛ كريستنسن: ايران ص ٣٢٧.

(٢) الشهرستاني: ج ١ ص ٢٤٩؛ القلقشندي: ج ١٣ ص ٢٩٧.

(٣) الطبري: ج ٢ ص ٩٢ ــ ٩٣؛ ابن الأثير: الكامل ج ١ ص ٢٤١؛ ابن خلدون: العبر ق ٢ م ٢ ص ٣٥٦.

منزله ونسائه، وأمواله لا يستطيع الامتناع منهم، وحملوا قباذ على تزيين ذلك، وتوعدوه بخلعه، فلم يلبثوا إلا قليلاً حتى صاروا لا يعرف الرجل منهم ولده، ولا المولود أباه، ولا يملك الرجل شيئاً مما يتسع به[1]. ولم يكن عندهم لمن أبى عليهم إلا القتل[2]، وحرم مزدك على أتباعه أكل لحم الحيوان، وكل سفك للدماء إنما هو عمل يعوق الجهد في سبيل تخليص الأرواح[3].

وقد انتشرت مبادىء مزدك لما تبعها من نزعة الهوى والإباحية واستفحل أمرها كما أنها لقيت تأييداً من قباذ الأول (٤٨٨ ــ ٥٣١) لرغبته في الحد من نفوذ طبقة رجال الدين (الموابذة) وطبقة الحكام (المرازبة)[4]، فلجأ إلى المزدكية، وذلك عندما ثار عليه أتباع زرمهر أحد كبار حاشيته بسبب التحريض على قتله، فهرب قباذ إلى الهياكلة، وساعدوه في استرجاع عرشه، فعاد وهو حاقد على النبلاء الذين عزلوه كما أن المزدكية كانت تعارض الإقطاع ولا تقره، وكانت غالبية أفراد الشعب ممن أرهقهم النبلاء والإقطاعيون، والذين انضووا تحت دين وزعامة مزدك، فهاجموا الإقطاع، ونهبوا قصورهم، فانتشار المزدكية أثار مخاوف النبلاء والإقطاعيين، وكثيراً من الأرستقراطية، كما أثار رجال الدين الزرادشتيين عليهم، وقد شعر قباذ أخيراً بخطرهم على الدولة بالإضافة إلى الأخطار الخارجية، فتزعم قباذ حركة المعارضة ضد المزدكية وأعانه على ذلك الزرادشتيون والنصارى، ولما ملك أنوشروان قتل مزدك، وأصحابه ممن دخل على الناس في أموالهم وردها إلى أهلها[5]، وأعطى أنوشروان معابد المزدكية للنصارى فاتخذوها كنائس لهم[6]، وقيل: ان قباذ نفسه هو الذي دبر مذبحة مزدك وأصحابه وذلك سنة ٥٢٣ م[7].

---

(١) الطبري: **تاريخ** ج ٢ ص ٩٣؛ المقدسي: **البدء والتاريخ** ج ٣ ص ١٦٧ ــ ١٦٨.
(٢) المقدسي: **البدء والتاريخ** ج ٣ ص ١٦٨.
(٣) انظر: كريستنسن: **ايران** ص ٣٢٨.
(٤) انظر: (L'avesta p. 237).
(٥) الطبري: ج ٢ ص ٩٩؛ ابن الأثير: **الكامل** ج ١ ص ٢٥٦؛ المقدسي: **البدء** ج ٣ ص ١٦٨.
(٦) كريستنسن: **ايران في عهد الساسانيين** ص ٣٤٥.
(٧) انظر: الخربوطلي: **المجوسية والمجوس** ص ١٥٦؛ الليثي: **الزندقة والشعوبية** ص ١٠٤.

وأخذ ملوك الفرس في اضطهاد المزدكيين، وأعادوا الناس إلى الزرادشتية ففر معظم المزدكية إلى الأطراف النائية من بلاد فارس إلى التركستان، وما وراء النهر، وخراسان، وظلوا يمارسون عقائدهم بسرية تامة حتى الفتح الإسلامي، فلم يظفروا فيه بالحرية بالنسبة لبقية الأديان المجوسية بسبب نزعتهم الإباحية، ولأنها تتناقض مع المبادىء الأساسية في الدين الإسلامي، ونظمه الاجتماعية، والاقتصادية، لذا فقد ظلوا يمارسون نشاطهم الديني بكتمان، ولما قام العباسيون بالثورة على الأمويين في خراسان اغتنم (المزدكية) الفرصة فأيدوا أبا مسلم الخراساني، ولكن بعد نجاح الدعوة، وقيام الدولة العباسية أخذت تضطهدهم بشدة، فقاموا بعدة حركات دينية وسياسية سنتكلم عنها في موضوع، (الحركات السياسية والدينية لأهل الذمة).

□ □ □

الفصل الثاني

كتبهم المقدسة
ومصادر الفكر الديني

إن من مصادر الشريعة اليهودية التوراة، وقد قال رجال الدين اليهود أن موسى لم يترك لهم شريعة مكتوبة قط التي تحتويها الأسفار الخمسة، وإنما ترك شريعة شفوية تلقاها التلاميذ من المعلمين، ووسعوا فيها جيلاً بعد جيل، هؤلاء ألفوا في المعابد والمدارس الفلسطينية، والبابلية التلمود الفلسطيني والبابلي[1].

وقد أثار التلمود الجدل بين طوائف اليهود في هل الشريعة الشفوية (التلمود) من عند الله وتجب طاعتها؟ فآمن منهم بأنها أوامر من عند الله، وأضافوها إلى أسفار موسى الخمسة، فتكونت منهم جميعاً التوراة، واتخذت فيها صورتها النهائية المعروفة بالمشنا (التعاليم الشفوية) ووضعت لها شروحاً، وقد

---

(١) لفظ التلمود يعني التعليم، وهو يشمل المشنا والجمارا ولا يختلف التلمودان إلا في الجمارا أو الشروح فهي في التلمود البابلي أربعة أمثالها في التلمود الفلسطيني فيشتمل الأول على ٢٠٤٩ ورقة كبيرة ويشتمل الثاني على ٨٠٠ صفحة. وتنقسم المشنا إلى ستة فصول وكل فصل إلى عدة مقالات يبلغ مجموعها ثلاثاً وستين وتنقسم كل منها إلى عدة تعاليم. ولغة الجمارا البابلية والفلسطينية آرامية، أما لغة المشنا فهي العبرية تتخللها ألفاظ ومفردات من اللغات المجاورة.

ويقول المسعودي: وأول من تكلم بالعبرية ابراهيم الخليل بعد أن خرج من بابل إلى حران وعبوره الفرات فتكلم بها فسميت العبرانية وبها نزلت التوراة غير أن يهود العراق لغتهم هي اللغة السريانية وتعرف بالترجوم يفسرون بها التوراة من العبرانية لوضوحها عندهم ولتعذر فهم العبرانية على كثير منهم. (المسعودي: التنبيه والإشراف ص ٧٩).

اختلف اليهود في العالم في تفسير المشنا وأحكامه، وحاولوا تفسيره بما يلائم وطبيعة العصر[1].

ويقول المستشرق لوبون[2]: وقد ألّف كتاب التوراة في أدوار مختلفة مما جعله مملوءاً بالارتباكات، والاختلاطات، والروايات المرتبة المصنوعة، ففيها الأقاصيص وبها سفر أشعيا، والأساطير والقطع الروائية، والنبذ التعليمية، والأناشيد الدينية، والأغاني الحربية، والقصائد الغزلية والخيالية، والمجموعات الحكمية، والشرعية. وقد اتفق شراح العهد القديم على تعدد النسخ التي جمعت منها كتبه الخمسة، وأهم هذه النسخ نسخة (الوهيم) و(يهوا) ونسخة (الكهنة) و(التثنية). فتسمية نسخة (الوهيم) هي الكلمة التي تطلق فيها على الإله، وكذلك (يهوا) اسم للإله عليها. ونسخة الكهنة لأنهم جمعوا كتب الشريعة التي تخص العقائد، والمراسيم، وأخبار الهيكل والعبادة التي كتب منها على أيام مملكة اسرائيل، وما كتب في السبي البابلي لليهود[3].

فقد أمر موسى وضع نسخة التوراة في تابوت العهد (الأمانة)، وعدم طلوعها إلا في كل سبعة من السنين لإسماع بني اسرائيل، كما وضّح كيفية وضعها في تابوت العهد[4]. فضاعت وقد ذهب بعضهم إلا أن عزرا النبي كان قد عمل نسخة من التوراة بعد انعدامها بإعانة حجى وزكريا المرسلين، وقيل اتفق أهل العلم على أن نسخة التوراة الأصلية، وكذا نسخ العهد العتيق ضاعت في أيدي عسكر بختنصر، ولما ظهرت نقلوها بواسطة عزرا النبي، وضاعت تلك المنقولة في حادثة أنتيوكس (Antykas)، وقيل أيضاً أن نسخ العهد العتيق التي هي موجودة كتبت ما بين سنتي ألف و١٤٠٠م، وأن جميع الكتب التي كانت قد كتبت في المائة السابعة والثامنة أعدمت بأمر محفل شورى لليهود،

---

(١) انظر: ديورانت: **قصة الحضارة** ج ١٤ ص ١١.

(٢) انظر: لوبون: **اليهود في تاريخ الحضارات الأولى** ص ٧٢، ٧٤.

(٣) انظر: العقاد: **أبو الأنبياء** ص ٢٩.

(٤) انظر: **مجلة الخرطوم** (التلمود) ص ٥٨.

لأنها كانت تخالف اعتقادهم مخالفة كثيرة، فقال المؤرخ هورن في المجلد الرابع من تفسيره نسخة سنة ١٨٢٢، بالصفحة ٤٦٣ عن الترجمة اللاتينية (هكذا وقع التحريف والالحاقات الكثيرة في هذه الشريعة من القرن الخامس إلى القرن الخامس عشر). وقال: كريزاسنم في تفسيره التاسع على إنجيل متى (انمحى كثير من كتب الأنبياء لأن اليهود ضيّعوا كتباً لا لأجل غفلتهم بل لأجل عدم ديانتهم، ومزقوا بعضها، وأحرقوا بعضها[١])، وقيل: ان التوراة أودعت طيلة مدة ملك بني اسرائيل عند الكاهن الأكبر الهاروني وحده[٢]. وقد ضاعت التوراة التي جاء بها موسى مع ورثة أخيه هارون، فقد تمكن أحبار اليهود من تدوين توراة حاولوا جاهدين أن تكون قريبة من التوراة التي فقدت مع تابوت العهد، وأضافوا إليها أفكارهم، وآراءهم لأن التوراة المفقودة كانت تحوي اعترافات صريحة بمجيء المسيح، ومحمد، وتتفق مع نصوص القرآن الكريم مع علمهم بعث المسيح، وإتمامه لرسالة موسى[٣].

والتوراة تتضمن خمسة وأربعين سفراً[٤]، ويرى اليهود أن الأسفار الخمسة الأولى هي التوراة التي نزلت على موسى، وأما الأسفار الأربعون الأخرى، فتتضمن أخبار أنبياء بني أسرائيل من بعد موسى وتاريخهم، وأناشيدهم، ونبوءاتهم، والأسفار الخمسة هي: (سفر التكوين) ويتناول الخليقة من آدم، والطوفان، وقصة ابراهيم، وإسحق ويعقوب ويوسف (وسفر الخروج) ويبحث في أحكام العقيدة اليهودية، وفي خروج بني اسرائيل من مصر، وفي أحكام الزواج و(سفر اللاويين) ويتناول أحكام العبادات، والزواج والزنى. و(سفر

---

(١) أيوب صبري: **رسالة في الرد على النصارى** (مخطوط) ورقة ٢٥ ــ ٢٨، و.ظ.

(٢) ابن حزم: **الفصل في الملل** ج ١ ص ١١٣.

(٣) انظر: السموأل: **بذل المجهود في أفحام اليهود** ص ١٤.

(٤) السفر: يسمى كل كتاب من كتب العهد القديم سفر (جواد علي علم ابن النديم بالنصرانية واليهودية ص ٨٩) وقد وردت هذه اللفظة في القرآن الكريم بصيغة الجمع (... ويحمل أسفاراً) (سورة الجمعة: آية ٥)، وينقسم كل سفر إلى إصحاح ويطلق على الاصحاح عند اليهود (براشا) وهي كما ذكرها ابن النديم بمعنى (السورة) وينقسم كل إصحاح إلى (ابسوقات) ومعناها الآيات (جواد علي علم ابن النديم، مجلة المجمع العراقي ص ٩٠).

العـدد) ويروي أخبـار الأسباط، وحيـاة الأسرة، والميـراث. و(سفر تثنيـة الاشتراع) وبه وصايا موسى، ويتضمن أحكام الطلاق أيضاً[1]. وهذه الأسفار جميعاً يتكون منها التوراة، وهو مصدر الشريعة اليهودية عند الربانيين والقرائيين.

والمصدر الآخر من مصادر الشريعـة اليهوديـة هو (التلمـود) ويعتبره الربانيون هو التوراة الثانية، وهو عام (للمشنا) و(الجمارة) ويطلق بنوع خاص على الجمارة وحدها، ولا سيما التلمود البابلي[2] ويتضمن الوصايا العشر[3] والشرائع الدينية والمدنية والتعاليم والأحكام التي بلغها موسى شفاهة لقومه، وجمعها علماء اليهود فيما بعد، وأطلقوا عليها (المنشا)[4] وكان جمعها بعد عودة اليهود إلى فلسطين بعد السبي البابلي حيث خشي اليهود أن تضيع أقوال موسى فجمعوا الأحبار بزعامة الكاهن (عزرا) ودونوها[5]. ومنهم من نسب جمعها إلى سليمان، وداود، ومنهم إلى موسى، والذين عزوها إلى موسى افترقوا في الرأي، فمنهم من قال: سلّمت إليه (موسى) كتابة كما هي أو خلاصتها، وفريقاً قال أنه تلقاها مشافهة، وتحتوي على أحكام دينية، وقضائية، وتفسر أحكام شريعة التوراة، ومعظمها مكتوب باللغة العبرية، وتنقسم إلى ستة أقسام (سداريم) الأول يبحث في الفلاحة (زراعيم) والثاني في الأعياد والمواسم (موعيد) والثالث في النساء (ناشيم) والرابع في العقوبات (تازكين) والخامس في الذبائح والضحايا (قاوشيم أي المقدسات) والسادس (طهروت) في الطهارة والنجاسة، ويقسم كل قسم من هذه الأقسام إلى عدد معلوم من الرسائل، وتقسم الرسائل إلى فصول،

---

(١) انظر: العطار: **أحكام الأسرة عند المسيحيين واليهود** ص ٩ ــ ١٠؛ أحمد أمين: **فجر الإسلام** ج ١ ص ٣٢٨.

(٢) انظر: غنيمة: **نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق** ص ٩٤.

(٣) الوصايا العشر: وتقتصر على الأمور الدنيوية ولم يذكر فيها شيء عن أحوال الآخرة ولا الفرائض الدينية وأن ذلك يعود لغلظ طباعهم وقصورهم عن النظر إلى العالم الروحاني (ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص ١٩).

(٤) المشنا: جاءت من شنا أي كرر وهي تقابل في العربية مادة ثني بمعنى أعاد ثانية واستعيرت للإعادة التي يراد بها حفظ الكلام المعاد (العقاد أبو الأنبياء، ص ٤١).

(٥) انظر: العطار: **أحكام الأسرة** ص ١٠؛ مجلة الخرطوم، (التلمود) ص ٥٦.

والفصول إلى فقرات أو قضايا، وأن عدد الرسائل التي يبحث عنها التلمود البابلي أقل من التلمود الفلسطيني، إلا أن حجم الأول يفوق حجم الثاني نحو ثلاث مرات، ولغة التلمود البابلي الآرامية الشرقية، والتلمود الفلسطيني الآرامية الغربية[1].

وقد أجريت عدة شروح للمشنا، وجمعت في كتاب سموه (الجمارة) أي التكملة، فمن المشنا وشروحه (الجمارة) يتكون التلمود، ولم يأخذ القراءون بالتلمود إلا ما كان متفقاً مع التوراة[2].

والتلمود كتاب طبي أكثر مما هو كتاب ديني فيصف أجهزة الجسم وأعضاء التناسل، والأمراض، وفيه كثير من الخرافات الطبية، والطرق السحرية لطرد الأرواح الخبيثة التي يعتبرونها سبباً في الأمراض، وتجد في مواضع متفرقة من مجلدات التلمود العشرين أموراً تتناول بالإضافة إلى الطب القصص، وشؤون الزراعة والمهن، والتجارة، والضرائب والسياسة والميراث، وبعض الشعائر الدينية، والمحاكمات القضائية، والقوانين الجنائية، وغيرها من الأمور الخاصة والعامة[3]، وقد اعتمدت الجمارة والمعتقدات اليهودية على التلمود، وقد تغيرت خلال القرن الخامس الميلادي وبعده[4].

أما كتاب (يشوع) الذي يلي التوراة والتلمود في الترتيب، وهي في مقدمة كتب الأنبياء عند اليهود، ويبحث في افتتاح الأرض المقدسة[5]. وأما كتاب (زبور) داود فقصد به ابن النديم (المزامير) وهو أصل عبراني، ويقابله في السريانية أيضاً (مزمور) وورد في القرآن الكريم بلفظ (الزبور) والظاهر أن

---

(١) أنظر: غنيمة: نزهة المشتاق ص٩٥؛ العقاد: أبو الأنبياء ص ٤١ ـ ٤٢؛ جواد علي علم ابن النديم: مجلة المجمع العراقي ص ٩٠ ـ ٩١.

(٢) انظر: العطار: أحكام الأسرة ص ١٠.

(٣) انظر: ديورانت: قصة الحضارة ج ١٤ ص ٢٥ ص ٣٨.

(٤) (The Jewish Ency p. 14).

(٥) أنظر: جواد علي علم ابن النديم: باليهودية والنصرانية ص٩٢، مجلة المجمع العراقي.

اللفظة من أصل عربي جنوبي، ومعناها (الكتاب)[1] وقد عدّها ابن النديم مئة وخمسين مزموراً[2] وتتضمن المزامير الحكم العقلية دون الأحكام الشرعية.

والمصدر الأخير من مصادر الفكر الديني عند اليهود هو الفقه، وهو مصدر لفهم أحكام التوراة والتلمود، ويسميه اليهود بـ(المدراش) أو الدراسات، وهي تتضمن أقوال الفقهاء، وأشهرها مدراش (رباه) التي تدور كل دراسة منها على كتاب من كتب التوراة الخمسة، وقد تمت عند القرن السادس للميلاد، وترجع في أسانيدها كما جاء فيها إلى أيام ابراهيم الخليل، وهي عند اليهود على درجات منها ما يعول عليه، ومنها ما هو من قبيل القصص التعليمية، والأمثال، والمواعظ تساق كعبر-وليس كاعتقاد، ولغة هذه الكتب عبرية[3].

ويشرف على تنفيذ هذه التعاليم والشعائر اليهودية وتفسير نصوص الكتب المقدسة الحاخام (حخام) وهو الحبر أو الرئيس الديني الأعلى والفقيه. وأما (الحزان) وهي في العبرية بلا ألف (الحزن) ولكنها تنطق كأنها بألف، وهو المشرف على الكنيس، والقيم على الصلاة، والإمام المصلي والمجود[4] وهو أيضاً بمثابة الخطيب يصعد المنبر ويعظهم، والإمام الذي يصلي بهم يسميه القلقشندي[5] (الشليمصيور).

وتقسم حقب العلوم الدينية عند اليهود بعد المسيح إلى (عمورايم) أي المتكلمين أو المفسرين: وهم العلماء الذين ظهروا حوالي سنة (٢٢٠ ــ ٥٠٠م) فأنشأوا الجمارة، وانتهت حقبتهم بانتهاء التلمود ثم جاءت حقبة (السابورائي) أي: الشارحين بين (٥٠٠ ــ ٥٤٠م) وقد أضافوا على التلمود إضافات[6]، من

---

(١) (The Ency of Islam Vol. p. 1184).

(٢) ابن النديم: **الفهرست** ص ٣٦.

(٣) انظر: العقاد: **أبو الأنبياء** ص ٤٣؛ العطار: **أحكام اسرة** ص ١١.

(٤) انظر: مراد فرج: **اليهودية** ص ٨٢.

(٥) القلقشندي: **صبح الأعشى** ج ٥ ص ٤٧٤.

(٦) وتسمى (لتصافوت) من مادة يصاف أي يضاف ومعناها الإضافات وأكثرها وصفها الكهان الاوروبيون إلى القرن الثاني عشر للميلاد (العقاد، أبو الأنبياء ص ٤٢).

عندياتهم لشرح القضايا الجديدة. ثم حقبة (الفاوونيم) وهم رؤساء مدرستي سورا، وبمبادئه في بابل منذ أوائل القرن السابع للميلاد إلى القرن الحادي عشر أي نحو أربعمائة سنة، وقد خلف كثيرون من الفاوونيم مصنفات موضوعة على طريقة السؤال والجواب[1]، ولا سيما تلك التي تعالج أبحاث (الهلاقا)[2].

وأما مصادر الشريعة المسيحية فهي: العهد القديم (التوراة) التي يعتبرها النصارى جزءاً من الشرائع المسيحية، وإن كان بعض المسيحيين يعتبر ما ورد في العهد القديم خاصاً باليهود، ولا يصح الاستدلال به للمسيحيين[3] ومع ذلك فقد ظل النصارى يرجعون إلى العهد القديم، وشروحه، وتفسيراته لأنهم اعتبروا أن بشائر ابراهيم الخليل كلها مرهونة بظهور المسيح، الذي يكون الخلاص على يديه، وقد سرت أخبار العهد القديم، وتفسيراته بين المسيحيين ثم تفرق رأي الكنائس المسيحية في النظر إلى العهد القديم، فمنها ما تعتبره وحياً منزلاً بجميع تفصيلاته، ومنها ما تقصر الوحي على كتب الشريعة الخمسة التي تعرف بكتب موسى[4].

ويعتبر العهد الجديد (الإنجيل) هو المصدر الرئيسي من مصادر الشريعة المسيحية ويشمل الأناجيل الأربعة المعتمدة[5] عند النصارى، وهي إنجيل متى، ومرقص، ولوقا، ويوحنا[6]. ويقول ابن حزم[7] (ت ٤٥٦ هـ/١٠٦٣م) والإنجيل إنما هو كتب أربعة مختلفة من تأليف أربعة رجال فأمكن في كل ذلك التبديل، ويستدل بمثل بسيط على الاختلاف، والتناقض بين هذه الأناجيل في

---

(١) انظر: غنيمة: نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق ص ٩٦.

(٢) الهلاقا (Halacha) القانون العرفي المختص بالحياة والقضاء والقدر (غنيمة: نزهة المشتاق، ص ٩٦)، (The Jewish Ency Part 1. p. 14).

(٣) انظر: العطار: أحكام الأسرة عند المسيحيين ص ١١.

(٤) انظر: العقاد: أبو الأنبياء ص ٦٤ ــ ٦٦.

(٥) من الأناجيل غير المعتمدة عند النصارى ولا يتضمنها العهد الجديد انجيل برنابا.

(٦) انظر: العطار: أحكام الأسرة عند المسيحيين ص ١١؛ جواد علي علم ابن النديم ص ١٠٣.

(٧) ابن حزم: الفصل في الملل ج ٢ ص ١٤ ــ ١٥.

نسبة المسيح نفسه، فإنجيل متى نسب فيه المسيح إلى ابن داود بن ابراهيم، ولوقا ينسب يوسف النجار إلى آباء غير الذي ذكر متى حتى يخرجه إلى ناتان بن داود أخي سليمان بن داود، وهذا الاختلاف دليل على التناقض الواضح في أناجيل النصارى.

ويبدو أن المسيح لم يترك إنجيلاً مكتوباً وإنما ترك الشريعة والتعاليم المسيحية الشفوية، ولم يدوّن الإنجيل في حياة المسيح على الأرض، فقد دونه تلاميذه من بعده، ويؤيد هذا الرأي ما جاء في رسالة عبد المسيح الكندي[1] لما كان بعد صعود المسيح إلى السماء بعشرة أيام كان الحواريون مجتمعين، وتجلى عليهم الروح القدس فصار على كل رجل مثل اللسان من النار فجعل يتكلم بلسان البلد الذي وجه ليبشر فيه المسيح... ويدعو أهل البلد إلى النصرانية ويخاطبهم بلسانهم.

ويقول القلقشندي[2] (ت ٨٢١ هـ/١٤١٨م)، والنصارى متفقون على أن أربعة من الحواريين تصدوا لكتابة الإنجيل، وتناولوا فيه سيرة المسيح من ولادته إلى رفعه، فكتب بطرس إنجيله بالرومية في بلاد الروم، ونسب إلى تلميذه مرقص أول بطاركة الاسكندرية، وكتب متى إنجيله بالعبرانية في بيت المقدس، وكتب لوقا إنجيله بالرومية، وقيل بل كتبه باليونانية بمدينة الاسكندرية، وكتب يوحنا إنجيله باليونانية بمدينة أفسس، وقيل مدينة رومية.

والإنجيل النازل على المسيح لا يتضمن أحكاماً، ولا يستبطن حلالاً، ولا حراماً، ولكنه رموز، وأمثال ومواعظ ومزاجر، وما سواها من الشرائع والأحكام .فمحالة على التوراة[3]. ويقول ابن حزم[4] (ت ٤٥٦ هـ/١٠٦٣م)،

---

(١) رسالة عبد المسيح الكندي: ص ١٦١.
(٢) القلقشندي: **صبح الأعشى** ج ١٣ ص ٢٧٣.
(٣) الشهرستاني: **الملل** ج ١ ص ٢٠٩؛ الغزالي: **فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة** ص ١٩.
(٤) ابن حزم: **الفصل في الملل** ج ٢ ص ٢ ــ ٣؛ أبو زهرة: **محاضرات في النصرانية** ص ٤١.

أما النصارى فلا يدّعون أن الأناجيل منزلة من عند الله على المسيح بوحي، ولا أن المسيح أتاهم بها بل كلهم أريوسيهم وملكيهم ونسطوريهم ويعقوبيهم، ومارونيهم لا يختلفون في أنها أربعة تواريخ ألّفها أربعة رجال معروفون في أزمان مختلفة. فأول هذه الأناجيل ألّفه متى تلميذ المسيح بعد تسع سنين من رفع المسيح، وكتبه بالعبرانية في بلد يهوذا، ويتكون من نحو ثمان وعشرين ورقة بخط متوسط، وإنجيل مرقص تلميذ شمعون الصفا كتبه بعد اثنين وعشرين عاماً من رفع المسيح كتبه باليونانية في أنطاكية، ويتكون من أربع وعشرين ورقة بخط متوسط، وهو من تلامذة المسيح أيضاً، وإنجيل لوقا الطبيب الأنطاكي تلميذ شمعون الصفا، كتبه باليونانية، والإنجيل الرابع كتبه يوحنا أحد تلامذة المسيح بعد رفع المسيح ببضع سنين باليونانية من أربعة وعشرين ورقة بخط متوسط.

ويقول الأسقف أغريغوريوس[1]: أن المسيح لم يترك إنجيلاً وإنما ترك سيرة لتلامذته يسيرون عليها وهي تلمذة الأمم (التبشير بالمسيحية) وليس هناك وحي أو إلهام بالنسبة للمسيح، وأن الرسل (الحواريون) تلقوا الإنجيل عن طريق الإلهام أو الوحي الذي هو في اعتقادهم عبارة عن قوى روحية تدفعهم لكتابة الأمور المطلوب إعلانها للناس، وهم معصومون من الخطأ، وأن الإنجيل أوحى إليهم بمعناه وليس بلفظه، ولذا فقد اختلفت الأناجيل باختلاف أساليب التعبير، كما أن تلامذة المسيح (الحواريون) حاولوا عند كتابة أناجيلهم إثبات ناحية معينة من نواحي المسيح، والعقائد المسيحية، فقد حاول متى في إنجيله إثبات صحة دعوة المسيح، وأنه هو الموعود به بين الأنبياء السابقين، وكتب مرقس إنجيله في بلاد الروم، وحاول إبراز موقف المسيح وظهوره بمظهر القائد المنتصر تلك الناحية التي تتفق ونفسية الرومان الحربية.

أما لوقا فقد أبرز في إنجيله الجوانب الإنسانية من حياة المسيح فأشار إلى المشاركة الوجدانية في المسيح كمشاركته الناس في آلامهم وأحزانهم.

---

(١) أفادنا نيافة الأسقف أغريغوريوس أسقف الدراسات العليا والبحث العلمي في دير الانبا رويس بالعباسية القاهرة في ١٩٧١/٩/٢٧ بهذه المعلومات القيمة، ومناله عظيم التقدير.

وكتب يوحنا إنجيله بعد حياة الرسل جميعاً (٩٨ ـ ١٠٠م) وقد تناول في إنجيله إثبات لاهوت المسيح.

ويقول شلبي[١]: لا شك أن تاريخ حياة المسيح، ودعوته كانت قد كتبت بلغة الآرامية، ولكن هذا الأصل قد فقد، ولعل هذه الأناجيل قد أخذت عنه، وقد كتبت هذه الأناجيل الأربعة (متى، مرقس، لوقا، ويوحنا) باليونانية بعد رفع عيسى بجيل أو جيلين، وأقدمها عهداً هو إنجيل مرقس (٦٥م)، وآخرها إنجيل يوحنا (١٠٠م).

ويتكون الإنجيل (العهد الجديد) من سبعة وعشرين سفراً يمكن وصفها في ثلاثة أقسام:

الأول: قسم الأسفار (التاريخية) ويشمل الأناجيل الأربعة، وأعمال الرسل التي كتبها لوقا، وسميت هذه الأسفار الخمسة (بالأسفار التاريخية) لأنها تحوي قصصاً تاريخية كما تحوي قصة حياة المسيح وتاريخه وعظاته ومعجزاته ورسالته، وأعمال الرسل تحوي قصة حياة رسل المسيح وبخاصة بولص...

الثاني: قسم (الأسفار التعليمية) وتشمل إحدى وعشرين رسالة.

والثالث: قسم رؤيا يوحنا اللاهوتي، وسميت بذلك لأن ما جاء فيها أشبه بأحلام اليقظة، وأراد يوحنا أن يظهر سلطان المسيح بعد رفعه إلى السماء حيث[٢] أن قصة الأناجيل وعلاقتها بالمعتقدات المسيحية تدعو إلى التأمل فمن الطبيعي أن تبنى المعتقدات على الأناجيل، ولكن الواقع غير هذا، فقد نشأت المعتقدات بواسطة بولص الذي كتب رسائله بين سنتي ٥٥ ـ ٦٣م بيد أن الإنجيليين لم يبدأوا بكتابة الأناجيل إلا في سنة ٦٣م، ورجحت كفة بولس، وكفة معتقداته فتأثرت الأناجيل بهذه الرسائل[٣].

---

(١) انظر: شلبي: **مقارنة الأديان: اليهودية** ص ٦٠.

(٢) انجيل يوحنا، الاصحاح الخامس، آية ٦، وما بعدها.

(٣) انظر: شلبي: **مقارنة الأديان: اليهودية**، ص ١٥٢ ـ ١٥٣.

وبجانب ما وصفه بولص، والحواريون من أناجيل ورسائل فقد كان هناك أناجيل متعددة منها إنجيل عيسى نفسه، وقد ورد ذكره في إنجيل مرقص[١] وفي رسائل بولص[٢]. ومنها إنجيل السبعين، وإنجيل التذكرة، وإنجيل برنابا وغيرهم. وقد حدد مجمع نيقية الأناجيل المعترف بها، وألغى التي لا تتفق وقراراته كما لم يعترف بمئات الرسائل التي جيء بها إلى مجمع نيقية سنة **٣٢٥**م فتم انتخاب الأناجيل الأربعة من أكثر من أربعين أو خمسين إنجيلاً، واختيار إحدى وعشرين رسالة من بين رسائل لا تعد ولا تحصى[٣].

ويشمل العهد الجديد (الإنجيل) أعمال الرسل، ورسائل القديسين منها أربعة عشر رسالة كتبها بولص، واثنتان وعشرون رسالة كتبها لوقا، وسفر رؤ يا يوحنا، وقصص الحواريين وأحاديثهم، وأخبارهم بعد ارتفاع المسيح إلى السماء، والذي كتبه لوقا وبولص[٤].

ومن مصادر الشريعة المسيحية أيضاً (قوانين الرسل) وهي القواعد التي وضعها رسل المسيح فيما يخص الأسرة، والمراسيم الرسولية. كما تتضمن قرارات المجامع الكنسية جزءاً مهمًا من مصادر الفكر الديني عند النصارى حيث تلتزم جميع الكنائس الأخذ بها وأهمها: قرارات مجمع نيقية الذي انعقد بالقسطنطينية عام **٣٢٥**م وعالج مسألة الاعتراف بالأناجيل المعتبرة عند جميع النصارى في العالم. كما عالج مسائل الزواج، والطلاق والميراث والوصية، وكذلك قرارات مجمع خلقيدونية الذي انعقد عام **٤٥١**م بآسيا الصغرى، وأصدر قراراً بأن المسيح له طبيعتان، إلهية وبشرية.

---

(١) انجيل مرقص، الاصحاح الأول، آية ١٤.

(٢) انجيل بولص، الاصحاح الأول، آية ٩، ١٦، الاصحاح ١٥ آية ١٩.

(٣) انظر: شلبي: **مقارنة الأديان ــ اليهودية** ــ ص١٥٣ــ ١٥٤؛ أبو زهرة: **محاضرات في النصرانية** ص ٤٠، ٥٥، ٦٥.

(٤) رسالة عبد المسيح الكندي: ص٥؛ العطار: **أحكام الأسرة** ص١١؛ أبوزهرة: ص ٦٩؛ جواد علي علم ابن النديم: ص١٠٣ ــ ١٠٤.

وبهذا القرار انتقلت كنيسة الاسكندرية التي اعترفت بأن للمسيح طبيعة واحدة إلهية، وكذلك مجمع ترنت الذي انعقد في القرن السادس عشر حيث اعترف البروتستانت بحق القسس في الزواج واعتباره عقداً مدنياً على خلاف الطوائف الأخرى التي تعتبره سراً مقدساً، وممن له صلة بالعقيدة والشريعة المسيحية قرارات واجتهادات الكنائس حيث يلتزم النصارى السير بموجب القرارات، والاجتهادات الخاصة بكل كنيسة لكل طائفة[1].

ويعتقد النصارى أن كتاب العهد القديم (التوراة) والعهد الجديد (الأناجيل) و(رسائل الرسل) لم يوح بها وحي بل كتبت بإلهام[2]، ولما مات الحواريون أقام النصارى لهم خلائف للإشراف على تنظيم الكنائس، والمعابد والأديرة، ولتنسيق العبادات وتفسير النصوص الدينية فأوجدوا طبقة رجال الدين، فكان هؤلاء في أوائل عهد المسيحية لا يختلفون عن باقي المسيحيين سوى انصرافهم الزائد للأمور الدينية، فكانت حياتهم وألبستهم كبقية الناس، ويعتمدون في معاشهم على ما يحصلون من مهنهم، والقيام بأعمالهم المعاشية، ولما ازداد عدد النصارى زادت أهمية الحاجة إلى وجود رجال دين يكرسون أنفسهم وكل أوقاتهم للأمور الدينية، فظهرت طبقة رجال الدين (الأكليروس) تميزت عن غيرهم من النصارى، وأصحاب الأديان الأخرى بزيها الديني.

وأخذت الكنيسة تنظم إدارتها محتذية في ذلك التنظيم الروماني، فعينت في كل مركز إداري كبير يكثر فيه النصارى، أسقفاً يشرف على شؤون الكنيسة، ويحل مشاكل أتباعه، ويشرف على صغار رجال الدين (القسس) الذين يعينون في المراكز الصغيرة الواقعة ضمن أسقفيته، وفي الأقاليم الكبيرة أنشأت الكنيسة فيها بطريكيات، منها في روما والاسكندرية والقدس وأنطاكية وهرقلة، (بآسيا الصغرى) وهو (البطريرك) رئيس الأساقفة يشرف على الأساقفة الموجودين في منطقته، وينظم شؤونهم باعتباره المرجع الأعلى لهم، وأصبح بطريرك روما هو

---

(١) انظر: **العطار** ص١٢ ـ ١٣؛ ابن حزم: **الفصل في الملل** ج ٢ ص٣.

(٢) انظر: أبو زهرة: **محاضرات في النصرانية** ص٧٧.

المرجع الأعلى لكل البطاركة في العالم المسيحي، وهو في نظر النصارى خليفة المسيح، والمرجع الأول في تفسير الأناجيل باعتباره أيضاً خليفة بطرس أعظم تلامذة المسيح، والذي قال عنه المسيح: (أنه سيكون الصخرة التي يقام عليها معبد الرب) وقد سمي بطريرك روما فيما بعد بالبابا أو الأب.

إن انقسام الكنيسة المسيحية إلى شرقية وغربية، الأولى مقرها القسطنطينية والثانية روما، وجعل نفوذ بطريركية القسطنطينية إلى المسيحية في المشرق في آسيا وشرق أوروبا حيث سمحت للكنائس بالاستقلال واستعمال لغاتهم المحلية[1] في إقامة الطقوس الدينية، وقد أوجدت وظائف دينية أقل أهمية من مركز البطريرك والأسقف للإشراف على ناحية معينة من نواحي الحياة الدينية منها الجاثليق، والمطران والقسيس والشماس والساعور والراهب[2]، وكانت واجباتهم الدينية على النحو الآتي وهي كما وصفها المقدسي[3] (ت ٣٨٧ هـ/٩٩٧م) وغيره، فالبطاركة بمنزلة الأئمة أصحاب المذاهب عند المسلمين، والمطارنة كالقضاة، والأساقفة كالمؤمنين، والقسيسون كالقراء، والجاثليق كإمام الصلاة، والشمامة كالمؤذنين وقومة المساجد.

أما مصادر الفكر الديني عند الصابئة فهي كتبهم المقدسة، وتشريعات رجال الدين الصابئيين، ويدعى الصابئة المندائيون أنهم يتبعون تعاليم آدم، ولديهم كتاب الكنزا[4] و(صحف آدم)[5] ومعنى ذلك أنه لم يبعث إليهم نبي

---

(١) استعمل نصارى العراق اللغة الآرامية لغة لهم حيث كانت لغة سكان ما بين النهرين، وأقطار الشام وهي إحدى اللغات السامية وتسمى (اللغة السريانية) وقد انتشرت في العراق وفارس ومصر وفلسطين، وهي لغة الدين والأدب والعلم لجميع نصارى العراق وبقيت هذه اللغة إلى ما بعد الفتح الإسلامي للعراق (اللؤلؤ المنثور ص ١٦) أحمد أمين: **فجر الإسلام** ص ١٥٩؛ تاريخ اللغات السامية ص ١٢٥).

(٢) القلقشندي: **صبح الأعشى** ج ٥ ص ٤٧٣؛ شيخو: **النصرانية وآدابها** ص ١٩٠ ـ ١٩٧.

(٣) المقدسي: **البدء والتاريخ** ج ٤ ص ٤٧؛ ابن خلدون: **العبر** ق ٢ م ٢ ص ٢٩٧.

(٤) الكنزا (الكنزارية) أي (الكتاب العظيم) ولعل الكلمة جاءت من الكنز التي تعني النفاسة والكتمان لأنهم يقدسونه ويخفونه فلا يطلعون أحداً على أسراره (العقاد، أبو الأنبياء ص ١١٢).

(٥) عبد الجبار عبد الله الصابىء: في هامش كتاب العراق في القرن السابع عشر ص ١٠٣؛ بغداد سنة ١٩٤٤ م.

ولم يكن لدينهم مؤسس، وتحرص الصابئة على إخفاء كتبهم المقدسة، ويعتبرون الاطلاع عليها من المحرمات على فاعلها، كما أن رجال الدين الصابئيين كانوا في أوقات الأزمات والأخطار يقومون بطمر الكتب خوفاً عليها من أن تمتد إليها أياد غير صابئية، وقد فعلوا ذلك مرات عديدة، كما أن سكن الصابئة في مساكن من القصب تكون عرضة باستمرار إلى الحرائق[1]. وقد حاول بعض المستشرقين وغيرهم أن يحصلوا على بعضها إلا أنهم أخفقوا، ومع ذلك فقد تسربت بعض المصادر إلى خزائن الكتب[2].

ونحن مدينون للمستشرقة الليدي دراوور في معلوماتنا عن كتب الصابئة المقدسة، فقد استطاعت الحصول عليها ودراستها من الكهّان الصابئة أنفسهم، ومما حصلت عليه من كتبهم كتاب (سدرة ربه) و(دراشة أويهيا) وكتاب (ديوان أباثر) و(ديوان ألف ترسرشيالة) الذي يحتوي على (١٠١٢ سؤال)، وعلى الكراسة الفلكية (أسفر ملواشة) وعلى مخطوطات، وكراريس أخرى[3] ذات فائدة عظيمة لاحتوائها على أسرار ينبغي من وجهة النظر الصابئية عدم اطلاع الغرباء عليها، وذلك لأن الكتب الصابئية المقدسة ليست مطبوعة، وقد قام بنسخها باليد رجال الدين طيلة قرون عديدة من تاريخهم، ولأن لغة هذه الكتب تكاد تكون محصورة في رجال الدين الصابىء، وقلما يعرف من العامة قراءة وكتابة لغة الكنزا والكتب المقدسة الأخرى، ويتفق أغلب المؤرخين أن لغتها سامية الأصل قريبة الشبه من السريانية، حتى يعتقد الصابئة المندائيون أنها اللغة التي كان يتكلم بها آدم[4].

ويقول العقاد[5]: وتكفي نظرة في مصطلحاتهم للجزم بهذه الصلة الوثيقة

---

(١) انظر: دراوور: **الصابئة المندائيون** ص ٦٧.
(٢) انظر: الحسني: **الصابئون** ص ٦٥.
(٣) انظر: دراوور: **الصابئة** ص ٦٧.
(٤) انظر: الحسني: **الصابئون** ص ٥٦؛ العقاد: **أبو الأنبياء** ص ١١٢؛ دراوور: **الصابئة** ص ٦٥.
(٥) انظر: العقاد: **أبو الأنبياء** ص ١١٢.

بين لغتهم، واللغة العربية الحديثة فضلاً عن القديمة المهجورة، فمن كلماتهم ومصطلحاتهم (آلمي) بمعنى عالم، و(شماس) بمعنى (شمس)و(هي) بمعنى حي و(روحايا) بمعنى يروح، و(قدموي) بمعنى قديم، و(ترميد) بمعنى تلميذ، و(أسفر) بمعنى سفر، و(تنيائي) بمعنى الثاني، و(ثلثيائي) بمعنى الثالث، والأبجدية عندهم قريبة من أبجدية اللغة العربية.

وقد أشارت المستشرقة دراوور[1]: إلى ما رواه المستشرق نولدكة في لغة الصابئة فقال: تنتسب اللغة المندائية انتساباً وثيقاً إلى لغة التلمود البابلي لتجاوز اللغتين ويمكن القول: أن لغة التلمود البابلي كانت تستعمل في بابل العليا، والمندائية تستعمل في بابل السفلى، ويقول أيضاً في محل آخر (هناك علاقة وثيقة واضحة بين اللغة المندائية ولغة التلمود)، ويبدو أن اللغة المندائية جاءت متأخرة عن التلمود بدليل نقاوة النصوص المندائية وعدم اختلاطها بعناصر غريبة، وهي تشمل الكلام الآرامي في بابل، وقد قال مراد كامل[2] ومحمد البكري، في بحثيهما (نستطيع أن نقسم اللهجات الآرامية إلى شرقية وغربية، أما الشرقية فتضم لهجة (الرها) الآرامية وكان موطنها بلاد ما بين النهرين، وسميت بعد ظهور المسيحية بالسريانية، ولهجة آرامية يهودية بابلية هي (لهجة التلمود البابلي) وكان موطنها شمال العراق، ولهجة الصابئيين الآرامية، وهي اللهجة (المندعية)[3] أو (المندائية) وموطنها جنوب العراق. أما كتابة حران فكانت كتابة عربية وهي قريبة جداً من القلم العربي الشمالي الذي دوّن به القرآن، والكتابة خالية من النقط والحركات ويلاحظ أن كلمة (ظلمو) هي (ظالم) في لهجتنا دوِّنت على نسق الآرامية في تدوين الأسماء، وقد عثر في حران

---

(١) انظر: دراوور: الصابئة المندائيون ص ٥٤ ــ ٥٥.

(٢) تاريخ الأدب السرياني من نشأته إلى الفتح الإسلامي، مقالة بمجلة المقتطف ج ١ م١١٥ لسنة ١٩٤٩.

(٣) المندعية: مشتقة من الكلمة الآرامية (مدعار) ومعناها المعرفة ويسمى أصحابها بالصابئيين أو المتدعيين أو المندائيين وهم طائفة من القبائل الآرامية كانت تسكن منطقة الأردن ثم هاجرت منها إلى العراق (تاريخ الأدب السرياني ج ١ ص ١١٥؛ مجلة المقتطف).

على نص كتب بلغتين (عربية ويونانية) يرجع تاريخه إلى سنة ٥٦٨م وقد كتب على حجر وضع فوق باب كنيسة مما يحملنا على الاعتقاد أن أهل حران كانوا يستخدمون الكتابة العربية واليونانية ويتكلمون بها[١].

وقد اختلف في تاريخ تدوين هذه الكتب المقدسة فمنهم من يقول: ان تاريخه يعود إلى ما قبل المسيح ومنهم من ذهب إلى أنه يعود إلى عهد يوحنا المعمدان وذهب الكرملي[٢]: إلى أنه لم يكتب قبل سنة ٧٠٨م لوجود نصوص فيه تؤيد ذلك؛ في حين ذهبت المستشرقة الليدي دراوور[٣] إلى أنها كتبت أما في أيام الساسانيين، أو بعد الفتح العربي للعراق لوجود المصدر التاريخي الوحيد الذي يمكن الاعتماد عليه بهذا الشأن في الكتاب الثاني عشر من (الكنزا) حيث يدون قائمة لملوك البارثيين والساسانيين، وتنتهي القائمة بخسرو بن هرمز، وبهذه النبؤة «سيخلف ملوك العرب ملوك الفرس، وسيحكمون إحدى وسبعين سنة».

وقد دون الصابئة كتبهم على ورق البردي، وعلى المعادن، والحجر لأن التقاليد الدينية عند الصابئة تمنع تدوين الكتب على الجلود مطلقاً و(لأن ذبح الحيوانات تدمير للحياة، ولهذا فالجلد غير طاهر) وقد وجدت الليدي داروور كتاب (سدره أو نشماثة) أو (كتاب الأرواح) مكتوباً على ألواح من الرصاص، وتعزو استعمال المعادن في الكتابة إمكان تطهيرها بغمسها في الماء الجاري قبل استعمالها مستندة إلى قول كهانهم: إن جميع الكتب التي تستعمل في الطقوس تطهر قبل قراءتها، وفي الوقت الحاضر يقوم أحد الكهان الصابئة المتعبدين بكتابة كتاب (سدره أو نشماثة) على صفائح نحاسية مطعمة بالفضة، وتكتب هذه الكتب بحبر أسود لماع يصنعه الكهان أنفسهم، وينبغي أن يتلى عليه دعاء (أسوته ملكه) أو (صلاة التسليم) أثناء عمله[٤].

---

(١) أنظر: جواد علي: **تاريخ العرب قبل الإسلام** ج٣ ص٤٤٨.

(٢) انظر: الكرملي: **مجلة الشرق البيروتية** ج٥ ص٣٠٨ سنة ١٩٠٢م؛ الحسني: **الصابئون** ص٦٦.

(٣) انظر: دراوود: **الصابئة المندائيون** ص٦٥.

(٤) المرجع السابق ص٦٨.

وأهم ما بقي من كتب الصابئة المقدسة هي:

١ ـ كتاب الكنزاربا (Ginza Rabba) أو (الكنز العظيم)، ويسمى أيضاً (سدره ربه) أو (الكتاب العظيم) أو (صحف آدم)، وهو أكبر الكتب المقدسة، وأعظمها عند الصابئة، وقد ترجم وطبع طبعتان الأولى نشرها المستشرق السويدي ماثير نوربيرنح (M. Narbery) منذ عام ١٨١٣ ـ ١٨١٥ م بحروف سريانية مع ترجمة لاتينية في أربعة مجلدات في كبنهاجن، وقد ظهرت له ترجمات، وتعليقات في فترات مختلفة بلغت ذروتها في الترجمة الثانية التي نشرها المستشرق الألماني ليدز بارسكي باللغة الألمانية وقد طبعت عام ١٩٢٥ م وسبق هذه الترجمة كتاب (دراشة أديهيا) عام ١٩١٥ م وترجمة بعض التراتيل والطقوس عام ١٩٢٠ م، ومن بينها كتاب الأرواح (طقس التعميد) وبعض أدعية، وطقوس الزواج، وترجمة أحد الدواوين في مكتبة بودليان مؤرخة في ٩٣٦ هـ وموجود نسخة في المتحف البريطاني من كتاب طقوس تكريس الكهان، وطقوس تكريس (المندة)[١]، وفي خزانة المتحف العراقي ببغداد نسخة من الطبعة الأولى، وهي نادرة جداً برقم مطبوعات ٤٧٦٢ / ٤٧٦٦ بالإضافة إلى وجود نسختين مخطوطتين من هذا الأثر الكبير رقم الأول ٢٥٣، ورقم النسخة الثانية ١٤٤٠ مخطوط[٢].

ويحتوي الكنز ربه على فقرات كثيرة موضوعها بدء الخليقة وتكوين العالم، والتطورات التي حدثت للبشر، وفي صفات الخالق، وأدعية، وحكايات، ومواعظ وإرشادات. كما عالج القسم الثاني من الكتاب شؤون الميت[٣]. والكتاب مكتوب بالعكس أي من اليمين إلى اليسار ولكن في الطرف المقابل من الكتاب[٤].

---

(١) أنظر: دراوور ص ٦٩؛ الحسني: **الصابئون** ص ٦٥ ـ ٦٦.
(٢) انظر: الحسني: **الصابئون** ص ٦٥ ـ ٦٦.
(٣) انظر: الحسني: ص ٦٦؛ دراوور: ص ٦٩.
(٤) انظر: دراوور: ص ٧٠.

٢ ـ كتاب دراشة أديهيا[1] (أدرافشادهيي)، ويقال له (سدره ديهي) أي تعاليم يحي أو (كتاب يحي) وهو أحدث تاريخياً من الأول، ويتضمن حياة النبي يحي ، وتعاليمه الدينية، وقيل: أن الوحي جبريل كان قد أوصى النبي يحي بن زكريا أن يطبع هذا الكتاب، ويسميه بهذا الاسم، وقد نقله إلى الألمانية المستشرق الألماني ليدزيارسكي في سنة ١٩١٥ م.

٣ ـ كتاب ألف ترسر شياله[2] (الفلستا) ويعني (١٠١٢ سؤال)، وهو في خمسة أجزاء، يتناول الجزء الأول الأخطاء في الطقوس وطريقة غفرانها، وإيضاح الشعائر. . .، ويقول الحسني: ويسمى كتاب الفرح أو الطرب، لأنه يبحث في رسوم الزواج وسننه، ومراسيمه، وتحليل النكاح الشرعي، وإجراء الخطبة، وغير ذلك.

٤ ـ كتاب سيدره دنشماثة (سدرا دنشمانا) أي (طقس التعميد) وسر المعمودية المقدس، ويسمونه (كتاب النفوس) ويعتقدون أنه نزل على آدم، وبه السنن التي يجب اتباعها في تلقين الأموات والجنازة، والدفن، وأسباب تحريم البكاء، وإعلان الحداد، وكيفية انتقال الروح من الجسد، وفيه تراتيل الصلاة، وما يقرأ في حفلات التعميد، وقد نقله إلى الألمانية المستشرق الألماني ليدزيارسكي سنة ١٩٣٠ م، وفي المتحف العراقي نسخة الكرملي باللغة المندائية على ورق طبع سنة ١٨٩٤ م، برقم ١٨٩٦ مخطوطات[3].

٥ ـ كتاب الديونان، ويسمى أيضاً (ديوان)، وهو أنفس كتب الصابئة، وهو كتاب ضخم يحوي قصص الروحانيين وسيرهم[4]. كما يتناول طقوس

---

(١) انظر: الحسني: ص ٦٦؛ دراوور: ص ٧٠.

(٢) ألف ترسر شياله (الفلستا) ليس هذا عنوان الكتاب وإنما عنوانه (توسسر ألف شياله) أي (اثنا عشر وألف سؤال) (الليدي دراوور: **الصابئة** ص ٧٠؛ الحسني: **الصابئون** ص ٦٧).

(٣) انظر: الحسني: **الصابئون** ص ٦٨؛ دراوود: **الصابئة** ص ٧٠.

(٤) انظر: الحسني: **الصابئون** ص ٦٩.

التطهير (طراسة) والتكريس بأنواعه كتكريس الكاهن وتكريس المندى، وتكريس الأستاذ، (كنزه)، وكلها على شكل دواوين[1].

٦ ــ كتاب أسفر ملواشة (أسفر ملواشي)، وهو (سفر البروج) وتسميه العامة (أصفر ملواش) بحث في حوادث السنين، ومعرفة البروج الذي ولد الشخص فيه، فيستنبطون منه اسمه المقدس، وفيه أدعية يستعان بها على طرد النوائب، وابعاد الأمراض، وقد نشرته الليدي دراوور بنصه المندائي عام ١٩٤٩م فجاء بـ ٢٨٩ صفحة ونشرت ترجمته الإنكليزية بـ ٢١٨ صفحة[2].

٧ ــ كتاب أنياني (الأنياني) ويتضمن هذا الكتاب الطهارة الصغرى أي (الوضوء) وتعني (الرشامة) وبعض الأدعية (المسنحثة) والأذكار الدينية التي تتلى في الصلاة.

وقد أشار الحسني، إلى أن زعيمهم الشيخ دخيل الصابىء أطلعه على نسخة قديمة مكتوبة على رق الغزال تتناول سنن دفن الموتى، وفي المتحف العراقي نسخة ثانية برقم ٢٠٨٧ مخطوط من مقتنيات الكرملي[3].

٨ ــ كتاب قماها دهيفل زيوا، وهو يحتوي على أكثر من ألف ومئتي سطر يتناول التعزيمات يحملها متدينو الصابئة، ويزعمون أن من يلبس هذا الحجاب لا يؤثر فيه أي نوع من السلاح. . . وهم يحرصون عليها حتى أنه لا يجوز لهم أن يدعوا من لم يكن من دينهم أن يمس هذا الدرج خوفاً من أن يتنجس أو يفقد مفعوله[4].

وتسمى المستشرقة دراوور[5]: هذا الكتاب بـ(دواوين الرقي

---

(١) انظر: دراوور: **الصابئة** ص ٧١.

(٢) انظر: الحسني: **الصابئون** ص ٦٩؛ دراوور: ص ٧٠.

(٣) انظر: الحسني: ص ٦٩؛ دراوور: ص ٧١.

(٤) أنظر: الحسني: ص ٧٠؛ الكرملي: **مجلة الشرق البيروتية** ج ٥ ص ٣١٠؛ لسنة ١٩٠٢م.

(٥) انظر: دراوور: **الصابئة** ص ٧١، ٧٢.

والتعاويذ) وتدعى (قماهي) و(زرستي) فـ(قما) باللغـة المندائيـة تعني يقمط، و(زوس) تعني يقي أو يصون. ومعنى ذلك أن هذه التعاويذ تستخدم على شكل أحراز للوقاية من الأمراض وسوء الطالع، والعين الشريرة، وتطلق دراوور عليه (بالحرز الطلسمي) ويكون على نوعين: فالكبير لا يمكن للإنسان أن يحمله، ويدعى (قماهه) أما الصغير، الذي يطلق عليه إسم (زرستي) فهو الحرز المعتاد، ويكتب على قصاصة ورق طويلة تلف بإحكام وتوضع في صندوق صغير من الذهب أو الفضة وتعلق بسلسلة في عنق الإنسان، وتبدء كل الأحراز بجملة باسم الحياة العظمى لتكن الصحة، والطهارة، والقوة، والثبات، والنطق، والسمع، وسرور القلب، وغفران الخطايا لفلان أو لفلانة ابن أو ابنة فلانه، وقد اختفت الأسماء، والأرواح الطلسمية من الدين الصابىء، وهي غير موجودة في أي كتاب من كتبهم المقدسة.

٩ ــ تفسير بغره: وهو ديوان يعالج الواجبات الـطقسية، ويبحث في علم تشريح جسم الإنسان وتركيبه(١).

١٠ ــ كتب أخرى (دواوين متنوعة) ويقال: ان عددها، أربعة وعشرون ديواناً، تتعلق بطقوسهم، وآدابهم، ومعايداتهم، وسننهم الاجتماعية مثل كتاب (الشـروح للمسائـل الدينيـة) وكتاب (كـدا واكد نيـانا) أي كتـاب التعويذ(٢).

ويشرف على تطبيق الشعائر الدينية الصابئية رجال الدين، ومن الشروط الشرعية فيمن يختار منهم للوظائف الدينية أن يكون سليم الجسم صحيح الحواس، غير مصاب بالبرص أو الجدري، وأن يكون سليل عائلة قد تمتعت بهذه النعم الخليقة منذ سبعة أجيال، وأن لا تكون أمه ثيباً حينما تزوجها أبوه،

---

(١) انظر: دراوور: **الصابئة** ص ٧١؛ الحسني: **الصابئون** ص ٧٠.

(٢) المصدر السابق نفسه.

وأن لا يتزوج هو من ثيب مطلقاً، وأن يكون من أهل صلاح، وزهد وتقشف، وتواضع. . .[1].

والكهانة عند الصابئية كالرهبنة عند المسيحية من حيث الإعداد الروحي لوظيفة الكهنوتية، فيتدرج فيها الكهان إلى مراتب حتى يبلغ أعلى درجة من درجات الكهنة، والكهانة لدى الصابئة وراثية (كاليهود والمجوس) وتكاد تنحصر في عائلة واحدة عدة قرون، ومع ذلك لم تكن مغلقة تماماً على الأسر غير الكهنوتية، وإنما يستطيع الصابىء بطهارة معينة، وباتباع أساليب نسكية، وبتوفر الصفات البدنية، والعقلية المطلوبة يمكن أن يصبح كاهناً، وتنتقل في هذه الحالة من الأب إلى الأبن، حيث يمارس الابن الشعائر الدينية، ويدرب على الوظائف الدينية منذ الصغر، ويعد إعداداً دينياً فلا يختن، وعند بلوغه الرشد يمنع من ممارسة الكهانة إذا لم ينجب أو كان خصياً أو أصيب بنقص في البدن، ولا يعتبر الجنس حائلاً دون الكهانة فقد وجدت كاهنات من النساء، وحتى كاهنات من الدرجة العليا (كنزفرة) فقد ورد في كتاب (الكنزا) ذكر لكاهنات صابئيات[2]، ويحتاج المرشح للكهانة أن يمر بتجربة، وأن يخضع لتقاليد دينية صعبة، وطويلة ودقيقة جداً أشارت إليها دراوور[3] بصورة مفصلة حتى يتم الاعتراف به كاهناً.

فإذا ارتكب كاهن ما خطيئة عظمى كالزنا مثلاً: منع من القيام بجميع وظائفه فهو لا يمكن أن يعمد، وحين تغادر روحه الجسد ستعذب في النار، والجليد، وتستغيث ولا من مجيب[4]. ويحرم على الكاهن القيام بوظائفه الدينية حين تكون الزوجة في أيام الحيض، وكذلك يحرم عليه القيام بهذه الوظائف حتى تتطهر من نجاستها بعد الولادة، وعليه أن يستعين بكاهن آخر حتى بالنسبة لطهارة زوجته[5].

---

(١) مجلة البيان ص ٢٩٠، القاهرة سنة ١٨٩٧م.
(٢) انظر: دراوور: ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤.
(٣) انظر: المصدر السابق ٢٢٣ ـ ٢٣٣.
(٤) انظر: دراوور: **الصابئة** ص ٢٥٢.
(٥) انظر: المصدر السابق ص ٢٥٤.

وتبدو هذه التقاليد الدينية الصابئية غريبة جداً، إذ ليس هناك علاقة دينية بين طهارة الزوجة والزوج، وليس هناك أي ترابط بين الزوج والزوجة من، حيث ممارسة الأعمال الكهنوتية، فنجاسة الزوجة ليست لها علاقة بطهارة الزوج والعكس.

أما الدرجات الكهنوتية عند الصابئة فهي خمسة ولكل درجة اختصاصاتها وهي:

١ ــ **الحلالي**: ومهمته السير في الجنازة.

٢ ــ **الترميدة**: وصاحبها يكون فقيهاً في الكتابين المقدسين (سدرا دنشماثا) و(انياني) أي كتابي النفوس، والأذكار، وتجري له مراسيم خاصة ويعمده المنداي.

٣ ــ **الكنزبرا**: يرتقي الترميدة إلى درجة كنزبرا إذا حفظ كتاب الكنزا، واطلع على تفاسيره، وشروحه، والشروح الدينية الأخرى، ويشترط فيمن يتولاها: أن يكون متزوجاً، وغير عقيم، وسبق له أن عقد مهراً لـ(ترميده) من قبل، وعند ترقيته إلى هذه الدرجة وجب عليه الامتناع عن مواقعة زوجته حتى يعقد مهراً لشخص بدرجة (ترميدة) ويجري اختبار المرشح بحضور رجلين من الكنزبرا، ورجلين من الترميدة.

٤ ــ **الأرشمة**: وهي كلمة مندائية (صابئية) معناها (رئيس الأمة)، وصاحب الكلمة النافذة يرتقي صاحبها من كنزبرا، وتجري عليه نفس المراسيم السابقة، ولكن يحضر هذه المراسيم سبعة ممن تتلمذ على يدهم.

٥ ــ **الرباني**: يرتقي فيه رجل الدين من درجة (الأرشمة) ويخضع لنفس شروط الكنزبرا والأرشمة، إلا أنه يختلف في عدد الشهود الذين يحضرون تعميده، وهي سبعة أشخاص من الترميدة والكنزبرا والأرشمة، وبعد حصوله على هذه الدرجة يرتفع إلى عالم الأنوار ليسكن فيه وينزل بين فترة وأخرى لتبليغ طائفته الشرائع، والسنن ثم يعود إلى عالمه النوراني، ويقول

الصابئة: لم يبلغ هذه الرتبة من السابقين حتى الآن سوى يحي بن زكريا[1].

إن مصادر الفكر الديني عند الطوائف المجوسية كتبهم المقدسة، فقد زعم زرادشت أن وحياً جاء له بكتاب الافستا، ويسميه المسعودي[2] (ت ٣٤٦ هـ/ ٩٥٧ م) (الأبستا) ويقول: وإذا عرب أثبتت فيه قاف فقيل الاسبتاق وقد كتبه في اثني عشر ألف جلد ثور بقضبان الذهب حفراً[3] وان الملك الفارسي جشتاسب وضعه في هيكل باصطخر، ووكل به الهرابذة، ومنع من تعليمه للعامة.

ويقول ابن حزم[4] (ت ٤٥٦ هـ/ ١٠٣٦ م) وكتاب المجوس وشريعتهم عند الموبذ[5]، وعند ثلاثة وعشرين هربذا، لكل هربذ سفر قد أفرد به وحده لا يشاركه فيه غيره من الهرابذة، ولا من غيرهم. ويبدو من قول ابن حزم أن هؤلاء الهرابذة احتفظ كل واحد منهم بسفر من أسفار الافستا ليدرسها وليحفظها من الضياع والتلف وذلك بدليل ما رواه المستشرق كريستنسن[6]: من أنه لم يكن للزرادشتيين كتب دينية قبل السنوات الأخيرة من عهد الساسانيين، وحينئذ خشي الموابذة من ضياع الروايات الدينية القديمة (كالحواريين بالنسبة للنصارى في كتابة الأناجيل) وكانوا كذلك يرغبون في أن يهيئوا لأتباع دينهم ما أتاح الدين الإسلامي لأهل الكتاب فسطروا (الأوستا) الساسانية.

ويدّعي الأب فرنسوا[7]: أن كلمة (أوستا) لم تكن تدل في القرن

---

(١) انظر: الحسني: الصابئون ص ٧١ ــ ٧٨.

(٢) المسعودي: التنبيه والإشراف ص ٩٠.

(٣) الشهرستاني: الملل ج ١ ص ٢٣٨؛ ابن الأثير: ج ١ ص ١٤٦؛ المسعودي: التنبيه ص ٩١؛ ابن خلدون: العبر ق ٢ م ٢ ص ٣٢٣؛ القلقشندي: ج ١٣ ص ٢٩٣.

(٤) ابن حزم: الفصل في الملل ص ١١٣.

(٥) أشرت إليه قبلاً.

(٦) أنظر: كريستنسن: ايران في عهد الساسانيين ص ٤٩٥.

(٧) أنظر: مقالة الأب فرنسوا بمجلة: تاريخ الأديان ص ١٤٩ ــ ١٩٣ نقلاً عن حاشية (١) كريستنسن: ايران ص ٤٩٥ ــ ٤٩٦.

السادس بل وفي القرن الخامس على (الكتاب) وإنما تدل على (القانون) المتداول شفاها ثم أنه في القرن الثاني تخيل العلماء الحروف الأوستية التي تعبر عن الأصوات، واستخدمت في نسخ النص الذي يتلى، والذي كتب بالحروف الفهلوية حوالي سنة ٦٣٤م، ويستند الأب فرنسوا في ذلك إلى أن الكتب السريانية التي بحثت بالصلات بين النصارى والزرادشتيين أيام الساسانيين لا تتحدث عن (كتابات) أو (كتب) زرادشتية مطلقاً، ولكن تذكر الزمزمة في الصلاة، ونصوصاً من القانون، ثم أن هذه الكتب تشير كثيراً إلى عـادة الزرادشتيين في حفظ الروايات الدينية عن ظهر قلب.

وقد أشار الشهـرستاني[١] (ت ٥٤٨ هـ/ ١١٥٣م) إلى تعـاليم كتاب زرادشت حيث يقسم العالم إلى قسمين: روحاني، وجسماني أو (الروحي) و (الشخصي) كما قسم الخلق فيه إلى عالمين: التقرير، والفعل، وقسم حركات الإنسان إلى ثلاثة أقسام: الاعتقاد، والقول، والعمل، وإذا قصر الإنسان فيها خرج عن الدين والطاعة، وإذا جرى بها على مقتضى الشريعة فاز الفوز الأكبر.

ويقول المستشرق (Cahen)[٢]: فقد كتب الزرادشتيون كتابهم (الافستا) (Avesta) والذي كان قبلاً يروى شفهياً، ولكن الاسكندر المقدوني دمر النسخ المكتوبة وظل الناس يتداولون بعض أجزائها[٣] ثم جمعت بعض أجزاء الافستا منذ عهد أردشير، فقد أمر الهربذان هربذ تنسر بجمع النصوص المبعثرة في الأوستا (الافستا) واعتبارها كتاباً مقدساً، ثم جاء سابور الأول بن أردشير، فأدخل على هذه المجموعة من النصوص مجموعة من نصوص الكتب المقدسة لا تتعلق بالدين، والتي تبحث في الطب، والنجوم، وما وراء الطبيعة مما عند الهنود واليونانيين وغيرهم، وأصبحت جميعاً يتكون منها الأوستا والتي حررها تنسر، وقد أمر سابور بوضعها في بيت نار (آذركشتسب) في شير[٤] وقد سببت

(١) الشهرستاني: **الملل والنحل** ج ١ ص ٢٣٨.

(٢) انظر: (Cahen, Ency of Islam (Dhimma) Part 2. p. 227).

(٣) المسعودي: **التنبيه والإشراف** ص ٩٢، (An Ency Religion (Art Avesta) p. 49).

(٤) انظر: كريستنسن: **ايران في عهد الساسانيين** ص ١٣٠.

هذه الإضافات قيام الخلافات الدينية فأمر سابور الثاني بعقد مجمع مقدس (كما حدث عند اليهود والنصارى) يرأسه الموبذان موبذ لكي يضع حداً لهذه الخلافات، ويحدد بصورة نهائية نص الأوستا، فقسمها المجمع المقدس إلى واحد وعشرين كتاباً أو (نسك) أو (نسقا) على عدد كلمات الصلاة المقدسة عندهم[1] أعدت في القرن الثالث الميلادي[2]. ويقول المسعودي[3] (ت ٣٤٦ هـ/ ٩٥٧ م) والابستاق يتكون من إحدى وعشرين سورة (نسق)، وكل سورة في مائتين من الأوراق كتبها بخط أحدثه، ولا يعلم أحداً اليوم معنى تلك اللغة.

وكان كل نسك مقسمًا إلى ثلاث مجموعات متساوية دينية (الكاسانيك) وقانونية (الداتيك) وفلسفية وعلمية (الهاشاك مفسريك) وقد ضاعت المجموعة الثالثة، أما المجموعتان الأولى والثانية فبقيت أقسام قليلة منها بدليل ما رواه (البريسون) فيقول: «ان الافستا كان في عهد الدولة الساسانية مؤلف من إحدى وعشرين سورة لم يبق منها في عهدنا إلا سورة كاملة، وبعض آيات من سور مختلفة، وان الذي وصل إلينا لا يحتوي إلا على مقطعات في الشعائر الدينية، وفي قوانين المعابد الزرادشتية[4]. ويقول ابن خلدون[5] (ت ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٥ م) عن محتويات الافستا: ان القسم الأول منه تناول أخبار الأمم الماضية، وقسم في حدثان المستقبل، وقسم في نواميسهم وشرائعهم. ويقول المستشرق كريستنسن[6] لم تكن الأوستا قاصرة على النصوص الخاصة بالعبادات فحسب، بل كانت فيها العلوم وفيها المبدأ والمعاد، وأساطير الأولين، والنجوم وعلم التكوين والعلوم الطبيعية، والتشريع، والحكمة وغيرها.

---

(١) انظر: المصدر السابق ص ١٣١.
(٢) انظر: (An Ency Religion (Art Avesta) p. 49).
(٣) المسعودي: التنبيه والاشراف ص ٩١؛ القلقشندي: ج ١٣ ص ٢٩٣.
(٤) أنظر: أحمد أمين: فجر الإسلام ص ١٢٤، (An Ency Religion (Art Avesta) p. 49).
(٥) ابن خلدون: العبر ق ٢ م ٢ ص ٣٢٤.
(٦) انظر: كريستنسن: ايران في عهد الساسانيين ص ١٣١.

وقد جمعت هذه العقائد والتعاليم في عدة كتب أشهرها خمس مجموعات، وقد شرحت، وأطلق عليها (الزند) أو (الزندافستا) وهي:

أولاً ــ الباستا (بسنا)[1] وهي ألحان تقرأ للآلهة، والملائكة والأرواح، وتتكون من سبعة وعشرين فصلاً، ولا بد لمن يريد أن يكون كاهناً من حفظها عن ظهر قلب؛

وثانياً ــ نديداد أو (قنديداد) وتحتوي على (٢٢ فصلاً) وتسمى (القانون ضد الشياطين) وهو للتطهير، وفيه ذكر لخلق أهورامزدا واهريمن؛

وثالثاً ــ بسبر (الباشت) وهي (٢١ قسماً) وفيها تعاويذ وقصائد للآلهة والملائكة.

ورابعاً ــ خردامشتا: وهو كتاب صلوات نظم زمن سابور الثاني. ويضيف إليهم المسعودي[2] (ت ٩٥٧/٣٤٦ م) أسماء كتب أخرى.

وشرح زرادشت كتاب (الافستا) وسماه (الزند)[3] أو (الزندافستا) ومعناه التفسير، ثم الشرح (الزند) بكتاب سماه (بازند)[4] وعملت العلماء من الموابذة والهرابذة لذلك الشرح شرحاً سموه (نارذه) ومنهم من يسميه (أكرده)[5].

أما كتب المانوية المقدسة، التي ألفها ماني فقد روي ابن النديم[6] (ت ٣٨٥ هـ/ ٩٩٥ م) سبعة منها معظمها بالسريانية، وهناك إشارات إلى هذه الكتب في الآثار الباقية للبيروني (ت ٤٤٠ هـ/ ١٠٤٨ م) وهي: إنجيل ماني، وكنز الأحياء، وسفر الأسرار، ويحوي على أبواب منها باب الديصانيين، وباب

---

(١) انظر: (L'avesta p. 8)؛ ماجد: **التاريخ السياسي** ج ١ ص ١٩٤.

(٢) المسعودي: **التنبيه والإشراف** ص ٩١ ــ ٩٢.

(٣) (An Ency Religion (Art Avesta) p. 49).

(٤) ابن الأثير: **الكامل** ج ١ ص ١٤٦؛ المسعودي: **التنبيه** ص ٩٢.

(٥) المسعودي: **التنبيه** ص ٩٢؛ القلقشندي: **صبح الأعشى** ج ١٣ ص ٢٩٣.

(٦) ابن النديم: **الفهرست** ص ٣٣٦؛ البيروني: **الآثار الباقية** ص ٢٠٨.

في المسيح، وباب في شهادة عيسى على نفسه، وباب الأرواح السبعة وباب الأقوال في الأرواح، وباب في شهادة آدم على عيسى، وفي السقاط من الدين، وفي قول الديصانيين في النفس والجسد، وفي الرد على الديصانيين في نفس الحياة، وفي حفظ العالم، وفي الأنبياء، وفي القيامة، وكتاب سفر الجبابرة، وكتاب فرائض السماعين، وكتاب الشابرقان، ويحتوي على باب انحلال السماعين، وانحلال المحبتبين والخطاة، وكتاب سفر الأحياء.

وقسم ماني في كتبه العالم إلى قسمين (بخشيش) و(كنش) يريد به التقرير، والفعل، فإن قصر الإنسان فيها خرج عن الدين[١].

وقد انتقد الجاحظ[٢] عقائد طوائف المجوسية، وما جاء في كتبهم المقدسة، وشعائرهم الدينية فيقول: «ليس في كتبهم مثل سائر، ولا خبر ظريف، ولا صنعة أدب، ولا حكمة غريبة، ولا فلسفة، ولا مسألة كلامية، ولا تعريف صناعة، ولا تعليم فلاحة، ولا تدبر حرب، ولا منازعة عن دين. . . ، وجل ما فيها ذكر النور والظلمة».

□ □ □

(١) الشهرستاني: الملل والنحل ج ١ ص ٢٣٨.

(٢) الجاحظ: الحيوان ج ١ ص ٢٩.



الفصل الثالث

بيوت العبادة

(الكنائس والمعابد والهياكل وبيوت النار والأديرة والرهبنة)

بيوت العبادة: هي الأماكن التي يمارس فيها أصحاب الديانات المختلفة طقوسهم الدينية، وشعائر أعيادهم وصيامهم، وفي بعضها مراقد أنبيائهم وصلحائهم، وقديسيهم، وقد أشار الله إليها في القرآن الكريم مؤكداً على إنشائها وحمايتها فقال تعالى ﴿في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له بالغدو والآصال﴾[1]. وقال تعالى فيها أيضاً مؤكداً على حمايتها من الهدم والاعتداء ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً﴾[2] وهذا ما التزم به المسلمون من حماية بيوت العبادة بالنسبة لأهل الذمة وعدم التعرض لها، وأعطى لأصحابها حرية زيارتها.

فكان لليهود كنائس عدة منتشرة في سائر أنحاء العراق، وخاصة المدن الكبيرة، التي فيها جاليات يهودية كثيرة، ويسمى كل بيت من بيوت عبادتهم بالكنيس، فقد أشار بنيامين (٥٦٩هـ / ١١٧٣ م) التطيلي اليهودي في رحلته إلى العراق فقال: «وكان لليهود في الموصل كنائس، وفي بغداد ٢٨ كنيساً ولهم مستشفيات»[3]، ويطلق اليهود على بيوت العبادة عندهم اسم (الفهر) وهو بيت

(١) سورة ٣٦ م النور: آية ٢٤.

(٢) سورة ٤٠ م الحج: آية ٢٠.

(٣) غنيمة: نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق ص ١٢٩.

ليهود تدرس فيه التوراة، ويجتمعون فيه في عيدهم[1] كما يسمونه أيضاً المدراس أو (المدراش) وفي الحديث «أن الرسول دخل على اليهود في بيت مدراسهم» وقول أنس «كأنهم اليهود حين خرجوا من فهرهم»[2] فإذن بالإضافة إلى الكنائس اليهودية المنتشرة في العراق كانت هناك المعاهد الدينية من فهر، ومدراس يدرس فيها اليهود التوراة، وأشهرها معهدان الأول في سورا (جوار الحلة) والثاني فومبديثة (بجوار الأنباء) وكان على رأس كل منهم (عميد) يسمى (غاؤ ون)[3].

وإن أقدم كنيس لليهود في رصافة بغداد هي كنيس الغاؤ وني حيث كان أحد ربانيهم، وقد دفن فيه، ويرقى تاريخ هذا المدفن إلى القرن الثامن للميلاد، ويسمى عند الرحالة والمؤرخين بـكنيس الشيخ[4] أسحق الغاؤ وني[5].

وكانت المراقد اليهودية المقدسة في أنحاء متعددة من العراق تعتبر أماكن للعبادة أيضاً منها: «مرقد عزرا الكاتب (العزير) فيقول البيروني[6]، (ت ٤٤٠هـ / ١٠٤٨ م) وياقوت (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨ م) في مادة (ميسان) (إسم كورة بين البصرة وواسط قصبتها ميسان)، وفي هذه الكورة قرية فيها قبر عزرا النبي . . . يقوم بخدمته اليهود، ولهم عليه وقوف وتأتية النذور. . .» وقد ورد ذكره في القرآن بقوله تعالى: ﴿وقالت اليهود العزير ابن الله﴾[7]، ومن المراقد المقدسة أيضاً عند اليهود: مدفن النبي حزقيال (الكفل) يقع جنوب الحلة

---

(١) أنظر: **القاموس المحيط** ج ٢ ص ١١١ ؛منجد الرائد ص ١١٣٥ دار العلم للملايين ــ بيروت.

(٢) أنظر: ابن القيم الجوزية: **أحكام أهل الذمة** ج ٢ ص ٦٦٩.

(٣) الجاحظ: **ثلاث رسائل** ص ١٧ باعتناء فنكل: **رحلة بنيامين** (تعريب حداد) الملحق (٣).

(٤) كان الصيارفة والكتاب من أهل الذمة يصدرون ألقابهم بالشيخ والرئيس (القلقشندي: ج ٥ ص ٤٧٤).

(٥) انظر: غنيمة: **نزهة المشتاق** ص ٢٠٧.

(٦) البيروني: **الآثار الباقية** ص ٤٦١ ؛ ياقوت: **معجم البلدان** (مادة ميسان).

(٧) سورة ٣٠ م التوبة: آية ٩.

وفيها قرية الكفل، وقد ورد ذكره في القرآن فقال تعالى: ﴿واذكر اسمعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار﴾[1] وقوله تعالى أيضاً: ﴿واسماعيل وادريس وذا الكفل كل من الصابرين﴾، فهو ومكانه مقدساً عند اليهود، ويترددوا عليه في رأس السنة، وفي عيد الكفارة حيث تقام الأفراح فيه، ويقصده رأس الجالوت ورؤساء مدارس بغداد[2].

ومن مراقد اليهود (مرقد يوشع كوهين كادول) يقع في جانب الكرخ ببغداد، ويعتبر من صلحاء اليهود، ويسميه اليهود النبي يوشع[3].

ومن المراقد التي هي موضع تقديس اليهود، وتقام فيه المراسيم الدينية مرقد (ناحوم الالقوشي)[4] ويعتبره اليهود من أنبيائهم، وقد ظهر أيام جلاء الاسباط العشرة، ويأتي اليهود لزيارته في بعض مواسم السنة، وتوجد على جدرانه كتابات عبرية، ومواعظ دينية وتواريخ[5].

يتولى رئاسة اليهود من الناحية الدينية، ويشرف على مراسيم العبادة، ويرعى النواحي السياسية والاجتماعية لأبناء طائفته (رأس الجالوت)[6]، الذي يلقب أحياناً بـ (الملك)[7] أو (الرئيس)[8] وله وحده حق إقامة الربانيين والشماسة على جماعات اليهود في البلاد التي يقطنها اليهود بوضع يده عليهم[9] في

(١) سورة ٤٨ ك ص: آية ٣٨؛ ٨٥ك الأنبياء: آية ٢١.
(٢) أنظر: غنيمة: ص ١٩٧؛ ياقوت: معجم البلدان؛ مادة (شوشه) ومادة (بوسلامه).
(٣) (كوهين كادول) كلمتان عبريتان، ومعناهما: الكاهن العظيم (غنيمة ص ٢٠٣).
(٤) الغوش: قرية من قرى الموصل قريبة من الجبل.
(٥) أنظر: غنيمة: نزهة المشتاق ص ٢١٣ ــ ٢١٤.
(٦) رأس الجالوت: والجالوت رئيسهم ويزعم عامتهم أنه لا يرأس (حتى يكون طويل الباع بحيث تكون أنامل يديه تبلغ ركبتيه (مفاتيح العلوم للخوارزمي ص ٣٥ طبع ليدن ١٨٩٥؛ بنيامين، الرحلة ص ١٣٨؛ متز: الحضارة ص ٤٨؛ وكان اليهود يدفعون إليه الضرائب خلافاً لما عليه النصارى ويعطي نصفها للحكومة والباقي له: متز: الحضارة ص ٤٦.
(٧) انظر: متز: الحضارة الإسلامية ص ٤٦.
(٨) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٧٤.
(٩) أنظر: غنيمة: نزهة المشتاق ص ١٣٠.

الأمبراطورية الإسلامية وتكون رئاسته بالوراثة، ويستمد سلطاته من كتاب عهد يوجه إليه من الخليفة.

ويصف بنامين[1] (ت ٥٦٩هـ / ١١٧٣ م) مراسيم التولية لرئيس اليهود (رأس الجالوت) فيقول: «يمتطي الرئيس الديني صهوة جواده وعليه حلة ثمينة ويسير معه الفرسان من المسلمين واليهود عندما يخرج لمقابلة الخليفة» فكان يركب على مركبة الوزير، وتقرع الطبول والزمارات وهم ينادون أمامه وسعوا الطريق لسيدنا ابن داود فكان الناس يقومون إجلالاً له، ومن لا يؤدي هذا الاحترام تأمر الحكومة بجلده مئة جلدة، وكان يسير في طرق مدينة السلام فارساً مرتدياً ألبسه من حرير وعلى رأسه تاج عظيم تغطيه قطعة بيضاء وعليها عصابة أو سلسلة[2] وينزل دار الخلافة وهناك يقرأ عليه عهد التولية الذي يكتبه الخليفة له، ويقرأ بحضرة الخليفة[3]، ولما يعود إلى داره يأتيه رؤساء المدارس (الغاؤنيم) ويقدمون له فروض الاحترام، ثم يذهب إلى الكنيس بأبهة فائقة، فيجلس على عرش فخم يقام له ويلقي خطاباً.

ومن صلاحياته وحقوقه على أبناء ملته أن يغرمهم بالمال، ويحرم الكلام مع المذنبين منهم، ولكن لا يمكنه حبس أحدهم ولا ضربه[4].

وأما بيوت العبادة عند النصارى، فهي الكنائس، والبيع، والأديرة، فقد سمح الخلفاء لنصارى العراق بإنشائها، وترميم ما تهدم منها[5] وتولى المهندسون الماهرون بناءها، وإتقان صناعتها، وبذلوا الأموال في زخارفها[6]، وذلك لأن

---

(١) بنيامين: **الرحلة** ص ١٣٧.
(٢) انظر: غنيمة: **نزهة المشتاق** ص ١٣١.
(٣) القلقشندي: **صبح الأعشى** ج ٥ ص ٤٧٤ وما بعدها.
(٤) الجاحظ: **الحيوان** ج ٤ ص ٩.
(٥) انظر: متز: **الحضارة الإسلامية** ج ١ ص ٥٦؛ ترتون: ترجمة حسن حبشي: **أهل الذمة** ص ٤٠؛ زيدان: **أحكام** ص ٩٨.
(٦) انظر: رفائيل: **أحوال نصارى بغداد** ص ٨١.

الإسلام يقر أهل الذمة على عقائدهم، ومن لوازم هذا الإقرار السماح لهم بإنشاء معابدهم، إلا إذا وجد الإمام مانعاً في ذلك، ولأن هذا الإقرار يتفق وإقرار الإسلام لأهل الذمة على عقيدتهم، وعدم التعرض لهم بشأنها[1]، لذلك فقد ترك المسلمون جميع الكنائس وبيوت العبادة لأصحابها من أهل الذمة[2]. فانتشرت الكنائس والبيع في أنحاء العراق، في مدنه وقراه، ومن أشهرها في بغداد بيعة مارسبريشوع الجاثليق[3]، وبيعة درنا[4] وبيعة مارسرجيس في الكرخ، وبيعة سرجونا[5]، وبيع درب دينار ودرب القراطيس، وسوق الثلاثاء[6]، وبيعة الدور[7]، وبيعة السيدة في دار الروم، وقد وصفها ياقوت[8] الحموي (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨ م) بأحكام البناء وحسنه، وهي للنساطرة في الجانب الشرقي من بغداد، وتجاورها بيعة اليعقوبية. وكانت الكنائس غالباً هياكل واسعة عالية القباب ذات أسوار متعددة، وقد وصف شعراء العرب تماثيلها ونقوشها، ومن أقدم الكنائس وأجملها، كنيسة الباعوثة في الحيرة[9] وبيعة عدي اللخمي في الكوفة[10]، وكنيسة تكريت[11].

بقيت المسيحية في الشرق تتمتع بوافر الحرية، فكان على ما يرويه المؤرخون في بلاد الإسلام في عصر المأمون أحد عشر الف كنيسة، كما كان فيها عدد كبير من هياكل اليهود ومعابد النار[12].

---

(١) انظر: زيدان: أحكام الذميين ص ٩٨ ــ ٩٩.
(٢) البلاذري: فتوح البلدان ص ١١٦؛ اليعقوبي: ج ٢ ص ١٥٩.
(٣) المجدل: ص ١٠٥.
(٤) انظر: لسترنج: بغداد في عهد الخلافة العباسية ص ١٠٨.
(٥) انظر: المجدل: ص ١١٩.
(٦) انظر: رفائيل: تاريخ نصارى العراق ص ٧٩.
(٧) انظر: أخبار بطاركة: كرسي المشرق ص ٨٩.
(٨) انظر: ياقوت: معجم البلدان ج ٢ ص ٦٦٣.
(٩) انظر: النصرانية وآدابها ج ٢ ص ٣٤٦.
(١٠) ياقوت: معجم البلدان ج ١ ص ٧٩٦.
(١١) نفس المصدر السابق ج ١ ص ٨٦٢.
(١٢) أنظر: ديورانت: قصة الحضارة ج ١٣ ص ١٣٢.

وكان الرئيس الديني الأعلى للنصارى يسمى (الجاثليق) وصفاته لكي يتولى هذه الوظيفة الدينية أن يكون: مديد القامة، جهير الصوت، جيد الخلق، وافر اللحية عظيمها، زاهداً في الرياسة[1]، يتولى الإشراف على العقائد المسيحية كما يتولى الإشراف على إدارة الكنائس، والأديرة، ويمثل النصارى في دار الخلافة في الأعياد والمناسبات الرسمية والشعبية، وكان يقوم بحل المسائل الدينية، ويعين القسس، ورجال الدين، كما كانت تخضع له جميع الكنائس كافة في البلاد الإسلامية.

ويتم انتخاب الجاثليق من قبل الكنيسة (رجال الدين)، ويصادق الخليفة على تعيينه جاثليقا للنصارى، ويكتب له عهداً ـ كما يكتب لكبار رجال الدولة ـ بالتولية وقد ورد في نسخة عهد الجاثليق عام ٥٣٣هـ / ١١٣٨ م. نوردها كنموذج لعهود الخلفاء للجثالقة النصارى خلال العهود الإسلامية فجاء فيه:

«ولما أنهيت حالك إلى أمير المؤمنين، وأنك أمثل أهل ملتك طريقة، وأقربهم إلى الصلاح مذهباً... فاتفقوا بإجماع من آرائهم وأهوائهم على اختيارك لرياستهم، ومراعاة شؤونهم، وتدبير وقوفهم والتسوية في عدل الوساطة بينهم... برز الاذن الامامي الاشرف لا زالت أوامره مقصودة بالتوفيق بترتيبك جاثليقا لنسطوري النصارى بمدينة السلام، ومن تضمنته ديار الإسلام، وزعيمًا لهم، ومن عداهم من الروم، واليعاقبة، والملكية في جميع البلاد الإسلامية.... وانفرادك عن كافة أهل ملتك بتقمص أهبة الجثلقة المتعارفة في أماكن صلواتكم، ومجامع عباداتكم.... وإن ولج أحد في باب المجادلة... وأبى النزول على حكمك... كانت العقوبة به حائقة حتى تعتدل قناته... وأمر بحملك على مقتضى الأمثلة الامامية في حق من تقدمك من الجثالقة...

(١) الجاحظ: البيان والتبيين ج ١ ص ١٢٥.

والحياطة لك، ولأهل ملتك في الأنفس، والأموال... واتباع العادة في موارة أمواتكم، وحماية بيعكم، ودياراتكم.... وأن يقتصر في استيفاء الجزية على تناولها من العقلاء الواجدين من رجالكم دون النساء، ومن لم يبلغ الحلم من أطفالكم، ويكون استيفاؤها نوبة واحدة في كل سنة... »[1].

كانت معظم العهود التي يمنحها الخلفاء للجثالقة تتضمن الأمور التالية[2]:

١ ـ تخويل الجاثليق الرئاسة على جميع النصارى في الديار الإسلامية.

٢ ـ النظر في مصالح طائفته، والحكم في الخلافات التي تحدث بين أبناء هذه الطائفة وفق أحكامهم.

٣ ـ تخويله سلطة رعاية بيوت العبادة، ومجالسهم.

٤ ـ إدارة الأوقاف الكنسية الخاصة بطائفته.

٥ ـ معاقبة المخالفين للشريعة المسيحية دون الضرب والسجن.

الرهبنة ونشوء الأديرة:

لقد رافق انتشار المسيحية ظهور الرهبنة ونشوء الأديرة، وقد قامت الرهبنة على الزهد والتقشف الذي دعت إليهما معظم الأديان القديمة، وحضت الناس على اتباعها، وعلى الابتعاد عن المجتمع وما فيه من مظاهر الانحلال والتفسخ، والدعوة إلى الانعزال، وتكريس الحياة للعبادة فقط دون النظر إلى العلاقات الجنسية، ومظاهر الحياة المادية، فاعتبروا هذه الأمور مصدر الشرور، والآثام في

---

(١) ابن القيم الجوزيه: **أحكام أهل الذمة** ص٩٣ ـ ٩٤؛ القلقشندي: ج ١٠ ص ٢٩٤ ـ ٢٩٩؛ متز: **الحضارة الإسلامية** ص٤٧ ـ ٤٨ نقلاً عن تذكرة ابن حمدون التي نشرها امدروز (Amedraz Jras 1908 p. 467).

(٢) انظر: رفائيل: **أحوال نصارى بغداد** ص ٥١.

العالم، وإنها مصدر المظالم والخطايا التي ينبغي تجنبها، فسكن هؤلاء المتبتلون في البراري والقفار هرباً من الدنيا وشرورها، ليكرسوا أنفسهم للعبادة، فسكنوا أول الأمر في الكهوف، والمغاور، ثم بنوا الصوامع والقلايات المنفردة[1] وبعد ذلك توسعت فشملت أكثر من متعبد واحد، وكان من نتيجة ذلك إنشاء الأديرة، وتنسب بداية نشوئها إلى القديس المصري انطونيوس المعروف بأبي الرهبان (حوالي ٢٧٠ م) الذي مال إلى التنسك، وأقام في صحراء النطرون بغربي مصر يعيش منعزلاً عن الناس[2]. وقد تأثر به عدد غير قليل من الناس فتبعوه إلى الصحراء ليعيشوا بقربه.

وقد عمت فكرة الرهبنة مختلف أنحاء مصر، ونظمت كل مجموعة في دير واحد يسكن كل أربعة منهم في غرفة منه، وكانوا يجتمعون في أوقات معينة للصلاة ولقراءة الكتاب المقدس، ثم توسعت هذه الأديرة بمرور الزمن، وأصبح يضم بين ٣٠ ــ ٤٠ راهباً، ووضعت له أسس لتنظيم الحياة الديرية؛ وأوجب على الرهبان النظام، وإطاعة رئيس الدير، والخضوع له، وفرض عليهم القيام بتوفير الطعام والكساء بأيديهم، ومنع الرهبان من مساهمتهم في الحياة العامة والزواج، ثم امتدت حركة الرهبنة، وإنشاء الأديرة إلى فلسطين وبلاد الشام، والعراق وآسيا الصغرى[3]. وأخذ الأباطرة، والمتدينين، والأمراء والأغنياء يتبارون ببناء الأديرة، وإيقاف الوقوف عليها، وإغداق الهبات إليها تقرباً إلى الله، وتكفيراً عن السيئات.

إن ازدياد عدد الأديرة، وكثرة المنضمين إليها حملت الأباطرة والأساقفة والمجامع الدينية على الاهتمام بها وتنظيمها، فصدرت عدة مراسيم كنسية، ولعل أهمها هي التي صدرت في عهد جستنيان، فحددت عدد الساكنين في

---

(١) أنظر: يوسف داود: **مختصر المختصر في تواريخ الكنيسة** ص٨٧ ــ ٨٩؛ شلبي: **مقارنة الأديان** ص ١٨٦.

(٢) انظر: المصدر السابق ص ٨٦ وما بعدها.

(٣) انظر: داود: **مختصر المختصر في تواريخ الكنيسة** ص ٨٧.

الدير، كما أوجبت تسوير كافة الأديرة، وفصل أديرة الراهبات عن أديـرة الرهبان، ومنعت الراهبات من الاختلاط بالرهبان، ووضعت إدارة مسؤولة عن الدير في النواحي الإدارية والمالية والعمرانية.

وقد كان الناس يولون هؤلاء الرهبان والراهبات التقدير البالغ لتقشفهم وعزوبتهم وعزوفهم عن الحياة الدنيا.

ولا يخفى أن الأديرة كانت ملجأ ليس للرهبان، والمتبتلين فحسب، وإنما مأوى للعجزة، والفقراء، والبؤساء، وابن السبيل، حتى كان يؤمها المطاردون فكان الدير يرحب بهم، وأبوابه مفتوحة للمضطهدين، والمفكرين الذين يفرون من نكبات الدنيا ومآسيها.

وقد خدمت الأديرة الآداب والفنون، فكانت أبنيتها من روائع فن العمارة والزخرفة، كما خدمت العلوم والآداب فنسخوا الكتب، وألفوا في موضوعات كثيرة، في التاريخ والأدب والفلسفة واللاهوت والطب.

غير أن سعة انتشار الأديرة أدت إلى تسرب بعض عوامل الضعف فيها، فقد ازدادت ثروتها، واتسعت أملاكها بفضل الهدايا والأوقاف، فانشغل كثير من رؤسائها بإدارة الأملاك دون العبادة كما دخلها كثير من الرعاع والجهال والكسالى والمجان[1]. إما طمعاً في العيش والحصول على القوت دون العبادة أو رغبة في التمتع بما في الدير من خمور ووسائل الراحة، فزادت عناصر الجهل فيها، وأهملت الدراسات، والتأليف مما أدى إلى محاولات عديدة لإصلاحها، وتوجيهها الوجهة التي أنشىء الدير من أجلها.

أما في العراق فقد انتشرت حركة الرهبة على يد القديس أوجانيوس (أوجين) (Ogean)(*) فسكنوا جبل ماردين، ونصيبين، وانقطع فريق منهم في جبل

---

(١) أنظر: شيخو: **النصرانية وآدابها** ص ٧٩.

(*) أوجين: ظهر أيام سابور الثاني وكان يجله كثيراً لأنه شفى ولدين للملك (كريستنسن: ايران في عهد الساسانيين ص ٢٣٧).

سنجار، وفي أطراف الموصل، ولما ازداد عددهم تفرقوا إلى النواحي وعمروا الأديرة الكثيرة، وأشهرها دير مارميخائيل، وماريونان، ودير يونس، وهذه الأديرة قريبة من الموصل[1]، ويذكر أن عديّ بن زيد نصح النعمان ملك الحيرة وحبب إليه النصرانية، فوضع تاجه، وخلع أطماره، ولبس أمساحه، فلزم عبادة الله في الجبال حتى مات وقيل: أن حنظلة الطائي فارق قومه، ونسك وبنى ديراً بالقرب من شاطىء الفرات، ويعرف هذا الدير (بدير حنظلة) وترهب فيه حتى مات[2].

ويقول أبو زهرة[3]: «لقد أنكر بعض المصلحين لزوم الرهبنة لأنهم رأوا ما أدت إليه من كبت للجسد الإنساني، وتعذيب له من غير ضرورة، ولا نص من الكتب قديمها وجديدها، بل لقد رأى أولئك المصلحون ما أدى إليه ذلك الكبت من انفجار غريزة الإنسان في رجل الدين، فانطلق يكرع اللذة من شقتها الحرام بعد أن حرم على نفسه الحلال، وترك المنهل العذب الذي حللته الشرائع، ويتفق مع ناموس الاجتماع الإنساني.

ويبدو أن الدافع الذي دفع الأتقياء من النصارى إلى حياة الزهد، والابتعاد عن الدنيا ومفاسدها وملاذها، والالتجاء إلى بناء الصوامع والأديرة، حيث نسبوا ذلك إلى المسيح الذين يروون عنه قوله: ان أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع أملاكك، واعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء، وتعال اتبعني[4]، وكذلك اقتبسوا من سيرة المسيح الذي كان يصعد إلى الجبل حينما يريد أن يصلي أو يعلم الجموع، ومن يوحنا المعمدان الذي كان يعيش أكثر أوقاته في البراري[5]، وقد يبدو إقبال الأتقياء على الترهب وعدم الزواج اقتداء بالمسيح الذي لم يتزوج، ولذلك أصبح من أهم صفات الراهب وشروط الرهبنة الابتعاد عن الزواج.

---

(١) أنظر: داود: **مختصر المختصر** ص ٩١ ـ ٩٢؛ شيخو: **النصرانية وآدابها** ص ٧٨.

(٢) انظر: أحمد أمين: **فجر الإسلام** ص ٣٣.

(٣) انظر: أبو زهرة: **محاضرات في النصرانية** ص ٢٠١.

(٤) انجيل متى، الاصحاح ١٩، آية ١٦ ـ ٢١.

(٥) انظر: شلبي: **مقارنة الأديان ـ اليهودية** ـ ص ١٨٧.

لقد كانت الأديرة في العراق، ولا تزال مأوى للعباد من النصارى ومبعثاً للدراسة، والبحث والتأليف، ومنبعاً من منابع الزهد والتقوى، ولكن بمرور الزمن أصبحت بالإضافة إلى ذلك أماكن للنزهة ومأوى للشعراء والمجان، حيث يلجأون إلى الدير ليحتسوا كؤوس الخمر، ويقولون الشعر الجميل، لما فيه من الهواء العذب، وما تحيط به من الحدائق والبساتين توحي للشعراء والمجان أسباب الراحة والمتعة[1]. ولو تصفحنا كتاب الديارات للشابشتي (ت ٣٨٨هـ / ٩٩٨م) ومسالك الأبصار لابن العمري (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م) لوجدنا حالة الأديرة في العراق في العصور العباسية خاصة، وما كانت تعج بالشعراء، والظرفاء، وكثرة ما قيل فيهم من الأشعار. فمما رواه الشابشتي[2] (ت ٣٨٨هـ / ٩٩٨م) في الديارات عن دير درمالس مثلاً: «أنه كان يجتمع فيه نصارى بغداد، ولا يبقى أحد ممن يحب اللهو والخلاعة إلا تبعهم، ويقيم الناس فيه الأيام، ويطرقونه في غير الأعياد»، ولأبي عبد الله ابن النديم فيه: «يا دير درمالس أحسنك، ويا غزال الدير ما أفتنك»، وكذلك عن دير الخوات (دير الراهبات) بعكبرا الذي كان يسكنه نساء مترهبات متبتلات، وعيده الأحد الأول من الصوم الكبير يجتمع إليه النصارى والمسلمون، وفي هذا العيد ليلة الماشوش، وهي ليلة تختلط النساء بالرجال فلا يرد أحد يده عن شيء، ولا يرد أحد أحداً عن شيء، وهو من معادن الشراب، ومنازل القصف، ومواطن اللهو، وللناجم أبي عثمان فيه[3]:

أح قلبي من الصبابة أح	من جوار مزينات ملاح
وفتاة كأنها غصن بان	ذات وجه كمثل نور الصباح
أهل دير الخوات بالله ومى	هل على عاشق فض من جناح

---

(١) ابن فضل الله العمري: **مسالك الأبصار** ج ١ ص ٢٦٠، ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء**: ج ٢ ص ١٧٠؛ أحمد أمين: **فجر الإسلام** ج ١ ص ٣٥٠.

(٢) الشابشتي: **الديارات** ص ٤.

(٣) الشابشتي: **الديارات** ص ٩٣ ـ ٩٤؛ القزويني: **آثار البلاد** ص ٣٧١، ابن أبي أصيبعة ج ٤ ص ١١٥.

وروي أيضاً ابن قتيبة عن الجاحظ[1]: (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٨م): «أن قوماً من بني ثعلب أرادوا قطع الطريق على مال السلطان، ولما علموا تتبع السلطان لهم اختفوا في دير العذارى، ولما آمنوا خلا كل واحد منهم براهية هي عنده عذراء، فإذا القس قد فرغ منهن فقال بعضهم في ذلك:

وألـوط من راهب يـدعي — بـأن النسـاء عليـه حـرام
يحـرم بيضـاء ممكـورة[2] — ويغنيه في البضع عنه غلام
إذا قس غض من طـرفـه — وفي الدير بالليل منه عرام
وديـر العذارى فضـوح لهن — وعند اللصوص حديث تمام

كما روى ابن العمري[3] (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م) عن ديـر العذارى فقال: «وكانت حوله حانات للخمارين وبساتين ومنتزهات». ويقول أحمـد أمين[4] في الأديرة: «وهكذا كانت الأديرة مصدراً لنغمتين كان الناس يسمعونها كثيراً في ذلك العصر نغمة حزينة زاهدة تدعو إلى الفرار من الحياة وارتقاب الموت، ونغمة مرحة لاهية تدعو إلى احتساء الكأس إلى آخر قطرة من قطراته.

وقد صور لنا الشابشتي (ت ٣٨٨هـ / ٩٩٨م) وغيره من المؤرخين حالة المجتمع الديري خير تصوير مما يحملنا على القول أن أصحاب الأديار ابتعدوا كثيراً عن الهدف الأساسي من إنشاء الدير، وهو العبادة، وأصبح مجرد مأوى للمجان والخلعاء والمستهترين، ومع هذا لم يكن اللهو والأنس هو الباعث الوحيد لزيارة الأديرة، وإنما كانت تتخذ لاستشفاء المرض على يد الرهبان، أو للنقاهة، أو لاعتقادهم بالبركة والبر الذي يصبغه رجل الدير على المرضى[5].

---

(١) الشابشتي: الديارات ص ١٠٧.
(٢) المكورة: المستديرة الساقين.
(٣) العمري: مسالك الأبصار ج ١ ص ٢٥٨.
(٤) انظر: أحمد أمين: ضحى الإسلام ج ١ ص ٣٥١.
(٥) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ج ٢ ص ١٧٣.

ازدهرت حركة إنشاء الأديرة في العراق في العهود الإسلامية، وقد ذكرها المؤرخون، ووصفها الشعراء، فوصف الشابشتي[1] (ت ٣٨٨هـ / ٩٩٨م) هذه الأديرة ومواقعها، ومواسم ارتيادها وأعيادها وأماكنها في مختلف أنحاء العراق، ولا مجال في بحثنا لتعدادها ووصف مواقعها وبنائها، فيقول المستشرق جلوب[2]: «كانت بغداد تضم ستة أديرة للنساطرة على الضفة الشرقية من نهر دجلة وحدها، وكانت هذه الأديرة محاطة بحدائق غناء يؤمها الناس، ويبدو أن الخلفاء كانوا يقيمون في بعض هذه الأديرة فترة من الزمن».

ويقول المستشرق متز[3]: «وكانت الأديرة المسيحية منتشرة في كل أجزاء بغداد حتى كادت لا تخلو منها ناحية وهذا دليل على تسامح المسلمين مع النصارى وبالإضافة إلى استخدام الرهبان الأديرة للتعبد كذلك بنوا القلايات[4] والصوامع[5] واتخذوها أماكن للعبادة، ولكنها تختلف في بنائها وهيئتها عن الأديرة. أما الديارات فتختلف بحسب مواقعها، فمنها ما تقام على قمم الجبال أو على ضفاف الأنهار، وقرب المدن والقرى، أو تنفرد في البراري والقفار، وإن كبر الدير يدل على كثرة الرهبان، وجميع الأديرة محصنة بأسوار قوية شامخة يدفع عنها شر الهجمات والمعتدين واللصوص، ويشترط في الدير أن تكون فيه كنيسة يصلي فيها أهل الدير، كما يشترط أن يحتوي على صوامع، وقلايات للرهبان، وكذلك على خزانة للكتب حيث يجد الرهبان فيها ما ينشدون من الدراسة

---

(١) الشابشتي: **الديارات** ص ٤ ـ ٢٧٥.

(٢) انظر: جون جلوب: **امبراطورية العرب** ص ٦٢٧.

(٣) انظر: متز: **الحضارة الإسلامية** ص ٥٧.

(٤) القلاية: تكون مرتفعة كالمنارة والفرق بينها وبين الدير أن الدير يجتمع فيه عدد من الرهبان والقلاية لا تكون إلا لواحد ينفرد بنفسه ولا يكون لها باب بل فيها (طاقة). يتناول منها الراهب طعامه وشرابه وما يحتاج إليه منها (متز: الحضارة الإسلامية ص ٥٧).

(٥) الصومعة: فهي كالقلاية تكون لراهب واحد والفرق بين الصومعة والقلاية أن القلاية تكون منقطعة في فلاة الأرض، والصومعة تكون على الطريق (ابن القيم الجوزية: أحكام أهل الذمة ص ٦٦٨ ـ ٦٦٩).

والتأليف في العلوم الدينية والأدبية والعلمية، والديارات الكبيرة لا تخلو من دور ضيافة ينزلها زوار الدير، والمجتازون به، وكان بعض تلك الأديرة على جانب عظيم من فخامة البنيان، واتساع الرقعة حتى أن بعض الخلفاء، والملوك والأمراء، والوجوه ينزلونها»[1].

وأما أماكن العبادة عند الصابئة فهي الهياكل، والمندا (بيت العبادة) فالهياكل بنيت لعبادة الكواكب، وقد اتخذوا لكل نجم من النجوم السيّارة لها هيكلاً وأشهر الهياكل التي بناها الصابئة هي: هيكل العلة الأولى، ودونها هيكل الفعل، وهيكل السياسة، وهيكل الصورة، وهيكل النفس، وتكون هذه الهياكل مدورات الشكل، ومنها أيضاً هيكل زحل مسدس، وهيكل المشتري مثلث، وهيكل المريخ مستطيل، وهيكل الشمس مربع، وهيكل الزهرة مثلث في جوف مربع، وهيكل عطارد مثلث في جوفة مربع مستطيل وهيكل القمر مثمن[2].

أما المندا (بيت العبادة) وهو بناء بسيط على شكل كوخ يقام من القصب والحصران المطلية بالطين على ضفة نهر، ويحاط بسياج من قصب وطين أيضاً بحيث يواجه الداخل إليه من فتحته الصغيرة النجم القطبي الذي يجب أن يتجه إليه الشخص حين يقوم بأداء الصلاة، وتلحق به بركة ماء للطهارة تقع في الجنوب منه تتصل بها من طرفيها قناتان واحدة تأخذ الماء من النهر، والثانية تصبه فيه، أو في الحقول المجاورة لغرض إبقاء الماء جارياً بصورة مستمرة، وليكون في البركة ماء حي لا راكد، ولا توجد نوافذ، ولا أية زينات داخله، وإنما فيه مشاجيب لتعليق الملابس وما شابهها، ولم يستعمل في بناء المندة حديد أو مسمار، ولا تجري أية شعائر دينية داخل المنـدا، وإن المراسيم والطقوس الدينية تجري في الساحة من حوله، وفي فناء المندا حوض يملأ بالماء من البركة عند إجراء عملية التعميد، وعند غسل المنـدا، وتعمد فيه الآلات والأشياء عند إجراء الطقوس الدينية داخل المندا، وفي داخل الكوخ أوعية وأواني البخور[3].

---

(١) الشابشتي: **الديارات** ص ٤٩ ــ ٥٠.

(٢) الشهرستاني: **الملل والنحل** ج ٢ ص ٥٧.

(٣) انظر: دراوور: **الصابئة المندائيون** ص ٢٠٠، ٢٠٣، ٢٠٨.

أما أماكن عبادة المجوس فهي بيوت النار، لقد عظم المجوس النار، وجعلوا في كل معبد موقد للنار، وسميت بيوت النار، ولقد لقي المجوس من المسلمين وغيرهم من أهل الذمة معاملة تنطوي على العطف والتسامح، ويتجلى هذا في معاهدات الصلح معهم، وضم شملهم هذا التسامح والعطف، فقد نصت معاهدات الصلح على حمايتهم وعدم المساس بمعتقداتهم، وأن لا يهدموا بيت نار[1]. فقد عوملت معابد المجوس كمعاملة الكنائس والبيع اليهودية والمسيحية، وأبيحت لهم مطلق الحرية في ممارسة شعائرهم الدينية[2] فظلت المجوسية قائمة في بعض المدن الفارسية ككرمان[3] مثلاً طوال خلافة بني أمية، ولم تسلم إلا زمن العباسيين[4] كما ظلت بيوت النار قائمة في بعض هذه المدن حتى القرن الرابع الهجري[5].

لقد كان بسبب تعظيم المجوس للنار أن اتخذوا المعابد لايقادها وعبادتها فيها، وذلك لمعان فيها (النار)، منها أنها جوهر شريف علوي، ومنها أنها ما أحرقت الخليل إبراهيم، ومنها ظنهم أن التعظيم ينجيهم في المعاد من عذاب النار[6].

ويقول الشهرستاني[7] (ت ٥٤٨هـ / ١١٥٣م): «فأول بيت نار بناه أفريدون بطوس، وآخر بمدينة بخاري، واتخذ بهمن بيتاً بسجستان يدعى كركو، ولهم بيت نار آخر في نواحي بخاري، يدعى قباذان، وبيت نار يسمى كويسة

(١) البلاذري: فتوح البلدان ص ٣٢٦.
(٢) ابن القيم الجوزية: أحكام أهل الذمة ص ١٠٦.
(٣) كرمان: مدينة بين غزنة وبلاد الهند وهي من أعمال غزنة (ياقوت معجم البلدان ج ٤ ص ٣٦٦).
(٤) ابن حوقل: الممالك والمسالك ص ٢٢١.
(٥) انظر: ترتون: ترجمة حسن حبشي أهل الذمة ص ٤٠ وما بعدها.
(٦) الشهرستاني: الملل والنحل ج ١ ص ٢٥٥.
(٧) نفس المصدر السابق ج ١ ص ٢٥٤.

بني في فارس وأصبهان بناه كيخسرو، وآخر بقومس يسمى جربر، وبيت نار آخر بارجان من فارس اتخذه أرجان جد كشتاسب، وهذه البيوتات كانت قبل زرادشت».

ولقد أولت الزرادشتية اهتماماً وتقديراً كبيراً للنار باعتبارها رمزاً للإله أهورا مزدا، ومبعث النور، والتطهير، فكان كل معبد نار يقوم مقام المذبح في الكنائس، والمحراب في المساجد، ويشرف عليها خدم مخصصون يدعون هرابذة، ومن أقدم بيوت النار عند الزرادشتيين هو بيت نار (أناهيتا) في مدينة أصطخر وكان أردشير الأول قيّماً عليه لذا حافظت الأسرة الساسانية على صلتها القريبة بهذا البيت[1].

ويصف المسعودي[2] (ت ٣٤٦هـ / ٩٥٧م) خرائب هذا البيت في أصطخر فيقول: «وللفرس بيت نار باصطخر تعظمه المجوس، كان في قديم الزمان بيت للأصنام فأخرجتها حماية بنت بهمن بن اسفنديار، وجعلته بيت نار فخرب، والناس في سنة ٣٣٢هـ، يذكرون أنه مسجد سليمان بن داود، وقد سبق أن حول إلى مسجد كبير منذ الفتح الإسلامي».

ولعل أهم هذه النيران التي عظمها المجوس الزرادشتيون هي:

١ ـ نار المؤبذين (آذر فامرياكو) وتسمى (آذر جمشيد) وكانت في زمن الساسانيين في كاريان بفارس، فلما دخل المسلمون ايران قسمها الزرادشتيون قسمين: أبقوا أحدها في مكانه، ونقلوا الآخر إلى بسا، ولما جاء زياد بن أبيه أطفأ نار كاريان.

٢ ـ نار الملكية (آذر جشتاسب) أو (نار جشتاسب) وكانت في شيز بأذربيجان، وظلت مصدراً للنار المقدسة حتى القرن الخامس عشر.

---

(١) انظر: كريستنسن: ايران في عهد الساسانيين ص ١٥٠.

(٢) االمسعودي: مروج الذهب ج ٤ ص ٧٦ ـ ٧٧.

٣ ـ نار الزراعة (آذر برز بن مهر) وكانت في ريوند جابرشهر.

غير أن هناك نيراناً كثيرة أخرى مثبتة في مختلف الأماكن، وظلت هذه النيران بعد القرن الرابع الهجري، فقد وصفها الاصطخري في المسالك، وذكر أماكن وجودها، فيقول: «إنها كانت في كل مدينة فارسية وجدد زرادشت بيت نار بنيسابور، وآخر بنسا، وأمر كشتاسب أن تقام بيوت النار التي كان يعظمها جده جم (جمشيد) »، ويقال أن أنو شروان هو الذي نقل بيوت النار إلى كاريان، واتخذ سابور بن أردشير بيوت النار فلم تزل هذه البيوت باقية حتى أيام المهدي، وأقيم بيت نار قرب مدينة السلام لبوران بنت كسري[1] وكان ببلخ معبد النويهار، وهو من أعظم بيوت النار والأصنام، تعظمه الفرس والترك، وتحج إليه وتهدي إليه الهدايا، وسدانته للبرامكة[2]، وكان في شيز بيت نار عظيم عند المجوس، ومنه تذكى نيران المجوس من المشرق إلى المغرب.

ويقول القزويني[3] (ت ٦٨٢هـ / ١٢٨٣ م)، ومن عجاب هذا البيت أنهم يوقدون منه منذ سبعمائة سنة فلا يوجد فيه رماد البتة، ولا ينقطع الوقود عنه ساعة من الزمان.

وجعل المجوس النار قبلة لهم لا إلهاً، وفيها (بيوت النار) يرتل رجال الدين (الهرابذة) الأدعية، والأوراد المقررة للأوقات الخمسة المحددة في النهار بصوت مرتفع، ولحن جميل حيناً وبصوت منخفض إلى حد التمتمة حيناً آخر[4].

□ □ □

---

(١) الشهرستاني: الملل ج ١ ص ٢٥٤.

(٢) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد ص ٣٣١.

(٣) القزويني: ص ٣٩٩؛ ابن الأثير: الكامل ج ١ ص ١٤٦ فيقول: لقد كذب المجوس قولهم لأن النار التي كانت للمجوس طفئت في جميع البيوت لما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم).

(٤) انظر: كريستنسن: ايران في عهد الساسانيين ص ١٥٣.

الفصل الرابع

الأعياد والمراسيم الدينية لأهل الذمة

تعتبر الأعياد عند كافة أصحاب الأديان من الشعائر الدينية، ومن المراسيم التي تنص عليها الشرائع، وهذه الأعياد مظهراً من مظاهر العقيدة الدينية، ولذلك اختلفت باختلاف الأديان.

فبالنسبة لأعياد اليهود تعتبر ليلة السبت، ويومه من أعظم أعيادهم، ولذا فقد كانوا يتقيدون بمراسيمه، فعليهم أن يسبتوا عن الكلام في ليله، وألا يوقدوا النار في منازلهم، وأن يقضوا النهار عاكفين على الصلاة في الكنيس، ولا يجوز لهم الصوم أو الحزن فيه، بل عليهم أن يستقبلوا الأصدقاء، ويحتسوا كؤوس الخمر[1].

ومن أعياد اليهود عيد رأس السنة، ويسمونه (عيد رأس هيشا) أي، عيد رأس الشهر في اليوم الأول من تشرين الأول ـ يتفق مع الاعتدال الخريفي ـ ويقولون أن الله تعالى أمر ابراهيم بذبح ولده إسحق[2] فيه وفداه بذبح عظيم. وقيل: في هذا اليوم ينفخ اليهود في قرن الحمل إحياء لذكرى نزول التوراة ودعوة الناس إلى التوبة من الذنوب، ويعتبرون مساء رأس السنة إلى اليوم

---

(١) انظر: ديورانت: قصة الحضارة ج ١٤ ص ٢٦ ـ ٢٧.

(٢) انظر: الألوسي: بلوغ الارب ج ١ ص ٣٦١؛ القلقشندي: ج ٢ ص ٤٢٦؛ البيروني: ص ٢٧٥؛ المقدسي ج ٤ ص ٣٧. عند اليهود اسحق، وفي القرآن: اسماعيل (سورة الصافات).

العاشر من تشرين الأول أيام توبة، وتكفير عن الذنوب، وكان أتقيائهم يصومون، ويصلون في جميعها عدا اليوم التاسع، وإذا جاء اليوم العاشر المسمى (يوم هاكيريم) أو (يوم الغفران) لا يجوز لهم الأكل أو الشرب، أو احتذاء النعال، أو الاستحمام، أو القيام بعمل، أو التقرب من النساء من مطلع الشمس إلى مغيبها، ويقضونه في الكنيس يصلون ويستغفرون للذنوب بما فيها عبادة العجل[1].

والعيد الثاني، عيد المظال، وهو ثمانية أيام أوله الخامس عشر من تشرين الأول، وهو أيضاً حج لهم، وهم يجلسون في هذه الأيام تحت ظلال من جريد النخل، وأغصان الزيتون، وسائر الأشجار، ويسمى في العراق (عيد العرازيل). أو (الخيام المصنوعة من سعف النخيل) تخليداً، وتذكاراً منهم لإظلال الله إياهم في التيه أربعين يوماً في الصحراء[2].

والعيد الثالث، عيد صوماريا، ويسمونه (الكيور) وهو عندهم الصوم العظيم، ومدته خمسة وعشرون ساعة يبدأ قبل غروب الشمس في التاسع من شهر تشرين ويختم بمضي ساعة بعد غروبها من اليوم العاشر، ولهذا يسمى (العاشور) ويشترطون رؤية ثلاثة كواكب عند الإفطار، ولا يجوز أن يقع في الأيام: الأحد، والثلاثاء، والجمعة، ويزعمون أن الله يغفر لهم فيه جميع ذنوبهم ما خلا الزنا بالمحصنة، وظلم الرجل أخاه، وجحده ربوبية الله[3].

والعيد الرابع، عيد الفطير، ويكون في الخامس عشر من نيسان، وهو سبعة أيام يأكلون فيها الفطير، وينظفون بيوتهم فيها من خبز الخمير، وهذه

---

(١) انظر: ديورانت: **قصة الحضارة** ج ١٤ ص ٢٨.

(٢) انظر: الألوسي: ج ١ ص ٣٦١؛ ديورانت: ج ١٤ ص ٢٨؛ البيروني: ص ٢٧٧؛ القلقشندي: ج ٢ ص ٤٢٦؛ المقدسي: ج ٤ ص ٣٨؛ لوبون: **اليهود في تاريخ الحضارات الأولى** ص ٣٠.

(٣) البيروني: ص ٢٧٦؛ القلقشندي: ج ٢ ص ٤٢٦؛ الألوسي: ج ١ ص ٣٦١؛ المقدسي ج ٤ ص ٣٧.

الأيام عندهم هي التي خلص الله فيها بني اسرائيل من يد فرعون وإغراقه، فجعلوا يأكلون اللحم والخبرز الفطير[1]، وهم يأكلون الخبز الفطير بسرعة، وأوساطهم مشدودة، وخفافهم في أرجلهم، وعصيهم في أيديهم، ويخرجون ليلاً، وما فضل من عشائهم ذلك يحرقونه بالنار[2].

ويبدو أن هذه الإجراءات هي من المراسيم الدينية لليهود في هذا العيد. وكان يسمى أيضاً في أيام التلمود (عيد المرور)[3].

والعيد الخامس، عيد الأسابيع، ويسمى (عيد العنصرة) أو (عيد الخطاب) وموعده بعد سبعة أسابيع من عيد الفصح يحتفل اليهود فيه لتجلي الله لموسى على الجبل في سيناء[4] وفرضت فيها الفرائض وكمل فيها الدين[5]، وهو اليوم الذي خاطب الله موسى، وأعطاه الوصايا العشر[6].

وقد أحدث اليهود أعياداً أخرى لم ترد في التوراة، وهما عيدان: الأول (عيد الفوز) ويقع في الرابع عشر من آذار، وهو عندهم عيد سرور ولهو، وخلاعة يتبادلون فيه الهدايا، فيزعمون أن موسى ولد فيه وتوفي فيه، ويقولون أيضاً أنه اليوم الذي نجا فيه اليهود من مذبحة هامان الوزير الفارسي في عهد أردشير بن بابك، ويشربون فيه الخمر، ويلعنون هامان، ويصورونه على ورق، ويملأون بطنه نخالة وملحاً ويلقونها في النار حتى تحترق[7].

والعيد الثاني، (عيد الحنكة) أو (التكريس) وهو ثمانية أيام يقع أوله في

---

(١) القلقشندي: ج ٢ ص ٤٢٧؛ الألوسي: ج ١ ص ٣٦٢؛ المقدسي: ج ٤ ص ٣٧.
(٢) ابن خلدون: المقدمة ق ١ م ٢ ص ١٥٥ وما بعدها.
(٣) انظر: ديورانت: قصة الحضارة ج ١٤ ص ٢٧.
(٤) أنظر: ديورانت: ج ١٤ ص ٢٧؛ المقدسي: ج ٤ ص ٣٧.
(٥) انظر: الألوسي: بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب ج ١ ص ٣٦٢.
(٦) القلقشندي: ج ٢ ص ٤٢٧؛ البيروني: ص ٢٨١.
(٧) القلقشندي: ج ٢ ص ٤٢٧؛ ديورانت: ج ١٤ ص ٢٩.

الخامس والعشرين من تشرين الأول يوقدون فيه الليلة الأولى على أبوابهم سراجاً، ويزداد عددهم مع الأيام حتى يبلغ ثمانية سروج في الليلة الثامنة، وسبب اتخاذهم هذا العيد أن بعض الجبابرة تغلب على بيت المقدس، وفتك باليهود، وافتض أبكارهن، فوثب عليه كهانهم فقتله أصغرهم، وأوقدوا النيران في السروج على أبوابهم كل ليلة فسموه (الحنكة) ومعناه التنظيف لأنهم نظفوا الهيكل من أقذار الجبابرة[1]، وبعضهم يسميه عيد (التبريك) لأن فيه استتمام نزول التوراة، وسلمت إلى أئمتهم لتوضع في الهيكل[2].

وأما أعياد النصارى في العراق، فكانت تقام مراسيمها في ديارات معروفة منها أعياد الصوم[3]، وكانت معظم الأعياد النصرانية مقدسة عند الوثنيين من قبل، كما أن أعياد القديسين التي تقام في الأديرة ما هي إلا تجديد لأعياد الآلهة القديمة[4].

فكان المسلمون يساهمون بالاحتفال بالأعياد النصرانية، ولا سيما أعياد القديسين التي كانت تقام في الأديرة، وذلك لوجود البساتين، وحانات الشراب، والوجوه الملاح من الفتيات فيجتمع فيها أهل اللذة[5].

وأول أعياد النصارى (عيد البشارة) ويسمى عيد (السبار)[6] ويقول البيروني[7] (ت ٤٤٠ هـ/ ١٠٤٨م) السبار دخول جبرائيل على مريم مبشراً

---

(١) القلقشندي: ج ٢ ص ٤٢٧؛ الألوسي: ج ١ ص ٣٦٤؛ ديورانت: ج ١٤ ص ٢٨؛ البيروني: ص ٢٧٨.

(٢) الألوسي: بلوغ الإرب ج ١ ص ٣٦٤.

(٣) يراد به الصوم الكبير ومدته خمسون يوماً.

(٤) انظر: متز: **الحضارة الإسلامية** ج ٢ ص ٢٧٦.

(٥) الشابشتي: **الديارات** ص ١٨ وما بعدها.

(٦) السبار: لفظة سريانية (شيخو النصرانية وآدابها ص ٢١٤)؛ المقريزي: ج ٢ ص ٢٤.

(٧) البيروني: **الآثار الباقية** ص ٢٩٤؛ الألوسي: ج ١ ص ٣٥٧.

بالمسيح، وكان عيد الشعانين (السعانين)[1] من الأعياد الكبيرة عند النصارى، ولا بد أنه كان عيداً قديماً من أعياد الأشجار، وكان في مصر يسمونه عيد الزيتونة[2] ويسمى يوم السباسب، والسباسب الأغصان، يريدون بها سعف النخيل الذي قطعه اليهود يوم استقبلوا المسيح عند دخوله أورشليم[3].

ويؤيد هذا الاعتقاد ما رواه الأصفهاني[4] (ت ٣٥٦ هـ/ ٩٦٦م) وكانت الوصائف في يوم أحد الشعانين يظهرون في قصر الخلافة ببغداد متزينات في ثياب جميلة غالية، وفي أعناقهن صلبان من الذهب، وبأيديهن قلوب النخل، وأغصان الزيتون ويقع في سابع أحد من صومهم، وهو يوم دخول المسيح القدس والناس يسبحون بين يديه، يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر[5].

ومن الأعياد العظيمة عند النصارى عيد ميلاد المسيح، ففي ليلة عيد الميلاد ويجعلوها عشية الأحد ليلة الميلاد، (٢٥ كانون الأول) وكذلك عيد الشمس كان يحتفل به بإيقاد النيران[6]، ويسميه البيروني[7] (ت ٤٤٠ هـ/ ١٠٤٨م) عيد (يلدا)، وقد أشار المستشرق متز[8] إليه معتمداً على ما رواه ابن

(١) السعانين: مشتقة من العبرانية (هوشعنا) أي التحلل (شيخو، النصرانية وآدابها ص ٢١٥ وتفسيره بالعربية التسبيح يعملونه في سابع أحد من صومهم وسنتهم فيه أن يخرجوا بسعف النخل من الكنيسة وهو يوم ركوب المسيح لليعفور (الحمار) في القدس ودخوله وهو راكب والناس يسبحون بين يديه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر (القلقشندي، صبح الأعشي ج ٢ ص ٤٢٥).

(٢) المقريزي: **المواعظ والاعتبار** ج ١ ص ٢٦٤.

(٣) شيخو: **النصرانية وآدابها** ص ٢١٥.

(٤) الأصفهاني: **الأغاني** ج ١٩ ص ١٣٨.

(٥) القلقشندي: ج ٢ ص ٤١٥؛ الألوسي: ج ١ ص ٣٥٧؛ المقريزي: ج ٢ ص ٢٤؛ طبعة النيل مصر ١٣٢٤ م.

(٦) أنظر: الألوسي: **بلوغ الإرب** ج ١ ص ٣٥٨؛ القلقشندي: ج ٢ ص ٤١٦؛ شيخو: **النصرانية وآدابها** ص ٢١٥؛ المقريزي: ج ٢ ص ٢٥.

(٧) البيروني: ص ٢٩٣؛ يلدا كلمة سريانية تعني ميلاد المسيح.

(٨) انظر: متز: **الحضارة الإسلامية** ج ٢ ص ٢٨١.

بابوية القمي الشيعي الفارسي المتوفي سنة ٣٨١ هـ في كتابه (العلي، ص ٣٢/ مخطوط برقم ٨٣٢٧) والتي من أجلها يوقد النصارى ليلة عيد الميلاد، ويلعبون بالجوز، وروي عن وهب بن منبه، أنه لما ألجأ المخاض مريم إلى جذع النخلة اشتد عليها البرد فعمد يوسف النجار إلى حطب فجعله حولها كالحظيرة ثم أشعل فيه النار، فأصابتها سخونة الوقود من كل ناحية حتى دفئت، وكسر لها سبع جوزات، وجدهن في خرجه فأطعمها، ومن أجل ذلك يوقد النصارى النيران ليلة عيد الميلاد، ويلعبون فيها بالجوز.

ومن الأعياد التي يحتفل فيها النصارى أيضاً عيد رأس السنة، وقد سماه البيروني[1]، (القلنداس)، ودعاه المسعودي[2] (ت ٣٤٦ هـ/ ٩٥٧م) (القلندس) وهو تمام الأسبوع من ولادة مريم، واللفظة لاتينية (Kalendas) ومن ليلته يوقد النصارى النيران، ويظهرون الفرح والسرور[3].

وأما عيد الدنح (الغطاس) ويسمى أيضاً بـ(يوم العماد) يقع في السادس من كانون الآخر دنحاً، وهو عيد الدنح نفسه، ويوم المعمودية، فيقولون أن يوحنا وهو (يحي بن زكريا) غمس فيه المسيح بماء المعمودية بنهر الأردن عند بلوغه الثلاثين من عمره، واتصل به روح القدس على شكل حمامة نزلت من السماء على ما ذكر في الإنجيل[4].

وعيد الفصح، وهو العيد الكبير، ويوم الفطر من صومهم الأكبر، وفيه قام المسيح بنفسه بعد الصلبوت بثلاثة أيام، وخلّص آدم من الجحيم وأقام في الأرض أربعين يوماً آخرها يوم الخميس ثم صعد إلى السماء[5].

---

(١) البيروني: ص ٢٩٢.

(٢) المسعودي: مروج الذهب ج ٣ ص ٤٠٦.

(٣) انظر: شيخو: النصرانية وآدابها ص ٢١٥.

(٤) البيروني: ص ٢٩٣؛ الألوسي: ج ١ ص ٣٥٨؛ شيخو: النصرانية وآدابها ص ٢١٥؛ المقريزي: ج ٢ ص ٣٠.

(٥) انظر: الألوسي: ج ١ ص ٣٥٧؛ القلشندي: ج ٢ ص ٤١٥؛ المقدسي: ج ٤ ص ٤٧؛ المقريزي: ج ٢ ص ٢٥.

وفي الفصح يوقدون المشاعل، ويدعون أيضاً الفصح بالقيامة، لتذكار قيامة المسيح من الموت يوم الفصح[1]. وفي هذا اليوم كان النصارى ببغداد يقصدون دير سمالوبباب الشماسية على نهر المهدي ولا يبقى أحد من أهل الطرب واللهو إلا حضره، وهناك يدور الشراب[2].

وأما عيد السلاق، (الصعود) فيقع بعد الفصح بأربعين يوماً ويقول البيروني[3] (ت ٤٤٠ هـ/ ١٠٤٨م) ويتفق أبداً يوم الخميس، وفيه تسلق المسيح مصعداً إلى السماء ووعدهم بإرسال (الفار قليط) وهو روح القدس عندهم ويسمونه أيضاً عيد خميس الأربعين[4].

وأما عيد الباعوث، وهو يوم استسقاء النصارى، وهو اسم سرياني معناه الصلاة والدعاء، يقام ثاني يوم عيد الفصح، وقد وردت اللفظة في ما نسب إلى عهد عمر بن الخطاب لما صالح نصارى الشام شرط عليهم (أن لا يحدثوا كنيسة، ولا قلية، ولا يخرجوا يوم سعانين ولا باعوثاً)[5].

وأما الأعياد الصغيرة عند النصارى فهي كثيرة، ولا يلتزم جميع النصارى فيها بالتعطل عن العمل، وممارسة شعائرها والاحتفال بها، وتبدو أنها تقاليد مسيحية، وجد بعضها في حياة المسيح، واستحدث بعضها بعد رفعه إلى السماء، وأشهرها، عيد الختان ويقع في الثامن من ميلاد المسيح، ويقولون: أن المسيح ختن في هذا اليوم.

وعيد الأربعين، وهو عيد دخول المسيح الهيكل، وعيد خميس العهد،

---

(١) انظر: شيخو: **النصرانية وآدابها** ص ٢١٦.

(٢) الشابشتي: **الديارات** ص ١٤.

(٣) البيروني: ص ٣٠٨؛ الألوسي: ج ١ ص ٣٥٧؛ المقدسي: ج ٤ ص ٤٧؛ شيخو: **النصرانية** ص ٢١٧.

(٤) القلقشندي: ج ٢ ص ٤١٦؛ المقدسي: **البدء والتاريخ** ج ٤ ص ٤٧.

(٥) انظر: شيخو: **النصرانية وآدابها** ص ٢١٧.

ويقع قبل الفطر بثلاثة أيام، وسننهم فيه أنهم يأخذون إناء، ويملؤنه ماءاً، ويزمزمون عليه ثم يغسل البطريرك به أرجل سائر الناس، ويزعمون أن المسيح فعل هذا بتلاميذه ليعلمهم التواضع، والعامة يسمونه خميس العدس لأنهم يطبخون فيه العدس[1].

ويقع عيد (سبت النور) قبل الفصح بيوم، ويقولون: أن النور يظهر على قبر المسيح في هذا اليوم، وأما (الأحد الجديد) فيقع بعد الفصح بثمانية أيام، وفيه يجددون الأثاث والألبسة، وعيد التجلي، يقولون: أن المسيح تجلى لتلاميذه بعد أن رفع في هذا اليوم، وتمنوا عليه أن يحضر لهم إيليا وموسى فأحضرهما لهم بمصلى بيت المقدس ثم صعد وصعدوا، وعيد الصليب، وتزعم النصارى أن قسطنطين بن هيلانة رأى في المنام الملائكة تنزل وبيدها الصلبان، وقال قائل: إعمل مثل هذا على رؤوس أعلامك فإنك تنتصر، فعمل وقاتل بها وانتصر[2]، ولما انتصر قسطنطين خرجت أمه هيلانة إلى الشام فبنت بها الكنائس، وسارت إلى بيت المقدس وطلبت الخشبة التي زعم النصارى أن المسيح صلب عليها فحملت إليها فنقشتها بالذهب، واتخذت ذلك اليوم عيداً[3].

إضافة إلى هذه الأعياد، فقد اتخذ النصارى على اختلاف طوائفهم أعياداً للقديسين، وجعلوا لها أياماً خاصة يزورون فيه الأديرة والكنائس التي أقيمت باسم القديس، ففي اليوم الثالث من تشرين الأول عيد القديسة أشموني، وكان يقام في دير أشموني، وهو بقطربل غربي دجلة، يجتمع فيه أهل بغداد كاجتماعهم إلى بعض أعيادهم ولا يبقى أحد من أهل الطرب واللهو إلا خرج إليه...

---

(١) المقريزي: **المواعظ والاختبار** ج ٢ ص ٢٩؛ مطبعة النيل ١٣٢٤ هـ.

(٢) أنظر: الألوسي: ج ١ ص ٣٥٨ - ٣٥٩؛ القلقشندي: ج ٢ ص ٤١٧ - ٤١٨؛ المقريزي: ج ٢ ص ٢٩؛ مطبعة النيل ١٣٢٤ هـ.

(٣) القلقشندي: ج ٢ ص ٤١٩؛ برصوم: **اللؤلؤ المنثور** ص ٩٢؛ المقريزي: ج ١ ص ٢٦٤؛ المقدسي: ج ٤ ص ٤٧.

ويتنافسون فيها يظهرون هنالك من زيهم ويباهون بما يعدونه لقصفهم . . . ، ويضرب لذوي البسطة منهم الخيم، والفساطيط، وتعزف عليها القيان . . .[١]، وعيد الأحد الأول من الصوم الكبير، ويقام في دير الخوات والراهبات بعكبرا ويجتمع إليه النصارى والمسلمون، وفي هذا العيد ليلة الماشوش[٢]، وهي الليلة التي يبلغ اللهو أقصاه فيها حيث تختلط النساء بالرجال، فلا يرد أحد يده من شيء ولا يرد أحد أحداً من شيء، وهو من معادن الشراب ومنازل القصف ومواطن اللهو[٣].

ويجتمع نصارى بغداد يوم الأحد الرابع من الصوم الكبير للاحتفال بعيد (دير درمالس)، ولا يبقى أحد ممن يحب اللهو والخلاعة إلا تبعهم[٤].

وفي يوم عيد الفصح كان النصارى والمسلمون ببغداد يقصدون دير سمالو الذي بباب الشماسية، ويحضره أهل الطرب والشراب[٥].

وقد اختلفت الطوائف المسيحية في الاحتفال بهذه الأعياد، فيقول البيروني[٦] (ت ٤٤٠ هـ/ ١٠٤٨ م) فالنسطورية وافقت الملكانية في بعض أعيادها وصيامها، ومنها ما اختلفت معهم فيه، وقد وافقت الملكانية في أعياد الميلاد، والدنح، وأول الصوم، والسعانين، وغسل أرجل الحواريين، المسيح، وجمعة الصلبوت، والقيامة، والفطر، والأحد الجديد، وخالفتهم في غيرها من الأعياد.

وأما أعياد الصابئة، فمدارها على الكواكب الخمسة، وهي

---

(١) الشابشتي: **الديارات** ص ٤٦؛ البيروني: ص ٢٩١.

(٢) أنظر: ليلة الماشوش للأب الكرملي: (لغة العرب) ص ٣٦٨ ـ ٣٧٣؛ لسنة ١٩٣٠ م. حبيب زيات: **الديارات النصرانية** ص ١٠٩ ـ ١١٢.

(٣) الشابشتي: **الديارات** ص ٩٣.

(٤) المصدر السابق، ص ٨٧.

(٥) نفس المصدر السابق ص ١٤.

(٦) البيروني: **الآثار الباقية** ص ٣٠٩؛ برصوم: **اللؤلؤ المنثور** ص ١٠٨.

والمشتري، والمريخ، والزهرة، وعطارد، وأعيادهم عند نزول الكواكب الخمسة في بيوت شرفها (حيث يعتبرون البروج ما يقوم مقام البيوت أو القصور الذي يعلو ويشرف فيها الكوكب بدرجات معلومة). وهم يعّظمون اليوم الذي تنزل الشمس فيه الحمل، ويلبسون فيه أفخر ثيابهم، وهو عندهم من أعظم الأعياد، ولذلك بنوا الهياكل، وجعلوا لها أعياداً بحسب الكواكب التي بنيت على اسمها فيه [1].

وأعياد الصابئة كثيرة جداً، تحدث في جميع أشهر السنة لكل منها مراسيم، وتقاليد وتعاليم خاصة[2]، ومن أعيادهم المهمة عيد الميلاد، ويقع في (٢٣ كانون الأول) ويطلق عليه الصابئة اسم (دهقة رية)، وكما أن الصابئة يحرمون في أكثر أيام هذا العيد، وبخاصة في أول يوم من السنة الجديدة، الجزر والذبح، ويطلق الصابئة على أيام الاحتفال بعيد رأس السنة (نوروز رية)[3]، وفي آخر يوم من السنة يحتفل الصابئة بذبح الكبوش والفراخ، ويطهرون المواد الغذائية، ويغتسل فيه الصابئة رجالاً ونساء وأطفالاً بالارتماس بالنهر ثلاث مرات، وتطلق الزغاريد، ويعود الجميع إلى بيوتهم[4].

ويعتبر الصابئة يوم عيد رأس السنة هو ذكرى يوم الخليقة فقد أتم رب العظمة خلق العالم في هذا اليوم، ولذلك فجميع الأرواح النورانية أينما كانت تغادر مواقعها، وتذهب لزيارته، وتقديم الشكر له، وتستغرق هذه الرحلة اثنتي عشرة ساعة للعروج حيث يصلون غايتهم في فجر يوم رأس السنة الجديدة، ويمكثون طيلة يوم رأس السنة، ولهذا يظل العالم دون حماية، فتظل قوى الشر

---

(١) القلقشندي: **صبح الأعشى** ج ٢ ص ٤٢٩.

(٢) ابن النديم: **الفهرست** ص ٤٦١ ــ ٤٦٧؛ البيروني: ص ٣٢٠.

(٣) ويبدو أن الصائبة تحتفل بالنوروز أيضاً فيصح اعتباره عيداً عالمياً يحتفل به في وقت واحد أكثر أمم الشرق بمناسبة حلول الربيع. واحتفل به أقباط مصر ومدته سبعة أيام يأكلون ويشربون إكراماً للكواكب وتفرق فيه الكسوة والهدايا (المقريزي: ج ٢ ص ٣١ طبعة مطر ١٣٢٤ هـ ويسمونه اليوم عيد شم النسيم.

(٤) أنظر: دراوور: **الصابئة المندائيون** ص ١٤٥ ــ ١٤٦.

والموت طليقة، وفي اليوم الثاني من السنة الجديدة يخرج الصابئة من دورهم يتزاورون، ويبتهجون، وتكون أول زيارتهم عادة إلى (الكنزفرة) حيث يخبرهم عن طالع السنة الجديدة[1]، ويسمى اليوم السادس (نوروز زوطة) أو السنة الجديدة الصغرى، وليلة اليوم السابع تسمى ليلة القدر، وفي هذا العيد تضاء جميع أنوار البيت، وتوزع الأطعمة على الفقراء، ويزور الكهان رعاياهم، ويعلقون على عتبة الدار العليا في كل بيت إكليلاً من الصفصاف والآس، ويسمح للصابئة في اليوم الخامس عشر بالجزر وأكل اللحوم، ويعتبرون اليوم الثاني والعشرين من الشهر الأول للسنة الجديدة يوم نحس لا يتعامل فيه، ولا تقام مراسيم دينية لأنه غير مبارك[2].

أما عيد (البنجة) وهو احتفال ديني أكثر مما هو عيد، وفيه تفد الصابئة إلى مواطن كهانهم للتعميد، ومدته خمسة أيام يرتدي فيه الصابئة الملابس البيضاء، وينتعلون النعال المصنوع من الألياف النباتية، أو يسيرون حفاة، وقبل انتهاء البنجة يلزم تكريس (المندى) تضحية كبش وحمامة[3]، والعيد الآخر يأتي بعد ٩٠ يوماً من البنجة في اليوم الأول من شهر هطية، وهو عيد (دهقة ديمانه) وهو الاحتفال بتعميد آدم، وفيه يجب عليهم أن يتعمدوا كأسلافهم وبملابس دينية جديدة (رستة)، ويّحرم فيه ذبح الحيوان، وأكل اللحوم في اليوم الذي يلي العيد[4].

ومن الأعياد الأخرى للصابئة عيد البونات، ويقع في السابع والعشرين من تموز، ويستمر حتى نهايته، وتجري فيه مراسيم خاصة في الصوم، والطعام، وذبح الذبائح[5]. وقد ذكر البيروني[6] (ت ٤٤٠ هـ/ ١٠٤٨ م) في كتابه

---

(١) نفس المصدر السابق ص ١٤٦ ــ ١٤٧.
(٢) نفس المصدر السابق ص ١٥٠.
(٣) نفس المصدر السابق ص ١٥٢ ــ ١٥٣.
(٤) نفس المصدر السابق ص ١٥٤.
(٥) أنظر: مليحة: **الحالة الاجتماعية** ص ٤٤.
(٦) البيروني: **الآثار الباقية** ص ٣١٩ ــ ٣٢١.

(الآثار الباقية)، أسماء أعياد كثيرة، وصيام خلال (أهلة السنة)[1]، ويبدو أن أغلب هذه الأعياد قديمة جداً، وقد اندثرت، لذلك لم يورد المؤرخون ذكرها.

أما الأعياد المجوسية فقد كانت في الأصل على ما يذكر البيروني[2] في الآثار، مما يحتفل فيه الفلاحون، والعاملون في الزراعة، فكانت أعياداً موسمية، ولما اعترف بالدين الزرادشتي ديناً رسمياً للدولة الساسانية اصطبغت هذه الأعياد بصبغة رسمية، وأصبح لها طابع ديني يقوم رجال الدين (الهرابذة) بطقوسه، ويساهم الشعب في الاحتفال بها، وكانوا يطلقون على الأشهر أسماء الملائكة، وكل شهر ثلاثون يوماً، ويرتبط بإله (زرادشت) ويضاف إلى كل سنة خمسة أيام تدعى (كاتا)، وتجري في هذه الأيام الخمسة عيد الموتى، فقد جاء في الباب الثالث عشر من (الأفستا) أنه في أثنائه تقترب أرواح المؤمنين من مساكن الصالحين مدة عشر ليال متوالية طالبة الصدقة، والقرابين[3].

ويقول البيروني[4] (ت ٤٤٠ هـ/ ١٠٤٨ م)، وفي أيام هذا العيد كانوا يضعون الأطعمة في نواويس[5]، الموتى، والأشربة على ظهور البيوت ويزعمون أن أرواح موتاهم تخرج في هذه الأيام من موضع ثوابها وعقابها فتأتيها وتتناول أطعمتها [illegible] بالراسن ليستلذ الموتى برائحته.

ويقول آرثر كريستنسن[6]: والأعياد الدينية الزرادشتية الرسمية ستة

---

(١) أهلة السنة: ويسمى الصابئة الشهور بالأسماء السريانية ويحسبون أعيادهم وصومهم بموجبها ويسلكون بذلك سبيل اليهود، ويلحقون بأسماء الشهور لفظة (الهلال) فيقولون مثلاً: هلال تشرين الأول، ووافقهم النصارى في مأخذ حساب صومهم وأعيادهم، وخالفوهم في استعمال الشهور، وذهبوا في ذلك مذهب الروم. (البيروني: الآثار الباقية ص ١١ ص ٣١٨).

(٢) البيروني: **الآثار الباقية** ص ٣٣ ص ٤٥.

(٣) أنظر: كريستنسن: **ايران في عهد الساسانيين** ص ١٦٠.

(٤) البيروني: **الآثار الباقية** ص ٢٢٤.

(٥) النواوميس: مقابر النصارى والمجوس (ابن منظور، لسان العرب ج ٨ ص ١٣٢).

(٦) انظر: كريستنسن: **ايران في عهد الساسانيين** ص ١٦٠.

تسمى كهابنارات (كهابنار الأعياد) وكل منها يستمر خمسة أيام، وفي أثنائها تقدم الأضاحي، والقرابين وفقاً للمراسيم الدينية وهي:

١ ـ همس ثيمائدية (عيد الموتى)

٢ ـ ميذيوب زرمبة (في شهر أردوهيشت)

٣ ـ ميذيوب شام (في شهر تير)

٤ ـ باميتيش ههية (في شهر شهربور)

٥ ـ أيا ثريمه (في شهر مهر)

٦ ـ ميذ باي ربه (في شهر داذد)

وأهم الأعياد عند المجوس هو عيد (النوروز)[١] (نوك روز = بالفارسية: نو روز) ومعناه (اليوم الجديد) ويكون يوم الاعتدال الربيعي[٢]. ويعتبر من أكبر الأعياد الدينية والشعبية، وهو يوم رأس السنة الجديدة[٣].

وتحدّث البيروني[٤] (ت ٤٤٠ هـ/ ١٠٤٨ م) عنه فقال: ويحتفل به رسمياً فتوقد النيران في كل مكان، وعلى المرتفعات، وتسك فيه النقود الجديدة،

---

(١) النوروز: وهو عيد ربيعي قد حفظ بعض خصائص الزجموك (Zagmoc) الذي هو عيد البابليين القدماء (كريستنسن ص ١٦٢) ويبدو أنه عيد عالمي كان الصابئة يحتفلون به أيضاً ويسمونه (نوروز ربه) (دراوور، الصابئة ص ١٤٥ ـ ١٤٦) كما احتفل به أقباط مصر ويسمونه النوروز أيضاً، (المقريزي ج ٢ ص ٣١).

(٢) المقريزي: **المواعظ والاعتبار** ج ٢ ص ٣١.

(٣) المسعودي: **التنبيه والاشراف** ص ١٨٤.

(٤) البيروني: **الآثار الباقية** ص ٢١٥ وما بعدها.

وتجبى الضرائب، وتقدم للملك الهدايا، وتجري التعيينات، والتنقلات، والعزل بين الموظفين في الدولة الساسانية، وتطهر بيوت النار[1] ويستقبل الملك فيه كبار رجال الدولة، ويقدمون الهدايا، كما يخلع الملك على وجوه مملكته (الخلع) ويفرق فيهم ما حمل إليه من الهدايا[2]. ويدوم العيد ستة أيام تجري خلالها الاحتفالات الفخمة، ويشارك الملك فيه، ويخصص آخر يوم للهو الملك، وفي الصباح الباكر يأكلون السكر، ويلعقون العسل ثلاث مرات، ويدلكون أجسامهم بالزيت ويتبخرون بثلاث قطع من الشمع ليحفظوا أنفسهم من الأمراض والآفات، ويذهبون إلى مجاري المياه والقنوات للاستحمام، ويرش بعضهم بعض بالماء ويتبادلون هدايا الحلوى[3].

وقيل أن أول من اتخذه هو جم شاد (جمشيد) أحد ملوك الفرس الأول، وسبب ذلك أن الدين قد فسد قبله، فلما ملك جدده، وأظهره في اليوم الذي ملك فيه نوروز (أي اليوم الجديد) وقيل: أن الملك جمشيد ركب عربته، وأبرز وجهه للناس فجعلوا يوم رؤيتهم له عيداً، وسموه نوروزا، ومن الفرس من يزعم أنه اليوم الذي خلق الله فيه النور، كما يزعم بعضهم أنه أول الزمان الذي ابتدأ فيه الفلك بالدوران[4]. وقد أبطل العرب المسلمون بعد تحرير العراق وفارس، الاحتفال به (لكونه من الشعائر الدينية للمجوسية) وبقي كذلك حتى العصر العباسي الأول، حيث أعيد الاحتفال به[5] وذلك لأن هذا العيد يأتي في الربيع، وليست له علاقة بالتقاليد الدينية الفارسية.

وأما المهرجان فهو عيد كبير عند الفرس أيضاً، ويوافق أول الشتاء، وهو في الأصل يسمى عيد مشرا (مبشراً) يحتفل به (يوم مهر) أي (١٦ من شهر مهر)

---

(١) الجاحظ: التاج في أخلاق الملوك ص ١٤٦.
(٢) الألوسي: بلوغ الأدب ج ١ ص ٣٥٠.
(٣) كريستنسن: إيران في عهد الساسانيين ص ١٦٣.
(٤) القلقشندي: صبح الأعشى ج ١ ص ٤٣٢ ج ٢ ص ٤٠٨؛
الألوسي: بلوغ الارب ج ١ ص ٣٤٩؛ المقريزي: الواعظ ج ٢ ص ١.
(٥) حسن ابراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ج ٢ ص ٣٦٨.

شهر تموز الفرس، ويوافق السادس والعشرين من تشرين الأول، وبينه وبين النوروز مائة وسبعة وستون يوماً، ومدته ستة أيام، ويسمى اليوم السادس منه المهرجان الأكبر، ويعتقدون أن فيه ظفر أفريدون بالضحاك وسموه (رام روز) ويعتقدون أن الملائكة نزلت لمساعدة أفريدون في ذلك اليوم[1] وقيل سمي باسم ملكهم (مهر) الذي كان يسير فيهم بالعنف، والعسف، فمات فسمي ذلك اليوم مهرجان، وتفسيره (نفس مهر ذهبت)، ويقال أيضاً: هو اليوم الذي عقد فيه التاج على رأس أردشير بن بابك أول ملوك الفرس الساسانيين[2].

ومن رسوم الأكاسرة الفرس في المهرجان لبس التاج الذي عليه صورة الشمس وما يزال ملوك إيران حتى الآن يتلقبون أربا مهر يعني (ابن الشمس) ومنه جرى الرسم بأن يقف في صحن دار الملك رجل شجاع، وقت الصبح ويقول بأعلى صوته: يا أيها الملائكة أنزلوا إلى الدنيا، وامنعوا الشياطين والأشرار من الريحان. وكانوا يشمون فيه ماء الورد يدفع عنهم آفات كثيرة[3].

ويشترك في الاحتفال بعيد المهرجان جميع طبقات الشعوب الفارسية من المجوس، وهو شبيه بعيد التوروز من حيث الاحتفالات، وتقديم الهدايا، وقد اعتاد ملوك الفرس الجلوس للعامة يوماً في المهرجان، ويوماً في النوروز، فيقول الجاحظ في (٢٥٥ هـ/ ٨٦٨ م) ولا يحجب عنه أحد في هذين اليومين من صغير ولا كبير، ولا جاهل ولا شريف، وكانت تشعل النيران والشموع في ليلة عيد المهرجان[4].

ومن الأعياد المجوسية الأخرى، التي كان يحتفل بها المجوس أيضاً عيد (السوق) والسدق: يقع في ليلة الحادي عشر من شهر أيار ويسمى هذا اليوم عند الفرس (روزابان) وسبب اتخاذهم له عيداً، أن أفرأسباب لما ملك بلاد

---

(١) المقريزي: **المواعظ** ج ٢ ص ٣١؛ حسن ابراهيم: **تاريخ الإسلام السياسي** ج ٢ ص ٧٠.

(٢) القلقشندي: ج ٢ ص ٤٠٩ ص ٤١٠؛ الألوسي: ج ١ ص ٣٥٢.

(٣) البيروني: **الآثار اليافية** ص ٢٢٢ ــ ٢٢٣.

(٤) الجاحظ: **التاج في أخلاق الملوك** ص ١٥٩.

بابك فأكثر فيها الفتنة، وخرب ما كان عامراً منها فخرج عليه زخرب بن طهماسب فطرده من مملكة فارس إلى بلاد الترك، وكان ذلك في يوم (روز أبان) فاتخذ الفرس هذا اليوم عيداً[٥] احتفالاً بالخلاص منه ومن عهده الأسود.

ومن الأعياد الأخرى عيد الربيع (دبهارجش) ويسمى عند المسلمين (عيد الكوسج) ويومه يكون مع الأيام الخمسة التي تكبس بها السنة الفارسية[٢]. ويزعم بعض من الفرس المجوس أن الله في هذا اليوم يقدّر حظوظ الناس من سعادة أو شقاء، كما كان الناس يعتقدون ذلك في أول السنة قديماً، وكانت هذه الأيام أيام لهو وطرب وإظهار السرور عند الفرس[٣] وظل الاحتفال به حتى بعد حركة التحرير العربي الإسلامي للعراق وفارس.

ويبدو أن الحكام المسلمين تساهلوا كثيراً مع أهل الذمة في إطلاق ممارستهم التعبير عن شعائرهم الدينية وأعيادهم.

□ □ □

(١) الألوسي: بلوغ الإرب ج ١ ص ٣٥٥.
(٢) متز: الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٢٨٩.
(٣) المسعودي: مروج الذهب ج ٣ ص ٤١٣؛ البيروني: ص ٢٢٥.

الباب الرابع

الحركات السياسية والدينية لأهل الذمة في العراق

الفصل الأول:

الحركات السياسية لأهل الذمة.

الفصل الثاني:

الحركات الدينية لأهل الذمة (الزندقة والشعوبية).

تمهيد

لم يكن جميع أهل الذمة يتعاطفون مع العرب المسلمين، ولذا نجدهم يعتبرون أنفسهم غرباء عن العرب المسلمين، فقد تعاطف بعض النصارى مع الامبراطورية البيزنطية، واعتبروها الحامية لهم وللمسيحية، ولم يتورعوا عن ممارسة أعمال التجسس على حساب المسلمين لصالح الروم، مما دفع بعض الخلفاء إلى فرض مضايقات خاصة بهم، ولا سيما الزي وعدم استخدامهم في وظائف الدولة المهمة.

وأما اليهود فعلى الرغم من قلة عددهم وعدم انصرافهم إلى الاهتمام بالأمور السياسية فإنهم كانوا دائمًا يحاولون تشجيع الفتن والثورات بصورة خفية لإشغال الدولة عن التفكير بهم، وليسهل لهم السيطرة على النشاط الاقتصادي.

ولم يكن للصابئة تأثير مهم لا في الحياة السياسية، ولا الاجتماعية لأن الدين الصابىء مغلق على نفسه، وعلاقتهم بالدولة حسنة ما داموا يتمتعون بالحرية الدينية والتسامح.

وأما المجوس فكانوا يشعرون بنوع من الخضوع والذل، ويطمحون في إعادة مجد الامبراطورية الفارسية المندثر والدين المجوسي، ولذا نقموا على العرب وعلى الإسلام، واعتبروهم المسؤولين عن هدم دينهم ودولتهم، فقاموا بحركات عديدة سياسية ودينية للقضاء على السلطان العربي والدين الإسلامي.

ويقول الدوري[1]: «إن جذور هذه الحركات تعود للمجتمع الساساني الذي كان يشكو من حدة التفاوت الطبقي، ومن الاستغلال، وشهد قيام حركات دينية ذات وجهة اجتماعية تناوىء أصحاب الثروات والمال عن طريق الاتجاه إلى الكفاف والزهد (كالمانوية) أو عن طريق الدعوة إلى نوع من اشتراكية المال (كالمزدكية).

وحين تم تحرير العراق وفارس دخل في الإسلام جماعة كثيرة من أهل الذمة، وكانت خطة الخلفاء الراشدين زيادة عدد المسلمين بترغيب أهل الذمة للدخول في الإسلام عن طريق منحهم الثقة، وتوليهم الوظائف، والاعتماد عليهم في بعض المهام الخطيرة[2].

ولم يدخل أغلب المجوس في الإسلام عن اقتناع بصحته وإدراك بسمو مبادئه، وإنما دخلوه لأنه دين الفاتحين، وللحصول على النفع أو لدرء الأخطار عنهم. ولقد ابتلى الإسلام والأمة العربية بتلك الطائفة التي اتخذت الإسلام غطاء تختفي تحته لتدبير المؤامرات ضد المسلمين، ولم يكن قتل الخليفة عمر بن الخطاب على يد أبي لؤلؤة المجوسي إلا نتيجة لتلك المؤامرات السياسية التي دبرها الهرمزان[3] لما كان يكنه من الحقد للعرب بعد أن قضوا على عرش الفرس، ومزقوا دولتهم[4].

---

(١) أنظر: الدوري: مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ص ٥١.

(٢) انظر: حسن أحمد محمود: الإسلام والحضارة العربية ص ٤٢.

(٣) الهرمزان: روى عبد الرحمن بن أبي بكر قال: غداة طعن عمر مررت على أبي لؤلؤة عشي أمس ومعه جفينة والهرمزان فلما نظرت إليهم قاموا وسقط منهم خنجر له رأسان نصابه في وسطه، وقبض على أبي لؤلؤة وجيء بالخنجر الذي وصفه عبد الرحمن وأمسك به عبد الله بن عمر حتى مات عمر ثم استل السيف فأتى الهرمزان فقتله وكان ذلك سنة ٢٣ هـ. (الطبري: حوادث سنة ٢٣ هـ).

(٤) انظر: فان فلوتن: السيادة العربية ص ٨٨.

أما من بقي من أهل الذمة على دينه فقد عاملهم الفاتحون منذ عهد الراشدين معاملة حسنة مبنية على التسامح الديني، واعتبروهم أهل ذمة، كما لم يتعرض الإسلام لأوضاعهم ولكنه رفع الاضطهاد الذي كان يتعرض له أصحاب الحركات الدينية فيسر لهم المجال لاستئناف نشاطهم في الوقت المناسب[1]، وبقوا منتشرين في أنحاء الامبراطورية الإسلامية، وظلوا يعملون في إدارة البلاد وخاصة الدوائر الكتابية والمالية حيث كانوا يستخدمون أساليبهم وخبراتهم السابقة، وقد اضطرهم الحجاج بن يوسف الثقفي أثناء ولايته على العراق إلى استعمال اللغة العربية في معاملاتهم في الدواوين ولكنه لم ينجح في إقصائهم عن مناصبهم، وظلوا يشغلون هذه المناصب إلى العصر العباسي الذي استخدم الفرس في مناصب الدولة الكبيرة كالوزارة[2] والقيادة والولاية والإدارة والدواوين، ومع أن أغلب هؤلاء كانوا ممن اعتنق الإسلام إلا أنهم كانوا يعطفون على أبناء جلدتهم ودينهم الفرس، ولذا فإن الخطر يكمن وراء هؤلاء الذين اعتنقوا الإسلام ظاهرياً إما رهبة منه أو رغبة في التخلص من الضرائب وفي الوصول إلى المناصب العليا في الدولة. واعتبروا سلوكهم هذا خدمة لدينهم المجوسي ولنزعتهم الفارسية، وكان لهم أثرهم السّيىء على المسلمين فيما بعد[3].

ويقول الدوري[4] عنهم: ونحن حين نفحص بعض حركات الغلاة نرى أننا أمام آراء، ودعوات بعيدة عن الإسلام، وان تظاهرت به، ولنا في بعض

(١) انظر: الدوري: مقدمة في التاريخ الاقتصادي ص ٥١.
(٢) الوزارة: كأبو سلمة الخلال والبرامكة وآل سهل وغيرهم (انظر: اليوزبكي، الوزارة، نشأتها وتطورها في الدولة العباسية).
(٣) انظر: الليثي: الزندقة والشعوبية ص ٨٧.
(٤) انظر: الدوري: مقدمة في التاريخ الاقتصادي ص ٥١.

آراء الكيسانية[1]، والهاشمية[2]، والراوندية[3] أمثلة على ذلك، كما أننا نرى بدايات لحركات أخرى، كالزندقة[4] وهي تبدو دينية، ولكنها اتخذت وجهة سياسية تناهض الكيان الإسلامي، واتجاهات اجتماعية تعمل على تفكيك المجتمع القائم، ويبدو أن هذه الدعوات والحركات لم تنشأ من مشكلات إسلامية بل انها امتداد لحركات اجتماعية وجدت قبل الإسلام، وبقيت مستترة تنتظر الفرصة المواتية، وكان لا بد لها من ستار إسلامي.

وعلى الرغم من أن الحركات المجوسية اتخذت اتجاهين متلازمين لضرب السلطان العربي والدين الإسلامي، وهو الاتجاه السياسي والديني، كما أنها سعت لتحقيق هذين الاتجاهين بأسلوب حسب طبيعة المرحلة التاريخية التي عاشتها الحركات المجوسية فاتخذت الطابع السلمي في أول الأمر، وبقيت كذلك حتى مقتل أبي مسلم الخراساني، حيث اتجهت اتجاهاً مسلحاً لضرب الدولة

---

(١) الكيسانية: هم أتباع المختار بن أبي عبيد الثقفي الذي قام بثأر الحسين بن علي وكان المختار يقال له كيسان نسبة إلى مولى لعلي بن أبي طالب كان اسمه كيسان وافترقت الكيسانية فرقاً يجمعها شيئان:

الأول: قولهم بإمامة محمد بن الحنفية (نجل علي بن أبي طالب توفي سنة ٨١ هـ) وإليه كان يدعو المختار.

والثاني: قولهم بجواز البداء على الله.

واختلفت الكيسانية في سبب إمامة محمد بن الحنفية فزعم بعضهم أنه كان إماماً بعد أبيه علي بدليل أن علياً دفع إليه الراية يوم الجمل، وقال آخرون إن الإمامة بعد علي كانت لابنه الحسن ثم للحسين ثم إلى محمد بن الحنفية وقال بعضهم ان محمد بن الحنفية حي لم يمت وأنه في جبل وضوى وعنده عين من الماء وعين من العسل، وعن يمينه أسد وعن يساره نمر يحفظانه إلى وقت خروجه وهو المهدي المنتظر. البغدادي: الفرق بين الفرق ص ٢٦ ــ ٢٧.

(٢) الهاشمية: فرقة تقول برجوع الإمامة إلى أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية (توفي ٩٨ هـ) واختلفوا في الإمامة بعد أبي هاشم فمنهم من نقلها إلى محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بوصية أبي هاشم ومنهم من زعم أن الإمامة بعد أبي هاشم صارت إلى بيمان بن سمعان (ظهر بالعراق بعد المائة الأولى وادعى حلول جزء إلهي في علي ثم في ابنه ابن الحنفية ثم في أبي هاشم بن محمد بن الحنفية ثم في نفسه. أحرقه خالد القسري سنة ١١٩ هـ (البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٢٧).

(٣)، (٤) أشرت إليهم مفصلاً في فصل الحركات الدينية لأهل الذمة.

والدين الإسلامي، وكان ذلك بظهور الحركات المجوسية المتعـددة، وكان أخطرها وأكثرها عنفاً حركة بابك الخرمي، (٢٠١ ـ ٢٢٣ هـ) التي أقلقت الدولة وكبدتها الأموال الطائلة والأرواح بالإضافة إلى أنها دمرت البلاد اقتصادياً فعطلت التجارة بتهديدها طرقها.

ولما كان يصعب على الباحث لدراسة هذه الحركات التفريق بين اتجاهاتها السياسية والدينية، أو تحديد مقاصدها بصورة دقيقة لأننا نجد حركات سياسية طابعها سياسي فقط، ولكنها تحمل في طياتها نزعات مجوسية خالصة، وأخرى حركات دينية تحمل في خفاياها نزعات سياسية.

ويبدو أن الحركات التي تزعمها شخصيات سياسية في الدولة العباسية، ومن غيـرهم ممن حملوا السلاح بـوجه الـدولة لتحقيق الغـرض السيـاسي هو الانفصال عن الدولة العباسية أو إضعافها فهي حركة سياسية كحركة أبي مسلم الخراساني، والبرامكة، وآل سهل وحركات سنباذ والمقنع والراونـدية وبابك والمازيار والأفشين[١]، حيث أن دوافعهم السياسية كانت هي البارزة في حركاتهم، وان كانت تحمل في ثناياها نزعات دينية مجوسية. وقد استخدمت الحركات الدينية كممهد ومتمم لتحقيق النصر السياسي كما في حركات الزندقة والشعوبية، التي عملت على تشويه الإسلام وبذر بذور المجوسية ومحاولتها التسلل إلى الدين الإسلامي والمجتمع العربي عندما وجدت أن العمل السياسي والعسكري لم يحققا ما كانت تصبو إليه فعمدت على العمل لهدم المجتمع بهدم الإسلام[٢] والذي هو سر بقاء السلطان العربي.

□ □ □

(١) المازيار والأفشين من وجوه عسكر المعتصم وأخبارهم في الطبري وابن الأثير في حوادث سنة ٢٢٤ هـ، ويقول البغدادي في الفرق، ص ١٦١، ان المازيار أظهر دين المحمره (الخرميه) بجرجان.

(٢) العدوي: **المجمع الإسلامي** ص ٩٨.

الفصل الأول:
الحركات السياسية لأهل الذمة

بلغت الفتوحات الإسلامية أوج عظمتها وتوسعها في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، حيث أتم فتح العراق وبلاد فارس، وبدأ السلطان العربي يقوى، ويمتد، وتبعه انتشار الإسلام بين صفوف أهل الذمة، إما رغبة فيه أو رهبة منه، أو طمعاً بالثروة والمناصب في الدولة الجديدة، وكان من أكثر الناقمين من أهل الذمة على العرب المسلمين هم الفرس والمجوس، وذلك لزوال سلطانهم السياسي، وبدأت بوادر النقمة السياسية بمقتل الخليفة عمر بن الخطاب، وقد عبر عنها فان فلوتن[1]: بأنها المؤامرة التي دبرها الهرمزان لما كان يكنه من الحقد على العرب بعد أن قضوا على عرش الفرس ومزقوا دولتهم، كما أن ظهور عبد الله بن[2] سبأ كان حلقة جديدة لتلك السلسلة من الحركات السياسية التي ظهرت فيما بعد، فقد عمل ابن سبأ على إثارة الفتن لتصديع وحدة المسلمين وتزعم فرقة من الغلاة سميت باسمه (السبئية) وتزعم فرقته أن علياً هو الإله وأنه يحيي الموتى، وادعوا في غيبته بعد موته وقالوا هو القائم الذي يخرج وأنه حي لم يمت ولا يموت حتى يسوق بعصاه العرب ويملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً[3]... وطاف ابن سبأ الحجاز والبصرة والكوفة والشام ومصر، وقد صبغ

---

(١) انظر: فان فلوتن: السيادة العربية ص ٨٨.

(٢) ابن سبأ ويلقب بابن السوداء وكان يهودياً من صنعاء أظهر الإسلام في عهد عثمان (أحمد أمين: فجر الإسلام ص ١٣٦) ووالي علياً وأنه كان يقول في اليهودية في يوشع بن نون بعد موت موسى مثل ما قال في علي بعد الرسول (الرازي، كتاب الزينة (مخطوط) ورقة ٣٩ و.ظ).

(٣) الرازي: كتاب الزينة في الكلمات الإسلامية العربي (مخطوط) ورقة ٣٩و.

آراءه المجوسية بصبغة إسلامية، فلما قتل علي بن أبي طالب زعم ابن سبأ «أن المقتول لم يكن علياً، وإنما كان شيطاناً تصور للناس في صورة علي، وان علياً صعد إلى السماء كما صعد عيسى بن مريم»[1].

ويقول أحمد أمين[2]: «فمن المحتمل أن يكون قد تلقى هذه الآراء من مزدكية العراق أو اليمن».

وقد ظهرت حركات يهودية دعا إليها بعض الدجالين اليهود (فقد أعلن شيريم) وهو يهودي سوري أنه هو المنقذ المنتظر لليهود، وسيسير باليهود ويحملهم على انتزاع فلسطين من المسلمين، فتبعه بعض يهود العراق وفارس والأندلس ليشتركوا في هذه المغامرة، ولكن القائم بها قبض عليه، وعرض على الخليفة الأموي يزيد الثاني، فظهر له أنه دجال فأمر به فقتل، وبعد بضع سنين من ذلك تزعم (عوبديا) بن عيسى بن إسحاق الأصفهاني حركة الخروج عن طاعة الدولة وتبعه عشرة آلاف يهودي حملوا السلاح، ولكنهم هزموا وقتل ابن عيسى في المعركة، وعوقب جميع يهود أصفهان بلا تمييز بينهم لانضمامهم إليه[3].

ولما آل الحكم إلى الأمويين ظهرت المجوسية بثوب فكري واجتماعي كان غرضها الكيد للإسلام لأنه هو الذي قضى على الديانة المجوسية وظهرت هذه النزعة بصورة واضحة في الصراع بين العرب والموالي فوقف الأمويون من المجوسية، والعصبية الفارسية الموقف الحاسم، وحافظوا على العنصر العربي بتقريبه والاعتماد عليه، وتقويته، وعلى الدين الإسلامي بتوسيع الفتوحات في الجهات الشرقية خاصة، ولكن الحركة المجوسية ظلت كامنة كالنار تحت الرماد تنتظر العواصف القوية لتظهر من جديد فكانت الدعوة العباسية خير متنفس لها

---

(١) البغدادي: الفرق بين الفرق ص١٤٣.
(٢) انظر: أحمد أمين: فجر الإسلام ص١٣٦.
(٣) انظر: ديورانت: قصة الحضارة ج ١٤ ص٧٧ ــ ٧٨.

لتحقيق أحلامها الدينية والسياسية[1]، في وقت كانت الجذور المجوسية عند من أسلم من المجوس ما تزال قوية في نفوسهم، وهم لا يزالون يحنون إلى إعادة مجد امبراطوريتهم الذي تحطم تحت أقدام العرب المسلمين، وما حركات الموالي ومساندتهم للثورات العلوية إلا مظهراً من مظاهر ضرب السلطان العربي والدين الإسلامي. فقد ساندوا أول الأمر أية حركة يمكن الاعتماد عليها في تحقيق أهدافهم، فقد انضموا إلى جانب الخوارج منذ عهد علي بن أبي طالب بدليل أن في صفوفهم في موقعة النهروان عدداً كبيراً منهم[2] ثم أخذوا يدعمون الثورات التي قامت في وجه الأمويين عندما بعثوا إلى عبد الله بن الزبير يطلبون الدخول في دعوته؟[3] معتقدين أن دخولهم معه سيعطيهم بعض الحقوق والمكاسب التي لم يحصلوا عليها في ظل الحكم الأموي، ولم يقدر ابن الزبير قيمة هذه القوة التي ظهرت على مسرح الأحداث[4]، ويحتمل أنه قدر قيمة هذه القوة ولكنه كان يعلم بأهدافها السياسية والدينية، ولما ظهر المختار بن عبيدة الثقفي، وكانت دعوته شيعية احتضنها الفرس، وهي تعتبر بداية التحالف بين الفرس والشيعة، وقد اشترك في ثورته نحواً من ثلاثين ألفاً من الفرس[5]، وساند الفرس الثائر الفارسي العراقي عبد الله بن جارود، ثم انضموا إلى ثورة عبد الرحمن بن الأشعث الذي لقب نفسه بـ(ناصر المؤمنين)[6] ودعم الفرس ثورة يزيد بن المهلب الذي ثار على الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك[7] وانضووا تحت لواء ثورة زيد بن علي[8] وثورة الحارث بن سريج[9]. ولما خرج وكيع بن

---

(١) انظر: الليثي: **الزندقة والشعوبية** ص ٣٠.

(٢) ابن الأثير: **الكامل** ج ٣ ص ١٥٩.

(٣) المصدر السابق ج ٣ ص ٣٣٨.

(٤) انظر: حسن أحمد محمود: **الإسلام والحضارة العربية** ص ٤٤.

(٥) الطبري: ج ٧ ص ١٥٩؛ الدنيوري: **الأخبار الطوال** ص ٢٩٩.

(٦) المسعودي: **التنبيه والإشراف** ص ٢٧٢؛ اليعقوبي: ج ٣ ص ٢٤.

(٧) المسعودي: **مروج الذهب** ج ٣ ص ١٣٤.

(٨) المصدر السابق ج ٣ ص ١٤٠.

(٩) الطبري: **تاريخ** ج ٩ ص ٦٧؛ والحارث بن سريج ثار في خراسان سنة ١١٦ هـ في ولاية نصر بن سيار وادعى الحارث إلى الرجوع إلى الكتاب والسنة والبيعة للرضا فغلب على بلخ=

أبي أسود[1]، ٩٠ هـ بخراسان على قتيبة بن مسلم الباهلي مالت الأعاجم إلى عسكره فأهاجوا الناس وكان نتيجتها أن قتل القائد العربي وأخوه وأولاده وأهله[2]، وانتظموا أخيراً في صفوف الدعوة العباسية وأصبحوا عمادها ونجحوا في إسقاط الدولة العربية الأموية.

وقد استغلت الدعوة العباسية سوء أوضاع أهل الذمة والموالي في إنجاح دعوتهم، حيث نادوا بالمساواة بين الشعوب واتهموا بني أمية بالضلال والفسق ورفعوا شعار الدعوة إلى الحق والعدل[3] فظهرت الدعوة العباسية في خراسان، التي كانت مركزاً للعناصر الفارسية المتطرفة في عدائها للعرب عامة ولبني أمية خاصة لأنهم حرموهم من السيطرة على المناصب الخطيرة في الأمبراطورية العربية[4].

أما الفرس فقد سعوا إلى إيجاد نوع من التكتل الفارسي ضد العرب، ولذلك أثاروا النزعات العنصرية تحت ستار إسلامي فنادوا بمبدأ المساواة السياسية والقومية، واستطاعوا تثبيتها في نفوس الجماهير الفارسية التي دخلت الإسلام أو التي بقيت على دينها المجوسي.

وفي أقوال نصر بن سيار خير ما يؤيد رأينا:

أبلغ ربيعة في مرو واخوتهم فليغضبوا قبل ألا ينفع الغضب
ولينصبوا الحرب أن القوم، قد نصبوا حرباً يحرث في حافاتها الخطب

= والجوزجان والغارياب والطالقان ومرو وفي سنة ١٢٩ هـ قتل الحارث بن سريج قتله جديح بن علي الكرماني (الطبري حوادث سنة ١١٦ هـ ـ ١٢٩ هـ).

(١) وكيع بن أبي أسود: خرج على قتيبة بن مسلم الباهلي ببني تميم سنة ٩٠ هـ.
(٢) الطبري: حوادث سنة ٩٠ ـ ٩٦ هـ، مؤلف مجهول، العيون والحدائق ج ٣ ص ١٩.
(٣) أنظر: حسن أحمد محمود: الإسلام والحضارة العربية ص ٤٦.
(٤) انظر: اليوزبكي: الوزارة، نشأتها وتطورها في الدولة العباسية ص ٢٦.

إلى أن يقول:

قوم يدينون ديناً ما سمعت به عن الرسول ولم تنزل به الكتب
فمن يكن سائلاً عن أصل دينهم فإن دينهم أن تقتل العرب[1]

واعترف العباسيون بفضل الفرس عليهم ولم يجدوا بداً من إشراكهم في السلطة لتحقيق المساواة بين العرب والفرس. وكان تعيين الوزير من الفرس إلى جانب الخليفة وهو عربي رمز هذه المشاركة (المساواة) الفعلية[2].

وقد تكتل الفرس ـ مسلمهم ومجوسيهم ـ حول زعامة أبي مسلم الخراساني ويتضح ذلك من قوله لأبي جعفر المنصور، وقد جزع جزعاً شديداً على وفاة أخيه أبي العباس فقال للمنصور: «ما هذا الجزع وقد أتتك الخلافة». فقال: أتخوف من شر عبد الله بن علي وشيعته فقال: لا تخفه فأنا أكفيك أمره إن شاء الله، إنما عامة جنده، ومن معه أهل خراسان، وهم لا يعصونني، فسر أبو جعفر[3]، ولما قتل المنصور أبا مسلم الخراساني قال له عيسى بن علي فكيف تصنع بجنوده، وهؤلاء قد جعلوه رباً؟[4].

وقد بدأت أولى الحركات السياسية في العصر العباسي بعد مقتل أبي مسلم الخراساني، إذ تكتلت العناصر الفارسية، وأظهرت مدى إخلاصها له، وقامت بسلسلة حركات سياسية أولها حركة الراوندية[5] التي خرجت تدعو بطلب الثأر وخلعوا طاعة المنصور[6] كرد فعل لخيبة آمالهم في الاستبداد بالسلطة، فعمدوا إلى الثورة على الخليفة العباسي، وقد أشار اليعقوبي (٢٨٤ هـ/ ٨٩٧ م) إلى هذا

(١) الدنيوري: **الأخبار الطوال** ص ٣٦٨.
(٢) أنظر: الدوري: **الجذور التاريخية للشعوبية** ص ٣٨؛ حتي: **تاريخ العرب** ص ٣٦٥.
(٣) الطبري: **تاريخ** ج ٩ ص ١٥٥.
(٤) الدنيوري: **الأخبار الطوال** ص ٣٧٨.
(٥) الراوندية نسبة إلى عبد الله الراوندي: زعموا أن أبا مسلم نبي والمنصوب هو الإله (الرازي، كتاب الزينة (مخطوط) ورقة ٣٦ و. ظ.
(٦) الدنيوري: **الأخبار الطوال** ص ٣٨٠.

بقوله: خرج قوم من أصحاب أبي مسلم إلى خراسان فصاروا إلى سنباذ، وسنباذ بنيسابور، فلما بلغه قتل أبي مسلم أظهر المعصية وخرج يطلب بـدمه حتى اضطربت خراسان فوجه أبوجعفر المنصور جهور بن مرار، فلقي سنباذ فواقعه فقتله وفرق جمعه(١)، وذكر الطبري: ان سنباذ كان مجوسياً، وأنه كان قد خرج غضباً لمقتل أبي مسلم فيما قيل، وطلب بثأره، وكان ذلك سنة ١٣٧ هـ(٢)، ويوضح المسعودي (٣٤٦/ ٩٥٧م) العلاقة بين مقتل أبي مسلم، وحركة سنباذ فيقول: «لما نعي قتل أبي مسلم إلى خراسان، وغيرها من الجبال اضطربت الخرمية(٣) والتي تدعى المسلمية الذين يقولون بإمامة أبي مسلم...» فاجتمعت في عسكر عظيم من بلاد خراسان إلى الري... وقبض على ما كان بالري من خزائن أبي مسلم فكبر جمعه بمن حوله(٤).

وقد ظهرت حركات عديدة ظاهرها إسلامي، وباطنها مجوسي شعوبي ترمي إلى تقويض السلطان العربي والدين الإسلامي، لعودة المجد الفارسي والدين المجوسي، ومن هذه الحركات الراوندية والمقنعية وحركة بابك الخرمي، وحركتا الافشين والمازيار وكلها تحمل صفة الزندقة(٥).

ويبدو أن من العوامل التي أدت إلى قيام الحركات المجوسية في العصر العباسي الأول هو عدم اهتمام العباسيين بنشر الإسلام، وترسيخ قواعده، وتشجيع الفرس على الدخول فيه، وذلك منذ أواخر العصر الأموي، حيث فرض الأمويون الجزية على من أسلم من أهل الذمة مما أدى إلى الإبقاء على ديانتهم وخاصة المجوس، فأصبحت هذه البلاد مصدراً من مصادر الحركات

---

(١) اليعقوبي: ج٣ ص١٠٤، مؤلف مجهول: **العيون والحدائق** ج٣ ص٢٢٤.

(٢) الطبري: **تاريخ** ج٩ ص١٦٩.

(٣) الخرمية دانوا بترك الفرائض وزعموا أن أبا مسلم حي لم يمت ينتسبون إلى رئيس يقال له رزام (الرازي) كتاب الزينة مخطوط ورقة ٣٦و.

(٤) المسعودي: **مروج الذهب** ج٢ ص٢٢٠ (Browun, History of Persia Literature, p. 313).

(٥) انظر: اليوزبكي: **الوزارة** ص٣١.

المجوسية، وحصناً لكل عاصي وقلعة لكل متمرد على النظام الإسلامي، كما أن إهمالهم بحجة بعدهم عن مركز الامبراطورية لوقوعها في الأطراف الشرقية وعدم محاولة إصلاحها، وربطها بالعاصمة سياسياً وفكرياً واجتماعياً، واعتبارها مصدراً من مصادر الثروة للدولة، ولذا فقد أبقوهم على ديانتهم لفرض جباية الجزية والخراج منهم، ولم يراعوا الناحية الدينية أهمية، ولذا نجد أن الحركات الدينية المجوسية والسياسية تنشأ وتقوى دون علم العاصمة بها، مما يكلف الدولة في سبيل القضاء عليها الجهود الكبيرة والأرواح البريئة والأموال الطائلة فضلاً عما يصحب ذلك من تدمير البلاد وإقلاق الأمن.

وقد نهجت الأسر الفارسية الحاكمة في الدولة منهج أبي مسلم الخراساني في سياسته الرامية إلى تكتيل العناصر الفارسية حولها ولكنها اتخذت الأساليب السياسية السلمية تجاه الحكم، فالرشيد منح البرامكة امتيازات خطيرة، ورفع مراتبهم فوق مراتب أمراء بني العباس مما جعل الناس يطلقون على يحيى البرمكي إسم «السلطان»[1]، وتحدث الأصفهاني (ت ٣٥٦ هـ/ ٩٦٦ م) عن نفوذهم في الدولة فقال: «إن في دولة الرشيد دولة أخرى ملوكها البرامكة»[2] وذلك لاعتمادهم على العناصر الفارسية في الإدارة والولاية والجيش.

وأخذ الفرس يساندون الحركات السياسية المناوئة للعباسيين فقد عزم أبومسلم الخراساني على إعلان العصيان في خراسان والانفصال عن الدولة العباسية بمساعدة الفرس، ويؤيد هذا عندما عزم المنصور على تعيين أبي مسلم والياً على الشام بدلاً من خراسان فكان جواب أبي مسلم: يولني الشام وخراسان لي.

وقد عمل البرامكة على مساندة الحركات العلوية بسرية تامة ضد الخلافة العباسية ويؤيد ذلك الطبري (ت ٣١٠ هـ/ ٩٢٢ م) بقوله: «من قال ان الرشيد قتل جعفر بن يحيى بغير سبب يحيى بن عبد الله العلوي فلا تصدقه[3]،

---

(١) الأصفهاني: الأغاني ج ٤ ص ٣٩.
(٢) نفس المصدر السابق.
(٣) الطبري: تاريخ ج ١٠ ص ٨٠.

وقد كان يحيى بن عبد الله العلوي خرج على الرشيد ثم طلب جعفر له الأمان فأجابه ثم سجنه الرشيد، وأطلقه جعفر سراً، ثم اعترف للرشيد بإطلاقه»[١].

ويقول الجهشياري (ت ٣٣١ هـ/ ٩٤٢ م): ان الرشيد اتهم يحيى البرمكي بميله إلى يحيى العلوي، وأنه أمده بمأتي ألف دينار إبان ثورته في بلاد الديلم[٢]، وفعل يحيى البرمكي مثل ذلك مع أحمد بن عيسى بن زيد العلوي، فأرسل له سبعين ألف دينار في البصرة ليقوم بنفس الدور الذي قام به يحيى العلوي[٣]، ويقول (ت ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٢ م) ابن الأثير: ان موسى بن يحيى البرمكي كان متهمًا بتحريض أهل خراسان على نبذ الطاعة[٤] وقد عبر الرشيد عن مخاوفه من البرامكة بقوله: «إني خائف ان تمكن هؤلاء من خراسان أن يخرج الأمر من يدي»[٥]

ويؤيد ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ/ ١٣٧٢ م) هذا الرأي بقوله: نكبهم (البرامكة) لأنهم أرادوا إبطال الخلافة[٦]، وكانت للبرامكة نوايا مجوسية بالإضافة إلى النوايا السياسية، فيقول الدميري (ت ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٥ م) «إن البرامكة أرادت إظهار الزندقة، وفساد الملك فأوقع بهم الرشيد فقتلهم»[٧].

ويقول ابن النديم (ت ٣٨٥ هـ/ ٩٩٥ م) ان البرامكة بأسرها إلا محمد بن خالد بن برمك كانت زنادقة، وقيل في الفضل وأخيه[٨].

ويذكر البغدادي (ت ٤٢٩ هـ/ ١٠٣٧ م) ان البرامكة قد زينوا للرشيد

---

(١) المصدر السابق ج ١٠ ص ٨٠ ــ ٨١.
(٢) الجهشياري: ص ٢٤٣ مؤلف مجهول: العيون والحدائق ص ٣٠٧.
(٣) الجهشياري: ص ٢٤٣.
(٤) ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ٧١.
(٥) انظر: طنطاوي جوهري: برأة العباسة ص ٦٧.
(٦) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٠ ص ١٨٩.
(٧) الدميري: حياة الحيوان الكبرى ج ٢ ص ١٣٢.
(٨) ابن النديم: الفهرست ص ٤٨٧.

أن يتخذ في جوف الكعبة مجمرة[1]، يتبخر عليها العود، فعلم الرشيد أنهم أرادوا من ذلك عبادة النار في الكعبة، وأن تصير الكعبة بيت نار، فكان ذلك أحد أسباب قبض الرشيد على البرامكة[2].

وقال الذهبي (ت ٧٤٨ هـ/ ١٣٤٧ م) كان جعفر البرمكي يتهم بالمجوسية[3] ويقول المستشرق براون (Browun): «ان حادثة إيوان كسرى، ومحاولة يحيى البرمكي تأجيل النوروز لمدة شهرين ليدلان على أن البرامكة كانوا لا يزالون يضمرون المجوسية»[4]. وقد صور بعض الشعراء ميول البرامكة الشعوبية واعتناقهم المجوسية في هذين البيتين[5]:

إذا ذكر الشرك في مجلس ... أضاءت وجوه بني برمك
ولو تليت عليهم آية ... أتوا بالأحاديث عن مزدك

ويبدو أن البرامكة كانوا يعدون العدة للانقضاض على الحكم في خلافة الرشيد، فقد أعدوا الجيوش الكبيرة من الفرس في خراسان سموها (العباسية) وكان قوادها من الفرس، وتجري عليهم الأرزاق من بيت مال المسلمين، وولائهم كلياً لآل برمك[6] ولم يكن الرشيد يعلم بتشكيلاتهم العسكرية، ولما عاد الفضل من خراسان كان معه فرقة قوامها عشرون ألف جندي من الأعاجم وليس فيهم عربي واحد[7].

وقد سار على نهج سياسة البرامكة الشعوبية الفضل بن سهل وزير المأمون

---

(١) المجمرة: وهي كالموقد عندنا يوضع فيه البخور.

(٢) البغدادي: **الفرق بين الفرق** ص٢٧٠؛ الجهشياري: ص ٢٥٤.

(٣) الذهبي: **العبر في خبر من غبر** ج ١ ص ٢٤٦.

(٤) (Browun History of Persia Literature, p. 259).

(٥) الجاحظ: **البيان والتبيين** ج ٣ ص ٢٠٩؛ الجهشياري: ص ٢٠٦؛ ابن قتيبة: **عيون الأخبار** ج ١ ص ٥١.

(٦) انظر: اليوزبكي: **الوزارة، نشأتها وتطورها في الدولة العباسية** ص١٠٣.

(٧) انظر: الجومرد: **هارون الرشيد** ج ٢ ص ٤٧٣.

في لف العناصر الفارسية حوله، وإبعاد العرب عن المناصب الخطيرة في الدولة، كالقيادة والولاية تمهيداً لتحويلها فارسية مجوسيـة، فكان الفضـل بن سهل ـ كغيره من الفرس ـ ينتصر للعنصر الفارسي، ويعتقد أن العلويين أحق بحمل التاج لأنهم يجمعون بين أشرف دم عربي وهو دم النبوة، وأشرف دم فارسي وهو دم الأكاسرة وعمل على أن تكون السيادة للعنصر الفارسي، فحاول التخلص من القواد العرب الذين ناصروا المأمون في محنته مع أخيه الأمين[1]، والتف الفرس حول المأمون بإيحاء من سياسة الفضل حتى قال له مرة: «فكيف بك وأنت نازل بين أخوالك وبيعتك في أعناقهم واجبة»[2] وقد وصف نعيم بن خازم سياسة الفضل المجوسية حينما استشاره المأمون في أمر البيعة لعلي الرضا قائلاً: «إنك إنما تريد أن تزيل الملك عن بني العباس إلى بني علي ثم تحتال عليهم فيصير الملك كسروياً، ولو أنك أردت ذلك لما عدلت عن لبسة علي وولده، وهي البياض إلى الخضرة، وهي لباس كسرى والمجوس»[3].

لقد أدرك المأمون حقيقة الأمر، وخطورة السياسة الفارسية التي انتهجها وزيره الفضل بن سهل فقرر مغادرة خراسان والعودة إلى بغداد[4]، وان هذا الاتجاه لم يكن مجرد تبديل العاصمة، بل كان انقلاباً سياسياً على السياسة التي تمثلها العاصمة الأولى (مرو) ومعنى ذلك لزوم التخلص من الفضل بن سهل ومن ولي العهد أيضاً[5].

ويبدو أن الفرس شعروا بخيبة الأمل بعد مقتل أبو مسلم الخراساني، حيث كان مطمح الجماهير الفارسية، والأمل الوحيد لهم في استعادة مجدهم المندثر وقد صور أحمد أمين[6] آمالهم بقوله (ومطمح نفوسهم أن تكون الحكومة

---

(١) انظر: حسن ابراهيم حسن: **تاريخ الإسلام السياسي** ج ٢ ص ١١٢.
(٢) الجهشياري: ص ٢٧٨.
(٣) الجهشياري: ص ٣١٣.
(٤) انظر: اليوزبكي: **الوزارة** ص ١١٩.
(٥) انظر: الدوري: **العصر العباسي الأول** ص ٢١٤.
(٦) انظر: أحمد أمين: **ضحى الإسلام** ج ١ ص ١٤٥.

فارسية في مظهرها وحقيقتها، في سلطتها، ولغتها ودينها)، ورأوا أن ذلك لا يتحقق ــ بعد أن نفذ صبرهم ــ والإسلام في سلطانه، فأخذوا يعملون لنشر عقائدهم المانوية والزرادشتية والمزدكية ظاهراً إن أمكن وخفية إن لم يمكن، فكان ذلك نشوء الزندقة.

فقاموا بالثورات في جهات مختلفة من فارس كان حملة لوائها بالدرجة الأولى من الخرمية وأنصارهم الغلاة[1]، ويبدو أن تنكر العباسيين للخرمية وللغلاة لأن عقائدهم وآراءهم تتناقض والإسلام كلياً وتحتم على المسلمين مقاومتهم كلما أعلنوها، كما أن الخرمية تبنت آمال الفئات الفقيرة من الفرس ضد العباسيين وحلفائهم من أشراف الفرس فقاموا بسلسلة ثورات منها ثورة المقنع من (١٥٩ ــ ١٦٣ هـ)، وكان أقواها وأخطرها ثورة بابك الخرمي (٢٠١ ــ ٢٢٢ هـ)[2]، ولم يكن جل المشتركين في هذه الثورات من المسلمين إلا بالاسم،وحينما سنحت الفرصة لهم لم يترددوا في كشف هوياتهم وكانت لهؤلاء برامج اشتراكية وإباحية متلونة بثوب ايراني عنصري، وبروح دينية ثنوية مجوسية، وقد ارتبطت جل هذه الثورات بأبي مسلم أو بآثار دعوته مما يحملنا على الاعتقاد أنهم فهموا أن إسهامهم في الدعوة العباسية سبيلاً لتحقيق أهداف الفرس فلما رأوا أن شيئاً من ذلك لم يتحقق قاموا بثوراتهم الواسعة[3].

وأولى هذه الحركات السياسية في العصر العباسي الحركة المسلمية التي ابتدأت بمحاولة أبي مسلم الخراساني الانفصال في خراسان عن الدولة العباسية، ولما قتل نقمت المجوسية وأنصاره على المنصور لقتله، وهم يعتقدون بإمامته، ويقولون انه حي يرزق[4].

---

(١) الغلاة هم في كل شريعة من اليهود والنصارى والمجوس والمسلمين وهم أصناف كثيرة وأكثر الغلاة من أهل الذمة هم النصارى وأكثرهم في الأمة الإسلامية وأول من أظهر الغلو في هذه الأمة عبد الله بن سبأ الذي قال في علي بالغيبة والألوهية (الرازي، كتاب الزينة في الكلمات الإسلامية العربية، (مخطوط) ورقة ٣٩و.

(٢) انظر: الدوري: **مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي** ص٦٢.

(٣) انظر: الدوري: **مقدمة في التاريخ الاقتصادي** ص٦٣.

(٤) ابن النديم: **الفهرست** ص ٣٤٤؛ محمد عبد الغني: **صراع العرب خلال العصور** ص٢٧.

وبعد فشل هذه الحركة ظهرت حركات أخرى مكملة لها في طياتها الأهداف والغايات في عودة مجد الفرس والدين المجوسي منها حركة بهافريد، وقد ظهر في أيام ولاية أبي مسلم على خراسان، وكانت عقائده مزيجاً من المجوسية والبوذية، وقد سبق له أن أقام بالصين سبع سنين، وقد تأثر بعقائد البوذية المنتشرة في الصين، وحين عاد إلى خراسان حمل معه هذه الأفكار، وقد زعم بهافريد أنه قدم من السماء، حيث شاهد الجنة والنار، وأن الله منحه هذا القميص من الحرير، وبعث به من السماء ليهدي الناس إلى الصواب، فاستجاب له خلق كثير[1] وخالف بهافريد الزرادشتية في أكثر الشرائع، وصدق زرادشت، وزعم أن الوحي ينزل عليه ويأتيه بكتاب مقدس قدمه لهم بالفارسية، وفرض على أتباعه سبع صلوات في اليوم يقفون فيها على رجل واحدة، وهم مستقبلين الشمس، وأمرهم بعدم ذبح البهائم وبإرسال شعورهم، وترك الزمزمة عند الطعام، وشرب الخمور، وأكل الميتة، ونكاح الأمهات والبنات والأخوات[2].

ومن تعاليمه الحلول: أي أن روح الله تحل في شخص ثم تنتقل إلى آخر وهكذا، بحيث تمنح صاحبها الخلود، كما قال بهافريد بفكرة الرجعة أي أن الانسان الذي سبق أن حل فيه روح الإله يرجع بعد موته إلى الدنيا وتبلغ رسالته[3]، وفرض على أتباعه الزكاة عن سبع أموالهم وكسب أعمالهم[4].

ولما كانت عقائد وتعاليم بهافريد تخالف تعاليم الزرادشتية فقد قاومه أصحاب الديانة الزرادشتية، فقيل: لما جاء أبو مسلم إلى نيسابور اجتمع إليه الموابذة والهرابذة، وأعلموه أنه (بهافريد) قد أفسد دين الإسلام ودينهم، فأنفذ إليه عبد الله بن شعبة فقتله ومن ظفر به من أتباعه، ويزعم أتباعه أن خادمه

---

(١) ابن النديم: **الفهرست** ص ٣٤٤؛ البيروني: **الآثار الباقية** ص ٢١٠.

(٢) البيروني: **الآثار** ص ٢١٠؛ الليثي: **الزندقة والشعوبية** ص ١١٢.

(٣) انظر: (Browun History of Persia Literature p. 309-310).

(٤) البيروني: **الآثار الباقية** ص ٢١١.

أخبرهم أنه صعد إلى السماء على برذون وأنه سينزل إليهم كما صعد وينتقم من أعدائه[1] ويملأ الأرض عدلاً وحقاً ويدين به الناس ويعم في عصره السلام.

وقام سنباذ[2] المجوسي مطالباً بثأر أبي مسلم، ولم تكن دعوته سوى القضاء على السلطان العربي وإعادة الدين المجوسي إلى سابق عهده متأثراً بما جاء به بهافريد من أباطيل، وادعاءات كاذبة، فكثر أتباعه وكان عامتهم من أهل الجبال، ولم تعش ثورته سوى سبعين يوماً[3] وكان ذلك سنة ١٣٧ هـ.

دعا سنباذ إلى تعاليم بهافريد في الحلول الرجعة، وزعم أن أبا مسلم لم يمت، وأن جبريل نزل عليه، ولما هدده المنصور دعا اسم الله الأعظم، وتحول إلى حمامة بيضاء وطار[4]، ويؤيد المستشرق براون علاقة سنباذ بأبي مسلم فيقول: ان سنباذ هذا كان مجوسياً ينتمي إلى طائفة المسلمية التي تسوق الإمامة إلى أبي مسلم ومثلها الخرمية وأتباع اسحق الترك[5].

وقد تزعم سنباذ الخرمية والغلاة من الشيعة، وأتباع مزدك، وكان يبشر أصحابه بنهاية السلطان العربي، وأعلن أنه سيذهب لهدم الكعبة، وسائر الأماكن المقدسة عند المسلمين، فأرسل إليهم المنصور جيشاً بقيادة جهور بن مرار العجلي فقتله وفرق جمعه[6].

وظهرت حركة مجوسية أخرى في بلاد ما وراء النهر بزعامة اسحق، والتف حوله عدد كبير من الأتراك مما لقب (باسحق الترك) ودعا إلى تطبيق عقائد المجوسية القديمة، فنادى بمبادىء زرادشت، وزعم أنه نبي أنفذه زرادشت، وأن

---

(١) المصدر السابق ص ٢١١.

(٢) كان سنباذ مجوسياً من قرى نيسابور يقال لها (أهن) الطبري ج ٦ ص ١٤.

(٣) الطبري: **تاريخ** ص ١٤٠ ــ ١٤١.

(٤) أنظر: الليثي: **الزندقة والشعوبية** ص ١١٣.

(٥) انظر: (Browun History of Persia Literature, p. 317).

(٦) الطبري: **تاريخ** ج ٦ ص ١٤١؛ المسعودي: **مروج الذهب** ج ٣ ص ١٠٦؛ الدوري: **العصر العباسي الأول** ص ٨٦.

زرادشت حي لم يمت، وأنه يخرج حتى يقيم لهم هذا الدين[1]، كما زعم أن أبا مسلم محبوس في جبال الري، وأنه يخرج في وقت يعرفونه[2] ليقود أتباعه وليحقق آمال مواطنيه[3].

ويبدو أن فرقة من الشيعة الغلاة تأثروا بهذا المبدأ وهي فرقة الكيسانية، لا سيما بفكرة ظهور المهدي المنتظر الذي سيعود ويملأ الأرض عدلاً بعدما ملئت ظلمًا وجوراً[4] وظهرت في خلافة المهدي حلقة أخرى من سلسلة الحلقات المجوسية والشعوبية هي حركة المقنع[5] (١٥٩ ـ ١٦٣ هـ)، وقد خرج طالباً أيضاً الثأر لمقتل أبي مسلم.

ويقول البغدادي[6] (ت ٤٢٩ هـ/ ١٠٣٧ م) عنه: أنه كان يعتنق في بداية الأمر مذهب (الرزامية) وهم فرع من فروع حزب الشيعة الكيسانية الذين ساقوا الإمامة إلى محمد بن الحنفية. وتحدث الشهرستاني[7] (ت ٥٤٨ هـ/ ١١٥٣ م) عن أبعاد هذه الحركة فقال: وهؤلاء ظهروا بخراسان في أيام أبي مسلم حتى قيل إن أبا مسلم كان على هذا المذهب لأنهم ساقوا الإمامة إلى أبي مسلم،

---

(١) ابن النديم: **الفهرست** ص ٣٤٥؛ فان فلوتن: **السيادة العربية** ص ١٣١.

(٢) ابن النديم: **الفهرست** ص ٣٤٤.

(٣) انظر: (Browun History of Persia, p. 314-318).

(٤) أنظر: الليثي: **الزندقة والشعوبية** ص ١١٤.

(٥) المقنع: اسمه مختلف فيه فمنهم من يسميه عطاء بن حكيم (الجاحظ: **البيان والتبيين** ج ٣ ص ١٠٣) ومنهم من يسميه هشام أو (هاشم) بن حكيم (البغدادي: **الفرق بين الفرق** ص ٥٧) أو يسمونه (حكيم) (الطبري: ج ٨ ص ١٣٠ طبع دار المعارف) ولد في قرية بالقرب من مرو تدعى (كاوه كيمروان) درس كتب الأقدمين الفرس ثم انضم إلى جيش أبي مسلم، وأصبح كاتباً لعبد الجبار وإلى المنصور على خراسان، وأيد الرزامية فسجن ببغداد، ولما خرج عاد إلى مرو وأخذ يبث دعوته فيها وفي نخشب وكش وبخارى، وسمي بالمقنع لأنه أعور فأراد إخفاء قبح وجهه فصنع له قناعاً من ذهب، وقيل انه كان يضع على وجهه برقعاً من حرير (البغدادي: الفرق بين الفرق ص ٥٧).

(٦) البغدادي: **الفرق بين الفرق** ص ٥٧.

(٧) الشهرستاني: **الملل والنحل** ج ١ ص ١٣٧.

فقالوا: له حظ في الإمامة، وادعوا حلول روح الإله فيه، وبعد مقتل أبي مسلم زعم المقنع أنه حي، وأن المجوس تنتظر عودته لأنه أحد خلفاء زرادشت، فتحدث المسعودي [1] (ت ٣٤٦ هـ/ ٩٥٧ م) عن ظهور التعاليم المجوسية، وخاصة المبادىء الخرمية على أثر مقتل أبي مسلم فقال: ولما نعى قتل أبي مسلم إلى خراسان وغيرها من الجبال اضطربت الخرمية، وهي الطائفة التي تدعى بالمسلمية القائلون بأبي مسلم وإمامته، وقد تنازعوا في ذلك بعد مقتله، فمنهم من رأى أنه لم يمت ولن يموت حتى يظهر فيملأ الأرض عدلاً، وفرقة قطعت بموته، وقالت بإمامة ابنته فاطمة، وهؤلاء يدعون الفاطمية، ومنهم بابك الخرمي الذي خرج على المأمون والمعتصم باليدين من أرض الران واذربيجان، وأكثر الخرمية ببلاد خراسان والري وأصبهان وأذربيجان وكرمان، والسيروان. . . ويعرف هؤلاء بخراسان وغيرها بالباطنية.

ويقول نظام الملك عنهم (كان أول ما يتكلمون به في دعواتهم ترحّمهم على أبي مسلم والمهدي، ونيروز حفيد أبي مسلم وابن ابنته فاطمة لذلك حوّل بعض أشياعه الإمامة إلى ابنته فاطمة [2]، وذهب كازانوفا إلى القول: بأن هؤلاء الأشياع كانوا يسمون الفاطميين نسبة إلى فاطمة بنت أبي مسلم وهؤلاء هم طائفة الخرمية [3]، ويقول المستشرق ديورانت: كانت الخرمية تعتنق آراء مزدك الفارسي الشيوعية ومنهم شيعة أطلق على نفسها اسم (سرخ علم) أي (العلم الأحمر) [4]، وتقول الليثي: مؤيدة ما رواه المستشرق ديورانت بقولها (حملت الخرمية راية الثورة المسلحة وانتشرت دعوتها في فارس وكانت تمثل في الحقل الاجتماعي شيوعية مزدك، وفي الحقل الديني والسياسي ضرب الإسلام وإعادة السلطان إلى العجم [5]، وقد بلغ من شدة تطرف المقنع أن أعلن أن أبا مسلم

---

(١) المسعودي: مروج الذهب ج ٣ ص ٣٠٥ ــ ٣٠٦.

(٢) انظر: فان فلوتن: السيادة العربية ص ٩٢.

(٣) انظر: حسن ابراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ج ٢ ص ٩٢.

(٤) أنظر: ديورانت: قصة الحضارة ج ١٣ ص ١١٣؛ (Browun History of Persia. p. 217).

(٥) أنظر: الليثي: الزندقة والشعوبية ص ١١٥.

إله، ودان أتباعه بذلك فقال فيه أصبح أبو مسلم إلهاً إذ حلت فيه روح الله، وهم ينكرون موت أبي مسلم، وإذا سألهم أحد: من الذي قتله؟ أجابوا أنه شيطان تمثل على صورة أبي مسلم[1].

ادعى المقنع الألوهية، وقال بتناسخ الأرواح، والحلول، ومن آرائه في ذلك: أن الله خلق آدم فتحول في صورته ثم في صورة نوح وابراهيم وسائر الأنبياء، وفي صورة محمد، وعلي، وأولاده ثم إلى صورة أبي مسلم، ثم إلى صورته (المقنع) ولذا طلب من أنصاره أن يعبدوه ويسجدوا له[2]، وادعى بإحياء الموتى وعلم الغيب[3] وأنه تجسد، وليس لأحد أن ينظر إليه قبل التجسيد[4]، ويزعم أصحابه أنه أراهم في السماء قمراً آخر يراه المسافرون على بعد شهرين، ويستضيئون بنوره[5].

ومن تعاليمه الدينية: أنه أسقط عن أتباعه الصلاة والصيام والزكاة وطالبهم بالسجود له، وأباح لهم النساء كيفما شاءوا فانتشرت الإباحية، والفوضى الأخلاقية[6] مما لا تتفق والمبادىء الإسلامية. وكان أصحابه يلبسون الملابس البيضاء، ولذا سموا (بالمبيضة) وأطلق على فرقة منهم ظهرت في جرجان شرقي بحر قزوين اسم (المحمرة) لارتدائهم الملابس الحمر[7].

لقد وجدت آراء المقنع قبولاً من الناس في الأطراف الشرقية للدولة العباسية، ولا سيما في المناطق النائية والتي أهملها العباسيون، فأصبحت قلعة بحكم انعزالها لكل عاصٍ، وباغٍ، ولا سيما في بخارى، وسمرقند، وقزوين،

---

(١) النوبختي: **فرق الشيعة** ص ٢٤.
(٢) الطبري: ج ٦ ص ٣٦٧؛ الجاحظ: **البيان والتبيين** ج ٣ ص ١٠٣.
(٣) ابن العبري: **تاريخ مختصر الدول** ص ١٢٦.
(٤) البيروني: **الآثار الباقية** ص ٢١١.
(٥) انظر: جميل نخله المدور: **حضارة الإسلام في دار السلام** ص ٨٦.
(٦) ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ١ ص ٤٥٣.
(٧) انظر: أمير علي: **مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي** ص ١٩٩.

فأقام المقنع في حصن منيع في قلعة (كش) يجمع الرجال والسلاح والمؤمن للثورة على الدولة العباسية، والدين الإسلامي، وتحالف مع القبائل التركية الوثنية، فاجتمع له آلاف من الأتباع، وبدأ يهاجم منازل العرب في الجهات المجاورة له ويقتل الكثيرين منهم، ويستولي على منازلهم ومتاعهم[١]، فتصدى له الخليفة المهدي الذي وصفه صاحب الفخري بقوله (انه كان شهمًا فطناً كريماً شديداً على أهل الإلحاد والزندقة لا تأخذه في إهلاكهم لومة لائم[٢].

ولما أيقن المقنع بالهلاك جمع نساءه، وأهله وسقاهم السم فأتى عليهم جميعاً، وأحرقهم بالنار، وكل ما في القلعة ثم قال: من أحب أن يرتفع معي إلى السماء فليلقي نفسه معي في هذه النار، وألقى بنفسه مع أهله ونسائه وخواصه فاحترقوا[٣].

ويبدو من حركة المقنع، وما سبقها من حركات أخرى كانت غايتها الانفصال عن الدولة العباسية، لإعادة تنظيم الجهات الشرقية على أسسس النظام الفارسي القديم، وعلى مبادىء الديانة المجوسية السابقة.

وظهرت الحركة الراوندية[٤] كرد فعل لمقتل أبي مسلم أيضاً، وكانت آراؤها مزيجاً من الشعوبية والمجوسية، وترجع جذورها إلى أواخر العصر الأموي، حيث بدأت النزعة الشعوبية بالظهور بسبب الصراع بين العرب والموالي، فقد ظهر رجل أبرص (الأبلق) ودعا الناس إلى تعاليم غريبة، فزعم أن الروح التي كانت في عيسى بن مريم صارت إلى علي بن أبي طالب ثم إلى الأئمة من بعده واحداً بعد واحد، إلى ابراهيم بن محمد سبط العباسي عم

---

(١) الطبري: ج ٦ ص ٣٧٦؛ ابن الأثير: **الكامل** ج ٩ ص ٤.

(٢) ابن الطقطقي: **الفخري** ص ١٦١.

(٣) ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ٧٢ طبعة بيروت.

(٤) الراوندية: تنتسب الراوندية إلى مدينة (راوند) قرب أصفهان وهم فئة تنسب إلى أحمد بن يحيى بن أسحق الراوندي وقد كان معتزلياً ثم صار شيعياً ثم تغير إلى الزيغ والإلحاد وله مؤلفات تمثل ذلك الاضطراب الذي تقلب فيه (الدنيوري، الأخبار الطوال ص ٣٨٤).

النبي، وأنهم آلهة[1]. كما أضفوا صفة الألوهية على الخليفة المنصور وأنه هو ربهم يطعمهم ويسقيهم[2].

وقد دعا الأبلق إلى فكرة الحلول، وتناسخ الأرواح، وأهمل فكرة التمسك بفرائض الإسلام، وأباح لأتباعه المحرمات والشهوات ليشجعهم على الإيمان به فكان كل رجل منهم يدعو الجماعة منهم إلى منزله، فيطعمهم، ويسقيهم، ويبيح لهم المحرمات من أهله[3].

وقد اشتدت حركة الأبلق في أواخر العصر الأموي، واستطاع الوالي الأموي أسد بن عبد الله القسري أن يقضي على عدد كبير منهم إلا أن الأبلق اختفى، ومارس نشاطه الديني بسريّة تامة، وبقي زعيمًا للراوندية حتى ظهور الدعوة العباسية فانخرط هو وأتباعه بين صفوفها يبث بين دعاتها مبادئه. فيقول المستشرق فان فلوتن[4] (لقد عزا المدائني إلى الدعاة العباسيين آراء وعقائد مماثلة لعقائد الراوندية، إذ لا يشك أن دعاة العباسيين كانوا من الرواندية).

ويقول المستشرق براون: لقد لقيت دعوة تأليه المنصور قبولاً من كثير من الفرس (المجوس) فقد كانت الديانات الوثنية القديمة تفرض على معتنقيها الإيمان بأن أي رئيس لهم إنما هو شخص تحل فيه روح الإله، وإذا زالت تلك الروح وجب عزل هذا الرئيس[5]. في حين يقول سرور[6]، في هذه الدعوة أنهم قد اتخذوا من هذا القول ستاراً ليخفوا به غرضهم الأصلي وهو القيام بثورة للأخذ بثأر أبي مسلم،

---

(١) انظر: الليثي: الزندقة والشعوبية ص ١١٧.

(٢) الطبري: ج ٦ ص ١٤٧، مؤلف مجهول: العيون والحدائق ج ٣ ص ٢٢٧؛ ابن العبري: ص ١٢٢.

(٣) الطبري: تاريخ ج ٦ ص ١٤٧.

(٤) أنظر: فان فلوتن: السيادة العربية ص ٩٨.

(٥) انظر: (Browun History of Persia Literature, p. 315-316).

(٦) انظر: محمد جمال الدين: سرور الحياة السياسية للدولة العربية ص ١٨٥.

ويؤيد هذا الرأي العدوي[1] فيقول: كان الهدف من ذلك دراسة خطط الحراسة حول القصر تمهيداً لقتل الخليفة المنصور الذي أطاح بأبي مسلم الخراساني.

وقد استخدم المنصور تجاههم الحزم، فقتل بعضهم، وسجن بعضهم الآخر فأبدت الراوندية غضبها لسجن زعمائها، ونادت بأنه يحل لهم قتل المنصور لأنه رفض أن يكون إلهاً لهم، ولأنه سجن رؤساءهم[2]. وقد نجح المنصور بمعاونة معن بن زائدة أحد أنصار الأمويين بالقضاء على الحركة الراوندية التي كانت حركة مسلحة تبغي القضاء على الخليفة المنصور انتقاماً لمقتل أبي مسلم الخراساني.

وقد تبع هذه الحركات المجوسية حركة أخرى من حركات الزندقة والشعوبية هي حركة (استاذ سيس) الذي أعلن الثورة في هراة سنة ١٥٠ هـ وانضم إليه أعداد كبيرة من مجوس باذغيس وسجستان وغيرهم من كورخراسان فبلغ أتباعه ثلثمائة ألف مقاتل بين فارس وراجل[3].

ويصف السيوطي[4] (ت ٩١١ هـ/ ١٥٠٥ م) خطورة هذه الحركة المسلحة بقوله: وفي سنة خمسين ومائة خرجت الجيوش الخراسانية عن الطاعة مع استاذ سيس، واستولى على أكثر مدن خراسان، وعظم الخطب، واستفحل الشر، واشتد على المنصور الأمر.

ويروى أنه ادعى النبوة، فتبعه خلق كثير، وقد تبنت حركته المبادىء المجوسية التي تدعو إلى الإباحية والفوضى الأخلاقية، وقد أرسل المهدي جيشاً

---

(١) انظر: العدوي: حركات التسلل ضد القومية العربية ص ٣٠.
(٢) انظر: (Browun, History of Persia Literature, p. 316).
(٣) الطبري: تاريخ ج ٦ ص ٢٨٥.
(٤) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٦٢.

بقيادة خازم بن خزيمة فقبض عليه وأوثقه بالحديد، وكان ذلك سنة إحدى وخمسون ومائة، وأعتق الباقون من أتباعه[1].

وكان من أخطر الحركات المجوسية المسلحة التي ظهرت في العصر العباسي حركة بابك الخرمي، وحركتي الأفشين والمازيار، والواقع أنهما كانتا حركتين متممتين ومكملتين كل للأخرى لأنهما متشابهتان في الهدف والغاية والعقيدة، فكانتا ترميان إلى بعث العقائد المجوسية، والتخلص من الحكم العربي والدين الإسلامي وإقامة دولة فارسية جديدة.

وتعود جذور مبادىء الحركة البابكية إلى المزدكية التي تقول: بالنور والظلمة، وتدعو إلى شيوعية فوضوية إباحية، وذلك بإباحة النساء والأموال، وبعد مقتل مزدك تولت زوجته (خرما) نشر تعاليمه الإباحية، وأصبح أتباعها يسمون باسمها بـ (الخرمية)[2]، وظلت هذه الجماعة تمارس عقائدها وشعائرها بحرية تامة في جبل البدين بناحية أذربيجان لبعدها عن مركز الخلافة العباسية ولإهمال العباسيين لهذه الجهات حتى ظهور بابك إذ أعاد تنظيم الخرمية بشكل يتفق وتعاليم مزدك، وآرائه الشخصية بأن جعل لكل مجموعة منهم رئيساً يرجعون إليه، وهؤلاء الرؤساء يأتمرون بأمره وحده، وقد أوعز لهم بالتنقل إلى شتى الجهات للحصول على المؤيدين والأتباع[3]، وقد اختلف فيه وفي أهداف حركته فقيل: انه من سلالة أبي مسلم، وأن هدفه من الحركة الثأر لأبي مسلم، وقيل إن حركته هي استمرار لحركة الراوندية والمقنعية[4].

---

(١) الطبري: ج ٦ ص ٢٨٧ ــ ٢٨٨؛ ابن الأثير: **الكامل** ج ٥ ص ٢١٩؛ اليعقوبي: ج ٣ ص ١١٥.

(٢) الخرمية: وقيل سموا بالخرمية لأتباعهم شهواتهم لأن لفظ (خرم) في الفارسية بمعنى المرح أو الإباحي المتوخي للملذات الممتلىء سروراً. (البغدادي: الفرق بين الفرق ص ١٦٨) وقال ابن حزم (والخرمية أصحاب بابك وهم فرقة من فرق المزدكية) وقيل إن الخرمية قد يكون اسمها مشتق من (خرم) وهي اسم لمدينة ببلاد (ميديا) أو معناها اللذة أي الذين لا يعرفون ديناً غير اللذة (فان فلوتن، السيادة العربية ص ٩٩).

(٣) العدوي: **حركات التسلل** ص ٣٩.

(٤) الليثي: **الزندقة والشعوبية** ص ١٣٥.

ويقول نظام الملك في كتابه (سياسة نامة) ان أهداف، ومباديء الحركة البابكية كانت ترمي إلى رفض جميع الفروض الدينية كالصلاة، والصوم والحج والزكاة، وأباحوا لأنفسهم شرب الخمر والمحرمات والشيوعية في النساء، وهي كلها تعاليم مزدك، وقد بذل هؤلاء دائمًا كل ما يستطيعون من جهد للقضاء على الإسلام كما أنهم لم يشعروا بأي ميل أو عاطفة إزاء أحد من أهل البيت، وإن كانوا قد اتخذوا من أسمائهم سبيلاً إلى جذب الأنصار إليهم لنشر دعوتهم التي ترمي إلى هدم العقائد الإسلامية[1].

ويقول بابك الخرمي: بتناسخ الأرواح، والتحرر من قيود الأخلاق[2] وكان خطر هذه الحركة على الدولة العباسية من الناحية السياسية كبيراً جداً، إذ أصبحت قوة سياسية تهدد كيان الدولة العباسية، وتمثل قوة دينية أعلنت عن مبادئها صراحة، وقد أشار المقدسي (ت ٣٨٧ هـ/ ٩٩٧ م) إلى ذلك بقوله: ان الخرمية احتالوا في إزالة الملك إلى العجم فموّهوا هذه النحلة، وزينوها للجهّال، ودعوا إليها في السر ومحصول أمرهم التعطيل والإلحاد[3].

وللبابكية في جبلهم (البدين بناحية أذربيجان) ليلة عيد لهم يجتمعون فيها على الخمر والزمر، وتختلط فيها رجالهم ونساؤهم فإذا أطفئت سرجهم ونيرانهم افتض فيها الرجال النساء[4].

ويبدو أن بابك كان على درجة كبيرة من النضج السياسي فقد استطاع أن يستفيد من عداء العلويين للعباسيين بأن اتخذ من العلويين ستاراً وسنداً لتوجيه عواطف الجماهير العلوية إلى جانبه كما أنه حالف العدو اللدود للدولة العباسية وهم البيزنطيون في عهد ملكهم نيوفيلوس بن ميخائيل فتعاهد الإثنان على مهاجمة الحدود الإسلامية وإفساد قراها وتخريبها[5] وانضوى تحت لواء حركته من

---

(١) انظر: حسن ابراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ج ٢ ص ٩٩ ــ ١٠٠.
(٢) انظر: أمير علي: مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي ص ٢٣٣.
(٣) المقدسي: البدء والتاريخ ج ٥ ص ١٣٤.
(٤) البغدادي: الفرق بين الفرق ص ١٦١.
(٥) انظر: أمير علي: مختصر تاريخ العرب ص ٢٣٤.

بقي من الفرس على دينه، ومن الشعوبيين والحاقدين على العرب والإسلام، وكذلك قطاع الطرق، واللصوص، والدعار، وأرباب النحل الإباحية، فكوّن من هؤلاء جميعاً قوة كبيرة بلغ عددها عشرين ألفاً، وامتد نفوذه على مناطق واسعة من الجهات الشرقية للدولة العباسية، واستخدم أساليب الإرهاب، كالتمثيل الوحشي فهزم جيوشاً كثيرة، وقتل عدة قواد، وقيل انه قتل ألف إنسان بين رجل وامرأة وصبي(١)، ثم قبض عليه أخيراً في عهد الخليفة المعتصم سهل بن سنباط بخديعة دبرها وسلمه إلى الأفشين قائد المعتصم(٢) بعد حرب دامت **٢٢** سنة تقريباً وأرسل إلى سامراء فدخلها في صفر سنة **٢٢٣** هـ فأمر المعتصم بقطع يديه ورجليه ثم قتله، وصلبه بسامراء، ووجه بأخيه عبد الله إلى بغداد فقتل وصلب على رأس الجسر ببغداد(٣).

ولم تكن حركة المازيار(٤)، والأفشين(٥) أقل خطورة من حركة بابك الخرمي فقد شغلت هذه الحركات الخلفاء ما يزيد على عشرين عاماً تكبدت الدولة الخسائر الجسيمة في الأرواح والأموال فضلاً عن التدمير الذي أصاب البلاد من جراء هذه الحركات، بسبب تقاعس الخلفاء، وعدم اهتمامهم بشؤون هذه البلاد، وبعد جهد جهيد استطاع المعتصم أن يقضي عليها نهائياً.

لقد قامت هذه الحركة على نفس المبادىء والأهداف التي قامت عليها حركة بابك الخرمي، حيث أنها تستند إلى تعاليم مزدك الإباحية، فكان المازيار

---

(١) المقدسي: **البدء والتاريخ** ج ٦ ص ١١٥ ــ ١١٦؛ ابن كثير: **البداية والنهاية** ج ١٠ ص ٢٨٣.

(٢) المسعودي: **مروج الذهب** ج ٤ ص ٥٦؛ ابن الأثير: **الكامل** ج ٦ ص ٤٧٣ ــ ٤٧٤؛ الدنيوري: ص ٤٠٥.

(٣) اليعقوبي: ج ٣ ص ٢٠٠؛ الطبري: ج ٩ ص ٥٣ طبع دار المعارف.

(٤) المازيار بن قارن بن بندار هرمس فارسي الأصل أسلم وتسمى محمداً، ويبدو أنه تقرب إلى المأمون حتى ولاه شروين بأطراف طبرستان (المسعودي، مروج الذهب، ج ٤ ص ٦١؛ ابن الأثير، الكامل ج ٦ ص ٤٩٥).

(٥) الأفشين: حيدر بن كاوس من قواد المعتصم (ابن كثير، البداية ج ١٠ ص ٢٨٢).

أول أمره مجوسياً، ثم أسلم فولّاه المأمون شروين بأطراف طبرستان، ويبدو أن إسلامه كان ظاهراً، حيث كان يبطن المجوسية ويعمل لها بنشاط بدليل أخذ هناك يوليّ أتباعه الولايات ليعملوا على تنظيم المؤمنين برسالته ضد الإسلام والعروبة[1].

ويروي البغدادي (ت ٤٢٩ هـ/ ١٠٣٧ م) عن أصول عقائد المازيار فيقول (ينسبون أصل دينهم إلى أمير كان لهم في الجاهلية اسمه شروين، ويزعمون أن أباه كان من الزنج، وأمه من بنات ملوك الفرس، ويزعمون أن شروين كان أفضل من محمد (ﷺ) ومن سائر الأنبياء.. فهم لا يصلون في السر، ولا يصومون في رمضان، ولا يرون جهاد الكفرة[2]. فلما قامت الحرب مع بابك الخرمي، وانشغل الخليفة المعتصم بقتاله، استغل هذه الفرصة، واتصل مع الأفشين ليعمل الثلاثة على القضاء على العرب والتخلص من الإسلام، ولم تتح الظروف للمازيار بالتحالف العسكري مع بابك رغم اتصاله به لعدم اكتمال استعداداته، واستطاعت عيون المعتصم أن تكشف التعاون السري بين بابك، والمازيار، كما علم المعتصم بتعاون قائده الأفشين سراً مع المازيار، وأنه يرسل سراً الأموال، والأسلحة، والمتاع إلى مدينة أشروسنة لتكون له عدة في ثورته، وقد كشف سره عبد الله بن طاهر حاكم خراسان عندما قبض على أتباعه وهم يحملون الأموال العظيمة، وكتب ابن طاهر إلى الأفشين يسأله عن صحة المال، والأتباع، فأجابه (أن المال ماله والرجال أتباعه، ويطلب منه أن يطلق سراحهم ليكملوا رحلتهم إلى أشروسنة)[3]، فعلم المعتصم بنوايا الأفشين وآثر كتمان الأمر حتى ينتهي من القضاء على حركة بابك، ولما فرغ من القضاء على حركة بابك الخرمي بدأ بالمازيار بأن طلب منه تسليم أموال الخراج إلى عبد الله بن طاهر أمير خراسان (ونافر ــ المازيار ــ عبد الله بن طاهر حتى تفاقم

---

(١) أنظر: الليثي: **الزندقة والشعوبية** ص ١٤٩.
(٢) البغدادي: **الفرق بين الفرق** ص ٢٦٩.
(٣) الطبري: ج ٧ ص ٣٠٣؛ مسكوبة تجارب الأمم ج ٦ ص ٥١٧؛ ابن كثير: **البداية** ج ١٠ ص ٢٨٩.

الأمر بينهما، فعزم المازيار على الخلاف، ودعا الناس إلى بيعته فبايعوه كرهاً، وأخذ منهم الرهائن فحبسهم في برج الأصبهبذ وأمر إكرة الضياع بالوثوب بأرباب الضياع وانتهاب أموالهم[1] فكثرت عساكره، واتسعت جيوشه، فكتب المعتصم إليه يأمره بالحضور فأبى، ورأى المعتصم أن يستأصل هذا الشر الذي استفحل[2]، فوضع المعتصم وقواده خطة القضاء عليه فاستطاع كسب قارن بن شهريار ابن أخي المازيار إلى صفوفهم، كما أن مقتل سراخستان قائد المازيار، وساعده الأيمن أضعف من مركزه وتعاون خوهيار ابن عم المازيار مع العباسيين، وأطلعهم على خطة التحالف بين الأفشين والمازيار[3]، ومما أضعف من شوكته تمزق جيشه، فانفض من عسكر المازيار أعداد كبيرة من الجنود، ممن قبض عليهم من عسكر المازيار، وكشف الكتب التي بعث بها الأفشين إلى المازيار على أمل إحياء الدين المجوسي القديم. فقبض أخيراً على المازيار، وجيء به إلى العاصمة سامراء، وقبل وصوله العاصمة أمر المعتصم بالقبض على الأفشين، بعد أن افتضحت الخطط التي وضعها الأفشين ورجاله للهروب من سامراء بالتخلص من الخليفة وقواده بالسم، وذلك بإفشاء أحد قواد الأفشين (واجن الأشروسني) أسماءهم فقبض الخليفة عليه وسجنه، وكتب إلى عبد الله بن طاهر بالقبض على الحسن بن الأفشين[4]، وبعد إجراء محاكمة علنية بحضور الخليفة المعتصم أمر بضرب المازيار فضرب أربعمائة وخمسين سوطاً، وطلب ماءاً فسقي فمات من ساعته، وأمر المعتصم بصلب جثة المازيار إلى جانب جثة بابك الخرمي[5]، أما الأفشين فقد أجريت محاكمته بحضور الخليفة المعتصم والوزير محمد بن عبد الملك الزيات والقاضي أحمد بن أبي داود، فأقر الأفشين أن المازيار بعثه على الخروج والعصيان لمذهب كانوا اجتمعوا عليه، ودين اتفقوا عليه من

(١) الطبري: تاريخ ج ٧ ص ٢٨٣ ــ ٢٨٤.
(٢) المسعودي: مروج ج ٤ ص ٦١.
(٣) الطبري: ج ٧ ص ٢٩٢.
(٤) الطبري: ج ٩ ص ١٠٥ طبع دار المعارف؛ ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ٥١٢؛ مسكويه: تجارب الأمم ج ٦ ص ٥١٨.
(٥) البغدادي: الفرق بين الفرق ص ٢٦٩؛ ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ٥٠٤.

مذاهب الثنوية والمجوس[١]، وشهد عليه الموبذ بأنه كان يأكل المنخنقة، وأنه لم يختتن، وقال المرزبان له: كان أهل بلدك يكتبون لك بكذا بالأشروسنية، قال: بلى، قال: أليس تفسيره بالعربية، إلى إله الآلهة من عبده فلان بن فلان[٢]، واعترف المازيار أمام الأفشين بمكاتبته إياه، فقال: كتب أخوه إلى أخي فوهيار، أنه لم يكن ينصر هذا الدين الأبيض غيري وغيرك، فأما بابك فإنه لحمقه قتل نفسه، فإن خالفت لم يكن للقوم من يرمونك غيري على الفرسان وأهل النجدة... ويعود الدين إلى ما لم يزل عليه أيام العجم[٣].

وقد وجد في بيت الأفشين أصناماً وكتاباً من كتب المجوس يقال له (زراوه) وأشياء كثيرة من الكتب فيها ديانته التي كان يدين بها[٤]، فسجنه المعتصم ومات مسموماً في السجن، وصلبت جثته ثم أحرقت مع الأصنام التي عثروا عليها في داره سنة **٢٢٦** هـ[٥].

ويقول المستشرق براون[٦]: ان الأفشين لم يكن في ميوله ونشأته الفارسية أقل وطنية وعطفاً على الفرس من هذين الرجلين اللذين صحباه في نهايته المحزنة. وعلق المستشرق ميور[٧] (Muir): في كلامه عن محاكمة الأفشين بقوله: انها تبين بجلاء كيف تمسك أهالي ولايات الدولة العباسية الشرقية بدينهم الوثني، وذلك لبعدهم عن مركز هذه الدولة ولأن الإسلام لم يكن قد وصل إلى قلوبهم، ثم لتحصنهم في بلادهم المنيعة، وقربهم من الأتراك الوثنيين... فكان

---

(١) المسعودي: **مروج الذهب** ج ٤ ص ٦١؛ اليعقوبي: ج ٣ ص ٢٠٣؛ ابن كثير: ج ١٠ ص ٢٩٣.

(٢) ابن الأثير: **الكامل** ج ٦ ص ٥١٤؛ مسكويه: ج ٦ ص ٥٢٠ ــ ٥٢٣؛ مؤلف مجهول: **العيون** ج ٣ ص ٤٠٦.

(٣) ابن الأثير: **الكامل** ج ٦ ص ٥١٥؛ مؤلف مجهول: **العيون والحدائق** ج ٣ ص ٤٠٥.

(٤) الطبري: **تاريخ** ج ٩ ص ١١٤، طبعة دار المعارف.

(٥) مسكويه: **تجارب الأمم** ج ٦ ص ٥٢٤؛ ابن كثير: **البداية** ج ١٠ ص ٢٩٣؛ ابن العبري: ص ١٤٠.

(٦) (Browun, History of Persia Literature p. 330).

(٧) (Muir, The Caliphate; p. 518-519).

إسلامهم ظاهرياً وأنهم كانوا متمسكين بعقائدهم المجوسية القديمة، وأنهم كانوا ينتهزون الفرصة ليرتدوا عن الإسلام، ويعودوا إلى دينهم القديم، ومصداق ذلك ما رأيناه من ظهور حركة سنباذ المجوسية وأنصار المسلمية، وبابك الخرمي.

فهذه الأحداث الخطيرة التي ظهرت طيلة العصر العباسي الأول دليل على أن أغلب من أسلم من أهل الذمة، وخاصة المجوس كان إسلامهم ظاهرياً، ولمقاصد ومكاسب ذاتية، وأن النزعة المجوسية كانت ما تزال قوية، ومتأصلة في نفوس الفرس، ومع هذا فقد نعم هذا العصر بمجيء خلفاء أقوياء، فلم يستطع الفرس المجوس تحقيق مطامحهم في المجالات العسكرية والسياسية والدينية، إذ استطاع هؤلاء الخلفاء ضرب حركات الزندقة والمجوسية والشعوبية بعنف، وفي إلحاق النكبة بالوزراء، وكبار رجال الدولة منهم، حالما يحس الخليفة بميوله المجوسية الفارسية، وبهذه السياسة حافظ الخلفاء على عظمة الإسلام وديمومة الدولة العباسية.

الفصل الثاني
الحركات الدينية لأهل الذمة
(الزندقة والشعوبية)

لقد كانت الحركات الدينية الفارسية أشد الثورات، وأكثرها خطراً على الدين الإسلامي لأنها سلكت أسلوب تشويه تعاليم الإسلام، وبـذر بذور الأفكار المجوسية عن طريق الدين والمجتمع الإسلامي، بعد أن وجدت أن الحركات السياسية والعسكرية المسلحة لم تجد نفعاً، فالتجأت إلى هدم المجتمع الإسلامي بنشر الخلاعة والمجون، وأباحت المحرمات للعبث بالآداب العامة، وتعرض الحياة الاجتماعية، والدينية والسياسية للخطر. وقـد رأى دعاة الحركات الدينية المجوسية أن يتجنبوا الأخطاء التي واجهت زعماء الحركات السياسية التي أشرنا إليها آنفاً، وذلك بإحياء الديانات المجوسية، وتحطيم السياج الديني الذي فرضه الإسلام بنشر تعاليم فاسدة، ونشر الشكوك حول الإسلام بين أصحاب النفوس الضعيفة والجهلاء والبسطاء من المسلمين[1].

وقد أطلق في التاريخ الإسلامي على هذه الحركة بـ(الزندقة)[2] وعلى روادها اسم (الزنادقة).

---

(١) أنظر العدوي: المجتمع الإسلامي ومناهضته للشعوبية ص ١٠٠.

(٢) الزندقة: هي أن تنكر أصل المعاد عقلياً وحسياً، وتنكر الصانع للعالم أصلاً (الغزالي، فيصل التفرقة ص ٥٤) والمؤمن بها يسمى (زنديق) وهي فارسية معربة معناها بالفارسية أتباع (الزند) وهو شرح كتاب الأفستا لزرادشت ثم أطلق على المانوية لأنهم كانوا يأخذون الزند وغيره من الكتب المجوسية (أحمد أمين، فجر الإسلام، ص ١٣٤) وتطلق كلمة زنديق عند العرب بصفة عامة على الشخص الذي ينكر الحياة الأخرى وخلود الروح، وينفي وجود الله أو يجعل له=

والزندقة حركة تبشير بالمبادىء المجوسية، (الزرادشتية والمانوية، والمزدكية)، ويتجلى خطرها بتظاهرها بالإسلام، وهي في الواقع تعمل على نسف الإسلام من الداخل، والتشكيك بعقائده، ومثله العليا، وإفساد المجتمع الإسلامي عن طريق تفسيخ الأخلاق، والتحلل الاجتماعي، والانحراف بالسلوك الإنساني، فقد أعلنت (الزندقة) عن معارضتها للإسلام، وهدفت إلى هدمه واعتمدت أسساً فكرية مناقضة له[1].

وقد اتخذ بعض اليهود والنصارى الإسلام ستاراً يكيدون من ورائه للدين

= شريكاً (الغزالي، فيصل التفرقة، ص ٣١)، (خدابخش، الحضارة الإسلامية، ص ١١٣) وجاء في لسان العرب لابن منظور (الزنديق القائل ببقاء الدهر، وهو اصطلاح فارسي معرب من الكلمة الفارسية (زندكر) أي القائل ببقاء الدهر وليس في كلام العرب زنديق وإنما قالوا: ملحد ودهري) ويرى بدوي (أن لفظ زنديق غامض مشترك قد أطلق على معان عديدة مختلف فيها على الرغم مما قد يجمع بينها من تشابه فكان يطلق على من يؤمن بالمانوية ويثبت أصلين أزليين هما النور والظلمة ثم اتسع المعنى من بعد اتساعاً كبيراً حتى أطلق على كل صاحب بدعة وملحد بل انتهى أخيراً إلى أن يطلق على من يكون مذهبه مخالفاً لمذهب أهل السنة، أو حتى من كان يحيا حياة المجون من الشعراء والكتاب وغيرهم (بدوي، تاريخ الإلحاد في الإسلام، ص ٢٤) وقيل إن الزنديق من يبطن الكفر ويظهر الايمان (حسن ابراهيم، من تاريخ الإسلام السياسي، ج ٢ ص ١١٥) ويقول براون، الزنديق معناها بالفارسية الشخص الذي يتبع الزند وهو تفسير الكتاب المقدس عند الفرس، ثم أطلق على المانوية لأنهم يتبعون الزند، وقيل إنها جاءت من كلمة صديق العربية التي هي في الأصل الآرامي صديق (Saddigai) وقد أخذها الفرس فحوروها إلى زنديق وعلى ذلك فكلمة زنديق تدل في أصل وضعها على طائفة خاصة من المانوية ثم أطلقت على المانوية جميعاً، واستعملت بعد ذلك في الإلحاد عامة (أحمد أمين: فجر الاسلام، ص ١٣٣ ــ ١٤٣)، سرور الحياة السياسية ص ١٨٩) ويرى ابن قتيبة، أن الزندقة هي دين من أديان الفرس فقد أشار في كتابه، المعارف عند كلامه على أديان العرب في الجاهلية فقال: (كانت النصرانية في ربيعة وغسان وبعض قضاعة وكانت اليهودية في حمير وبني كنانة وكندة وكانت المجوسية في تميم وكانت الزندقة في قريش أخذوها من الحيرة ويظهر مما حدده ابن قتيبة، أن الزندقة دين خاص من أديان الفرس بدليل قوله انهم أخذوها من الحيرة التي كانت تحت حكم الفرس (سرور الحياة السياسية، ص ١٨٩)، ويبدو أن كلمة زنديق استعملت في العصر العباسي للذين تركوا فرائض الإسلام واستهانوا بعقائده وانصرفوا إلى حياة المجون والخلاعة وشرب الخمور.

(١) أنظر: عبدالله السامرائي: **الفرق الغالية في الدولة العباسية** ص ٧٠ رسالة دكتوراه غير مطبوعة.

الحنيف، فأدخلوا فيه الكثير من الخرافات والأساطير التي لا تمت إلى الإسلام بصلة، ولولا ما قام به علماء المسلمين، ولا سيما الفقهاء، وعلماء التفسير، والمحدثين لمقاومة ذلك الخطر الداهم لضاع الإسلام، ولعصفت به أعاصير تلك الضلالات التي أثارها عليه هؤلاء الأدعياء على الإسلام منذ القرن الأول الهجري ولجأوا إلى تأويل الإسلام حسب أهوائهم، وتركوا الكثير من الفرائض الدينية التي لا تروق لهم[1].

فقد أدخل من أسلم من اليهود بعض الآراء اليهودية فكان منهم محدثون وقصاص، وإخباريون وقراء، فقد فسر هؤلاء بعض ما ورد في القرآن بما مفسر في التوراة، وليس معنى ذلك أن كل اليهود الذين دخلوا الإسلام كانوا علماء باليهودية بل ان العوام كانوا يجهلونها[2]. ويقول في ذلك ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٥ م) (ما تعرفه العامة من أهل الكتاب وتساهل المفسرون في مثل ذلك، وملئوا كتب التفسير بهذه المنقولات)[3].

كما أدخل من أسلم من النصارى بعض أقوال الإنجيل ودست على أنها أحاديث لرسول الله محمد. ويؤيد المستشرق جولدتسهير هذا الرأي فيقول: (وحديث قال لنا رسول الله إنكم سترون بعدي أشرة وأموراً تنكرونها قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: أدوا إليهم حقهم وسلوا الله حقكم) فقد أسند إلى ما ورد في إنجيل متي (أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله). كما تسربت بعض الأفكار والآراء المسيحية إلى بعض الفرق الإسلامية وخاصة فرقة المعتزلة فقد وردت في أفكارهم وآراءهم مسألة القدر والإجبار، وفي صفات الله، وكلها مأخوذة عن النصرانية على الرغم من أن القرآن تعرض لمسألة القدر والإجبار في آيات عديدة.

---

(١) انظر: فان فلوتن: السيادة العربية ص ٨٨.

(٢) انظر: أحمد أمين: ضحى الإسلام ج ١ ص ٣٢٨.

(٣) ابن خلدون: المقدمة ص ٣٦٧.

ويقول أحمد أمين[1]: ان فكرة القضاء والقدر كانت قديماً عند المسلمين، وأنها كانت في اليهودية والنصرانية والمجوسية، وأن تاريخ المعتزلة يدلنا على أن جدالهم مع مجوس الفرس كان أكثر من جدالهم مع اليهود والنصارى، وأن كثيراً من أصول مذهبهم وضع للرد على الفرس المجوس لا على النصارى، ويقول أيضاً: وتسربت إلى الإسلام بعض الآراء المسيحية عما ترجم ونقل من الكتب النصرانية، وعن مواعظ الرهبان في الأديرة[2].

ويرجع تاريخ ظهور الزندقة إلى أواخر العصر الأموي، فقد اتهم عبد الصمد بن عبد الأعلى مؤدب الوليد بن يزيد الأموي بالزندقة[3].

ويقول المؤرخ ابن النديم[4] (ت ٣٨٥ هـ/ ٩٩٥ م) أن الجعد بن درهم كان مؤدباً لمروان ولولده وأنه أدخله في الزندقة، وكان خالد بن عبد الله القسري على الرغم من اتهامه بالزندقة شديداً على الزنادقة حتى أنه حبس الجعد بن درهم وقتله يوم عيد الأضحى ـ وجعله بدل الأضحية ـ بعد أن أعلن ذلك على المنبر في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك. ويقول الدوري[5]: (كان الجعد بن درهم من طلائع دعاة المانوية باسم الزندقة).

ومما يثبت جذور وأصول حركة الزندقة في العصر الأموي هو أن أبرز دعاة الزندقة الذين ظهروا في الدولة العباسية عاشوا في الدولة الأموية، ومنهم حماد الراوية، وحماد عجرد، وحماد الزبرقان، وتجمع المصادر القديمة على اتهامهم بالزندقة والمجون والخلاعة[6].

وممن برز من أوائل الزنادقة يونس بن أبي فروة الذي كان في رعاية حماد

---

(١) أنظر: أحمد أمين: **ضحى الإسلام** ج ١ ص ٣٤٦.
(٢) المصدر السابق: ج ١ ص ٣٤٨.
(٣) الأصفهاني: **الأغاني** ج ٦ ص ١٣٢.
(٤) ابن النديم: **الفهرست** ص ٤٧٢.
(٥) انظر: الدوري: **الجذور التاريخية للشعوبية** ص ٢٦.
(٦) الأصفهاني: **الأغاني** ج ٤ ص ٧٦؛ الجاحظ: **الحيوان** ج ٤ ص ٤٤٣.

عجرد، وعمارة بن حمزة الذي أعلن الثورة في أواخر العصر الأموي، ومطيع بن إياس أحد ندماء ابن معاوية كما عاصر ابن المقفع[1]، وقد كان لابن المقفع دور خطير في بعث حركة الزندقة حيث قال المهدي عنه: ما وجدت كتاب زندقة قط إلا وأصله ابن المقفع[2] حيث ترجم كتب ماني وابن ديصان، ومرقيون من الفارسية إلى العربية[3].

ويرجع الخربوطلي[4] إلى عدم انتشار الزندقة في العصر الأموي على نطاق واسع إلى عاملين: **الأول**: ضعف حركة الزندقة لأنها كانت في دور النمو، وعدم قدرة الزنادقة على إظهار عقائدهم، والعامل **الثاني**: عدم إمكان سيطرتهم على أجهزة الدولة من وزارة وقيادة وولاية، وكانوا في نظر الأمويين أقل منزلة من العرب، لذا لم يكن يجرأون أن يرفعوا أصواتهم. ويقول الدوري[5] لقد اقتصرت حركات الزندقة في العصر الأموي على شاعر يتغنى بأمجاد ساسان وزنديق يبشر بالمانوية، وكاتب ينقل تراث الفرس القدماء في الحضارة والدين، ولكن بداياتها كانت محاطة بالغموض لأنها بدأت عملها في جو من الحذر والكتمان بل أنه يتعذر علينا تحديد هذه البداية في العصر الأموي.

ولكن هذه الدعوة الهدامة أتت ثمارها بقيام الدولة العباسية، وسيطرة الفرس على أجهزة الدولة المهمة، وتظاهر الفرس المجوس بالإسلام، واحتفاظهم بمجوسيتهم لتشويه عقائد الإسلام، فلجأوا إلى النواحي الفكرية في الحقل الديني، وعملوا على التبشير بالديانة المانوية بصورة سرية، واتبعوا من أجل تحقيق ذلك سبيلين: أولهما، التأويل الذي يمكن تفسير النصوص الدينية لأصحاب الديانات، وخاصة الإسلام تفسيرات تخرجها إلى مدلولات ومفاهيم

---

(١) أنظر: الليثي: **الزندقة الشعوبية** ص ٣٩.
(٢) الأمالي: ج ١ ص ١٣٤.
(٣) الأصفهاني: **الأغاني** ج ١٢ ص ٨٧.
(٤) انظر: الخربوطلي: **المجوسية والمجوس** ص ١٦٩.
(٥) انظر: الدوري: **الجذور التاريخية للشعوبية** ص ٢٦.

مانوية، وثانيهما: المزج والصهر بين المذاهب والديانات في بودقة مانوية لكسب الآخرين إليها[1]، وقد اتخذ الزنادقة شعاراً لهم، الميل إلى الخلاعة والمجون وشرب الخمر باسم الظرف، وكان لشعرائهم دور كبير في ذلك، فقد دعوا الناس إلى التمتع بلذائذ الحياة وإلى الفجور، وأخذوا يسخرون ممن يقول بتحريم الخمر، كأبي نواس، وبشار بن برد وظهر في شعرهم التغزل بالنساء ووصفهن، والتغزل بالمذكر، مما كان له أثره الخطير على الشباب حيث ساقوهم إلى حياة التهتك والفجور[2] ورأى بعضهم (الزنادقة) أنهم لا يستطيعون إفساد العقيدة الإسلامية إلا بالانتساب إليها أولاً حتى يؤمن جانبهم ثم أخذوا يبثون سموم تعاليمهم[3]، فتسللوا بين الأتقياء والزهاد لكي يكسبوا عطف الناس، وتبنوا طبقة من العلماء الفرس ليسهل لهم عن طريق العلم، وبأسلوب المراوغة والجدل، الاندساس في ندوات المجتمع الإسلامي لتضليل الناس مستغلين دعوة العرب إلى حرية الرأي، وإلى قبول الآراء الحرة[4] فانتشرت بعض تعاليم المجوس بين المسلمين، ويظهر أن من أسلم من المجوس نقل بعض المفاهيم الدينية، وفسّرها على ضوء ما في الديانة المجوسية، إذ أن عقيدة العامة من المسلمين في الصراط المستقيم، تتطابق بما يفسره زرادشت، وتحليق الروح على الجسد، وقولهم ان الله منح للإنسان حرية الإرادة في اختيار الخير والشر هي تتفق وقول المعتزلة في الجبر والاختيار، وفي قول الصوفية في أقسام النفس[5].

وقد جاهر الزنادقة بدعواهم، وظهر أبرز هؤلاء الزنادقة عبد الكريم بن أبي العوجاء الذي وضع ألف حديث نسبه للنبي، واعترف بجريمته فقتله المنصور، ومنهم أيضاً حماد الراوية الذي أفسد الأدب واللغة، وبشار بن برد، وسلم الخاسر، وأبو عبد الوراق، وصالح بن عبد القدوس الذي دس معاني

---

(١) انظر: الليثي: الزندقة والشعوبية ص ٩٤.
(٢) انظر: عبد الغني: صراع العرب خلال العصور ص ٢٩ ـ ٣٠.
(٣) انظر: سرور: الحياة السياسية للدولة العربية ص ١٨٧.
(٤) انظر: العدوي: حركات التسلسل ص ٧٠.
(٥) انظر: أحمد أمين: فجر الإسلام ص ١٢٨.

الزندقة في الأشعار، ويونس بن أبي فروة الذي ألّف كتاباً في مثال العرب، وقد اتخذ هؤلاء العلم وسيلة لنشر مبادىء الزندقة، وقد دانوا بالإسلام تقية أو توسلاً إلى إضلال الناس[1].

واتهم بعض الشخصيات السياسية الفارسية في الدولة العباسية ببعث حركة الزندقة، فقيل: ان البرامكة بأسرها إلا محمد بن خالد بن برمك كانت زنادقة[2] وكان محمد بن عبيد الله كاتب المهدي زنديقاً، واعترف بذلك فقتله المهدي، وقيل أيضاً: كان محمد بن عبد الملك الزيات زنديقاً، ومن رؤسائهم يزدان بخت الذي أحضره المأمون من الري، وطلب منه الإسلام فقال للمأمون: نصيحتك مسموعة، وقولك مقبول، ولكنك ممن لا يجبر الناس على ترك مذاهبهم فأمر به فقتل[3].

وقد شاع في ذلك العصر وصف الزندقة بالظرف، والفكاهة، وواكبها بعض الشخصيات، واتهموا بالزندقة رغم إيمانهم بالله، حيث أنهم اتخذوها للتندر، وليس عن عقيدة، ومنهم محمد بن زياد الذي كان يظهر الزندقة تظرفاً فقال فيه ابن مناذر[4]:

يا بن زياد يا أبا جعفر	أظهرت ديناً غير ما تخفي
مزندق الظاهر باللفظ في	باطن إسلام فتى عف
لست بزنديق ولكنما	أردت أن توسم بالظرف

كما أن هذه التهمة (الزندقة) قد اتخذت وسيلة لضرب الخصوم السياسيين

---

(١) ابن النديم: **الفهرست** ص ٤٧٢؛ الخربوطلي: **المجوسية والمجوس** ص ١٧٤؛ أحمد أمين: **ضحى الإسلام** ج ١ ص ١٥٧.

(٢) ابن النديم: **الفهرست** ص ٤٨٧.

(٣) المصدر السابق ص ٤٧٢.

(٤) انظر: سالم: **النفاق والمنافقون** ص ٣٣٩.

فكان يمكن إلصاقها من قبل الأطراف والمذاهب المتنازعة كما كانت السلطة كثيراً ما تتهم من تريد التخلص منه بتهمة الزندقة[1].

وعمد الزنادقة إلى جحود الأديان كلها، وبذلك تكون الزندقة مرادفاً للدهرية والإلحاد، وقد ورد التعبير عن هذا المعنى بلفظ الزنادقة عند أبي العلاء المعري، إذ يقول في رسالة الغفران: (والزنادقة هم الذين يقولون ببقاء الدهر، ويسمون الدهرية، ولا يقرون بنبوة ولا كتاب)[2].

وقد ساعد الزنادقة على بث أفكارهم، انتشار روح البحث العلمي، والجدال الديني حول المسائل الأساسية في الأديان، فكان من السهل أن تكون هذه الأبحاث وسيلة لإثارة الشكوك في النفوس، وتزايد الأمر حتى شاع الاتهام بالزندقة جزافاً مما دفع علماء المسلمين إلى وضع الأصول لتحديد الفاصل بين الإسلام والزندقة، وامتلأت كتب علم الكلام بذلك[3] إلا أن الإمام أبو حامد الغزالي (ت ٥٠٥ هـ/ ١١١١ م) وضع كتاباً خاصاً لذلك سماه (فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة) كما وضع الرازي (ت ٦٠٦ هـ/ ١٢٠٩ م) كتاباً حدد فيه (اعتقادات فرق المسلمين والمشركين) وبهذا حدد صفات المسلم والزنديق.

وقد قام الكتاب الذين ينحدرون من أصول فارسية بدور كبير في الترويج للزندقة، فاندفعوا يشككون الناس في كل شيء باسم العلم أو البحث عن الحقيقة، أو باسم الفلسفة والحكمة، وقد وصفهم الجاحظ[4] (ت ٢٥٥ هـ/ ٨٦٨ م) وصفاً دقيقاً بقوله: (والناشىء منهم إذا حفظ من الكلام فتيقه، ومن العلم ملحه، روى لبزرجمهر أمثاله، والأردشير عهده، ولعبد الحميد رسائله، ولابن المقفع أدبه، وصير كتاب مزدك معدن علمه، ودفتر كليلة ودمنة كنز حكمته... فيكون أول بدئه الطعن على القرآن في تأليفه والقضاء عليه

---

(١) انظر: السامرائي: الفرق الغالبة في الدولة العباسية ص ٧٠.
(٢) انظر: أحمد أمين: ضحى الإسلام ج ١ ص ١٥٤.
(٣) انظر: سالم: النفاق والمنافقون ص ٣٤١؛ أحمد أمين: ضحى الإسلام ج ١ ص ١٣٩.
(٤) الجاحظ: ثلاث رسائل ص ٤٢.

بتناقضه، ثم يظهر فيه ظرفه بتكذيب الأخبار، وتهجين من نقل الآثار، فإن استرجح أحد أصحاب الرسول فتل عند ذكرهم شدقه، ولوى عن محاسنهم كشحه. . . ثم يقطع ذلك في مجلسه بسياسة أردشير بابكان، وتدبير أنو شروان، واستقامة البلاد لآل ساسان، فإن حذر العيون، وتفقده المسلمون رجع بذكر السنن إلى المعقول، ومحكم القرآن إلى المنسوخ، ونفى ما لا يدرك بالعيان وشبّه بالشاهد الغائب، لا يرتضي من الكتب إلا المنطق، هذا هو المشهور من أفعالهم والموصوف من أخلاقهم).

وقد حاول العباسيون التنكيل بالزنادقة عن طريقين: الأول، العنف والاضطهاد، ولكنهم وجدوا أن ذلك غير مجد، فسلكوا الطريق الثاني، حيث استعانوا بالفقهاء، والمتكلمين للتصدي لهم، ولدحض آرائهم، وافتراءاتهم، ويقول الدوري[1]: وهذا يفسر جانباً من اعتماد العباسيين على الاعتزال، واتخاذه مذهباً رسمياً للدولة في عصر المأمون.

لم تكن حركة الزندقة قوية في صدر الدولة العباسية لالتفاف الفرس حول الدولة واستخدام العباسيين لهم في مناصب الدولة المهمة، ولكن هذه الحركة سرعان ما بدأت بوادرها تظهر منذ عهد المنصور، ولا سيما بعد مقتل أبي مسلم الخراساني وأخذت تقوى وتشتد حتى عصر الخليفة المهدي حيث جاهروا بإلحادهم فشعر الخليفة المهدي بخطرهم مما اضطر إلى استخدام أسلوب العنف والتنكيل بهم، والبحث عنهم، وأوكل أمرهم إلى رجل سماه (صاحب الزنادقة) ويؤيد ذلك الطبري (ت ٣١٠ هـ/٩٢٢م) بقوله: وجد المهدي في طلب الزنادقة، والبحث عنهم في الآفاق، وقتلهم، وولى أمرهم (عمر الكلواذي)[2] وقال المسعودي (ت ٣٤٦ هـ/ ٩٥٧م) فيه: أنه (المهدي) أمعن النظر في قتل الملحدين والمداهنين في الدين لظهورهم في أيامه، وإعلانهم باعتقاداتهم في خلافته[3].

---

(١) انظر: الدوري: مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ص ٦٤.

(٢) الطبري: تاريخ ج ١٠ ص ٩.

(٣) المسعودي: مروج الذهب ج ٢ ص ٤٠١.

وكان المهدي يشرف بنفسه أحياناً على محاكمة الزنادقة منها: أنه زار مرة حلب، وكشف له جماعة من الزنادقة جاءت إليها من العراق، فأمر على الفور بمحاكمتهم حيث ثبتت عليهم تهمة الزندقة وأعدموا مباشرة[1]، وأمر المهدي حمدويه صاحب الزنادقة بإعدام بشّار بن برد حيث، قال له: (اضربه ضرب التلف)[2].

وامتدت تحريات المهدي عن الزنادقة حتى في دور الوزراء الفرس، فقد اتهم ابن الوزير معاوية بن يسار بالزندقة، فعقد الخليفة المهدي محكمة له، وقد عجز ابن الوزير عن إثبات براءته من الزندقة فقال المهدي: هو (زنديق) فقم وتقرب إلى الله بدمه. . . فأمر به فأخرج فضربت عنقه[3]، وممن قتل في خلافة المهدي من الزنادقة علي بن يقطين، ويعقوب بن الفضل الذي حبسه المهدي، ثم قال للهادي: أقسمت عليك أن وليت هذا الأمر لتقتلنه ثم حبسه فلما مات المهدي قتله الهادي، ولما قتل يعقوب بن الفضل أدخل أولاده على الهادي، فأقرت ابنته فاطمة أنها حبلى من أبيها، فخوفت فماتت من الفزع[4]، ولم يستطع المهدي من القضاء على حركة الزنادقة بصورة نهائية فقد ترك لابنه الهادي لكي يتعقبهم.

فيقول الطبري[5] (ت ٣١٠ هـ/ ٩٢٢ م) أن المهدي قال لموسى الهادي يوماً، وقد قدم إليه زنديق، فاستتابه، فأبى أن يتوب، فضرب عنقه، وأمر بصلبه، فقال للهادي: (يا بني إن صار لك هذا الأمر، فتجرد لهذه العصابة

---

(١) الطبري: تاريخ ج ٩ ص ٣٠٥.

(٢) الأصفهاني: الأغاني ج ٣ ص ٧٣.

(٣) الفخري: ص ١٤٥ ــ ١٤٦؛ ابن الأثير: ج ٦ ص ١٤؛ المسعودي: مروج ج ٣ ص ٣١٢؛ اليوزبكي: الوزارة ص ٩٠.

(٤) ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ٨٩، طبع بيروت.

(٥) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٢٠، طبع دار المعارف؛ ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ١٠٤ ــ ١٠٥، طبع بيروت.

ـ يعني أصحاب ماني ـ فإنها فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش، والزهد في الدنيا، والعمل للآخرة ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ومس الماء الطهور، وترك قتل الهوام تحرجاً وتحوباً ثم تخرجها من هذه إلى عبادة اثنين، أحدهما النور، والآخر الظلمة، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات، والبنات والاغتسال بالبول، وسرقة الأطفال من الطريق لتنقذهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور، فارفع فيهم الخشب، وجرّد فيه السيف، وتقّرب بأمرها إلى الله لا شريك له، فإني رأيت جدك العباس في المنام قلدني سيفين، وأمرني بقتل أصحاب الاثنين[1]، وقد اشتد الخليفة الهادي في التنكيل بالزنادقة، وقتل عدداً كبيراً منهم.

ولم تكن سياسة الرشيد إزاء الزنادقة أقل عنفاً من سياسة أخيه وأبيه، فيقول الدميري (ت ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٥ م) أن البرامكة أرادت إظهار الزندقة، وفساد الملك، فأوقع بهم الرشيد فقتلهم، وذكر البغدادي[2] (ت ٤٢٩ هـ/ ١٠٣٧ م) أن البرامكة قد زينوا للرشيد أن يتخذ في جوف الكعبة (مجمرة) يتبخر عليها العود، فعلم الرشيد أنهم أرادوا من ذلك عبادة النار في الكعبة، وأن تصير الكعبة بيت نار، فكان ذلك أحد أسباب قبض الرشيد على البرامكة وقتلهم. ويقول المستشرق براون[3] (Brown): أن حادثة إيوان كسرى، ومحاولة يحي البرمكي تأجيل النوروز لمدة شهرين ليدلان على أن البرامكة كانوا لا يزالون يضمرون المجوسية، وقد حاول البرامكة تقريب الشعراء الزنادقة للإفصاح عن زندقتهم، وأجزلوا لهم العطاء، والهبات، وكانوا جميعاً من الفرس ومن الذين يوصفون بالإلحاد والتهتك والخلاعة، لإفساد الدين والقيم الأخلاقية، والمثل العليا، ولإفساد المجتمع الإسلامي[4].

فنجد مثلاً الشاعر بشار بن برد، وهو مولى فارسي يهزأ بالإسلام، وينكر

---

(١) المسعودي: مروج الذهب ج ٣ ص ٣٣٢.

(٢) البغدادي: الفرق بين الفرق ص ٢٧٠؛ الجهشياري: ص ٢٥٤.

(٣) انظر: (Brown History of Persia Literature; p. 259).

(٤) أنظر: اليوزبكي: الوزارة ص ١٠١.

البعث والحساب، ويفتن بشعره إلى حد أنه سمع جارية تغني به فيعجب ويقول: (هذا والله أحسن من سورة الحشر)[1].

ولم يكن موقف المأمون أقل حزماً من موقف أبيه الرشيد من الزنادقة فقد بلغه خبر عشرة من زنادقة البصرة يعتنقون مذهب ماني، ويقولون، بالنور والظلمة، فاستدعاهم، وسألهم عن دينهم، فأخبروه أنهم يدينون بالإسلام، ثم أخذ يختبرهم بأن أظهر لهم صورة ماني، وأمرهم أن يبصقوا عليها ويتبرأوا منها فأبوا فأمر بقتلهم[2]، وأما الطريقة الثانية التي استخدمت في مجابهة حركة الزندقة، ومقاومة الزنادقة هي: طريقة المناظرة، والإقناع، والإرشاد، والرد عليهم بتأليف الكتب والرسائل لدحض آرائهم وحججهم وأكاذيبهم فانبرى لهم المعتزلة في دحض حججهم بالمنطق والبرهان[3]، كما انبرى لهم الفقهاء، والعلماء، والأدباء المسلمون، للرد عليهم وتفنيد آرائهم الضالة[4]، فقد كوّن الهادي هيئة علمية تضم العلماء والفقهاء وغيرهم من ذوي الثقافة الواسعة لمناظرة من يقع في يدهم من رؤساء الزنادقة[5]، كما انصرفت هذه الهيئة إلى تفنيد كتب الزنادقة، وبلغ نشاط العلماء والفقهاء، ذروته في الرد على الزنادقة في عهد المأمون، فجعل رئاستها بعد واصل بن عطاء إلى القاضي يحي بن أكثم، ونبغ في البصرة أبو الهذيل العلاف الذي كان موضع تقدير الخليفة المأمون، وكان على اطلاع واسع بأساليب الزنادقة، وخدعهم الملتوية[6].

وفي عهد المعتصم اتخذ الزنادقة ــ كما أشرنا إليه في موضوع الحركات السياسية ــ أسلوب العصيان المسلح والحرب كوسيلة للعودة بالمجوسية إلى سابق عهدها وسلطانها كما في حركات بابك والمازيار والافشين، فقد قدم هؤلاء الثلاثة

---

(١) انظر: عبد الغني: صراع العرب خلال العصور ص ٢٨.
(٢) المسعودي: مروج الذهب ج ٣ ص ٣٣٢ ــ ٣٣٣.
(٣) أنظر: أحمد أمين: فجر الإسلام ص ١٣٦.
(٤) انظر: العدوي: المجتمع العربي ص ٢١٧.
(٥) المسعودي: مروج الذهب ج ٢ ص ٤٠١.
(٦) انظر: العدوي: المجتمع العربي ص ٢١٧ ــ ٢١٨.

إلى هيئة المناظرة، وحوكموا بصورة علنية بحضور الخليفة المعتصم، فقد ثبت لدى هيئة المحكمة أنهم كانوا زنادقة، وعلى دين المجوسية بدليل الأصنام، والكتب المجوسية التي عثر عليها في قصورهم، وحكم عليهم بالإعدام جزاء كفرهم وخيانتهم.

وقد أوجب المتوكل على علماء الكلام ببغداد مطاردة الزنادقة التي لم تكن آراؤها في الحقيقة سوى مزيجاً من مبادىء المجوسية والإسلام[1]، فقد استطاع الزنادقة إدخال الكثير من التعاليم المجوسية في عقائد الفرق الإسلامية كما أن هذه الفرق قبلت دخول الآراء المجوسية لجذب الفرس إليها.

ويبدو أن الكثير من التعاليم المجوسية دخلت في عقائد الخوارج وخاصة فرقة الأزارقة التي اتخذت من الأهواز مركزاً لها، وكان من أبرز زعمائها ميمون بن عمران والضحاك، فقد أباح ميمون لأتباعه زواج بنات البنات وبنات البنين، وهو ما تبيحه المجوسية، وما يرفضه الإسلام، أما الضحاك فقد أجاز للمسلمات أن يتزوجن سراً من بين قومهم من الكفار مع علمه أن الإسلام يمنع زواج المسلمة بالمشرك[2].

وتأثرت فرقة المرجئة بالمبادىء المجوسية فقد نادى الجهم بن صفوان، وهو فارسي الأصل بمبادىء غريبة عن الإسلام فقال: «إن الإيمان يعقد بالقلب، وأن الإنسان ما دام مؤمناً بقلبه فلا يضره أن يعلن غير ما يبطن أمام ضغط أو خوف (أعلن مبدأ التقية الذي آمنت به الشيعة) أي أن الجهم بن صفوان يبيح للشخص غير المسلم أن يدعي الإسلام وأن يعقد الإسلام سراً، ويعلن اعتناقه لمذهب مجوسي، وأن ذلك لا يضر ما دام مسلماً بقلبه»[3].

وتأثرت فرقة الهاشمية، والشيعة الغلاة (السبئية) بالآراء المجوسية،

---

(١) انظر: سيديو: تاريخ العرب العام ص ٢١٢.
(٢) البغدادي: الفرق بين الفرق ص ٢٦٤ ــ ٢٦٥.
(٣) انظر: الليثي: الزندقة والشعوبية ص ٥٧.

فيكشف المستشرق فان فلوتن[1]: «الصلة بين آراء الهاشمية، والآراء المجوسية» فيقول: «ولعقيدة الهاشمية أهمية كبيرة في تاريخ الشيعة فقد ساعد ما ذهب إليه من التأويل، والقول بأن لكل ظاهر باطناً على تسرب الكثير من العقائد غير الإسلامية إلى الشيعة التي انتقلت إليها عن المجوسية والمانوية والبوذية، فحاولت الزندقة التسلل إلى عقائد فرق غلاة الشيعة، فاعتنق الفرس مبادىء غلاة الشيعة، وساعد هذا على دخول العقائد الفارسية في الآراء الشيعية الغالية، ووجدوا مبادىء الشيعة التي ترى أن الخلافة من أركان الدين، والمصالح العامة، التي لا تفوض إلى نظر المسلمين، ولذلك فقد أوصى بها النبي لعلي، وأنه بناء على هذه الوصية يعتبر ولي الله، وأجدر من يتولاها[2] مما تتفق هذه الآراء ونظرة الفارسي المجوسي التي عاشوها في ظل الحكم الفارسي الذي يستند على نظرية الحق الإلهي للملوك.

ويقول المستشرق أرنولد[3]: «لعل إقبال الفرس على التشيع هو زواج الحسين بن علي من (شهبانو) إحدى بنات يزدجرد آخر أكاسرة الفرس الساسانيين، فقد رأى الفرس في أولاد الحسين منها، وارثين لملوكهم الأقدمين كما رأوا فيهم ورثة لتقاليدهم القديمة وأنهم بهذا جمعوا بين أشرف دم عربي وهو دم النبوة، وأشرف دم فارسي وهو دم الأكاسرة[4] فتسربت كثير من عقائد المجوسية إلى آراء الشيعة، واستطاع (كيسان) أن يؤلف فرقة من غلاة الشيعة عرفت باسم الكيسانية[5]، فقد نادوا بتناسخ الأرواح، وفي الرجعة (أي رجعة الإمام محمد بن الحنفية) وقالوا إنه ذهب إلى مقره في السماء، وسيعود، وقالوا: «ان الدين طاعة رجل وأن طاعته تبطل ضرورة التمسك بقواعد الإسلام كالصلاة والصوم والحج والزكاة»[6]. وأدت هذه الآراء إلى انقسام

---

(١) انظر: فان فلوتن: السيادة العربية ص ٨٢ ـ ٨٣.

(٢) انظر: أحمد أمين: فجر الإسلام ص ٢٧٦.

(٣) انظر: أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص ١٨١.

(٤) (Browun, History of Persia Literature p. 120).

(٥) الشهرستاني: الملل والنحل ج ١ ص ١٩٦.

(٦) المصدر السابق ج ١ ص ١٩٦.

الشيعة إلى عدة فرق: كالسبئية، والإمامية، والكيسانية، والزيدية[1].

بقي هؤلاء الفرس الزنادقة يتمسكون بتراثهم الديني المجوسي، ويتسترون باسم الإسلام، ولا يكشفون إلا طرفاً من آرائهم المغالية في الإمامية، ولكن بعضهم أخذ يكشف عن أغراضه مثل المنيرية والمنصورية، بل وأخذ يرتكب بعضهم أعمال العنف[2].

وقد تأثر الدعاة العباسيون بالآراء المجوسية عن طريق الدعاة الفرس وكان من أبرز دعاتهم خداش، فيذكر المستشرق فلهاوزن[3]: الصلة بين الدعوة العباسية وبين عقائد الزندقة والمجوسية فيقول: إن الخرمية، والراوندية قد جددت الدعوة إلى الشيوعية في النساء، وهي الشيوعية التي كان مزدك قد دعا إليها من قبل، وعلى هذا فإنه مما يمكن تصديقه كل التصديق أن يكون خداش لم يحارب هذا الاتجاه الشيوعي، بل أن يكون قد أيده، واستفاد منه.

ويعتبر المستشرق فان فلوتن[4]: خداش هذا ثالث الدعاة، ويرى أن اسمه مشتق من (خدش) أي مزق بأظافره، وإنما سمّي بذلك كناية تمزيقه الدين، ويذكر أنه كان مسيحياً، ثم أسلم واشتغل بتدريس القرآن ثم انضم إلى الدعوة العباسية.

ويقول الطبري[5]: (ت ٣١٠هـ / ٩٢٢م) وقد اتبع بعض النقباء خداشاً حين جهر بالدعوة إلى مذهب الخرمية في الوقت الذي ثار فيه السواد الأعظم منهم على هذا المذهب.

---

(١) انظر: فيليب حتى: تاريخ العرب ج ٢ ص ٢١٧.
(٢) انظر: الدوري: الجذور التاريخية للشعوبية ص ٣٥.
(٣) أنظر: فلهاوزن: الدولة العربية ص ٤٨٨.
(٤) انظر: فلوتن: السيادة العربية ص ٩٨.
(٥) الطبري: تاريخ ج ٢ ص ١٩٤؛ السامرائي: الفرق الغالبة في الدولة العباسية.

لهذا لا نعجب إذ أصبح الخليفة العباسي يعيش عيشة الأكاسرة، كما أصبحت الدولة العباسية تدار بنفس الأسلوب التي كانت تدار أيام الدولة الساسانية[1].

ولم تكن بعض الفرق الإسلامية قد تأثرت بالآراء والعقائد المجوسية فقط، بل تسربت إليها عقائد، وآراء اليهود وغيرهم أيضاً. فيقول ابن الأثير[2] (٦٣٠ / ١٢٣٢ م) «كان أحمد بن أبي داود داعية إلى القول بخلق القرآن وغيره من مذاهب المعتزلة، وأخذ ذلك عن بشر المريس، وأخذ بشر عن الجهم بن صفوان، وأخذه الجهم عن الجعد بن درهم، وأخذه الجعد عن أبان بن سمعان، وأخذه أبان عن طالوت بن أخت لبيد بن الأعسم وختنه، وأخذه طالوت عن ختنة لبيد بن الأعسم اليهودي، وكان لبيد يقول بخلق التوراة، وأول من صنف في ذلك طالوت وكان زنديقاً فأفش الزندقة».

وتأثر المسلمون بآراء اليهود في التناسخ، والتشبيه فقد جوز جمهور من المسلمين النسخ في القرآن (نسخ الحكم دون النص)، كما جوزوا التشبيه، فاستندوا في ذلك إلى بعض الآيات القرآنية ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾ و ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ و ﴿الرحمن على العرش استوى﴾. فأجاز بعض الشيعة القول على الله بالاستواء، والاستقرار، والنزول، والصعود والانتقال.

وتأثر الشيعة بعقائد اليهودية في الرجعة، فروى ابن حزم (ت ٤٥٦هـ / ١٠٦٣ م) أن عبد الله بن سبأ قال: «بعد مقتل علي بن أبي طالب، لو أتيتمونا بدماغه ألف مرة ما صدقنا موته، ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً» وقد رسخت هذه العقائد لدى الشيعة، وأخذت الفكرة تنتقل مع الأئمة حتى قالوا: «بالمهدي المنتظر الذي سيرجع ويملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً»[3].

---

(١) انظر: حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ج ٢ ص ٢٢١.

(٢) ابن الأثير: الكامل ج ٧ ص ٢٦.

(٣) انظر: أحمد أمين: ضحى الاسلام ج ١ ص ١٤٩ ــ ١٥٠.

وعمد الزنادقة إلى إنكار الأديان إحياء لعقائدهم المجوسية، فأنكروا الوحي، وقالوا: «ان العقل الإنساني هو حلقة الوصل بين المرء، وربه داعين بذلك إلى هدم مكانة الأنبياء ورسالتهم في وقت واحد»[1].

وإلى جانب حركة الزندقة، كانت هناك حركة أخرى متممة لها تحمل نفس الأهداف والغايات هي: (الحركة الشعوبية) وهي حركة سياسية دينية عنصرية ثقافية، ظاهرها المطالبة بنزعة المساواة معتمدة على آيات من القرآن مثل: ﴿يا أيهّا الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ وعلى أحاديث نبوية مثل «ليس لعربي على أعجمي فضل إلا بالتقوى» وباطن هذه الحركة إزالة السلطان العربي والدين الإسلامي، وإعادة مجد الأمبراطورية الفارسية ودينها المجوسي[2]، واعتقدوا أنهم بهذه الوسيلة يمكنهم الوصول إلى مآربهم دون أن يثيروا حولهم الريبة والشكوك[3].

ويصف الدوري[4]: «الشعوبية بأنها حركة ثقافية اجتماعية قام بها الفرس، وقد حاولوا نقل التراث الفارسي إلى المجتمع العربي الإسلامي ساعين إلى طبع المجتمع العربي بطابعهم الحضاري القديم، فعملوا على التقليل من شأن العرب والحط من ثقافتهم التي ازدهرت بالإسلام، وبالدعوة إلى نبذها، وقد ساهم بالحركة الشعوبية الأدباء والشعراء وكتاب الدواوين.

وقد بدأت الحركة الشعوبية في أواخر العصر الأموي، واندفعت بقوة في العصر العباسي بدافع عنصري أوضحه الدوري[5] بقوله: «إنها تمثل جانباً من

---

(١) انظر: العدوي: المجتمع العربي ص ١٩٥.
(٢) انظر: اليوزبكي: الوزارة ص ١١٣.
(٣) انظر: العدوي: المجتمع العربي ص ١٢.
(٤) انظر: الدوري: مقدمة في التاريخ الاقتصادي ص ٦٤.
(٥) انظر: الدوري: الجذور التاريخية للشعوبية ص ٩.

محاولات شعوب غير عربية لضرب السلطان العربي عن طريق الفكرة والعقيدة الذي انكشف في الصراع الديني والثقافي الواسع».

فحاولت الشعوبية التغلغل السياسي داخل الدولة الأموية بحجة تأييدهم للبيت الأموي، وادعائهم بتبعية آل مروان، وكان من أبرز هؤلاء اسماعيل بن يسار الذي كان يفخر أمام خلفاء بني أمية بمروانيته، وقيل: إن أحد أصحابه قال له يوماً: ويلك يا اسماعيل أيّ مروانية تفخر بها لنفسك ولأبيك؟ فقال: «إن مروانيتي هي بغضي لهم، امرأتي طالق إن لم تكن أمي تلعن مروان وآله كل يوم مكان التسبيح، وإذا حضر أبي الموت وقيل له: «قل لا إله إلا الله»، لقال: «لعن الله مروان تقرباً بذلك إلى الله تعالى»، وأيد الإله من التوحيد[1]، وقد كشف اسماعيل بن يسار عن شعوبيته، ومجوسيته في القصيدة التي ألقاها في حضرة الخليفة هشام حيث فخر بمجد الفرس فقال:

أصلي كريم ومجدي لا يقاس به	ولي لسان كحد السيف مسموم
من مثل كسرى وسابور الجنود معاً	والهرمزان لفخر أو لتعظيم
أسد الكتائب يوم الروع إن زحفوا	وهم أذلوا ملوك الترك والروم
هناك إن تسألني تنبىء بأن لنا	جرثومة قهرت عز الجراثيم

فغضب الخليفة هشام لهذا التعريض بالعرب، والتفاخر بملوك الفرس، فزجره الخليفة قائلاً: «لإسماعيل إياي تنشد قصيدة تمدح بها نفسك وقومك»، فأمر الخليفة هشام بأن يغطسوه في الماء، فدفعوه في بركة بالقصر حتى كادت نفسه تخرج، واكتفى الخليفة له بهذا العقاب[2].

ولم يدع الفرس من الشعوبيين فرصة إلا انتهزوها، فساهموا بكل ثورة مسلحة أو حركة سياسية للقضاء على الحكم الأموي، فانضووا تحت لواء ثورة عبد الله بن معاوية بن عبد الملك بن جعفر بن أبي طالب، وكانت من أقوى

---

(١) الأصفهاني: **الأغاني** ج ٤ ص ١٢٠.

(٢) نفس المصدر السابق.

الثورات الشيعية في أواخر العصر الأموي، ودعموها، فانتشرت في العراق إلى همدان وقومس وأصبهان والري وفارس [1].

ولما ظهرت الدعوة العباسية انخرطوا فيها لأنها كانت تدعو إلى المساواة وتظاهرت بالتسوية، ولما قامت الدولة العباسية لم يجد العباسيون بداً من إشراك الفرس في السلطة اعترافاً بفضل الفرس عليهم، وكان له أثره الكبير في فسح المجال لهم بإبعاد العرب عن المراكز السياسية والعسكرية والإدارية البارزة وإحلال الفرس محلهم، ويبدو أن هذا الاتجاه كان نتيجة ميل معظم الوزراء العباسيين إلى إعادة السلطان الفارسي [2].

ولم يكتف الفرس بما أحرزوه من مكانة كبيرة في الدولة العباسية، بل كشفوا عن شعوبيتهم، وراحوا يهاجمون العرب، ويركزون على تشويه تاريخهم، وأدبهم، ويتهمونهم بالبربرية قبل الإسلام، وبالبداوة بعده، ويفضلون الشعوب الأخرى عليهم، ويمجدون ثقافتهم على حساب الثقافة العربية الإسلامية [3]

ولقد نشطت الحركة الشعوبية في العراق في العصر العباسي باعتباره مقر الخلافة العباسية، ولقربه من بلاد فارس مصدر دعاة الشعوبية والزندقة، وقد اتخذت الحركة الشعوبية اتجاهات متعددة منها: سياسية بالدعوة إلى إزالة السلطان العربي، وإحياء المجد الفارسي، عن طريق إضعاف الدولة العباسية بتشجيع الحركات الثورية ضد الدولة.

وقد اقتفى آثار البرامكة والفضل بن سهل وزير المأمون سياسة تكتيل العناصر الفارسية، وإبعاد العرب عن المناصب الخطيرة في الدولة تمهيداً لتحويلها إلى فارسية مجوسية، وقد وضح نعيم بن خازم سياسة الفضل بن سهل الشعوبية حينما استشاره المأمون في أمر البيعة لعلي الرضا قائلاً: «إنك إنما تريد

---

(١) انظر: الليثي: الزندقة والشعوبية ص ٥٤.

(٢) انظر: اليوزبكي: الوزارة، نشأتها وتطورها ص ٣١.

(٣) انظر: الدوري: مقدمة في التاريخ الاقتصادي ص ٦٤.

أن تزيل الملك عن بني العباس إلى آل علي ثم تحتال عليهم فتصير الملك كسروياً، ولو أنك أردت ذلك لما عدلت عن لبسة علي وولده، وهي البياض إلى الخضرة وهي لباس كسرى والمجوس»[1].

وقد عبر سنباذ المجوسي عن نوايا الفرس الشعوبية وخططهم السياسية حين بشر أصحابه عن عزمه على الذهاب إلى الحجاز وهدم الكعبة[2] ودعت الشعوبية إلى المجوسية ومحاربة الإسلام الذي هو دين العرب، فأعلن اسحاق الترك «أنه نبي أنفذه زرادشت» وأنه يخرج حتى يقيم الدين لهم[3] وشرع المقنع لأتباعه جميع ما أتى به مزدك[4]، وتقول زوجة جاوبدان سلف بابك الخرمي: «إن بابك سوف يرد المزدكية»[5]، ويرى المقريزي (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) أن حركة بابك والثورات الدينية الإيرانية كانت مدفوعة بالحقد على الإسلام وأنها ترمي إلى كيد الإسلام بالمحاربة[6].

ويقول المسعودي[7]: (ت ٣٤٦هـ / ٩٥٧م) ان المازيار أقر على الأفشين أنه بعثه على الخروج والعصيان لمذهب كانوا قد أجمعوا عليه، ودين اتفقوا عليه من مذاهب الثنوية والمجوس وجاء في رسالة من أخي بابك الخرمي إلى أخي المازيار بيان كيفية القضاء على العرب حتى يعود الدين إلى ما كان عليه أيام العجم[8].

واتجهت الشعوبية إلى الهجوم على الإسلام، والحط من القرآن الكريم، فالأعاجم الذين يصعب على أكثرهم أن يتفهموا القرآن، ويتدبروه، فقالوا: «إنه غير منظم، ولا مبوب، وإنه محتذى ومنقول، وأنه زيف مدخول، وأنه غير بليغ

---

(١) الجهشياري: ص ٣١٣.
(٢) انظر: الدوري: **العصر العباسي الأول** ص ٨٦.
(٣) ابن النديم: **الفهرست** ص ٤٨٣.
(٤) البيروني: **الآثار الباقية** ص ٢١١.
(٥) المسعودي: **مروج الذهب** ج ٤ ص ٩.
(٦) المقريزي: **الخطط**، ص ١٩٠ ــ ١٩١.
(٧) المسعودي: **مروج الذهب**، ص ١٦ ج ٤.
(٨) الطبري: **تاريخ** ج ١٠ ص ٣٦٧؛ المسعودي: **التنبيه والاشراف** ص ٣٠٦.

ولا فصيح»، وبلغت القحة ببعضهم أن قالوا: إن فيه أغلاطاً نحوية، وركاكات بيانية[1] هذا القرآن أبلغ كتاب للعرب، ولولاه لما كان لهم شريعة، ولا عقيدة ولا نظام (كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً) عجز فصحاء العرب عن الإتيان بمثله.

كما حاولت الشعوبية تزييف الأحاديث النبوية فقد وضعوا أحاديث كثيرة في فضل الفرس، وأسندوها إلى الثقات من الصحابة، والتابعين فمثلاً في حديث نسب للرسول: «لا تسبوا فارسياً فما سبه أحد إلا انتقم منه عاجلاً أو آجلاً»، وزعموا أن الرسول قال: «لو كان العلم معلقاً عند الثريا لتناوله رجل من فارس»[2].

وحاولوا أيضاً تشويه الفقه الإسلامي عن طريق دس الأحكام الزائفة أو التي تثير القلق، وتفسد الأحكام الدينية مستهدفين التفرقة بين أحكام المسلمين[3]، وإظهار أحكامهم بالتناقض والهزال لا يقبلها الدين ولا العقل والمنطق.

وأسفرت الدعوة الشعوبية عن وجهها القبيح بالدعوة إلى تمجيد الفرس وكل ما هو فارسي، وتحقير العرب، وكل ما هو عربي، فأخذوا بمهاجمة الفضائل العربية، وعملوا على تفسخ القيم الخلقية العربية والإسلامية، فأكثروا من المجون والخلاعة والشراب، وجاهروا بالخلاعة، والانحراف الجنسي، واعتبروا ذلك نوعاً من التحرر، ومثلاً في الظرف[4]، وقد أشار صاحب الأغاني (ت ٣٥٦هـ / ٩٦٦م) إلى قصص غريبة عن تحللهم الخلقي والديني، وعن دورهم في إفساد الدين والأخلاق[5]، فقد كان عبد الكريم بن أبي العوجاء

---

(١) أنظر: كرد علي: **الإسلام والحضارة العربية** ص ٦٩.
(٢) انظر: الليثي: **الزندقة والشعوبية** ص ١٨١.
(٣) انظر: المصدر السابق ص ١٨٢.
(٤) انظر: اليوزبكي: **الوزارة، نشأتها وتطورها** ص ١١٤.
(٥) الأغاني: ج ٣ ص ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤ ج ١٢ ص ٧٦، ٩٥، ٩٦، ١٠٠، ١٠٢.

يفسد الحدث، ويستنزله ويدخله في دينه[1]، ويقول عنه البغدادي[2]: (ت ٤٢٩هـ / ١٠٣٧م) أنه كان مانوياً يؤمن بالتناسخ، ويميل إلى مذهب الرافضة، ويقول: بالقدر، ويتخذ من شرح سيرة ماني وسيلة للدعوة وتشكيك الناس في عقائدهم، ويتحدث في التعديل والتجويد. وممن دعا إلى نشر الخلاعة والمجون بين صفوف المجتمع عن طريق التغزل بالنساء والمذكر والخمرة الشاعر أبو نؤاس، فقد حث الناس على شربها، ودعا إلى الإباحية، وإلى السخرية من الدين[3]، فقال في الدعوة إلى شرب الخمر:

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر ... ولا تسقني سراً إذا أمكن الجهر

وقال أيضاً:

فإن قالوا حرام قل حرام ... ولكن اللذاذة في الحرام

وقال في التهتك والإلحاد:

يا ناظر في الدين ما الأمر ... لا قدر صح ولا جبر

ما صح عندي من جميع الذي ... تذكر إلا الموت والقبر

وكانت لهذه الدعوات التي أثارها أثر كبير في انتشار أندية اللهو والمجون في الكوفة والبصرة وبغداد يسخرون فيها من الديانات، والأخلاق، والتقاليد الاجتماعية التي تحظر عليهم لهوهم[4].

وراح الشعوبيون يؤلفون الكتب والرسائل، ويصنفون المسامرات والخطب ينتقصون فيها من قدر العرب، وحضارتهم، وتاريخهم، فراجت

---

(١) الأصفهاني: الأغاني ج٣ ص١٤٧.
(٢) البغدادي: الفرق بين الفرق ص٣٤٩.
(٣) انظر: الليثي: الزندقة والشعوبية ص١٨٦.
(٤) الأصفهاني: الأغاني ج٥ ص١٦٦.

عندهم أسواق الهجاء والمديح، ورد العرب على العجم برفق لئلا ينفروهم، وكانوا يرمون إلى تأليف القلوب لا إلى تمزيقها شأنهم شأن الأمم العالقة التي ترمي أبداً إلى تكثير سوادها، وجمع القلوب على حبها، فتتحاشى العبث بمقدسات الناس، وتحفظ لهم حرمتهم وكرامتهم[1]، ولم يكتف الشعوبيون بهذا، وإنما نظروا إلى ماضي الأمم، ومقارنتها بما في الأمة العربية قبل الإسلام فقالوا: «لكل أمة في ماضيها ميزة، فالرومان تفخر باتساع سلطانها، وكثرة مدنها، وعظمة مدنيتها، والهند تفخر بحكمتها وطبها... والصين تزهو بصناعتها وفنونها الجميلة على حين لا يوجد للعرب قبل الإسلام شيء تمتاز به»[2] متجاهلين ما للعرب من أدب رفيع، وحكم بليغة، وخلال حميدة سامية، وشجاعة نادرة ومثل عليا.

وبذل الكتاب، والأدباء من الشعوبيين كل سبيل لبعث الثقافة الفارسية مع تقليل شأن الثقافة العربية الإسلامية، واتخذوا في ذلك سبلاً متعددة منها نشاط حركة الترجمة عن الفارسية في موضوعات الأدب والتاريخ والدين، والعادات والتقاليد والنظم، فترجموا (خداينامة) أو سير ملوك الفرس، وكتاباً (آيين نامة) أو المراسيم والتقاليد الساسانية، وكتاب (مزدك) ويتضمن عقائد المجوسية وأخلاقيتهم التي لا تتفق والمفاهيم الإسلامية، ترجمة ابن المقفع كما ترجم (كتاب التاج) في سيرة أنو شروان، وكتاب (كليلة ودمنة) وأضاف إليه باباً للترويج للمانوية[3]، ومن الكتب المترجمة أيضاً كتب سير الفرس المعروف بـ (اختيار نـامة) نقله اسحق بن يزيد[4]، كما ترجمت كثير من الكتب الدينية المانوية وغيرها إلى العربية التي أشار إليها ابن النديم والمسعودي[5].

وألفوا الكتب الكثيرة في مناقب العجم، وأبرزوا فيها مثالب العرب، ومن

---

(١) انظر: كرد علي: **الإسلام والحضارة العربية** ج ١ ص ٣٥.
(٢) انظر: العدوي: **المجتمع العربي** ص ١٤.
(٣) انظر: الدوري: **الجذور التاريخية للشعوبية** ص ٦٦.
(٤) ابن النديم: **الفهرست** ص ١٧٢، ص ٢٣٢، ص ٣٤٢.
(٥) ابن النديم: ص ١٧٣؛ المسعودي: مروج الذهب ج ٧ ص ٣٩٢، طبع باريس.

هذه الكتب (انتصاف العجم من العرب) وكتاب (فضل العجم على العرب وافتخارها)[1]. ومن الكتب التي وضعت لإظهار مثالب العرب كتاب (المثالب الكبير)، وكتاب (مثالب ربيعة)، وكتاب (أسماء بغايا قريش في الجاهلية وأسماء من ولدن)، وكان من أبرز هؤلاء الكتاب سهل بن هرون صاحب بيت الحكمة في عهد المأمون الذي ألف رسالة في البخل، واعتبر فيها الكرم رذيلة والبخل فضيلة[2].

وقد هاجموا بهذه الكتب القيم العربية والخلقية، والمثل العليا، كالكرم والوفاء، والمروءة، والفروسية، وحاولوا بذلك أن يحولوا المأثرة إلى منقصة، وأن يجعلوا الكرم والبذل مذمة[3] ويقول الدوري[4] أيضاً: «ولم يكتف الكتاب بالترجمة، بل انهم وضعوا أشياء كثيرة نسبوها إلى الفرس القدماء ليضفوا عليهم صفة الأمجاد مما يساعد على إحياء الوعي الايراني، والتقليل من شأن الحضارة العربية الإسلامية.

ثم حاول الكتاب الفرس أن يحيوا التقاليد الفارسية في الإدارة والسياسة كما فعل الفضل بن سهل (حيث كان يجلس على كرسي مجنح، ويحمل فيه إذا أراد الدخول على المأمون، فإذا وقعت عين المأمون عليه، وضع الكرسي ونزل عنه فمشى، وحمل الكرسي حتى يوقع بين يدي المأمون ثم يسلم ذو الرياستين ويعود يقعد عليه، وإنما ذهب ذو الرياستين في ذلك مذهب الأكاسرة، ولعل الجناحين يمثلان أجنحة أهورا مزدا إله الخير عند الزرادشتية)[5].

وقد سعى الكتاب الفرس من الشعوبيين إلى الترويج لدراسة الثقافة الفارسية وقد أشار الجاحظ (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٨م) إلى سبلهم في ذلك بقوله:

---

(١) ابن النديم: **الفهرست** ص ١٢٣.
(٢) ابن النديم: **الفهرست** ص ١٩٤؛ ياقوت: **معجم الأدباء** ج ١٢ ص ٢٢٦.
(٣) انظر: الدوري: **الجذور التاريخية للشعوبية** ص ١١١.
(٤) انظر: المصدر السابق ص ٦٦.
(٥) الجهشياري: ص ٣١٦.

«والناشيء منهم إذا وطىء مقعد الرئاسة روي لبزرجمهر أمثاله، ولأردشير عهده، ولعبد الحميد رسائله، ولابن المقفع أدبه، وصير كتاب مزدك معدن علمه، ودفتر كلية ودمنة كنز حكمته، ثم يكون أول بدوه الطعن على القرآن في تأليفه والقضاء عليه بتناقضه..»[1].

وهاجمت الشعوبية التاريخ العربي، واللغة العربية لأنهم يدركون أنها أساس الثقافة العربية، وأنها ليست فقط لغة العلم والأدب والثقافة وإنما هي لغة الدين والسياسة.

ومع ذلك فقد استطاعت الحركة الشعوبية أن تنقل بعضاً من تراثها اللغوي إلى العربية، فاقتبست العربية منها بعض الكلمات، وكانت عامة أهل العراق تستخف هذه اللغة[2] فانتشرت اللغة الفارسية بين العرب في العراق مع فشو اللحن، فكان عبيد الله بن زياد والي العراق ممن اشتهر بلكنة فارسية[3]، وأدى تفشي اللحن عند العرب إلى استئذان أبي الأسود الدؤلي من زياد بن أبيه في وضع علم النحو[4]، وكان من أثر ذلك أن انغمر الأدب العربي بالحكم الفارسية، والقصص والخيال الفارسي[5] بفعل الترجمة والنقل إلى العربية.

واستمرت الحركة الشعوبية في العراق تقوى وتشتد تبعاً لقوة الدولة وضعفها، فكانت كالنار التي تحت الرماد، تظهر متى هبت عليها الأعاصير، أو متى ما وجدت لها متنفساً، بأبشع صورة، وأخطر أسلوب، وما زال العراق حتى اليوم يعاني المتاعب من جرّاء الحركة الشعوبية.

□ □ □

---

(١) الجاحظ: ثلاث رسائل ص ٤٢.
(٢) الجاحظ: البيان والتبيين ج ١ ص ١١.
(٣) الجاحظ: البيان والتبيين ج ١ ص ١١.
(٤) الأصفهاني: الأغاني ج ١١ ص ١٠٢.
(٥) انظر: أحمد أمين: فجر الإسلام ص ١٢١.

الباب الخامس

الحياة الاجتماعية والعقلية والاقتصادية لأهل الذمة في العراق

الفصل الأول:

الحياة الاجتماعية لأهل الذمة (التقاليد والعادات)

الفصل الثاني:

دور أهل الذمة في العلوم والآداب والفنون.

الفصل الثالث:

الحياة الاقتصادية لأهل الذمة.

الفصل الأول

الحياة الاجتماعية لأهل الذمة
«التقاليد والعادات»

بدأت الفتوحات الإسلامية منذ عهد الخليفة أبي بكر، واستمرت في التوسع في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، حيث تم فتح العراق، وفارس، والشام، ومصر. وتابع خلفاء بني أمية نهج الخليفة عمر بن الخطاب في توسيع الفتوحات الإسلامية، وبلغت ذروتها في العصر الأموي فاستطاعوا أن يكوّنوا امبراطورية عربية إسلامية امتدت بين الصين والأندلس. فأصبح المجتمع الجديد في العراق خاصة بعد الفتح الإسلامي يتكون من مزيج من القوميات، والأديان، والطبقات الاجتماعية، فمنهم العرب وهم الفاتحون، ومنهم أهل الذمة، وهم أهل البلاد المفتوحة وهم يتكونون من اليهود والنصارى والمجوس والصابئة، وقد منحهم الإسلام التسامح الديني، وأوصى الخلفاء الراشدون بوجوب الرفق بأهل الذمة، وحسن معاملتهم، والتزام العدل معهم ولنا في أقوال الرسول والخلفاء الراشدين، وفي وصاياهم، وفي عهود القواد والأمراء لأهل الذمة خير ما يعزز رأينا[1].

وكان أغلب الخلفاء الأمويين والعباسيون على جانب عظيم من التسامح الديني مع أهل الذمة، وبلغ ببعض خلفاء بني العباس أنه كان يحضر أعيادهم

---

(١) الماوردي: **الأحكام** ص١٣٧، ص١٤٣؛ ابن القيم: **أحكام** ص ٣٤؛ أبو يوسف: **الخراج** ص ١٢٥؛ أبوعبيدة: **الأموال** ص ٤٤.

الدينية ومواكبهم ويزور دياراتهم، ويتخذ من رؤسائهم وزعمائهم حاشية له. وقد اتبع المسلمون سياسة التعايش الديني والاجتماعي مع أهل الذمة فقد تركوا لهم تقاليدهم وعاداتهم الاجتماعية والدينية، فتوطدت بسبب ذلك أواصر التعاون والانسجام بين المسلمين، وأهل الذمة لدرجة لم تكن أحياء المسلمين معزولة عن أحياء اليهود والنصارى، والمجوس، والصابئة، ولكن أصحاب كل دين كانوا يفضلون حسب الإمكان أن يعيشوا متجاورين مع بعضهم البعض، وبالقرب من المسلمين، وكانت الأديرة، والكنائس والمعابد، والهياكل منتشرة في أحياء المدن الإسلامية، وكان موتى المسلمين، وأهل الذمة يدفنون كل على حدة وفق المراسيم والشعائر الدينية لكل دين[1].

ومما زاد في ترابط المجتمع العراقي التزاوج بالذميات، فيقول: الراوي[2]: لقد لعبت عملية الزواج بين العرب بالأعجميات، والكتابيات من أهل العراق دورها المهم في تغيير الوضعية الاجتماعية للمجتمع العراقي منذ صدر الفتوحات الإسلامية في العراق. وبدأ القواد، ورجال الجيش بالزواج بالذميات، فذكر الطبري (ت ٣١٠ هـ/ ٩٢٢م): قول ابن الزبير: «شهدت القادسية مع سعد فتزوجنا نساء من أهل الكتاب، ونحن لا نجد مسلمات، فلما قفلنا فمنا من طلق، ومنا من أمسك[3]، وكان لهذا الزواج بالذميات أثره الكبير في الاختلاط والاندماج بين العنصر العربي، والعناصر الأخرى، فظهر جيل جديد يحمل الدم العربي والذمي معاً بل يحمل خصائص وصفات الأمم المختلفة المتكون منها»[4]، وفي ذلك يقول دينار الفارسي: «يا معشر أهل الكوفة أنتم أول من سررتم بنا، كنتم خيار الناس فعمرتم لذلك زمان عمر وعثمان ثم تغيرت وفشت فيكم خصال أربعة: بخل، وخب، وغدر، وضيق، ولم يكن

(١) انظر: الخربوطلي: الإسلام وأهل الذمة ص ١٢٢.
(٢) انظر: الراوي: العراق في العصر الأموي ص ١٢٥.
(٣) الطبري: تاريخ ج ٤ ص ١٤٧.
(٤) انظر: الراوي: العراق في العصر الأموي ص ١٢٦.

فيكم واحدة منهن فرمقتكم فإذ ذاك في مولديكم فعلمت من أين أتيتم، فإذا الخب من قبل النبط، والبخل من قبل فارس، والغدر من قبل خراسان، والضيق من قبل الأهواز»[1].

وهذا يوضح لنا مدى تأثير الزواج والاختلاط في أخلاق، وصفات الشعوب المتصاهرة، وقد انعكس بصورة فعلية عليها صفات العربي وأخلاقه. ومع ذلك لم تكن علاقات الزواج بين المسلمين، وأهل الذمة على درجة كبيرة من السعة، وذلك لأن الدين المسيحي واليهودي وغيره من الأديان لم تجز للمرأة المسيحية أو اليهودية أن تتزوج بغير مسيحي أو يهودي لئلا تتحول هي وأولادها إلى غير دينها، وكان أيضاً لا يجوز للمسيحي بحسب قانون الكنيسة أن يتزوج بغير مسيحية إلا إذا دخلت هي وأولادها النصرانية، ويستحيل على المسلمة الزواج من غير مسلم[2].

وبالنسبة لزواج المسلم من مجوسية أو صابئية فكانت محرمة عليه لأن أغلب الفقهاء لم يعتبروهم من أهل الكتاب لأنهم ليسوا من أصحاب الكتب المنزلة، وإنما عوملوا في الجزية والخراج معاملة أهل الكتاب.

وتبدو أن العلاقة الطيبة بين المسلمين وأهل الذمة والانسجام، والتعاون بينهم في مختلف مجالات الحياة كان له أثره الحسن في إزالة الفوارق الاجتماعية بينهم، وقد روى لنا الجاحظ[3]: (ت ٢٢٥ هـ/ ٨٦٨ م) مقاطع من قصائد لبعض الشعراء مدحوا فيها اليهود والنصارى والمجوس لحسن معاملتهم وصداقتهم، فمما قاله أبو صالح مسعود بن قنديل الفزاري في ناس خالطهم من اليهود:

---

(١) الطبري: تاريخ ج ٤ ص ٢٤٥.

(٢) انظر: الخربوطلي: الإسلام وأهل الذمة ص ٨٨.

(٣) الجاحظ: الحيوان ج ٥ ص ٥٢.

وجدنا في اليهود رجال صدق | على ما كان من دين مريب
لعمرك أنني وابن عريض | لمثل الماء خالطه الحليب
خليلان اكتسبتهما وأني | لخله ماجد أبد كسوب

وقال أبو الطحان الأسدي: وكان نديماً لناس من بني الحداء وكانوا نصارى فأحمد ندامتهم، فقال:

كأن لم يكن في القصر قصر مقاتل | وزورة ظل ناعم وصديق
ولم أرد البطحاء أمزج مائه | بخمر من البروقتين عتيق
معي كل فضفاض الثياب كأنه | إذا ماجدى فيه المرام فتيق
بنوا الصلب والحداء كل سميدع | له في العروف الصالحات عروق
وأني وان كانوا نصارى أحبهم | ويرتاح قلبي نحوهم ويتوق

وقال ابن عبدل أو غيره في مجوس ساق عنه صداقاً، فقال:

شهدت عليك بطيب المشا | ش وإنك بحر جواد خضم
وإنك سيد أهل الجحيم | إذا ماترديت فيمن ظلم
نظير لهامان في قصرها | وفرعون والمكتني بالحكم
كفاني المجوس مهر الربا | ب فدا للمجوس خال وعم

وقد كان للتعاليم الإسلامية أثر مهم في ترصين العلاقات الاجتماعية بين المسلمين وأهل الذمة، فقد سمح الإسلام للمسلم الزواج من أهل الكتاب، ودون أن تجبر الزوجة على ترك دينها والدخول في الإسلام، وحافظ الإسلام على الوجود الديني لطوائف أهل الذمة، ورسم لهم العلاقات الاجتماعية، فلم يسمح للمسيحي أن يتهود، ولا لليهودي أن يتنصر، واقتصر التغيير في الدين على الدخول في الإسلام[1]، كما لم يسمح الإسلام للمسيحي أن يرث

(١) انظر: متز: الحضارة الإسلامية ج ١ ص ٤٦ ــ ٤٧.

اليهودي، ولا اليهودي أن يرث المسيحي، كما لم يكن النصراني أو اليهودي يرث المسلم ولا المسلم يرث غير المسلم، استناداً إلى الأثر الثابت عن الرسول، إذ قال: «لا يتوارث أهل ملتين»[1] ومن مات دون وارث ترد تركته على أهل دينه.

وقد ترك الإسلام لأهل الذمة الرجوع إلى قضائهم في المسائل الشرعية التي تخصهم، أما المسائل التي يشترك فيها المسلم والذمي فقد كان القضاة المسلمون ينظرون فيها، وإذا احتكم أهل الذمة إلى القاضي المسلم أجرى عليهم بحسب حكم الشرع الإسلامي[2] وهذا الإجراء كان له أثره الحسن في حمل أهل الذمة على الشعور بروح التسامح الإسلامي، والانسجام بين طوائف المجتمع الإسلامي.

وقد أعطى الحكام المسلمون لأهل الذمة الحريات والحقوق العامة، وسمح لهم بممارستها كالمسلمين، مما أدى إلى عدم شعورهم بالتباين الاجتماعي بينهم وبين المسلمين، فقد سمح لهم بممارسة حرية الرأي، والاجتماع، وفي حرية اختيار رؤسائهم، وفي مزاولتهم المهن، والأعمال التجارية، والوظائف الحكومية المختلفة مستندين إلى أقوال الرسول فيهم «... فأعلمهم أن لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين»[3] وفي قول علي بن أبي طالب «إنما قبلوا عقد الذمة ليكون أموالهم كأموالنا ودماؤهم كدمائنا»[4] ومعنى ذلك مساواتهم بالمسلمين في حرمة الدماء، والأموال، فكانت دية الذمي تساوي دية المسلم.

وأجاز الإسلام مشاركة المسلم للذمي والعمل معه على أن يلي المسلم البيع والشراء، وذلك لأنهم يأكلون الربا[5] وسمح للذمي ممارسة البيع والشراء

(١) رسائل الصابىء: مخطوط رقم ٧٦٦ بمكتبة ليدن. ص ١٢١١ ب نقلاً عن حاشية (١) من كتاب متز: تاريخ الحضارة الإسلامية ج ١ ص ٤٦.
(٢) انظر: الخربوطلي: الإسلام وأهل الذمة ص ٩٠.
(٣) الكاساني: بدائع الضائع ج ٧ ص ١٠٠.
(٤) السرخسي: الحنفي: شرح السير الكبير ج ٣ ص ٢٥٠.
(٥) ابن القيم الجوزية: أحكام أهل الذمة في الإسلام ص ٢٦٩.

لأي نوع من السلع حتى سمحوا لهم تجارة الخمور وشربها[1] فاستثنى الفقهاء والحكام المسلمين أهل الذمة من عقوبة شرب الخمر، وأكل لحم الخنزير لأنهم لا يؤمنون بحرمتها[2]. وأجيز لهم تولي الوظائف العليا في الدولة، فيقول الماوردي (ت ٤٥٠ هـ/ ١٠٥٨ م) وأبويعلي (ت ٤٥٨ هـ/ ١٠٦٦ م) (يجوز للخليفة أن يولي وزارة التنفيذ لأهل الذمة)[3].

وتسري على أهل الذمة، أحكام اقتناء العبيد، فسمح للذمي شراء أي جنس من العبيد يقع عليه اختياره، ولكن الشافعي يميل لحمل الذمي على بيع عبده المسلم لرجل مسلم، وعلى هذا فإن إسلام العبد يحمل الذمي على بيعه لمسلم[4].

وعلى هذا الأساس امتلك المسلمون وأهل الذمة العبيد، وظهروا في المجتمع الإسلامي كطبقة كبيرة من طبقات المجتمع نتيجة التوسع في الفتوحات في عهد الراشدين والأمويين، وسماح الشرائع الإسلامية، والذمية بامتلاكهم، فأقبلوا على شرائهم منذ العصر الأموي والعصر العباسي، حيث انتشرت عادة اتخاذ العبيد والجواري انتشاراً كبيراً في العصر العباسي، فكانت سمرقند أكبر سوق لتجارة الرقيق المجلوب لها من بلاد ما وراء النهر، وكانوا على الأغلب من المجوس والوثنيين، ولم ينظر الخلفاء العباسيون إليهم نظرة امتهان، واحتقار لأن الكثير من أمهات الخلفاء كن من الرقيق[5] بالإضافة إلى محظياتهم ومغنيهم.

وقد اختلفت أزياء أهل الذمة باختلاف أديانهم، ويبدو أن هذا الاختلاف يعود إلى تقاليدهم الاجتماعية والدينية السائدة قبل الفتح الإسلامي، فأبقاهم

---

(١) ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء** ج ٢ ص ٢٢٥.
(٢) الكاساني: **بدائع الضائع** ج ٧ ص ٣٩؛ إدريس: **كشف القناع** ج ٤ ص ٥٥.
(٣) الماوردي: (**الأحكام السلطانية** ص ٢٨)؛ أبويعلي: **الأحكام السلطانية** ص ١٥.
(٤) الشافعي: **الأم** ج ٤ ص ١٣٣.
(٥) انظر: حسن ابراهيم حسن: **تاريخ الإسلام السياسي** ج ٢ ص ٣٣٧.

المسلمون على ما هم عليه من الأزياء[1] وان ما أثير حول ما نسب إلى الخليفة عمر بن الخطاب من فرض زي معين على أهل الذمة فهو مشكوك فيه، فيقول المستشرق بارثولد[2] وإن صح ما نسب إلى عمر بن الخطاب لم يكن يطلب إلى أهل الذمة تنفيذ الشروط حرفياً كارتدائهم ثوباً مميزاً طبقاً لما ورد فيما نسب بعهد عمر، فكان العمال النصارى يلبسون ثياباً كثياب عظماء المسلمين، ويجعلون لأنفسهم مقاماً عالياً أمام العامة) ويعلّق المستشرق ترتون[3] على ما أشير إلى زي أهل الذمة فقال: «من الشروط التي اشترطها عهد عمر على الذميين لبس الزنار[4]، والنهي عن التشبه بالمسلمين في ثيابهم وسروجهم التي يستعملونها، وينسب أبو يوسف هذه الأوامر إلى عمر بن الخطاب على حين أن العهود الواردة في الطبري والبلاذري قد خلت من الإشارة إلى الملابس مما يدفع إلى الشك في حقيقة إصدار عمر لهذه الأوامر» ولو صح فيما نسب إلى عمر بن الخطاب من العهد لأهل الذمة لما وافق المسلمون على عقد الصلح مع الجراجمة النصارى سنة ٩٨ هـ، وقد تضمن موافقة المسلمين على لبس الجراجمة النصارى لباس المسلمين[5].

ويعقب ابن بطريق[6] (ت ٣٢٨ هـ/ ٩٣٩ م): على زي النصارى في العهود الإسلامية فيقول: «ولم تزل النصارى يلبسون السواد ويركبون الخيل حتى أيام المتوكل».

ويقول الجاحظ[7] (ت ٢٥٥ هـ/ ٨٦٨ م): «إن النصارى لبسوا

(١) انظر: مليحة: الحالة الاجتماعية في العراق ص ٤٠.
(٢) انظر: بارتولد: تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٥٥.
(٣) انظر: ترتون. ترجمة حبشي: أهل الذمة في الإسلام ص ١٢٢.
(٤) الزنار: ما يشد على الوسط (المنجد ص ٢٠٠).
(٥) البلاذري: فتوح البلدان ص ١٦١.
(٦) سعيد بن بطريق: التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ص ٥٩.
(٧) الجاحظ: ثلاث رسائل ص ١٨.

الملحم[1] ، والمبطنة، واتخذوا الشاكرية، وتسموا بالحسن والحسين والعباس والفضل وعلي، واكتنوا بذلك أجمع».

ويقول شيخو[2] : «وكان نصارى العراق يلبسون الثياب كغيرهم من السكان إلا أن في المعاجم، وبعض الشعر، وردت مفردات في وصفهم النصارى، وشرحوها بقولهم أنها من ثياب النصارى».

ويقول ابن النديم (ت ٣٨٥ هـ/ ٩٩٥ م) في لباس المجوس «ظل وثنيو حران حتى سنة ١١٦ هـ يلبسون القباء[3] ويرسلون شعورهم»[4] .

ويذكر الخربوطلي[5] : عجب المقدسي: عندما زار مدينة شيراز[6] ، فلم ير فيها على مجوسي رداء يميزه عن غيره، كما وجد الأسواق تزين في أعياد المجوس».

وقد تعرض أهل الذمة في بعض فترات من التاريخ العباسي إلى بعض المضايقات لأسباب أشرنا إليها في موضوع (موقف الحكام المسلمين من أهل الذمة)، فأجبروا على لبس زي معين فرضه الخليفة عليهم، فقد فرض المتوكل على أهل الذمة لبس الطيالسة العسلية، والزنانير، والقلانس المخالفة لقلانس المسلمين، والعمائم العسلية[7] . ويبدو أن هذه الإجراءات كانت وقتية تزول وتتغير وتعود إلى وضعها السابق عند زوال السبب الذي أوجدها.

---

(١) انظر: معنى هذه الألفاظ قبلاً.

(٢) انظر: شيخو: **النصرانية وآدابها** ص ٢١٨ ـ ٢١٩.

(٣) القباء: ممدود من الثياب الذي يلبس. مشتق من ذلك لاجتماع أطرافه والجمع أقبية وقبى ثوبه قطع منه قباء (ابن منصور لسان العرب، ج ٢ ص ٢٨).

(٤) ابن النديم: **الفهرست** ص ٣٢٠.

(٥) انظر: الخربوطلي: **المجوسية والمجوس** ص ١٨٣.

(٦) شيراز: بلد عظيم معروف وهو قصبة بلاد فارس وقد استجد عمارتها واختطاطها في الإسلام وقيل أول من تولى عمارتها محمد بن القاسم الثقفي (ياقوت: معجم البلدان ج ٣ ص ٣٤٨).

(٧) أبو يوسف: **الخراج** ص ٧٢ ـ ٧٣؛ الجاحظ: **البيان** ج ١ ص ٤١.

ويعلّق الخربوطلي[1]: على ما ذكر بشأن أزياء أهل الذمة فيقول: «ولو افترضنا جدلاً حقيقة هذه الأوامر فهذا لا غبار فيه، فهو نوع من تحديد الملابس في الحياة الاجتماعية للتمييز بين أصحاب الأديان المختلفة. حيث تعتبر الملابس هي الوسيلة الوحيدة لإثبات دين كل من يرتديها».

أما فيما يخص اختلاف الأزياء فالواقع أن أزياء المسلمين نفسها كانت مختلفة باختلاف وظيفة المسلم، ودرجته العلمية والإدارية ومنزلته الاجتماعية، فكان الفقهاء يتطيلسون، ولهم لبسة ينفردون بها، والتجار يتطيلسون أيضاً، ويجعلون الطيلسان فوق العمامة[2]، وقس على هذا لباس الخلفاء، والوزراء، والأمراء، والقادة، والشعراء، والجند، وعامة الناس.

ويبدو لي أن المسلمين لم يكن، قد فرضوا على أهل الذمة لبس زي معين لأنهم كانوا قبل الفتح الإسلامي يلبسون زيهم الخاص بهم، فكان لكل من اليهود والنصارى والمجوس والصابئة زي خاص بهم، وما زالت الأزياء لكل طائفة دينية موجودة في العراق حتى الوقت الحاضر، وان ما فرضه بعض الخلفاء هو إبقاء أهل الذمة على زيهم دون تقليدهم للمسلمين في الزي.

وقد تأثر خلفاء بني العباس بالأزياء الفارسية، كما تأثروا في طريقة لبسها ونوعيتها[3] فالمنصور اتخذ في سنة ١٥٦ هـ القلانس الفارسية الطويلة لباساً رسمياً لرجاله بدل العمائم[4] واستخدم العباسيون الطيلسان، وهو لباس فارسي معرب[5]، ولبس العباسيون السروال وهو فارسي أيضاً[6]، فقال

---

(١) انظر: الخربوطلي: **الإسلام وأهل الذمة** ص ٨٦.

(٢) المقدسي: **أحسن التقاسيم** ص ٣٢٨.

(٣) انظر: مليحة. الملابس في العراق خلال العصور العباسية (المجلة التاريخية المصرية م ١٣ ص ١٨٥ لسنة ١٩٦٧).

(٤) ابن الأثير: **الكامل** ج ٣ ص ٥٥؛ الطبري: **تاريخ** ج ٦ ص ٢٩٦.

(٥) الجاحظ: **البيان والتبيين** ج ٢ ص ١٤٢.

(٦) انظر: جرجي زيدان: **التمدن الإسلامي** ج ٥ ص ٨٣.

الجاحظ[1] (ت ٢٥٥ هـ/ ٨٦٨ م) فيه: «إن السروال لباس العجم لم تستسغه العرب إلا في العصر العباسي لبسه الرجال والنساء على السواء، وكان شائعاً بين عامة الناس».

وتأثر العباسيون بلبس الخفاف الفارسية بدل النعال العربية، فذكر المقدسي[2] (ت ٣٧٥ هـ/ ٩٨٥ م): (ان المجوس في العراق كانت تلبس النعال السندية).

كما تأثر العباسيون بالمراسيم، والأعياد الفارسية، وقد تبع ذلك تأثر المجتمع العربي في العصور العباسية بالعادات والتقاليد الاجتماعية والدينية عند المجوس، حيث ساهم بعض الخلفاء وعامة الشعب بالاحتفالات الفارسية المجوسية كالنوروز والمهرجان، واستخدم العباسيون المطبخ الفارسي على نطاق واسع[3]، وتأثر المجتمع العراقي بالفنون الفارسية، وخاصة الموسيقى والغناء، فجلبوا المغنين والموسيقيين[4]، فانتشرت المنتديات[5] والمجالس الاجتماعية في بغداد والمدن الأخرى الكبيرة، كالبصرة، والكوفة، متأثرة بأساليب الفرس، فأقامها الخلفاء والوزراء، والأمراء، والأغنياء في قصورهم، واشتهرت على نطاق واسع في عصر المهدي، والرشيد، والمأمون، والمتوكل، وكانت تقام هذه المجالس للتسلية وللاستمتاع بالغناء والموسيقى، فكان عصر المهدي كما يقول المستشرق موير[6] (Muir) (تزينه مجالس الموسيقى والأدب والفلسفة)، وكان الرشيد يجمع المغنين، والموسيقيين للتسلية، فجمع الرشيد يوماً إبراهيم

---

(١) الجاحظ: البيان والتبيين ج ٢ ص ٩٧.
(٢) المقدسي: **أحسن التقاسيم** ص ١٢٨.
(٣) القلقشندي: ج ٢ ص ٤١٩ ـ ٤٢٠؛ محمود: **الإسلام والحضارة العربية** ص ٩١ علي ابراهيم: **التاريخ الإسلامي العام** ص ٣٦٦.
(٤) انظر: هنري: **تاريخ الموسيقى العربية** ص ١١٠.
(٥) المنتديات: مفردها نادي والنادي مجتمع القوم وأهل المجلس فيقع على المجلس وأهله والجمع أندية (ابن منظور. لسان العرب ج ٢٠ ص ١١٨).
(٦) انظر: (Muir The Caliphate, p. 467).

الموصلي[1]، وزلزل[2]، وبرصوما، فكوّنوا جوقاً موسيقياً حضرته ألفا جارية في أحسن زي[3].

وكانت تقام هذه المجالس في مناسبات الأعياد كالنوروز والمهرجان[4] أو في أعياد النصارى، إذ يشترك المسلمون في تلك المناسبات حتى الخلفاء[5]، فالمأمون جلس في يوم عيد الشعانين، وبين يديه عشرون وصيفة رومية، فخرجن بالديباج الرومي، وعلّقن في أعناقهن صلبان الذهب، وفي أيديهن أغصان الزيتون، وغنىّ إبراهيم الموصلي[6]:

ظبـأ كـالـدنـانيـر   مـلاح في المقـاصيـر
جـلاهن الشعـانيـن   علينـا في الـزنـانيـر

وكانت مجالس الغناء تعقد أيضاً في بيوت الوزراء، والأمراء، والأغنياء، ولا تقل أبهة وروعة، وبذخاً عن مجالس الخلفاء[7].

ومن العوامل التي ساعدت على ازدهار هـذه المجالس كثـرة المغنيين

---

(١) ابراهيم الموصلي: ابراهيم بن ماهان (أو ميمون) بن بهمن الموصلي التميمي بالولاء (١٢٥ ـ ١٨٨ هـ/٧٤٣ ـ ٨٠٤) أوحد زمانه في الغناء واختراع الألحان فارسي الأصل، ولد بالكوفة ورحل إلى الموصل وتعلم الضرب بالعود وأجاد الغناء العربي والفارسي، وكانت له منزلة عند المهدي والهادي والرشيد وجعله الرشيد من ندمائه وخاصته (الأغاني: ج ٥ ص ١٥٤ ـ ١٥٨)، تاريخ بغداد ج ٦ ص ١٧٥، الزركلي: الأعلام ج ١ ص ٥٣).

(٢) زلزل: كان هذا ضراباً بالعود يضرب به المثل وكان في أيام المهدي والهادي والرشيد. قال اسحق بن ابراهيم الموصلي. كان برصوماً الرامز وزلزل الضارب من سواد الكوفة قدم بهما أبيه وفقهما على الغناء العربي حتى بلغا هذا المبلغ (ياقوت، معجم البلدان ج ١ ص ٥٩٢ ـ ٥٩٣).

(٣) الأصفهاني: **الأغاني** ج ٥ ص ٢٤١.

(٤) انظر: مليحة: **المجالس الاجتماعية** م ١٥ ص ٩٥، المجلة التاريخية ١٩٦٩.

(٥) انظر: نفس المصدر السابق ص ٩٦.

(٦) الأصفهاني: **الأغاني** ج ١٩ ص ١٣٨.

(٧) انظر: مليحة: **المجالس الاجتماعية في العصر العباسي** م ١٥ ص ٩٨.

والمغنيات الروميات والفارسيات، وقام اليهود بالتجارة بهن فبرزن في الرقص والغناء والشعر، وأقيمت الأسواق لبيعهن.

وكان لكل طائفة من طوائف أهل الذمة في العراق مجالس اجتماعية خاصة بهم، فكان نصارى العراق يعقدون مجالس الأنس في أيام الأعياد والأعراس، والمواليد، ويحيون الليالي للغناء والرقص في أثناء أفراحهم[1].

ويقول المستشرق هنري[2]: «وقد جلبت الفتوحات الرقيق من المجوس إلى العراق وسرعان ما استرعى غناءهم الأنظار، وتأثر المغنون العرب بالألحان الفارسية منهم ابن مسجع الذي يقال عنه أنه أول من نقل الغناء الفارسي من الفارسية إلى الغناء العربي»[3].

وكان من نتيجة الاختلاط بين العرب المسلمين، وأهل الذمة سواء أكان عن طريق الزواج أو المساهمة في التجارة والمهن أن توطدت أواصر الألفة والمحبة والانسجام بين أبناء المجتمع العراقي، وغلبت بعض التقاليد والعادات الاجتماعية لدى أهل الذمة على حياة الناس في العراق، كما غلبت العادات والتقاليد الاجتماعية التي عند العرب المسلمين على أهل الذمة أيضاً، مما أصبح من العسير علينا فيها بعد أن نحدد منشأ هذه العادات والتقاليد، وسنحاول في هذا الباب دراسة الحياة الاجتماعية لكل طائفة من طوائف أهل الذمة على انفراد، ليتسنى لنا الوقوف على تقاليدها وعاداتها الاجتماعية، وأثرها في المجتمع العراقي.

فالحياة الاجتماعية عند اليهود تختلف عنها من طوائف أهل الذمة، فقد عاش اليهود في العراق منعزلين عن سائر السكان، وكانت عزلتهم بصورة اختيارية، وقد يسّرت لهم هذه العزلة حياتهم الاجتماعية، وسلامتهم الجسمية

---

(١) الأصفهاني: **الأغاني** ج ٢ ص ١٢١؛ ج ٩ ص ١٦٥؛ شيخو: **النصرانية وآدابها** ص ٤٧٨.
(٢) انظر: هنري جورج: **تاريخ الموسيقى العربية** ص ٨٥.
(٣) الأصفهاني: **الأغاني** ج ٣ ص ٨٤ ــ ٨٥.

ووحدتهم الدينية[1]، ويؤيد ذلك المستشرق (Goitein)[2]، فيقول: «ولم يكن للتاريخ اليهودي صورة واضحة في كل الحقول، عدا النواحي الاقتصادية والروحية والاجتماعية، ولم يحدث تحول سريع لليهود إبان نهضة العرب، وانتصارهم، وبقي التاريخ اليهودي خلال القرنين ونصف من الفتح الإسلامي غامضاً».

هذه العزلة كان لها أثرها في جعل اليهود يعيشون في أدنى درجة، ولم يجاوز اليهود طبائع أمم الزرّاع والرعاة إلا قليلاً جداً، ولم يكادوا يدخلون دائرة التطور الاجتماعي[3] لذا فهم كما يقول المستشرق متز[4]: «لم تكن لهم قيم اجتماعية، ولا نزعات إنسانية، ولا حضارة سامية فكانوا إذا احتاجوا إلى المال باعوا أولادهم الصغار، وكانوا أيضاً يسرقون أولاد النصارى ويبيعونهم للمسلمين كعبيد». وأن في أسفار اليهود ما يلقي الضوء على الأهداف السياسية والاجتماعية الخطيرة التي تعتبر نموذجاً لسلوكهم الاجتماعي والسياسي، ففي سفر المزامير (ويسجد له «يهوا») جميع الملوك وتستعبد له كل الأمم[5] وهم يطمحون أن تكون لهم الأمم عبيداً يسجدون لهم، وقد ورد في التوراة الكثير من الوعود لبني اسرائيل منها «. . . فيتمالكهم ـ أي يمتلك اليهود الأمم ـ في أرض الرب عبيداً، وإما يسبون الذين سبوهم، ويستولون على الذين سخروهم»[6].

ويبدو أن الأعمال اللاإنسانية والصفات اللاأخلاقية، والسلوك المنافي للقيم الاجتماعية التي يحملها اليهود تجاه الأمم، كانت كما يقول الكاتب التركي أويغور[7] : «إنها سر الكراهية التي يحملها جميع الأمم تجاههم».

---

(١) انظر: ديورانت: **قصة الحضارة** ج ١٤ ص ٥٧.

(٢) انظر: (Goitein, Jews and Arabs p. 89).

(٣) انظر: لوبون: **اليهود في تاريخ الحضارات الأولى** ص ٤٣، ص ٤٥.

(٤) انظر: متز: **تاريخ الحضارة الإسلامية** ج ١ ص ٢٢٦.

(٥) سفر المزامير: ٧١: ١١.

(٦) سفر أشعيا ١٤: ٢.

(٧) انظر: أيغور: **جذور الصهيونية** ص ٧٥.

هذه الأخلاقية التي اتصف بها اليهود تتنافى مع القيم العربية والتعاليم الإسلامية السمحة التي توحي للمسلمين بالتعاطف والتسامح مع أهل الذمة. تقوم الحياة الاجتماعية عند اليهود على الأسرة، وتتكون بعد عملية الزواج، وتتم مراسيم الخطبة والزواج وفقاً لقواعد الشريعة اليهودية، بعد تراضي الرجل والمرأة على الزواج، ويقوم الكاهن بإجراء طقوس دينية تستوجب شهرها[1].

وأركان الزواج عند اليهود ثلاثة: المهر؛ وهو معجل ومؤجل، أما الربانيون فلا مهر عندهم، والركن الثاني: الوثيقة أو الكتاب؛ فلا يتم العقد شفوياً، وكذلك الطلاق، والركن الثالث ألف البيئة، ومعناه رضاء المرأة ويتم بالعلانية من عشرة رجال على الأقل، فتقرأ الوثيقة بحضورهم، ويبارك للعروسين[2].

ولقد حددت الطوائف اليهودية سن الخطبة والزواج بالنسبة للذكر والأنثى، فسن الرشد في الزواج للولد ١٣ سنة وللبنت ١٢ سنة ونصف، أما عند القرائين فسن الرشد هو سن الزواج الطبيعي[3].

وتعترف الشريعة اليهودية بالمهر، وتلزم الزوج بتأديته للزوجة، ولا يشترط في المهر أن يكون مالاً بل يصح أن يكون عملاً كعمل موسى أجيراً عند والد زوجته «شعيب» مقابل المهر[4].

وتجيز الشريعة اليهودية الطلاق بكتاب يدفعه الرجل لامرأته، كما تجيز للمرأة أن تطلب تطليقها من الرجل في حالات معينة، وكذلك تبيح للزوجين الاتفاق على الطلاق، وقد أسرف اليهود في الطلاق حتى أن الربانيين منهم يذهبون إلى أنه يكفي أن يرى الرجل امرأة أجمل من امرأته يجوز له طلاقها[5].

---

(١) انظر: العطار: **أحكام الأسرة عند اليهود والمسيحيين** ص ٣٠.
(٢) انظر: مراد فرج: **اليهودية** ص ٨٥ ــ ٨٦.
(٣) انظر: العطار: **أحكام الأسرة** ص ٨٠.
(٤) انظر: العطار: **أحكام الأسرة** ص ١٤٧.
(٥) انظر: المصدر السابق ص ٢٠٨؛ ديورانت: **قصة الحضارة** ج ١٤ ص ٣٥.

وأجاز التلمود تعدد الزوجات، ومن أقوال أحد الأحبار في هذا المعنى «يستطيع الرجل أن يتزوج أي عدد من النساء يشاء»[1].

ومن العادات الاجتماعية أن يتزوج الرجل بأرملة أخيه بعد وفاته، فيقول المستشرق ديورانت[2]: «ويبدو أن هذا الإجراء ليس مبنياً على العطف على الزوجة الأرملة، وإنما عطفاً على أولاد أخيه».

ويعتبر القانون اليهودي الزوج هو الوارث الوحيد لزوجته، أما الأرملة فلم يكن من حقها أن ترث زوجها، فإذا مات حصلت على قيمة بائنتها ومهر الزواج، كما لم يكن البنات يرثن آباءهن إلا إذا لم يكن له أبناء ذكور[3].

وكانت البكارة أمراً مقدراً كثيراً لدى اليهود، فإذا أثبت الزوج أن زوجته الفتاة لم تكن عذراء قتلت رجماً، وإذا ثبت كذب الزوج ألزم بدفع مئة من الفضة إلى أبويها ومنع من تطليقها، ولا يعد الرجل مجرماً إلا إذا زنا بفتاة مخطوبة أو بامرأة متزوجة فهنالك يقتل، ويعلّق المستشرق لوبون[4] على مدى تطبيق اليهود لنصوص شريعة موسى والتي وردت في الفصل الثالث عشر من سفر اللاووين من المحظورات، فيقول: «وليس زنا الأزواج هو الجرم الوحيد الذي تحرمه الشريعة على مزاج بني اسرائيل الداعر... وسفاح ذوي القربى أي الزنا بالأخت، والزنا بالأم، واللوط، والمساحقة، ومواقعة البهائم من أكثر الآثام التي كانت شائعة بين اليهود» وهذا يدل على مدى فساد اليهود.

ومن العادات الاجتماعية عند اليهود الحزن على الميت وإقامة المآتم، فكانوا يولولون، وينتحبون ويضربون صدورهم، ويشقون ثيابهم، ويغمرون

(١) انظر: ديورانت: ج ١٤ ص ٣٣؛ لوبون: **اليهود في تاريخ الحضارات** ص ٥٠.

(٢) انظر: ديورانت: **قصة الحضارة** ج ١٤ ص ٣٤.

(٣) انظر: المصدر السابق ج ١٤ ص ٧١.

(٤) انظر: لوبون: **اليهود في تاريخ الحضارات الأولى** ص ٥١.

أنفسهم بالرماد إظهاراً للحداد على موتاهم[1].

وأما الحياة الاجتماعية عند النصارى فكانت أكثر رقياً وتقدماً من اليهود، ويعود ذلك إلى أخلاقيتهم المستمدة من كتبهم الدينية، التي تأمرهم بالتسامح مع الناس وإزالة الحقد والكراهية لهم وإظهار المحبة للجميع[2]، فتوثقت أواصر الانسجام الاجتماعي في المجتمع العراقي لا سيما بين المسلمين والنصارى لكونهم عرباً، ولتجانس تقاليدهم الاجتماعية وروابطهم القومية، ويزيد في هذه الروابط الاجتماعية ما أشار إليه القرآن محدداً علاقة المسلمين بالنصارى، فقال تعالى: ﴿ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى، ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون﴾[3].

ولذا فقد قويت وشائج المحبة والصداقة والوئام بين المسلمين والنصارى، فشاركوهم في أعيادهم وأفراحهم، وأصبح عيد الشعانين عيداً يحتفلون به معاً[4]، واتخذوا من عيد الصليب لديهم يوم عطلة وبطالة[5].

أما أسس الحياة الاجتماعية عند النصارى فتقوم أيضاً على الزواج الذي هو من الأسرار السبعة يباشره الكاهن في الكنيسة لقدسيته في تكوين الأسرة التي هي أساس البناء الاجتماعي. فالزواج شرعة الله في خلقه، ومع ذلك فقد أجاز المسيح العزوبة إذ استطاع الرجل والمرأة أن يضبط نفسه، ويتوقى الزنا، فجاء في الإصحاح السابع من إنجيل بولس (ولكن أقول لغير المتزوجين، وللأرامل أنه حسن لهم إذا لبثوا كما أنا، ولكن إذا لم يضبطوا أنفسهم فيتزوجوا لأن التزوج أصلح من الحرق)[6]، وعلى هذا فقد انصرف الكثير من الفتيان والفتيات إلى

---

(١) انظر: لوبون: **اليهود في تاريخ الحضارات الأولى** ص ٥٧.
(٢) انجيل متى ٢٢: ٢٧، انجيل مرقس ١٢: ١٣ ـ ١٧.
(٣) سورة المائدة: آية ٨٢.
(٤) انظر: رفائيل: **أحوال نصارى بغداد** ص ٦٥.
(٥) انظر: ترتون: **أهل الذمة في الإسلام** ص ١٢١.
(٦) انظر: أبو زهرة: **محاضرات في النصرانية** ص ١٢١.

حياة الرهبنة لجواز العزوبة في الشريعة المسيحية، وقد وضعت الشرائع المسيحية سنناً للخطبة والزواج حيث لم تجز الزواج إذا كان أحد الزوجين دون سن الخطبة حتى ولو وافق ولّي النفس عليها، لأن الشرائع المسيحية لا تقر إجبار الصغيرة أو الصغير على الزواج(1) ولا تعترف بقيام الزواج مجرد رضا الزوجين ما لم تسبقه مراسيم التكليل كشرط لانعقاد الزواج، ويقوم الكاهن بإجراء طقوس وصلاة خاصة يبارك فيها الزوجين، ويحقق من ذلك أهدافاً دينية وتنظيمية حيث يتأكد الكاهن من خلو الزوجين من موانع الزواج الدينية، ويسجل الزواج في سجلات الكنيسة، وليكتسب الزواج الصفة العلنية(2) ويتم بحضور عشرة شهود على الأقل كما عند اليهود.

أما المهر، وهو ما يدفعه الزوج لزوجته من المال، ولا تعتبر الشريعة المسيحية المهر ركناً من أركان الزواج، ولا يلتزم الزوج بدفعه لزوجته، وعلى هذا الأساس يجوز الزواج عند النصارى بمهر كما يجوز بلا مهر(3) وعلى هذا القياس لا يكون للزوجة مهر مؤجل. إن هذا التشديد في مراسيم الزواج ليس قائمًا على وجود نصوص في الإنجيل، وإنما هو شرائع وضعها البطاركة، والأساقفة، فيها صفة التشدد لأن الشريعة المسيحية لا تبيح انحلال الزواج إلا بالموت، فهي لا تجيز الطلاق إلا إذا ثبت زنا الزوجة أو لأمور أخرى تقرها شريعة الطائفة(4) وقد أشار ابن حزم(5) (ت ٤٥٦ هـ/ ١٠٦٣ م) إلى اختلاف أقوال النصارى في الطلاق، فيروى ما ذكره (متي) في إنجيله أن المسيح قال لهم: (من فارق امرأته فليكتب لها كتاب الطلاق) وأنا (متي) أقول لكم: (من فارق امرأته إلا لزنا فقد جعل لها سبيلاً إلى الزنا، ومن تزوج مطلقة فهو فاسق)، ومع هذا فإن الطلاق لم يكن محرماً على جميع الطوائف المسيحية حيث تجيزه بعض

---

(١) انظر: العطار: **أحكام الأسرة عند المسيحيين واليهود** ص ٣٠.

(٢) انظر: المصدر السابق ص ٩٧.

(٣) انظر: العطار: **أحكام الأسرة عند المسيحيين** ص ١٤٥.

(٤) انظر: المصدر السابق ص ٤٩؛ أبوزهرة: **محاضرات في النصرانية** ص ١٢١.

(٥) ابن حزم: **الفصل في الملل والأهواء والنحل** ص ٢١

هذه الطوائف في حالة الزنا، والارتداد عن الدين أو الزواج بغير دينها، حيث لا تعترف الكنيسة بشرعية عقدها.

وتجمع الكنائس المسيحية على أن الطلاق بإرادة أحد الزوجين، أو باتفاق الزوجين لا يجوز، وأن أجازته إحدى الفرق المسيحية، فإنما تستند إلى الأسباب المحددة في شريعتها، والتي تقرها سلطاتها الدينية[1]، وقد تمسكوا بالتعاليم الدينية التي وردت في إنجيل (متي)، ففي الإصحاح التاسع عشر منه: (. . .ولا يفترق الزوجان إلا بالموت، وبعد موت أحدهما يحل للحي أن يتزوج غيره)[2].

أما تعدد الزوجات عند النصارى فحرام عليهم، ولكن مع هذا التحريم، فإن كثيراً من المسيحيين اقتدوا بالمجوس والوثنيين، وتزوجوا امرأتين، وامرأة الأب، أو عمتهم، أو خالتهم، أو ابنتهم، أو امرأة أخيهم، فأصدر الجاثليق مماراما منشوراً دينياً عنوانه (تدبير الأفعال الصالحة) حرّم فيه هذه الأعمال[3].

ويروي صاحب التاريخ المسعودي (أن جبرائل رئيس أطباء الملك، ويعرف بجبرائيل السنجاري، قد اتخذ امرأة على امرأته فحرمه يسوع، وشفع الملك كسرى الثاني أبرويز (٥٩٠ ــ ٦٢٨ م) في حله من حرمه فلم يشفعه)[4] لأن ذلك يخالف شرائع الدين المسيحي.

أما أثر الصابئة في الحياة الاجتماعية فتكاد تكون كاليهودية في انعزاليتها التامة عن المساهمة في الحياة الاجتماعية للمجتمع العراقي في العصور الإسلامية، ويعود هذا الانعزال إلى عقيدتهم الدينية، حيث أن الصابئة يحرصون على عدم اطلاع غيرهم على شعائرهم الدينية، وعقائدهم، ومراسيمهم، لذا لم يسمحوا لأصحاب الديانات الأخرى

---

(١) انظر: العطار: أحكام الأسرة ص٢٠٧.

(٢) انظر: أبو زهرة: محاضرات في النصرانية ص١٢١.

(٣) تاريخ كلدو واثور: ج ٢ ص ١٧٩ ــ ١٨٠.

(٤) مجهول: التاريخ السعودي ج ٢ ص ٤٩٨ ص ٥١٠، ٥٢٥؛ طبع أدي شير.

في العراق بمشاركتهم في مراسيمهم وأعيادهم، وتقاليدهم وعاداتهم الدينية والاجتماعية، كما أن قلة عددهم وعدم مصاهرتهم مع مخالفيهم في الدين، وحصر نشاطهم بالصياغة، وبعض المهن، وكذلك انطوائهم على أنفسهم، وارتباط تقاليدهم الاجتماعية بالتقاليد الدينية[1]، جعلهم بعيدين عن تأثيرات المجتمع العراقي أو تأثيرهم فيه.

يعتبر الزواج أهم المظاهر الاجتماعية عند الصابئة ويرتبط ارتباطاً وثيقاً بالحياة الدينية، لذا فإن مراسيم الخطبة والزواج عندهم تختلف اختلافاً كبيراً عمّا عند المسلمين، وغيرهم من الطوائف الدينية، فهم وإن كانوا يتبعون المسلمين في نظام الخطبة التي تسبق الزواج، وبعد اتفاق أهل العروسين بعقد القران، إلا أن مراسيم عقد القران تجري وفق إجراءات معينة طويلة وشديدة وصعبة، وتعتبر الصابئة المندائية العزوبة خطيئة، لا تغتفر، وأن الزواج فرض على من يستطيعه، وأباحت الشريعة المندائية الزواج بما طاب للرجل من زوجات مثنى، وثلاث، ورباع، وخماس، وسداس، على أن يعدل بينهم، ولا يجوز الجمع بين الأختين، كما لا تجيز الشرائع الصابئية زواج الصابئي أو الصابئية بغير دينهم، لأنهم يصبحون خارجين عن الدين، وحيث يختلط الدم، ويضيع النسب[2].

والزواج بين أولاد وبنات العم والخالة هو المعتاد، ويفضل ابن وابنة العم، على ابن وابنة الخالة، ويؤخذ رأي الفتاة فيمن يطلبها، وحالما يتفقان يحدد المهر، ومتوسطه يتراوح على رأي الكهان بين (٢٠ ــ ٣٠) ديناراً، بالإضافة إلى الهدايا التي يقدمها الشاب لفتاته، وأجور الكنزفرة والكهان[3]، وإذا كان أحد الخطيبين فيه شائبة فالمهر والمؤجل يزداد زيادة فاحشة تعويضاً عن ذلك، ويقول كهان الصابئة: (ان المهر لم يكن من

---

(١) مليحة: الحالة الاجتماعية في العراق ص ٢٤.

(٢) انظر: الحسني: الصابئون ص ٩٥؛ دراوور: الصابئة المندائيون ص ١١٧.

(٣) انظر: دراوور: الصابئة المندائيون ص ١١٨.

سننهم الاجتماعية والدينية، وإنما أخذوه عن مجاوريهم من المسلمين)[1] واليوم الذي يختار لعقد المهر والزواج يجب أن يكون يوماً ميموناً من الناحية الفلكية، كما يجب أن يتأكد الكاهن من أن الفتاة ليست في حيض أو قريبة منه[2] ويجري التعميد الأول في يوم الأحد، والتعميد الثاني في يوم الثلاثاء، بالماء الجاري سواء أكان الفصل صيفاً أو شتاء[3] حيث تأتي العروس إلى دار الرئيس الديني (الكنزفرة الذي يشرف على عملية التعميد، وتفحص الفتاة من قبل امرأتين (زوج الكنزفرة وأمه عادة) أو أية امرأة صالحة للتأكد من عذرية الفتاة، فإن لم تكن عذراء صمتت المرأتان، وإذا كان العكس أطلقت الزغاريد[4].

وتُزَّفُّ العروس بعد ذلك إلى بيت المندى (بيت العبادة) وتكون في حالة من الزينة، وتسير أمامها طفلة صغيرة تحمل مرآة تنعكس فيها هيئة العروس، ومعها فتاتان صغيرتان عن يمينها وشمالها، ويسير بجانب العروس أيضاً طفل يحمل مصباحاً، ومعه أولاد كثيرون يحملون الأواني التي فيها الشموع الموقدة، وابريقاً من الماء، وحول الشموع أغصان الآس والرمان (ترمز للحياة والخصب)، وتسبق هذه العملية عماد الأعراس[5] تزفها النساء بالأغاني الشعبية وتجري مراسيم التعميد في النهر بأشكال وأساليب طويلة وشاقة، وبعد خروجها من الماء يرتدي كل من العريس والعروس بدلة جديدة أو (رستة) ويتلوه العماد الثاني الذي يتم في الفجر في بيت العريس، وهو بناء كوخ الزواج، ويغطى الكوخ بقماش أبيض، وعلى جوانبه توضع الأزهار والأغصان وعند دخول العريس على عروسه تكون بجانبها امرأتان، وإلى الشمال من مضجع العروس توضع صنية الآس والخضروات، والشموع الموقدة وأبريق الماء والمصباح الذي يصون العروس من قوى الظلام[6]، وتستمر مراسيم التعميد وعقد المهر سبعة

---

(١) انظر: الحسني: **الصابئون** ص ٩٨.
(٢) انظر: دراوود: **الصابئة** ص ١١٩.
(٣) انظر: الحسني: **الصابئون** ص ٩٩.
(٤) انظر: دراوور: **الصابئة** ص ١٢٠؛ الحسني: **الصابئون** ص ٩٩.
(٥) انظر: دراوور: **الصابئة** ص ١١٩ ــ ١٢٠.
(٦) انظر: دراوور: **الصابئة المندائيون** ص ١٢٢ ــ ١٢٣.

أيام وعلى العروسين فيها أن يراعيان التقاليد والمراسيم الدينية، وفي آخرها يدخل العريس، وأهله وأقاربه غرفة العروس، ويجلس العريس على الأرض وظهره إلى ظهر العروس، ويقترب الكنزفرة (الكاهن) من العروسين، ويقرأ بعض الأدعية، ويدق برفق رأسيهما ثلاث مرات، ثم يوضع إكليل العروس على رأسها معطراً بالزعفران، ويسقيها الأب خمراً سبع مرات، ثم يغادر العريس والكهان غرفة العروس إلى الكوخ الذي بناه في داره حيث تستمر القراءة النهائية فوق رأس العريس، وتنتهي بذلك مراسيم المهر والزواج، ولا يمكن للزوج أن يضاجع زوجته إلا في ساعة فلكية ملائمة، ويكشف الكنزفرة (الكاهن) طالع الزوجين وبانتهاء حفلة الزواج يدخل العريس على عروسه، ويمنع التماس مع الزوجين (العروسين) لمدة سبعة أيام، وعليهم أن يظهروا جميع الأدوات والأواني التي استعملوها بأنفسهم[١]، حيث تعتبر في هذه الحالة غير طاهرين. وإنجاب الأولاد فرضاً دينياً على كل صابئي وصابئية، ويعتقد كهان الصابئة أن الذين لا ينجبون الأولاد في الحياة الدنيا تتلبس روحهم جسماً روحانياً في العالم الآخر حيث يتزوج وينجب أطفالاً، كما يعتقد الكهان أيضاً أن الروح تهبط من الماء السماوي إلى جسم الطفل وهو في رحم أمه[٢]، وتبدو أن هذه العقيدة تشبه إلى حد كبير عقيدة النصارى في تكوين المسيح في بطن مريم. ويرعون الصابئة إنجاب الأولاد أهمية كبيرة لأنهم يعتقدون أنهم يرفعون اسم أبيهم في الآخرة، ويحملون جنازته حين يموت، ويقرأون المسنحثة من أجله[٣].

والصابئة يكرهون الطلاق، ويبيح رؤسائهم لأفراد طائفتهم ايتاع الطلاق عند القاضي المسلم، ويمنعون إيقاعه بأنفسهم لكراهيتهم له، ويصادق رجل الدين الصابىء عليه ليكتسب الطلاق الصفة الروحية، غير أن الشرع الصابئي أباح للرجل منهم أن يهجر زوجته كما عند النصارى إذا ثبت ارتكابها الزنا،

---

(١) انظر: دراوور: ص ١٢٤ ـ ١٢٢؛ الحسني: **الصابئون** ص ١٠٠ ـ ١٠٥.

(٢) انظر: دراوور: **الصابئة** ص٩٣.

(٣) انظر: المصدر السابق ص١١٧.

وتركها الصلاة، والاغتسال من الحيض، أو ثبوت جريمة السرقة، والمهجورة ليس لها حق الزواج حتى يموت هاجرها، وعلى المطلقة أن تعتد عدة الطلاق ثلاثة أشهر بعدها يسمح لها بالزواج[1].

ولا يؤمن الصابئة بالنذور أو الفداء إطلاقاً ولكن هذه العادة تسربت إليهم من الأديان المجاورة، فمنها: حين يبنى بيت جديد يذبح كبش كفداء، ويدفن رأسه تحت عتبة الدار لتقوم الطلاسم على حراسته، وتوضع فوق الباب الودع أو الفخار الأزرق، وتنقش عليه أو تعلق صورة حية رمزاً للحياة، أو دمية من الخرق فيها أزرار زرق، وتعلّق أيضاً فوق الباب قرون البقر، وتعاويذ أخرى[2] ويختلف مركز المرأة عند الصابئة عنه عند اليهود، فالمرأة الصابئية لها حرية التملك والوراثة[3] بعكس اليهود حيث تحرم من هذا الحق، وهو دليل على المكانة السامية التي تتمتع بها المرأة الصابئية في المجتمع الصابئي.

ويحرم على الصابئية الرقص واللعب والموسيقى، ومع ذلك فكانت البنات تميل للغناء، والرقص في بيوتهن ولا سيما في مناسبات الأفراح[4].

أما الحياة الاجتماعية عند المجوس فقد كانت قبل الفتح الإسلامي تقوم على دعامتين: النسب والملكية، وكانت أعلى طبقات المجتمع نسباً وملكية هم الدّهاقين[*].

وأما الطبقة العامة، فكانت على درجات متفاوتة، وأن هناك تمييزاً واضحاً بينها، وقد حرّم على أفرادها أن يشتغلوا بغير الصناعة والأعمال التي خلقوا لها[5].

---

(١) انظر: الحسني: **الصابئون** ص ٩٦.

(٢) انظر: دراوور: ص ١٠٤.

(٣) انظر: دراوور: **الصابئة والمندائيون** ص ١٠٩.

(٤) انظر: المصدر السابق ص ١٠٧.

(*) الدهّاقين: أصلها فارسي (دهكان) ثم عربت إلى (دهقان) بمعنى مالك الأرض والجمع (دهاقنه) أو (دهاقين) فان فلوتن: **السيادة العربية** ص ٤٥، القاهرة ١٩٣٤).

(٥) انظر: كريستنسن: **ايران في عهد الساسانيين** ص ٣٠٦.

أما الفلاحون فكانت حياتهم الاجتماعية والاقتصادية من أسوأ طبقات المجتمع المجوسي فهم مرتبطون بالأرض يسّخرون في فلاحتها، ويساقون للخدمة العسكرية، وهم أقرب إلى العبيد منهم إلى الأحرار، ولم تكن القوانين تحميهم، كالتي تتمتع بها بقية الطبقات[١].

هذه القوانين تستند على الأسس الدينية التي يقوم عليها كتابهم المقدس الأفستا وشرحه (الزند)[٢] ولا يمكن للفرد في المجتمع الساساني المجوسي أن يرتقي إلى مرتبة أعلى لأن الشريعة المجوسية كانت تحفظ للفرد شرف النسب في الأسرة والأملاك[٣] وأن أريد للشخص الانتقال إلى طبقة أعلى يجري اختياره من قبل الموابذة والهرابذة، ويرفع إلى الملك فيأمر بإلحاقه بهذه الطبقة[٤].

تقوم الأسرة في المجتمع المجوسي على أساس تعدد الزوجات، وتعتبر الزوجة الأولى أرفع من الثانية، وأبيح للزوج اقتناء الجواري (السبايا) والزوجة السبية لا يحق لأبنائها الانتساب إلى الأسرة إلا الذكور[٥]، وقد كفل القانون الفارسي حماية الاطفال غير الشرعيين، وأوجب على جدهم لأمهم النفقة، وأن تكون نفقة أمهم على أبيها، وأن لا يضيع حقها من الميراث رغم ارتكابها الزنا[٦] وأباح الدين المزدكي للرجل الزواج من المحارم، البنت والأخت والأم، كما أباح تنازل الزوج عن إحدى زوجاته لرجل آخر فقير ليتكسب بعملها، أما الأطفال فينسبون للزوج الأول، ويعتبرون أبناؤه رغم أنهم ثمرة الزوج الثاني[٧]

---

(١) انظر: محمود: الإسلام والحضارة العربية ص ٣٥.
(٢) انظر: كريستنسن: ايران في عهد الساسانيين ص ٣٠٨.
(٣) انظر: محمود: الإسلام والحضارة العربية ص ٣٥.
(٤) انظر: الخشاب: التقاء الحضارتين ص ١٧.
(٥) انظر: محمود: الإسلام والحضارة العربية ص ٣٦.
(٦) انظر: كريستنس: ص ٣١٤.
(٧) انظر: كريستنس: ايران في عهد الساسانيين ص ٣١٥.

وقد أباح الشرع المجوسي أيضاً للزوجة الأولى والممتازة ولأولادها أن يرثوا بالتساوي كما حرّم الإرث على الزوجة السبية وأبنائها[1].

ولما حدثت الفتوحات الإسلامية للعراق كان فيه أعداد كبيرة من الفرس المجوس كما استوطن فيه أيضاً عدداً آخر من المجوس هم بقايا القوات الساسانية بعد أن استسلموا للعرب عند الفتح، واتفقوا على القتال في صفوفهم أو القيام بالمهام البوليسية والإدارية في البصرة خاصة، وقد منحت هذه القوات نفس حقوق العرب، فأعطيت لهم الخطط، وجعل لهم العطاء والأرزاق، وسمح لهم أن يحتفظوا بتنظيماتهم وبذلك كوّنوا في العراق مع المجوس المقيمين مجتمعاً ذي طابع متميز عن المجتمع العربي[2] الإسلامي. يضاف إلى هؤلاء جميعاً أعداداً من الفلاحين هجروا أراضيهم بعد اندحار الساسانيين، وتدمير كثير من الإقطاعيين الفرس، وهاجروا إلى العراق باحثين عن عمل لهم، وأصبح هؤلاء الفرس كتلة في العراق لم تضع نفسها تحت حماية العشائر العربية، وفضّلوا أن يبقوا خارجها ترعاهم القوانين، ويحميهم الأمير الذي كان له سلطات واسعة عليهم[3] وقد استخدمت الدولة الإسلامية فريقاً منهم في الجيش، وأدخلتهم في ديوان العطاء، فقد فرض عمر بن الخطاب للأساورة الفرس العطاء كالعرب[4] كما ساواهم علي بالعرب أيضاً[5].

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدّي بن أرطأة أمير البصرة (. . . أما بعد، فانظر أهل الذمة فارفق بهم، وإذا كبر الرجل منهم وليس له مال فانفق عليه)[6] فحاول الأمويون إيجاد التقارب بين عناصر الأمبراطورية العربية، ففي المدن تعاون العرب مع أهل البلاد، واختلطوا بهم، وفسحوا المجال للقيام بالأعمال

---

(١) انظر: كريستنسن: ص ٣١٨.
(٢) انظر: العلي: **التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة** ص ٨٢ ــ ٨٣.
(٣) انظر: العلي: **التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية** ص ٨٩.
(٤) انظر: البلاذري: **فتوح البلدان** ص ٣٧٣، طبع دي غوبه، ليدن ١٨٦٦ م.
(٥) اليعقوبي: **تاريخ** ج ٢ ص ١٧٦. طبع: هوتسما ليدن ١٧٨٣ م.
(٦) البلاذري: **أنساب الأشراف** ج ٧ ص ١٣٩، طبع اهلورث ليدن ١٨٨٣ م.

المختلفة، ومما زاد في الاختلاط بين عناصر المجتمع العراقي ظهور ظاهرة الزواج، ونتج عن ذلك نشؤ جيل جديد من المولدين آباؤهم عرب وأمهاتهم أعجميات[1].

كما كان تأثير الفرس في الحياة الاجتماعية، وفي إقامة الحفلات والولائم فقيل: أراد الحجاج أن يولم وليمة احتفالاً بختان ولد له فاستحضر بعض الدّهاقين ليسألهم عن ولائم الفرس[2]، وتأثروا أيضاً في آداب الطعام عند الفرس، فقد كانوا لا يتحدثون أثناء الطعام إطلاقاً[3]، كما تأثروا بالملابس والزي الفارسي، فكان لكل مناسبة لباس خاص يختلف باختلاف مهنهم، ودرجاتهم الاجتماعية، فكان من عادة الأكاسرة أن يرسموا أسماءهم، أو علامات تميزهم في طرز أثوابهم بخيوط من الذهب، وجاء الخلفاء الأمويون، فاكتفوا بكتابة أسمائهم، وأسسوا لأجل ذلك دُوراً خاصة لنسج الملابس وتطريزها سُميت دُور الطراز[4].

استطاعت التقاليد الاجتماعية الفارسية أن تتغلغل في المجتمع العربي في العصر العباسي، وكان لبعضها أثر كبير في إفساد المجتمع العراقي، حيث انغمس الناس في عادة شرب الخمور، وفي إقامة الأندية، والمجاس الاجتماعية التي كانت تحيا فيها حفلات الرقص والغناء، واللذائذ الجنسية، وكان يصاحب هذه الندوات إظهار طرف من المبادىء المجوسية، التي كانت تعمل على التشكل في التقاليد الاجتماعية العربية، وبالتالي الخروج عليها وعلى السنن الدينية، وقد عرف أصحاب هذه الأساليب بالزنادقة[5] وقد تأثر العرب المسلمون بعادة التسري عند الفرس، فاقتنى العرب المسلمون الجواري الفارسيات وكان لهذه العادة تأثير كبير على مكانة المرأة العربية في المجتمع، وأدخلوا صوراً من

---

(١) انظر: محمود: **الإسلام والحضارة العربية** ص ٤٠ ــ ٤١.

(٢) ابن خلدون: **المقدمة** ص ١٢٢.

(٣) الجاحظ: **التاج في أخلاق الملوك** ص ١٨.

(٤) ابن خلودن: **المقدمة** ص ١٨٧.

(٥) انظر: العدوي: **المجتمع العربي** ص ١٨٦.

التزيين، وأنواعاً من الألبسة لم تكن ملحوظة من قبل[1]. كما أن دخول هؤلاء الجواري البيوت، واقتناء الرجل ما شاء منهن أدى إلى انتشار الفساد، وضعف الثقة بين الزوج وزوجته بإباحة العلاقات غير الشرعية، فكانت لهذه الظاهرة الاجتماعية تأثير بالغ في نفوس أهل الدين والتقوى[2].

تقوم الحياة الاجتماعية عند الفرس المجوس على الزواج، ويشير المقدسي (ت **٣٧٥ هـ/ ٩٨٥ م**)[3] إلى مراسمه عندهم فيقول: (ولهم أسواق على أيام الجمعة في السهل لكل قرية يوم فإذا فرغوا من تسوقهم اجتمع الرجال والنساء بمعزل، فإذا هوى الرجل امرأة راح معها، فيتلقاه أهلها بالبشر والترحيب، ويتباهون به (الرجل) فإن رغب في كرمهم (البنت) فيضّيفونه ثلاثة أيام ثم ينادي المنادي بعدما اجتمع معها أسبوعاً في عمارة بمعزل، فيجتمع الناس، ومع كل رجل قارورة من ماء ورد، والنيران تقد على باب العروسين، فيبدأ بعض مشايخهم فيخطب خطبة الزواج، ويجيبه من قبل العروس في خطبة ثم يعقدون النكاح ويقوم أصحاب القوارير، فيضربون بها الحيطان ثم يعطى صاحب كل قارورة طبقاً فيه نوع من الطعام يسمونه (آمروشة) وهي تُعمل من الدقيق والسمن واللحم. ومن العادات الاجتماعية عند المجوس، أن لا تتزوج المرأة التي مات عنها زوجها فإن فعلت ضرب الصبيان على بابها بالخرق)[4].

ولكن الفرس تأثروا فيما بعد بالعادات العربية الإسلامية التي تجيز الزواج بالأرملة، والمطّلقة، وكما فعل الرسول، فارتفعت منزلة المرأة الفارسية الأرملة والمطلقة، وأصبحت لها مكانة اجتماعية في ظل المجتمع العربي الإسلامي. وكانت المرأة الفارسية تحتجب الظهور بالنهار وإنما يخرجن في الليل في أكسية سود

---

(١) انظر: مليحة: **الحالة الاجتماعية في العراق** ص ١٦.
(٢) انظر: مليحة: **الحالة الاجتماعية في العراق** ص ١٧.
(٣) المقدسي: **أحسن التقاسيم** ص ٣٦٩ ــ ٣٧٠.
(٤) المقدسي: **أحسن التقاسيم** ص ٣٧٠.

(العباءة)[1] وقد انتقل استعمالها إلى المرأة المسلمة في العصر العباسي، وما زالت المرأة العراقية حتى الوقت الحاضر تتخذ العباءة السوداء، وتعتبرها من مظاهر الحجاب. ومن عادات المجوس أن لا يدفنوا موتاهم، ولا يحفرون لهم القبور، ويضعونهم في النواويس وضعاً لأنه بزعمهم يكرم بطن الأرض عن ذلك، ومن بغضهم لأبدان الموتى سموها بأسمج الأسماء فقالوا وعلى هذا المثال: أعظمنا النار والماء، وليس بأحق التعظيم من الأرض. ويسمون يوم القيامة (روز سهرها) ومعناه (يوم تقوم الجيف)[2] وكان لا يحمل من مات من المجوس حتى يدني منه كلب لأنه لا يخفى عليه مغمور الحس أهو حي أو ميت، وللكلب عند ذلك عمل يستدل به المجوس[3] وتقام المآتم للميت فيكشفوا رؤوسهم ويلتف المعزى والمعزي في الأكيسة السوداء، ويديرونها على رؤوسهم ولحاهم في مجالس في السكك والأسواق[4] ويبدو أن مجالس المآتم المجوسية كان لها أثرها عند بعض الفرق الإسلامية في العراق، وقد دخلت إليه في مطلع القرن الرابع الهجري عند دخول البويهيين بغداد سنة **٣٣٤ هـ** فتأثر الشيعة بصورة خاصة بهذه المراسيم، وفي إقامة مجالس التعزية في السكك، والأسواق في العراق للاحتفال بوفاة الإمام الحسين بن علي، ولم يسبق أن اتبعها المسلمون قبلاً.

□ □ □

---

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم ص ٣٧٠.
(٢) الجاحظ: الحيوان ج ٣ ص ١١٥.
(٣) المصدر السابق ج ٣ ص ١٠٥.
(٤) المقدسي: أحسن التقاسيم ص ٣٦٩.

الفصل الثاني:

دور أهل الذمة في العلوم والآداب والفنون

لقد أثرت حركة الفتح الإسلامي للعراق تأثيراً كبيراً في حياة المجتمع العراقي لأن التوسع الإسلامي بمظاهره الفكرية والعسكرية والبشرية أحدث توسعاً ثقافياً، وحركة علمية كبرى نابعة من الإسلام، وهدفها الدعوة إلى العقيدة الإسلامية، فأقبل سكان العراق على دراسة اللغة العربية وآدابها، وعلى المراجع الإسلامية، القرآن والحديث والفقه، وأنشئت المدارس، التي تركت نتائج عظيمة على المسلمين وأهل الذمة. حيث برز فيها الكثير من العلماء، واشتغلوا بالثقافة العربية على مستوى رفيع، نلمح أسماء كثير منهم في كتب التاريخ[1] والطبقات.

كما أن ظهور الفرق الإسلامية، ومذاهبها كان لها أثر كبير في توسع الثقافة، ونشر الحركة الفكرية في العراق، حيث التقت في العراق الثقافة العربية الإسلامية بالثقافات الفارسية واليونانية والهندية، ولكل منها صفاتها، وميزاتها، ثم لم تلبث أن اندمجت، فكونت الحضارة العربية الإسلامية، لقد أقبل أهل الذمة بعد الفتح الإسلامي للعراق على تعلم اللغة العربية ودراسة آدابها، وأخذوا يصوغون أفكارهم، وعلومهم، وآدابهم بما ينسجم والدين الإسلامي والتقاليد العربية، فأصبحت اللغة الحضارية السائدة في العراق هي العربية،

---

(١) ابن النديم: **الفهرست** البلاذري: **فتوح البلدان**؛ ابن سعد: **الطبقات**.

ولذلك فإن الشعوب غير الإسلامية (الغير عربية) فقدت ذاتيتها اللغوية[1]. وأخذ العرب من ثقافات البلاد المفتوحة ما يتلاءم ودينهم الإسلامي وتقاليدهم العربية، فأخذوا عن اليونان الرياضيات والحساب والهندسة والجبر والفلك والفلسفة والطب، وقليلاً من الثقافة الهندية، وتأثروا بالتقاليد الفارسية ونظام الحكم، ونظام الطبقات[2] في الحياة السياسية والاجتماعية، فيقول الجاحظ[3] (ت **٢٥٥** هـ/ ٨٦٨ م): وقد نقلت كتب الهند، وترجمت حكم اليونان، وحولت آداب الفرس، فبعضها ازداد حسناً، وبعضها ما انتقص شيئاً، ولو حولت حكمة العرب لبطل ذلك المعجز الذي هو الوزن مع أنهم لو حولوها لم يجدوا في معانيها شيئاً لم تذكره العجم في كتبهم التي وضعت لمعاشهم وفطنهم وحكمهم.

وساعد المتكلمون على مزج الثقافات للاطلاع على ديانات أهل الذمة (المجوسية، واليهودية، والمسيحية، والصابئية) وقد وجدوا أصحابها قد تسلحوا بالفلسفة اليونانية، فأقبل المتكلمون على دراستها للرد على خصومهم من أهل الذمة، وبذلك ساعدوا على إدخال الفلسفة اليونانية إلى الإسلام[4].

إن إقبال أهل الذمة على تعلم اللغة العربية للتقرب من الفاتحين، قد أدى إلى انتشارها وإلى شعور المجتمع العراقي بالانسجام والتجانس على اختلاف قومياتهم وأديانهم، فوحدت اللغة شعورهم، وأهدافهم، وكان لها أثر في إقبال الكثير من أهل الذمة على الدخول في الإسلام[5]، ولم يكن إقبال أهل الذمة على دراسة العربية بسبب الإكراه أو الإجبار، وإنما كما يقول المستشرق بارتولد[6]: ان غلبة اللغة العربية كان بالاختيار لا بسلطان الحكومة، وان تسامح العرب

---

(١) انظر: (Goitein, Jews and Arabs. p. 127).
(٢) انظر: أحمد أمين: ضحى الإسلام ج ١ ص ٣٧٧.
(٣) الجاحظ: الحيوان ج ١ ص ٣٨.
(٤) انظر: أحمد أمين: ضحى الإسلام ج ١ ص ٣٧٨.
(٥) انظر: ديموبين: النظم الإسلامية ص ١١.
(٦) انظر: بارتولد: الحضارة الإسلامية ص ٣٠.

أدى إلى انتشار العربية فدرس حنين بن اسحق على يد الخليل بن أحمد الفراهيدي وسيبويه حتى أصبح حجة في العربية[1]، وتتلمذ يحيى بن عدي في المنطق على يد الفارابي حتى أصبح أفقه رجال عصره[2]، ودرس ثابت بن قرة على يد محمد بن موسى[3]. وتلقى بن جذله علومه على يد علي بن الوليد من رجال المعتزلة[4].

ويقول الخربوطلي[5]: كان أهل الذمة مضطرين إلى تعلم العربية لصلتهم بالعرب في شؤون الزراعة والصناعة والتجارة، كما أدى تعريب الدواوين في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان وتعريب الثقافة إلى انتشار العربية على نطاق واسع بين أهل الذمة فقد كان عليهم إتقانها حتى يحتفظوا بوظائفهم في الدولة.

وبعد أن قطع أهل الذمة مرحلة كبيرة في تعلم العربية وآدابها، أخذوا ينقلون علومهم إلى العربية، فاستطاعوا بذلك، إصافة علومهم، وأفكارهم إلى ما عند العرب المسلمين، فتكوّن من ذلك مزيج من الحضارات أصبحت في ذاتها تختلف عن غيرها من الحضارات السابقة، مصبوغة بالطابع العربي، والأسلوب الإسلامي فسميت بالحضارة العربية الإسلامية. التي أخذت تنمو، وتزدهر منذ العصور الإسلامية الأولى، وأتت ثمارها في العصر العباسي الأول، حيث أصبحت بغداد حاضرة الامبراطورية العباسية فتهافت عليها رجال العلم، والثقافة، والأدب، والاقتصاد، والمال، لما كانت تتمتع به من المركز الثقافي، والعلمي، والسياسي، والاقتصادي. فنبغ أعداد كبيرة من الشعراء والأدباء والعلماء والفلاسفة، وكان أبرزهم في هذه الميادين النصارى[6]. وأهم ما برزوا

---

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ج ١ ص ١٨٥ ــ ١٨٩.

(٢) ابن العبري: مختصر تاريخ الدول ص ٢٩٦.

(٣) ابن العبري: مختصر تاريخ الدول ص ٢٦٥.

(٤) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ج ٢ ص ١٩٢.

(٥) انظر: الخربوطلي: الإسلام وأهل الذمة ص ١١٦.

(٦) انظر: رفائيل: أحوال نصارى بغداد ص ١٣٥.

فيه الترجمة من اليونانية والفارسية والهندية، أما اليهودية والصابئية فكان نصيبهم ضئيل جداً من الحضارة لانعزاليتهم إلى حد كبير عن المجتمع العربي. ويؤيد ذلك ما رواه المستشرق لوبون عن اليهود قبل الإسلام، فيقول[1] فيهم: لم يكن لليهود علوم، ولا فنون، ولا صناعة، ولا أي شيء تقوم به حضارة. . . ، وهم لم يجاوزوا قط مرحلة الأمم شبه المتوحشة التي ليس لها تاريخ. . . وقد اقتصرت معارفهم على تربية السوائم وفلح الأرض والتجارة بوجه خاص، وقد أسفرت غرائزهم في النهب والسلب، وقد أسفر تعصبهم عن عدم احتمال جميع جيرانهم لهم، وما كان لأمة من العرافين، والملهمين، والمجاذيب مثل ما كان لليهود، ولم يظهر فيهم من النوابغ غير الأنبياء والشعراء. ويؤيد ذلك الخربوطلي[2]، بقوله: ليس لليهود فلسفة نظرية أو عملية أو آثار فنية، وليست لهم حضارة تطبع دعوتهم الدينية بطابع يجمع بين الدين والدنيا، أو بين العبادة، والعلم تساير حضارات الشعوب التي تجاورهم، أو التي عاشوا بين ظهرانيهم، وأن إنتاجهم الحضاري في أدوار حياتهم الثلاثة (دور البداوة، والمملكة، والتشتت)، كان ضئيلاً جداً، ولم يستطيعوا أن يغذوا الحضارات الإنسانية الأخرى في مجالات الآداب والفنون والعلوم والفلسفة، وكل محصولهم الديني والثقافي هو تلك المواعظ، والترانيم التي وقفوها على أنفسهم، وذلك لميلهم إلى العزلة التي كانت سبباً في اشتغالهم بالسحر والشعوذة، وأصبحت العقلية اليهودية تختلف في تفكيرها، واتجاهاتها عن عقلية البشر جميعاً، ففي العهود الإسلامية عاش اليهود كغيرهم من طوائف أهل الذمة بين المسلمين، وقد شملهم الإسلام بعطفه وتسامحه معهم، واقتدى بتعاليمه الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين، وفتحوا لهم أبواب العمل، والحياة على مصراعيها، كما أن الثقافة العربية الإسلامية هي الأخرى مفتوحة أمام الجميع من مسلمين وذميين يتأثر بها، ويؤثر فيها كل ذي عقل وعلم، فبرزت شخصيات من أهل الذمة في مختلف العلوم والفنون والآداب، وكان لهم نصيب في ازدهار الحضارة

---

(١) انظر: لوبون: **اليهود في تاريخ الحضارات الأولى** ص ٢٥ ــ ٢١.

(٢) انظر: الخربوطلي: **الإسلام وأهل الذمة** ص ٢٥٠ ــ ٢٥١.

العربية الإسلامية. وأقل الشعوب غير الإسلامية تأثراً وتأثيراً فيها هم اليهود والصابئة.

ولم يكن من الممكن بالنسبة لليهود في العراق عزل أنفسهم عزلاً تاماً عن غالبية السكان وهم المسلمون، ولا عن الأقليات المسيحية والمجوسية والصابئية التي عاشت معهم، فتأثروا بالمؤثرات الفكرية التي سادت هذا المحيط، وظهرت بينهم الآراء التي أوجدت أصحاب المذاهب الكلامية والفقهية في اليهودية، فقد وردت في كتب الملل، وفي كتب التاريخ أسماء رجال من اليهود جاءوا بآراء مناقضة للديانة اليهودية، وأن منهم من ادعى أنه المسيح المنتظر، ونسبوا إليه أموراً تخالف شريعة موسى، منهم اسحق أبو عيسى بن يعقوب الأصفهاني، وسمى أتباعه (العيسوية)، حيث بدأ في آخر حكم بني أمية، واستمر حتى زمن المنصور العباسي، وذكر الشهرستاني (ت ٥٤٨ هـ/ ١١٥٣ م) أيضاً اسم شيعة يهودية دعاها (العنانية) نسبة إلى عنان بن داود من يهود العراق في عصر المنصور، وأنه يخالف اليهود في أمور كثيرة منها السبت والأعياد[١]، ويبدو أن ظهور هذه الآراء، والحركات الفكرية الدينية عند اليهود بسبب تأثرهم بالفلسفة اليونانية، التي كان لها أثرها في الفلسفة اليهودية التي جاءت في التوراة لتكوين فلسفة دنيوية لتفسير الكون، ومن هنا كان ارتباط الفلسفة اليونانية القديمة، والوثنية بالشرائع اليهودية، فـ (يهوا) عند اليهود هو كل شيء وصاحبها... في حين كان اليونانيون يعدون (جوبتر) أبا الآلهة، ورب الأشياء وصاحبها، ويتضح من ذلك بأن الاختلاف في التسميات فقط، حيث أصبح جوبتر من ثم صورة ليهوا[٢].

ولم تعرف الفلسفة اليهودية في العصور الإسلامية إلا من ملخصات الفارابي وابن سينا، ومن الترجمة المشوهة للافلاطونية، فقد أخذ معظم المفكرين

---

(١) انظر: جواد علي: (علم ابن النديم عن اليهودية والنصرانية) مجلة المجمع العراقي م ١٠ ص ١٥٩ ــ ١٦٠ سنة ١٩٦٢ م.

(٢) انظر: أوريغور: جذور الصهيونية ص ٨٢ ــ ٨٣

اليهود معلومـاتهم عن الفلسفة اليونانية من التراجم العبريـة، ومن شروع المسلمين، وكتبوها بالعربية، ولم يستخدموا أساليب المتكلمين المسلمين فحسب، بل استخدموا كذلك دقائق مناقشاتهم نفسها[1]، ويقول المستشرق ديورانت[2]: ولم يكن لليهود القابلية الفكرية والعلمية على الإبداع الفكري، فحتى التصوف اليهودي تأثر بالزرادشتية، وبالأفلاطونية الحديثة باستبدال الفيض الإلهي بعملية الخلق، وتأثروا بالتصوف الإسلامي، وبالكتب المسيحية، والمتصوفة الهنود، والمصريين. ويقول صاحب المقالة في دائرة المعارف اليهودية أن الفلسفة العبرية جاءت عن طريق كتبهم المقدسة وعن طريق تأثرهم بالفلاسفة العرب، ولذا لم تكن فلسفة، لأنه لم يكن من كتب فيها[3]، وقد كان اليهود يتلقون علومهم، ولغتهم العبرية في بيت المدراس[4]، وأخذوا العلوم والآداب عن اليـونان والرومان ومن العرب في فترة العهود الإسلامية[5]، حيث ازدهرت النهضة العلمية والفكرية في العصور الإسلامية، وبلغت أوج عظمتها في العصور العباسية، ولا سيما في عهد الرشيد والمأمون، وفسح المجال أمام أهل الذمة للقيام بدور الترجمة والنقل والتأليف.

وقد استفاد اليهود من العلوم العربيـة التي كانت سـائدة في البـلاد الإسلامية، فترجموا الكثير من المؤلفات العربية إلى العبرية، كما استفاد اليهود من علوم المسلمين الطبيعية، ولا سيما في الطب، وقد ترجموا الكثير من المؤلفات العربية الطبية إلى العبرية واللاتينية، وساعدوا بذلك على انتقال علم الطب من العرب إلى أوروبا المسيحية[6]، وأما في مجال العلوم الأخرى فقد عنوا بدراسة الفلك والتنجيم للاستفادة منه في تحديد أيام الأعياد، وبفضل هذه الدراسة

---

(١) انظر: ديورانت: قصة الحضارة ج ١٤ ص ١١٠؛ (The Jewish Ency, I.p. 16).

(٢) انظر: المصدر السابق ج ١٤ ص ١٣٦.

(٣) انظر: (The Jewish Encyclopedia I. p. 16).

(٤) المدراس: نوع من البيوت المقدسة عند اليهود لدراسة التوراة.

(٥) انظر: (Goitein Jews and Arabs, p. 99-100).

(٦) انظر: ديورانت: قصة الحضارة ج ١٤ ص ١١٠.

استبدل علماء الهيئة اليهود في العراق في القرن السادس الميلادي، التقديرات الفلكية بالإرصاد المباشر للقبة السماوية، وقد حسبوا السنة على أساس الحركة الظاهرية للشمس، والشهور على أوجه القمر، وسموا الشهور بأسماء بابلية، وجعلوا بعضها(كاملة) عدة كل منها ثلاثون يوماً، وبعضها (ناقصة)، عدة كل منها تسعة وعشرون يوماً، ثم وفقوا بين التقويمين القمري، والشمسي بإضافة شهر ثالث عشر إلى كل سنة ثالثة، وسادسة، وثامنة، وحادية عشرة، ورابعة عشرة وسابعة عشرة، وتاسعة عشرة في كل دورة مؤلفة من تسعة عشر عاماً[1].

ومع تأخر اليهود في مجال العلوم والآداب والفنون، فقد ظهر بينهم قلة قليلة جداً برزت في بعض مجالات العلم، منها ماشا الله بن اثري ظهر في أيام المنصور حتى أيام المأمون، ويقول عنه ابن النديم (ت ٣٨٥ هـ/ ٩٩٥ م)[2]: كان أوحد زمانه في علم الأحكام، وله من الكتب كتاب المواليد الكبير، ويحتوي على أربعة وعشرين كتاباً منها كتاب الأديان والملل وكتاب مطرح الشعاع، وكتاب المعاني، وكتاب صنعة الاسطرلاب، وكتاب الأمطار والرياح، وكتاب في المسائل، وفي شهادات الكواكب وفي تحويل سني المواليد، وكتاب في الدول ـ والملل والحكم. . . ومنهم أيضاً: هرون الكاهن بن يوسف من أحبار بغداد في القرن العاشر الميلادي، وابن ربن الطبري اليهودي المنجم، كان حكيمًا طبيباً عالماً بالهندسة، وأنواع الرياضيات، وترجم من الكتب الحكيمة، وكان ولده علي طبيباً مشهوراً انتقل إلى العراق وسكن سامراء[3] وجاء في عيون الأنباء[4] لابن أبي أصيبعه (ت ٦٦٨ هـ/ ١٢٧٠ م) عن أبي الحسن علي بن سهل بن ربن الطبري أنه أسلم على يد المعتصم وسكن سامراء، وأدخله المتوكل في جملة

---

(١) انظر: ديورانت: **قصة الحضارة** ج ١٤ ص ١٠٩؛ غنيمة: **نزهة المشتاق** ص ١١.

(٢) ابن النديم: **الفهرست** ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤؛ (Goitein, p. 100).

(٣) ابن القفطي: **أخبار الحكماء** ص ١٢٨؛ غنيمة: **نزهة المشتاق** ص ١١٥.

(٤) لقد أخطأ النساخ في اعتبار ابن ربن الطبري نصرانياً، وقد رود هذا الخطأ في الفهرست لابن النديم ص ٢٩٦، وفي ابن خلكان في الوفيات ج ٢ ص ٥٠٣؛ والصحيح أنه كان يهودياً وأسلم في عهد المعتصم (ابن أبي أصيبعة. عيون الأنباء ج ١ ص ٣٠٩).

ندمائه، ومن مؤلفاته فردوس الحكمة، وكتاب منافع الأطعمة والأشربة والعقاقير، وكتاب حفظ الصحة، وكتاب في الحجامة، وكتاب في ترتيب الأغذية.

ومن برز منهم أيضاً سند بن علي المنجم المأموني كان يهودياً وأسلم في عهد المأمون، وكان يعمل في جملة الراصدين[1]، ومن برز من يهود البصرة (Masar Jawaih) وقد كتب في الأدوية وترجم موضوعاتها من السريانية إلى العربية[2]. ومن أطباء اليهود في العراق فرات بن شحنانا خدم الحجاج الثقفي، وعيسى بن موسى العباسي ولي عهد المنصور[3].

وأتقن بعضهم اللغة العربية وآدابها، واهتم بقواعد النحو، منهم هرون بن موسى، يهودي بصري أسلم واشتغل بالأدب، وضبط النحو، ولكنه لم يؤلف فيه[4] وظهر بعض الشعراء اليهود الذين كتبوا قصائدهم بالعربية، ومنهم من كتب في فقه اللغة العربية، وفي الآثار القديمة أشهرهم أبو عبيدة الشاعر المتوفى سنة ٢٠٩ هـ اليهودي الفارسي، وله كتاب المثالب[5].

ويبدو أن من برز من هؤلاء اليهود في بعض الميادين العلمية يعود إلى اتصالهم بالحضارة العربية الإسلامية، فاستقوا من مناهلها علومهم المختلفة، ورغم أن النصارى كانوا أقرب إلى الحضارة الاغريقية، وعلومهم إلا أنهم (أي النصارى) لم يثابروا على المحافظة على تفوقهم العلمي، بل استأثر به المسلمون، فلم يقدر النصارى على أن ينجبوا عالماً واحداً يصح مقارنته بالفارابي وابن سينا والبيروني وابن رشد[6].

---

(١) انظر: غنيمة: **نزهة المشتاق** ص ١١١.

(٢) انظر: (Goitein, Jews and Arabs. p. 100).

(٣) انظر: غنيمة: **نزهة المشتاق** ص ١١٠.

(٤) انظر: جرجي زيدان: **تاريخ آداب اللغة العربية** ج ٢ ص ١١٤؛ غنيمة ص ١٦٧.

(٥) انظر: (Goitein p. 126)، مجلة المقتطف العدد ٤٤، ج ٢ ص ١٦٧.

(٦) انظر: بارتولد: **تاريخ الحضارة الإسلامية** ص ٥٤.

لقد كان الفكر المسيحي في العصر الأموي له صلة بالثقافة الإغريقية بواسطة النساطرة الذين طردوا من الامبراطورية البيزنطية، بسبب اختلافهم مع كنيسة بيزنطية، فرحلوا إلى نصيبين والرها، ولجأوا أخيراً إلى الدولة الساسانية حيث أنشأوا في هذه البلاد المدارس التي هي على غرار مدارس بيزنطة، ومن أبرزها مدرسة نصيبين[١]، وجنديسابور[٢]، فكانت هذه المدارس متأثرة بالفلسفة اليونانية، والفكر المسيحي النسطوري، وتقول سيدة كاشف[٣]: (أن تعاليم الثقافة الإغريقية كان لها أثرها في اتجاه الفكر عند المسلمين). ويؤيد ذلك جواد علي[٤]، بقوله: (كان العراق مركز العالم الإسلامي في دراسة العلوم الشرعية والعقلية تنازعه آراء ومذاهب عديدة فلسفية، وكلامية من دخول الآراء الفلسفية اليونانية إليه، وقد كانت هذه الآراء في الغالب مشوبة بآراء غريبة نصرانية دخلت عليها).

ولم تكن النهضة العلمية مقتصرة على عاصمة الخلافة العباسية، وإنما كانت منتشرة في أغلب المدن العراقية فقد ازدهرت النهضة العلمية والفكرية في الموصل ووصلت درجة عالية من الرقي لقربها من بغداد، وكثرة سكانها العرب، واهتمامها بالناحية العلمية رغم انتشار الفتن الأهلية فيها فبرز فيها شخصيات علمية إسلامية ومسيحية، أنشأوا المدارس، والمعاهد ومن أشهرهم ابراهيم الموصلي وابنه إسحق فقد اشتهر بفن الموسيقى والآداب اللغوية، والعلوم

(١) نصيبين: وهي مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام فتحها عياض بن غنم بأمر من سعد بن أبي وقاص في خلافة عمر بن الخطاب (ياقوت: معجم البلدان ج ٤ ص ٧٨٧ ـ ٧٨٨).

(٢) جندسابور: مدينة بخوزستان بناها سابور بن أردشير فنسبت إليه وأسكنها سبى الروم وطائفة من جنده. فتحت سنة ١٩ هـ في أيام عمر بن الخطاب (ياقوت: معجم البلدان ج ٢ ص ١٣١ ـ ١٣٢).

(٣) انظر: كاشف: الوليد بن عبد الملك ص ٢٢٥.

(٤) انظر: جواد علي: علم ابن النديم باليهودية والنصرانية م ١٠ ص ١٦٨، مجلة المجمع العراقي لسنة ١٩٦٢ م.

الفقهية، والحقوق الشرعية حتى قال المأمون عنه: (لو لم يشتهر إسحق بفن الغناء لجعلته قاضياً لغزارة علمه) ومنهم محمد بن الخطاب الموصلي (منتصف القرن االثالث الهجري) وزكريا الأزدي صاحب «تاريخ الموصل» (أواخر القرن الثالث الهجري)، وبرز جمهرة من علماء النصارى في العلوم الدينية واللغوية والفلسفية منهم يوحنا بن خلدون الموصلي الذي اشتهر في العلوم الفلسفية وللغوية وإسحق النينوي الشاعر الشهير (القرن الثاني الهجري) وتوما المرجي صاحب كتاب الرؤساء (القرن الثالث الهجري)[1].

لقد نعم النصارى بعد الفتح الإسلامي بالتسامح الديني والحرية الكاملة، ولما كانوا عرباً فقد التفوا حول المسلمين للروابط القومية واللغوية التي تربطهم بإخوانهم العرب المسلمين، فأقبلوا على بعث التراث العربي، وذلك بالعناية باللغة العربية وآدابها، فأخذوا ينقلون من اللغة السريانية[2] إلى العربية، ولأن اللغة العربية أوسع من السريانية بدليل أن فيها أسماء كثيرة، وليس عند السريانيين ولا عند غيرهم إلا اسم واحد فقط[3] كما عني النصارى بدراسة الأدب العربي، فلما قامت الدولة العربية في العصر الأموي، وقبض الأمويون على مقاليد الأمور، اعتمدوا على الأحزاب السياسية لضرب خصومهم، فقربوا الشعراء والأدباء، وأغدقوا عليهم الأموال لمدحهم، ولتأييد حقهم في الخلافة[4]، ومن مشاهير شعراء النصرانية في العصر الأموي الأخطل[5] الملقب (بذي الصليب) لأنه كان يعلق صليباً على صدره[6]، وموضعه من الشعر أكبر من

---

(١) انظر: الصائغ: **تاريخ الموصل** ج ١ ص ٩٣.

(٢) اللغة السريانية: هي إحدى اللغات السامية انتشرت في العراق وبعض البلدان المجاورة ولم تزل حتى بدأت اللغة العربية بالانتشار على نطاق واسع في هذه البلاد بعد الفتح الإسلامي وقد استعملتها الكنيسة المسيحية وقام النصارى بنقل مؤلفات اليونان إلى العربية، ولا زالت السريانية هي اللغة الدينية عند نصارى العراق (برصوم، اللؤلؤ المنثور ص ٢٢ ـ ٢٣).

(٣) ايليا: **المجالس السبعة** (مخطوط) ورقة ٢٨ و.

(٤) انظر: رفائيل: **تاريخ نصارى العراق** ص ٩٥.

(٥) الأخطل: **غياث بن غوث بن الصلت بن طارفة التغلبي الحيري** (الأصفهاني الأغاني ج ٧ ص ١٦٢).

(٦) انظر: رفائيل: **تاريخ نصارى العراق** ص ٩٥.

أن يحتاج إلى وصف، فهو وجرير والفرزدق، طبقة واحدة، وقد لقبه عبد الملك بن مروان بـ(أشعر العرب) وقال فيه الخليفة أيضاً: (لكل قوم شاعراً وأن شاعر بني أمية الأخطل[1] وقد هجا أعداء الأمويين من قيسيين وزبيريين، فقيل فيه: يا عجب للأخطل النصراني يهجو المسلمين، وكان يدخل على الخليفة عبد الملك بن مروان بغير إذن، وفي عنقه سلسلة ذهب فيها صليب، وتنفض لحيته خمراً[2].

وقال الراوية فيه: حينما سئل عن الأخطل، ما تسألوني عن رجل حبب إلى شعره النصرانية[3]. واشتهر من شعراء النصرانية في العصر الأموي أعشى بني[4] تغلب وكان مكرماً من قبل الخليفة الوليد بن عبد الملك، وأقام مع قومه بنواحي الموصل وديار ربيعة[5] واشتهر أعشى ربيعة[6] أبي ربيعة، وهو من ساكني الكوفة، وكان مرواني المذهب شديد التعصب لبني أمية، رحل إلى الشام، ومدح الخليفة عبد الملك والخليفة سليمان بن عبد الملك، ونال صلاتهم[7] ومنهم مرقس الطائي، واسمه عبد الرحمن، ظهر أيام الدولة الأموية، ومنهم أيضاً حنين الحيري الشاعر المغني، وكان من نصارى الحيرة، ويعتبره صاحب مسالك الأبصار من مشاهير أهل الموسيقى، ومن سراة أهل الغناء[8]، ذكره ابن النديم في الفهرست، وإليه تنسب الحنينيات التي ورد ذكرها في شعر دعبل الخزاعي.

وذكر الأصفهاني (ت ٣٥٦ هـ/ ٩٦٦ م) حنيناً، بأنه كان شاعراً ومغنياً، أما شعره فلم يبق منه إلا القليل، وأما غناؤه فكثير، وله الأصوات المتعددة[9]

---

(١) الأصفهاني: **الأغاني** ج ٧ ص ١٦٢ ــ ١٦٧.

(٢) الأصفهاني: **الأغاني** ج ٧ ص ١٦٩.

(٣) انظر: المدور: **حضارة الإسلام في دار السلام** ص ٣٦.

(٤) قيل اسمه ربيعة: وقيل النعمان بن يحيى بن معاوية بن تغلب (الأصفهاني ج ١٠ ص ٩٣).

(٥) الأصفهاني: **الأغاني** ج ١٠ ص ٩٣.

(٦) المصدر السابق ج ١٦ ص ١٦٠.

(٧) الجاحظ: **التاج** ج ٤ ص ١٦٣.

(٨) انظر: شيخو: **شعراء النصرانية** ج ٢ ص ١٦٢.

(٩) الاصفهاني: **الأغاني** ج ٢ ص ١٢٢.

ومنهم الشاعر القطامي[1] التغلبي، ابن أخت الأخطل التغلبي، كان أبوه من أصحاب خالد القسري والي الكوفة، وقال الأصفهاني (ت ٣٥٦ هـ/ ٩٦٦ م)[2] كان القطامي نصرانياً وهو شاعر إسلامي (عاش في العصور الإسلامية) وذكر ديوانه حاجي خليفة (ت ١٠٦٧ هـ/ ١٦٥٦ م)[3] في كشف الظنون ومات سنة ١٠١ هـ وكان الشاعر كعب بن جعيل التغلبي موالياً لبني أمية كالأخطل وحارب مع قومه في صفين، واتصل كعب بسعيد بن العاص، وكان أمير الكوفة لعثمان، وامتدحه بشعره، وعاصر الدولة الأموية وقد ضاع ديوان شعره[4] وروى الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ/ ٨٦٨ م)[5]، أن يزيد بن معاوية طلب من كعب بن جعيل أن يهجوا الأنصار فقال له كعب: (أراد أنت إلى الكفر بعد الإسلام، لا أهجو قوماً نصروا رسول الله وآووه، ولكني سأدلك على غلام في الحي كافر كأن بسانه لسانه ثور) يعني بذلك الأخطل.

ومن شعرائهم العديل بن الفرج البكري، وكان نصرانياً عاصر حكم الحجاج الثقفي بواسط، وعاش في البصرة، وكان ينادم الفرزدق ويصاحبه[6] .

وأما العجاج بن رؤبة، وهو عبد الله بن رؤبة من تميم عاش في البصرة منذ أيام الراشدين والأمويين، ومدح من خلفاء بني أمية يزيد بن معاوية، وسليمان بن عبد الملك، وبشر بن مروان، ومدح عاملهم على العراق الحجاج الثقفي، وعاش إلى أيام الوليد ومات سنة ٩٠ هـ[7]. وقد ازدهرت العلوم والآداب والفنون في العصر العباسي وشجعهم على ذلك خلفاء بني العباس كما اهتموا

---

(١) اسمه عمير بن شييم بن عمرو واحد بني بكر بن تغلب والقطامي لقب غلب عليه وهو من أسماء الصقر.

(٢) الأصفهاني: **الأغاني** ج ٢٠ ص ١١٨.

(٣) حاجي خليفة: **كشف الظنون** ج ٣ ص ٣٠٢.

(٤) انظر: شيخو: **شعراء النصرانية** ف ٢ ص ٢٠٣ ــ ٢٠٨.

(٥) الجاحظ: **البيان والتبيين** ج ١ ص ٦٣.

(٦) الأصفهاني: **الأغاني** ج ٢٠ ص ١٩.

(٧) انظر: شيخو: **شعراء النصرانية** ف ٢ ص ٢٢٨ ــ ٢٢٩.

أيضاً بدراسة اللغة العربية وآدابها، وأدى هذا الاهتمام إلى ظهور جمهرة من الكتاب تنافسوا في صناعة الإنشاء العربي وتفننوا في أساليبه، ومقاصده ومعانيه[1]، فعرف من شعراء النصرانية في العصر العباسي، أو قابوس عاش في عهد الرشيد، وكان منقطعاً إلى شعراء البرامكة، كالرقاشي، وأشجع السلمي وجحظة البرمكي، وتقرب بهم إلى الرشيد، فقال فيه البغدادي (ت ٤٦٣ هـ/ ١٠٧٠ م)[2]، (دخل أبو قابوس على جعفر البرمكي في يوم بارد خاصاً به برد فقال: جعفر يا غلام إطرح عليه كساء، فطرح عليه كساء من خز قيمته ألف دينار) ومن أشهرهم أبو تمام الطائي، وهو حبيب بن أوس الطائي، ويكنى بأبي تمام، وتمام ابنه كان يعمل بدمشق عند حائك، ثم رحل إلى العراق، وبلغ الخليفة المعتصم خبره فحمل إليه فمدحه أبو تمام بقصائد عدة فأجازه المعتصم، وقدمه على شعراء عصره[3] وظهر شعراء وأدباء آخرون من النصارى بعد عصر المتوكل منهم، ثابت بن هارون، وبشر بن هارون، وعيسى بن فرخنشاه، الذي اشتهر في أيام الخلفاء، المستعين والمهتدي والمعتز والمعتمد، واسمه يدل على أن أصله من نصارى العجم[4] وابن بطريق، وقد تسمى غير واحد بابن بطريق كسعيد بن بطريق صاحب التاريخ، ويحي أو يوحنا بن بطريق، وعيسى بن بطريق، وكلهم نصارى عاشوا في القرن الثالث الهجري، والأرجح أن أحدهم هو الشاعر، وغيرهم كثيرون ممن عاشوا في القرن الرابع والخامس الهجري.

ولعل ازدهار الحضارة وتطور العلوم يعود إلى رغبة العرب المسلمين في الاطلاع على ما عند الأمم الأخرى من علوم ومعارف، ويقول عنهم (العرب) المستشرق سيديو[5]: (كان العرب وحدهم حاملين لواء الحضارة في القرون

---

(١) انظر: رفائيل: **تاريخ نصارى العراق** ص ٩٦؛ شيخو: **شعراء النصرانية** ص ٢٤١.

(٢) البغدادي: **تاريخ بغداد** ص ٨٣، من نسخة باريس.

(٣) انظر: شيخو: **شعراء النصرانية** ص ٢٥٧.

(٤) انظر: المصدر السابق ص ٢٦٤.

(٥) انظر: سيديو: **تاريخ العرب العام** ص ٣٨٣ ـ ٣٨٥.

الوسطى، وقد حرروا بربرية اوروبا، وسار العرب إلى منافع فلسفة اليونان ولم يقفوا عند حد ما اكتسبوه من كنوز المعرفة بل وسّعوه، وفتحوا أبواباً جديدة في مختلف العلوم، وإذا ما بحث في الوجه الذي أيقظ الحضارة في الشرق هو حب العرب للعلم، وشوقهم إلى تعجيل رقيه بأنفسهم، وجب ذكر استعدادهم الفطري لها. وقام النساطرة في العراق بدور كبير في نشر الثقافة بإنشاء المدارس، ونقل ما عند اليونان إليهم، فنقلوا عن الكتب اليونانية إلى الفرس قبل الفتح الإسلامي، وإلى العرب بعده، فأنشأوا مدرسة طبية في الرها، وبعد خرابها انتشر النساطرة في بلاد فارس، ونالوا نفوذاً سياسياً فيها، وأسسوا في جنديسابور من أعمال عربستان كلية طبية جديدة[1]، وأول من علم الطب بها أطباء من الروم، وقد روي أن الحارث بن كلدة الثقفي طبيب العرب، تعلم قبيل الإسلام في مدرسة جند يسابور[2]، وكانت تدرس فيها الثقافة الهندية بجانب الثقافة اليونانية، واشترك بعض الهنود في التدريس بها باللغة الفهلوية[3]، ويقول المستشرق ديورانت[4]: كان بنو أمية حكماء إذ تركوا المدارس الكبرى المسيحية أو الصابئية أو الفارسية قائمة خاصة في حران ونصيبين وجنديسابور، وغيرها، ولم يمسوها بأذى، وقد احتفظت هذه المدارس بأمهات الكتب الفلسفية والعلمية معظمها في ترجمته السريانية، وما لبثت أن ظهرت ترجماتها إلى العربية على أيدي النساطرة المسيحيين، وقد بقيت هذه المدارس تؤدي عملها في العصور الإسلامية، وزاد اتصالها بالمسلمين في العصر العباسي، وذلك منذ عهد المنصور حيث تعذر على أطبائه علاج معدته، فدلوه على جورجيس بن بختيشوع رئيس أطباء مدرسة جنديسابور[5] وتعاقب غيره من خيرة أطباء مدرسة الجنديسابور على الانصراف لعلاج خلفاء بني العباس، وكانوا جميعاً نصارى. أما في العراق فقد أنشأ النصارى فيه خمسين مدرسة وكانت تدرس فيها اللغة العربية

---

(١) انظر: سيديو: **تاريخ العرب العام** ص ٢٨٦.

(٢) القفطي: **أخبار الحكماء** ص ١٦١.

(٣) انظر: أحمد أمين: **ضحى الإسلام** ج ١ ص ٢٥٦.

(٤) انظر: ديورانت: **قصة الحضارة** ج ١٣ ص ١٧٧.

(٥) ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء** ج ١ ص ١٧٥؛ رفائيل: **تاريخ نصارى العراق** ص ٧٨.

وآدابها، الآرامية واليونانية والفارسية، وكانت تقام في الكنائس والبيع والديارات[1] وقد دُرس في هذه المدارس المختلفة العلوم العقلية واللغة والنحو والشعر والتاريخ والجغرافية والموسيقى والهندسة والفلك والطب والمنطق والفلسفة وعلوم الدين، (اللاهوت) بالإضافة إلى اللغة العربية والآرامية واليونانية[2] وقد ألحق بهذه المدارس خزائن الكتب والمكتبات[3].

وشجع الأمويون حركة الترجمة إلى العربية، وأول كتاب طبي ترجم إلى العربية كان في خلافة مروان بن الحكم (٦٤ ـ ٦٥ هـ) وهو كناش[4] أهرن القس بن أعين، وقد احتوى على ثلاثين مقالة نقلها من الآرامية إلى العربية ماسرجويه الطبيب البصري، وزاد عليها مقالتين[5] وقد أقام الرهبان المدارس في الأديرة، فكانت في دير مارفيثون مدرسة كبيرة، وقال المؤرخ ماري بن سليمان: (لما بنى المنصور مدينته (في الكرخ) ونزلها الناس هدم سبر يشوع (جاثليق النصارى) وجدد بناء بيت الأشهاد، والأروقة ونصب أسكولاً (مدرسة) وجمع المتعلمين بها[6] وكان للنصارى في الكرخ مدرسة أخرى، فذكر ابن القفطي (ت ٦٤٦ هـ/ ١٢٤٨ م)[7]، (أن ابن بطلان الطبيب البغدادي قرأ الطب على علماء زمانه من نصارى الكرخ) وذكر ابن العبري (ت ٦٨٥ هـ/ ١٢٨٦ م)[8]، (ان الطبيب البغدادي يحي بن عيسى بن جزلة درس الطب لدى نصارى الكرخ الذين كانوا في أيامه) وكانت في محلة دار الروم[9]، ودرب القراطيس[10]،

(١) انظر: رفائيل: **مدارس العراق قبل الإسلام** ص ٣٧.

(٢) ابن كلدو وآثور ص ٧.

(٣) ابن النديم: **الفهرست** ص ٢٤٣؛ رفائيل: **أحوال نصارى بغداد** ص ١٣٧.

(٤) كناش: جمعها كناشات أوراق تجعل كالدفتر يقيد فيها الفوائد والشوارد. (تاج العروس ج ٤ ص ٣٤٧ مصر سنة ١٩٤٨ م).

(٥) ابن القفطي: **أخبار الحكماء** ص ٥٧.

(٦) انظر: رفائيل: **تاريخ نصارى العراق** ص ٧٨.

(٧) ابن القفطي: **أخبار الحكماء** ص ١٩.

(٨) ابن العبري: **تاريخ مختصر الدول** ص ٣٣٩.

(٩) ذخيرة الأذهان ج ١ ص ٣٩١.

(١٠) يقع في غرب الكرخ ببغداد، وكانت فيه مدرسة وكنيسة (أخبار قطاركة كرسي المشرق ص ٨٥).

وبيعة الكرخ[1]، ودرب دينار، وسوق الثلاثاء[2] مدارس واسعة تضم بين جدرانها مئات من الطلاب، وأكبر هذه المدارس مدرسة مار ماري، التي تقع بعيداً عن بغداد في دير قني وقد نبغ فيها أعظم مشاهير علماء النصارى[3].

ويبدو أن هذه المدارس كانت دينية خاصة بالنصارى، وتدرس فيها بالإضافة إلى العلوم الدينية اللغة السريانية واليونانية، لذا أصبحت من مراكز الثقافة اليونانية والسريانية حتى الفتح الإسلامي. واشتهرت الموصل بمدارسها منها مدرسة دير مار جبرائيل المعروف بالدير الأعلى على نهر دجلة في جوار الطابية العليا (بأشطابية)[4] ومدرسة دير مار ميخائيل الواقع شمالي الموصل، ومدرسة النبي يونس (يونان) في نينوى، ومدرسة مار إيليا الجزري في غربي الموصل[5] وكانت تدرس في هذه المدارس مختلف العلوم والفلسفة واللاهوت واللغات. ومن المدارس التي أسسها النصارى في العراق مدرسة قطسفون أو (طيسفون) أو (المدائن)[6] وفي أوائل القرن السابع للميلاد اشتهرت مدرسة قنسرين على الفرات بتعليم فلسفة اليونان، وأبرز تلامذتها الأسقف ساويرس الذي نقل بعض علوم الفلسفة واللاهوت إلى السريانيـة، وبرز من تـلامذتـه يعقوب الرهاوي، واضع علم النحو السرياني، وجورجيس المعروف بأسقف العرب فقد ترجم بعض كتب أرسطو[7]

وكان لهذه المدارس أثر كبير في نشر الثقافة، بما أنجبته من العلماء، والأدباء، والمؤلفين، وكان أبرزهم في العصر العباسي يوحنا بن ماسويه رئيس

---

(1) انظر: المجدل ص ١١٩.
(2) انظر: أخبار قطاركة: كرسي المشرق ص ١٣١.
(3) انظر: **مجلة المشرق** ج ١٠ ص ٤٤٥.
(4) انظر: **ذخيرة الأذهان** ج ١ ص ١٩١.
(5) انظر: الصائغ: **تاريخ الموصل** ج ١ ص ٩٣؛ ج ٢ ص ٤٤.
(6) انظر: طرازي: **عصر السريان الذهبي** ص ٧.
(7) انظر: جرجي زيدان: **تاريخ التمدن الإسلامي** ج ٣ ص ١٥٠.

أعظم مدرسة في بغداد في العصر العباسي، ويعقوب الكندي فيلسوف العرب، وحنين بن إسحق شيخ تراجمة عصره، ورئيس الفلاسفة والأطباء [1] وقد تأثر هؤلاء إلى حد كبير بتشجيع العرب المسلمين لهم في ميادين العلوم والمعارف ويؤيد ذلك المستشرق ديورانت[2] بقوله: (كان المسلمون شديدي التحمس بتوسيع ونشر علوم الطب والعلوم الصيدلانية، فأنشأوا مدارس للطب وللصيدلة، وأنشأوا لذلك المستشفيات (المارستانات) ولدينا أسماء أربعة وثلاثون بيمارستان كانت قائمة في البلاد الإسلامية في ذلك الوقت.

ولم تكن مدارس النصارى هي المعوّل عليها لنشر الثقافة في العراق منذ الفتح الاسلامي، حتى العصور العباسية، فقد أدى إلى انتشار العلوم والمعارف أكثار الخلفاء من إنشاء المدارس والجامعات، ولم تكن هذه المدارس والجامعات مقتصرة على الطلبة المسلمين بل تعداه إلى أهل الذمة الذين أقبلوا على دراسة العلوم العربية وآدابها، فقد قرأ الكثير من أهل الذمة على مدرسين وعلماء وفقهاء مسلمين وفي معاهد إسلامية منهم: حنين بن إسحق الذي تلقى علومه العربية على الخليل بن أحمد الفراهيدي[3] وسيبويه[4] حتى أصبح حجة في العربية،

---

(١) انظر: الطرازي: **عصر السريان الذهبي** ص ٦.

(٢) انظر: ديورانت: **قصة الحضارة** ج ١٣ ص ١٩٠.

(٣) الخليل بن أحمد الفراهيدي، أقام بالبصرة قيل عنه كان غاية في تصحيح القياس واستخراج مسائل النحو وتعليله. أخذ عنه الأصمعي وسيبويه وغيرهم وهو أول من استخرج العروض وضبط اللغة وحصر أشعار العرب وله تصانيف منها كتاب العروض وكتاب العين في اللغة وكتاب النقط والشكل وغيرهم. توفي سنة ستين ومائة وقيل سبعين ومائة وقيل سنة خمس وسبعين ومائة (١٧٥ هـ/ ٧٩١ م)؛ (معجم الأدباء، ياقوت ج ١١ ص ٧٢ ــ ٧٧).

(٤) سيبويه: (ت ١٨٣ هـ/ ٧٩٩ م) عمرو بن عثمان بن قنبر النحوي. وسيبويه لقب معناه رائحة التفاح. وقيل كان كل من يلقاه يشم منه رائحة الطيب فسمي سيبويه وأصله من البيضاء من أرض فارس ومنشؤه البصرة ومات فيها. وأخذ سيبويه النحو والأدب عن الخليل بن أحمد الفراهيدي وغيره. (ياقوت معجم الأدباء ج ١٥ ص ١١٤ ــ ١١٧).

وتتلمذ يحي بن عدي[١] على يد الفارابي[٢] حتى أصبح أفقه رجال عصره في المنطق[٣] ودرس ثابت بن قرة (٢٢١ ــ ٢٨٨ هـ/ ٨٣٦ ــ ٩٠١ م) على يد محمد بن موسى[٤]. وتلقى ابن جزلة علومه على يد علي بن الوليد من رجال المعتزلة[٥].

وكان الفقهاء والعلماء المسلمون يدرسون التوراة والإنجيل وشروحهما للطلبة من أهل الذمة. فذكر ابن خلكان (ت ٦٨١ هـ/ ١٢٨٢ م)[٦]، (أن الفتح موسى بن أبي الفضل الملقب كمال الدين الفقيه الشافعي، كان ملمًا بشروح التوراة والإنجيل، فيقول: وكان أهل الذمة يقرأون عليه التوراة والإنجيل وشرح لهم هذين الكتابين شرحاً يعترفون أنهم لا يجدون من يوضحهما لهم مثله، وبقي أهل الذمة يتمتعون بحق التعليم، وحرية الالتحاق بالمعاهد والمدارس الإسلامية لتعلم مختلف العلوم والمعارف فيها حتى عهد الخليفة المتوكل (المتوفي-سنة ٢٤٧ هـ) الذي حظر على أهل الذمة تعلمهم في المدارس الإسلامية فقد أمر (بأن لا يعلم أولادهم «أهل الذمة» في مكاتب المسلمين)[٧].

ويبدو أن هذه الإجراءات وقتية بدليل لم يرد لنا نص واحد يشير إلى خليفة

(١) يحيى بن عدي: ٢٨٠ ــ ٣٦٤ هـ/ ٨٩٤ ــ ٩٧٥ م، ولد بتكريت وانتقل إلى بغداد وقرأ على الفارابي وترجم عن السريانية كثيراً إلى العربية وتوفي ببغداد ودفن في بيعة القطيعة وكان ملازماً لنسخ الكتب بيده وكتب نسختين من تفسير الطبري وما ترجمه عن السريانية إلى العربية (النواميس)، الأفلاطون و(ما بعد الطبيعة) و(الكلام على الشعر) (الزركلي، الأعلام ج ٩ ص ١٩٤).

(٢) الفارابي: (٢٥٩ ــ ٣٣٩ هـ/٨٧٢ ــ ٩٥٠ م) أبو مضر محمد بن محمد الحكيم الفيلسوف صاحب التصانيف في فنون الفلسفة، مات بدمشق سنة ٣٣٩ هـ وكان تلميذ يوحنا بن جبلان. (ياقوت، معجم البلدان ج ٣ ص ٨٣٤).

(٣) ابن العبري: **تاريخ مختصر الدول** ص ٢٩٦.

(٤) ابن العبري: **تاريخ مختصر الدول** ص ٢٦٥.

(٥) ابن أبي أصيبعة: ج ٢ ص ١٩٢.

(٦) ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ٤ ص ٣٩٧.

(٧) انظر: **أخبار قطاركة كرسي المشرق** ص ٧٩.

من الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين، منعوا أهل الذمة من التعلم في المدارس والمعاهد الإسلامية.

وقد كانت هذه المدارس لا تقوم فقط بمهمة التعليم لمختلف صنوف العلم والمعرفة، وإنما كانت دوراً للترجمة والنقل والتأليف، فتعتبر الفترة الواقعة بين ظهور الفرق المسيحية، وبين الفتح الإسلامي للعراق غنية بالترجمة من اليونانية إلى السريانية، وذلك لأن الفرق المسيحية استخدمت الفلسفة اليونانية لتأييد معتقداتها، وكانت الترجمة منصبة على علم اللاهوت والدراسات الدينية.

وبعد الفتح الإسلامي، حيث ابتدأت الترجمة من اليونانية إلى العربية وذلك منذ العصر الأموي بتأثير المسيحيين في القرن الأول الهجري. فإن خالد بن يزيد الأول (ت ٨٥ هـ) كان أول المحببين لعلوم اليونان، فأمر بترجمة الكتب في علم الهيئة والطب والكيمياء حتى يروى أنه وجد الحجر الفلسفي الذي يصنع به الذهب الاصطناعي[١]، ومن أشهر ما نبغ في العصر الأموي من المترجمين يعقوب الرهاوي الذي ترجم كثيراً من كتب الإلهيات اليونانية إلى العربية[٢]. ودخلت علوم اليونان وفلسفتهم إلى العرب في العصر العباسي منذ خلافة المنصور حيث كان شغوفاً بالطب والهندسة والنجوم، وهو أول من راسل ملك الروم يطلب منه كتب الحكمة، فبعث إليه كتاب اقليدس، وبعض كتب الطبيعيات[٣] وجمع حوله صفوة مختارة من العلماء في مختلف نواحي المعرفة، وشجع على ترجمة العلوم من اللغات الأخرى.

وقد نقل حنين بن إسحق (١٩٥ ـ ٢٦٠ هـ/ ٨٠٩ ـ ٨٧٣ م)، للمنصور بعض كتب أبقراط، وجالينوس في الطب، وترجم يحي بن بطريق كتاب المجسطي، وترجم كل من جورجيس بن جبرائيل الطبيب، وعبد الله بن

---

(١) انظر: بارتولد: **تاريخ الحضارة الإسلامية** ص ٦٩.

(٢) انظر: أحمد أمين: **فجر الإسلام** ص ١٦٢.

(٣) حاجي خليفه: **كشف الظنون** ج ١ ص ٦٧٩.

المقفع الكتب المنطقية لأرسطوطاليس، واعتنى يوحنا بن ماسوية وسلام الأبرش، وباسيل المطران بكتب الطب[1].

وقد زادت عناية الرشيد، واهتمامه بترجمة الكتب، فأمر بترجمة جميع ما وقع في حوزتهم من الكتب اليونانية، كما وسّع ديوان الترجمة الذي كان قد أنشأه المنصور لنقل العلوم إلى العربية، وزاد عدد موظفيها[2]، فولى الخليفة تعريب الكتب إلى الطبيب يوحنا بن ماسويه، وعين له كتاباً حذاقاً يشتغلون بين يديه، ويساعدونه في عمله[3]، ولما تولى المأمون الخلافة اهتم بالترجمة، والتأليف، وأخذ يضمن شروط الصلح مع ملوك الروم إرسال كتب الحكمة، فكان أحد شروط الصلح بينه وبين ميخائيل الثالث أن ينزل له (للمأمون) عن إحدى المكتبات الشهيرة في القسطنطينية، وكان بين ذخائرها الثمينة كتاب بطليموس في الفلك، فأمر المأمون بنقله إلى العربية، وسماه المجسطي[4]. وأنشأ المأمون في بغداد بيت الحكمة، وهو مجمع علمي، ومرصد فلكي، ومكتبة عامة، وأقام فيهم طائفة من المترجمين من أهل الذمة، وأجرى عليهم الأرزاق من بيت المال[5].

وأرسل المأمون بعد ذلك، بعثة علمية لشراء كتب الحكمة من بلاد الروم مكونة من الحجاج بن مطر، وابن البطريق، وسلم صاحب دار الحكمة (ت ٢١٥ هـ/ ٨٣٠ م) فأخذوا مما اختاره عدداً كبيراً وحملوه إلى بغداد فأمرهم المأمون بنقلها إلى العربية، فاجتمع عند المأمون في دار الحكمة مجموعة كبيرة من كتب الفلسفة، والمنطق والموسيقى والفلك وغيرها[6].

---

(١) انظر: رفاعي: **عصر المأمون** ج ١ ص ٣٧٩.

(٢) نفس المصدر السابق والصحيفة.

(٣) ابن القفطي: **أخبار الحكماء** ص ٢٤٩؛ ابن أبي أصيبعة: ج ١ ص ١٧٥؛ خليفة: **كشف الظنون** ج ١ ص ٦٨٠.

(٤) المجسطي ومعناه الترتيب. الكبير في علم الفلك. وكان المرجع المهم في الفلك عند المسلمين وعند الاوروبيين في القرون الوسطى (جواد علي: تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٣ ص ٣٥٤).

(٥) انظر: ديورانت: **قصة الحضارة** ج ١٣ ص ١٧٧.

(٦) ابن النديم: **الفهرست** ص ٣٣٩.

فقد ازدهرت الترجمة على أيدي أهل الذمة في الفترة الواقعة بين (٧٥٠ ــ ٩٠٠م) فقد عكفوا على ترجمة أمهات الكتب السريانية واليونانية والفهلوية والسنسكريتية إلى العربية، وكان على رأس أولئك المترجمين المقيمين في بيت الحكمة حنين بن إسحق الطبيب النسطوري، فقد ترجم إلى اللغة السريانية مائة رسالة من رسائل جالينوس، وإلى العربية تسعاً وثلاثين رسالة أخرى، وترجم أيضاً كتب المقولات الطبيعية، والأخلاق الكبرى لأرسطو، وكتب الجمهورية وطيماوس والقوانين وكتاب السياسة لأفلاطون[1]. فكان المأمون يعطيه ذهباً زنة ما ينقله من الكتب[2]. وقام ابنه إسحق في أعمال الترجمة أيضاً فنقل إلى العربية من كتب أرسطو الميتافيزيقيا والنفس وفي توالد الحيوانات، وفسادها، كما نقل إليها شروح الاسكندر الأفروديسي، وهو كتاب كان له أثر كبير في الفلسفة الإسلامية[3]. وكان يعمل معه نقلة مجيدون أمثال اصطفى بن باسيل، وموسى بن خالد، ويحي بن هارون، وحبيس بن الأعسم، وعيسى بن يحي بن ابراهيم[4]. وكان قسطا بن لوقا يشرف على الترجمة من اللغات اليونانية، والسريانية والكلدانية إلى العربية، كما كان يحي بن هارون يشرف على الترجمة من الفارسية إلى العربية[5]. وقد أقام المأمون يوحنا بن البطريق الترجمان أميناً على ترجمة الكتب الفلسفية من اليونانية إلى العربية، وتولى ترجمة كتب أرسطو وبقراط في الفلسفة وغيرها[6].

ولم يكن الخلفاء وحدهم يهتمون بالترجمة والنقل إلى العربية بل نافسهم الوزراء والأمراء والأغنياء، وأخذوا ينفقون الأموال الطائلة عليها، فيقول ابن

---

(١) انظر: ديورانت: **قصة الحضارة** ج ١٣ ص ١٧٨.
(٢) ابن النديم: ص ٤٠٩ ــ ٤١٠؛ القفطي: **أخبار الحكماء** ص ١١٧ ــ ١٢٢؛ ابن أبي أصيبعة: ج ١ ص ١.
(٣) انظر: ديورانت: **قصة الحضارة** ج ١٣ ص ١٧٨.
(٤) ابن النديم: **الفهرست** ص ٤١٥؛ القفطي: **أخبار العلماء** ص ١١٨.
(٥) انظر: حسن ابراهيم حسن: **تاريخ الإسلام السياسي** ج ٢ ص ٢٩٩.
(٦) ابن القفطي: **أخبار العلماء** ص ٢٤٨.

الطقطقي[1] : (ان البرامكة شجعوا تعريب صحف الأعاجم حتى قيل: ان البرامكة كانت تعطي المعرب زنة الكتاب المعرَّب ذهباً) وبالغ الفتح بن خاقان في إنفاق الأموال على الترجمة والتأليف، وكان عبد الملك بن الزيات لا يقل عنه سخاء في هذا المجال، وممن اشتهر من الأغنياء بتشجيع حركة الترجمة والتأليف محمد وأحمد والحسن، أبناء موسى بن شاكر المنجم، الذين أنفقوا الأموال الضخمة في الحصول على كتب الرياضيات وكانت لهم آثار قيمة في الهندسة والموسيقى والنجوم، وقد أنفذوا حنين بن إسحاق إلى بلاد الروم فجاءهم بطرائف الكتب وفرائد المصنفات[2] .

وتبدو دوافع الترجمة أنها تعود لعاملين: الأول، انتشار الإسلام، وسيادة اللغة العربية في البلاد المفتوحة، وإقبال أهل الذمة على ترجمة علوم اليونان إلى العربية وشعورهم برغبة المسلمين بالاطلاع على ما عند الأمم الأخرى من علوم ومعارف، فتقرّب أهل الذمة للمسلمين تحقيقاً لمكاسب مادية ومعنوية. أما العامل الثاني، ظهور الفرقة الإسلامية، وبروز فكرة الاعتزال، والقول في القضاء والقدر، واحتدم الجدال بين هذه الفرق الإسلامية، ثم ظهور روح الجدال الديني بين المسلمين، وأهل الذمة، ولا سيما اليهود والنصارى، وقد وجد المسلمون أن اليهود والنصارى يقارعونهم الحجج للدفاع عن آرائهم بالمنطق، والفلسفة اليونانية، فأقبل المعتزلة على دراسة الفلسفة للاستفادة منها في الدفاع عن الإسلام تجاه خصومهم من الذميين، ولم يقتصر اهتمام النصارى بالترجمة ولا سيما ترجمة فلسفة اليونان بل تعداها إلى غيرها من العلوم، فقد اهتموا بالطب، وشيدوا قبل الإسلام المستشفيات في العراق، وأقاموا المدارس الطبية، واعتنوا بصناعة الأدوية، ولما جاء الإسلام اهتم الخلفاء عامة برعاية الطب والأطباء قبل غيره من العلوم، ففي العصر الأموي استخدم الخلفاء

---

(١) ابن الطقطقي: **الفخري** ص ٢٣٥.

(٢) ابن النديم: **الفهرست** ص ٣٤٠.

الأطباء النصارى في بلاطاتهم وقصورهم، ومن هؤلاء ابن آثال وكان طبيباً نصرانياً لمعاوية بن أبي سفيان(1).

ويقول ابن أبي أصيبعة (ت ٦٦٨ هـ/ ١٢٧٠ م)، (أن الخليفة عمر بن عبد العزيز أمر بنشر كتاب الطب الشرعي الذي نقله إلى العربية متطبب البصرة ماسرجويه في عهد الخليفة مروان بن الحكم، وقد وجده في خزائن الكتب بالشام(2). ومن أشهر أطباء النصارى في العراق في العهد الأموي شاذوق، وكان طبيباً فاضلاً وله نوادر في صناعة الطب، وكان مشهوراً عند الأمويين بالطب، صحب الحجاج الثقفي في العراق، وخدمه بصناعة الطب، وكان الحجاج يعتمد عليه ويثق بمداواته(3). ولثاذوق من الكتب كناش كبير ألفه لابنه، وكتاب إبدال الأدوية وكيفية صنعها وإذابتها، وشيء من تفسير أسماء الأدوية(4).

وقد دأب خلفاء بني أمية على رعاية الأطباء وتشجيع دراسة الطب، فأنشأوا لأجل ذلك المستشفيات لمعالجة المرضى من الناس، وأول مستشفى شيده الخليفة الوليد بن عبد الملك سنة ٨٨ هجرية لمعالجة المجذومين(5). كما اتخذوا لأنفسهم الأطباء من النصارى للإشراف على علاجهم، وفي العصر العباسي أكثر الخلفاء من إنشاء المستشفيات واختاروا لها الأماكن التي تمتاز بالهدوء، والهواء العليل والماء النقي(6). وجعلوا فيها أماكن خاصة بالرجال وأخرى للنساء، وخصصوا لكل مرض قاعات خاصة، ووضعوا للإشراف عليها أطباء متخصصين، ومن أشهر المستشفيات في العصر العباسي الأول، مستشفى العميان الذي أنشأه المنصور(7). ومستشفى الرشيد الذي أنشأها سنة ١٧٠ هـ،

---

(١) انظر: أحمد أمين: فجر الإسلام ص ٢٠٠.
(٢) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ج ١ ص ١٦٣.
(٣) نفس المصدر السابق ج ٢ ص ٣٢.
(٤) المصدر السابق ج ٢ ص ٣٥.
(٥) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٦٦.
(٦) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ج ١ ص ٣٠٩ ـ ٣١٠.
(٧) انظر: حسن ابراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ج ٢ ص ٣٦٦.

ومستشفى علي بن عيسى الوزير، وأخذ الخلفاء فيما بعد ينشئون المستشفيات بأسمائهم لعلاج العامة، ويوقفون لها الأموال الطائلة، ويشرفون أحياناً بأنفسهم على رعايتها[1]. فكان الأطباء والصيادلة خاضعين للامتحان ليحصلوا على إجازة التطبب، وكان بكل مدينة مفتش خاص للصيدليات وتحضير الأدوية[2].

ومن أبرز الأسر المسيحية التي اشتهرت بالطب، وبقي أحفادها يتوارثون معالجة خلفاء بني عباس، هي أسرة بختيشوع، فكانوا أطباء ومترجمين وفلاسفة، عالجوا المنصور والرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل، كما عالجوا الوزراء والأمراء والقواد، وقال فيهم ابن أبي أصيبعة (ت ٦٦٨ هـ/ ١٢٧٠ م)[3]، (أن جورجيس وولده كانوا من أجلّ أهل زمانهم بما خصهم الله من شرف النفوس ونبل الهمم، ومن البر المعروف، والأفضال والصدقات، وتفقد المرضى من الفقراء والمساكين، والأخذ بأيدي المنكوبين، والمرهوقين على ما يتجاوز الحد من الصفة والشرح)، وقد كان الخليفة المنصور قد استقدمه من مدرسة جنديسابور وكان رئيس الأطباء فيها، وعينه طبيبه الخاص[4].

ومنذ ذلك الوقت توارث الأطباء النساطرة وظيفة التطبب في قصور الخلفاء العباسيين، وأسسوا مدرسة للطب في بغداد، وكان منهم ابنه بختيشوع الذي استقدمه المهدي من جنديسابور أيضاً فظل في خدمة ولده الهادي والرشيد إلى أن توفي[5]. وقد قربه الرشيد إليه كثيراً وقال له: تكون رئيس الأطباء ولك يسمعون ويطيعون[6].

واشتهر من هذه الأسرة جبرائيل بن بختيشوع (ت ٢١٣ هـ) الذي كتب

---

(١) انظر: رفائيل: أحوال نصارى بغداد ص ١٥٦.
(٢) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ج ١ ص ١٣٣.
(٣) المصدر السابق ج ١ ص ١٣٦.
(٤) ابن جلجل: طبقات الأطباء ص ٦٤.
(٥) ابن جلجل: طبقات الأطباء ص ٦٤.
(٦) ابن القفطي: أخبار الحكماء ص ١٠٠.

مدخلاً لعلم المنطق ورسالة للمأمون في التغذية والمشاريب، وكتب في وصايا طبية كثيرة وفي الروائح[1]. وقد بلغت مقدار ثروته خلال عهود الرشيد والمأمون ٨٩ مليون درهم[2].

واشتهر منهم أيضاً بختيشوع بن جبرائيل (ت **٢٥٧ هـ**) وقد أنعم بعطف المتوكل حتى أنه كان يضاهيه في ملابسه وحسن الحال وكثرة المال، وكمال المروءة، ومباراته في الطيب والجواري والعبيد[3].

ومنهم أيضاً يوحنا بن بختيشوع، وبختيشوع بن يوحنا (ت **٣٢٩ هـ**) اشتهر من أطباء المنصور أيضاً عيسى بن شهلاثاً وهو تلميذ جورجيس بن جبرائيل[4].

ومن أطباء المهدي أبو قريش، ويعرف بعيسى الصيدلاني، ولم يذكر في جملة الأطباء لأنه كان ماهراً بصناعة الأدوية[5].

ومن أطباء الهادي المتطبب الطيفوري نقل له حنين عدة كتب في الطب وكان أحظى الناس عند الهادي[6].

ومن الأطباء الكحالين جبرائيل الكحال، وقد اختص بخدمة الرشيد، وكانت وظيفته في كل شهر ألف درهم[7]. وضعه المأمون رئيساً لبيت الحكمة، وله مقالة في الحميات أصبحت المعول عليها في دراسة الأمراض، ونقلت من بعد إلى اللاتينية والعبرية[8].

---

(١) اسماعيل مظهر: **تاريخ الفكر العربي** ص ١٧.
(٢) انظر: ديورانت: **قصة الحضارة** ج ١٣ ص ١٩٠.
(٣) انظر: الخربوطلي: **الإسلام وأهل الذمة** ص ١٤٥ ــ ١٤٦.
(٤) ابن العبري: **تاريخ مختصر الدول** ص ١٢٤.
(٥) ابن القفطي: **أخبار الحكماء** ص ٤٣٠.
(٦) المصدر السابق ص ٢١٩.
(٧) نفس المصدر السابق ص ١٥٢.
(٨) انظر: اسماعيل مظهر: **تاريخ الفكر العربي** ص ٤٧.

ويذكر ابن جلجل (ت ٣٨٤ هـ/ ٩٩٤ م)، (أن له ثلاثين كتاباً منها كتاب البرهان، وكتاب الكمال والتمام، وكتاب في الفصد والحجامة[(١)] ، وفي الأدوية والجذام، والأغذية وفي علاج المعدة، وفي الطب النسائي وتركيب الأدوية[(٢)] . واشتهر منهم ماسويه أبو يوحنا، وقد رأس مدرسة الطب في بغداد وله مترجمات ومؤلفات، ويوحنا بن ماسويه الذي اشتهر بالطب والصيدلة، واستخصه المأمون لمهارته، وكان سلمويه بن بنان طبيب المعتصم، وقد قرّبه إليه، وكان يرد إلى الدواوين توقيعات المعتصم في السجلات وغيرها بخطه. بكل ما كان يرد على الأمراء والقواد من خروج أمر، وتوقيع من حضرة أمير المؤمنين، فبخط سلمويه[(٣)] . ولما مرض سلمويه بعث المعتصم ابنه لزيارته، ولما مات أمر بأن تحضر جنازته إلى القصر، وأن يصلى عليه بالشموع والبخور جرياً على عادة النصارى، وامتنع المعتصم يوم موته عن أكل الطعام[(٤)]. وقال المعتصم سألحق به لأنه كان يمسك حياتي ويدبر جسمي[(٥)]. وله عشرة مقالات في طب العين[(٦)] . وفي الأغذية، وفي تدبير الناقهين وفي الأدوية[(٧)] .

ومن أطباء النصارى المشهورين أيضاً حنين بن إسحق العبادي (ت ٢٦٠ هـ/ ٨٧٣ م)، وقد برز بالإضافة إلى الطب بالفلسفة، وقد جعله المأمون رئيساً لدار الحكمة، ومشرفاً على المترجمين فيها، وفي خلافة المتوكل قرّبه إليه وأقطع له الإقطاعيات[(٨)] . واشتهر ابن أخته حبيش بن الأعسم، وابنه إسحق (ت ٢٩٨ هـ/ ٩١١ م) بالطب، فقال ابن القفطي عن إسحق: (كان أبو يعقوب

---

(١) ابن جلجل: **طبقات الأطباء والحكماء** ص ٦٥.
(٢) ابن النديم: **الفهرست** ص ٢٩٥.
(٣) ابن أبي أصيبعة: ج ١ ص ١٦٤.
(٤) انظر: الخربوطلي: **الاسلام وأهل الذمة** ص ١٤٥.
(٥) ابن النديم: **الفهرست** ص ٢٩٦.
(٦) انظر: ديورانت: **قصة الحضارة** ج ١٣ ص ١٩٠.
(٧) ابن جلجل: **طبقات الأطباء والحكماء** ص ٦٩.
(٨) ابن العبري: **تاريخ مختصر الدول** ص ٢٥١.

النصراني في منزلة أبيه في الفضل، وصحة النقل من اللغة اليونانية والسريانية، وكان فصيحاً يزيد على أبيه في ذلك[1]. وقال فيه ابن خلكان (ت ٦٨١ هـ/ ١٢٨٢ م)[2]، (كان أوحد عصره في علم الطب، ويلحق بأبيه في النقل وفي معرفته باللغات، وفصاحته فيها، وكان يعرّب كتب الحكمة التي بلغة اليونان، إلى العربية كما كان يفعل أبوه، وله من الكتب، كتاب (الكناش)، وكتاب (تاريخ الأطباء)، وكتاب (الأدوية المفردة)[3].

وألف بعض النصارى كتباً طبية بالعربية، وهم ابراهيم بن بكوس ويحي بن عديّ، وعيسى بن زرعة، والبيرودي، والفضل بن جرير، ويحي بن جرير[4]. وقسطا بن لوقا، وكان حاذقاً في الطب والفلسفة، والتنجيم والهندسة والحساب، وله تآليف في الطب منها الفرق بين النفس والروح، كتاب بين الحيوان الناطق والصامت، وكتاب في غلبة الدم[5].

ولم تكن هذه العلوم مقتصرة على النصارى وغيرهم، من أهل الذمة وإنما برز فيها الكثير من علماء المسلمين في الطب كالرازي الذي ألّف **١٣١** كتاباً نصفها في الطب، واشتهر من كتبه الحاوي الذي كان في عشرين مجلداً، وعلي بن عيسى الذي اشتهر بطب العيون، كما اشتهر ابن سينا بالإضافة إلى الفلسفة بالطب أيضاً[6].

وقد لازم هؤلاء الأطباء النصارى الخلفاء في قصورهم وبلاطاتهم ويجلسون إلى موائد طعامهم، ويسامرونهم، ويعالجون مرضاهم ويرافقونهم

---

(١) ابن القفطي: **أخبار الحكماء** ص ٥٧.
(٢) ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ١ ص ١٨٥.
(٣) ابن النديم: **الفهرست** ص ٢٩٨.
(٤) انظر: برصوم: **اللؤلؤ المنثور** ص ٢٠٣.
(٥) ابن جلجل: **طبقات الأطباء** ص ٧٦.
(٦) انظر: ديورانت: **قصة الحضارة** ج ١٣ ص ١٩٠.

أحياناً في حروبهم، وأسفارهم[1]. وكان الخلفاء بدورهم يجلّونهم، ويرحبون بهم، ويمنحوهم العطايا السخية، يعودونهم في منازلهم حين مرضهم، ويحضرون أحياناً الصلاة عليهم بالشمع والبخور في جنازاتهم[2].

أما في ميادين الفلسفة فلم يكن للنصارى فلسفة أصلاً، وإنما جاءت إليهم عن طريق النقل والترجمة عن اليونانية، وبعد الفتح الإسلامي للعراق وفارس والشام نقلت من السريانية إلى العربية، وقد قام السريان بتدريس الفلسفة اليونانية في مدارسهم، وعلقوا عليها، وشرحوها، ولا سيما فلسفة أرسطو، وأفلاطون، وأبرز الفلاسفة السريان، القس سرجيوس الراسعني، ورهبان دير قنسرين الذين تعلقوا بدراسة فلسفة فيلوفونس الاسكندري الذي عاش في أواسط القرن السادس الميلادي، كما ترجم السريان الكتب الفلسفية التي تناولت حكم فيثاغورس في الفضيلة، وحدود أفلاطون وحكمه التي كتبها إلى تلاميذه، والحدود عن الله، والإيمان والمحبة والعدل، وحكم الفلاسفة في النفس، ونصائح الفلاسفة[3].

وقد تأثر العرب المسلمون بالفلسفة اليونانية، وكان تأثيرهم واضحاً في الفرق الإسلامية التي نشأت في العصر العباسي الأول كالمعتزلة والصوفية، كما تأثر العرب المسلمون بالفلسفات الأخرى، كالأفكار الهندية والآراء المجوسية، وقد أثار المسيحيون الجدل في الشرق الإسلامي، في صفات الله، وفي طبيعة المسيح، وكلمة الله، وفي الجبرية والقدرية، والوحي والعقل، كما أثار المسلمون الجدل في موضوع خلق القرآن. وأدى بطبيعة الحال إلى الاستعانة بعلم المنطق والفلسفة اليونانية لدعم هذه الفكرة التي انقسم فيها الناس إلى من يقول: مخلوق أو أنه أزلي محفوظ. وعقيدة المسيحيين القائلين بأن الخلاص بالمعرفة لا بالإيمان، وكذلك عقيدة اليهود في أزلية التوراة، كل هذه الآراء والأفكار قد

---

(١) ابن العبري: **تاريخ مختصر الدول** ص ٢٢٦ ــ ٢٦٥.
(٢) ابن العبري: ص ٢٤٣؛ طرازي: **عصر السريان الذهبي**: ص ٢١.
(٣) انظر: برصوم: **اللؤلؤ المنثور** ص ١٩١، ١٩٩.

أوجدت عند المسلمين السنيين عقيدة مماثلة: ان القرآن كان موجوداً في عقل الله، وأن نزوله على محمد كان حادثاً في زمان معين[1]. في حين أنكر المعتزلة أزلية القرآن وقالوا: انه مخلوق، وقد أيد الخليفة المأمون المعتزلة، واتخذ الاعتزال مذهباً رسمياً في الدولة، مما فسح المجال لنشاط أصحاب الفلسفة اليونانية والمذاهب الأخرى من مسيحية وزرادشتية ومزدكية، ومانوية، وكان نشاطها عنيفاً فأخذت تجادل في القرآن[2].

وقد تأثر المجتمع الإسلامي فيها، وأدى إلى ظهور نزعة الزهد والتصوف، ففي خلال العصر الأموي والعصر العباسي، استطاع النصارى السريان، منذ مطلع القرن الثاني الهجري أن يكوّنوا مدرسة للترجمة من حنين بن اسحق، وابنه اسحاق، وابن أخته حبيش بن الأعسم، وغيرهم من المترجمين التي أسسها في بغداد الخليفة المأمون لنقل المؤلفات اليونانية في الفلسفة والعلوم، وهؤلاء نقلوا الأفلاطونية الحديثة إلى الفكر العربي، وكان يحي بن هرون يقوم بترجمة الكتب الفارسية القديمة إلى العربية، وكان رئيس الترجمة من السنسكرتية إلى العربية (ديان البراهمي)، وقد أغدق عليهم المأمون المنح والعطايا[3].

ولقد اهتم النصارى بدراسة علم الفلك وعلم التنجيم[4]، لأنها في اعتقادهم تصلح فيما يعم كل أحد مثل، الكسوفات وتغيير الأزمنة، والأهوية، والحر والبرد، وغير ذلك مما يتعلق بقرب الشمس وبعدها واتصال القمر بها

---

(١) انظر: ديورانت: قصة الحضارة ج ١٣ ص ١٩٨.

(٢) انظر: ديورانت: قصة الحضارة ج ١٣ ص ١٩٩.

(٣) انظر: أمير علي: مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي ص ٢٣٩.

(٤) وهو ما يعبر عنهما بعلم الهيئة الذي يعرف بأسماء مختلفة مثل علم التنجيم أو الأفلاك وإن كانت كلمة تنجيم قد انحصرت في قراءة الطالع في التنبؤ بالحوادث المستقبلة وهذه أطلق عليها صناعة وبذلك فصل بين علم الهيئة والتنجيم، وعلم الهيئة نظري وعملي يرمي إلى رصد حركات الكواكب لأهميتها في تحديد الوقت والمواقيت وفي الحياة العملية مثل السير في الصحارى والبحار.

(ماجد تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى ص ٢٢٤).

وبالكواكب، وأن هذا العلم مبني على جميع ما يجري في العالم من حركة الكواكب، ويتعلق هذا العلم بالحساب وعلم الهيئة[١]. وأول من عني بدراسة علم الفلك والتنجيم الخليفة العباسي المنصور، فقد كان شغوفاً به، وقد تابع الخليفة المأمون ما بدأ به جده المنصور، فأقبل على طلب العلم، وراسل ملوك الروم فبعثوا إليه منها، فأحضر لها مهرة التراجمة، وشجع الناس على قراءتها ورغّبهم في تعليمها، ومن أوائل المنجمين في أيام الخليفة المهدي، توفيل بن توما النصراني المنجم الرهاوي وكان رئيساً للمنجمين في عهد المهدي[٢].

ومن مشاهير المنجمين في عهد المأمون حبش الحاسب المروزي وله ثلاثة أزياج: **أولها** المؤلف على مذهب السند هند؛ **والثاني** الممتحن؛ **والثالث** الزيج الصغير المعروف بالشاه، ومنهم أحمد بن كثير الفرغاني صاحب المدخل إلى علم الهيئة والأفلاك، يحتوي على جوامع كتاب بطليموس وعبد الله بن سهل بن نوبخت، كبير المنزلة في علم النجوم، وله في الاسطرلاب سفراً أودعه في علم الكواكب، وسيرها وحركاتها، ويعيرها العلماء جانب الثقة والاعتبار، ويرجعون إليها في علم التنجيم والفلك، وكان في عهد الرشيد بدار الترجمة، وقام بتعريب الكتب التي تبحث في علم الأفلاك[٣].

ومنهم محمد بن موسى الخوارزمي صاحب الزيج المعروف بالسند هند، ويحي بن منصور وكان من أبرز المترجمين في رصد الكواكب[٤]. وقد برز قلة قليلة من المنجمين المسلمين (لأن الإسلام يعدّ «التنجيم» والسحر علمًا واحداً[٥]، بخلاف غيرهم من أصحاب الأديان التي تبيح الاشتغال بها. وفي الوقت الذي جدّ النصارى في ترجمة كتب اليونان في مختلف العلوم، انكبّ فريق

(١) إيليا: **المجالس السبعة** (مخطوط) ورقة ٣١ ــ ٣٢ و. ظ.
(٢) ابن العبري: **تاريخ مختصر الدول** ص ١٢٧.
(٣) انظر: المدور: **حظيرة الإسلام في دار السلام** ص ١٧٨.
(٤) ابن العبري: **تاريخ مختصر الدول** ص ١٣٦.
(٥) انظر: المدور: **حضارة الإسلام** ص ١٨٠.

آخر على تأليف الكتب في صنوف المعرفة، وقد قام الرهبان بالدرجة الأولى بهذا المجهود، فقد تركوا هذه الكتب المترجمة والمؤلفة في مكتبات البيع والأديرة بالإضافة إلى الكتب التي ترجمت في عهود الخلفاء، التي أودعت المكتبات، وبيوت العلم خاصة في العصر العباسي، وقد أحصى الأب شابو المستشرق الفرنسي، كتب النصارى سواء أكانت دينية أو علمية أو أدبية، وهي التي كانت في البيع والأديرة حوالي نيف وثلاثة آلاف في سبع خزائن من مكتبات أوروبا[1].

وقد امتازت هذه الكتب بنقوشها وزخارفها، وخطوطها الرائعة[2]، ومن المآثر الفنية عند النصارى الموسيقى والغناء، ويرجع ازدهار الموسيقى إلى أنها جزء من الطقوس الدينية عند النصارى، وكانوا يطلقون عليها (الموسيقى الكنسية)[3]، فقد استعملوا آلات الطرب في ألحانهم الدينية، ووضع أدباؤهم أناشيد البيع، ونظموا موشحات موزونة ومضبوطة القياس، فضلاً عن الطقوس الأخرى التي تتلى صباحاً ومساء في كنائسهم، ذات أنغام شجية تسمى الليتورجيات أو النافورات[4] والحسايات[5].

ولم يقتصر استعمال الموسيقى للأغراض الدينية فقد استعملها أول الأمر، نصارى الحيرة في أعراسهم ومجالسهم، ومآدبهم، وشملت فيما بعد جميع نصارى العراق، وتعداها إلى عامة الناس في مختلف الأديان. وقد استعمل نصارى الحيرة الطبول، والدفوف، والصنوج، والجلابل، والأبواق، والنواقيس،

---

(١) انظر: عصر السريان الذهبي: ص ٩٢ ــ ١٠٨؛ مجلة المشرق ج ٢٢، ص ٤٢٣.

(٢) انظر: **مجلة المشرق** ج ١٠ ص ٨٤٥؛ اللؤلؤ المنثور ص ٤١١؛ عصر السريان الذهبي ص ٥٦ ــ ٥٧.

(٣) انظر: رفائيل: **تاريخ نصارى العراق** ص ٢٦.

(٤) الليتورجيات أو النافورات مفردها الليتورجية أو النافورة كلمتان يونانيتان ومعناهما خدمة أو صلوات القدّاس (رفائيل: تاريخ نصارى العراق ص ٢٦).

(٥) الحسايات: مفردها الحساية كلمة آرامية يراد بها صلاة الاستغفار أو الدعاء (رفائيل: تاريخ نصارى العراق ص ٢٦).

واقتبسوا من البيزنطيين الأرغن والبريط[1] والسنطور، والقانون، والقيثار، وأخذوا من الحجازيين المزهر والمعزف والقصبة[2].

وقد درّس فن الموسيقى في مدارس الحيرة، فقد أرسل بهرام جور إليها، وبرع في العلوم العربية والموسيقى، وتعلم في الحيرة، النادر بن الحارث الموسيقي، وأجاد الضرب على العود[3].

أما الغناء فقد اشتهرت به الحيرة، وطارت شهرتها في الآفاق، فكانت تبعث القيان اللواتي يتقن الغناء إلى الملوك والأمراء، فكان لجبلة بن الأيهم الغساني عشر قيان، خمس يغنين بالعيدان الرومية، وخمس يغنين غناء أهل الحيرة[4]. وذكر الأصفهاني (ت ٣٥٦ هـ/ ٩٦٦م) في الأغاني عن المغنين الحيريين المسيحيين الذين ظهروا في صدر الإسلام وعرفوا بأغانيهم الرخيمة، وضربهم على الأوتار، وأخصهم برصوما المزمر، وعون العبادي الحيري، وحنين بن بلوع الحيري الشاعر والمغني وغيرهم[5].

وقد بدأ اهتمام الخلفاء بالموسيقى والغناء منذ العصر الأموي حتى قيل: ان الوليد بن عبد الملك أول ما جلب المغنين من البلدان إليه[6].

ويبدو أن أكثر المغنيات كن من الجواري اللواتي أخذن سبايا في الحرب، وأغلبهن من الفارسيات والروميات، ممن اشتهرن بالجمال البارع والصوت الجميل، وقد بالغ خلفاء بني العباس في تقريب المغنيات والمغنين والموسيقيين إلى مجالسهم، وأجزلوا لهم العطاء، مما أدى إلى ارتفاع منزلة المغنين وإقبال المجتمع على الغناء.

---

(١) البريط: آلة تشبه العود والمزهر.
(٢) انظر: رفائيل: **تاريخ نصارى العراق** ص ٢٨.
(٣) الدنيوري: **الأخبار الطوال** ص ٥٣.
(٤) الأصفهاني: **الأغاني** ج ١٤ ص ٥؛ الشابستي: **الديارات** ص ٩٠.
(٥) الأصفهاني: **الأغاني** ج ٢ ص ١١٦ ــ ١٢٤؛ ج ٥ ص ٣٤؛ ج ١٠ ص ١٢٨.
(٦) المسعودي: مروج الذهب ج ٣ ص ٢٧١.

فذكر الطبري (ت ٣١٠ هـ/ ٩٢٢ م)[١]: (أن الخليفة الهادي كان يشتهي الغناء الوسط، وكان إذا أعجبه الغناء وطرب، قال لمغنيه: «أحسنت، أحسنت، ويكثر له العطاء)، وقد ولع الرشيد بالغناء والموسيقى، وقد جعل للغناء مراتب وطبقات على نحو ما وضعهم أردشير بن بابك وأنوشروان[٢].

وقد حظي ابراهيم الموصلي، وابنه اسحق برعاية الرشيد، وجعلهم في المرتبة الأولى، وكانا من رجال الأدب، إلا أن الغناء قد غلب عليهما، وقد أبدع ابراهيم الموصلي في الألحان وتنسيقها حتى توهّم أن الأرواح هي التي تعلمه الأصوات، ولم يكن ابراهيم الموصلي وحده متأثراً بهذا الشعور، بل ورثه عنه ابنه إسحق[٣]. وكان الرشيد يجمع المغنين والموسيقيين دائمًا للتسلية فجمع يوماً ابراهيم الموصلي، وزلزل، وبرصوما، فكوّنوا جوقاً موسيقياً في مجلس الرشيد حضرته ألفا جارية في أحسن زي[٤]. وقد اقتدى الوزراء والأمراء بالخلفاء في إقامة مجالس الطرب والغناء، وشاع عند العامة أيضاً.

ويصف ابن الطقطقي (٧٠٩ هـ/ ١٣٠٩ م)[٥]: هذه الحفلات فيقول: كان مجلس جعفر البرمكي حين كان يجلس للشراب مع ندمائه، كانوا يلبسون الثياب المصبغة (الملونة) الحمر والصفر والخضر... ثم جلسوا يشربون ودارت الكاسات، وخفقت العيدان، وقد فاق الأمين خلفاء بني العباس في عطائه لمغنيه وجواريه وندمائه[٦].

وكانت تقام هذه المجالس أيضاً في مناسبات الأعياد كالنوروز

---

(١) الطبري: تاريخ ج ١٠ ص ٤٦.
(٢) انظر: حسن ابراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ج ٢ ص ٣٤١.
(٣) المسعودي: مروج الذهب ج ٢ ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨.
(٤) الأصفهاني: الأغاني ج ٥ ص ٢٤١.
(٥) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية ص ١٨٧.
(٦) انظر: حسن ابراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ج ٢ ص ٣٤١.

والمهرجان[1]. وأقامها الناس في مناسبات الأعراس والختان وفي أعياد النصارى إذ كان يشترك فيها المسلمون والنصارى حتى الخلفاء[2]. فالمأمون جلس في يوم عيد الشعانين، وبين يديه عشرون وصيفة روميات خرجن بالديباج الرومي، وقد علقن في أعناقهنَ صلبان الذهب، وفي أيديهن أغصان الخوص والزيتون وغنى ابراهيم الموصلي في ذلك:

ظباء كالدنانير ملاح في المقاصير
جلاهن الشعانين علينا في الدنانير

ورقصت الجواري أنواع الرقص، والمأمون في حالة سكر ثم أعطى المغني ألف دينار، ووزع على الجواري ثلاثة آلاف دينار[3]. ويبدو أن ازدهار علوم الفلسفة والطب والفلك والتنجيم وازدهار حركة الترجمة يعود بالدرجة الأولى إلى تشجيع الخلفاء الأمويين والعباسيين لأهل الذمة وخاصة النصارى للاطلاع على ما عند الأمم الأخرى من علوم ومعارف، فاتفقت بذلك رغبة الخلفاء مع مطامح النصارى.

أما دور الصابئة في الحياة العلمية والأدبية والثقافية، فكان ضئيل جداً، وتأثيرهم في هذه العلوم محصور داخل إطار الفكر الديني الصابئي. وتظهر آثارهم العلمية مذ كانوا في حران، حيث كان لمدرسة حران شأن مذكور في نشر الثقافة اليونانية وفي ترجمة كثير من الكتب عن اللغة اليونانية[4]. وبقيت حران مركزاً للديانة الوثنية، والثقافة اليونانية حتى عصر المأمون[5]. وقد برز الصابئة

---

(١) انظر: مليحة: **المجالس الاجتماعية في العصر العباسي** ص ٩٥؛ المجلة التاريخية المصرية م ١٥ لسنة ١٩٦٩.
(٢) انظر: المصدر السابق ص ٩٦.
(٣) الأصفهاني: **الأغاني** ج ١٩ ص ١٣٨.
(٤) انظر: كاشف: **الوليد بن عبد الملك** ص ٢٢٦.
(٥) انظر: أحمد أمين: **فجر الإسلام** ص ١٦٠.

بالفلك، والتنجيم، واعتبروه عنصراً مهمًا من العناصر التي يعتمد عليها دينهم، ومستقبلهم، فهم يعتقدون أن كل كوكب يحكم في يوم من الأيام، وتقسيم اليوم إلى قسمين ليل ونهار، وكل قسم باثنتي عشرة ساعة، ويتحكم ملائكة معنيون بالأيام، ومن هنا تكون لهم صفات فلكية[1].

والشمس عندهم تسير كسائر الأرواح الفلكية، واعتبروها قوة للخير لا للشر، وأكثر من ذلك فلدى الصابئة سنة شمسية وأعداد شمسية مقدسة، ويدخل قرص الشمس في رسم الحروف الأبجدية الصابئية، ويعتقدون أن مع الشمس عشرة أرواح للقوة والإشراق، وأما المشع في الشمس هو العلم الذي يرسل أشعة نافعة، ويجب النور والحياة، وقد يفلح ملك الظلام أحياناً بوضع شيء ما أمام العلم، وهذا ما يسبب الكسوف[2]. وقد جعل الصابئة لكل من الكواكب السيّارة صفة وعمل تقوم به في هذا الكون. فمثلاً: أن المشتري واجباته تخليص الإنسان من شياطين المرض. وعطارد: هو رب الكتابة، والكتب، ورب الحكمة والمعرفة[3].

وقالوا: لكل صابىء اسمان، اسم فلكي واسم دنيوي، والأخير في العادة اسم عربي. أما الاسم الأول فهو اسم الشخص الحقيقي، والروحي، ويستعمل في جميع المناسبات الدينية، والطقسية، وينسب هذا الاسم الروحي إلى الأم عوضاً عن الأب، والاسم الديني ذو أهمية عظمى في طقوس الموت والدفن[4]. ويعزو أيضاً اهتمامهم بدراسة الفلك والتنجيم إلى اعتقادهم بالتنبؤات، وبأثر النجوم على مستقبل الإنسان، ولم تكن هذه التنبؤات لحوادث المستقبل مقتصرة على الكهّان الذين يتفرسون في السماء، والنجوم، والغيوم، ويفسرون ظواهر الخسوف والكسوف بل انه هبة طبيعية في رؤية الأشياء الخفية

---

(١) انظر: الليدي دراوور: **الصابئة المندائيون** ص ١٣٣ ص ١٣٥.

(٢) انظر: نفس المصدر السابق ص ١٣٦، ١٣٧.

(٣) انظر: دراوورد: **الصابئة المندائيون** ص ١٣٨.

(٤) انظر: دراوور: **الصابئة المندائيون** ص ١٤١.

تختص بها بعض الأسر الكهنوتية، التي تخبرهم مثلاً عن اليوم السعيد للزواج، أو عن زمن إرسال الوليد للكتّاب أو الشروع في عمل جديد، أو التهيؤ للسفر[1]. واستخرجوا عجائب الحيل المرئية على عمل الكواكب، وعملوا الطلسمات، والسحر، والكهانة، والتنجيم، والتقويم والخواتيم[2].

وبرز من علماء الصابئة أبو عبد الله البتاني، ويعرف عند الأوروبيين باسم ألبتجنس (Albategnus) بعلم حساب المثلثات إلى أبعد من مبادئه التي كان عليها في أيام بطليموس وذلك حين استبدل المثلثات بالمربعات في حل المسائل، واستبدل جيب الزاوية بالقوس، كما كان يفعل هيارخوس وهو الذي صاغ في حساب المثلثات النسب بالصورة التي تستخدمها الآن في جوهرها[3].

ويقول ابن القفطي عنه (ت ٦٤٦ هـ/ ١٢٤٨ م): أنه كان أحد المشهورين برصد الكواكب، والمتقدمين في علم الهندسة وهيئة الأفلاك، وحساب النجوم، وصناعة الأحكام، وله كتاب في الزيج والبروج وغيرها[4].

ويعتبر ثابت بن قرة، ويقال له (زهرون) أعظم من عرف في مدرسة حران (ت ٢٨٩ هـ)، وكان يجيد اليونانية والسريانية والعبرية. ترجم في المنطق، والرياضيات، والتنجيم، والطب، وكذلك في طقوس الوثنيين وتعاليمهم، وبرع في علم الطب، وكان الغالب عليه الفلسفة، وله تآليف كثيرة في فنون العلم، فهذب وحقق، ونقح كتاب اقليدس الذي عرّبه حنين بن اسحق، وأوضح فيه ما كان مستعجمًا، رحل إلى بغداد، وأصبح في عداد المنجمين وأقام فيها وأولد الأولاد، والأحفاد منهم ابراهيم ثابت، وأبو الحسن ثابت، واسحق أبو الفرج،

---

(١) انظر: نفس المصدر السابق ص ١٤٢.

(٢) الشهرستاني: **الملل والنحل** ج ٢ ص ٥٠.

(٣) انظر: ديورانت: **قصة الحضارة** ج ١٣ ص ١٨١.

(٤) ابن القفطي: **أخبار الحكماء** ص ٢٨٠، ٢٨١؛ دائرة المعارف الإسلامية (مادة صابئة) ج ١ ص ٩١.

وكل هؤلاء نبغوا في الرياضيات والفلك[1]. ويقول ابن جلجل[2] عنه: وقد برز بالإضافة إلى الترجمة، والتنجيم، والفلسفة، بالمنطق، والحساب، والهندسة، والهيئة.

ويروي ابن أبي أصيبعة (ت ٦٦٨ هـ/ ١٢٧٠ م)[3]: قائمة طويلة بأسماء ما ألفه وترجمه من الكتب في مختلف صنوف المعرفة منها: كتاب النبض، وكتاب وجع المفاصل والنقرس، وكتاب ما بعد الطبيعة، وكتاب أغاليط السوفسطائيين، وكتاب في مراتب العلوم، وكتاب جوامع الأدوية، وكتاب سوء المزاج لجالينوس، وكتاب الأمراض الحادة لجالينوس، وكتاب تشريح الرحم لجالينوس، وكتاب أصناف الطب، وألّف في حركة الفلك كناشة المصروف بالذخيرة، وكتاب في تركيب الأفلاك وحركاتها، ورسالة في مذهب الصابئيين وديانتهم، وكتب أخرى في قسمة الأرض، وفي الجنة، وفي الأخلاق، وفي استخراج المسائل الهندسية، وفي رؤية الأهلة، وفي الأطعمة وتدبير الصحة، ورسائل أخرى في فرائض وسنن الصابئة وفي دفن الموتى، والطهارة، والنجاسة.

وتبدو أن هذه الكتب لم تكن كتباً بالمفهوم العام، وإنما هي مقالات ورسائل، ومسائل تتعلق بأمور الطب وأحوال الكون والعقائد. واشتهر ابنه سنان بالطب، وكان عالماً بالظواهر الجوية[4]. وكان حفيده ابراهيم بن سنان عالماً بأنواع الحكمة، والغالب عليه فن الهندسة، وله ثلاثة كتب في علم النجوم، أولها: كتاب آلات الأظلال، والثاني بينّ فيه الرخامات، والثالث في الظل، وعمل في الهندسة، ثلاث عشرة مقالة منها إحدى عشرة في الدوائر المتماسة، وعمل بعد ذلك مقالة أخرى فيها إحدى وأربعون مسألة هندسية[5].

---

(١) ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ١ ص ١٢٤ ــ ١٢٥؛ ابن النديم: **الفهرست** ص ٣٧٢.
(٢) ابن جلجل: **طبقات الأطباء والحكماء** ص ٧٥.
(٣) ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء** ج ٢ ص ١٩٧ ــ ١٩٨.
(٤) ابن النديم: **الفهرست** ص ٣٠٢.
(٥) ابن القفطي: **أخبار الحكماء** ص ٥٧ ــ ٥٨.

واشتهر هلال بن ابراهيم بن زهرون بالطب وكان حاذقاً فيه[1]. كما اشتهر ابراهيم بن هلال بن ابراهيم الصابىء بالأدب، وكان بليغاً في صناعتي النظم والنثر، وله يد طولى في علم الرياضة وخصوصاً الهندسة، والهيئة، وقد صنف كتاب التاج في أخبار بني بويه، وقد رثاه الشريف الرضيّ بقصيدة مطلعها:

أعلمت من حملوا على الأعــواد   أرأيت كيف خبا ضياء النـادي[2]

وانف البعض أن يرثي شريف صابئياً، فدافع الرضي عن نفسه بقوله: أنه يبكي الفضل فيه، وقيل: ان رسائل الصابىء الرسمية وإخوانياته من أحسن ما كتب في زمانه[3]. وقد تولى أبي اسحاق ابراهيم الصابىء ديوان الإنشاء في بغداد، وخدم حفيده هلال في ديوان الإنشاء أيضاً حيناً من الزمن مع جده فبرع في ذلك حتى فاق جده، وقد صنف هلالا كتابه رسوم دار الخلافة، حيث كان يعمل في ديوان الإنشاء، واشتهر هلال بتاريخه كما اشتهر جده ابراهيم برسائله[4].

وذكر السخاوي (ت ٩٠٢ هـ/٤٩٦ م) هلالاً بقوله: كان له تاريخاً في أربعين مجلداً[5]. وقد خلّف هلال تآليف جليلة تناولت بحوثاً منوّعة ضاع بعضها وسلم البعض الآخر، ومما ضاع من مؤلفاته كتاب أطباء بغداد، وكتاب الرسالة أو (الرسائل) وهو مجموع رسائله الرسمية، وكتاب السياسة، وكتاب (الكتاب) ويبدو أنه على غرار (أدب الكتاب) للصولي، وكتاب مآثر أهله بحث في تاريخ أهل بيته[6]. ولا شك أنه ضم معلومات عمن نبغ من أهله وذويه في العلم والأدب والسياسة.

---

(١) ابن القفطي: أخبار الحكماء ص ٣٥٠.
(٢) المصدر السابق ص ٧٥ ــ ٧٦.
(٣) ابن أبي أصيبعة: ج ٢ ص ١٩٣ ــ ١٩٤.
(٤) الصابىء: رسوم دار الخلافة ص ١٥.
(٥) السخاوي: الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ص ٩٧.
(٦) المصدر السابق ص ٩٧.

وأما ما بقي منها: كتاب الأماثل والأعيان ومنتدى العواطف والإحسان، وهو من أجلّ تآليف هلال، وكتاب التاريخ، واشتمل على حوادث السنين التي وقعت من سنة ٣٦٠ ـ ٤٤٧ هـ[١]. وقيل انه في أربعين مجلداً[٢]. وكتاب تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، وكتاب رسوم دار الخلافة، وكتاب تحرر البلاغة، وهو كتاب في الرسائل ويشتمل على إحدى وعشرين باباً تناول الكتابة وأساليبها[٣]. كما اشتهر أبو جعفر الخازن بالرياضيات وابن وحشية صاحب كتاب (الزراعة النبطية)، وجابر بن حيان الكيميائي[٤].

أما في مجال الطب والعلوم الأخرى فإن أثر الصابئة فيها ضئيل جداً، وأبرز من اشتهر من أطبائهم، ابن وصيف الصابىء، وكان طبيباً لعلاج أمراض العين، ولم يكن في زمانه أعلم منه في ذلك[٥].

وكان للفرس دور في الحياة العلمية والأدبية والثقافية لأنهم وارثو حضارة قديمة، وقد سبق لهم أن اتصلوا بالثقافة الهندية فانتقلت إليهم كثير من العلوم، والتقاليد، والعقائد الهندية، ومن أبرز العقائد الهندية التي دان بها الفرس المجوس، ونقلوها من خلال الترجمة إلى العربية، وكان لها أثر كبير على المسلمين هي فكرة (التناسخ والحلول)[٦] فقال في ذلك البيروني (ت ٤٤٠ هـ/ ١٠٤٨ م)[٧]: كما أن الشهادة شعار إيمان المسلمين والتثليث علامة النصرانية والإسبات علامة اليهودية كذلك التناسخ علم النحلة الهندية، فمن لم ينتحله لم يك منها ولم يعد في جملتها.

---

(١) الصابىء: رسوم دار الخلافة ص ١٧ ـ ٣١.
(٢) السخاوي: الإعلان بالتوبيخ ص ١٥٢.
(٣) الصابىء: رسوم دار الخلافة ص ٣٢ ـ ٣٣.
(٤) دائرة المعارف الإسلامية (مادة صابئة) ج ١ ص ٩١.
(٥) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ج ٢ ص ٢١٨.
(٦) انظر: أحمد أمين: ضحى الإسلام ج ١ ص ٢٣٨.
(٧) البيروني: الآثار الباقية ص ٢٤.

ولما أشركوا في السلطة بعد قيام الدولة العباسية جزاء مساهمتهم في الدعوة العباسية، عملوا على إدخال النظم الفارسية والثقافة والتقاليد والعادات المجوسية إلى الدولة الجديدة، وقد تأثر خلفاء بني العباس بأنظمة الفرس باستحداث منصب الوزارة[1]، وكان هؤلاء الوزراء على جانب كبير من الثقافة، وقد أخذوا طرفاً من كل علم، في الأدب، والمنطق، والفلسفة، والعلوم، والنجوم، والكيمياء والتاريخ[2].

وأقبلوا على دراسة اللغة العربية وآدابها ونحوها، فظهر منهم علماء في اللغة والنحو والأدب والفقه والتاريخ، وقاموا بحركة ترجمة واسعة من الفارسية إلى العربية، وقد أشار ابن النديم (ت ٣٨٥ هـ/ ٩٩٥ م)[3]: إلى أسماء النقلة وذكر منهم ابن المقفع، والبرامكة وآل سهل، وغيرهم. وقد بدأت حركة الترجمة من الفارسية إلى العربية منذ عصر المنصور وأقبل غيرهم من المجوس على الترجمة إلى العربية. ففي عهد المنصور وفد جماعة من مجوس الهند سنة ١٥٤ هـ، وبينهم رجل ماهر في معرفة حركات الكواكب وحسابها، وسائر أعمال الفلك واسمه (برهيكيت) وكلفه المنصور بإملاء مختصر لكتابه، وأمر بترجمته إلى العربية، وعمل منه زيجاً استخدمه العرب حتى عهد المأمون[4].

ومن آثار مشاركة الفرس في العصر العباسي في الإدارة، والدواوين، والقيادة، والإمارة، والاختلاط والتمازج بين العرب والفرس أن تسربت إلى اللغة العربية بعض الألفاظ الفارسية، وساعد هذا الاختلاط أيضاً على نقل بعض تراث الفرس الحضاري في الأدب والتاريخ والقصة، كما قام من يجيد منهم اليونانية والهندية بترجمة علوم اليونان والهنود، في الفلسفة، والمنطق،

---

(١) انظر: اليوربكي: **الوزارة، نشأتها وتطورها في الدولة العباسية** ص ٢٩.

(٢) انظر: أحمد أمين: **ضحى الإسلام** ج ١ ص ١٧٣.

(٣) ابن النديم: **الفهرست** ص ٢٢٤ وما بعدها.

(٤) انظر: أحمد أمين: **ضحى الإسلام** ج ١ ص ٢٥٠.

والنجوم والفلك، والقصة إلى العربية. وقام الحكام الفرس الذين يعملون في دوائر الدولة العباسية بتشجيع حركة الترجمة من تراثهم الفارسي إلى العربية، فيذكر ابن الطقطقي (ت ٧٠٩ هـ/ ١٣٠٩ م)[١]: (أن البرامكة شجعوا تعريب صحف الأعاجم) والعامل المهم الذي شجعهم على الإقبال على الترجمة رغبة خلفاء بني العباس في الاطلاع على ما عند الأمم الأخرى من تراث حضاري.
فيقول رفاعي[٢]: ان أكثر ما بعث المسلمون على النقل، رغبتهم في الفلسفة والطب والنجوم والمنطق، وأكثره نقل عن اليونانية، وكان أشهر المترجمين الفرس: عبدالله بن المقفع (ت ١٤٠ هـ/ ٧٥٧ م)، وهو فارسي الأصل زرادشتي الديانة نقل كثيراً من الكتب عن الفهلوية «الفارسية القديمة» إلى العربية، وكانت نهايته أن مات مقتولاً بأمر من الخليفة المنصور لأن إسلامه كان ظاهرياً، وأنه ظل أميناً للزرادشتيه، ولقد عثر له على قصيدة فيها ذكر للمانوية، وتقديسه للنور، مطلعها:

كأني أرى في الليل نصلاً مجرداً   يطير بكلتا ضخيتيه شرار
وإن كنت ليل المانوية فليكن   أعلى سر أهل الشر منك ستار

وقيل انه زرادشتي المذهب، ويستدل عليه بذلك أنه مرّ يوماً ببيت نار، فتمثل بقول الأحوص[٣]:

يا بيت عاتكة الذي أتغزل   حذر العدي وبه الفؤاد موكل
إني لأمنحك الصدود وإنني   قسماً إليك مع الصدود لأميل

وقيل انه كثيراً ما كان يردد:

الأرض مظلمة والنار مشرقة   والنار معبودة مذ كانت النار[٤]

(١) الطقطقي: الفخري ص ٢٣٥.
(٢) انظر: رفاعي: عصر المأمون ج ١ ص ١٦٣.
(٣) انظر: أحمد أمين: ضحى الإسلام ج ١ ص ٢٢٣.
(٤) انظر: اسماعيل مظهر: تاريخ الفكر العربي ص ٢٨.

ومن الكتب التي نقلها ابن المقفع كتاب كليلة ودمنة الذي ترجمه عن أقاصيص (بيدبا) التي كتبت بالسنسكريتية، وهي اللغة الهندية القديمة، ويعتبر هذا الكتاب من أقدم ما نقل من النثر إلى الأدب العربي[1].

وترجم ابن المقفع أيضاً كتاب (خداينامه) ويتناول تاريخ الفرس، وسمّاه «تاريخ ملوك الفرس» كما ترجم كتاب (آيين نانه) الذي يتناول النظم والشرائع والعادات والتقاليد الفارسية، وكتاب (مزدك)، وترجم كتاب (التاج) في سيرة أنوشروان، وكتاب الأدب الكبير والصغير، وكتاب اليتيمة[2]. ونقل إلى العربية كتاب هزار أخسانا، وشهرزاد[3]، كما ترجم كتب أرسطوطاليس المنطقية[4]. وترجم غيره عدد من كتب الفرس المجوس منهم: محمد بن الجهم البرمكي، حيث نقل كتاب سيرة ملوك الفرس، ونقل زادويه بن شاهدويه الأصفهاني كتاب (تاريخ ملوك الفرس)، وترجم محمد بن بهرام بن مطيار الأصبهاني كتاب (سيرة ملوك الفرس)، وترجم بهرام بن مرداتشاه موبذ كوره (شابور) كتاب تاريخ ملوك بني ساسان[5].

وترجمت بعض الكتب الدينية المجوسية، منها كتاب زرادشت المسمى (الأفستا) وما عليه من شروح (للزند)[6]، وترجم من كتب القصص كتاب بوستاس، وكتاب خرافة ونزهة. وكتاب الدب والثعلب، وكتاب روزبة اليتيم، وكتاب نمرود، وترجم في الأدب عهد اردشير، وكتاب موبذ موبذان، وكتاب اردشير في التدبير. وتوقيعات كسرى، وكتاب أدب الحرب[7].

---

(١) انظر: حسن ابراهيم حسن: **تاريخ الإسلام السياسي** ج ٢ ص ٢٩٧.
(٢) ابن النديم: **الفهرست** ص ١١٨.
(٣) انظر: رفاعي: **عصر المأمون** ج ١ ص ٣٨٧.
(٤) انظر: المصدر السابق ج ١ ص ١٦١.
(٥) انظر: أحمد أمين: **ضحى الإسلام** ج ١ ص ١٧٧.
(٦) ابن النديم: **الفهرست** ص ٣٠٥.
(٧) انظر: أحمد أمين: **ضحى الإسلام** ج ١ ص ١٧٧ نقلاً عن بحث كتب بمجلة (Islamic Culture. p.I. p. 629).

وبرز في علم النجوم جماعة من الفرس المجوس، وتقربوا بها إلى الخليفة العباسي المنصور، أشهرهم نوبخت المنجم الفارسي كان مجوسياً، وأسلم على يد المنصور، وكان بارعاً في علم الكواكب وحوادثها، فقرّبه المنصور وأعجب به، وتوالى آل نوبخت في خدمة العباسيين، وترجموا لهم كتباً في الكواكب، وأحكامها، ولعلّ رغبة المنصور في دراسة علم النجوم هي التي دعته إلى الاهتمام بعلماء النجوم، وإلى ترجمة بعض كتب النجوم[١]. وبرز من الكتّاب الفرس منذ العصر الأموي عبد الحميد الكاتب الذي أدخل أساليب الكتابة الفارسية على العربية، ولا سيما في الرسائل الديوانية، التي سميت التوقيعات وشاع فيها استخدام أساليب التفخيم، والتعظيم، والتحميدات في صدور الرسائل، وختم الرسائل بما يناسب المكتوب إليه[٢].

كما أثرت الفنون الفارسية في الفنون العربية، حيث اتصلت الحضارة الفارسية بالحضارة اليونانية التي عاصرتها، وأثرت فيها وتأثرت بها، وكان أثر هذا الاتصال واضحاً في الموسيقى والغناء عند الفرس، وعرف الفرس الموسيقى الدينية أو الموسيقى المقدسة التي كانت معروفة في معابد اليهود وبيع وأديرة النصارى[٣]. فتأثروا بها ثم لم يلبثوا عندما اختلطوا بالعرب بعد الفتح الإسلامي أن نقلوا هذه الفنون إلى المجتمع العربي الإسلامي، فشاع عند الخلفاء العباسيين استخدامها، ويؤيد هذا ما يقوله هنري جورج، ففي عصر الرشيد لعب البرامكة دوراً هاماً في نشر الفنون الفارسية وخاصة الموسيقى، وقرّبوا الشعراء والموسيقيين[٤].

ويقول الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ/ ٨٦٨ م)[٥]: ان الفرس هم الذين أدخلوا

---

(١) انظر: جرجي زيدان: **التمدن الإسلامي** ج٣ ص ١٥٥.

(٢) انظر: محمود: **الإسلام والحضارة العربية** ص ٩٢؛ حسن ابراهيم حسن: **تاريخ الإسلام** ج ٢ ص ٢٩٧.

(٣) الطبري: ج ٢ ص ١٥٠ وما بعدها. طبع دار المعارف.

(٤) انظر: هنري جورج: **تاريخ الموسيقى العربية** ص ١١٠.

(٥) الجاحظ: **التاج في أخلاق الملوك** ص ٣٣.

الغناء والطرب إلى مجالس الخلفاء، ورتبوا هذه المجالس، واقتبس العباسيون هذا الترتيب.

ونظرة فاحصة في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني تدل بوضوح على تسرب الكثير من ضروب الفنون الفارسية في الموسيقى والغناء إلى الموسيقى العربية[1] .

ويبدو مما مرّ بحثه أن أهل الذمة قاموا بدور مهم كوسطاء في نقل علوم اليونان، وخاصة في الفلسفة والطب والرياضيات والفلك والتنجيم إلى العربية، وخاصة منهم النصارى، وتابعهم في ذلك الصابئة إلى حد ما. أما المجوس فقاموا بنقل ما عندهم في الأدب والقصة والتاريخ والموسيقى والغناء، بالدرجة الأولى من الفارسية والهندية إلى العربية.

□ □ □

(١) انظر: محمود: الإسلام والحضارة العربية ص ٩٢.

الفصل الثالث:

الحياة الاقتصادية لأهل الذمة

تقوم الحياة الاقتصادية في العراق على أساس الزراعة، وتعتبر المورد الرئيسي لمعيشة السكان، ومصدراً مهمًا من مصادر الثروة الاقتصادية في البلاد، ولذا فقد اهتم سكان العراق اهتماماً بالغاً ومنذ عصور قديمة بالزراعة، وقد أعار الحكام الفرس اهتماماً فائقاً للزراعة في العراق، حتى أن تعاليم زرادشت التي انتشرت في العراق في العهد الساساني، كانت تعتبر أن أشرف الأعمال للإنسان هي الزراعة وتربية الماشية، ولذا فقد حبب زرادشت إلى الناس أن يزرعوا ويعيشوا مع ماشيتهم وأن يعملوا[1].

ولما فتح العراق في عهد الخليفة عمر بن الخطاب أولى عناية فائقة بالأرض، وذلك بالتخفيف عن الفلاحين، وتحريرهم من عبودية الاقطاع والدهاقين بإعادة الأرض إليهم وتخليصهم من الاضطهاد[2]. وإن إجراءاته في إبقاء الأراضي المفتوحة في العراق بيد أصحابها كانت تتسم بالروح الإنسانية، والعدالة الاجتماعية، كما تنم عن عبقرية فذّة في علاج المشاكل الاقتصادية، فقد رفض عمر بن الخطاب أن يقسم أرض السواد في العراق على الفاتحين باعتبارها جزءاً من الغنائم التي حازوها بانتصاراتهم على جيوش الفرس، فأبقى هذه

---

(١) انظر: أحمد أمين: فجر الإسلام ص ١٢١.

(٢) الطبري: تاريخ ج ٤ ص ١٨٣.

الأراضي لأصحابها مقابل دفعهم الخراج[1]. وإذا أسلم الذمي سقطت عنه الجزية وبقي الخراج على أرضه[2].

وقد أدت هذه السياسة الاقتصادية إلى زيادة الروابط بين المسلمين، وأهل الذمة لأن الإسلام ضمن لأهل الذمة حرمة ممتلكاتهم وأموالهم وحرية نشاطهم الاقتصادي[3]. فشاركوا المسلمين في الحياة الاقتصادية بالإضافة إلى مساهمتهم في الحياة الاجتماعية والعلمية. فمن أهل الذمة من كان طبيباً، وفيلسوفاً، ومهندساً، وتاجراً، وصرافاً، وبزازاً[4]. كما استخدمتهم الدولة في دوائرها، ومؤسساتها كالأعمال الكتابية والإدارية والمالية، وذلك لأن دواوين الدولة بقيت تكتب بلغاتها المحلية حتى مجيء عبد الملك بن مروان، فكانت تكتب في العراق، والشرق بالفارسية، وفي الشام باليونانية، وفي مصر بالقبطية، فيقول الجهشياري (ت ٣٣١هـ / ٩٤٢م): «ولم يزل بالكوفة والبصرة ديوانان أحدهما بالعربية لإحصاء الناس، وأعطياتهم، وهذا الذي كان عمر قد رسمه، والآخر لوجوه الأموال بالفارسية... فجر الأمر حتى أيام عبد الملك بن مروان[5]. حيث عرّبت الدواوين والنقود منذ سنة ٦٧هـ، وكان الحجاج الثقفي له اليد الطولي في الأخذ بسياسة التعريب في العراق، وقد أدى التعريب إلى نقل المصطلحات الفارسية واليونانية والقبطية إلى العربية، وإلى إبعاد هيمنة أهل الذمة على الإدارة، والمحاسبات التي غالباً ما كانت تتأثر بفعلهم»[6].

وقد أدت إجراءات الحجاج في العراق، وتعريبه للدواوين ردود فعل عند الفرس، فيقول البلاذري (ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م)[7]: «بعد أن عزم الحجاج على

---

(١) الطبري: **تاريخ** ج ٤ ص ١٨٣.
(٢) ابن عبد الحكم **سيرة عمر بن عبد العزيز** ص ٩٥.
(٣) انظر: (Faṭtal: Le Statut Legal D'es Non Musulmons, p. 144).
(٤) أبو يوسف: **الخراج** ص ١٢٣.
(٥) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٣٨.
(٦) انظر: كاشف: **الوليد بن عبد الملك** ص ١٨٦.
(٧) البلازي: **فتوح البلدان** ف ٢ ص ٣٦٨.

نقل الديوان إلى العربية، وقلّد ذلك صالح بن عبد الرحمن»، قالت الفرس له: «قطع الله أصلك من الدنيا، كما قطعت أصل الفارسية». وكان لها أثرها فيما بعد في قيام حركات الموالي في العصر الأموي لأنهم اعتقدوا أن سياسة التعريب كان غرضها إبعاد الموالي وأهل الذمة عن المراكز الكبيرة والمهمة في الدولة الأموية. مع أن الأمويين ظلوا يستخدمون أهل الذمة في وظائف الدولة، فكان سرجون بن منصور الرومي خاملاً رفعته الكتابة، وكتب لمعاوية، ويزيد بن معاوية، ومروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان[1].

وكان عبيد الله بن زياد يفضل استخدام أهل الذمة في وظائف الدولة لأنهم أبصر بالجباية، ولأنه كان بإمكانه أن يعاقبهم إذا أساءوا الاستغلال دون أن يخشى تدخل عشائرهم[2]، ويقول الجهشياري (ت ٣٣١هـ / ٩٤٢م)[3]: «إن أكثر كتّاب خراسان كانوا مجوساً حتى أمر يوسف بن عمر نصراً وإلى خراسان بوجوب تولية المسيحيين، ولما قامت الدولة العباسية، وساهم الفرس في قيامها شاركوهم في إدارة الدولة، واستخدموهم في وظائفها المهمة من وزارة وولاية وقيادة، وإدارة، وكتابة». فقد أجاز الفقهاء استخدام أهل الذمة في وظائف الدولة، فيقول الماوردي (ت ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م)[4]: «ويجوز أن يكون وزير التنفيذ من أهل الذمة».

وقد تسربت بعض العناصر الفارسية في العصر العباسي إلى جميع أجهزة الدولة، ووصلت إلى أرفع المناصب، ودخل أفراد الطبقة العامة منهم ميدان الجندية، وفتحت أمامهم طريق النشاط الاقتصادي وكان هؤلاء معظمهم من اليهود والنصارى والمجوس، وعاشوا في الحواضر، وفي الأقاليم، والثغور عيشة ترف ونعيم[5]. كما تولى الصابئة أيضاً بعض المناصب الرفيعة في الدولة العباسية

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ج ١ ص ٤٠.
(٢) انظر: العلي: التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ص ٢٢٨.
(٣) الجهشياري: الوزراء والكتاب ص ٦٥.
(٤) الماوردي: الأحكام السلطانية ص ٢٧.
(٥) انظر: محمود: الإسلام والحضارة العربية ص ١٠٢.

فكان أبو إسحاق الصابي بعد إسلامه، صاحب الرسائل المشهورة يشرف على ديوان الرسائل [1].

وقد أباح الإسلام، والحكام المسلمون لأهل الذمة حرية عقد العهود التجارية، والصناعية ومزاولتها، كما أبيح للذمي مشاركة المسلم في التجارة، والأعمال الصناعية على أن يكون المسلم حاضراً في جميع الأعمال لكي يمنعه من تعاطي الربا أو شراء وبيع الخمر ولحم الخنزير دون علم المسلم [2]. كما أباحت الشريعة الإسلامية للذمي المتاجرة بالعبيد من الذميين وبالخمور ولحم الخنزير دون مشاركة المسلم له في التجارة لهذه السلع [3].

ويبدو أن من العوامل التي فتحت آفاقاً جديدة لازدهار التجارة في العراق قيام الأمبراطورية الإسلامية وتوحيد الشرق تحت راية الإسلام ونشر الأمن والسلام في ربوعه، مما أدى إلى أن تتحول طرق التجارة تدريجياً من البحر الأحمر، وصارت تسلك طريق الخليج العربي فخليج البصرة الذي كان أقصر وأسلم وأقل كلفة [4]. ثم اتخاذ بغداد عاصمة الأمبراطورية الإسلامية في العصر العباسي جعل العراق يتمتع بمركز سياسي واقتصادي بالإضافة إلى المركز الجغرافي والتجاري. فكانت السفن البحرية تأتي بتجاراتها ومن الهند والصين وشواطىء أفريقيا وجزر الهند واليمن إلى البصرة فبغداد [5]. ومن فارس والشام ومصر وبلاد الروم عن طريق البر وذلك لزيادة الطلب على السلع والبضائع النادرة والثمينة، وقد أصبحت بغداد (العاصمة) مركزاً لتبادل السلع التجارية المختلفة بين أجزاء الأمبراطورية العباسية بالإضافة إلى أنها أصبحت أعظم سوق مالي حيث ازدهر نظام الصيرفة وأدى تطوره إلى قيام المصارف والشركات

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ج ١ ص ٤١.

(٢) انظر: (Fattal: Le Statut Legal des Non Musulmons, p. 146-9).

(٣) انظر: (Fattal: p. 147-151).

(٤) انظر: العلي: التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية ص ٢٥٧.

(٥) انظر: جرجي زيدان: التمدن الإسلامي ج ٥ ص ٤٠.

والمؤسسات المالية لتلبية حاجات التجار من المال ولتسهيل مهمة نقل هذه الأموال إلى البلدان البعيدة دون تعرضها لخطر السرقة وغيره، وكذلك أصبحت سوقاً لتبادل النقود ولا سيما بين دراهم فارس ودنانير الشام ومصر وبلاد الروم، وكان أكثر الناس اشتغالاً بالتجارة والصيرفة هم اليهود[1]، ويقول العلي[2]: «ولا ريب أن هذا التغيير كان من مصلحة التجار العراقيين الذين احتفظوا بتنظيماتهم ومؤسساتهم التجارية بعد الفتح الإسلامي، واستطاعوا أن يوسعوا نشاطهم التجاري إلى سوريا التي أصبحت جزءاً من الأمبراطورية الإسلامية بعد انفصالها عن الدولة البيزنطية»، وكان ميناء الابلة أهم ميناء تجاري للعراق مع الهند[3]. ولذا فقد أطلق العرب على منطقة الابلة أرض الهند أو فرج الهند[4].

وكان التجار في العراق خليطاً من المسلمين وأهل الذمة إلا أن أغلبهم كانوا من أهل الذمة، ولا سيما اليهود والنصارى لأن العرب المسلمين، كما يقول ابن خلدون فيهم: «أدركوا الحضارة وسوقها، وخرجوا إليها فشغلتهم الرياسة في الدولة العباسية... ويستنكفون عن الصنائع والمهن، وما يجر إليها، ودفعوا ذلك إلى من قام به من العجم»[5]. ويؤيد الدوري ذلك، فيقول: «وكان جلّ النشاط التجاري بيد أهل الذمة لانصراف العرب إلى الحكم والإدارة والجيش[6]. وكانت التجارة تقوم مع أقطار الشرق بالدرجة الأولى، ويبدو أنه لم تكن هناك تجارة بين الدولة العربية، وأوروبا، وذلك بسبب العداء الدائم بين النصرانية، والإسلام «البيزنطيون والمسلمون».

وكان اليهود يمثلون المحايدين الوحيدين بين الإسلام والنصرانية إذ كان

---

(١) ابن خرداذبة المسالك والممالك ص ١٥٣.
(٢) انظر: العلي: التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية ص ٢٥٧.
(٣) البلاذري: فتوح البلدان ص ٣٤١.
(٤) انظر: العلي: التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية ص ٢٥٩.
(٥) ابن خلدون: العبر ق ٥ ج ١ ص ١٠٢٢.
(٦) انظر: الدوري: مقدمة في التاريخ الاقتصادي ص ٤١.

يسمح لهم بالاتجار في بلاد كل من الكتلتين[1]. ويؤكد المستشرق ديورانت ذلك بقوله: «وقد لجأ اليهود إلى التجارة، وقد احتكروا التجارة فكانت أحمالهم وقوافلهم وسفائنهم تجتاز الصحراوات، والجبال، والبحار وكانوا حلقة الاتصال التجاري بين بلاد المسلمين، والمسيحيين، وكانوا هم القائمين بمعظم تجارة الرقيق، وكان يعينهم على النجاح في التجارة مهارتهم في تعلم اللغات، وتعاون الجماعات اليهودية بعضها مع بعض حتى يجد اليهودي له موطناً أينما حلّ، حيث يستضيف الحي اليهودي الذي في المدينة التي حلّ فيها»[2].

ويحدثنا ابن خرداذبة (ت ٣٠٠هـ / ٩١٢م)[3] في المسالك والممالك عن التجار اليهود الذين يتكلمون اللغات العربية والفارسية واليونانية والهندية والاسبانية والصقلبية، ويصف المسالك البرية والبحرية التي يتنقلون بها وكان هؤلاء التجار اليهود يحملون الخصيان والعبيد والجواري، والحرير المطرز، والفراء، والسيوف إلى بلاد الشرق الأقصى ويعودون منها بالمسك، والند، والكافور، والتوابل، والمنسوجات الحريرية.

ومن السلع التجارية التي اهتم اليهود والنصارى بمزاولتها في التجارة هي (الرقيق) حيث انتشرت تجارته في العصر العباسي على نطاق واسع، وكانت بغداد مركزاً لهذه التجارة، فكان بها شارع يسمى (شارع دار الرقيق)[4] وكان يسمى تجار الرقيق بـ (النخاسة)[5] الذين يقومون بخصي الرقيق[6]: «وكان هؤلاء من اليهود والنصارى، وبالإضافة إلى ذلك فقد تعاطوا شتى أنواع التجارة، فاحتكروا تجارة الاصباغ[7]. واتصلوا بالملوك لاحتكارهم تجارة

(١) انظر: جون جلوب: امبراطورية العرب ص ٦١٢؛ (The Jewish Ency p. 13).
(٢) انظر: ديورانت: قصة الحضارة ج ١٤ ص ٦١.
(٣) ابن خرداذبه: المسالك والممالك ص ١٥٣ ـ ١٥٤.
(٤) القفطي: أخبار الحكماء ص ٣٨٧.
(٥) انظر: أحمد أمين: ضحى الإسلام ج ١ ص ٨٣.
(٦) ابن حوقل: المسالك والممالك ص ٧٥.
(٧) بنيامين: الرحلة ص ٩٩.

المجوهرات، واشتغلوا بالصناعة، كما تعاطوا الطبابة، وانخرطوا في سلك الحكومة»[1]، ويقول المستشرق أرنولد: «وكان اليهود يحترفون الصياغة، ونسج الحرير، وصناعة الزجاج، وإدارة السفن[2]». ويقول غنيمة: «وكانوا يتعاطون الزراعة ويشتغلون بفلاحة الأرض، واحترفوا الحرف المختلفة فمنهم الصائغ، والحائك، والصباغ، والدباغ، والإسكافي، والبنّاء، وغيرها من الحرف»[3].

ويقول المستشرق (Goitein)[4]: «ويعمل اليهود في العهود الإسلامية بالتجارة والصيرفة، وقسم قليل من اشتهر بالطب»، ويقول الأصفهاني (٣٥٦هـ / ٩٦٦م)[5]: «اتسع نطاق التجارة، وأصبحت مورداً مهمًا لأهل بغداد، وصار الصيارفة من اليهود»، ويقول ابن العبري (٦٨٥هـ / ١٢٨٦م)[6]: «اشتغل اليهود بالتجارة، والصناعة، ومارسوا مهنة الطب فكان للحجاج الثقفي مثلاً طبيبان يهوديان»، ويقول الجاحظ (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٨م)[7] عن مهنهم: «كان عامة اليهود صباغين وصفارين وقصابين إلا أن وضعهم تبدل في القرن الرابع الهجري فكان منهم التجار، والصرافون، كما كان منهم الموظفون والإداريون أيضاً»، وقد ساعدت الأرباح الكبيرة المتأتية من التجارة على ممارسة اليهود في العراق مهنة الصيرفة، ونالوا بفضل ذلك شيئاً من الوجاهة حيث كان رجال الدولة العباسية، وخاصة الخلفاء يقترضون منهم، (ويصادروهم في أوقات الأزمات المالية، ويودع الوزراء والقواد والأمراء أموالهم لديهم لحفظها)[8]، وقد مارس اليهود مهنة الاقتراض بالربا لأن

---

(١) ابن القيم الجوزية: **أحكام أهل الذمة** ص ١٠٠.
(٢) انظر: أرنولد: **الدعوة إلى الإسلام** ص ٢؛ ترتون: **أهل الذمة في الإسلام** ص ٢٠٥.
(٣) انظر: غنيمة: **نزهة المشتاق** ص ٨١.
(٤) انظر: (Goitein, Jews and Arabs. p. 99).
(٥) الأصفهاني: **الأغاني** ج ٣ ص ٨٥.
(٦) ابن العبري: **تاريخ مختصر الدول** ص ١٩٤.
(٧) الجاحظ: **ثلاث رسائل** ص ١٧ باعتناء فنكل؛ بنيامين: **الرحلة** الملحق (٣).
(٨) انظر: غنيمة: **نزهة المشتاق** ص ١٣٤.

أسفار موسى والتلمود قد حرمت التعامل بالربا بين اليهود أنفسهم، ولكن لم تحرمه بين اليهودي وغير اليهودي [1]. وقد كانوا يأخذون نسبة عالية في الربا، فيروي الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ / ٩٦٦ م)[2]: «إن اليهود وغيرهم يعطون مالهم بالربا على أن يعاد عليهم المثل في آخر العام مثلين»، ولم تكن التجارة والصيرفة قاصرة على اليهود فقد ساهم النصارى وغيرهم فيها أيضاً، فيقول المستشرق متز [3]: «وكان يقوم بالتجارة كثير من أهل العراق من سكان البصرة والكوفة وبغداد، وكان هؤلاء من المسيحيين واليهود والفرس».

ويقول الدوري[4]: «كانت في المدائن في العهد الساساني أقلية مسيحية برعت في الصيرفة حتى صارت الواسطة الوحيدة بين فضة الفرس وذهب الرومان، واشتغلت بعقد القروض لتسهيل التجارة، ثم نقل هؤلاء المسيحيون مركزهم إلى الكوفة في العهد الإسلامي، وكان لهم فضل كبير على تقدم فن الصيرفة في العراق»، ويقول ماجد: «وكان لكثرة ما سكّ من العملة بأسماء الخلفاء وبخاصة حينما تعددت دول الإسلام، أن ظهرت طائفة عرفت بالصيارفة لتسهيل الصفقات المالية وتمويل العملات ونشأتها، ولما كان الإسلام يمنع المسلمين من الاشتغال بالربا ـ أي الفائدة ـ فإن معظم أعمال الصيرفة كانت في أيدي النصارى واليهود»[5].

ويقول الجاحظ (٢٥٥هـ / ٨٦٨ م)[6]: «وكان أغلب الصيارفة حتى أواخر القرن الثالث الهجري مسيحيين، ولكن اليهود بدأوا يزاحمونهم في هذه

---

(١) انظر: ديورانت: **قصة الحضارة** ج ١٤ ص ٦٢.

(٢) الأصفهاني: **الأغاني** ج ٧ ص ١٥٤؛ المدور: **حضارة الإسلام** ص ١١٨.

(٣) انظر: متز: **الحضارة الإسلامية** ج ٢ ص ٣٧٨.

(٤) انظر: الدوري: **تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري** ص ١٧٠.

(٥) انظر: ماجد: **تاريخ الحضارة الإسلامية** ص ٤٤.

(٦) الجاحظ: **ثلاث رسائل (في الرد على النصارى)** ص ١٧؛ (مما عظّم النصارى في قلوب العوام... إن منهم كتاب السلاطين وأطباء الأشراف والصيارفة).

المهنة»[1]، وكان الدهاقين الأعاجم من المجوس الذين يتقبلون الضرائب التي كانت تجمع من فلاحي المقاطعات، الذين كانوا يقومون بإقراض الناس، وقد ظلوا بعد الفتح الإسلامي للعراق، وتعاونوا مع العرب[2] كما أن هناك آخرين كانوا يقومون بعملية الاقتراض لم تذكرهم المصادر، ولكن تستدل من أسمائهم أن بعضهم كانوا من المسيحيين»[3].

ويبدو أن العوامل التي فسحت المجال لليهود والنصارى والمجوس على ممارسة الصيرفة والجهبذة، هو تحريم الشريعة الإسلامية على المسلم التعامل بالربا.

وقد قام الصيارفة بتسهيل العمليات التجارية، وذلك بإقراض التجار الأموال، وقد توسعت عمليات الصيرفة بمرور الزمن فساعد ذلك على نشوء المصارف، والمؤسسات المالية، وكانت تسمّى في العصر الأموي بـ (حوانيت الصيارفة) فكان الصيارفة المسيحيون يستطيعون التحكم بين فضة الفرس، وذهب البيزنطيين[4]، ولا ريب أن مثل هذه التجارة الواسعة النطاق كانت تتطلب إجراءات مالية واسعة أيضاً لذا فقد ظهر في العصر العباسي نظام مصرفي عرف وسائل الاعتماد، والمسحوبات المصرفية للتجار، وقد مارس اليهود هذه العملية[5] فاستعملوا الحوالات والصكوك، والسفاتج، التي سهلت التبادل التجاري بين المدن البعيدة، وخففت من صعوبة نقل النقود بين البلدان، وتعرضها إلى أخطار السرقة والنهب[6]، وظهرت مؤسسات مصرفية تقوم بدور

---

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم ص ٢٧٣؛ ليدن: ١٨٧٧ م.
(٢) أبو عبيدة: الأموال ص ٧٨.
(٣) انظر: العلي: التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية ص ٢٧٩.
(٤) انظر: الخربوطلي: تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي: ص ٣٦٢.
(٥) انظر: جون جلوب: امبراطورية العرب ص ٦١٣.
(٦) انظر: العلي: التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية ص ٢٩٠ وما بعدها؛ ماجد: الحضارة الإسلامية ص ٤٤.

المصارف ومن هذه (بيوت الجهابذة)[1] الذين خدموا التجارة، ودعموا اقتصاد الدولة في بعض الفترات[2].

وقد اشتهر في العراق رجلان من جهابذة (صيارفة) اليهود، وهما يوسف بن فنحاس، وهارون بن عمران، ويظهر أن هذين الرجلين كان لهما شبه مصرف أو شركة لأنه لما خلع الوزير علي بن عيسى بن الفرات، وطولب بالمال أقر بأن له عندهما سبعمائة ألف دينار[3]. وكان هذان الجهبذان، ومعهما زكريا بن يوحنا يسمون جهابذة الحضرة[4]. مما يدل على أن اليهود والنصارى كانوا من أبرز وأغنى سكان العراق، ويقول المستشرق متز[5]: «فلا عجب أن نجد في لغة العرب لفظة (مبلط) وهو اصطلاح مالي يهودي يستعمل بمعنى المفلس».

ويقول المقدسي (ت ٣٧٥هـ / ٩٨٥ م)[6]: «وكانت الصفة الغالبة على أعمال اليهود في العراق هي الصيرفة والجهبذة، على حين كان أكثر الأطباء والكتبة من النصارى». ويبدو أيضاً مما رواه المقدسي والجاحظ (٢٥٥هـ / ٨٦٨ م)[7] : «أن هناك توافقاً في المهن والأعمال الاقتصادية بين أصحاب الأديان من أهل الذمة، حيث كان أغلب القصابين من اليهود والكتاب من المجوس، والأطباء من النصارى».

لم تقتصر الحياة الاقتصادية لأهل الذمة في العراق على التجارة والصيرفة، بل اعتمدت على الصناعة أيضاً وكانت صناعة النسيج من أهم الصناعات إذ

---

(١) الجهبذة أو الصيرفي: وهو الذي يتولى قبض الأموال وصرفها وهو مأخوذ من الصرف، وهو صرف الذهب والفضة في الميزان (القلقشندي: صبح الأعشي ج ٥ ص ٤٦٦).

(٢) انظر: الدوري: **مقدمة في التاريخ الاقتصادي** ص ٧٠.

(٣) انظر: متز: **الحضارة الإسلامية** ج ٢ ص ٣٧٨.

(٤) الصابيء: **الوزراء** ص ١٧٨.

(٥) تاج العروس: مادة بلط: البلطه المفلس، وأبلط الرجل الذي ذهب ماله.

(٦) المقدسي: **أحسن التقاسيم** ص ١٨٣، (Fattal, p. 157).

(٧) الجاحظ: **ثلاث رسائل** وتشمل رسالة في الرد على النصارى ص ١٧.

كانت الدولة العربية في العصر العباسي تعتبر أول منتج في العالم للمنسوجات الحريرية، وقد اشتهرت بعض المنسوجات في آوروبا بالنسبة للمدن العربية التي اشتهرت بصناعتها فاسم النسيج (الموسيلني) مشتق من اسم مدينة الموصل[1]. وكان أغلب هؤلاء الصناع، وأصحاب الحرف من أهل الذمة، وكانت لهم حرية واسعة في ممارسة حرفهم، أما الدولة فلم تتدخل إلا في بعض الصناعات كسك النقود، فالدولة كانت تفرض عليهم رقابة دقيقة لضمان صحة العيار، وصفاء المعدن المستخدم في المسكوكات[2].

وكانت الدولة تعاملهم لا على أساس الدين وإنما على أساس الحرفة وأصبح لكل حرفة سوقها، وصناعتها الخاصة بها، وصار يشار إليها بـ (الاصناف) و (أصحاب المهن) و (أهل الصنايع) كما كان لكل حرفة زيّها، ولها رئيس يمثلها في قصور الخلافة، في الاحتفالات والمناسبات الرسمية، وكانت الحرف مفتوحة للناس من الديانات المختلفة، وتعتبر المهنة رابطة أساسية بين أصحابها[3].

وكانت العصور الوسطى الإسلامية تتميز بالتخصص في الصناعات والتجارة مما أدى إلى نشأة نظام النقابات الذي يعتبر النظام الشعبي الوحيد في الخلافة الإسلامية فقد كانت لكل طائفة من التجار وأصحاب الحرف تتجمع في مكان واحد تتسمى به وكان من نتيجة ذلك إيجاد تدرج مهني في الجماعة الواحدة من شيخ ومعلم ومتعلم وصانع وصبيان كما وجدت تقاليد معينة لكل صناعة وتجارة[4].

ومن الأمور التي ساعدت على ازدهار المهن والحرف والصناعات في العراق هو مركز العراق الجغرافي والسياسي، ووقوعه على طرق التجارة الرئيسية في

---

(١) انظر: جلوب: **امبراطورية العرب** ص ٦١٣.
(٢) البلاذري: **فتوح البلدان** ص ٤٦٨؛ العلي: **التنظيمات** ص ٣٠٢.
(٣) انظر: الدوري: **مقدمة في التاريخ الاقتصادي** ص ٦٧.
(٤) ماجد: **تاريخ الحضارة الإسلامية** ص ٨٦.

الشرق، وتشجيع الخلفاء العباسيين للتجارة ثم التطور الاجتماعي، والاقتصادي الذي أدى إلى ازدياد الطلب على السلع والحاجيات، ولا سيما طلبات الخليفة، وكبار موظفي الدولة على السلع والبضائع حتى أن ابن خلدون يسمى الدولة (السوق الأعظم للتجارة)[1]. وتشجيع الدولة للتجار، والصناع ساعد على ازدهار التجارة والصناعة والحرف المختلفة.

وقد برز أهل الذمة في الصناعات، والمهن المختلفة، فكان اليهود يقومون بأعمال الخياطة، والصباغة، والإسكافة، والحجامة، والقصارة، والقصابة[2]، وامتهن النصارى المهن المتعددة منها الحياكة، والصباغة، والحدادة، والنجارة، وقد برعوا، وتفننوا في زخارفها ونقوشها، فنتج نجاروهم المقابر، والمقاصير لكنائسهم، وديارهم، وبرعوا في صناعة الأبواب الحديدية، والسيوف، والدروع، والخوذ، ونصل الرماح، كما تفننوا في صياغة الحلى الذهبية، والفضية المرصعة بالجواهر، وبرعوا في فن الحياكة فنسجوا الخز، والكتان، والصوف، وحاكوا البرود المصبغة، والحلل المخططة الموشاة بالقصب، والمطرزة بخيوط الذهب[3]، كما زاولوا مهنة التعليم، واتقنوا فن هندسة البناء، وتتجلى مهارتهم في بناء البيع، والأديرة، والكنائس[4].

وبرز أهل الذمة في مهنة الطب وصناعة الأدوية، وخاصة اليهود والنصارى، وكان القسس أيضاً يقومون بمعالجة المرضى، ولذا أصبحت الأديرة مراكز للعلاج في الأمراض، وأماكن للنقاهة[5].

أما الصابئة فقد زاولوا مهنة الصياغة بالدرجة الأولى، ولا سيما صياغة

---

(١) انظر: الدوري: مقدمة في التاريخ الاقتصادي ص ٦٩.

(٢) أبو يوسف: الخراج ص ٦٩؛ المقدسي: ص ١٧٣؛ آدم متز: ص ٥٣؛ (Fattal: Le Statut Legal Des Non Musulmons p. 158).

(٣) الأغاني: ج ٨ ص ٤٨، ٤٩، ٧٦، ج ٢٠ ص ١٣٢؛ ابن خلدون: العبر ج ٢ ص ٣٠٩ ـ ٣١٣.

(٤) انظر: الصائغ: تاريخ الموصل ج ٢ ص ٨.

(٥) الشابشتي: الديارات ص ١٩٦.

الميناء والفضة، وهي من الفنون الجميلة، التي لا يطلعون أحداً من غير أبناء ملتهم على أسرارها[١]. ولفظ (الميناء) جاءت من (المنية) لفظة فارسية معناها صناعة جوهر الزجاج وهي اسم لأكاسيد معدنية تصهر بمادة زجاجية تزين بها الفضة والذهب فتكسبها جمالاً، وقد تخصص القسم الأعظم من الصابئة في هذه الصناعة حتى أبدعوا فيها، وأتقنوا فن نقل الصور المختلفة على الأواني، والحلى النسائية، وأصبحت هذه الصناعة تنحصر فيهم دون غيرهم، ولا يسمحون للغير بتعلمها[٢]. واشتهر الصابئة أيضاً ببعض الصناعات اليدوية الأخرى ولا سيما صناعة القوارب، والزوارق، وامتهن البعض منهم الحدادة وصناعة الآلات الجارحة كالسيوف، والخناجر[٣]. وقلّ منهم من امتهن الزراعة والتجارة، وبعض المهن الأخرى، والعمل في دوائر الدولة.

وأخيراً: كان لأهل الذمة دورهم المهم في الحياة الاقتصادية في العراق، حيث زاولوا مهنة الزراعة، وتربية الحيوانات، كما زاولوا التجارة والصيرفة، وامتهنوا الحرف المختلفة، وبرعوا في الصناعات، وقد أتيحت لهم هذه النشاطات بسبب أحجام العرب المسلمين عن بعضها كالصيرفة لأنها تتنافى والإسلام، واعتبارهم المهن الأخرى لا تليق بهم، ولا تتفق وتقاليدهم العربية.

□ □ □

---

(١) انظر: الحسني: العراق قديماً وحديثاً ص ٤٩؛ جورج جلوب: امبراطورية العرب ص ٦١٣.

(٢) انظر: الحسني: الصابئون ص ١١٨ ــ ١١٩.

(٣) انظر: المصدر السابق ص ١١٩.

خاتمة البحث

وأختتم بحثي بالقول بأنني توخيت من دراسة تاريخ أهل الذمة في العراق منذ الفتح الإسلامي حتى نهاية عصر المتوكل أي بين (١٢ ــ ٢٤٧ هـ) لأنها كانت أخصب فترة في التاريخ الإسلامي بالنسبة للعراق، ولأنها شملت عصور مختلفة كان لهاأثرها في تحديد السياسة العامة للدولة الإسلامية تجاه معاملة أهل الذمة، وللوصول إلى نتائج هامة لتبيان حالة اليهود والنصارى والصابئة وحتى المجوس في ظل الحكم الساساني، وما صارت إليه حالهم في العهود الإسلامية من راشدين، وأمويين، وعباسيين.

وقد حصلت على نتائج قيّمة عن تلك المعاملة السيئة والاضطهادات المتعددة التي لقيها النصارى خاصة واليهود، وبعض طوائف المجوس في فترات متعددة من التاريخ الساساني[١]. وذلك بسبب اختلافهم مع الزرادشتية في الاعتقاد، وهي الدين الرسمي للدولة الساسانية، وكان رد الفعل لهذه السياسة أن استبشر أصحاب هذه الأديان بالفتح الإسـلامي، وقد عـاملهم الحكام المسلمون معاملة طيبة وأطلقوا لهم ممارسة فعالياتهم الدينية والاقتصادية، وقد اعترف المؤرخون من أهل الذمة والمستشرقون بهذا التسامح والحرية[٢] الذي

---

(١) انظر: أدي شير: تاريخ كلدو واثور: ج ٢ ص٢٨، ٦٠؛ بارتولد: الحضارة الإسلامية ص ٥٠؛ الدوري: مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ص ٦٣.

(٢) انظر: لوبو: حضارة العرب ص٥٢؛ دوزي: نظرات في الإسـلام ص ٢١١ ــ ٤١٢؛ (Shedd, Islam and Oriental Churchs. p. 97).

يعود أصله إلى تعاليم الإسلام التي وردت في القرآن الكريم[3]. وإلى وصايا الرسول بوجوب معاملتهم بالحسنى، وقد سار الخلفاء الراشدون على هدى القرآن وسنة الرسول في معاملتهم[4]، واقتدى بهم من جاء بعدهم من الخلفاء فقد سمح الحكام المسلمون لغير المسلمين السكنى في البلاد الإسلامية وعقد الذمة معهم وتكفل الدولة لهم حماية أوراحهم، وأموالهم، وممارسة شعائرهم الدينية، ومساواتهم مع المسلمين في جميع الحقوق والواجبات، ما داموا ملتزمين بحدود العقد، كما سمح لهم الحكام المسلمون أيضاً بالتمتع بجميع الحقوق التي يتمتع بها المسلم كالعمل في وظائف الدولة والمساهمة في الحياة الاقتصادية، والتمتع بالضمانات المادية التي يتمتع فيها المسلم في أوقات العجز، والشيخوخة، والمرض، وساواهم في الواجبات التي على المسلم ولا سيّما في مهمة الدفاع عن الدولة الإسلامية. وذلك بدفعهم الجزية بدلاً من المساهمة في القتال وبدفع ضرائب الأرض والتجارة كالتي فرضت على المسلم أيضاً

وإن ما نسب إلى الخليفة عمر بن الخطاب من وثيقة تاريخية تناقلها الفقهاء والمؤرخون المسلمون والمستشرقون فيما بعد واختلفوا في نسبتها للخليفة عمر بن الخطاب، فمنهم من اعتبرها حقيقة خص النصارى بها دون غيرهم، ومنهم من أنكرها لأنه ـ رحمه الله ـ كان من أشد الخلفاء رحمة بأهل الذمة وتسامحاً معهم، ولنا في أقواله ووصاياه خير ما يعزز رأينا ولأنه كما يقول المستشرق ترتون[1] : «في هذا العهد الذي عرف بـ (عهد عمر) لم تجر العادة أن يشترط المغلوبون الشروط التي يرتضونها ليوادعهم الغالب».

أضف إلى هذا أن العهد لم ينص فيه على اسم البلد مما يحملنا على الاعتقاد بوضع هذا العهد ويقول زيدان[2] فيه: «يتضح من نصوص هذا العهد

---

(١) انظر: سورة الممتحنة: آية ٨؛ سورة المائدة: آية ٤٤؛ سورة البقرة: آية ٢٥٦.

(٢) الطبري: **تاريخ** ج ٥ ص ٢٤، ١٢٢؛ ابن سعد: **الطبقات الكبرى** ج ٢ ص ١٢٧؛ الجاحظ: **البيان** ج ٢ ص ٤٦ ـ ٤٧.

(٣) انظر: ترتون: **أهل الذمة في الإسلام** ص ٤.

(٤) انظر: جرجي زيدان: **التمدن الإسلامي** ج ٤ ص ١٠٨ ـ ١٠٩.

عنصر الضغط والصفار للنصارى خلافاً لما جاء في سائر عهود الأمان أو كتب الصلح في صدر الإسلام»، ويقول صاحب المقالة في دائرة المعارف الإسلامية[1] : «أنه من المؤكد أن هذه الوثيقة وضعت في عصر متأخر عن أيام عمر بن الخطاب»، ويحتمل أنها وضعت في عهد عمر بن عبد العزيز، ونسبت للخليفة عمر بن الخطاب بطريق الخطأ في النقل أو لغرض إعطاء العهد صفة قدسية.

وحقيقة أخرى أبرزها البحث أن عقائد أهل الذمة لم تكن متكاملة ولا ثابتة الأسس منذ بدء انتشارها فقد ظهرت فيها إضافات، وحذف منها الكثير كما أن منها ضاع، واختفى كما هو الحال في توراة موسى، وانجيل عيسى، فقد حذف اليهود، وبدّلوا في التوراة الأصلية التي نزلت على موسى وأن فيها بعض النصوص ما يشك في صحة نسبتها إلى الوحي أو موسى لما فيها من التناقض والافتراءات على أنبياء بني اسرائيل، وكذلك الحال بالنسبة لانجيل المسيح، حيث أستعيض عنه بالأناجيل الأربعة التي كتبها الحواريون بعد رفع المسيح، مما دفعنا إلى مناقشة بعض نصوص الكتب المقدسة عند اليهود والنصارى لتبيان هذه الحقيقة، وما اختلاف الفرق اليهودية والنصرانية من حيث نظرتهم لعقيدتهم، وكتبهم المقدسة إلا دليل على ذلك.

وبالنسبة للعقيدة الصابئية فهي الأخرى مرت بمراحل تطور وتأثر بالأديان السائدة آنذاك، ورسخت عندما استقر الصابئة في العراق، وأن هذه العقائد لا تزال غير واضحة المعالم لحرص الصابئة على كتمانها.

وتأثرت العقائد المجوسية إلى حد كبير بالأديان المنتشرة في البلدان المجاورة، ولا سيما الهند والصين، كالبوذية والبرهمية، واقتبست الفرق الزرادشتية، والمانوية، والمزدكية العقائد المجوسية التي كانت سائدة في فارس والعراق، إلا أن المزدكية ربطت الدين بالحياة الاقتصادية والاجتماعية عن طريق

---

(١) انظر: دائرة المعارف الإسلامية ج ٣ ص ١٠٧؛ بارتولد: الحضارة الإسلامية ص ٥٥.

تطبيق تعاليم مزدك الاشتراكية التي كانت تشبه إلى حد كبير الشيوعية البدائية التي عاشها الإنسان الأول، وقد لاقت هذه المبادىء نجاحاً لما تبعها من نزعة الهوى والإباحية، واستفحل أمرها مما اضطر ملوك فارس بتأثير رجال الدين الزرادشتي إلى قتل مزدك واضطهاد أتباعه، وعند قيام الفتح الإسلامي للعراق وفارس لم يظفروا فيه بالحرية بالنسبة لبقية الأديان المجوسية بسبب نزعتهم الإباحية، وظلوا يمارسون نشاطهم الديني بكتمان حتى قيام الدعوة العباسية، فانخرطوا بين صفوفها، وبعد نجاح الدعوة وقيام الدولة العباسية أخذت تضطهدهم بشدة فكانوا نواة الحركات الدينية والسياسية المجوسية التي ظهرت في العصر العباسي.

وقد استهدفت من خلال دراستي لتاريخ أهل الذمة خلال هذه الفترة من ١٢ ــ ٢٤٧هـ تبيان العلاقة بين المسلمين وأهل الذمة، ولا سيما في المجالات السياسية والدينية، وما نجم عنها من أحداث خطيرة بقيام حركات سياسية كانت ترمي للقضاء على الدولة العربية، وهدم الإسلام الذي هو سر بقائها بقيام الحركات الدينية والاجتماعية ــ حركة الزندقة والشعوبية ــ التي عملت على تشويه الإسلام وعقائده، والدعوة إلى التحلل من قيوده باسم الحرية الفكرية. وقد وقفنا على طبيعة التنظيم الاجتماعي لأهل الذمة والذي يستند في كثير من مظاهره على الأسس الدينية والتقاليد الاجتماعية التي ورثوها خلال فترة طويلة من تاريخهم، وكان لها أثرها في المجتمع الإسلامي.

ولم يكن أثر أهل الذمة وتأثرهم في النواحي الدينية والاجتماعية وإنما تعدّاه إلى النواحي العقلية فقد كان أثرهم الحضاري بارزاً في ميادين العلم والأدب والفن، وكذلك في مجال الحياة الاقتصادية فكان لهم دورهم الفعال في ازدهار التجارة والصيرفة، وفي توسع الصناعة وتطور الحرف والمهن وظهور نظام الأصناف لأن العرب المسلمين لم يميلوا إليها لانشغالهم بالرياسة والإمارة والقيادة، فتركوا لأهل الذمة مجال العمل في هذه الميادين.

وبهذا استطعنا أن نلقي الضوء على النواحي السياسية والدينية

والاجتماعية والاقتصادية والعقلية لأهل الذمة في العراق لخلال تلك الفترة.

وأرجو أن أكون قد وفقت في إعداد هذه الرسالة لأنني وبعد هذا الجهد المضني وهذه الأعوام الطويلة لا أقول أنها كانت بحثاً مثالياً خالياً من كل نقص أو خطأ وإنما أتمثل بقول العماد الأصفهاني : «إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده لو غّير هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يستحسن، ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر»،

والله ولي التوفيق.

□ □ □

فهارس
المراجع العربية والأجنبية



١ ــ المخطوطات

ابن زير، أبي محمد عبد الله بن أحمد بن زير القاضي:

١ ــ (شروط النصارى) (الشروط العمرية على أهل الذمة). دار الكتب، المكتبة التيمورية برقم ٢٢٥٢/ تاريخ، ومصور بمعهد المخطوطات في الجامعة العربية، صورت نسخة كتب سنة ٨٥٩ هـ.

ابن المخلطة عزيز الدين بن محمد بن محمد بن محي بن المخلطة (٨٢٤ هـ ١٤٢١ م) وكان موجوداً سنة ٨٩٦ هـ:

٢ ــ (العزيزي المحلي) دار الكتب، المكتبة التيمورية برقم ٦٨٢ أدب.

ابن النقاش شمس الدين أبي إمامة محمد بن علي بن عبد الواحد المغربي النقاش المصري:

٣ ــ (المذمة في استعمال أهل الذمة) بدار الكتب المصرية برقم ١٦٩٣/ فقه شافعي ومصور بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية برقم ٤٦٥/ تاريخ.

ابن شيت مطران نصيبين إيليا المعروف بابن شيت:

٤ ــ (كتاب المجالس السبعة) وهو رسالة الوزير المغربي العباسي للمطران إيليا من مقتنيات الأستاذ سعيد الديوهجي ــ الموصل.

الخونكي، الشيخ محمد بن عمر من علماء القرن الحادي عشر:

٥ ــ (كناش) بدار الكتب المصرية، المكتبة التيمورية برقم ٥٤٤/ أدب.

الرازي، الشيخ أبي حاتم أحمد بن حمدان (ت ٣٢٢ هـ/ ٩٣٣ م):

٦ ــ (كتاب الزينة في الكلمات الإسلامية العربية) تحقيق الدكتور عبد الله سلوم السامرائي ١٩٧٠ م مكتبة كلية الآداب ــ عين شمس.

صبري، أيوب صبري عبد الله (ت ١٣٣٠ هـ):

٧ ــ (رسالة في الرد على النصارى). بدار الكتب المصرية، المكتبة التيمورية برقم ١٠٥/ عقائد.

مصطفى الحنفي، كامل بن حسين بن محمد بن مصطفى الغزي المنفي:

٨ ــ (جلاء الظلمة عن حقوق أهل الذمة) بدار الكتب المصرية، المكتبة التيمورية برقم

٣٢٤/عقائد ألف سنة ١٣١٥ باسم السلطان عبد الحميد.

المقدسي الحنبلي، الشيخ عبد الله محمد بن الشيخ مفلح المقدسي الحنبلي (ت ٧٦٣ هـ):

٩ ــ (الآداب الشرعية والمصالح المرعية). بدار الكتب المصرية، المكتبة التيمورية برقم ٢٢٢/ أخلاق.

مؤلف مجهول، مؤلف مجهول:

١٠ ــ (مرسوم بعض الملوك الصلاحية في إلزام أهل الذمة بالشروط العمرية). بمعهد المخطوطات في الجامعة العربية تاريخ النسخ ٧٥٥ هـ.

٢ ــ المصادر الأصيلة

١١ ــ القرآن الكريم
١٢ ــ التوراة
١٣ ــ الإنجيل
١٤ ــ المزامير

ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي (٦٦٨ هـ/ ١٢٧٠ م):
١٥ ــ (عيون الأنباء في طبقات الأطباء). بيروت ــ دار الفكر ــ ١٩٥٦ م.

ابن الأثير، أبي الحسن علي بن الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري الملقب بعز الدين (ت ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٢ م):
١٦ ــ (الكامل في التاريخ). المطبعة المنيرية ــ مصر ــ ١٣٤٩ هـ، طبع بيروت (دار صادر ــ ببيروت) ١٩٦٥ م.

ابن بطريق، البطريك أفتيشيوع المكنى بسعيد بن بطريق (ت ٣٢٨ هـ/ ٩٣٩ م):
١٧ ــ (التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق). مطبعة الآباء اليسوعيين ــ بيروت ١٩٠٩ م.

ابن جبير، أبي الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي (ت ٦١٤ هـ/ ١٢١٧ م):
١٨ ــ (رحلة ابن جبير) ٥٧٨ ــ ٥٨٠ هـ. نشر سنة ١٩١١ م.

ابن جلجل، أبي داود سليمان بن حسان الأندلسي المعروف بأبي جلجل (توفي بعد سنة ٣٨٤ هـ/ ٩٩٤ م):
١٩ ــ (طبقات الأطباء والحكماء). ألفه سنة (٣٧٧ هـ/ ٩٨٧ م). تحقيق فؤاد السيد. مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية القاهرة، ١٩٥٥ م.

ابن حزم، أبي محمد علي بن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦ هـ/ ١٠٦٣ م):
٢٠ ــ (الفصل في الملل والأهواء والنحل). طبع مكتبة المتنبي ببغداد والخانكي بمصر.

ابن حوقل، أبي القاسم محمد بن علي بن حوقل النصيبي (ت ٣٦٧ هـ/ ٩٧٧ م):
٢١ ــ (صورة الأرض). مطبعة نيبان، بيروت.

ابن خرداذبه، أبي القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت ٣٠٠ هـ/ ٩١٢ م):
٢٢ ـ (المسالك والممالك). طبع بمكتبة المتنبي ببغداد عن طبعة إبريل ١٨٨٩ م.

ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون المغربي (ت ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٥ م):
٢٣ ـ (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر). المطبعة الباسيلية، نشر دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٥٦ م.
٢٤ ـ (المقدمة) مطبعة مصطفى محمد، القاهرة.

ابن خلكان، شمس الدين أبي العباس أحمد (ت ٦٨١ هـ/ ١٢٨٢ م):
٢٥ ـ (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان). المطبعة الميمنية ـ القاهرة ـ ١٣١٠ هـ.

ابن رسته، ابن رسته (ت ٣٣٢ هـ/ ٩٤٣ م):
٢٦ ـ (الأعلاق النفيسة). ليدن، ١٨٩١ م.

ابن الساعي، أبي طالب علي بن أنجب تاج الدين الملقب بابن الساعي (ت ٦٧٤ هـ/ ١٢٧٥ م):
٢٧ ـ (الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير). تحقيق الدكتور مصطفى جواد. المطبعة السريانية الكاثوليكية، بغداد، ١٩٣٤ م.

ابن اسحق، عبد المسيح الكندي:
٢٨ ـ (رسالة). لندن، ١٨٨٥ م.

ابن الطقطقي، فخر الدين محمد بن علي بن طباطبا (ت ٧٠٩ هـ/ ١٣٠٩ م):
٢٩ ـ (الفخري في الآداب السلطانية). مطبعة محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة.

ابن عبد الحكم، أبي محمد عبد الله بن عبد الحكم (ت ٢١٤ هـ/ ٨٢٩ م):
٣٠ ـ (سيرة سيدنا عمر بن عبد العزيز). المطبعة الرحمانية ـ القاهرة ـ ١٩٢٧ م.

ابن العبري، غريغوريوس بن هارون بن توما الملطي المعروف بابن العبري (ت ٦٨٥ هـ/ ١٢٨٦ م):
٣١ ـ (تاريخ مختصر الدول). المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٥٨ م.
٣٢ ـ (تاريخ كنيسة المشرق). طبع لوتان ١٨٧٧ م.

ابن عساكر، أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (ت ٥٧١ هـ/ ١١٧٥ م):
٣٣ ـ (التاريخ الكبير). تحقيق عبد القادر بدران، مطبعة روضة الشام، ١٣٣١ هـ.

ابن قتيبة، أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدنيوري (ت ٢٧٦ هـ/ ٨٨٩ م):
٣٤ ـ (عيون الأخبار). مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ٢٥، ١٩٣٠ م.

ابن القفطي، جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف (ت ٦٤٦ هـ/ ١٢٤٨ م):
٣٥ ــ (تاريخ الحكماء) ويسمى (مختصر الزوزني) من كتاب (أخبار العلماء بأخبار الحكماء). طبع ليبزك، ١٣٢٠ هـ.

ابن كثير، أبي الفداء الحافظ إسماعيل بن عمر الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ/ ١٣٧٢ م):
٣٦ ــ (البداية والنهاية). طبع مكتبة المعارف ببيروت ومكتبة النصر الرياضي، ١٩٦٦ م.

ابن النديم، ابن النديم (ت ٣٨٣ هـ أو ٣٨٥ هـ/ ٩٩٣ أو ٩٩٥ م):
٣٧ ــ (الفهرست). سلسلة روائع التراث العربي. نشر مكتبة خياط، بيروت.

ابن الوردي، زين الدين عمر بن الوردي (ت ٧٥ هـ/ ٦٩٤ م):
٣٨ ــ (مختصر تاريخ الدول). القاهرة، ١٢٨٥ هـ.

الأصفهاني، الإمام أبي الفرج (ت ٣٥٦ هـ/ ٩٦٦ م):
٣٩ ــ (الأغاني). تصحيح أحمد الشنقيطي، مطبعة التقدم بمصر.

البغدادي، أبي منصور عبد القاهر بن طاهر (ت ٤٢٩ هـ/ ١٠٣٧ م):
٤٠ ــ (الفرق بين الفرق). طبع مؤسسة نشر الثقافة الإسلامية، مصر ١٩٤٨ م.

البغدادي، أبي بكر أحمد بن علي الخطيب (ت ٤٦٣ هـ/ ١٠٧٠ م):
٤١ ــ (تاريخ بغداد أو مدينة الإسلام). دار الكتاب العربي، بيروت.

البلاذري، أحمد بن يحي بن جابر (ت ٢٧٩ هـ/ ٨٩٢ م):
٤٢ ــ (فتوح البلدان). نشره ووضع ملاحقه وفهارسه صلاح الدين المنجد. مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة.

البيروني، أبي الريحان محمد بن أحمد الخوارزمي (ت ٤٤٠ هـ/ ١٠٤٨ م):
٤٣ ــ (الآثار الباقية عن القرون الخالية). لايبزك، ١٩٢٣ م.

التطيلي، بنيامين بن يونه التطيلي الأندلسي (ت ٥٦٩ هـ/ ١١٧٣ م):
٤٤ ــ (رحلة بنيامين). ترجمها عن الأصل العبري وعلّق حواشيها وكتب ملحقاتها عزراً حداد. المطبعة الشرقية ببغداد، ١٩٤٥ م.

الجاحظ، أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري (ت ٢٥٥ هـ/ ٨٦٨ م):
٤٥ ــ (التاج في أخلاق الملوك). تحقيق أحمد زكي. المطبعة الأميرية ــ القاهرة ــ ١٩١٤ م.
٤٦ ــ (البيان والتبيين). تحقيق عبد السلام هارون. نشر مكتبة المتنبي ببغداد والخانجي بمصر ١٩٦٠ م.
٤٧ ــ (الحيوان). مطبعة السعادة بمصر ١٩٠٧/٥ م.
٤٨ ــ (ثلاث رسائل) وتسمى (رسائل الجاحظ) باعتناء فنكل، القاهرة ١٣٤٤ هـ.

الجهشياري، محمد بن عبدوس (ت ٣٣١ هـ/ ٩٤٢ م):
٤٩ ــ (الوزراء والكتاب). البابي الحلبي بمصر، ١٩٣٨ م.

خليفة، مصطفى بن عبد الله الشهير بحاجي خليفة (ت ١٠٦٧ هـ/ ١٦٥٦ م):
٥٠ ــ (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون). طبع دار المعارف التركية، ١٩٤١ م.

الدميري، جمال الدين (ت ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٥ م):
٥١ ــ (حياة الحيوان الكبرى). القاهرة ١٩٥٤ م.

الدنيوري، أبي حنيفة أحمد بن داود (ت ٢٨٢ هـ/ ٨٩٥ م):
٥٢ ــ (الأخبار الطوال). دار إحياء الكتب العربية، البابي الحلبي ١٩٦٠ م.

الذهبي، الحافظ شمس الدين (ت ٧٤٨ هـ/ ١٣٤٧ م):
٥٣ ــ (العبر في خبر من غبر). طبع دار المطبوعات ــ الكويت ــ ١٩٦١ م.

الرازي، الإمام فخر الدين (ت ٦٠٦ هـ/ ١٢٠٩ م):
٥٤ ــ (اعتقادات فرق المسلمين والمشركين). راجعة على سامي النشار. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٨ م.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١ هـ/ ١٥٠٥ م):
٥٥ ــ (تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة). المطبعة الخيرية، مصر.

السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢ هـ/ ١٤٩٦ م):
٥٦ ــ (الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ). تحقيق أحمد تيمور. مطبعة الترقي، دمشق ١٣٤٩ هـ.

الشابشتي، أبي الحسن علي بن محمد (ت ٣٨٨ هـ/ ٩٩٨ م):
٥٧ ــ (الديارات). تحقيق كوركيس عواد. ط ٢، نشر مكتبة المتنبي ببغداد.

الشهرستاني، أبي الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد (ت ٥٤٨ هـ/ ١١٥٣ م):
٥٨ ــ (الملل والنحل). تحقيق محمد سيد كيلاني. نشر مصطفى البابي الحلبي، مصر ١٩٦١ م.

الصابيء، أبي الحسين هلال بن المحسن الصابيء (ت ٤٤٨ هـ/ ١٠٥٦ م):
٥٩ ــ (رسوم دار الخلافة). تحقيق ميخائيل عواد. مطبعة العاني، بغداد ١٩٦٤ م.
٦٠ ــ (تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء). مطبعة البابي الحلبي، مصر.

الصولي، أبي بكر محمد بن يحي (ت ٣٣٥ هـ/ ٩٤٦ م):
٦١ ــ (أدب الكتاب). تصحيح وتعليق محمد بهجة الأثري.

الطبري، أبي جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ/ ٩٢٢ م):
٦٢ ــ (تاريخ الرسل والملوك). تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم. طبع دار المعارف بمصر ١٩٦٣/٦٠ م، وطبعة الحسينية، القاهرة ١٣٢٦ هـ.

الطرطوشي، أبي بكر بن محمد بن الوليد الفهري (ت ٥٢٠ هـ/ ١١٢٥ م):
٦٣ ــ (سراج الملوك). مصر، ١٣١١ هـ.

العمري، ابن فضل الله (ت ٧٤٩ هـ/ ١٣٤٨ م):
٦٤ ــ (مسالك الأبصار في الممالك والأمصار). مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٢٤ م.

الغزالي، أبي حامد الطوسي (ت ٥٠٥ هـ/ ١١١١ م):
٦٥ ــ (فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة). تعليق مصطفى القباني الدمشقي. مطبعة الترقي، مصر (١٩٠١ ــ ١٩٠٧ م.

القزويني، زكريا محمد بن محمود (ت ٦٨٢ هـ/ ١٢٨٣ م):
٦٦ ــ (آثار البلاد وأخبار العباد). طبع دار صادر ببيروت للطباعة والنشر بيروت، ١٩٦٠م.

القلقشندي، أبي العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١ هـ/ ١٤١٨ م):
٦٧ ــ (صبح الأعشي في صناعة الإنشا). المطبعة الأميرية ــ القاهرة ــ ١٩١٣ م.

الكندي، أبي عمر محمد بن يوسف الكندي المصري (ت ٣٥٠ هـ/ ٩٦١ م):
٦٨ ــ (الولاة وكتّاب القضاة). تصحيح كست. مطبعة الآباء اليسوعيين ــ ببيروت ــ ١٩٠٨ م.

المسعودي، أبي الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦ هـ/ ٩٥٧ م):
٦٩ ــ (مروج الذهب ومعادن الجوهر). مطبعة دار الرجاء، القاهرة.
٧٠ ــ (التنبيه والاشراف). ليدن ــ مطبعة بريل ــ ١٩٦٧ م.

مسكويه، أبي علي أحمد بن محمد بن يعقوب (ت ٤٢١ هـ/ ١٠٣٠ م):
٧١ ــ (تجارب الأمم). طبع مكتبة المتنبي، بغداد.

المغربي، السموأل بن يحي بن عباس من أحبار اليهود قبل إسلامه:
٧٢ ــ (بذل المجهود في إفحام اليهود). مطبعة الفجالة، بمصر.

المقدسي، المطهر بن طاهر (ت ٣٨٧ هـ/ ٩٩٧ م):
٧٣ ــ (البدء والتاريخ). المنسوب تأليفه لأبي زيد أحمد بن سهل البلخي عني بنشره كلمان هوار. طبع باريس ١٩٠٣ م مطبعة المتنبي ببغداد.

المقدسي، شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء الشامي المعروف بالبشاري (ت ٣٧٥ هـ/ ٩٨٥ م):
٧٤ ــ (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم). ليدن، مطبعة بريل، ١٩٦٧ م.

المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد (ت ٨٤٥ هـ/ ١٤٤١ م):
٧٥ ــ (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار). طبع بولاق ــ القاهرة ــ ١٢٧٠ هـ.

مؤلف مجهول، مؤلف مجهول:
٧٦ ــ (العيون والحدائق في أخبار الحقائق). طبع مكتبة المتنبي ببغداد.

مؤلف مجهول، مؤلف مجهول:
٧٧ ــ (التاريخ السعودي). نشر المطران أدى شير. طبع باريس، ١٩٠٧ م.

اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب المعروف بابن واضح الاخباري (ت ٢٨٤ هـ/ ٨٩٧ م):
٧٨ ــ (تاريخ اليعقوبي). مطبعة الغرى ــ النجف ــ العراق.

٣ ـ مصادر الحديث والفقه والأحكام

ابن إدريس الحنبلي، منصور بن إدريس (ت ١٠٥١ هـ/ ١٦٤١ م):

٧٩ ـ (كشاف القناع عن متن الإقناع). المطبعة الشرقية بمصر ١٣١٩ هـ.

ابن آدم، يحي القرشي (ت ٢٠٣ هـ/ ٨١٨ م):

٨٠ ـ (الخراج). المطبعة السلفية ـ القاهرة ـ ١٣٤٧ هـ.

ابن حزم، أبي محمد علي الأندلسي الظاهري (ت ٤٥٦ هـ/ ١٠٦٣ م):

٨١ ـ (المحلي). المطبعة المنيرية ـ القاهرة ـ ١٣٥٠ هـ.

ابن حنبل، الإمام أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني الروزي. البغدادي (ت ٢٤١ هـ/ ٨٥٥ م):

٨٢ ـ (المسند). المطبعة اليمنية، بمصر ١٣١٣ هـ.

ابن الديبع، الإمام عبد الرحمن بن علي المعروف بابن الديبع الشيباني الزبيدي الشافعي (ت ٩٤٤ هـ/ ١٥٣٧ م):

٨٣ ـ (تيسير الوصول إلى جامع الأصول من حديث الرسول). المطبعة السلفية، بمصر ١٣٤٦ هـ.

ابن عابدين، محمد أمين الشهير بابن عابدين (ت ٢٥٢ هـ/ ٨٦٦ م):

٨٤ ـ (رد المحتار على الدر المختار) شرح (تنوير الأبصار). المطبعة العثمانية، ١٣٢٤ هـ.

ابن قدامة، أبي محمد عبد الله بن أحمد المقدسي (ت ٦٢٠ هـ/ ١٢٢٣ م):

٨٥ ـ (المغنى). ط ٣ طبع إدارة المختار، ١٣٦٧ هـ.

ابن قيّم الجوزية، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر (ت ٧٥١ هـ/ ١٣٥٠ م):

٨٦ ـ (أحكام أهل الذمة) مجلدان تحقيق صبحي الصالح مطبعة جامعة دمشق ١٩٦١ م.

٨٧ ـ (زاد المعاد في هدى خير العباد). المطبعة المصرية ١٣٤٧ هـ.

ابن ماجه، الإمام محمد بن يزيد أبو عبد الله بن ماجه القزويني (ت ٢٧٣ هـ/ ٨٨٦ م):

٨٨ ـ (سنن المصطفى). المطبعة التازية، مصر، ١٣٤٩ هـ.

أبو داود، سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني (ت ٢٧٥ هـ/ ٨٨٨ م):

٨٩ ـ (مختصر وشرح وتهذيب سنن أبي داود). للمنذري والخطابي وابن القيم الجوزية مطبعة السنة المحمدية، القاهرة ٦٨ ـ ١٣٦٩ هـ.

أبو عبيدة، الإمام القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ/ ٨٣٨ م):
٩٠ ـ (الأموال). نشر مكتبة الكليات الأزهرية تحقيق خليل هراس محمد.

أبو يعلي، محمد بن الحسن الفراء الحنبلي (ت ٤٥٨ هـ/ ١٠٦٦ م):
٩١ ـ (الأحكام السلطانية). القاهرة، ١٩٣٨ م.

أبو يوسف، القاضي يعقوب بن إبراهيم الأنصاري (ت ١٨٢ هـ/ ٧٩٨ م):
٩٢ ـ (الخراج). المطبعة السلفية، القاهرة، ط ٣، ١٣٨٢ هـ.

أنس، الإمام مالك بن أنس (ت ١٧٩ هـ/ ٧٩٥ م):
٩٣ ـ (المدونة الكبرى). برواية سحنون بن سعد التنوخي عن عبد الرحمن بن قاسم. مطبعة السعادة مصر ١٣٢٣ هـ.

الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى (ت ٧٢٩ هـ/ ١٣٢٨ م):
٩٤ ـ (سنن الترمذي). بشرح الإمام ابن العربي المالكي. المطبعة المصرية بالأزهر، القاهرة.

جماعة العلماء، جماعة من علماء الهند.
٩٥ ـ (الفتاوي العالمكيرية) المعروفة بـ(الفتاوي الهندية). المطبعة الأميرية، بولاق، مصر، ١٣١٠ هـ.

الحصكفي، الحصكفي (ت ١٠٨٨ هـ/ ١٦٧٧ م):
٩٦ ـ (الدر المختار شرح تنوير الأبصار). مطبوع علي هامش، رد المختار لأبي عابدين.

الخرشي، أبي عبد الله محمد (ت ١١٠١ هـ/ ١٦٨٩ م):
٩٧ ـ (شرح الخرشي). مطبعة بولاق، القاهرة ط ٢ ١٣١٧ هـ.

الزيلعي، فخر الدين عثمان بن علي الزيلعي الحنفي (ت ٧٤٢ هـ/ ١٣٤١ م):
٩٨ ـ (تبين الحقائق شرح كنز الدقائق). المطبعة الأميرية، بولاق، مصر ١٣١٥ هـ.

الرملي، شمس الدين بن شهاب الدين أحمد (ت ١٠٠٤ هـ/ ١٥٩٥ م):
٩٩ ـ (نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج). شرح على المنهاج للنووي. مطبعة بولاق، مصر.

السرخسي، أبي بكر محمد (ت ٤٩٠ هـ/ ١٠٩٦ م):
١٠٠ ـ (المبسوط). مطبعة السعادة مصر، ١٣٢٤ هـ.
١٠١ ـ (شرح السير الكبير). مطبعة دائرة المعارف النظامية. حيدر آباد، الهند، ١٣٣٥ هـ.

الشافعي، الإمام محمد بن إدريس (ت ٢٠٤ هـ/ ٨١٩ م):
١٠٢ ـ (الأم). برواية الربيع بن سليمان المرادي مطبعة بولاق، مصر ٢١، ١٣٢٥ هـ.

١٠٣ ــ (أحكام القرآن). جمعه أبوبكر أحمد بن الحسين البيهقي النيسابوري (ت ٤٥٨ هـ/ ١٠٦٥ م)، القاهرة، ١٩٥٢ م.

الشربيني، الشيخ حمد بن أحمد الخطيب (ت ٩٧٧ هـ/ ١٥٦٩ م):
١٠٤ ــ (مغنى المحتاج إلى معاني ألفاظ المنهاج). شرح على متن (المنهاج) للنووي وهو مطبوع على متن المنهاج.

الشعاريني، محمد الحنبلي:
١٠٥ ــ (غذاء الألباب لشرح منظومة الآداب). مطبعة النجاح، مصر، ١٣٢٤ هـ.

الطبري، أبي جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ/ ٩٢٢ م):
١٠٦ ــ (اختلاف الفقهاء). ليدن، ١٩٣٣ م.

العروسي، الشيخ السيد العروسي (ت ١٢٠٨ هـ/ ١٧٩٣ م):
١٠٧ ــ (محاضرة الأوائل).

القرطبي، أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري (ت ٧٦١ هـ/ ١٣٥٩ م):
١٠٨ ــ (الجامع لأحكام القرآن) مطبعة دار الكتب المصرية ج ٥، طبع ١٣٥٢ هـ.

الكاساني، علاء الدين أبي بكر بن مسعود الحنفي الملقب بملك العلماء (ت ٥٨٧ هـ/ ١١٩١ م):
١٠٩ ــ (بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع). المطبعة الجمالية بمصر ط ٢٧١، ١٣٢٨ هـ.

كاشف الغطاء، أحمد آل كاشف الغطاء:
١١٠ ــ (سفينة النجاة). المطبعة الحيدرية، النجف، العراق ١٣٣٨ هـ.

الماوردي، أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب المصري البغدادي (ت ٤٥٠ هـ/ ١٠٥٨ م):
١١١ ــ (الأحكام السلطانية والولايات الدينية). مطبعة البابي الحلبي مصر ط ٢، ١٩٦٦ م.

المرغيناني، برهان الدين علي بن أبي بكر (ت ٥٩٣ هـ/ ١١٩٦ م):
١١٢ ــ (الهداية شرح وبداية المبتدي). المطبعة الأميرية بولاق، ١٥، ١٣١٨ هـ.

مسلم، الإمام مسلم أبو الحسين بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت ٢٦١ هـ/ ٨٧٩ م):
١١٣ ــ (صحيح مسلم) شرح النووي. مطبوع على حاشية إرشاد لشرح صحيح البخاري. المطبعة اليمنية بمصر، ١٣٠٧ هـ.

٤ ـ المراجع العربية الحديثة

أبو زهرة، محمد شاهين حمزة:

١١٤ ـ (محاضرات في النصرانية). مطبعة يوسف، ط ٣، ١٩٦٦ م.

١١٥ ـ (أصول الفقه الإسلامي). المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.

اسحق، رفائيل بابو:

١١٦ ـ (تاريخ نصارى العراق). مطبعة المنصور، بغداد ١٩٤٨ م.

١١٧ ـ (مدارس العراق قبل الإسلام). بغداد، ١٩٥٥ م.

١١٨ ـ (أحوال نصارى بغداد في عهد الخلافة العباسية). مطبعة شفيق، بغداد، ١٩٦٠ م.

باقر، طه:

١١٩ ـ (مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة). ص ٢١، شركة التجارة، والطباعة المحدودة، بغداد ١٩٥٥ م.

الألوسي، محمود شكري البغدادي ت ١٢٧٠ هـ:

١٢٠ ـ (بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب). شرح وتصحيح محمد بهجت الأثري. المطبعة الرحمانية بمصر.

أمين، أحمد:

١٢١ ـ (فجر الإسلام). مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ط ٣ القاهرة ١٩٣٥ م.

١٢٢ ـ (ضحى الإسلام) ط ١٠، نشر دار الكتاب العربي، بيروت.

بدوي، عبد الرحمن حسن:

١٢٣ ـ (تاريخ الالحاد في الاسلام). نشر مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٤٥م.

برصوم، أغناطيوس أفرام الأول:

١٢٤ ـ (اللؤلؤ المنثور في تاريخ العلوم والآداب السريانية). طبع حمص، ١٩٤٣ م.

بولص، الراهب بولص أسقف صيدا:

١٢٥ ـ (الفرق النصرانية) مقالة نشرها لويس شيخو اليسوعي. المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت ١٩٠٤ م.

الجومرد، عبد الجبار:
١٢٦ ــ (هارون الرشيد). مطبعة دار الكتاب، بيروت، ١٩٥٦ م.

جوهري، طنطاوي:
١٢٧ ــ (براءة العباسة). مطبعة البابي الحلبي، مصر، ١٩٣٦ م.

حتيّ، فيليب:
١٢٨ ــ (الدولتان الأموية والعباسية). مطبعة التفيف، بغداد، ١٩٤٦ م.
١٢٩ ــ (تاريخ العرب) مطول ١٩٥٣ م.

حسن، حسن إبراهيم:
١٣٠ ــ (تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي). مطبعة مكتبة النهضة المصرية ط ٣، ١٩٥٣ م.

حسن، علي إبراهيم:
١٣١ ــ (التاريخ الإسلامي العام). القاهرة، ١٩٥٩ م.

الحسني، عبد الرزاق:
١٣٢ ــ (الصابئون في حاضرهم وماضيهم). مطبعة العرفان، صيدا، ١٩٥٥ م.
١٣٣ ــ (العراق قديماً وحديثاً). ط ٢، مطبعة العرفان، صيدا، ١٩٥٦ م.

الحيابي، محمد عزيز:
١٣٤ ــ (الشخصانية الإسلامية). نشر دار المعارف، مصر.

الحيدر أبادي، محمد حميد الله:
١٣٥ ــ (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة). مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. ط ٢، القاهرة، ١٩٥٨ م.

الخربوطلي، علي حسني:
١٣٦ ــ (تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي). دار المعارف، بمصر، ١٩٥٩ م.
١٣٧ ــ (الإسلام وأهل الذمة). مطابع شركة الإعلانات الشرقية ١٩٦٩ م.

الخشاب، يحيى:
١٣٨ ــ (التقاء الحضارتين العربية والفارسية). المطبعة العالمية، القاهرة، ١٩٦٩ م.

داود، الخوري يوسف السرياني:
١٣٩ ــ (مختصر المختصر في تواريخ الكنيسة). طبع بدار الآباء الدومنكيين، الموصل، العراق، ١٨٧٧ م.

الدوري، عبد العزيز:

١٤٠ ـ (تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري). مطبعة المعـارف، بغداد، ١٩٤٨ م.

١٤١ ـ (العصر العباسي الأول). مطبعة التفيف الأهلية، بغداد ١٩٤٢ م.

١٤٢ ـ (الجذور التاريخية للشعوبية). دار الطليعة، بيروت، ١٩٦٢ م.

١٤٣ ـ (مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي). دار الطليعة، بيروت، ١٩٦٩ م.

الرافعي، مصطفى:

١٤٤ ـ (الإسلام نظام إنساني). نشر مكتبة الحبال.

الراوي، ثابت إسماعيل:

١٤٥ ـ (العراق في العصر الأموي من الناحية السياسية والإدارية والاجتماعية). مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٦٥ م.

رحمة الله، مليحة:

١٤٦ ـ (الحالة الاجتماعية في العراق في القرنين الثالث والرابع بعد الهجرة). مطبعة الزهراء، بغداد ١٩٧٠ م.

رفاعي، أحمد فريد:

١٤٧ ـ (عصر المأمون). مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٢٨ م.

الريس، محمد ضياء الدين:

١٤٨ ـ (الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية). دار المعارف بمصر ط٣، ١٩٦٩ م.

زيدان، عبد الكريم:

١٤٩ ـ (أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام). مطبعة البرهان، بغداد، ١٩٦٣ م.

زيدان، جرجي:

١٥٠ ـ (تاريخ التمدن الإسلامي). مراجعة وتعليق حسـين مؤنس، طبع دار الهـلال، القاهرة.

سالم، إبراهيم علي:

١٥١ ـ (النفاق والمنافقون). مطبوعات دار الشعب ١٩٧٠ م.

السامرائي، عبد الله سلوم:

١٥٢ ـ (الفرق الغالية في الدولة العباسية). في القرن الثالث الهجري حتى الآن الخامس رسالة دكتوراه غير مطبوعة (بمكتبة كلية الآداب، جامعة عين شمس) القاهرة، ١٩٧١ م.

سرور، محمد جمال الدين:
١٥٣ ــ (الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية خلال القرنين الأول والثاني بعد الهجرة). نشر دار الفكر العربي ط ٣، ١٩٦٦ م.

شابو، شابو:
١٥٤ ــ (اللغات الآرامية وأدابها). طبع القدس، ١٩٣٠ م.

شيخو، الأب لويس اليسوعي:
١٥٥ ــ (النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية). طبع بيروت، ١٩١٩ م.
١٥٦ ــ (شعراء النصرانية بعد الإسلام). المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٢٤ م.

شير، المطران أدي شير:
١٥٧ ــ (شهداء المشرق). طبع الموصل، ١٩٠٠ م.
١٥٨ ــ (تاريخ كلدو وأثور). طبع بيروت.

شلبي، أحمد:
١٥٩ ــ (المجتمع الإسلامي أسس تكوينه أسباب تدهوره). دار الطباعة الحديثة بمصر ط ٢، ١٩٦٣ م.
١٦٠ ــ (مقارنة الأديان، اليهودية). نشر مكتبة النهضة العربية، ط ٢، القاهرة، ١٩٦٧ م.

الصائغ، القس سليمان الموصلي:
١٦١ ــ (تاريخ الموصل). المطبعة السلفية، مصر، ١٩٢٣ م.

الصالح، صبحي:
١٦٢ ــ (النظم الإسلامية نشأتها وتطورها). دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٥ م.

عبد الغني، محمد:
١٦٣ ــ (صراع العرب خلال العصور). طبع مؤسسة المطبوعات الحديثة، مصر.

العدوي، إبراهيم أحمد:
١٦٤ ــ (المجتمع العربي ومناهضة الشعوبية). طبع ونشر مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦١ م.
١٦٥ ــ (حركات التسلل ضد القومية العربية). منشورات وزارة الثقافة والإرشاد، مصر، ١٩٦١ م.

العقّاد، عباس محمود:
١٦٦ ــ (أبو الأنبياء الخليل إبراهيم). سلسلة كتاب اليوم. مطابع دار أخبار اليوم، ١٩٥٣ م.

علي، جواد علي:
١٦٧ ــ (تاريخ العرب قبل الإسلام). شركة الرابطة للطبع والنشر، بغداد، ١٩٥٣ م.

علي، محمد كرد:
١٦٨ ـ (الإسلام والحضارة العربية). مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط ٢، ١٩٥٠ م.

العلي، صالح أحمد:
١٦٩ ـ (التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري). دار الطليعة، بيروت، ط ٢، ١٩٦٩ م.

الغزالي، محمد:
١٧٠ ـ (نظرات في القرآن). مطبعة السعادة، مصر، ١٩٦٣ م.

غنيمة، يوسف رزق الله:
١٧١ ـ (نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق). مطبعة الفرات، بغداد، ١٩٢٤ م.

فرج، مراد:
١٧٢ ـ (اليهودية). مطبعة التوفيق، مصر ١٩٢٠ م.

الفياض، عبد الله:
١٧٣ ـ (تاريخ البرامكة). مطبعة الرشيد، بغداد، ١٩٤٨ م.

قطب، سيد قطب:
١٧٤ ـ (مشاهد القيامة في القرآن). دار المعارف، بمصر، ١٩٦٦ م.

كاشف، سيده إسماعيل:
١٧٥ ـ (الوليد بن عبد الملك). سلسلة أعلام العرب العدد (١٧) ١٩٦٢ م. نشر المؤسسة المصرية للطباعة والنشر.

الليثي، سميرة مختار:
١٧٦ ـ (الزندقة والشعوبية وانتصار الإسلام والعروبة عليهما). طبع ونشر مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٨ م.

ماجد، عبد المنعم:
١٧٧ ـ (التاريخ السياسي للدولة العربية). طبع ونشر مكتبة الأنجلو المصرية، ط ٢، ١٩٦٠ م.
١٧٨ ـ (تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى). مطبعة مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٣ م.

محمود، حسن أحمد:
١٧٩ ـ (الإسلام والحضارة العربية في آسيا الوسطى بين الفتحين العربي والتركي). نشر دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٧ م.

المدور، جميل نخلة:

١٨٠ ــ (حضارة الإسلام في دار السلام). مطبعة الاعتماد، مصر، ١٩٣٢ م.

مظهر، إسماعيل:

١٨١ ــ (تاريخ الفكر العربي). نشر مجلة العصور لنشر المعرفة والآداب، القاهرة، ١٩٢٨ م.

نافع، محمد مبروك:

١٨٢ ــ (عصر ما قبل الإسلام، «تاريخ العرب»). القاهرة، ط ٢، ١٩٥٢ م.

النجّار، عبد الوهاب:

١٨٣ ــ (قصص الأنبياء). ط ٤، مطبعة مصر، ١٣٧٥ هـ.

نصري، القس بطرس:

١٨٤ ــ (ذخيرة الأذهان في تواريخ المشارقة والمغاربة السريان). الموصل، ٥، ١٩١٣ م.

يعقوب، أغناطيوس البطريك:

١٨٥ ــ (تاريخ كرسي بطارقة المشرق). دمشق، ١٩٦٩ م.

اليوزبكي، توفيق سلطان:

١٨٦ ــ (الوزارة نشأتها وتطورها في الدولة العباسية). مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٧٠ م.

٥ ــ المراجع الأجنبية المترجمة

أرنولد، توماس:

١٨٧ ــ (الدعوة إلى الإسلام). ترجمة حسن إبراهيم حسن ورفاقه. مطبعة مكتبة النهضة، القاهرة، ١٩٤٧ م.

أويغور، ضياء الكاتب التركي:

١٨٨ ــ (جذور الصهيونية). ترجمة إبراهيم الداقوقي. طبع وزارة الثقافة والإرشاد، بغداد ١٩٦٦ م.

بارتولد، ق :

١٨٩ ــ (تاريخ الحضارة الإسلامية). ترجمة حمزة طاهر. ط ٣، طبع دار المعارف بمصر.

بخش، خودا:

١٩٠ ــ (الحضارة الإسلامية). ترجمة وتعليق على الخربوطلي نشر دار الكتب الحديثة، القاهرة.

ترتون، أ.س.

١٩١ ــ (أهل الذمة في الإسلام). ترجمة حسن حبشي. مطبعة دار المعارف بمصر ١٩٦٧ م.

جلوب، جون:

١٩٢ ــ (امبراطورية العرب). تعريب وتعليق خيري حمّاد. دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٦ م.

جولد تسيهر، أجناس:

١٩٣ ــ (العقيدة والشريعة في الإسلام). ترجمة علي حسن عبد القادر ورفاقه. مطابع دار الكتاب العربي بمصر، ط ٢.

دراوور، الليدي:

١٩٤ ــ (الصابئة المندائيون). ترجمة نعيم بدوي وغضبان رومي. مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٦٩ م.

دوزي، ر، ب، أ:

١٩٥ ــ (نظرات في الإسلام). ترجمة كامل كيلاني. مطبعة الحلبي، ١٩٣٣ م.

ديموبين، موريس غود فروا:
١٩٦ ـ (النظم الإسلامية). ترجمة صالح الشمّاع ورفيقه. مطبعة الزهراء، بغداد، ١٩٥٢ م.

ديورانت، ول:
١٩٧ ـ (قصة الحضارة). ترجمة محمد بدران. طبع الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية.

ريسلر، جاك. س:
١٩٨ ـ (الحضارة العربية). ترجمة غنيم عبدون. طبع الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٦ م.

سيديو، ل، أ:
١٩٩ ـ (تاريخ العرب العام). ترجمة عادل زعيتر. نشر البابي الحلبي، مصر، ١٩٤٨ م.

الشبلي، الشيخ نعمان:
٢٠٠ ـ (حكومة عمر). ترجمة عن اللغة التركية العميد الركن طه الهاشمي ونشره الدكتور سهيل الهاشمي مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٦ م.

طرازي، الفيكنت فيليب دي طرازي:
٢٠١ ـ (عصر السريان الذهبي). مطبعة فرعون، بيروت، ١٩٤٦ م.

علي، سيد أمير:
٢٠٢ ـ (مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي). ترجمة رياض رأفت. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة، ١٩٣٨ م.

فارمر، هنري جورج:
٢٠٣ ـ (تاريخ الموسيقى العربية). ترجمة حسين نصار. نشر مكتبة مصر، القاهرة.

فلوتن، فان:
٢٠٤ ـ (السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بني أمية). ترجمة حسن إبراهيم حسن ورفيقه، مطبعة السعادة مصر، ١٩٣٤ م.

كريستنسن، آرثر:
٢٠٥ ـ (إيران في عهد الساسانيين). ترجمة يحي الخشاب. مطبعة لجنة التأليف والترجمة القاهرة ١٩٥٧ م.

لومون، الومون الفرنسي:
٢٠٦ ـ (مختصر تواريخ الكنيسة). تعريف المطران إقليميس يوسف داود طبع الموصل، ١٨٧٣ م.

لوبون، غوستاف:
٢٠٧ ــ (اليهود في تاريخ الحضارات الأولى). ترجمة عادل زعيتر. مطبعة حجازي، القاهرة، ١٩٥٠م.
٢٠٨ ــ (حضارة العرب). ترجمة عادل زعيتر. طبع دار إحياء الكتب العربية ط ٣. القاهرة، ١٩٥٦م.

متز، آدم:
٢٠٩ ــ (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري). أو (عصر النهضة في الإسلام). ترجمة محمد عبد الهادي أبوريده. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ط ٢، القاهرة، ١٠٤٧م.

ولهاوزن، يوليوس:
٢١٠ ــ (الدولة العربية وسقوطها). ترجمة يوسف العش. مطبعة الجامعة السورية، دمشق، ١٩٥٦م.

٦ ـ المعاجم والمجلات

٢١١ ـ دائرة معارف البستاني، بطرس البستاني. م ١، ٤ مطبعة المعارف، بيروت، ١٨٨٠ م.
٢١٢ ـ الأعلام قاموس تراجم، خيرالدين الزركلي، ط ٢.
٢١٣ ـ القاموس المحيط، مجد الدين الفيروزا أبادي، ١٣٥٧ هـ.
٢١٤ ـ لسان العرب، ابن منظور (ت ٧١١ هـ/ ١٣١١ م). باعتناء مرجليوث.
٢١٥ ـ المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد المغربي الرافعي (ت ٧٧٠ هـ/ ١٣٦٨ م). المطبعة الأميرية، القاهرة، ط ٧، ١٩٢٨ م.
٢١٦ ـ معجم البلدان، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٨ م). مطبعة السعادة، مصر.
٢١٧ ـ معجم الأدباء، ياقوت الحموي، مطبوعات دار المأمون.
٢١٨ ـ معجم ما استعجم، أبي عبيد الله بن مصعب البكري (ت ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤ م). مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٦ م.
٢١٩ ـ المنجد، لويس معلوف اليسوعي. المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ط ٩، ١٩٣٧ م.
٢٢٠ ـ الموسوعة العربية الميسرة، محمد شفيق غربال. القاهرة، ١٩٦٠ م.
٢٢١ ـ حولية كلية البنات (المجوسية والمجوس)، علي الخربوطلي. العدد الرابع، يوليه، ١٩٦٤ م.
٢٢٢ ـ مجلة البيان، القاهرة، ١٨٩٧ م.
٢٢٣ ـ المجلة التاريخية المصرية، مقالات مليحة رحمة الله. المجلد ١٣، ١٥ لسنة ٦٧، ١٩٦٩ م.
٢٢٤ ـ مجلة المجمع العلمي العراقي، (خالد بن الوليد في العراق)، مقالة العميد طه الهاشمي. م ٣، ج ٢، ١٩٥٠ م.
٢٢٥ ـ مجلة المجمع العلمي العراقي (علم ابن النديم باليهودية والنصرانية)، مقالة جواد علي. المجلد ٨، ١٠ لسنة ٦١، ١٩٦٢ م.
٢٢٦ ـ مجلة الجنان، مقالة سليم البستاني. طبع بيروت. العدد ٢.
٢٢٧ ـ مجلة الخرطوم، مقالة (التلمود) العدد ١١ لسنة ١٩٦٧ م، السودان.
٢٢٨ ـ مجلة العربي (بحث في الصابئة)، مقالة عبد الرزاق الحسني. العدد ١١٢ لسنة

١٩٦٨م، مقالة محمد علي ربيع. (المسيح بين التوراة والإنجيل) العدد ١٢٤ لسنة ١٩٦٩.
٢٢٩ ــ مجلة المقتطف (تاريخ الأدب السرياني من نشأته إلى الفتح الإسلامي)، مقالة مراد كامل. ج٢٣ لسنة ١٩٤٩م.
٢٣٠ ــ مجلة المشرق (الديارات النصرانية في الإسلام)، مقالة حبيب زيات. العدد ٣٦ لسنة ١٩٣٨م.

٧ – المراجع الأجنبية

231 Antoine Fattal:
Le statut legal. Des Non Musulmans, EN pays D'Islem. Beyrouth. 1958.

232 Browen:
History of Persia Literature, London. 1909.

233 De Lafont:
Le Mazdeisme: L'Avesta. Paris. 1897.

234 The Encyclopedia of Islam. Vol. l. London, 1960.

235 The Encyclopedia Bretanica. Part 2. London. 1768.

236 El, Cahen:
The Encyclopedia of Islam (New Edition) (Dhimma). part 2. Leden, London. 1965.

237 Muir William Temple:
The caliphate its Rise Decline and Fall. Edemburgh, 1924.

238 Nicholson, A Raynold:
Literary History of The Arabs. London 1923.

239 Oleary, Delacy:
How Greek Science Passed to the Arabs. London. 1948.

240 Oleary Delacy:
Arabia Before Musulemmed, London. 1927.

241 S. D. Goitein:
Jews and Arabs. New York. 1955.

242 Shedd William Ambrose:

Islam and Oriental Churches. Philadelphia, 1904.

243 Thomas Bishop Merga:
The Book Governors. vol. II. London. 1893.

244 The Jewish Encyclopedia:
Printed in U. S. A. 1951.

245 Vergllius Ferm:
An Encyclopedia of Religion. New York.

246 Watt Mantgamery:
Islam and the Integration of Society. London. 1966.

للمؤلف كتب

١ ــ دراسات في الوطن العربي (الحركات الثورية والسياسية). بالاشتراك ط ١، ١٩٧٢، ط٢، ١٩٧٤، ط٣ ١٩٧٥، ط٤ ١٩٧٧. مطبعة جامعة الموصل ــ العراق.

٢ ــ تاريخ تجارة مصر البحرية في العصر المماليكي. مطبعة جامعة الموصل، ١٩٧٥.

٣ ــ الوزارة نشأتها وتطورها في الدولة العباسية. ط٢ ١٩٧٦، مطبعة جامعة الموصل.

٤ ــ دراسات في النظم العربية الاسلامية. ط٢ ١٩٧٧ مطبعة جامعة الموصل.